التصوف

من الإيمان إلى الإحسان

قد أفلح من تزكى

عثمان نوري طوباش

دار الأرقم



إستانبول: ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

إستانبول: ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م
اسم الكتاب باللغة التركية: İmândan İhsâna Tasavvuf
الترجمة للعربية: التصوف من الإيمان إلى الإحسان
ترجمة: د.محمد حرب / محمد عز الدين سيف
مراجعة وتصحيح: د. مراد كايا / أحمد حمدي
تصميم وتنضيد: حسام يوسف
ISBN: ٩٧٨٩٩٤٤٨٣٥٨٩٣
Language : Arabic

طباعة وتغليف: مطبعة دار الأرقم

العنوان:



Address: Ikitelli Organize Sanayi Bölgesi Mahallesi
Atatürk Bulvarı Haseyad 1. Kısım No: 60/3-C
Başakşehir - İstanbul / TURKEY
Phone : +90 212 671 07 00 (Pbx)
Fax : +90 212 671 07 48
E-mail : info@islamicpublishing.net
Web site : http://www.islamicpublishing.net

التصوف

من الإيمان إلى الإحسان

عثمان نوري طوبَّاش





لا ريب أن وراء القَسَم الإلهي في الآيات السابقة أمر عظيم؛ خطير الشأن، فلا شك أن المخلوقات التي أقسم الحق بها أو أقسم عليها ذات أهمية خاصة، وثمة أمر آخر لافت للنظر في الآيات السابقة، فالقسم جاء في سبع آيات متتاليات، ثم استخدمت أداة التوكيد «قد» لتعقبه الحقيقة القرآنية التي قدرها الحق – سبحانه وتعالى– في آيتين:

﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا**﴾ (الشمس، ٩– ١٠).

والذي يسترعي النظر ويلفت الانتباه، أنه لم يأت في القرآن الكريم موضوع أقسم الله تعالى به سبع مرات متتاليات إلا موضوع: تزكية النفس.

ولعل في ذلك دلالة شديدة الوضوح على خطورة الأمر وعظم أهميته، فهو طريق نجاة الإنسان يوم الفزع الأكبر.

وسنحاول في الصفحات الآتية أن نساهم في تجلية هذا الموضوع، وبيان حقيقته من خلال إمدادات ونفحات أولياء الله تعالى، وروعة بيانهم وجمال أحوالهم وسلوكهم، ونقدمه في كتابنا هذا الموسوم:

«**التصوف من الإيمان إلى الإحسان**».



مُقَدِّمَة

الحمد لله البارئ الذي نفخ في الإنسان من روحه، والشكر لله الرازق الذي منح عباده نعمة التفكر والتأمل، والصلاة والسلام دائمًا وأبدًا على سيد الخلق محمد ﷺ؛ القدوة الحسنة، خير خلق الله عبادة وخلقًا، وأكملهم تفكرًا وتأملاً، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فالتصوف في حقيقته هو قلب الإسلام وجوهره وبُعده الروحي؛ إذ إن هدف الإسلام ورسالته الرقي بروح الإنسان وفطرته إلى أسمى الدرجات وأرفع المنازل، وتفجير ينابيع المحبة والوجد المكنونة في فؤاده؛ عبر الفيض الروحاني الذي ترفده السماء بمدد رباني، لاسيما عندما يعيش أهل العزائم والمجَاهَدات هذه المعاني شاخصة حية في الأخلاق والسلوك.

مما يعني أن التصوف هو المحضن التربوي الأمثل، والفرع الأسمى الذي يُنبِت الثمرة في شجرة العلم الوارفة، وحديقة الإسلام الغنَّاء.

وقد توالت الكتابات النفيسة طوال الطريق في عمر التصوف، مرشدة أهله، مخاطبة إياهم على مستويات ثلاثة:

- أرباب التفكر العميق الذين ارتقوا مراتب عالية (الخواص).
- ذوي التفكير المتوسط.
- طبقة العامة الواسعة (العوام).





ويمكن في هذا السياق أن نذكر كتابي «فصوص الحكم» لابن عربي (المتوفى سنة ١٢٤٠) و«الإنسان الكامل» لعبد الكريم الجيلاني (المتوفى سنة ١٤٠٣) اللذين يخاطبان أرباب التفكر العميق والواسع، أما الكتب الأخرى مثل كتاب «المثنوي» لجلال الدين الرومي (المتوفى سنة ١٢٧٣) فهي موجهة أحيانًا للعقول المتفكرة، وأحيانًا أخرى لذوي الفكر المتوسط، والغاية من هذا النوع من الكتب إدراك الحقيقة ومعرفة الله تعالى من خلال فوزهم بالإلهام والفتوحات الربانية، إضافة لما لديهم من علوم ظاهرية.

وثمة أعمال أخرى مثل «أنوار العاشقين» لأحمد بيجان (عاش في القرن الخامس عشر)، و«المحمدية» ليازجي أوغلو محمد (المتوفى سنة ١٥٤١) و«نفحات الأنس» لعبد الرحمن الجامي (المتوفى سنة ١٤٩٢)، وهذا النوع من الكتب يخاطب العوام، ويهدف إلى إيصال المسلمين الذين استطاعوا إدراك الحقائق الشرعية إلى أعلى مستوى ممكن في الشعور والإدراك والسلوك.

إن تنوع المؤلفات حول موضوع التصوف يهدف إلى تمكين الخواص والعوام في المجتمع من فهم الإسلام، وإدراك حقيقته وتطبيق تعاليمه ومفاهيمه الواسعة إلى أقصى درجة، كلٌ حسب إدراكه وقدرته، وهكذا يصير الشخص –حسب تعبير السلف الصالح– «ذا جناحين».

ويخاطب التصوف – عبر أساليبه كلها – جميع فئات المجتمع، ويقف حاجزًا منيعًا أمام الكسل والخمول في أوقات الرخاء الاقتصادي والترف الاجتماعي؛ ليُحافظ على ما تبقى لديهم من النشاط والحمية، كما أنه استطاع خلال الأوقات العصيبة المليئة بالاحتلال والظلم أن يوجِد متنفسًا روحانيًا يتسامى بالأفئدة فوق حطام الدنيا وظلامها الكئيب، ويُقدِّم بلسمًا للأفئدة الجريحة، وهدياً للعقول الحائرة، وكوثراً للأرواح القاحلة، فالتصوف يعلِّم الأشخاص الذين ارتقوا إلى أوج الأخلاق





الحميدة والعبادة التواضعَ والمحو[1]، ويبعدهم عن الغرور والكِبر والإعجاب بالنفس، ويقدم من ناحية أخرى طوق النجاة للعبيد الغارقين في مستنقع الذنوب، وهذا الطوق يتمثل في العفو الواسع والسماحة والرحمة.

فبعد الاجتياح المغولي للأناضول عمت فيها الفوضى، وانتشر الاضطراب والمعاناة، وبرزت في تلك الفترة التيارات الصوفية المؤثرة، وبرزت معها الكثير من الشخصيات الصوفية الكبيرة، فكانت ملجأ لتهدئة ومواساة الناس هناك، وهذا ما تُحدثنا عنه كثير من وقائع التاريخ.

واليوم تنجرُّ البشرية كلها إلى دوامة كبرى من المعاناة، وخضم هائل من الاضطراب، ولا يمكن أبدًا إنكار الحاجة إلى روحانية التصوف وتجاربه التي تشفي الأفئدة وتنقذها من تيه الدنيا، فإخواننا الذين نجوا من براثن الإلحاد هم مثل «الطيور الجريحة» يحتاجون إلى علاج معنوي فعال، وحالة أرواحهم وأفئدتهم في هذا السياق مثل حالة الظمآن الذي يحتاج إلى شربة تروي ظمأ روحه. وثمة كثيرون من الذين عانوا جفاف المادية في الشرق والغرب، ثم فهموا هذا الدين من خلال أهل التصوف، وأدركوا معانيه وأحبوه عبر جاذبية هؤلاء المتصوفة وجمالهم الروحاني، وانتهى بهم المطاف إلى اعتناق هذا الدين العظيم.

وبعد كل هذه الأسباب المذكورة، والوقائع الشاخصة للمأساة التي تحياها الإنسانية، تبرز لنا في الأفق الأسمى حقيقة التصوف، وسموه المترفع عن دنس الدنيا، وارتقاؤه بأهل الإيمان من وهدة الطين إلى أعلى عليين؛ إنها نعمة الإيمان الناضج بعدما أمدتها الفيوضات الإلهية، فزادتها حلاوة ورسوخًا في القلوب. وهنا تبرز حقيقة التصوف وأهميته، فهو طوق النجاة من أمواج الحياة المتلاطمة، وهو المعراج الذي يرتقي بالعبد إلى درجات الكمال وسماء الجمال، وهو لغير المسلمين نبراس الهداية في عالم الحيرة، والذي يمهد لهم الطريق إلى الإسلام بمعناه الحقيقي.

---

١ المحو : رفع أوصاف العادة، أي نفي العبد الخصال الذميمة عن أحواله.





فالتصوف في حقيقته هو المرآة القلبية التي تعكس النموذج الأمثل للتطبيق العملي للإسلام عبر إظهاره حيًا نابضًا في مرآة حياة النبي ﷺ، ويستمر هذا الانعكاس وتلك الصورة الحية دائمة دوام العصور، حية حياة الأجيال، نافخة فيهم الروح حتى النفخ في الصور.

ولعل في ذلك دليلًا قويًا ودامغًا على أن كبار أرباب التصوف لم يحيدوا قيد أنملة عن اتباع سنة النبي ﷺ بكل رسوخ ودقة.

وما دام التصوف يحافظ -بكل هذا الرسوخ والدقة- على اتباع سنة المصطفى ﷺ، فهو يحافظ -بكل تأكيد- على وجود التنزلات السماوية واستمراريتها، وعلى الفيوضات الربانية كغيث من السماء يروي المحبة في الأفئدة على مدى الأزمان؛ محبة الله ﷻ ورسوله ﷺ.

وهذا هو السر الأكبر في وجود الإسلام واستمراره، وامتداد تأثيره القوي؛ رغم ضعف حال المسلمين وتأخرهم المادي.

لذا؛ نجد أعداء الإسلام – ظاهرًا وباطنًا – يسعون بكل عزم إلى قطع الاتصال بين السماء والأرض، وفصل الروح عن الجسد من خلال توجيه سهامهم إلى التصوف، ورميه بشبهات تشوه صورته، وتُظهره مختلفًا عن الإسلام، ولكم يؤسفنا وجود أشخاص لا يدركون المؤامرة وأسرارها، ولا يدركون حقيقة التصوف وأركانه، فتراهم ينخدعون وراء زيف هذه الشبهات.

فكان لزامًا علينا تدارك خديعة هؤلاء، وانخداع أولئك؛ بإظهار معاني التصوف وجوهره الحقيقي، وتصحيح المفاهيم الخاطئة حوله، وهي محاولة مبدئية، وخطوة أولية، في توصيل النور إلى الأبصار، وكشف الغمام عن البصائر لتدرك المعاني، ومن ثم تعيشها وتستمتع بها.

ولعل كتابنا هذا خطوة أولية في هذا الطريق، وصفحة واحدة ضمن كتابات ثرية عن عالم التصوف.





وثمة لمحة مهمة نريد أن نقدمها إلى قارئنا الكريم، فقد يبدو لأول وهلة أن هذا الكتاب من تأليف كاتبه، لكنه حقيقة هو من تأليف أولياء الله ﷻ، أي إن جميع الفيوضات والفضائل في هذا الكتاب هي فتوحات وإلهامات من العالم العلوي لأهل الله تعالى، وتقتصر وظيفتنا على تبليغ ما وصلنا من هذه الفيوضات مرتبة بحسب الحاجات والظروف، وكما استفدنا من الأعمال والمؤلفات السابقة أثناء إعدادنا لهذا الكتاب، فإننا وجدنا أصدقاء كثرين كانوا لنا مثل «الكتاب الحي»، ونريد أن نذكر دورهم بكل شكر وافتخار.

وأخيرًا، نرى أنه من الواجب، الذي يمليه علينا ديننا، أن ندعو بكل محبة وإخلاص لكل من ذكر في هذا الكتاب من أهل الله ﷻ، ولأحبابنا الأكاديميين ذوي الفضل.

إلهي، على قلة علمنا ونقص إدراكنا، فإننا أردنا أن نجلِّي حقيقة التصوف وعالمه الواسع بهذه الأفكار، فبارك لنا يا رب فيها، واجعلها نبعًا دائمًا للفيوضات يستقي منه قراؤنا المحترمون.

إلهي، هب لنا ولإخواننا القراء بهذا العمل المتواضع فيضاً من نعمك التي لا تعد ولا تحصى، واجعل هذه النعم تليق بعظمتك وقدرتك يا أرحم الراحمين..

آمين..

عثمان نوري طوبَّاش

أُسكدار- إسطنبول

محرم ١٤٣٥هـ/ نوفمبر ٢٠١٣م



الفصل الأول

ماهية التصوف





قال رسول الله ﷺ: «**قُل آمنت بالله ثم استقم**» (مسلم، الإيمان، ٦٢)



ماهية التصوف

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب، ٢١)




أ. أصل التصوف:

لقد أفاض الله تعالى على الناس نعمًا لن يحصوها، ومن أسمى هذه النعم مدده الإلهي لجسد الإنسان وروحه، حيث نفخ فيهم من روحه، بقوله تعالى:

﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ (الحجر، ٢٩)

وبهذا خص الله تعالى البشرية بأثمن جوهرة نزلت من السماء، ووهبهم أنبل المعاني، وأرفع القِيَم، والمقابل البسيط الذي أراده منهم -وفاءًا لهذا العطاء- أن يكونوا عبادًا محبين لذاته، مخلصين لوحدانيته؛ فيواصلون أخذ نصيبهم من معرفته، والنهل من نبع محبته، والوصال مع حضرته.

ومن المنح الإلهية لبني الإنسان أن كرَّمهم بمجموعة من الصفات الراقية التي تسمو بهم إلى طريق الهداية. ليس هذا فحسب، بل أمدهم مِن نبع فضله باختيار خاصة الخاصة من بينهم، وهم الأنبياء، وأنزل عليهم الوحي؛ ليكون البلاغ مهمتهم، وحين ينقضي زمن النبوة والأنبياء، يأتي دور ورثة الأنبياء، وهم العباد الصالحون الذين لا يخلو منهم زمان[٢].

٢ انظر : البخاري، العلم، ١٠؛ أبو داود، العلم، ١.





وقد بدأ إرسال الأنبياء الهداة مع بدء خلق الإنسان، فكان أول البشر هو أول الأنبياء، لتكون الهداية من البدء إلى المنتهى.

إن طريق الهداية المباركة هذا، الذي تدفق من فيض القدرة الإلهية كشعاع النور، وتسلسل عبر حوالي مئة وعشرين ألف نبي بدؤوا هذا الطريق، وواصلوه واحدًا تلو الآخر، جاء متوازيًا مع تطور حياة الإنسان ومكملاً لها، وهذه السلسلة التي استمرت في التبليغ -وبالتوافق مع خصوصيات كل عصر، ومستوى المخاطبين فيه- وصلت في نهاية الأمر إلى مستوى الكمال والذروة مع قدوم سيدنا محمد المصطفى ﷺ.

لقد ظهر نبينا ﷺ بنوره قبل سيدنا آدم عليه السلام، وكان آخر نبي بجسده، أي إنه يمثل الصفحة الأولى والأخيرة من كتاب النبوة، وبعبارة أخرى، بدأت رسالة النبوة بالنور المحمدي، ووصلت إلى نهايتها بالجسد المحمدي، وبهذا يكون النبي محمد ﷺ النبي الخاتم زمنًا، والأول خَلقًا[٣].

وبما أن الدافع لخلق الموجودات كلها هو النور المحمدي[٤]، فإن الحق تعالى أحيا النبي محمداً ﷺ حياة مثالية نموذجية، أو بالتعبير القرآني «حياة طيبة» لينال بجدارة لقب «حبيب الله»[٥]. لقد أكرم ربنا الإنسانية جمعاء بأن جعل النبي ﷺ هدية وهاديًا وسراجًا منيرًا، وذلك بعد أن ربَّاه في حياته الاستثنائية الخاصة ظاهرًا وباطنًا على أكمل وجه.

---

٣ انظر: الترمذي، المناقب، ١؛ أحمد، جـ ٤، ١٢٧؛ ابن حبان، الصحيح، جـ ١٤، ٣١٣؛ العجلوني، كشف الخفاء، جـ ١، ٢٦٥

٤ انظر: الترمذي، المناقب، ١؛ الحاكم، المستدرك، جـ ٢، ٦٧٢ / ٤٢٢٨؛ البيهقي، دلائل النبوة، جـ ٥، ٤٨٩؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، جـ ٨، ٢٥٣؛ السيوطي، الدر المنثور، جـ ١، ٦٠، البقرة، ٣٧.

٥ انظر: الترمذي، المناقب، ١؛ الحاكم، المستدرك، جـ ٢، ٦٧٢ / ٤٢٢٨ ؛ البيهقي، دلائل النبوة، جـ ٥، ٤٨٩؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، جـ ١، ٧١، جـ ٩، ٢٩؛ البزار، المسند، جـ ١٧، ١١؛ قاضي عياض، الشفاء، جـ ١، ١٦٠.





لقد جعل الله تعالى من السيرة النبوية المباركة، ومن شخصية النبي الكريم ﷺ النموذج الأرقى والأسمى للسلوك البشري الذي تحاول الإنسانية الدنو منه والاقتداء به، كل إنسان حسب جهده واجتهاده، مهما كانت قدرته ومنزلته، فالله تعالى قد جعل الإنسان الكامل محمدًا ﷺ هو «الأسوةَ الحسنة» للبشر جميعًا في الأخلاق والسلوك، وهو الذي رسم وسار في المنهاج الذي تستطيع البشرية كلها السير فيه.

لقد بدأ النبي ﷺ حياته من أدنى نقطة، وهي العجز البشري عندما كان طفلاً يتيمًا، ومر بكل ما يمكن تخيله من مراحل ومحطات الحياة البشرية ومنعطفاتها؛ حتى أوصله الله تعالى إلى أعلى المستويات المادية والمعنوية؛ المادية من حيث النفوذ والسلطة والقدرة ورئاسة الدولة، والمعنوية من حيث النبوة والرسالة.

ووفق هذا المنهاج النبوي الذي يصلح لكل زمان ومكان، ويصلح لكل أنواع الناس، يستطيع كل بني البشر السير في هذا الطريق، ومواصلة هذا المنهاج؛ متخذين من النموذج النبوي المثالَ والقدوة، وآخذين منه المدد المادي والمعنوي؛ بل يستطيع الجميع أن يطمع ويطمح إلى الوصول إلى درجة النجم السماوي الذي يستمد نوره من الكوكب الدري المحمدي.

لقد خلق الله رسوله ﷺ وجعل من مجمل حياته وتفاصيلها في الأفعال والأقوال والحركات والسكنات نموذجًا يُحتذى، وأسوة تُقتدى، فقال الله تعالى:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب، ٢١)

وذلك لكي تصل البشرية إلى حالة نموذجية في كمال السلوك الأخلاقي والإيماني، وبتعبير أدق إلى كمال السلوك الصوفي، لأن هذا الكمال يبدأ بالاتباع وفق مقدرة العبد وطاقته، ويتدرج ليصل في نهاية المطاف إلى إتقان الاتباع وحقيقة التأسي، ويكون ذلك بمقدار محبة النبي ﷺ، واتباع سنته، ومن ثَمَّ نكون أهلاً لتنزُّل الفيوضات الروحانية، والتجليات العلوية التي لا تنقطع، وذلك هو شرف الدنيا والآخرة.





لقد خلق الله تعالى فخر الكائنات سيدنا محمدا ﷺ بأفضل فطرة ظاهريًا وباطنيًا، ورباه أحسن تربية، وقد بين سيدنا محمد ﷺ هذه التربية الإلهية حين قال:

«أدبني ربي فأحسن تأديبي»[٦]

هذا الإنسان الكامل ﷺ منذ أن شرف العالم بمولده، عاش أربعين سنة في مجتمع جاهلي مكتظ بالأرجاس والأدناس والظلمات، لكنه ﷺ كان دائمًا محميًا في بوتقة الحماية الإلهية، يترعرع في كنف الرعاية الربانية، ولم يصبه قط لفح لهيب الجاهلية، ولا مسه قط هبوب سمومها، فقد حصَّنه الكنف السماوي ليعده الإعداد الرباني للمهمة النبوية، إذ شُقَّ صدره ومُلئَ بالحكمة، ثم استُخرِج قلبه وانتزع منه حظ الشيطان، ولم يعد في الصدر والقلب الشريفين مكان ولا أثر للمؤثرات الدنيوية؛ بل صار موئلاً للفيوضات الربانية والأنوار الإلهية، وموطنًا للسكينة والإيمان والحكمة، والرأفة والرحمة[٧].

وعاش رسول الله ﷺ قبل نبوته حياة فحواها ومبناها ومعناها توحيد صادق، لا سيما في الأوقات التي قرب فيها تكليفه بالرسالة؛ حين نذر نفسه ليكون عبدًا خالصاً لله ﷻ، فقد كان يعتزل في جبل النور بين الحين والآخر، ويستغرق في تفكر عميق، وكان سبب الانعزال في الظاهر أنه باخع نفسه على آثار قومه، نتيجة انتشار الضلال والظلم والبؤس، إضافة إلى شعوره تجاههم بالرأفة والرحمة.

أما السبب الحقيقي للانعزال، فهو تهيئة الله تعالى له لتلقي الوحي الإلهي؛ ألا وهو القرآن الكريم من الله تعالى إلى القلب المحمدي الطاهر، وانتقاله للإدراك البشري، وحين وصل قلب سيدنا محمد ﷺ الدنيوي إلى النقاء الحقيقي بهذا التجلي والإلهام، ارتقى إلى مستوى يمكِّنه من تلقي الوحي.

---

٦ السيوطي، الجامع الصغير، ١، ١٢؛ المناوي، فيض القدير، ١، ٢٢٤؛ ابن الأثير، النهاية، ١، ٤.

٧ انظر: البخاري، بدء الخلق ٦، الأنبياء، ٢٢، ٤٣؛ مسلم، الإيمان، ٢٦٤؛ أحمد، جـ ٢، ٣١٧، جـ ٥، ١٣٩، جـ ٤، ١٨٤ - ١٨٥؛ الحاكم، ٢، ٦٧٣؛ الهيثمي، ٨، ٢٢٢-٢٣٢؛ مسند الطيالسي، ٣، ١٢٥/ ١٦٤٣؛ ابن كثير، البداية، ٢، ٢٨٠.





وكان قبل البعثة يتلقى الإشارات المعنوية والإلهامات على شكل رؤى صادقة على مدى ستة أشهر، وبذلك كُشِفت له أسرار العالم الروحاني، وكانت هذه المرحلة مرحلة تهيئة استعداده الفطري لتلقي الوحي الإلهي، وحمل المسؤولية الثقيلة التي يستحيل أن يحملها الأشخاص العاديون، وكانت أشبه بعملية تحويل الحديد إلى فولاذ بواسطة المزايا الطبيعية التي يمتلكها المعدن، إنها المزايا البشرية نفسها، ولكن بمؤثرات ربانية.

بهذا التحول جمع سيدنا محمد ﷺ في شخصيته وسلوكه جميع فضائل الأنبياء، ومهامهم، وكراماتهم، وكفاءاتهم[8]، فقد وصلت أصالة النسب والأدب والسعادة الجمالية والكمالية فيه إلى ذروتها، وقد جمع ﷺ في دعوته بين الحقيقة والشريعة، أي بين التكاليف الشرعية والحقائق الصوفية، وكان قدوة للعباد في العبادة؛ وقدوة للزهاد في تطهير القلب، وتزكية النفس، وعلَّم أصحابه السلوكين الظاهري والباطني، كما علَّمهم كيفية الدعاء والتعبد بالقول والعمل والسلوك الشرعي، وبالقلب والنفس والشعور الصوفي، وكان لهم وللبشرية كلها النموذج الأسمى في الطريقين، وكانت البشرية على موعد لتبلغ نقطة تحول جذري في مصيرها ومسيرها، عندما بلغ النبي ﷺ عامه الأربعين، وتلقى التكليف بالرسالة الخاتمة.



والتصوف في جوهره هو الوصول إلى حالة يكون فيها القلب سليمًا، يتلقى فيها المعرفة عن الله تعالى، والمحبة من معيتها، ويدنو رويدًا رويدًا من الحضرة الإلهية لينعم بوصال الله تعالى؛ فهذا الدنو هو نضج إيماني على نار المحبة، ونور المعرفة، ولذة القرب، وهذا النضج هو طريق النجاة الذي اتخذه النبي ﷺ وبدأه في غار حراء، ثم في غار ثور، وأورثنا إياه، ثم واصل ﷺ طريق الرقي، ومعراج الوصول في أزمنة وأمكنة أخرى، ومواقف تربوية ربانية عبر الوحي، مما شكل الروافد الفياضة لتطهير القلب وتزكية النفس.

---

٨ انظر: القاضي عياض، الشفاء، ١، ٤٨.





ومع أنه ﷺ كان قد وصل قبل الوحي إلى درجة قلبية سامية، ومرتبة روحية سامقة، وعاش حياة منزهة في ظل أخلاق مثالية؛ إلا أنه انطلق بعد نزول الوحي إلى آفاق أرحب، ومن سماء إلى سماء، حيث اللانهائية في ملكوت الله، فقد اتصل بِربه جلَّ وعلا بقلب ثابت وجنان قوي، ويقين راسخ، واستوعبت جزئياته البشرية نور التوحيد الإلهي، فكان بشرًا رسولاً وصل إلى أقصى آماد التقوى والخشوع في عبوديته، ولم تمنعه هذه المكانة في العبودية من مواصلة العبادة في آناء الليل وأطراف النهار؛ حتى تنتفخ قدماه، وتفيض عيناه، فإذا كَلَّ الجسد ونامت العينان؛ ما كان الفؤاد لينام وإنما كان دائم اليقظة، ذاكرًا شاكرًا مراقبًا لله تعالى.

حتى إنه ﷺ صار عبر حياته وسلوكه سلسلة لا تنقطع من المعجزات؛ بل امتدت هذه المعجزات من خلال أقواله وأفعاله وسنته عبر العصور والأجيال، وما تزال تتحدى العلوم الحديثة في كل تفاصيلها وحركاتها وسكناتها.

وصار القرآن الكريم الذي أُنزل على النبي الكريم ﷺ إعجازًا في كل حرف من حروفه، وما احتواه من علوم وحكمة وهدى، ثم صار الاثنان - القرآن ومن أُنزل عليه القرآن - إعجازًا ربانيًا في التربية والسلوك والأخلاق، تتمنى البشرية كلها أن تصل إلى أعتابه.

كانت هذه التربية المعجزة على المنهج القرآني المعجز، هي التي أوصلت النبي ﷺ إلى درجة متناهية من النضج القلبي والروحاني، وأهَّلته أن يصل إلى مكان ومكانة لم يصلها كبار الملائكة حتى أمين الوحي جبريل، وصار النبي ﷺ «المسافر إلى الغيب» في رحلة المعراج، التي كانت هدية منقطعة النظير بين الحبيب والمحبوب، فتجاوز النبي ﷺ جميع حدود الزمان والمكان، ونزل ضيفًا مكرمًا على ربه تعالى، ولم يكن ثمة وصف لهذه المكانة تصفه لغات الدنيا، إلا قوله تعالى:





﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ (النجم، ٩)(٩)

إذ فاقت هذه الرحلةُ -رحلةُ الإسراء والمعراج- حدود الإدراك البشري، وفاقت حدود الزمان والمكان، وكانت الإرادة الإلهية فقط هي التي تضبط ما كان، وتعرفنا أنه بالإمكان فقط لرسول الله - الذي طويت له الآفاق والأعمار والأعصار، وتجاوز ﷺ العوالم والكرسي والعرش وسدرة المنتهى، ثم كان التجلي الإلهي ورؤية عين الحق بعين اليقين- رؤية الله تعالى بغير ستار، ومخاطبته سبحانه بلا واسطة(١٠).

ونعود من أقصى آفاق ما بعد الأكوان إلى أسباب خالق الأكوان، وإلى واسطة الوصول ومعراج القبول؛ إنه النضج الروحاني والكمال القلبي، فقد استطاع النبي ﷺ أن يواصل مهمته في تبليغ الرسالة، وأداء الأمانة، وهداية البشرية جميعًا، وأن يواجه التكتل الظلامي الجاهلي الذي أراد أن يكبت هذا النور في مهده، ويطفئ جذوته، على أن الوعد كان سخيًا، والوعيد كان قويًا، إلا أن الرد المحمدي الواثق كان -على بساطته- قاطعًا وجليًا.

أخبر المشركون سيدنا محمداً ﷺ بواسطة أبي طالب أنهم يريدون منه عودته عن دعوته، وكان الجواب النبوي على هذا الطلب دستورًا للثبات على الحق، ودليلًا على رسوخ الإيمان:

---

٩ قاب قوسين أو أدنى : لقد عبر سيدنا محمد ﷺ في ليلة المعراج سدرة المنتهى، وهو المكان الذي لم يتجاوزه أي مخلوق بما فيهم جبريل عليه السلام. وقد بينت الآية: ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ المسافة للإدراك البشري، وحدث اللقاء الذي يستحيل أن يدركه أي عبد. انظر: سورة النجم، الآية : ٩.

١٠ قال القاضي عياض: «وأن هذا الدنو والقرب من الله ﷻ ليس بدنو مكان ولا قرب مدى، وليس بدنوِّ حدٍّ، وإنما دنو النبي ﷺ من ربه، وقربُه، إبانة عظيم منزلته، وشريف رتبته، وإشراقُ أنوار معرفته، ومشاهدة أسرار غيبه وقدرته، ومن الله تعالى له مبرةٌ وتأنيسُ وبسط وإكرام، يتأول فيه ما يتأول في قوله ﷺ: (يَنْزِلُ ربُّنا إلى سماء الدنيا). نزول إفضال وإجمال وقبول وإحسان». انظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، جـ ١، ١٧٨.





«**يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر؛ حتى يظهره الله أو أهلك دونه، ما تركته**» [١١]

وبعد أن رُفض العرض الذي قُدّم عبر أبي طالب من المشركين زلزلوا من انبثاق نور الإسلام، جاؤوا هذه المرة إلى رسول الله ﷺ، وتجرؤوا على تقديم العرض التالي:

«فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا، فنحن نسوِّدك علينا، وإن كنت تريد به ملكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًا قد غلب عليك بذلنا لك أموالنا في طلب الطب لك حتى نُبرئك منه، أو نُعذِر فيك».

فكان رد رسول الله ﷺ على زعماء كفار قريش – وكذلك المساومين على الإيمان في كل زمان – بمثابة صخرة إيمان شامخة تتكسر على أعتابها كل موجات المساومة على الدين واليقين، فرفض جميع عروضهم الدنيوية التي قدموها، والتي سيقدمونها:

«**ما بي ما تقولون، ما جئت بما جئتكم به أطلب أمولكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليّ كتابًا، وأمرني أن أكون لكم بشيرًا ونذيرًا، فبلغتكم رسالات ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به، فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن ترُدُّوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم**»[١٢].

كان هذا الموقف والبيان الذي لا يعتريه أي شك قدوة للإنسانية جمعاء، وأظهر درجة الكمال التي وصل إليها في ثباته على الإيمان، وإدراكه للمسؤولية، وكانت عبوديته خالصة لا تشوبها شائبة، نقّاها الله تعالى كما يُنقى الثوب الأبيض من الدنس.

---

١١ ابن هشام ١، ٢٦٥–٢٦٦؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ٢، ٦٤.

١٢ ابن هشام ١، ٢٩٥–٢٩٦.





لأن الأصل في هذه العروض والنداءات التي قُدِّمت لسيدنا محمد ﷺ -والتي ستقدم لكل السالكين على الطريق- كان التخلي عن الآخرة مقابل التنعم بالدنيا، وتاريخ الإنسانية مليء بالأمثلة عن أشخاص باعوا مسؤولياتهم ومثاليّاتهم، وأغراهم السعي وراء الأشياء الفانية والانغماس في الهوى والهوس، وضلوا طريق الحياة الأبدية.

وإذا تساءلت عن سر هذا الثبات، ومصدر هذه القوة، ونبراس هذا العالم من المثالية والنورانية؛ تجده القرآن الكريم والسنة النبوية، وما فيهما من المبادئ الجوهرية للإسلام، فالقرآن الكريم يأخذ بيدك إلى معرفة الله تعالى، والثناء عليه، ثم يبدأ معك طريق الهداية بتطهير القلب، وتزكية النفس، والإقبال عليه سبحانه، واللجوء إلى بابه، والاستئناس بجنابه، والاستسلام الكامل لإرادته؛ بعد الأخذ بأسبابه، ثم تأتي السنة المطهرة تطبيقًا عمليًا ميسرًا وكاملاً لمبادئ القرآن وهدايته، وأساليب التطهير وتزكية النفس، والوصول بها إلى عليين.

لقد أكرم الله تعالى البشرية جمعاء، وفي مقدمتهم سيدنا محمد ﷺ بإنزال القرآن الكريم الذي هو النداء الإلهي الموجه إلى البشرية، ليحفز حواسه وعقله وفكره، وليدرك ذاته، ويدرك الكون حوله، فيصل إلى معرفة الله تعالى حق المعرفة، عبر معرفة مخلوقاته وكونه المعجز، عبر التفكر والتأمل؛ إذ تصل إلى الصانع من خلال المصنوع، وإلى المسبب من خلال السبب، وتصل إلى الخالق من خلال مخلوقاته[١٣].

إنها الإشارة الإلهية لطريق الهداية، ولسبيل المحبة، ولأسلوب الذكر والفكر، ولوسيلة التقوى والإحسان، والعيش الدائم في معية الله ورؤيته تعالى بإدراك أنك دائمًا وأبدًا تحت الرقابة الإلهية.

١٣ كما أجاب به الأعرابي ببداهته الأصمعي عن دليل سؤاله: بِمَ عرفت ربك؟ فقال: البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، ألا تدل على اللطيف الخبير. (السفاريني، لوامع الأنوار البهية، دمشق ١٤٠٢، ١، ٢٧٢).





فالإنسان هو صفوة المخلوقات التي تلقت النعم الإلهية، وذروة البشرية كلها في هذا السياق هو الوجود المحمدي.

والإنسان هو المثل الأعلى لجميع الكائنات، ومن خلال هذا الإنسان نستطيع أن نرى العالم المليء بالمكنوزات اللامتناهية، لهذا فهو يُدعى بـ«العالم الصغير».

فالإنسان يحمل في كينونته سر العالم الكبير، تمامًا كالبذرة التي تحمل سر الشجرة وأصلها، كذلك كالذرة والنواة التي هي اللبنة الأساسية في صرح الكون وسره الأكبر؛ وقد جعل الله الإنسانَ «أشرف المخلوقات» لأنه مدار هذا الكون ومركز حوادثه وأحداثه، فإليه نزلت الرسالات، وله خلقت النار والجنات، وعليه تقوم الساعة ومعه تحشر الكائنات؛ أي إنه محور كل الحادثات.

فإذا أدركت حقيقة الإنسان ومكانته في هذا الكون، استطعت أن تدرك مكانة وعظمة الوجود المحمدي الذي هو خير خلق الله تعالى وفخر الكائنات.

وإدراك هذه الحقيقة يعتمد على فطنة الإنسان واستعداده وإمكاناته.

فهذا هو أبو جهل يلتقي رسول الله ﷺ، وهذان هما أبو بكر وعلي رضي الله عنهما يلتقيانه أيضًا، وشتان بين إدبار هذا وإقبال هذين، وهكذا حال الناس بين مقبل ومدبر على مدار الأزمان، فيكون إقبالهم أو إدبارهم وفق المحبة والاستعداد للترقي، لذلك فقد كانت المحبة والعشق من لدن أبي بكر وعليّ رضي الله عنهما هي التي جعلتهما ينالان شرف أول حلقة في السلسلة الذهبية للتصوف.



إن التصوف هو الاندماج الظاهري والباطني بمنهج سيدنا الرسول ﷺ، ثم الغوص في بحر محبته الواسع؛ فالتصوف هو تجليات الرسول ﷺ الظاهرية والباطنية، الداخلية والخارجية؛ أي إنه «حال» الرسول. لذلك يرتكز هدف التصوف الأساسي على الأخذ بنصيب وافر وحظ وافٍ من قبسات الرسول ﷺ، والاتصال معه في عالم الروحانية.





والتصوف بعبارة أخرى هو الإيمان الممزوج بالعشق الإلهي، والعبادة المضمخة بالوجد وجمال السلوك.

إن التصوف هو قطرات الندى التي تتساقط بالفيوضات على القلوب المفعمة بمحبة النور المحمدي المبارك، هذه الفيوضات التي بدأت «بالنفخ من روحه» في آدم عليه السلام، والتي وصلت إلى مستوى كمالها في سيدنا محمد ﷺ.

ولن تكون قادرًا على استيعاب حقيقة الأهلية والقدرة التي تشكل جوهر التصوف، والتي كانت تنتقل في حياة النبي ﷺ من القلب إلى القلب ومن الفرد إلى الفرد؛ إلا من خلال معرفة عميقة ومفصلة عن حياة هذا النبي المبارك ﷺ ومهامه.

وكما أن الرسول ﷺ هو القدوة الأسمى للبشرية في كل نواحي الحياة، فإنه أيضًا المثل الأعلى في تربية الناس وتزكية نفوسهم. وعلى المستوى النبوي، فقد كُلِّف سيدنا محمد ﷺ بالكثير من المهام والمسؤوليات، وتأتي في مقدمة هذه المهام التي كلفه الحق تعالى بها أربع مهام أساسية، وهي:

١. تلقي الوحي الإلهي:

فقد تلقى الرسول الكريم ﷺ الكلام الإلهي عبر جبريل، وتوقف تلقي الوحي الإلهي - الذي جاء طبقًا للإرادة الإلهية - حين انتقل رسول الله إلى الرفيق الأعلى.

٢. تبيلغ أحكام القرآن الكريم والسنة المطهرة:

يشتمل القرآن الكريم على أحكام وحقائق أوضحها وطبقها رسول الله ﷺ من خلال أحاديثه الشريفة وسيرته العطرة، وأخذ المجتهدون على عاتقهم هذه الأهلية العلمية، ومسؤولية البلاغ والتبيان بعد وفاة رسول الله ﷺ.

والغرض من شرح الأحكام الإلهية وإيضاحها، هو تقديمها في قالب عملي يتوافق مع الحياة البشرية للوقوف على حاجات العباد، ويسمى هذا العمل الذي يقوم به العلماء المسلمون الموثوقون بـ«الاجتهاد»، وهو عملية مستمرة، ويبقى الاجتهاد ضرورة دائمة حتى حين يغيب أهله، ويتولى وظيفة الاجتهاد هؤلاء العلماء المؤهلون.





٣. تنفيذ المسؤوليات الإدارية:

أي القيادة، والوقوف على تطبيق الأوامر والنواهي الدينية على مستوى المؤسسات والدولة، واستمرت هذه المهمة على يد الخلفاء (أولي الأمر) من بعده.

٤. تطهير أرواح البشر وتنظيم عوالمهم الداخلية بتزكيتها:

كان رسول الله ﷺ ينظم العالم الداخلي للناس، ويزكيهم، وبعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى، ستستمر هذه المهمة دون انقطاع على يد المشايخ بالصورة نفسها التي يتطلبها استمرار المهام الأخرى، عدا تلقي الوحي الإلهي؛ لأن تطهير المؤمنين لا يقتصر على تطهيرهم من الظاهر فحسب؛ بل يتعدى ذلك إلى الباطن.

وعليه فإن سبب التصوف وأساسه هو استمرار هذه المهام النبوية في كل مكان وزمان، وهي مهام مستمدة من القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة، لذا؛ فإن استمرار الشيوخ - أرباب التصوف - دون انقطاع هو أمر ضروري واحتياج دائم.



ونعود من جديد إلى سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه فهو الحلقة الأولى في السلسلة الذهبية للتصوف.

فبعد ثلاثة عشر عاماً من الجهاد في التربية والتزكية والتبليغ والرسالة في مكة المكرمة، كانت الهجرة المباركة، وكان غار ثور إحدى محطات الحياة والطريق، وأحد محاضن التربية والإعداد الإلهي.

ففي هذا المكان ظهرت بعض التجليات الإلهية، حيث إن هذا الغار بات مدرسة تفيض بالحكم الإلهية النوعية والانكشافات القلبية.

واستمرت الاستضافة فيه ثلاثة أيام بلياليها، ولم يكن رسول الله ﷺ وحده هناك، فقد كان بصحبته سيدنا أبو بكر رضي الله عنه، وهو أشرف الناس بعد الأنبياء، وهو الذي نال شرف وفضيلة الصحبة مع رسول الله ﷺ في الغار على مدى الأيام الثلاثة،





فقد كان «ثاني اثنين»، وخاطبه سيدنا محمد ﷺ قائلاً له:

﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾ (التوبة، ٤٠)

تشير هذه الآية الكريمة إلى أن النبي ﷺ علّم أبا بكر ﷺ سر وجود العبد في معيَّة الله، وهذه الحادثة -وفقًا للعارفين- كانت الظاهرة الأولى لتذكُّر الله تعالى في السر، أي الذكر الخفي، ودلالة على اطمئنان القلب بالله تعالى.

وتركز الصوفية على أن غار ثور يعد المكان الذي بدأ فيه انتقال الأسرار الروحية من القلوب إلى القلوب الأخرى، حسب المفهوم الصوفي.

لذا فإن سيدنا أبا بكر ﷺ هو أول شخصية مسلمة تتلقى التدريب الروحاني مباشرة من الرسول ﷺ، وهذا -فيما يرى الصوفية- هو أحد أهم الأسباب التي تجعل منه الحلقة الأولى بعد الرسول ﷺ في السلسلة الذهبية إلى قيام الساعة.

وعليه بات غار ثور مكانًا خاصًا تواصل فيه العبد مع الله المنزّه عن جميع المفاهيم الزمانية والمكانية، وكان مرحلة مهمة في التربية القلبية الأساسية.

ويرى الصوفية أن النبي ﷺ قد علّم الذكر الجهري لسيدنا علي ﷺ، ويجب أن يعرف المرء أيضا أن النبي ﷺ قد أعطى أورادًا متنوعة لعدد من الصحابة[١٤]، وأحيانًا شجعهم على ذكر الله تعالى في جماعة[١٥].

١٤ انظر: البخاري، فضائل أصحاب النبي، ٩، الدعوات، ١١؛ مسلم، الذكر، ٧٩، ٨٠ المساجد، ١٧٧، ١٤٥؛ أبو داود، الوتر ٢٦/ ١٥٢٢؛ الترمذي، الدعوات، ٤/ ٣٣٧٥، القيامة ٢٣/ ٢٤٥٧؛ النسائي، السهو ٦٠/ ١٣٠١؛ ابن ماجة، الأدب، ٥٦؛ أحمد، جـ ٤، ١٨٨، ٢٤٤ - ١٤٥؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، جـ ١٠، ٧٤.

١٥ انظر: أحمد، جـ ٤، ١٢٤، جـ٣، ٢٦٥؛ البخاري، الدعوات، ٦٦؛ مسلم، الذكر، ٤٠؛ أبو داود، العلم، ١٣/ ٣٦٦٧؛ الترمذي، الدعوات، ٨٢/ ٣٥١٠؛ الحاكم، جـ ١، ٢١٠ / ٤١٩؛ ابن أبي شيبة، مصنف، جـ ٦، ٥٩؛ الهيثمي، جـ ١٠، ٧٦، ٧٧؛ أبو نعيم، الحلية، جـ ٥، ١١٨.





وهكذا فإن تنوع تطبيق واختيار الأوراد والأذكار، التي هي أهم وسائل التربية الصوفية، هو السبب الأساسي في تنوع أصول وطرائق التربية المعنوية، وهذا يُظهر أن مصدر الطرق الصوفية هو نفسه مصدر المذاهب الفقهية؛ ألا وهو الكتاب والسنة.

والتصوف من ناحية تشكيله لجوهر الدين موجود منذ سيدنا آدم عليه السلام حتى سيدنا محمد ﷺ، وتظهر الكثير من مفاهيم التصوف بالفعل في حياة الأنبياء جميعًا، إلا أن ظهوره علمًا مقررًا، وطريقة نظرية وعملية -كما هو معروف اليوم- وُضع لأول مرة في القرن الثاني للهجرة.

ومع أنه لم يكن هناك أي مذهب من مذاهب الكلام أو الفقه في عهد رسول الله ﷺ، لكن في الوقت ذاته طبق النبي ﷺ الأحكام العقائدية والفقهية وعلمها لأصحابه، إذًا فالفقه كان موجودًا، وإن لم تُدون هذا الإرشادات، أو تجمع كمبادئ علمية منظمة خلال عهده ﷺ. لكن فيما بعد بدأ تلامذة كبار العلماء -مثل علماء الفقه الإسلامي- بجمع اجتهادات المجتهدين، وتصنيفها بعضها إلى بعض، وشكلت هذه العملية بداية ظهور المذاهب الإسلامية؛ حيث جُمعت آراء كل عالم كبير تحت اسمه، ومن هنا نشأ الإرث الإسلامي الذي عرف بمذاهب أهل السنة في الفقه الإسلامي، وهي: الحنفية، والمالكية، والشافعية، والحنبلية، ثم اتبع المسلمون فيما بعد هذه المذاهب.

وكذلك التصوف، يشجع الناسَ على اتباع الأجيال المسلمة الأولى في زهدهم وتقواهم؛ هذه الأجيال التي مارست جوهر التصوف خلال حياة الرسول ﷺ، وإن لم تقنن قواعده، وتجعله أسلوبا تربويا ذا معالم ثابتة ومكتوبة، فالتصوف إذًا قديم قِدَم الفقه.

ومع طول الأمد، ركن المسلمون إلى الدعة، وتركوا جهاد النفس فقست قلوبهم إلا من رحم اللهُ، فثبت على الحق ثلة من الأفذاذ الذين لم يجرفهم تيار الدنيا وخضم الحياة، ووقفوا سدوداً منيعة أمام سيل المادية العارم لينقذوا البشرية ويستأنفوا





حياتها من جديد ويمدوا الناس بما يحييهم من دين الله تعالى، فحملوا الأمانة الثقيلة بشموخ كالجبال، ثم أدوها في صبر وتؤدة وموعظة حسنة، وأخذوا بأيدي الناس إلى طريق الله وإلى مجاهدة حظوظ النفس والمكابرة ضد شهوات الدنيا، فصنعوا رجالاً بل أجيالاً من العبَّاد والزهَّاد، ولم يكن هدف هؤلاء العلماء اصطناع طرائق جديدة في التربية والتزكية والتصوف، بل كان هدفهم مجرد التربية والتزكية بأداء العبادات وإجراء المعاملات، والتخلية من الأخلاق الذميمة، والتحلية بالأخلاق الحميدة في ضوء مبادئ القرآن وهدي السنة؛ وصولًا إلى «الإحسان» عبر «الخشوع»، فكان ذلك السلوك من العلماء العاملين، وذلك الاتباع من المريدين السالكين، وهذه الجلسات والحلقات من التوجيه والإرشاد والوعظ والإمداد، فجُمعت هذه الكلمات والمواعظ والإرشادات والسلوكيات والمجاهدات، وتشكَّل من خلالها نظام روحي، هذا النظام كان هو الطرق الصوفية التي كانت كالمدارس والمناهج التربوية التي حملت أسماء مشايخها وأصحابها، فظهرت الطرق التالية: النقشبندية، والقادرية، والرفاعية، والمولوية، والخلوتية، والجلوتية،... وغيرها.

وكانت تُطلق كلمة «طريقة» على كل أسلوب يسعى لمنهجية التفكر والإحسان والوصال مع الله تعالى في كل فرع من فروع التصوف، ويمكن تقسيم هذه الطرائق إلى ثلاثة أقسام:

١. طريق الأخيار: وهي الطرائق التي تركز على العبادات والتقوى.

٢. طريق الأبرار: وهي الطرائق التي تركز على تربية النفس من خلال المعاناة وتقديم الخدمات الإسلامية.

٣. طريق العشاق: وهي الطرائق التي تسعى للوصول إلى الغاية من خلال العشق والوجد.

والسبب وراء ظهور الطرائق المتنوعة في هذا الميدان مع مرور الوقت، هو الحاجة لذلك، وليس من باب الاختلاف؛ حيث إن الناس مختلفون في مزاجهم





وشخصياتهم وطبائعهم، لهذا فإن تنوع الطرائق يضمن تربية النفس بحسب ما يوافق طبيعة الشخص، لكي يطهر قلبه، ويصل إلى الكمال الروحي.

فالله تعالى يقول في القرآن الكريم:

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (المائدة، ٤٨)

إن كلمة «منهاج» هنا تعني لغة «الطريق المنوَّر»، وهي تشير إلى طريق العبودية الذي يتخذه العبد كي يتقرب من الله تعالى، ويقول كبار المتصوفة:

«إن عدد الطرق إلى الله تعالى كثيرة كثرة عدد أنفاس المخلوقات».

فعلى سبيل المثال؛ يجد الشخص ذو المزاج الجيَّاش سهولة في الارتقاء وفق الأصول المتبعة في الطريقة القادرية، في حين يجد الشعراء والفنانون والرومانسيون ضالتهم في المولوية، أما الأشخاص الذين يسيطر عليهم الوقار والمزاج الهادئ، ولديهم استعداد داخلي عالٍ، يرَون النقشبندية مناسبة لهم، ولهذا يجدون سهولة في تلقي الفيوضات باتباع هذه الطريقة، والسير وفق أصول التربية فيها، وهذه القاعدة تُطبَّق على الطرائق كلها حسب خصائصها.

وهكذا نجد أن تنوع الطرائق هي رحمة من الله تعالى، لكن المهم هو أن تكون وفقًا لحدود القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة.

ومن ناحية أخرى تنقسم الأحكام القرآنية إلى ثلاثة أقسام:

١. العقيدة.

٢. الفقه:

أ. العبادات.

ب. المعاملات.

ت. العقوبات.

٣. الأخلاق (الفقه القلبي).





والفقه القلبي هو الذي يتولى إصلاح العيب الداخلي؛ أي هو إتمام مكارم الأخلاق، وهو يشكل بطانة العقيدة والسلوك العملي، وبالأخلاق ترتقي الأعمال لتصبح «أعمالاً صالحة» حسب القرآن الكريم، والصفات الأهم التي تشير إلى وصول القلب إلى حالة القبول الإلهي هي: التقوى والزهد والإحسان.

فالتقوى: هي الإحساس الداخلي بالمسؤولية أمام الله تعالى، وحماية القلب عبر المراقبة الدقيقة للأوامر والنواهي الإلهية، وهي الشعور الدائم في القلب بأن العبد تحت الرقابة الإلهية؛ أي تحت سمع الله تعالى وبصره، وذلك بالترفع عن الرغبات النفسانية، وتنمية الاستعدادات الروحية.

والزهد: هو امتلاء القلب بالله، وخلوه من كل ما سواه.

والإحسان: هو إحساس المؤمن دائمًا أنه تحت الرقابة في كل وقت، وتصرفه وفقًا لذلك.

وقد ورد في الحديث الشريف:

«**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[١٦].

أي إن الإحسان هو إدراك الروح أنها تحت مراقبة الله تعالى دائمًا، وعندها يصير ارتقاء القلب إلى درجة أعلى ممكنًا حين يستمر هذا الإحساس والشعور، وتنظيم الحياة على هذا الاعتقاد والأساس. وبالوصول لهذه الحالة يتم تصفية القلب، والتصوف من هذا الجانب يعني وصول القلب إلى حالة الصفاء هذه.



فغاية الدين وهدفه ومرماه بناء إنسان متسق مع الكون بجماله الذي خلقه الله عليه، جميل في روحه وأخلاقه وعالمه الداخلي، وذلك بإخلاص العبودية لله وحده، والتخلق بأخلاق الإسلام المثالية، ولا يتأتى ذلك إلا عبر تنقية القلب.

---

١٦ انظر: البخاري، الإيمان، ٣٧؛ مسلم، الإيمان، ١.





والذكر هو أنجع وسائل التخلية والتحلية، تخلية القلب من دنايا الزخم، وتحليته بفضائل القيم؛ حتى يصير موضعًا لتنزل الفيوضات الربانية، ومرآة صافية تنعكس عليها تجليات الحق تعالى.

وقد فتح الله تعالى طريق الوصول إلى عليين على مصراعيه، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، فبوسع السالكين والمجاهدين على الطريق أن يبلغوا أعلى درجات المعراج في الترقي الروحاني، بعد الانطلاق من حدود الأحكام الظاهرية والأحكام الفقهية، والبناء على أساسها؛ صروح جدرانها هي: «الزهد»، و«التقوى»، و«الإحسان»؛ ما تزال جدران هذا الصرح تتعالى حتى تبلغ الأسباب، أسباب السماوات، فتطلع إلى عالم الملكوت بعدما تصل إلى الكمال الإنساني، وهو طريق مفتوح لكل الناس؛ كلٌّ حسب قدرته واستعداده، إنه طريق الترقي المعنوي الذي فتح الله تعالى مسالكه للجميع، وفق حكمته تعالى.

والمعراج الحقيقي أو الوسيلة الأسرع في هذا الطريق هو «الإحسان»، والإحسان أن تجعل الله في دوام معيتك، سميعًا بصيرًا؛ رقيبًا شاهدًا على كل همساتك ولمحاتك وإسرارك وإعلانك. وباستيقان دوام مراقبة الله تعالى عليك، والوصول إلى تلك الحالة الدائمة من المراقبة؛ تدرك روحك الحقيقة، والسر الإلهي الذي ندعوه «الإحسان»، وهو الهدف الذي يرمي المتصوفون الوصول إليه، وإدراك كنهه.

إنه معية الله والوصال مع أنس حضرته، ومن وصل إلى هذه الدرجة أدرك درجة الولاية، وأدرك مثالية الأخلاق التي يرضى الله تعالى عنها.

هكذا كانت أخلاق النبي ﷺ، وهكذا كانت حياته الروحية، لم يكتفِ ﷺ بإحدى الطريقتين؛ بل علَّم وورَّث الصحابة والتابعين والأمة جميعًا الحياة الظاهرة والباطنة، والسلوكيات والمجاهدات المفسرة وغير المفسرة، فمن اكتفى بالظاهر فقط قصر باعه، ومن تعدى للباطن طال ذراعه، فنال الآمال ووجد الإقبال.





والمسلمون الأوائل ومن تبعهم أدركوا حقيقة التصوف وتشربوا روحه، ووقفوا على مفهومه وكنهه. ولما طال الأمد كان هناك من ساء فهمه، وتسطحت معرفته، وقصُرَ علمه عن إدراك حقيقة التصوف، ومن ثم اتخذ منه موقفًا سلبيًا؛ بل عدائيًا، راميًا إياه بشبهات ومثالب؛ لعل أبرزها هو منشأ التصوف وبدايته.

فقد تنوعت الآراء حول أصل التصوف، وهي آراء لا أساس لها، فمنهم من قال إن أصل المصطلح من الكلمة اليونانية «صوفيا» أي «الحكمة» فقط لتشابه أصوات الكلمة، ومنهم من رأى أن أصل التصوف أصل يهودي، وبعضهم قال إن له علاقة بالروحانية الهندية. وهذه الآراء كلها آراء خاطئة بُنيت على أساس تشابه الكلمات أو المحتوى.

أما في حقيقة الأمر؛ فقد رأى علماء الإسلام أن أصل كلمة «التصوف» هو من مصدر إسلامي بحت، ومن بين الآراء المختلفة حول هذا الموضوع أن منشأ كلمة التصوف هو التصفية والاختيار، أي أنها نشأت من «الصفاء»، و«الصفوة»، و«الاصطفاء».

ومنهم من رأى أنها تعود «لأهل الصُّفَّة»، وهو أول شكل من أشكال التصوف، و«أهل الصُّفَّة» هؤلاء هم بعض العباد والزهاد من الصحابة الذين كانوا يلبسون الصوف دائمًا، ويجلسون في «الصُّفَّة» وهو المكان المظلل في مسجد المدينة الذي كان يأوي إليه فقراء المهاجرين ويرعاهم رسول الله ﷺ، ومن هنا جاء هذا الاسم، وقد نال الرأي الأخير القبول العام.

كان هؤلاء الصحابة الذين أطلق عليهم «أهل الصُّفَّة» قد أقاموا في المسجد النبوي من أجل العلم والعرفان والروحانية، وكانوا مميزين في زهدهم وتقواهم بسبب حضّ النبي ﷺ على ذلك؛ حتى إن رسول الله ﷺ طلب من أغنياء الصحابة إعالة هذه الزمرة ومساعدتهم، وتشير هذه الحقيقة التاريخية إلى أن السلوك الصوفي يطابق السنة النبوية، ولم يعترض عليه النبي ﷺ بل حث عليه.





وحين ظهرت الخلافات السياسية بين الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ لم يؤيد «أهل الصُّفَّة» أبدًا أي جانب من الجانبين؛ بل بقوا على الحياد، وأخذوا العبرة من اختلاف المؤمنين، وما نتج عنه من ضعف مشاعر الأخوة، وازدادوا زهدًا وتقوى، وبات هذا الحال وسيلة لزيادة النشوة. وقد رأى بعض الصحابة الآخرين في دخول هذه الخلافات خطرًا معنويًا، ومشوا على خطى أهل الصُّفَّة، وهكذا زاد عدد المتمسكين بطريق الزهد والتقوى.

ومع مرور الوقت أخذ مصطلح «أهل الصُّفَّة» المشتق من «صُفَّة»، وكلمات «تصوف»، و«متصوف» المأخوذة من رياضتهم الروحية، وتقواهم، ينتشر بعد نشأتها، وأخذت الصوفية مكانها في مجرى التاريخ، وبدأت تتأسس الطرق الصوفية.



لقد كان الأصلان -القرآن والسنة- هما عماد التصوف وركيزته، ومنهما انطلق المتصوفون الأوائل في المجاهدة والسلوك، وفاضت إرشاداتهم وعظاتهم ومؤلفاتهم بالتأكيد على أسس الطريق ومنطلقاته، وحدوده وقيوده، فكانت كتاباتهم وآراؤهم، التي لقيت انتشارًا وتأييدًا وإقبالاً واسعًا، مثلها مثل آراء المجتهدين من الفقهاء أصحاب المذاهب.

لكن التصوف -شأنه شأن كل العلوم والأفكار والمذاهب- وجد من أساء تطبيقه، تمامًا كما وجد من أساء فهمه، فقد وقعت بعض الزلات -أو الكثير من الزلات والشطحات- من المريدين والسالكين؛ بل حتى من بعض المشايخ وأصحاب الطرق؛ الذين ربما قصر فهمهم عن إدراك حقيقة الدين باطنيًا وظاهريًا، وربما غلبهم «الحال»، فأساؤوا السلوك؛ إذ غلبتهم «النشوة الصوفية»، فأساؤوا العلم والفهم.

لكن الجواد الأصيل سرعان ما يقوم من كبوته، ويتعافى من عثرته، فتداركت «الطرق» زلاتها، وتدارك «الشيوخ» أخطاءهم، وقوَّموا انحرافاتهم، وجاء على رأس





الطرق أناس من أهل العلم الحقيقي ظاهرًا وباطنًا، ففهموا حقيقة الدين، ومن ثم أدركوا كنه التصوف، وصحَّحوا الطريق والطريقة.

وكانت الطريقة النقشبندية -وأضرابها- إحدى هذه الطرق التي كان القرآن والسنة منطلقها وركيزتها، ولكي تعبر عن ولائها المطلق للحقائق الشرعية باتت العبارة المعروفة المشهورة:

«الشريعة هي الذراع الثابت للفرجار» قاعدة غير مكتملة، فقد زاد عليها أعلام الطريقة وعدلوها.

فيقول مولانا جلال الدين الرومي: «إننا مثل الفرجار، قدمنا ثابتة في الشريعة، وقدمنا الأخرى نجول بها عبر اثنتين وسبعين قومًا»[١٧].

«الشريعة كالشمعة؛ تدل على الطريق وتنيره، لكن لا يمكنك عبور الطريق بمجرد وضع شمعة في يدك، كما لا يمكنك السير على الطريق دون شمعة ولكن إذا بدأت السير على الطريق في ضوء الشريعة، فأنت بالتالي تتبع طريقة»[١٨]

---

١٧ أي إن ركيزتنا الأساسية التي لا نحيد عنها هي الشريعة، ومع ذلك فقد تتشابه بعض مظاهرنا أو سلوكياتنا أو أساليبنا مع إحدى هذه الملل الاثنتين والسبعين.

١٨ أي إن دور الشريعة إنارة الطريق كالشمعة، ودور الصوفية كالمركبة التي تسير بك في هذا الطريق، ولا يمكن السير في الطريق دون الشريعة والصوفية معا. (المترجم)





التصوف هو الحرص على تمثُّل الإسلام ظاهرًا وباطنًا، وذلك بالتطهر من الأدران المادية والمعنوية، والتخلق بمحاسن الأخلاق الجلية والخفية.




ب. تعريف التصوف

من العسير أن تعبر كلماتنا المحدودة عن حقيقة التصوف ومكنوناته، إذ لا يستطيع الإنسان أن يدرك التصوف ويشعر به إلا حين يحيا به، ولذلك تنوعت تعاريف التصوف واختلفت عند أولياء الله تعالى، فكل منهم كان ينطلق في تعريفه من رؤية مختلفة عن الآخرين.

وإنما يتعمق فهم أولياء الله والسائرين في هذا الطريق للتصوف كل بحسب استعداده وقدراته وتلقيه للتجليات والأنوار، ولذلك نرى هؤلاء الأولياء يستوعبون التصوف بطرق مختلفة، ويخضع ذلك للتجليات الإلهية التي يعيشونها، ومع ذلك فإن كل تعريف قدمه هؤلاء الأولياء صحيح، ذلك لأنه جاء حسب التجربة الذاتية التي مر بها كل منهم، أما نحن فنحاول أن نصل إلى تعريف عام للتصوف من خلال النظر في هذه التعاريف.

فإذا نظرنا إلى هذه التعريفات المختلفة، نستطيع القول أن التصوف -باعتبار الجوانب المشتركة في هذه التعريفات- إنما هو علم يعمل على إصلاح عالم المؤمنين الداخلي، ليقوِّمه ويصل به إلى الكمال البشري، كما يجعل من هؤلاء الأولياء مثالًا للأخلاق الحميدة التي تقربهم إلى الله تعالى، وتوصلهم إلى معرفته ومحبته.

و فيما يلي بعض من تعريفات التصوف التي قدمها لنا أولياء الله كلٌّ حسب التجليات الروحانية التي نالها، وهي:





١. التصوف هو الأدب وحسن الخلق:

حسن الخلق هو ذلك الإحسان الذي يحمل الإنسانَ على الاستقامة في الفكر والسلوك عبر تحرير الإيمان من التقليد، حيث يترسخ في القلب شعور المرء دومًا بأنه تحت مراقبة الله تعالى، حتى يهيمن هذا الشعور على ظاهره وباطنه ويستقر في وجدانه.

يقول أبو الحسين النوري:

«ليس التصوف بالشكل أو بالعلم، التصوف هو الخلق الحسن لا أكثر ولا أقل، فلو كان التصوف شكلاً لناله المرء بالمجاهدة، ولو كان التصوف علماً لناله المرء بالتعلم، و لهذا فلا الشكل ولا العلم وحدهما يوصلان إلى المقصد، إنما التصوف التحلي بالأخلاق التي أمر بها الله».

وهذا التعريف يشير إلى أن التصوف يقوم على أسس وطيدة من الأخلاق.

إن معنى الخلق الحسن هو التخلُّق بأخلاق الرسول ﷺ، وفى هذا مدح الله تعالى في القرآن الكريم أخلاق النبي ﷺ في الآية الكريمة:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم، ٤)

وحين سُئِلت السيدة عائشة رضي الله عنها وأرضاها عن أخلاقه ﷺ، قالت:

«كان خلقه القرآن» (مسلم، المسافرون، ١٣٩)

معنى ذلك أن العبد إذا تخلق بأخلاق القرآن واستقام على أحكامه، فإنه يصبح قرآناً حياً، ولا يصل العبد إلى ذروة الخلق الحسن إلا حين يتلو القرآن الكريم بتفكر وتدبر ويتَّبع أحكامه، فيحل حلاله ويحرم حرامه.

لقد أَمر اللهُ تعالى سيدنا محمدًا ﷺ بهداية البشرية وإنارة دربها، وكان ذلك منذ أن أرسله الله تعالى وحتى قيام الساعة في الأزمنة والأمكنة جميعها. ومن هذا المنطلق انتقلت إلينا كل تفصيلات ودقائق حياته ﷺ، حتى الأمور الخاصة والتصرفات





الشخصية عبر روايات صحيحة، وسيستمر هذا الانتقال حتى قيام الساعة بفضل الله تعالى ولطفه، وبدراسة سيرة النبي ﷺ يتبين لنا أنه كان يمثل كمال الإنسانية وذروة مكارم الأخلاق. ويبين الرسول ﷺ مهمته بالحديث النبوي:

«**إنما بُعثت لأتمم حُسْنَ الأخلاق**» (الموطأ، حُسن الخلق، ٨)، وأنه ﷺ كان «الأسوة الحسنة» للإنسانية جمعاء، أي القدوة في الأخلاق.

ويأتي القرآن الكريم على ذكر أخلاق الرسول ﷺ في الآية الكريمة:

﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً**﴾ (الأحزاب، ٢١)

وسُيظهِر الله تعالى حسن الخلق دومًا وإلى قيام الساعة بداية من رسولنا عليه الصلاة والسلام ومن بعده عبر ورثة الأنبياء[١٩].

وفي الحديث النبوي الشريف:

«**أكملُ المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً**»[٢٠]

وبهذا يشير عليه الصلاة والسلام إلى أن حسن الخلق إنما هو ثمرة الإيمان وعلامة الكمال، وأن أولياء الله الذين يتخلقون بالأخلاق المحمدية هم الهداة والمرشدون الروحانيون، ويلفت انتباهنا إلى هذه الحقيقة أيضاً أبو محمد الجريري حين قال:

«التصوف هو تمثل الأخلاق الحسنة والبعد عن الأخلاق الرديئة».

فتزيين القلوب بالأخلاق الحميدة وتنزيهها عن الأخلاق الرديئة للوصول إلى النجاة والسعادة الأبدية عملية ضرورية، ولكن تحفها المشقات و المصاعب، وفي ذلك يقول أبو هاشم الصوفي وهو من المتصوفة الأوائل:

---

١٩ ورثة الأنبياء: العلماء الحقيقيون الذين يرثون الأنبياء ولا سيما خاتمهم محمدًا ﷺ ظاهرًا وباطنًا، من ناحية العلم والعمل والأخلاق.

٢٠ سنن أبو داوود، ١٥/ ٤٦٨٢؛ أحمد، جـ٢، ٢٥٠.





«إن إزالة الكِبر المترسِّخ في القلب لهوَ أصعب من الحفر في الجبال بإبرة»

أما أبو بكر الكتاني فيقول:

«التصوف أخلاق، ومن كان أفضل منك في الخُلُق، كان أطهر منك في المعنى».

والتاريخ الإنساني يزخر بأخلاق الأنبياء المثالية، أخلاق لا يضاهيها أي خلق، ومن أجمل الأمثلة عن هذه الأخلاق العالية -التي لا شك فيها- سيدنا يوسف عليه السلام، فبعد أن ظلمه إخوته ظلماً بيِّنًا كان رده عليهم:

﴿قَالَ لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (يوسف، ٩٢)، وهذا مثال يظهر درجة العفو الكبيرة التي وصل إليها عليه السلام.

إن هدف التصوف هو أن يكون القلب مثل قلب سيدنا إبراهيم عليه السلام سالماً من الدنيا ومطيعاً لأمر الله تعالى، ومثل قلب سيدنا إسماعيل عليه السلام في تسليمه للحق ورضاه بقدر الله تعالى، ومثل قلب سيدنا أيوب عليه السلام في صبره، ويجب أن يكون حزن المؤمن مثل حزن سيدنا داوود عليه السلام، وفقره مثل فقرِ سيدنا عيسى عليه السلام واستغنائه عن الآخرين.

والمتصوف هو الذي يسعى ليكون قلبُه مثل قلب سيدنا موسى في مناجاته حين كان قلبه فياضاً بالحماسة والاشتياق، وهو الذي يسعى ويجتهد أن يكون مخلصاً كإخلاص حبيبنا وسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام".

ويقول أبو حفص الحداد:

«التصوف هو الأدب»

فتعريفه للتصوف هو أنه خلاصة الأخلاق الحسنة.

وعن الأدب يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«اعلم يا سيدي أن الأدب هو تلك الروح الكامنة داخل الإنسان، والأدب عند رجال الله هو نور عيونهم وأفئدتهم، فإذا ما كنت تريد سحق رأس الشيطان،





فافتح عينيك لترى أن الأدب يقهر الشيطان، وإذا لم يكن عند الإنسان أدب، فهو ليس بإنسان أبدًا، لأن الفرق بين الإنسان والحيوان إنما هو الأدب».

وثمة بيت شعري معناه:

سأل عقلي قلبي: «ما الإيمان؟»،

فهمس قلبي لعقلي: «الإيمان هو الأدب».

ونظم شاعر آخر بيتاً جميلاً في «الأدب» قال فيه:

الأدب تاج من نور الباري   فالبسه تأمن من كل بَلاءِ

ولهذا نجد أن اللوحة التي تحمل عبارة «أدب يا هو»[٢١] في التكايا والزوايا وأماكن الخلوات القديمة واحدة من أهم اللوحات الخطية التي تحث على التيقظ والانتباه.

٢. التصوف هو تزكية النفس وتطهير القلب:

أتى الإنسان إلى هذا العالم لكي يُمتحن في عبوديته، ولذلك أُبتلي بالنفس وشهواتها وأهوائها التي تلازمه حتى الموت، وحتى إن وصل الإنسان إلى أعلى درجات الولاية، فإن الثلاثي (الدنيا والنفس والشيطان) يقف له دائماً بالمرصاد من خلال الحيل والوساوس والخداع، ولذلك كانت العبودية تبدأ بالتخلص من هذه المهلكات، ثم النجاة من مغريات هذا العالم الفاني، والتحلي بالتقوى، والتوجه إلى الحق تعالى في نهاية المطاف.

ولهذا كان من الضروري تزكية النفس وتطهير القلب للتخلص من قابلية المعصية المركوزة في فطرة الإنسان، وزرع بذور التقوى، لذلك فكل إنسان مكلَّف بحسب استعداده وقدرته بمعرفة الحق تعالى، والارتقاء بهذه المعرفة إلى مرحلة العرفان، عبر العمل الصالح، وتسبيح المولى وشكره، وهذا هو معنى «العبودية»

---

٢١ هذا البيان هو عبارة عن تنبيه ندائي من أجل مراعاة الأدب، وهو في الوقت ذاته توسل يشابه معناه مقولة «يا إلهي! الطف بنا وامنحنا الأدب».





باختصار، أما الوصول إلى حقيقة العبودية فمرتبط بتزكية النفس وتطهير القلب، أي بتجاوز عقبة النفس وتحليتها بالأحاسيس الراقية، ولا يمكن نيل شرف درجة «الوصول إلى الله»[٢٢] و«اللقاء مع الله»[٢٣] إلا على هذه الصورة.

وجوهر القلب هو «موضع نظر الله تعالى» في هذا العالم، أي إن جوهر القلب ينال شرفاً رفيعاً بتجلي نظرات الله تعالى، وكما أنه لا يجلس على عرش القصر إلا السلطان، فلا ينبغي أن يكون في القلب الخاضع لمملكة الجسد غير الله تعالى، ولا بد من تطهير القلب بإزالة الأفكار النفسانية والميول الخبيثة والتعلق بما سوى الله تعالى، وإلا أُغلق الطريق أمام القلب للوصول إلى الألطاف الإلهية، وهذا لا يعني أن القلب لابد أن يخلو عن محبة الآخرين، فحين يستطيع المرء تزكية نفسه وتطهير قلبه ليصير قلبًا سليمًا، فإنه يتحرر من محبة غير الله تعالى، في حين لا يستطيع الآخرون أن يزيلوا تماماً من قلوبهم محبة المال والأولاد وما إلى ذلك مع اختلاف درجات هذه المحبة، فمثل هذه الأنواع من المحبة في الحقيقة مشروعة ما لم تتجاوز حداً معيناً.

ويكفي النظر إلى موقع القلب في الحياة المادية والمعنوية لإدراك أهمية تطهيره، وقد عرض النبي ﷺ أهمية القلب في حياة الإنسان حين قال:

«ألا وإنَّ في الجسد مضغة: إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب» (البخاري، الإيمان، ٣٩)

ويذكر مولانا جلال الدين الرومي، قدس الله سرَّه، أنه من العبث السعي لملءِ كيسٍ ما لم يُغلق الثقب في أسفله، وهكذا هي الأعمال، فالجليُّ أنه مع تطهير القلب تصبح هذه الأعمال وسيلة لسعادة المرء، فالأعمال بالنيات، والنية هي إحدى أعمال القلب، ويعد إصلاح النية وإخلاصها شرطاً في هذا السياق.

---

٢٢ الوصول إلى الله: الوصول إلى الله العلي بالقلب في الدنيا.

٢٣ اللقاء مع الله: رؤية جمال ربنا في الآخرة





إلا أن حالة تزكية القلب هذه إنما ينالها المرء على يد أربابها بالتربية القلبية، فغاية أولياء الله تعالى من تربية القلب هي استشعاره بأنه دائماً مع الله أي بلوغ مرتبة (الإحسان)، وبذلك يصبح هذا القلب «قلباً حياً»، ولكي يصل القلب إلى هذا النضج، لابد من تطهيره مما سوى الله تعالى.

وحين يصل القلب إلى هذا الصفاء ويتخلص من أكداره، تتكشف له الحقائق الجليلة والعميقة، وتتجلى عليه الأسماء والأسرار الإلهية، ويعرف المرء الله بقلبه ويرتقي بعلمه إلى حال العرفان.

ولا يمكن النجاة يوم الحساب إلا بالمثول أمام الله تعالى بقلب سليم، مطهَّر من كل الأمراض المعنوية، ومليء بالمحبة الإلهية، وهذا ما ذكره الله تعالى في كتابه حين قال:

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُون إِلَّا مَنْ أَتَى الله بِقَلْبٍ سَلِيم﴾ (الشعراء، ٨٨-٨٩)

ومن جانب آخر، يذكر القرآن الكريم أن الذين لا يطهِّرون أنفسهم، وتقسوا قلوبهم لبعدها عن ذكر الله تعالى، فإن مصيرهم الهلاك في نهاية المطاف:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُوْرَهَا وَتَقْوَاهَا. قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس، ٧-١٠)

﴿...فَوَيْلٌ لِلقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ الله أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (الزمر، ٢٢)

ولَكَم هو معبر كلام أبي سعيد الخراز في ضوء هذه الآيات الكريمة:

«الإنسان الكامل هو من طهر الله قلبه وملأه نورًا وعرفانًا».

٣. التصوف حرب معنوية لا هوادة فيها:

يعود هذا التعريف الى الشيخ جُنيد البغدادي، ويعني به أن المتصوف لا ينفك عن مجاهدة نفسه طوال العمر، والجهاد ضد النفس هو الامتناع عن الرغبات غير المشروعة.





والحروب عادة تبدأ وتنتهي في زمان ومكان محددين، إلا أن مجاهدة النفس تستدعي مجاهدتها طوال العمر دون انقطاع، حيث يقول الله ﷻ في الآية الكريمة:

﴿**وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ**﴾ (الحجر، ٩٩)

ويأمر الحق تبارك وتعالى عبده أمام غفلة النفس وحيلها باليقظة الدائمة والذكر المستمر، فقد ذكر الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿**وَاذْكُر رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الغَافِلِينَ**﴾ (الأعراف، ٢٠٥)

وقد بيَّن الرسول ﷺ أن تزكية النفس أصعب من مجاهدة الكفار حين قال لمن معه عقب عودته من غزوة تبوك المعروفة باسم غزوة العسرة: «**قدمتم خير مقدم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر**». قالوا: وما الجهاد الأكبر؟ قال: «**مجاهدة العبد هواه**» [٢٤]

ويعطي الباحث المعاصر روجيه غارودي أهمية خاصة لتوازن الجهاد الأصغر والأكبر في الإسلام؛ إذ يقول: «التصوف شكل من أشكال التربية المعنوية الإسلامية، وهو ما يسمى بالجهاد الداخلي؛ أي الوقوف في وجه كل نوع من أنواع الرغبات التي تُبعِد الإنسان عن الغاية من خلقه، وتوقِعه فريسة للنفس، ويُعرف هذا بالجهاد الأكبر في الاصطلاح الإسلامي، أما الجهاد الأصغر فهو الجهاد ضد كل أنواع السلطة والجاه والعلم الخاطئ الذي يبعد المسلمين عن طريق الله تعالى، ويبقي المرء في حالة انسجام واتحاد مع الطريق المؤدي إلى الله تعالى، والاتزان بين هذين النوعين من الجهاد هو الذي يكفل السعادة والسلامة للفرد والمجتمع»[٢٥].

---

٢٤ البيهقي، الزهد الكبير، ١٦٥، السيوطي، الجامع الصغير، جـ٢، ٧٣/ ٦١٠٧.

٢٥ انظر: روجيه غارودي، وعود الإسلام، ص٤٧.





٤. التصوف هو الإخلاص:

التصوف هو الإخلاص لله تعالى، و«الإخلاص» في الاصطلاح الديني هو العمل ابتغاء مرضاة الله وحده دون أن تكون هناك أي غاية سواه، وتطهير القلب من جميع الآمال ما عدا رضا الله تعالى هو فضيلة كبرى أُمر بها المسلمون.

إن كل ما أمر الله ﷻ به العبد لنيل رضاه يمسي عديم النفع لا يجني منه صاحبه سوى التعب والمعاناة، إذا أشرك مع الله تعالى غيره، أو شابه الرياء، وبهذا يظهر أن «الإخلاص» هو أهم الشروط وأساسها لقبول الأعمال أمام الله تعالى.

والإخلاص هو حماية القلب من جميع أنواع الشهوات والأهواء الدنيوية في سبيل الاقتراب من الله تعالى. وبالإخلاص يحظى العبد بأكبر نعمة، ألا وهي رضاه تعالى.

إن ما يريده الله تعالى من عباده هو أن يعملوا بإخلاص سعياً لرضائه تعالى، والآيتان التاليتان توضحان هذا الأمر:

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ﴾ (الزمر، ٢)

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ﴾ (الزمر، ١١)

وقد ذكر الله ﷻ الموقف الذي طُرد فيه إبليس من الحضرة الإلهية حين قال:

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (الحجر، ٣٩-٤٠)

فالتصوف هو ربط الأمور كلها بالله تعالى، وتلقي كل شيء منه، والتخلص من الإعجاب بالنفس. وعلى الإنسان مهما كان حاله ومقامه أن يتواضع ويعرف قدره وألا ينسى وجود من هو أعلى مقامًا منه، إذ يقول الله ﷻ -بعد أن انتصر المسلمون في معركة بدر- مخاطباً سيدنا محمدًا ﷺ:





﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ اللهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاء حَسَناً إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٢٦] (الأنفال، ١٧)

لذلك يجب على الإنسان دائماً أن يحس بعجزه وعبوديته، وأن يعلم أن كل أنواع النعمة والنصر والتوفيق إنما هي من ألطاف الله ﷻ، فإن لم يعلم الإنسان ذلك كانت أجور أعماله منقوصة أو صارت هباءاً منثوراً.

ويروي أبو هريرة ﷺ الحديث الذي يبين عاقبة المرء حين يؤدي أعماله خالية من الإخلاص، ويخالطها الإعجاب بالنفس والهوى، حيث قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:

«إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟

قال: قاتلت فيك حتى استشهدت،

قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال: جريء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار؛

ورجل تعلم العلم، وعلمه وقرأ القرآن، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟

قال: تعلمت العلم، وعلمته وقرأت فيك القرآن،

قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار؛

ورجل وسع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟

---

٢٦ أخذ رسول الله ﷺ أثناء المعركة قبضة من تراب ونثرها على جيش قريش، فغطى هذا التراب بإذن الله أعين الكفار وهذا ما أصابهم بالدهشة، وقد نزلت هذه الآية الكريمة بعد هذه الحادثة.





قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك،

قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه، ثم ألقي في النار» (مسلم، الإمارة، ١٥٢)

ويقول جلال الدين الرومي مخاطباً ذلك الذى يعبد الله تعالى دون إخلاص:

«أيها الغافل! كم أرجو أن توجه وجهك بإخلاص للحق تعالى حين تنزل ساجداً له، وكم أرجو أن تعرف معنى (سبحان ربي الأعلى)، فالسجدة ليست سجدة البدن فحسب بل هي سجدة القلب أيضاً».

إن العبادات إذا أقيمت دون إخلاص لابد أن تشوبها الأهواء المبطَّنة والأدران المعنوية، والسر في صفاء العبادات وترقيتها إنما هو الإخلاص، فالعمل دون إخلاص لا يجني منه العبد شيئاً، فمثلاً الصلاة التي هي في المرتبة الثانية بعد الإيمان إن لم يُراعى فيها الإخلاص تعرِّض العبد إلى هذا الوعيد المخيف من الله في الآية الكريمة التالية:

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ. الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ. الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ (الماعون، ٤-٦)

ويقول جنيد البغدادي، قدس الله سرَّه:

«الإخلاص هو تصفية العمل من الكَدرِ الروحي».

ويقول أحد الأولياء:

«ادعاء الإخلاص نوع خفي من أنواع عدم الإخلاص»، حيث إن أكبر خطر على الإخلاص أن يرى المؤمن نفسه تقياً.

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال لرسول الله ﷺ حين بعثه إلى اليمن: يا رسول الله أوصني، قال: «**أخلص دينك يكفك العمل القليل**»[٢٧]

---

٢٧ الحاكم، المستدرك، جـ٤، ٣٤١/ ٧٨٤٤؛ أبو نعيم، حلية الأولياء، ١، ٢٤٤؛ البيهقي، شعب الإيمان، ٩، ١٧٤.





ويقول في حديث آخر:

«إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»

(مسلم، البر، ٣٤)

٥. التصوف هو الاستقامة:

التصوف هو أن يحيا المرء باستقامة، والاستقامة هي التمسك بالكتاب والسنة، وفهم الأوامر الإلهية والنبوية فهماً نابعاً من القلب، والحياة بشغف في ظلالها، فالتصوف هو وصول القلب إلى أعلى حالات السعادة بالعيش في روحانيات الكتاب والسنة.

يقول الحق تعالى في الآية الكريمة مخاطباً النبي وأمته من بعده:

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا﴾ (هود، ١١٢)

وكان الدافع إلى «**شيبتني هود**...»[٢٨] في حديث الرسول ﷺ هو ما ورد في هذا الخطاب الإلهي الذي شرحه المفسرون[٢٩] على النحو الآتي:

«يا أيها النبي! ليكن سلوكك كما تفرض عليك أخلاق القرآن وأحكامه، وكن مثالاً حياً للاستقامة كي لا يكون موضع للشبهة والتردد في شخصك، واصرف النظر عما يقوله المشركون والمنافقون، وَدَعهم إلى الله. واستقم كما أُمرت في مهماتك العامة والخاصة، ولا تبتعد عن الصراط المستقيم. وثابر على تبليغ ما يوحى إليك وتنفيذِه وتطبيقه مهما كان ثقيلاً، فالله مُعينك.»[٣٠]

وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قول الله تعالى **﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾**:

---

٢٨ الترمذي، التفسير، ٥٦/٦.

٢٩ انظر: القرطبي، الجامع، جـ٩، ١٠٧.

٣٠ انظر: المفسر التركي ألماليلي محمد حمدي يَزِيرْ، (دين الحق ولسان القرآن)، جـ٤، ٢٨٢٩-٢٨٣٠.





«ما نزلت على رسول الله ﷺ في جميع القرآن آيةٌ كانت أشدَّ ولا أشقَّ عليه من هذه الآية»[٣١]

وقد كان هذا الخطاب موجهاً مباشرةً إليه ﷺ، ولم يكن مصدر الشيب في هذه الآية خوفاً على نفسه من التمسك بالاستقامة، فالآية الكريمة:

﴿يس. وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ. إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ. عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (يس، ١-٤)

نزلت فيه وتأييداً له عليه الصلاة والسلام، لكن السبب الحقيقي الذي شيبه وأثر فيه من الأعماق، هو القلق على المؤمنين من مشقة تطبيق هذا الأمر الإلهي.

فلا يمكن لأي طريق بعد بعثة النبي ﷺ أن يوصل الإنسان إلى الله سوى طريق الهداية الذي رسمه رسول الله ﷺ، فقد ربط الله تعالى محبته ومغفرته بإطاعة المسلمين للنبي ﷺ، وهذا ما توضحه الآيات الكريمة:

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ. قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ (آل عمران، ٣١-٣٢)

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (النور، ٥٤)

ويؤيِّد ذو النون المصري قدس الله سرَّه هذه الحقيقة بقوله:

«إن من يطبق سنة حبيب الله تعالى في أخلاقه وأفعاله وحركاته، يؤكِّد حبه للحق تعالى».

أما أبو يزيد البسطامي، قدس الله سرَّه، فيقول:

«لو نظرتم إلى رجل أُعطي من الكرامات حتى تربَّع في الهواء فلا تغتروا به

٣١ النووي، شرح صحيح مسلم، جـ ٢، ص٩.





حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود، وأداء الشريعة [وإلا فإن حاله ليست كرامة بل استدراج][32] »[33]

وقد ذكر القرآن الكريم أولئك الذين يستطيعون أن يسلكوا طريق أهل الاستقامة (الصراط المستقيم) بالصورة الصحيحة:

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ (النساء، ٦٩)

والظاهر في الآية الكريمة أن الصراط المستقيم طريق خاص بأشخاص مُحددين، وأساس الاستقامة هو الإيمان والتقوى، ومحلهما القلب، لذا فالاستقامة هي انسجام وتناغم حركة البدن مع توجهات القلب، أي أن تكون الأعمال الظاهرة مرآة وصدى لما في القلب من إيمان وتقوى، فبالإيمان والإخلاص ترعى الاستقامة وتدوم.

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ:

«لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه». [34]

وعن سفيان بن عبد الله الثَّقفيِّ، قال: قلت:

«يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا بعدك» وفي حديث أبي أسامة «غيرك» قال:

«قل: آمنت بالله، ثم استقم». (مسلم، الإيمان، ٦٢)

٣٢ البيهقي، الشُعب، جـ٣، ٣٠٤؛ القشيري، الرسالة، ص٥٨.

٣٣ الاستدراج هو عكس الكرامة، وهي الخوارق للعادات التي تظهر من الكافر والفاسق والمتمشيخ أي الشخص الذي يتظاهر بالولاية. وهذه الأحوال إنما هي امتحان إلهي يأخذهم شيئاً فشيئاً إلى الهلاك.

٣٤ أحمد بن حنبل، مسند، جـ ٣، ١٩٨؛ البيهقي، شعب الإيمان، جـ ١، ٩٧.





وليس ثمة أمر إلهي أصعب من المحافظة على الاستقامة على الصورة التي يريدها الله تعالى، فالمحافظة عليها مقام عالٍ. والاستقامة هي المحافظة على العبادات باعتدال دون الوقوع في الإفراط والتفريط مع الثبات على طريق الله، وتنفيذ أوامره بالشكل الأمثل كما وردت، كلٌ حسب طاقته، لهذا السبب كانت الاستقامة شعارَ أولياء الله وأعظمَ كراماتهم، والاستقامة الحقيقية هي السير في طريق النور الذي خطَّه فخر الكائنات ﷺ.

وقد شرح مولانا جلال الدين الرومي هذه الحقيقة خير شرح حين قال:

«طالما هذه الروح في جسدي سأبقى مذعناً للقرآن، وأسير على خطى سيدي محمد المختار، وإذا ما نقل أي شخصٍ عني غير هذا الكلام فإنني منه براء».

«إن أي امرئٍ يذهب إلى مائدة غير مائدة النبي ﷺ، فسيأكل الشيطان معه من الوعاء نفسه، إذ إن من يختار مائدة غير مائدة العرفان تلك، فستمزِّق العظام حنجرته».

٦. التصوف هو الرضا والتسليم لله ﷻ:

التسليم هو الخضوع المطلق لله تعالى والطاعة والاستسلام له سبحانه ولأوامره دون اعتراض، ومن هذا الجذر اللغوي نفسه اشتقت كلمة «الإسلام»، والتصوف يزرع في الأفئدة الشعورَ بالرضا والتسليم للحق تعالى كي يتمكن العبد من العيش على أساس الاستقامة والاقتراب من ربه أكثر فأكثر مع كل نفَس يتنفسه.

إن الرضا والتسليم للحق تعالى هما اللذان يخففان من تأثير الآلام والمصائب والمحن التي تُغرِق هذا العالم الفاني، حتى إن المصائب ببركة الرضا والتسليم لله تصير كأن لم تكن، وتتحول الابتلاءات إلى مسرَّات حين يتلقاها العبد على أنها منحة من رب العالمين له. والتسليم هو خضوع العبد لأوامر الله تعالى بكل سعادة، وقبوله -بعد الأخذ بالأسباب- لكل تجليات القدر بالرضا العميق، وخير مثال على التسليم هو امتثال سيدنا إبراهيم عليه السلام لأمر ربه وتقديم فلذة كبده قرباناً، وتسليم إسماعيل





عليه السلام نفسه للتقدير الإلهي بكل رضا، وقد ضرب الله تعالى مثلاً هذين النبيين للناس أجمعين في التسليم:

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ (الصافات، ١٠٣)

وبتسليمهما هذا نالا ثناء الله تعالى عليهما، وصارت الأضحية حكما شرعيا مستقلاً في العبادات، وستبقى عبادة الحج نموذجًا ونبراسًا هاديًا للأجيال القادمة إلى قيام الساعة على تسليم العبد لله تعالى وخضوعه بين يديه.

فينبغي للعبد إذا استسلم للحق تعالى في الأوامر والنواهي، ورضي بما يقدِّره الله له، أن يصبر على المشقات والابتلاءات، فالابتلاءات هي مفتاح الكمال.

ويقول الشقيق البلخي:

«لو علم العبد ما يتلو المحن من منح لما أراد النجاة منها».

ولذلك لما عرف أولياء الله هذه الحكمة نظروا إلى الغمِّ والسرور بالعين نفسها، وتجاوزوا السعادة المفرطة والحزن العميق اللذين يوقِعان المرء في مصيدة النفس، وارتقوا إلى مقام الرضا والتسليم.

ومن أوجه التسليمِ العشقُ والمحبةُ الإلهية، فالمحبُّ يَسعَد بكل ما يأتي من الحبيب، ويسعى جاهداً إلى إظهار حميميته وإثباتها.

وربما هذا هو السبب الذي دفع بأبي علي الروزباري لتعريف التصوف على أنه:

« لزوم المرء باب الحبيب مستسلمًا له ولو طرده آلاف المرات».

إن العبد الذي يملأ العشقُ قلبَه يُقبِل راضيًا عن كل ما يأتيه من ربه على قدر محبته له، فبتسليم إبراهيم عليه السلام لله تعالى وتجليات عشقه له تحولت النار الدنيوية إلى روضة غنَّاء، أما يعقوب عليه السلام فقد نجح في التخفيف من ألم الفراق من خلال رضاه وتسليمه للتقدير الإلهي، وبقوله:

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ (يوسف، ١٨)





ولهذا جعل أهل التصوف طريق الاستسلام لله تعالى -وهو طريق الأنبياء- محور طريقتهم، وتقول رابعة العدوية، قدس الله سرَّها، في هذا الشأن:

«إن المحب للحبيب مطيع».

أي إن التسليم هو الطاعة التي تنبعث من الحب، وتنبع من القلب.

ولقد وصل الصحابة الكرام إلى مرحلة الكمال البشري بحبِّهم وارتباطهم وطاعتهم لنبينا ﷺ، حتى غدوا نماذج حية للأمة كلها يعلمونها كيف يمتزج الحب لله بالخضوع والتسليم المطلق له سبحانه من دون أي اعتراض.

٧. تعاريف أخرى للتصوف:

إن الإسلام يهدف لتربية إنسان كامل، وهذا الهدف يتطلب أن يعيش المرءُ الإسلامَ ظاهرًا وباطنًا، بحيث يتحد الجسد مع الروح وينسجم العقل مع القلب.

والتصوف: هو السبيل للعيش على هذه الحال، فالهدف الفريد للتصوف تحويل الإنسان إلى إنسان مسلم صالح يرضى الله تعالى عنه، وهذا ما يوجب على المرء المسلم أن يسعى ليحيا حياته بإدراك الإسلام ضمن تكامل «الشريعة والطريقة والحقيقة والمعرفة».

فالتصوف: هو وجهة الدين الداخلية وجوهره وعمقه الروحي، وهو من هذا الجانب مثل اللاكتوز الموجود في الحليب، فحين نهمل روح الدين وجوهره لا تبقى إلا مجموعة من الأحكام الفقهية الجافة. وفي المقابل ثمة أشخاص لم يفهموا حقيقة التصوف حين ردوا كل أمر إلى الأحكام الباطنية، ولم يلتزموا بالأحكام الظاهرية، خاصة في هذه الأيام مع وجود من يدَّعون وصولهم إلى النشوة الصوفية، ناهيك عن أولئك الذين يأخذون عبارة «لا ضير في عملك ما دام قلبك طاهراً» شعاراً لهم، ويطلقون العِنان لحياتهم النفسانية، ويسعون إلى إظهار مفهوم التصوف على هذا النحو البعيد عن مفهوم التصوف الحقيقي، والمؤسف أن هناك أشخاصًا في





أيامنا هذه بعيدون عن روح «المثنوي الشريف» يهملون الجانب المتعلق بالتقوى في المولوية، ويحاولون إظهار السماع[٣٥] -الذي هو في الأصل ذكرٌ لله تعالى- على أنه موروث شعبي ومجلس للموسيقى.

وكما أن رسول الله ﷺ كان أتقانا لله تعالى وأقربنا إليه وقام بالتكاليف والمسؤوليات الشرعية حتى آخر نفَس تنفسه، فكذلك ينبغي لكل مسلم يقتدي بهذا النبي أن ينجز مهامه ومسؤولياته الشرعية مهما كان موقعه ومقامه الروحاني، فالشريعة التي نصفها أنها الأحكام الظاهرية للإسلام هي مثل الهيكل العظمي الذي يعتمد عليه الجسد، لكن المظاهر الدينية التي هي عبارة عن هيكل فقط تقدِّم الإسلام على أنه دينٌ منفِّر جاف وناقص، يفتقر إلى الروح والحيوية، وهناك بالفعل من يريد عن عمد أن يظهره على هذا النحو.

والتصوف: هو فهم الإسلام بالطريقة التي فهمها رسول الله ﷺ وسار عليها صحابته رضي الله عنهم، تلك الطريقة المليئة بالفيوضات والروحانيات، ثم السعي للعيش على أساس هذه الطريقة بالحب والشوق.

والتصوف: هو السعي والعمل على تنظيم الحياة على أساس الكتاب والسنة.

والتصوف: هو نظام لتطهير النفس من كل شوائبها، وفن الوصول بها إلى التقوى عبر الحذر من كل شيء يُبعد المرءَ عن الله تعالى، والتصوف هو شعور المرء بوجوده في عالم الامتحان الدنيوي، وهو الذي يوضح قواعد العبودية لله تعالى، وكل ذلك بالفيوضات والروحانيات التي تتغلغل في عروق المرء، فالتصوف هو سعي المرء كي يكون عبداً صالحاً لله تعالى من خلال معرفة الله ومحبته.

والتصوف: هو معرفة الحق تعالى بالقلب، والارتواء من ينبوع العبودية لله تعالى، والارتقاء بالإيمان إلى أفق عالٍ كما هو حال الإحسان.

---

٣٥ مصطلح عربي الأصل، استعمله المتصوفة للدلالة على الإنشاد الديني والذي يكون ضمن مجالسهم العلمية أو الروحية (المترجم).





والتصوف: هو رحلة مقدسة توصِل العبدَ إلى الله تعالى عبر المحبة والصحبة الحقيقية.

والتصوف: هو تطهير الفؤاد مما سوى الله تعالى من خلال الذكر الدائم.

والتصوف: هو فن بقاء العبد حبيباً لله تعالى من خلال الرضا بقضائه في كل زمان ومكان، وهو مهارة الإبقاء على توازن الفؤاد أمام المد والجزر والظروف المتغيرة والمفاجآت، ونسيان الشكوى والتذمر ليكون العبد عبداً صالحاً على الدوام.

والتصوف: هو تعليم الزهد، وتخليص الفؤاد من الرغبات النفسانية المتقلبة في الدنيا عبر إدراك أن الحياة الأساسية هي الحياة في الآخرة.

والتصوف: هو تكريس الوقت على أكثر الأشياء قيمةً.

والتصوف: هو مسؤولية يحملها أولئك الربانيون تجاه عباد الله الغافلين الشاردين التائهين، فيعاملونهم ويخدمونهم ويرشدونهم بالشفقة والرحمة والمحبة لوجه الله تعالى وابتغاء مرضاته، لذلك يمكننا القول أن «التصوف هو طريق الخدمة الإسلامية».

وخلاصة ما فهمناه عن التصوف وما نريد إيصاله، أن التصوف معرفة رسول الله ﷺ عن قرب وذلك من خلال محبته، والتخلق بأخلاقه الرفيعة، والسعي لتمثُّل الإسلام بروحانيته على أجمل صورة، والتصوف هو «حياة التقوى» التي عاشها رسول الله ﷺ وصحابته مضمخة بالحب لله تعالى.

أما ما بقي خارج ذلك ولم يأخذ جوهره ومعياره من القرآن والسنة فهو باطل مهما عزا نفسه للتصوف.

وفي ضوء التعاريف المذكورة للتصوف يمكننا أن نخلص إلى أن:

التصوف: هو السعي لإقامة الدين، والحياة به وفق روحه وأصوله، وذلك من خلال التخلي والتطهر من الأدران المادية والمعنوية، والتحلي واكتساب الأخلاق والصفات الحميدة، وبهذه الطريقة يصل المؤمن إلى فهم شامل للأحداث المادية





والمعنوية، وتنفتح بصيرته على الأسرار والألغاز الكبيرة التي لا يمكن أن يصل إليها عبر العقل وحده.

والتصوف: هو الصراع للتغلب على النفس التي تمثل حجر عثرة أمام ما يطلبه القلب من اللذات الروحانية اللانهائية.

والتصوف: من ناحية أخرى هو علمٌ يبيِّن كيف يحبس الجسدُ الروحَ، ويمنعها عبر الميول النفسانية من استيعاب الحقائق والحكم من وراء الأحداث، وهو علم يسمح للروح باكتشاف العِبر والحِكم التي تتجاوز حدود الإدراك، ومشاهدتها من منظور العارفين.

ولنَدَع نتيجة تعريفات التصوف إلى «منظومة التصوف» المشهورة التي نظمها إبراهيم أفندي شيخ تكية آق سراي أولانلار ومن خلال شرح قصيدته المشهورة:

التصوف في البداية هو التجرد من الوجود المادي، وإنكار الوجود في نفس المرء، أي تسليم إرادته للحق تعالى، أما التصوف في النهاية فهو الفوز بالفضائل الإلهية، حتى يصير المتصوف سلطاناً في قلوب الناس.

والتصوف كطريقة: هو أن يكون الصوفي مجهولاً بين الناس، لا يأبه له أحد، أما في الحقيقة فهو ضيف في قصر الأسرار الإلهية مطلع على خفايا الأمور ومآلات الأحداث.

والتصوف: هو الخلاص من الألبسة والأقفاص الفانية المصنوعة من الطين والماء، وبهذا يصبح المرء إنساناً طاهراً يشع منه النور الإلهي.

والتصوف: هو إيقاد شمعة الفؤاد بالنور الإلهي، لأن التصوف هو الاحتراق بالعشق الإلهي.

والتصوف: هو وجوب تجرد العبد من الإعجاب بالنفس والالتفات للناس، وأن يكون من أهل الشريعة والإيمان الحقيقي.





والتصوف: أن تكون عارفًا بسنن الله في الكون، حتى لا تكون من أهل الهم والكدر.

والتصوف: هو معرفة الأسرار والتجليات والحكم الإلهية وإدراكها، وهذا هو العلاج لأصحاب الهموم.

والتصوف: هو فك طلسم الجسد باسم الله، التصوف هو خراب هذا المبنى العامر الفاني تماما.

والتصوف: هو تحويل الصوفي مقاله إلى حال، فيحيي بحاله ومقاله معًا قلوب الناس دائماً.

والتصوف: هو الاطلاع على علوم التعبير والتأويل من خلال سبر الأعماق، وبهذا تُعرف الأسرار الإلهية الموجودة في الإنسان والكائنات والقرآن والسنة، والتصوف أيضاً هو أن تكون سرًّا من أسرار الله تعالى في الفؤاد.

والتصوف: هو أن تكون واعيًا وغائبًا داخل حيرة ودهشة كبيرة أمام عظمة الله تعالى وقدرته وجماله، لأن التصوف هو الإعجاب بأسرار الحق تعالى اللانهائية.

والتصوف: هو إخراج كل شيء من قصر الفؤاد وبقاء الله تعالى وحده فيه، لأن التصوف هو أن يكون قلب المؤمن عرشاً لله تعالى، أي ذاكراً لله تعالى دائماً.

والتصوف: هو بلوغ الشرق والغرب مع كل نَفَس، أي التفكير بأهل الإيمان هناك، ومشاركتهم سعادتهم وحزنهم، وخدمة أصحاب الحاجة، أي إن التصوف هو النظر في حال الناس كلهم والاهتمام بهم.

والتصوف: هو رؤية الحق تعالى في كل ذرة من ذرات الكون، فالتصوف هو أن يكون الصوفي كالشمس التي تنير العالم.

والتصوف: هو فهم لغات العالم كلها، يعني فهم حالة كل شخص، أي إن التصوف هو أن تكون حاكماً لعالم العقل مثل حكم سليمان.





والتصوف: هو حمل القرآن الذي هو أمانة إلهية على عاتق الإنسان، وحمل المسؤولية الناتجة عنها بجدية ورغبة؛ والتصوف هو نيل الآيات التي تبشر بالمغفرة الإلهية.

والتصوف: هو الرحمة بالخلق والشفقة عليهم والدعاء للكائنات كلها بـ(اسم الله الأعظم)، فبالتصوف يكون الصوفي قرآنًا حيًّا ورحمة للعالمين.

والتصوف: هو التوجه للحق تعالى في كل حال، وأن يكون الصوفي في خدمة الخلق يهوِّن عليهم كل أمر عسير.

والتصوف: هو جعل فؤادك مكاناً للعلم الإلهي، أي امتلاك العلم اللدنِّي، فالتصوف إذاً تحول حال الصوفي الذي ما هو إلا قطرة واحدة إلى بحر واسع عظيم.

والتصوف: هو إحراق الأنانية بنيران (لا إله)، والتصوف هو أن تكون إنسانًا كاملًا بنور كلمة (إلا الله).

والتصوف: هو دعوة الناس إلى طريق الحق تعالى بآية ﴿**قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا**﴾ (الرعد، ٤٣)، وهو السعادة والطمأنينة بمآل ﴿**ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً**﴾ (الفجر، ٢٨).

والتصوف: هو الإحساس بالموت والبعث ألف مرة في كلِّ يوم، حتى تصير روحاً للعالم كله وسببًا لإحياء الأفئدة الأخرى.

والتصوف: هو إفناء الإنسان لنفسه في وجود الله تعالى، وإخفاء المرء نفسه بالقرب من الله ﷻ الذي تجلى في رحلة المعراج واتضح في الآية الكريمة:

﴿**فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى**﴾ (النجم، ٩)

والتصوف: هو إعطاء الروح للحبيب والنجاة من كل أنواع الأَسْر الفانية، والتصوف من هذه الناحية هو أن تكون روح الحبيب حقًّا. أي أن تكون محبوبًا أيضًا من طرف الحبيب.

يا إبراهيم، **التصوف** في الأصل هو أن تكون عبداً لله تعالى، لهذا فالتصوف هو أن تكون شريعة محمد ﷺ دليلًا في الفؤاد.





إن موضوع التصوف واسع وعميق سعة البحر وعمقه، فالتصوف يهتم بكل شيء له علاقة بنفس الإنسان وروحه.

 

ت. موضوع التصوف:

لقد تنوعت الطرائق التي تتناول كنه التصوف، وتعددت الوسائل التي تحاول الوصول إلى حقيقته، فازدادت زوايا النظر للتصوف عمقًا واتساعًا، لاسيما وأن التصوف مهتم بكل ما يمس الروح والنفس، وهما من أسرار الله تعالى في خلقه، فالتصوف -بذلك- عميقة أغواره كالبحر، عميم نفعه وانتشاره كالمطر؛ يهطل من أعلى مزن في طبقات الجو، فيعم مساحات شاسعة من الأرض جبالاً وسهولاً ووديانًا، وينفذ إلى أعماقها بعد أن يسقي مَن على سطحها زرعًا وضرعًا وإنسانًا. كذلك التصوف وموضوعاته التي تشبه في تنوعها قطرات المطر في تواترها؛ لا حصر لها ولا عدد.

وجوانب التصوف تشمل كلَّ خطوة يخطوها الإنسان في السعي إلى ربه، وكلَّ درجة يرتقيها في المعراج إلى مولاه، وكلَّ خلجة تعانيها نفسه في الصراع مع معوقات طريقه، وكلَّ صعقة تصيب حواسه في سبيل الخلاص من جواذب الدنيا، وكلَّ عالَم تعاينه روحُه في مدارج الوصول، وكلَّ شعور يحس به في ارتقائه معارج القبول، وكل المخلوقات التي ارتبط بها نفسًا وروحًا في هذا الكون؛ حتى كان ارتباطه الأوحد برب العوالم كلها الأحد الصمد، وتحقيق العبودية له وحده تعالى، وتمام معرفته سبحانه.





وإذا كان الخوض في هذا السبيل ضربًا من المستحيل فلا أقلَّ من أن نرشف من البحر المحيط رشفة، أو أن تمس أقدامنا مياه شواطئه، أو تلامس أفكارنا سواحل مواطئه، وليغترف كل منا غرفة بيده.

وعلى سبيل البدء، فإن موضوع التصوف يتضمن مراحلَ وأحوالًا وأهوالًا يجتازها السالك في الوصول إلى ربه، سعيًا نحو هوية المسلم الكامل؛ وتحقيقًا لمعنى العبودية المطلقة، عبر تزكية النفس وتطهير القلب.

وبمعنى آخر: فإن التصوف يرمي للوصول بالإنسان إلى السعادة الأبدية في الدنيا والآخرة، ليحياها بجسده وروحه، ويحقق معناها بسلوكه وشعوره، وينغمس فيها ظاهرًا وباطنًا، فتنعكس على صورته وسيرته، كما تتجلى في روحه وسريرته، ويكون ذلك -كما أسلفنا- عبر تزكية النفس وتطهير القلب، ليتذوق الإنسان لذة الشعور بالإحسان، ويحقق التكامل بين الشعور والسلوك، وذلك بالتخلُّق والتحقُّق.

التخلُّق بالأخلاق التي أرادها الله لعباده سلوكًا وشعورًا وحياة، والتحقُّق واليقين بعين البصر والبصيرة مما عند الله.

ولقد قيل:

(إن للعارفين قلوبًا ترى ما لا يراه المبصرون).

وعليه، فإن أحد أبرز موضوعات التصوف هو أصول الوصول، وطرائق القبول، وإدراك الأسرار، ومعرفة الخفايا وما وراء الأستار، وكل ما هو مكنوز في خزائن أسماء الله تعالى وصفاته، متجليًا في كونه ومخلوقاته.

وفي ذلك الإطار، يتناول التصوفُ أحوال السالكين التي يجتازونها، وهي أحوال خاصة ومقامات روحانية عليا؛ تُعدُّ من وسائل المعرفة والإيمان والتربية والوصول، مثل الكشف والإلهام والمشاهدة المعنوية والوجد والعشق....

وهي أحوال لها ضوابطها ومقاماتها وتأثيرها في النفس والروح والقلب والوجدان، والظاهر والباطن.





والخلاصة هي أن موضوع التصوف هو معرفة الله تعالى عبر مشاهدة تجلياته في أسمائه وصفاته ومخلوقاته؛ مشاهدتها بعين اليقين، وعين البصر والبصيرة.

ويكتمل ذلك عبر الوصول إليه في مسالك العالم المعنوي، والتدرج في معرفة كنه الكائنات والمخلوقات، وقبلهم كنه الإنسان والقرآن، ثم الوصول إلى القمة في العالم المعنوي، وفي معرفة الله تعالى.







التصوف هو الرقي بحال المؤمن ليعيش حياته سعيدا في ظلال الأخلاق الكريمة السامية: كالرحمة والرأفة، والكرم، والعفو، والشكر .

 

ث. غاية التصوف:

«أن تكون عبدًا لله تعالى على أرقى حال»؛ ذلك هو دستور التصوف وغايته وهدفه الذي يسعى إليه، وضعها المتصوفة نصب أعينهم طَوَال الطريق، ووضعها الأولياء نبراسًا هاديًا تسعى حوله آمالهم وقلوبهم، وقبل ذلك كله وضعها الأنبياء – عليهم السلام – مَعْلَمًا رئيسًا جامعًا لكافة الرسالات والنبوات والأديان.

تلك هي غاية التصوف؛ بل غاية الغايات فيه، الفوز برضا الله ﷻ عندما نأتيه بقلبٍ سليم نجا من علائق أمراض الدنيا، وتخلص من شوائب الذنوب والمعاصي، وسار على النهج النبوي متبعًا أوامر الشرع ونواهيه، متخلقًا بخلق رسول الله ﷺ، ممتثلاً أوامر القرآن؛ يحيا بالعبادات ويحلِّق بها في أفق الإحسان، ولا يهوي بها إلى قاع العادات، فتسمو الروح، ويَطهُر القلب.

فإذا غابت هذه الغاية، أو لفها شيء من الضباب، اختلَّت الموازين، وانعكست نتيجةُ المعادلة –رغم وجود الإنسان عنصرًا رئيسًا فيها– تلك هي حقائق التاريخ والواقع الذي حدثتنا عنه آيات القرآن الكريم، فالإنسان ذلك المخلوق الراقي الذي اصطفاه الله تعالى وميزه على كل مخلوقاته حتى على الملائكة، وارتقى –بعبوديته– إلى أعلى درجات الكمال، هو نفسه ذلك الإنسان الذي ارتكس بنفسه في وهاد الطين بعدما كان في عليين؛ حتى وصل إلى درجة ﴿**أولئك كالأنعام بل هم أضل**﴾ رغم أنه





كان في الأصل مخلوقًا ﴿**في أحسن تقويم**﴾، ذلك أنه تخلى عن المعيار الأساسي الذي به يُقَوَّم عمله، وافتقد التركيبة الأساسية التي تحول ذلك الطين إلى نور، وتحول ذلك التراب إلى جوهر، إنه الإيمان الذي تتبعه الأخلاق.

ولم تكن مهمة الأنبياء إلا تزكية الأنفس حتى يصل الناس إلى الإيمان، وتتحلى أنفسهم بالأخلاق.

كذلك كانت مهمة الأولياء الذين واصلوا تلقي العلوم القلبية من لدن المنبع النبوي النوراني الفياض، ليواصلوا ما هم موكلون به من الهدي المحمدي.

وهكذا؛ كان الارتباط الدائم بنهج المصطفى ﷺ والسير الدائم على أثره، والاستمداد الذي لا ينقطع من ينبوعه هو ديدن هؤلاء المتصوفة السالكين في كل حركاتهم وسكناتهم، وأحوالهم ظاهرًا وباطنًا، وديدن أولياء الله الذين تعاهدوا هؤلاء بالتربية في طريق الهدي النبوي؛ حتى صدق فيهم الحديث الشريف:

«**العلماء ورثة الأنبياء**»[٣٦] .

وبناءً على ذلك يمكننا القول: إن النضج المعنوي هو ما أراد النبي ﷺ تحقيقه في قلوب وسلوك المؤمنين، وهو أيضًا غاية التصوف، الذي يدعو الناس إلى الإيمان، والتخلي عن دنس الدنيا، والتحلي بمحاسن الأخلاق، فيشمل النضج المعنوي الظاهر والباطن.

يقول الله تعالى في الحديث القدسي:

«**إن هذا دين ارتضيته لنفسي، ولن يصلح له إلَّا السَّخَاء وحُسْنُ الخلق، فأكرموه بهما ما صحبتموه**»[٣٧]

---

٣٦ انظر: البخاري، العلم، ١٠؛ أبو داود، العلم، ١.

٣٧ البيهقي، شعب الإيمان، جـ ١٣، ص. ٣٠١؛ الهيثمي، جـ٨، ٢٠؛ علي المتقي، الكنز، جـ٦، ٣٩٢.





والتصوف من هذه الناحية هو إيصال المؤمن إلى حالة التلذُّذ بالأخلاق الحميدة السامية، مثل الرحمة، والرأفة، والكرم، والعفو، والشكر.

إن النموذج الأسمى الذي يتأسى به أهل التصوف، والشمس التي تنير دربهم، والكوكب الذي يدورون في فلكه، وسفينة النجاة التي يتعلقون بها لتنقذهم من أرض الطوفان، وتوصلهم إلى أرض الإحسان؛ هي الحياة كما عاشها النبي ﷺ وأصحابه ﵃ والتي وضع بنيانها القرآن الكريم، ونقلت لنا دقائقها السنةُ النبوية المطهرة، ثم يأتي الصالحون الذين عاشوا على هذا المنهج، وذاقوا لذة الحياة في ظلاله، فانتقلت إليهم الفيوضات القلبية إلهامًا وكشفًا ووجدًا، فنقلوا هذه الانعكاسات المعنوية إلى من حولهم من أرباب التصوف، ليحيا الجميع هذه الأحوال الرائعة في ظل سيرة المصطفى وصحبه الكرام، وتلك هي الغاية العظمى للتصوف وأهله.

وثمة وجه آخر لغاية التصوف، هي مدُّ يد العون والمساعدة لأولئك السائرين في طريق الزهد، الذين يحملون المؤهلات القلبية والإيمانية التي تدفعهم في طريق الكمال، الطريق الذي يجد الإنسان فيه نفسه، ويجد فيه كمال إنسانيته بكمال عبوديته، ويعرف ربَّه حقَّ المعرفة بعد أن يعرف إمكاناتِه وطاقاتِه معرفةً تمكنه من استثمار هذه الطاقات، وتسخير هذه الإمكانات ليصل في المجاهدة إلى أعلى الغايات، ويرتقي أسمى الدرجات إلى جوار الحق سبحانه بعد أن ينتصر على نفسه، فيخمد نيران شهواتها ويعالج روحه من آفاتها.

يقول الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (الأحزاب، ٧٢)

هذا الإنسان الظلوم لنفسه، الجهول بالعلوم القلبية والظاهرية، يريد التصوفُ أن ينقذه من «ظلمه» لنفسه وللناس، ومن الجهل بعلوم الظاهر والباطن، كي ينال الكمالات الأخلاقية والإيمانية ويصير أهلًا لحمل الأمانة، ويصبح إنسانًا كاملاً.





وفي هذا الباب يقول الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«ورثة الأنبياء هم من يملكون علوم الظاهر والباطن»؛ أي: العلوم العقلية والقلبية؛ العامة والخاصة.

ولا ينفصل العلم عن الأخلاق، ولا السلوك عن الصفات، فخلاص الإنسان يبدأ بتطهير نفسه من سوء صفاته، وانحراف سلوكه، ثم تتحول هذه الصفات إلى الأجمل، وتتبدل هذه السلوكيات إلى الأفضل، ويرتبط العلم بالأخلاق، ويندمج السلوك في الأدب، ويتشرب العمل خلقًا، ويتشبع السلوك أدبًا، فيتحول العلم إلى «العرفان»، وتصير الأخلاق واقعًا يُعاش، ويصير العلم أركانًا تُبنى عليها صروح الخُلُق.

وقد أفصحت آيات القرآن عن أولئك النفر القليل العظيم الذين حققوا هذه الغاية، ووصلوا إلى الكمال الإيماني، والتكامل العلمي الخلقي، فقال الله تعالى:

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (يونس، ٦٢-٦٣)

ذلك الإيمان، وتلك التقوى هما سر الوصول والحصول: الوصول إلى الله، والحصول على فيوضات الله.

فالإيمان عندما يسكن القلبَ ينفي عنه خبث المعتقدات الباطلة كلها، ويقربه من الحق سبحانه، والتقوى حين تجد طريقها إلى سلوك العبد تطهر قلبه من كل الأغيار، حتى لا يبقى فيه سوى الله سبحانه، وهكذا يصبح قلب ذلك العبد محل نظر الله تعالى، وموضع تجلي أسراره وحِكَمه.







﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ. إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾

(الشعراء، ٨٨-٨٩)




ج. ضرورة التصوف:

إن لذة الفاكهة تكمن في لبها، وكذلك ديننا العظيم نجد روعته في لبه وجوهره، وهو التصوف.

ومن المسلَّمات أن الإنسان يتكون من بُعدين هما البدن والروح، وكلٌ منهما له حاجات فطرية، فالإسلام لا ينكر فطرة الإنسان وحاجاته البشرية، بل يعدها حقائق طبيعية، ويسعى في إطار المعايير الأساسية إلى الارتقاء بتلك الميول التي يقبلها، والتقليل من الميول المرفوضة إلى أدنى حد، أو إدخالها تحت غاية مقبولة.

فإذا انساق الإنسان وراء متطلبات الجسد فقط، ولم يلبِ إلا حاجاته المادية، فقد ضل طريقه إلى السكينة والسعادة.

وهنا يبرز دور الدين في هداية الإنسان إلى الطريق الأقوم، وفي الإجابة عن السؤال الذي حيَّر الفلاسفة منذ القدم، ويقدم الأنموذج الأمثل والبرنامج الأكمل الذي تتوازن فيه الروح والمادة، ويتكامل فيه القلب مع الجسد، فهو الذي يقود الإنسان إلى عالمٍ فسيح من الروحانيات، ويصطحب معه ما ينفعه من الماديات، ثم يعالج هذه الأمور المادية بأن ينفث فيها من روح الدين ولمسات الأخلاق، فتتشبع الماديات بروح الدين، ويحيا الإنسان في تناغم بين نوازعه المادية وآماله الروحانية، ولا يجد ذلك الصراع بين المادة والروح الذي يمزق حياة أولئك المنغمسين في أوحال المادة، حتى فقدوا أدنى درجات الشعور، فصاروا كالذين وصفهم القرآن الكريم:

﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (الأعراف، ١٧٩)





ولعل ذلك الانغماس في المادة، والبعد عن عالم الروح وانعدام تكامل الرؤى لديهم، هو الذي يدعم خوف بعضهم من التصوف، ويدفعهم للاعتراض عليه.

ولا ريب أن التكوين الطبيعي للإنسان تتوازن فيه الميول الفطرية بين ما هو مادي وما هو معنوي، سواءً بسواء، فهو ينجذب إلى الأسرار المعنوية والحقائق المجردة بالقدر الذي ينجذب إلى الموجودات المادية والواقعية؛ لذا لابد من وجود توازن وتكامل وتناغم بين عنصري الإنسان: الروح والمادة، ولابد من الإشباع المتساوي لهذين الجانبين.

ففقدان الجانب الروحاني وإهماله، والاتجاه بالكلية إلى الإشباع المادي، هو الذي هوى بالعالم الغربي اليوم إلى هاوية الإلحاد؛ إذ إن إسرافهم في الرفاه المادي، مع ما يصيب أرواحهم من ظمأ شديد يدمر أخلاقهم؛ كان سببه الأول والأساسي هو انقطاع الصلة بينهم وبين النبع الإلهي، بعدما تدخلت يد البشر العابثة، فكدرت صفو الدين، وحرفت الكلم عن مواضعه، وانحلت الأواصر التي تربط قلوبهم بالله تعالى، فصاروا كالذي يهوي من السماء لا يَقِرُّ على أرض ولا في فضاء، فلم تغنه الدنيا عن ربه الحق، ولم تغنه الرفاهية عن عوزه الشديد إلى طمأنينة القلب.

حتى أصاب الإلحاد قلب العالم المسيحي في روما نفسها مقر الكرسي البابوي، راعي الدين.

إن الإنسان المحروم من الوجد الديني، والمشاعر الروحية، سيرى أعظم حادثة روحية من وجهة نظر مادية، وسيسعى إلى تفسيرها في إطارها الشكلي فحسب، وبهذا يمسي الدين في عينيه جامدًا خاليًا من أي مضمون.

وهنا يأتي دور التصوف الذي يصرف اهتمامه إلى الروح، ويدفع الإنسانَ -كلًّا وفق قدراته واستعداداته- إلى أن يُشبع حاجاته الروحية، التي هي الشق الآخر من تكوينه الفطري، والتي من دونها يفقد الدين مضمونه، وتفقد العبادات جوهرها، فتصير الصلاةُ مجردَ حركات رياضية، وتصير الزكاة مجرد معونة اجتماعية، ومن ثم





تفقد العبادات غايتها الأساسية، وفائدتها الجوهرية، ولا يصل الإنسان بعبادته إلى مقام العبودية، أو يدرك الطمأنينة القلبية.

وثمة وجه آخر لفقدان جوهر هذه العبادات، وهو الاكتفاء بأداء الشروط الظاهرية للعبادة، مما يُبعد المسلم عن جوهر الإسلام، ويشوه الفطرة التي فطر الله الناس عليها حين لا يشبع نوازعها الروحية ويغض الطرف عن أشواقها العلوية.

ولا سبيل إلى ذلك التوازن بين المادي والروحي، ولا طريق إلى إشباع العبادات بروح الدين، وتعميق الأداء ووصله مع القلب، إلا من خلال التربية الصوفية.

وقد قام كثير من العلماء بالتعمق بحثًا وسعيًا وراء حقيقة الدين، وما يحقق جوهره في النفوس، وكانت النتيجة المثلى في النهاية هي التربية الصوفية.

وحين توضع المخلوقات كلها في ترتيب هرمي من أبسطها إلى أكملها، سيحتل «الإنسان» قمة هذا الهرم، ولكن حتى في الجنس البشري هناك اختلاف بين الناس كلٌّ حسب استعداداته وقدراته الفطرية، وهو أمر ضروري للحفاظ على التوازن الاجتماعي في الحياة الدنيا.

وقد خلق الحق ﷻ الناس بمقتضى إرادته الإلهية، وأوجد الاختلاف في استعداداتهم المعنوية، كما هو الحال في استعداداتهم الظاهرية، ولم يكلِّف اللهُ عبادَه أكثر من طاقتهم، لكنه في الوقت ذاته جعلهم مسؤولين، وكلٌّ مُيَسَّر لما خُلق له.

وتشمل رحمة الله تعالى اللانهائية المخلوقاتِ كلَّها، ولهذا السبب يأخذ الله تعالى أدنى مستوى من الاستعداد بعين الاعتبار في تحديده وتقديره للتكاليف الدينية الملقاة على عاتق الإنسانية جمعاء، أي إنه سبحانه يضع الحدود الأساسية بحسب طاقة أعجز فرد من مخلوقاته، بيد أن الفضل الإلهي فتح سبلًا وأبوابًا لمن لديه استعدادات زائدة على التكاليف العامة ليترقى في طريق السير إلى الله ويروي أشواق الروح وتطلعاتها الإيمانية بما تقطعه من أشواط فسيحة في الزهد والتقوى والإحسان، إضافة إلى المهام الشرعية؛ وهذا الطريق هو التصوف.





ونضرب على ذلك مثلاً من الواقع، فقد جاء رجل إلى الشبلي رحمه الله يسأله عن مقدار الزكاة الواجبة في إبله، وقال: كم في خمس من الإبل؟ فقال الشبلي: شاة في الواجب، فأما عندنا، فكلها لله تعالى، فقال الرجل: فما دليلك في ذلك؟ فقال الشبلي: سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه خرج عن ماله كله لله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم قال: من خرج عن ماله كله فإمامه أبو بكر رضي الله عنه، ومن خرج عن بعضه وترك بعضه فإمامه عمر رضي الله عنه، ومن أخذ لله، وأعطى لله، وجمع لله، ومنع لله، فإمامه عثمان، ومن ترك الدنيا لأهلها فإمامه علي، وكلُّ علمٍ لا يؤدي إلى ترك الدنيا فليس بعلم[٣٨].

ويدل هذا المثال على أن كلَّ صحابيٍّ من الصحابة الكبار ذوي الاستعداد القلبي الكبير كان زعيمًا وإمامًا في التصوف بحسب صفاته التي تميِّزه عن غيره.

ويودُّ منا ربنا جل جلاله أن نكون على هذه الحالة، إذ يقول في الآية الكريمة:

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة، ١٠٠)

فكل هذه النصوص النقلية، والاستنتاجات العقلية، وما وراءها من المعاني الروحية والقلبية، دلائل وبراهين على ضرورة التصوف.



وكلما ارتقى القلب في عالم الشعور من السكينة إلى الأمان حتى يصل إلى السعادة، ازداد ارتقاءً في التربية الصوفية، وحينها يكون قلبه مهيأً -خلال هذه المراحل- لتلقي العلم والحكمة، ومستعدًّا للاطلاع على حقائق الدين الجوهرية. وهذه المدارج التي يتدرب فيها العبد ويترقى ويتربى هي طريق ربانية لا مناص لأي إنسان منها، إذا كان يريد الوصول إلى الله تعالى، حتى الأنبياء وهم قدوة البشرية

٣٨ أحمد زرُّوق، قواعد التصوف، ص٤٩، قاعدة: ٣٣.





خضعوا لمثل هذه المحطات في مرحلة الإعداد والتهيئة لتلقي الوحي والرسالة؛ إذ إن القلب البشري يحتاج إلى لياقة خاصة كي يتلقى معانٍ خاصة، ويحتاج إلى درجة من النضج يتحمل معها جلال التجلي الذي يتلقاه، ولطف المعنى الذي يداخله، فيستدعي ذلك تخليصه من القساوة وتحليته بالرقة ضمن برنامج من الإعداد الرباني، والرياضة الروحانية، كتلك التي مر بها الأنبياء من أولي العزم:

- فرسول الله ﷺ قبل تلقي الوحي والرسالة انعزل معتكفًا في غار حراء أيامًا طوالا.
- وكليم الله موسى عليه السلام مكث في طور سيناء أربعين يومًا منتظرًا ميقات ربه.
- ولقي نبي الله يوسف عليه السلام من بلاء إخوته والجب والرِّق والسجن ما لقي قبل أن يصبح عزيز مصر.
- والمصطفى ﷺ تحققت فيه أسرار سورة الانشراح قبل الحدث الأعظم الذي لم يرق إليه نبي مرسل ولا ملك مقرب، وهو المعراج، وما فيه من عجائب وأسرار، فقد شُق الصدر الطاهر[٣٩]، ونُظِّف القلب الشريف، ومُلئ بالحكمة الربانية والعلم اللدني، استعدادًا وتهيئة للمثول في الحضرة الإلهية.

---

٣٩ شق الصدر: هي تلك العملية التي قامت بها الملائكة، ويطلق عليها اسم «شرح الصدر»، حيث شُّق صدره الشريف وانشرح، ووُضعت فيه السكينة والنور الإلهي. وقد خضع النبي ﷺ لشرح الصدر ثلاث مرات. كانت المرة الأولى حين كان عمره أربعة أعوام، وبناءً على الأحاديث الشريفة أُزيلت من قلبه عَلَقَتَانِ سَوْدَاوَانِ، ووضِعت مكانهما الطمأنينة والسكينة. (انظر: أحمد، جـ٤، ١٨٤-١٨٥؛ ابن سعد، جـ١، ١١٢)
والمرة الثانية حين كان في العاشرة من عمره، حين أُخرج الغلُّ والحسد من قلبه ووضِعت الرأفة والرحمة مكانهما. (انظر: أحمد، جـ٥، ١٣٩؛ الهيثمي، جـ٨، ٢٢٣)
أما المرة الثالثة فكانت قبل المعراج، وحينها أيضاً شُقَّ عن قلبه وملئ بالإيمان والحكمة. (انظر: البخاري، بدء الخلق ٦، الأنبياء ٢٢-٤٣؛ مسلم، الإيمان، ٢٦٤)
وتشير الآية الكريمة التالية إلى العملية التي خضع لها رسولنا صلوات الله عليه وسلامه: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ (الانشراح، ١)





فإذا كان هذا هو حال الأنبياء في التربية الروحانية، فما بالنا ببقية العباد، وإلى أي قدرٍ يحتاج هؤلاء من التربية والتطهير القلبي للقرب من الله تعالى، ورؤية حقائق الكون ومعانيه بعين البصيرة.

فهل يستطيع أنفٌ فقدَ حاسة الشم أن يستنشق عبير الزهور؟!

وهل تستطيع عينٌ أن ترى صفاء الطبيعة من وراء زجاج مغبش؟!

إن إزالة الموانع الذاتية والخارجية من الحواس توسع أمامها دائرة الإدراك، وتفسح أمامها دائرة الشعور، وكذلك القلب كلما ازداد طهرًا، ازداد من الله قربًا، وازداد اطلاعًا على أسرار العلم والكون، وصار موئلاً للتجليات الربانية.

وهذا القلب السليم هو مناط الفخر والفوز عند الله تعالى، كما قال سبحانه في كتابه الكريم:

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ. إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (الشعراء: ٨٨-٨٩)

ولكي نصل إلى هذا الوصف القرآني «قلبٌ سليم» نحتاج إلى باع طويل من التربية المعنوية.

هذه المدة قد تطول دهورًا، كما تفعل الأمواج بصخور الشاطئ، فهي على صلابتها وقساوتها ونتوءاتها، تفعل فيها الأمواج فعل السحر، فتهذبها وتشذبها، وتصقلها ناعمة ملساء.

كذلك الألماس الذي يعود في أصله إلى الكربون الأسود، يتحول بفعل الضغط والحرارة الهائلين إلى الألماس، ثم تتدخل يد الصانع الماهر الخبير لتقطيعه وإعداده وتصنيعه، فيَظْهَرُ للناس معدنُه الخاطف للأبصار، وكذلك الذهب الخام يكون مشبعًا بالأتربة والشوائب، ويصهر في حرارة عالية ليزول خَبَثُه، وكلما زادت عليه





النار، زاد صفاؤه، وارتفع معياره وقيمته[٤٠]، كذلك قلوب العباد، تزاد قيمتها ومعيارها وصفاؤها كلما زادتها يد الخبير تربية وتهذيبًا.

كما أن الحديد، الذي فيه بأس شديد، يخضع أيضًا للنار والكير، كي تنفي عنه خَبَثَه وشوائبه، ثم يعرض للنار مرة أخرى، ويُطرق حتى يتم تشكيله والانتفاع به، وبغير هذه المراحل: النار والإحماء والطرق، لا يصير حديدًا ولا يتم الانتفاع به. ولابد للقلب - كذلك - أن يمر بمثل تلك المراحل؛ ليحصل له النفع، وليدرك أعظم المعاني في عالم الحقيقة الذي لا يدركه الإنسان بحواسه، ولا يبلغه بعقله، إنما يصل إليه بقلب تربى وتدرب ونال قدرًا كافيًا - وفق طاقته - من الرياضة الروحية.

وهي مسألة تحتاج إلى تدريب طويل، كمثل الرياضي المبتدئ الذي قد يصاب بأذى إذا قام بحركة ما من دون مران، لكنه يؤدي الحركة نفسها بمهارة فائقة بعد فترة من المران، والقلب كذلك يحتاج إلى رياضة طويلة ومران صعب كي يتخلص من قساوته وشوائبه وصلابته وذنوبه، ثم تليّنه الرياضة المعنوية، وتجعله مَرِنًا رقيقًا مستعدًا للارتباط بالله الحق ﷻ، هذا اللين وتلك الرقة لا تكون إلا بكثرة ذكر الله تعالى، وبتنامي محبة النبي ﷺ.

يقول الحق تعالى في الآية الكريمة:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (الأنفال، ٢)

ثم يتدرج القلب بعد أن يتدرب، ويرتقي في العلوم، كالطفل الذي يتدرج في مراحل التعليم، ففي عامه الدراسي الأول لا يستطيع استيعاب كتاب مقرر في

٤٠ ثمة معنى لطيف هنا، ففي اللغة نجد عملية تنقية الذهب من الشوائب بالنار تسمى «الفَتن» وهي ما يطلق أيضًا على ما يتعرض له الإنسان من اختبارات وابتلاءات، فكلما زادت الفتن على العبد ازداد نقاءً من ذنوبه، كالذهب الذي يزيده الفتن نقاءً من شوائبه.





كلية الحقوق، فهذا يحتاج منه مستوى من النضج العلمي والذهني ما يفوق سنواته العشر، فما بالنا بالقلب الذي يحتاج مستوى من النضج يصل به إلى الله تعالى؟

هذا الطريق يبدأ أولاً بتخليص القلب من القساوة وتطهيره من الذنوب، وهو ما وضحه لنا القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة.

﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ (الأنعام، ١٢٠)

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ (الأنعام، ١٥١)

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف، ٣٣)

أي إن الإنسان مكلف بتفادي الآثام الباطنية، مثلما هو مجبر على الابتعاد من الآثام الظاهرية، حتى إن بعض الذنوب الباطنية، مثل الكِبر، والرياء، والحسد، والحقد، والغضب، والبخل، هي أشد خطرًا وأفتك أثرًا، والحديث الشريف يخبرنا بحقيقة أنَّه:

«لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبْر» (مسلم، الإيمان، ١٤٧)

وعن أبي هريرة ﵁ عن النَّبي ﷺ قال:

«إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسَّسوا، ولا تجسَّسوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخوانًا» (البخاري، الأدب، ٥٧)

ووفقًا للحديث؛ لابد للقلب من التخلص من سوء الخلق، ومن أمراضه المعنوية مثل الكبر، والحسد، والبخل، وغيرها من الأمراض، ولابد كذلك أن يتخلص من ذنوبه الظاهرية.

وكلاهما متعلق بالآخر، فالذنوب الباطنية وأمراض القلب تنعكس نتائجها على الظاهر، فتنتج الذنوب الظاهرية.





لكن الخطير في الأمر أن الذنوب الباطنية أكثر انتشارًا بين الناس رغم خطورتها؛ فهي لخفائها لا يُفْطَنُ إلى مدى توغلها وأثرها.

والقلب الذي يسعى إلى الارتباط بمولاه، والقرب منه سبحانه، ويطمح للتجليات الربانية والمكاشفات القلبية، يحتاج إلى التخلص من كل تلك الذنوب ظاهرًا وباطنًا؛ ويحتاج إلى التطهر الدائم منها، والابتعاد الدائم عنها، وهو ما يتطلب منه تربية معنوية خاصة، لا تكون إلا في التصوف.

ولأن القلب هو بوتقة الأسرار، فعليه ينعقد الأمر كله، عبادة وسلوكًا، رياضة ومجاهدة، علمًا وتقوى.

ويقول رسول الله ﷺ في الحديث:

«إن الله لا ينظر إلى أجسادكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم»، وأشار بأصابعه إلى صدره. (مسلم، البر، ٣٣)

والقلب مَعْقِدُ النية ومكمنها، والنية هي روح العبادات والسلوك، فإذا كانت النية مرتبطة بالله خالصة له سبحانه، تحولت العادات إلى عبادات، وتحولت الحركات إلى مجاهدات، وصار كلُّ فعلٍ يفعلُه الإنسانُ موجهًا في سبيل الله تعالى، حتى اللقمة التي يلقيها في جوفه، أو يطعمها لأهله.

فمثلاً نجد أن ارتداء العِمامة أو تغطية الرأس سنة نبوية يؤجَر فاعلُها، لكن الأجر هنا ليس منوطًا فقط بالمظهر؛ بل لابد أن يوافقه الـمَخبَر، فتكون الهيئة على منوال السنة، ويكون السلوك أيضًا على منهاجها، وإلا فلا أجر يُمنح ولا سُنة تُتبع؛ بل يصير الأمر تقليدًا شكليًا يؤتي نتائج عكسية، فيسوق المرءَ إلى العجب والتكبُّر بمظهره الخادع للناس ولنفسه.

وفي هذا المعنى يقول الشاعر التركي «يونس أمْرَه»:

لو كان التصوف في العباءات والعمائم   لاشتريناه من الأسواق ببضع دراهم





وينطبق الأمر -في المظهر والملبس- كذلك على المرأة، فالتستر في الملبس والحجاب هو فريضة واجبة على كل مسلمة بالغة، لكن إذا تحجب الجسد وعريت الروح، وإذا كان الحجاب ساترًا للبدن فحسب، ولم يكن ساترًا للسلوك؛ ينقلب الأمر إلى الضد، وحينها يكون الستر مجرد غطاء وإخفاء لسوء الحال، فالحجاب سلوك وليس لباسًا فقط.

وكلنا يعلم أن بناء المساجد له أجر كبير، فمن بنى مسجدًا في الدنيا بنى الله له قصرًا في الجنة، لكنه منوط أيضًا بنية العبد وقلبه، فإما أن يظل الأجر كبيرًا بتفويض الأمر إلى الله ونسبة الفضل إليه بقوله: «هذا من فضل ربي»، وإما أن يتضاءل الأجر حتى يصير هباءً منثورًا إذا داخله الإعلان عن الذات والإعجاب بالنفس في نسبة المدح لها بقوله: «أنا أفعل كذا» وحينها تحل كلمة «أنا» في القلب، فيخرج منه «الله».

والعبادات في الإسلام منوطة بأمرين: الشكل والروح، وهو ما عبّر عنه الفقهاء حينما قالوا: إن شرطَي قبول العبادة هما:

- أن تكون موافقة للشرع (في الشكل).
- أن تكون خالصة النية (لله وحده).

وقد حرص القرآن عند الحديث عن العبادات والسلوكيات أن يركز على الحالة الروحية والأحاسيس القلبية في أدائها، وليس على الحركات والسكنات، فتفاصيل العبادات وهيئاتها غير مذكورة في آيات القرآن، إنما تعلمناها من سنة النبي ﷺ.

فالقلب والروح هما الباعث في حسن أداء العبادات، وهما السبب في قبولها؛ لذا كانت التربية القلبية هي الضمانة الحقيقية للقبول والوصول، والتصوف هو وسيلة تلك التربية القلبية.



إن مظاهر العبادة يستطيع كلُّ فرد أن يؤديها، حتى لو لم يكن مسلمًا، فها هو رأس المنافقين عبد الله بن أُبي بن سلول، كان يصلي خلف رسول الله ﷺ، ولكن لا قيمة





مطلقًا لعبادات تنفصل فيها الحركات عن المشاعر، وأداء المنافقين هذا للعبادات قد يخادعون به الناس، أو يخدعون به أنفسهم، لكنهم لن يخادعوا الله تعالى الذي لا يقبل من العبادة إلا ما كان صادرًا عن القلب، مفعمًا بالروح.

وهذه الحقيقة – حقيقة قبول العبادة – من اليسير أن تطَّلع على أدلتها إذا حلَّلنا بصورة عامة الآيات والأحاديث التي تتحدث عن الصلاة والصيام والزكاة والحج التي تكوِّن أركان الإسلام، ومن هذه الآيات الآيةُ الكريمة التالية التي تتحدث عن الصلاة:

﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ (العنكبوت، ٤٥)، أي إذا لم تنهَ الصلاة الإنسان عن المنكر، فليست الصلاة التي يريدها الله تعالى من عباده.

ويقول الله تعالى في شأن أولئك الذين يصلون صلاة بالصورة فقط دون أن يكون فيها خشوع في القلب:

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ. الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ (الماعون، ٤-٥)

وفي آية أخرى يقول المولى ﷻ:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ (المؤمنون، ١-٢)

ونفهم من هذه الآيات الكريمة أن إحدى صفات المؤمنين المفلحين هي الخشوع في صلاتهم، فلكي يؤدي العبد الصلاة بمعناها الحقيقي، عليه أن يوفي بشروطها الظاهرية والباطنية كلها، فقد يصلي شخصان الصلاة عينها في المكان والزمان نفسه، لكن يكون الفرق بين صلاتيهما كالفرق بين السماء والأرض.

ويقول النبي ﷺ في الحديث الذي يشير فيه إلى ضرورة مراعاة الهيئة القلبية في الصلاة:

«**إن الرجل لينصرف وما كُتب له إلا عُشر صلاته، تسعها، ثمنها، سبعها، سدسها، خمسها، ربعها، ثلثها، نصفها**».[٤١]

٤١ أبو داوود، سنن، الصلاة، ٧٩٦.





ويقول الله تعالى في القرآن الكريم في مَعرِض ذكره لصفات المؤمنين:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (المؤمنون، ٩)

ويقول مولانا جلال الدين الرومي في المعنى الإشاري لهذه الآية الكريمة بالإضافة إلى معناها الظاهري:

«يستمرون على الحال التي كانوا عليها في الصلاة حتى بعد الانتهاء من أدائها».

ويقول أيضًا:

«إن الصلاة التي تهدينا إلى الصراط المستقيم وتنهانا عن المنكر، نؤديها خمس مرات في اليوم والليلة، ولكنك ترى العاشقين دائمًا في صلاة، لأن العشق المشتعل في أفئدتهم، والمحبة الإلهية التي تسكن ضلوعهم، لا تهدأ بهذه الأوقات الخمسة بل ولا بخمسمئة ألف وقت».

ويصوِّر يونس أمْرَه صلاة عشَّاق الله تعالى الذين استيقظت أفئدتهم من الغفلة فيقول:

العشق هو الإمام، والقلب هو الجماعة

هُم في صلاةٍ، متوجهين إلى الله في كل ساعة

فالمدة التي يقضيها العبد في أداء الفريضة وفي الصلاة هي دقائق معدودات لا تتجاوز العشر دقائق، لكن العبرة ليست في هذه الدقائق، إنما في الشحنة المعنوية التي تملأ بها فؤادك وروحك خلالها، لتنطلق في رحلة الحياة بمعين لا ينضب يوصلك إلى المحطة التالية بأمان، لتعاود التزود مرة بعد مرة بهذه الطاقة اللانهائية، فالصلاة تعطيك من الشعور ما يحفظ قلبك عن الغفلة طوال الفترة التي تلي الصلاة، فيظل القلب في حالته التي كان عليها، وكأنه في صلاة دائمة لا تنقطع، ولو لم يحافظ على هذا المستوى من الشعور في قلبه، لتراجع به إلى مستوى الغفلة، ثم نزل به دركات ودركات من الفسق والفجور.





أما هؤلاء الذين لا يدركون حقيقة الصلاة والخشوع فيها، فهم أهل الغفلة المحرومون من معاني الوقوف في الحضرة الإلهية، فإذا كانوا في الصلاة على هذا الحال فكيف يكون حالهم -إذًا- بعد الصلاة؟!

وها هنا أقصوصة ذات معنى عن متصوف يجاهد في طريق الوصول إلى الله تعالى، كان أحد الدرويش قائمًا يصلي بالليل في أحد المساجد مختليًا بربه، ثم بدأ المطر يهطل بغزارة، فأخذت شدة الأمطار بقلب الرجل إلى منزله وأهله، وذلك أثناء الصلاة، وعندئذ سمع صوتًا من أعماقه يهتف به ويحذره:

«أيها الرجل المصلي، إن صلاتك التي تؤديها لا قيمة لها، فقد أرسلت أهم وأجمل قطعة فيك إلى مكان آخر، أرسلته إلى منزلك، ولم تترك للمسجد ولصلاتك سوى بدنك».

وفي الحديث الشريف يقول النبي ﷺ:

«**وربَّ قائم ليس له من قيامه إلا السهر**»[42]

وخلاصة الأمر أن القلب ونضجه هو الركيزة الأساسية في الصلاة، وفي كل العبادات.

والصيام -كذلك- من العبادات القلبية رغم شروطها الظاهرية، فالصيام عبادة تمحو الذنوب وتزيلها، يقول النبي ﷺ:

«**من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا، غُفر له ما تقدم من ذنبه**» (البخاري، الصوم، ٦)

وليست الغاية من الصوم جعل الناس يعانون من الجوع، يقول الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ (البقرة، ١٨٣)، وهكذا يوضح الله تعالى أن الغاية من الصيام هي التقوى.

---

٤٢ ابن ماجه، الصيام، ٢١؛ أحمد بن حنبل، مسند، ٢، ٣٧٣.





فعبادة الصيام لا تؤديها فقط المعدة والفم، ولا يُسأل عن صحتها فقط الجهاز الهضمي؛ بل الجهاز الشعوري كله، فالجوع يمنح الفكر مساحات شاسعة، ويمنح الشعور آفاقًا رحيبة؛ لأن البِطنة تُذهب الفِطنة، والحرمان في الجوع والعطش يُبرر ما قد يُحرم منه القلب من المشاعر التي يفتقدها في زحام انشغاله بنفسه، فيتذكر العبد في حرمانه المؤقت مدى معاناة الآخرين في حرمانهم الدائم، عندها يدرك القلب مدى حرمانه هو الآخر من مشاعر الشفقة على هؤلاء، والرحمة والحرص على مساعدتهم وإسعادهم، فضلاً عن أن يؤذيهم بالغيبة والنميمة والبغض والكيد، ويدرك أيضًا مدى تقصيره في شكر النِّعم التي منحها له الله تعالى.

تلك هي بعض الفيوضات التي يمنحها الصيام للصائم، بشرط أن تصوم جوارحه قبل معدته.

يقول النبي ﷺ: «**رُبَّ صائم ليس له من صيامه إلا الجوع**»[43]

وإذا ما انتقلنا إلى عبادة الزكاة التي هي مظهر من مظاهر الإيثار لدى المؤمن، وجدنا أيضًا أنه من صفات المؤمنين التي ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿**وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ**﴾ (الذاريات، ١٩)

فإذا اكتملت الدائرة الشعورية وعرفنا ذلك الحق، حينها يتواصل الإحساس بين اليد التي تعطي والنفس التي تسمح وتسامح، وبين القلب الذي يؤمن أن المال المؤدَّى إنما هو حق الفقير في مال الغني، وليس على الإطلاق منحة أو فضلًا من المزكِّي، وأنه حين يُعطيه للفقير فهو إنما يعيد الحق لأصحابه، ويُسلِّم عيال الله حصتهم في مال الله الذي هو مؤتمن عليه، ومكلف بأدائه لأصحابه، ولا ينتظر من الفقير دعاءًا ولا شكرًا؛ بل المزكِّي هو الذي يشكر الفقير؛ لأن الفقير قد ساعده في أداء الفريضة، وتنفيذ المهمة التي لو قصَّر فيها لكان عرضة لجزاء الخائن المختلس، والتي حين يتمها على وجهها الأفضل ينال الجزاء الأوفى في الدنيا والآخرة.

---

٤٣ ابن ماجه، الصيام، ٢١؛ أحمد بن حنبل، مسند، ٢، ٣٧٣.





ولكي يصل المؤمن الكامل إلى سرِّ قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

«إن الصدقة تقع في يد الله قبل أن تقع في يد السائل»[٤٤]، عليه أن يتصدَّق وكلُّه إيمانٌ أنَّ المال قد أعطاه في الحقيقة ليد القدرة الإلهية... وهذا هو المعيار القلبي الذي يحفظ كمال عبادة الزكاة.

وليس الوصول لهذه الحال مستحيلاً ولا خيالاً، فقد كان سلفنا الصالح يزينون صدقاتهم، ويعطرون دراهمهم؛ لأنها سوف تقع في يد الله تعالى قبل أن تقع في يد السائل الفقير، وليس ذلك من قبيل المبالغة ولا التخيل؛ إنما هي حقيقة واقعة صرح بها القرآن حين قرّر أن الله تعالى هو الذي يتقبل الزكوات:

﴿**ويأخذ الصدقات**﴾ (التوبة، ١٠٤).

هذه الحقيقة القرآنية يفتقدها أولئك المتعجرفون بأموالهم، الذين يُتبِعون صدقاتهم بالمن والأذى، وهم حقيقة لا يؤذون الفقراء، إنما يؤذون أنفسهم بحرمانها من الأجر والمشاعر الراقية، ويحرمون قلوبهم من الحالة الشعورية الراقية التي تمنحها لهم الزكاة.

وتظهر هذه الرقة القلبية أكثر في عبادة الحج، ويبدو للوهلة الأولى الشكل الظاهري والبدني راجحًا في هذه العبادة، من الإحرام والطواف، إلى الوقوف على عرفات، ثم الذهاب إلى مزدلفة والنحر، لكن كل هذه الشعائر هي الشكل الظاهري للحج فقط، أما الحالة الشعورية التي يحياها الحاج أثناء هذه الشعائر؛ بل التي تعكسها هذه المظاهر، فإنها تُذكِّر المسلم بيوم الحشر، وتضحيات أنبياء الله عليهم السلام ولبس الكفن والتجرد من كل مظاهر الدنيا، والحساب الإلهي الذي يجب على المسلم أن يبدأه مع نفسه في الدنيا، قبل أن يفاجئه طول الحساب وثقله في الآخرة.

---

٤٤ الطبراني، المعجم الكبير، جـ٩، ١٠٩؛ الهيثمي، جـ٣، ١١٠-١١١؛ انظر أيضاً رواية مشابهة: البخاري، التوحيد، ٢٣.





وفي الحج يتجرد الناس من الملابس، فتذوب الفوارق وتزول الرتب، ويلبسون أشباه الأكفان فيكون التجرد -ولو مؤقتًا- من كل متاع الدنيا، ويؤدي الجميع فعلاً واحدًا، وقولًا واحدًا، بل يمتنع الجميع عن كثير من المباحات، ويصير بعض الحلال حرامًا مؤقتًا، حتى بعض خطرات النفس وزلات اللسان.

إنها نوع خاص من التربية ومستوى رفيع من الإعداد القلبي.

ومرة أخرى فإن هذه الحركات والشعائر ليست مطلوبة لذاتها، إنما لما وراءها من المعاني، وهذا ما يؤكده القرآن في حديثه عن الأضحية في الحج؛ إذ يقول:

﴿لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ (الحج، ٣٧)

هذا القبول للأضحية والقربان أو رفضه؛ إنما هو منوط برضا الله تعالى عمن قدمه، وعن نية صاحب القربان وغرضه، وهو ما حكاه القرآن في قصة ابني آدم عليه السلام، فقال:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (المائدة، ٢٧)



وبعد أن استعرضنا هذه العبادات وما وراءها من المعاني، وما ترمي إليه من الأغراض، فقد اتضح لنا أن هذه العبادات لن تكون «مقبولة»، ولن تكون «صالحة» إلا إذا أداها القلب قبل الجوارح، بصفاء نية، وصدق توجه إلى الله وحده.

لكن ثمة استدراك هنا؛ إذ لا ينبغي أن نفهم من ذلك أن شروط إخلاص النية وصفاء القلب إذا لم تتحقق؛ فعلى الإنسان ترك العمل والإعراض عن العبادة تمامًا، بحجة عدم استعداد القلب للأداء، أو عدم صلاحية النية للعمل، وإلا فلن يتم عمل ولن تتم عبادة، فمَن مِن الناس يملك قلبه؟!





ولكن ما ينبغي أن نفهمه هو وجوب السعي المتواصل كي نصل بالأعمال والعبادات إلى هذه الدرجة من الكمال شيئًا فشيئًا، وأن نحقق في أعمالنا وقلوبنا هذه المعاني من الخشوع والإخلاص والتقوى.

وهو طريق طويل وشاق يحتاج إلى طول مجاهدة مع صبر وتحمل، مع ابتهال إلى الله تعالى ورجاء بأن يعينك على سلوك الطريق، وأن يمنحك من فيضه وكرمه ولطفه.

وفي خضم ذلك كله يرسخ في أذهاننا وأفهامنا أن التصوف هو الطريق للوصول إلى هذه المعاني والحالات عبر أساليبه المميزة والمتفردة في التربية؛ لذا فقد تعرض لهجمات شرسة من أعداء الإسلام، وأعداء الدين من بني جلدتنا. وعلى الجانب الآخر نجد محاولات استلاب الإسلام وتفريغه من محتواه، وتصويره على أنه مجموعة من النظم المتحجرة الفارغة المضمون، الخالية من المشاعر والمعاني.

وقد استغل هؤلاء بعض الأخطاء التي ظهرت لدى بعض أهل التصوف- وهو أمر بشري طبيعي- فنسبوا هذه الأخطاء الشخصية إلى التصوف نفسه بعد أن بالغوا في تصويرها، هادفين إلى الطعن في التصوف ورفضه، وصدِّ الناس عن سبيله، وإغلاق الباب في وجوه المريدين الساعين إلى تربية قلبية.

ولنا هنا أن نتساءل؛ هل إذا أخطأ طبيب ما في علاجك، يكون ذلك مدعاة لك أن تترك الطب كله؟ ومن ناحية أخرى، هل تصلح المعايير المادية الجامدة لنقيس بها شيئًا معنويًا حسيًا، وهل يصلح أناس عاديون فاقدو المعاني والأحاسيس، كي يحكموا على التصوف وأهله؟

فالأشخاص الذين يحيون حياة عادية روتينية، محرومين من التفكير، محرومين من المشاعر، مفتقدين للمحبة والعشق، لا تمر الحوادث على قلوبهم ولا يعرفون من عالمهم الروحاني شيئًا. هل هؤلاء لديهم القدرة على العيش حياة التصوف أو الوصال مع الله تعالى؟ ليس قبل أن يتجردوا من هموم الدنيا وشواغل القلب، وتصفوا أرواحهم وتسمو غاياتهم.





إن التصوف في إحدى حقائقه هو مسؤولية إنسانية، والمتصوف هو ذلك الإنسان الذي يحمل على عاتقه مسؤولية هداية المجتمع إلى سبيل الحق وطريق الله تعالى، فالمتصوف بعد أن فهم القرآن وتشربت روحُه حقائقَه، وعاش عالم القرآن متجردًا من عالم الدنيا، متعمقًا في عالم الروح، واصلاً إلى عالم الحكمة؛ كل هذه العوالم التي يعيشها المتصوف في ظلال القرآن الكريم، يتمنى أن يوصل إليها كل أفراد مجتمعه ليعيشوها كما عاشها هو.

يروى أن الشيخ نجم الدين كُبرى -وهو أحد أولياء الله- مشى في جنازة رجل صالح، وأثناء التلقين، تبسم الشيخ نجم الدين، فاحتار الطلاب في سبب تبسمه المفاجئ، وسألوه عن الحكمة في ذلك، لكن سيدنا نجم الدين لم يرغب في توضيح ذلك، إلا أنه بعد إصرار الطلبة قال:

«قلب الملقِّن غافل، أما قلب الميت في القبر فحيٌّ، فتعجبت للغافل يلقِّن من قلبُه حي».

إذًا، حالة من يرفض التصوف وينكره باسم العلم هي مثل حالة الميت الذي يلقِّن الحي، هي حالة تثير الدهشة. ولا ريب أن نجاح جهود أهل التصوف وأعمالهم على مدى التاريخ هو السبب في إبقاء الحياة الدينية حيَّةً وانتقالها إلى الأجيال القادمة، وفي إرشاد الناس وتبليغ الإسلام.

ويبيِّن محمد حميد الله -وهو من أبرز علماء الإسلام في القرن الماضي- هذه الحقيقة بقوله:

«لقد كانت العقلانية هي النمط الذي تربيت عليه، وكانت دراساتي وبحوثي تحملني على رفض كل شيء لا يمكن تعريفه وإثباته بصورة مقنعة، وبالطبع كنت أؤدي فروض الإسلام، مثل الصلاة والصيام وغيرها، ليس لأسباب تصوفية، وإنما لأسباب شرعية.

وكنت أقول لنفسي: إن الله تعالى هو ربي ومولاي، وقد أمرني أن أفعل هذه الأشياء، ولهذا يجب عليَّ أن أقوم بهذه الواجبات. فضلًا عن هذا كله، يرتبط الحق





والواجب كل منهما بالآخر، والله تعالى قد أمرني بذلك كي انتفع واستفيد منه، وواجبي في تلك الحالة أن أشكره.

ومنذ أن بدأت العيش في مجتمع غربي في باريس، كنت أشعر بدهشة وحيرة من قبول النصارى للإسلام، ذلك أن ما دفع هؤلاء إلى اعتناق الإسلام ليست آراء علماء الفقه والكلام، بل هم الصوفيون مثل ابن عربي، ومولانا جلال الدين الرومي. وكنت في هذا الموضوع شاهد عيان، فعندما طُلب مني إيضاح إحدى الموضوعات الإسلامية، فلم تكن أجوبتي وأدلتي العقلية مقنعة للسائل، ولكن الإيضاح الصوفي لم يتأخر عن إعطاء ثمرته، وبدأت أفقد بالتدريج قوة تأثيري في هذا الموضوع، والآن أنا مؤمن أن الذي سيخدم الإسلام اليوم لا سيما في أوربا وأفريقيا، ليس السيف أو العقل، بل هو القلب- أي التصوف- كما كان الحال في زمن (قزان خان) عقب الدمار والخراب الذي سبَّبه هولاكو.

وبعد رؤيتي الجديدة في هذا الموضوع، بدأت في دراسة بعض المؤلفات التي كُتبت في موضوع التصوف، مما فتح عيون قلبي، وفهمت أن التصوف الذي كان في عهد النبي ﷺ وكان منهج كبار متصوفة الإسلام، لم يكن الانشغال بالكلام فقط أو بأشياء لا معنى لها، بل كان السير في أقصر طريق بين الإنسان وربه ﷻ، والبحث عن تنمية الشخصية وتطويرها.

ويبحث الإنسان بطبعه عن أسباب الواجبات التي كُلف بها، لكن الشروح المادية في المجال المعنوي تُبعدنا عن الهدف، أما الشروح المعنوية فهي التي تُقنِع الإنسان»[٤٥].

ونفهم من هذا التوضيح أن رفض التصوف المطابق تمامًا للقرآن والسنة كُفرانٌ بالنعمة، عاقبته ضياع وتِيه.

---

٤٥ محمد عزيز لحبابي، شخصية الإسلام، ترجمة، إسماعيل حقي آقن، ص ١١٤-١١٥، هامش٨، اسطنبول، ١٩٧٢. وهذا الهامش هو نص الرسالة المؤرخة في٢٧ سبتمبر/ أيلول ١٩٦٧ والذي كتبه محمد حميد الله إلى المترجم.





ويقول مولانا جلال الدين الرومي:

«إذا فقد أنفك حاسة الشم، فلا تَلُم الوردة».

وثمة جانب آخرُ شديد الأهمية في دور التصوف ومسؤوليته والمهمة المنوطة به، وهي إصلاح المجتمع والعبور بالناس إلى الجانب الآخر من صحراء الدنيا إلى ظلال الروح وجنة القلب، فأسلوب التصوف وطريقته في هذا الإصلاح هي المحبة والرأفة، وهي طريق تختلف عن الأساليب الشرعية الفقهية المتبعة في الترغيب والترهيب.

ففي عالم غارق في شهوات النفس واستعباد العقل وسيادة المادة، وفي وسط أناس قد أسرتهم الدنيا وأهلكتهم الذنوب، ولم يعد لديهم أمل في النجاة؛ في هذا الخضم الهائل الخطر، تبرز أهمية المحبة والرأفة أسلوبًا للإنقاذ والعلاج والهداية، ووسيلةً معنوية تغدو بها قلوب الناس لتخاطب أرواحهم، وتحظى بالفتوحات المعنوية في أرض مادية قاحلة، فتهب نسائم الإسلام الإلهية كنفحة صوفية تواسي الهلكى، وتحملهم بوداعة إلى سبيل النجاة والفلاح.

لذا؛ لم تكن المحبة مجرد وسيلة وأسلوب صوفي للدعوة؛ بل كانت المحبة من أسس التصوف وحقائقه، ومن أبرز قواعده التي بنيت عليه وسائل الدعوة إلى الله، ونشره الإسلام في ربوع الدنيا.

وها هو واحد من تلك البقاع التي دخلها الإسلام على أيدي أولياء الله من أهل المحبة، يبين موقفه من أولئك الأولياء أمثال: عبد القادر الجيلاني، ويونس إمره، وبهاء الدين النقشبندي، ومولانا جلال الدين الرومي، إنه الفيلسوف والشاعر الإسلامي الكبير محمد إقبال؛ إذ كان قادمًا من بلاد الهند [باكستان]، ودخلت الطائرة المجال الجوي التركي، وفجأة يهب الرجل واقفًا، ويأبى الجلوس، وكان إقبال من عشاق مولانا جلال الدين الرومي، فلما سأله رفاقه عن ذلك قال:

«إن هذا التراب هو تراب مبارك يضم قبر مولانا جلال الدين الرومي، والشعب الذي يعيش في هذا المكان المقدس هو شعب مقدس أيضًا، فقد حافظوا





على الإسلام لسنوات طوال، وقد ساهم الشعب التركي في نشر الإسلام في بلادنا، لهذا فأنا أكنُّ كل الاحترام والتقدير في قلبي لمولانا الرومي ولشعبه النبيل، وهذا ما جعلني أقف احترامًا».

هذا النموذج الحي لامتداد أثر المحبة الصوفية من جيل الأولياء في الماضي البعيد إلى جيل الفلاسفة والمفكرين الذين يقودون الفكر الإسلامي في الحاضر، يدل دلالة قاطعة على أن للمحبة الأثر الأقوى والأكثر استمرارًا ونفوذًا، وها هي ثمار المحبة ينال جناها آلاف من الشخصيات النادرة مثل ثمار العشق، والوجد، والرقة، واللطافة، والمعرفة، والخلق الرفيع، عبر الأجيال والقرون، وبامتداد المسافات والبلاد.







التصوف هو الإلمام المتكامل والمتوازن بعلوم الظاهر والباطن، انطلاقا من الحقائق والعلوم الظاهرية، وصولاً إلى قمة المعارف المعنوية




ح. علاقة التصوف بالعلوم الأخرى:

خلق الله تعالى في فطرة الإنسان ميلاً طبيعيًا إلى المعرفة، ورغبةً في الاطلاع، مع فضولٍ يدفعه إلى البحث؛ هذه الدوافع تطورت مع الإنسان طوال وجوده وتفاعله مع الحياة، فتطورت العلوم والمعارف، حتى صارت هذه العلوم بشُعَبِها وفروعها شبكةً ممتدةً تتلاقى خيوطُها في نقاطٍ مشتركة مع العلوم التي تنبع من أصل واحد، وتعتمد على حقائق واحدة رغم تباين طرق البحث، ورغم البون الشاسع بين ما هو فيزيائي، وما هو فلسفي أو ديني أو فني.

لكنها في النهاية تصُبُّ في بوتقة التصوف إذا بُحثت بمنظور «الحكمة»، وهو ما نحاول تجليته في الصفحات الآتية، حيث سنحلل علاقة التصوف بالعلوم الأخرى في الأقسام الخمسة على الوجه الآتي:

١. التصوف والعلوم الإسلامية الأخرى (علم الكلام - التفسير - الحديث والسيرة - الفقه).

٢. التصوف والعلوم الطبيعية.

٣. التصوف والأدب.

٤. التصوف والفنون الجميلة (الموسيقى - العمارة - الخط).

٥. التصوف والفلسفة.





١ . التصوف والعلوم الإسلامية الأخرى.

غاية خلق الله للإنسان، وأساليب تحقيق هذه الغاية قد فصَّلها الدين ويسَّرها، وعلوم الدين التي نشأت وتنامت في رحاب الدين إنما تطورت لأجل توضيح هذه الغاية، فغاية خلق الإنسان وغاية الدين هي العبادة، والعبادة في معناها الإسلامي الشامل تشمل واجبات المسلم تجاه ربه ﷻ، وتجاه مخلوقات ربه، وتجاه كتاب ربه المسطور (القرآن)، وتجاه كتاب ربه المنظور (الكون)، والتصوف هو روح هذه العبادات، وهو القلب الذي يؤديها، والبصيرة التي تدركها، والفهم الراقي الذي يحصِّل معانيها فيحسن أداءها، وهو القواعد الحسية والمعنوية التي تعطي الروح والحياة للقواعد الأكاديمية الجافة لهذه العلوم، سواء كانت علومًا دينية أو علومًا دنيوية، وكلها في النهاية علوم للإنسان ولخدمة الإنسان ولهدايته في درب الحق للوصول إلى الحق.

والعبادات -على سبيل المثال- ليست مجرد حركات تؤدَّى، ولا ألفاظًا محفوظة، ولا عادات روتينية فحسب، إنما هي عبادات غايتها الخشوع، ووسيلتها الخشوع، وروحها الخشوع، وهذا الجانب القلبي الأصلي فيها أكدته آيات القرآن الكريم مرارًا وتكرارًا.

حتى الإيمانُ نفسُه من شروطه التصديقُ بالقلب والإقرار بالجوارح بعد الإقرار باللسان، والتصوف هو الذي يهتم بذلك التواصل ما بين الجانبين الظاهري والباطني من أعمال العبادات.

ولا سبيل إلى تحصيل حقيقة العلوم الظاهرية دون الاعتماد على المشاعر القلبية بالتوازي مع القواعد والأساليب العقلانية، فالعلم الذي يفتقد الخشوع -كجسد فاقد للروح- علم لا فائدة تُرجى منه، فها هم علماء بني إسرائيل حصَّلوا علمًا جمًّا، لكنه لم يتجاوز عقولهم إلى مشاعرهم ولا إلى قلوبهم، فكانوا كما قال الله تعالى:

﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ (الجمعة،٥)





وقبل أن نورد تفاصيل علاقة التصوف بفروع العلوم الإسلامية، نؤكد على حقيقة أن سبب الجدل الذي يقع أحيانًا بين التصوف والعلم إنما هو لخلل في التواصل بين الجانبين، فإذا تم إصلاح هذا الخلل وجدنا الجانبين في تناغم وتواصل، يكمل أحدهما الآخر.

أ. التصوف وعلم الكلام

من نافلة القول أن نذكر تعريف علم الكلام، وهو العلم الذي يتحدث عن ذات الله تعالى وصفاته ووحدانيته، وهو من أعلى العلوم كَعْبًا وأشرفها قَدْرًا، لدوره في إثبات العقائد ومواجهة شبهات المشككين ودحض أباطيلهم، وإقناع الناس -باستخدام المنهج العقلي- بالإسلام وحقائقه.

بينما يعتمد التصوف المنهج القلبي في معرفة الله تعالى وتعريف الناس به وبصفاته وكمالاته ﷻ.

وثمة تلاقٍ بين علم الكلام والفلسفة في المنهج العقلي إثباتًا للحق ودحضًا للباطل، لكن علم الكلام منضبط بضوابط الشرع، مبنية قواعده على القرآن والسنة، يزاوج بين «العقل» و«النص».

فالعقل يثبت الحقيقة بمنطق السبب والمسبب، أو بمنطق الأعرابي:

«البعرة تدل على البعير، وأثر السير يدل على المسير، وسماءٌ ذات أبراج، وأرضٌ ذات فجاج، أفلا تدل على اللطيف الخبير».

فإذا كان العقل والمنطق يكفيان في إثبات كثير من الحقائق في عالم الشهادة، فثمة مواضع وحقائق لا يكفي فيها المنطق، ولا يقدر عليها العقل وحده، وهو ما يجعلنا في حاجة دائمة وماسة إلى القلب والمشاعر في إدراك وإثبات ما يعجز عنه العقل، مما يجعل للتصوف اليد العليا في الوصول إلى أدلة قاطعة عقلية وقلبية، بأساليب الإلهام والكشف، والتجليات المنضبطة بحدود القرآن والسنة.





وليس ثمة تعارض بين التصوف وعلم الكلام؛ بل تكامل وترابط، فعلماء الكلام- كما أسلفنا- ليسوا فلاسفة في اعتماد العقل وحده، بل يمزجون العقل بالنص، والشريعة بالحقيقة.

وتُحدثنا حوادث التاريخ عن كثيرٍ من علماء الكلام الذين اعتمدوا أفكار الصوفية وآراءهم منهاجًا وواقعًا، فعلم الكلام يرتقي بالذهن والحواس إلى درجة من النضج تلبي جزءًا لا يستهان به من حاجات الإنسان.

ويأتي ذلك التكامل بين التصوف وعلم الكلام من جهة أن العقل له قدرات محدودة، لاسيما فيما يتعلق بالعلوم الباطنة والغيبيات وما وراء الطبيعة، وعالم الملكوت، فيقف العقل والذهن عند حدوده، ولا يستطيع تجاوزها، وهنا يأتي دور التصوف ودور القلب عبر وسائله الخارقة للطبيعة في المعرفة مثل الكشف والإلهام، والسوانح القلبية والتجلي.

ليس ذلك فقط، فحتى الإدراكات العقلية والذهنية لابد أن تمر بالأحاسيس والمشاعر حتى تدرك كنهها وتصل إلى حقيقتها.

وما يمكّن القلب من الوصول إلى درجة مناسبة من الإدراك والكشف هو ذكر الله تعالى، وبهذا الذكر يقود التصوف كل الناس – على اختلاف قدراتهم العقلية – إلى الإيمان المطلق بوجود الله تعالى ووحدانيته.

ويبيِّن فخرُ الدين الرازي -أحدُ أشهر المفسرين وعلماء الكلام- هذه الحقيقة قائلًا:

«مهما بدت طرق علم الكلام غير كافية للوصول إلى الحقيقة، فإنها تبقى الخطوة الأولى المهمة للعبور إلى التصوف، فلا يصل المرء إلى درجة الكمال إلا بعد انتقاله من العلوم الشرعية التي تستند إلى الظاهر، إلى العلوم الباطنية التي تستند إلى معرفة حقائق الأحاديث»[٤٦].

---

٤٦ محمد صالح الزركان، الرازي وآراؤه الكلامية والفلسفية، ص ٧٦؛ نقلًا عن: محمد عابد الجابري، بنية عقل الثقافة العربية الإسلامية، ص ٦٢٦.





ب. التصوف والتفسير

إذا كان موضوع علم التفسير هو الإعراب عن المعاني العميقة المركوزة في آيات القرآن الكريم، وإظهار حقائقه ودقائقه، فإن التفسير بذلك يصبح من أهم وسائل التصوف ومن أنجع أدويته وعلاجاته، فالقرآن هو المصدر الأساسي للتصوف.

وهدف التصوف هو نفسه هدف القرآن في الرقي بالشعور الإنساني إلى درجة الإيمان، والوصول بالإيمان إلى درجة الإحسان، وتحلية المؤمن في ظاهره وباطنه وسلوكه بصفات الكمال، وإكساب أحاسيسه ومشاعره وقلبه وعباداته ومعاملاته مَلَكة المراقبة الإلهية، والعيش الدائم بذكر الله تعالى.

هذا الذكر الذي هو القرآن، جعله المتصوفة دينهم وديدنهم، وقطب دائرة وجودهم، ليلاً ونهارًا، وفي السحر، تلاوة وتفكرًا وتدبرًا؛ هو وِردهم اللساني والعقلي والقلبي. وهم بذلك يعيشون بالقرآن، ويعيشون للقرآن، ويصير القرآن محورَ حياتهم، هؤلاء هم المتصوفون حقًا، الذين ساروا بالقرآن سيرة النبي الذي كان قرآنًا يمشي على الأرض.



لقد كانت مساهمات أهل التصوف في علم التفسير مساهماتٍ ذاتَ أثر جليل، فقد انتقلوا بهذا العلم نقلة نوعية، وعبروا به من حدود المعاني الظاهرة إلى حدود المعاني الباطنة، ومن المعاني اللغوية إلى المعاني الإشارية، ومن قيود اللغة وحروفها إلى رحابة أعماق المعاني والدلالات.

فمن ضيق الأفق أن نقصر معاني القرآن ونحبسها في إسار الحروف اللغوية والكلمات البشرية ذات المعنى المحدود، فهذه الآيات الإلهية تحتاج إلى طور فوق أطوار العقل لندرك عالمها ورحابة آفاقها؛ لكن ينبغي التنبيه هنا إلى أن هذا العلم -علم التفسير الإشاري- له أيضًا نُظُمه، وثمة أمور لابد من مراعاتها عند تقديم المعنى الإشاري لآيات القرآن الكريم، لعل أهمها أمور ثلاثة:





١. عدم التناقض بين المعنى الإشاري والمعنى الظاهري.

٢. أن يكون المعنى الإشاري الجديد مطابقًا للكتاب والسنة.

٣. ألا يخرج المعنى الإشاري عن سياق اللفظ واللغة في الآيات.

ومن أشهر كتب التفسير الإشاري للقرآن الكريم:

- كتاب «حقائق التفسير» لأبي عبد الرحمن السلمي.
- كتاب «لطائف الإشارات» للإمام القشيري.
- كتاب «روح البيان» لإسماعيل حقي البورصوي.

إضافة إلى مؤلفات أخرى لكبار المتصوفة ثرية بهذا النوع من المعاني اللطيفة للتفسير الإشاري؛ مثل: كتب ابن عربي، ومولانا جلال الدين الرومي.

وفي الحقيقة، كما أن إدراك ذات الله تعالى وصفاته ضرب من المستحيل، فكذلك إدراك كل مرامي كلام الله غير ممكن عبر الألفاظ البشرية، حتى بالمعاني الإشارية، وكل الذي يمكننا فهمه ونقله هو مجرد حبة رمل من جبل، وقطرة من محيط، وتُعبِّر هذه الآية الكريمة عن هذه الحقيقة أجمل تعبير:

﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (لقمان، ٢٧)

ويبيِّن الله تعالى في هذه الآية الكريمة أن كلامه أعلى وأعمق من كلام البشر، وأن علمه لا حدَّ له، وذلك كي يسعى الناس جاهدين لفهم معاني القرآن الكثيرة، ولتنفتح لهم آفاق رحيبة في الفهم والتصوف، والغوص في المعاني والدلالات، وقد قال سيدنا محمد ﷺ عن بعض خصائص القرآن الكريم:

«**ولا تنقضي عجائبه**» (الترمذي، فضائل القرآن، ١٤)

ويقول مولانا جلال الدين الرومي في معنى الآية:





«من الممكن كتابة ظاهر القرآن الكريم بأُوقية من الحبر، ولكن ليس في الكون شيء يكفي لتوضيح أسراره، حتى لو صارت البحار كلها حبرًا والأشجار كلها أقلامًا».

لقد أوضحت هذه الآية، وكذلك هذا الحديث حقائقَ هائلة، فقد حفل القرآن الكريم بحقائق ومعانٍ لا حصر لها، ثم تناولها بكلمات شديدة الاختصار، أو إشارات عميقة اللطف. إنَّ كلماتِ القرآن وحروفَه هي مجرد بذور تحمل في أعماقها عوالم أخرى لا متناهية من الحيوات والعوالم والثمار والفروع، وهي تحتاج إلى قلب سليم خِصْبٍ يستطيع أن يُنمِّي هذه البذور.

ولو أن هذه الحقائق كُتبت بشيء من التفصيل أو التوضيح في القرآن لاحتاج ذلك إلى عدد لا يحصى من المجلدات، لكن اللبيب تكفيه الإشارة.

هذه الإشارة هي ما قصده أهل العلم عندما عددوا صفات وشروط العلوم اللازمة التي يجب توافرها فيمن يتصدى للتفسير، وأهمها «العلم الوهبي» أو الموهبة والقدرة الخاصة التي لا تتوافر لأي عالم، فقط توجد لدى العلماء الربانيين، الأتقياء الأنقياء الأولياء، أو بمعنى آخر العلماء العاملين.

ويشير قول عيسى بن مريم عليه السلام إلى هذه الحقيقة: «من عمل بما يعلم ورَّثه الله علم ما لم يعلم». (أبو نعيم، الحلية، جـ١٠، ١٥)

وهذا يعني أنه طالما ثمة أمراض قلبية، مثل الكبر والغرور والحسد وحب الدنيا، تمنع من فهم آيات الله تعالى، ولم تُعالج بالتطهير والتربية الصوفية، فلا يمكن لأي امرئ أن يأخذ نصيبه من أسرار القرآن الكريم، وتوضح الآية الكريمة هذا الأمر بصراحة جلية:

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ (الأعراف، ١٤٦)

أي إنه لا ينال أسرار القرآن الكريم إلا من تربى على أخلاق القرآن.





ت. التصوف وعلم الحديث والسيرة

علم الحديث هو العلم الذي يبحث في أقوال النبي ﷺ، وأفعاله، وتقريراته، وصفاته الخَلقية، وأخلاقه الحميدة.

ويتخذ التصوف -مثل العلوم الإسلامية الأخرى- الحديثَ النبوي المصدر الثاني له بعد القرآن الكريم، والأحاديثُ الشريفةُ مصدرٌ شديد الثراء، فهو يشرح حياة سيدنا محمد ﷺ بكل ما فيها من أبعاد مادية ومعنوية، وقد لعبت دورًا حاسمًا في تكوين التصوف وتطوّره، فالأحاديث الشريفة التي تناولت الأمور القلبية مثل الزهد، والورع، والإحسان، والتواضع، والإيثار، والصبر، والشكر، والتوكل، هي الأساس والمنطلق لأفكار أهل التصوف ومفاهيمهم.

إن أحاديث الرسول ﷺ وتصرفاته المتعلقة بحياته الروحانية في المسائل التي تتعلق بالتصوف، قد قاربَت بين التصوف وعلم الحديث بحيث وصلا إلى حالة من التماهي يصعب الفصل بينهما.

وقد وضَّحنا في العلاقة بين التصوف وعلم التفسير أن غاية أهل التصوف هي التقرب إلى الله تعالى والحياة مع القرآن الكريم، ولأن أهل التصوف يعرفون حق المعرفة أن الوصول إلى محبة الله تعالى تتحقق بالسير على خطى الحبيب محمد ﷺ، فقد جعلوا اتِّباعه في كل أمر شعارًا لهم، والسيرَ على منهاجه سبيلَ نجاتهم ووصولهم، وبذلك عاشوا السُّنَّة وحققوا معانيها وحصَّلوا كنوزها.

ويلخِّص الشيخ نقشبند طريقته بأنها على نهج السنة النبوية الشريفة وعلى نهج أصحابه من بعده[٤٧]، فهو يقول:

«إن كل ما حصلنا عليه بلطف الله (من العلوم الباطنة)، كان حصيلة العمل بآيات القرآن الكريم وأحاديث سيدنا محمد ﷺ، ولكي نحصل على نتيجة هذه

٤٧ محمد باقر، مقامات سيدنا نقشبند، البخاري ١٣٢٨/ ١٩١٠، ص ٥٨.





الأعمال، لا بُدَّ من مراعاة التقوى والقواعد الشرعية، والعمل بعزيمة وفق مناهج أهل السنة والجماعة وتجنب البدع»[٤٨].

وهذا العمل بمقتضى منهج أهل السنة، وهذا السير على خطى المصطفى ﷺ هو توجيهٌ قرآني بالطاعة والاتباع والاهتداء والتأسي؛ لكنه في البداية يحتاج إلى المحبة، ثم هو يتطلب النماذج الحية الواقعية التي تقرب المعاني القلبية إلى الأفهام البشرية، وهو ما تُمدنا به كتب الحديث والسيرة مددًا لا ينقطع، وكذلك كتب التراجم -سِيَر الصحابة والتابعين والصالحين والأولياء- التي تؤرخ لهذا المدد المستمر، وتُواصِل تتبع امتداد هذه الأخلاق علمًا وعملاً وحياة وواقعًا من لدن الحبيب ﷺ إلى يومنا هذا. لقد كانت حياته ﷺ هي المعيار في التربية الصوفية التي يرعاها أولياء الله، هذا المعيار هو الدليل الحي والواضح على التطابق المطلق بين المنهاج الصوفي وجوهر المنهاج القرآني والنبوي الشريف.

إن التطبيق العملي الواقعي -من لدن أهل التصوف- للسيرة والسنة النبوية، ونقلها من الجانب النظري إلى الجانب الواقعي، هو من تلك الفضائل التي تعكسها حياة أهل التصوف.

ولنذكر هنا بعض الأمثلة:

قال الشيخ أبو يزيد البسطامي لأحد طلابه: «قم بنا حتى ننظر إلى هذا الرجل الذي قد شهر نفسه بالولاية وكان رجلًا مقصودًا مشهورًا بالزهد، فمضوا إليه، فلما خرج من بيته ودخل المسجد، رمى ببصاقه تجاه القبلة، فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه، وقال: هذا غير مأمون على أدبٍ من آداب رسول الله ﷺ فكيف يكون مأمونًا على ما يدعيه (من أسرار الحق)»[٤٩].

٤٨ يعقوب الجرخي، الرسالة الأنسية (محمد نذير رانجها)، إسلام أباد ١٩٨٣، ص١٤.

٤٩ القشيري، الرسالة، ص٥٧، ٤١٦-٤١٧.





وكان هذا الإمام الرباني معروفًا بشدة اتباعه لسنة الحبيب المصطفى ﷺ في كل حركاته وسكناته، وكان هذا الاتباع وصيتَه لكل من يلقاه أو يربيه، وكان يقول:

«إن السبب الظاهر والخفي لكل ما يمنحنا الله تعالى إياه من فيوضات وألطاف، وكل ما يمنحه سبحانه للبشر من جزاء وثواب إنما هو اتباعُ سنة المصطفى ﷺ والسيرُ على خطاه، فهو سيد الأولين والآخرين، وأسوة البشرية إلى يوم الدين، وأما كل شقاء يلقاه الإنسان فسببه خلل في اتباع السنة، وكذلك أنا فكل توفيقي وسعادتي كان ببركة ذلك التأسي والاتباع، وأذكر أني ذات مرة دخلت الخلاء غافلاً بقدمي اليمنى، فحرمت سائر يومي هذا من صفاء روحي»[٥٠].

هذا الإمام الرباني طلب من أحد مريديه يومًا أن يحضر بعض زهور القرنفل من الحديقة، فجاءه المريد بست زهرات، فبدت علامات الحزن على الإمام، وقال:

«ما فتئ طلابنا غير مكترثين بحديث سيدنا محمد ﷺ الذي يقول فيه: «**إنَّ الله وِتْرٌ يحبُّ الوِتْرَ**»[٥١]، ولذا فمن المستحب أن نطبق هذا الحديث في أمورنا كلها، ماذا يفهم الناس من كلمة مستحب؟ المستحب هو الشيء الذي يحبه الله ﷻ، أي إذا ما أُعطيت الدنيا والآخرة كلها للمرء مقابل عملٍ يحبه الله تعالى، فلا قيمة لهذا العطاء مطلقًا، وبما أننا نتَّبع المستحب بهذا القدْر، فإننا نبدأ بخدِّنا الأيمن قبل الأيسر أثناء غسل وجهنا، لأن التيامن مستحب في كل الأعمال»[٥٢].

وكتب الإمام الرباني في إحدى رسائله:

«قد شرفنا الله سبحانه وأمثالنا من المفلسين العاجزين المقعدين بدولة اتباع سيد الأولين والآخرين الذي أبرز كمالاته السمائية والصفاتية في طفيل محبته إلى

---

٥٠ الكِشمي، البركات الأحمدية، ص١٩٧.

٥١ مسلم، الذكر، ٥؛ البخاري، الدعوات، ٦٨.

٥٢ الكشمي، بركات، ص١٩٨؛ أبو الحسن الندوي، الإمام الرباني، ص١٨٠-١٨١.





عرضة الظهور، وجعله أفضل جميع الكائنات عليه من الصلوات أفضلها ومن التسليمات أكملها، ورزقنا الاستقامة عليه، فإن ذرة من هذه المتابعة المرضية أفضل من جميع التلذذات الدنيوية والتنعمات الأخروية بمراتب كثيرة، والفضيلة منوطة بمتابعة سنته، والمزية مربوطة بإتيان شريعته عليه وعلى آله الصلاة والسلام والتحية. والنوم في نصف النهار مثلًا الواقع على وجه هذه المتابعة أفضل من إحياء ألوف من الليالي الواقع على غير وجه المتابعة، وكذلك الإفطار في يوم عيد الفطر الذي أمرت الشريعة به أفضل من صيام أبد الآباد الذي لم يؤخذ من الشريعة، وإعطاء حبل بأمر الشارع أفضل من إنفاق جبل من الذهب من قبل نفسه»[٥٣].

ويقول الشيخ موسى أفندي قدس الله سره:

«إن الارتقاء الحقيقي هو بمعرفة العبد أنه أمام نظر الله وسمعه، وتطبيق السنة المطهرة»[٥٤].

«والحقيقة التي ينبغي لنا الوقوف عليها بقدم راسخة، وإدراكها تمام الإدراك، أن نجاتنا يوم الدين، وأن سعادتنا في عليين، إنما تكمن في اقتدائنا بسنة النبي ﷺ في كل أمرنا، قولاً وفعلاً وعملاً وحركة وسكونًا، وأن يحمل الدم الجاري في عروقنا سنته إلى كل خلايا جسدنا، فنحيا بها، ونحيا لها، ونحيا عليها»[٥٥].

واتباعًا لهذه السنة؛ كان السائرون على طريق الترقي يجمعون الأحاديث للتربية تحت مسمى «كتاب الزهد» حتى قبل أن تقنن مناهج التصوف، وتبرز قواعده كعلم. وكذلك أثرى المتصوفون علمَ الحديث والسيرة بما قدموه من المعاني والإشارات ولطائف الإدراك والاتباع.

---

٥٣ الإمام الرباني، المكتوبات، جـ١، ١١٧، رقم: ١١٤.

٥٤ صادق دانا، سلطان العارفين، ص١٩-٢٠.

٥٥ صادق دانا، مجالس الميزاب الذهبي، جـ١، ١٨٤.





كما أن كبار المتصوفة وعلماءهم أثروا علوم الحديث بمؤلفاتهم، مثل: الحكيم الترمذي، والقشيري، وابن عربي، والكلاباذي..

وثمة علماء متخصصون في الحديث تبنوا المنهج الصوفي في قواعدهم، فها هو الإمام البخاري الذي يُعد صحيحه أصح الكتب المصنفة؛ كان إذا أراد أن يُدوِّن حديثًا في صحائفه، بعد أن يتتبع أسانيده ويتحقق من متنه، نراه يصلي ركعتين حتى يثبت قلبه، ويستكين فؤاده، فيدوِّنه قانعًا مطمئنًا[٥٦].

وها هو الإمام الزاهد المحدِّث الفقيه أحمد بن حنبل، روى ثلاثة أحاديث شريفة تلقاها عن النبي في رؤية منامية[٥٧].

ث. التصوف والفقه:

الفقه لغة: المعرفة والفهم والإدراك لدقائق الأشياء، أما اصطلاحًا فقد مر مفهوم الفقه بتطور تاريخي، فبدايةً كان يعني العلوم الدينية والدنيوية، ثم اختص بما يجب على المسلم عمله، وهو التعريف الذي قاله الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان: «معرفة النفس ما لها وما عليها».

وأطلق على علوم العقيدة اسم «الفقه الأكبر» لأنها تعلقت بمعرفة الإنسان لربه سبحانه.

ثم توسعت العلوم الفقهية، وتفرعت، فاقتصر الفقه على الأحكام العملية للعبادات، والأمور القضائية للمعاملات، وأحكام الجنايات والعقوبات وغيرها.

وفي الجهة الأخرى يتابع التصوف الشروط الباطنية لصحة العبادات والمعاملات، ويتابع الشروط القلبية لصحة السلوكيات، ويُعَدُّ التصوفُ تلك

---

٥٦ انظر: ابن حجر: هدي الساري مقدمة فتح الباري، ص٤٨٩؛ ابن حجر، تغليق التعليق، جـ٥، ٤٢١.

٥٧ انظر: مجموعة الأحاديث، ورقة: ١١٠ أ، ١١٢ب.





القواعد الباطنية التي تصحح ذلك كله، ولهذا فإن التصوف يُطلق عليه اسم «فقه الباطن»، أو «الفقه الوجداني»؛ لأنه يمثل القاعدة الروحانية لعلم الفقه، وهو كنهه وجوهره.

والشريعة تضع للعبادات شروطًا ظاهرية وشروطًا باطنية، فما يتعلق أداؤه بالحركات الجسدية، يتعلق قبوله بالمشاعر القلبية، وعليه فإن قواعد الفقه لا تنفصل عن قواعد التصوف، بل يكمل أحدهما الآخر، وكلٌّ منهما يؤدي دوره المنوط به.

ففي الوقت الذي يبحث الفقهاء ويدونون أحكام العبادات، مثل الصلاة والصيام والحج؛ وأحكام المعاملات، والأسرة والمواريث والتجارة والقصاص، يُعطي المتصوفون بالمقابل أهمية لأداء هذه الأحكام جنبًا إلى جنب مع المؤثرات المعنوية، مثل الزهد والتقوى والإخلاص، ويعطي القرآنُ أهمية أكبر للجانب المعنوي من العبادات، ويوجِّه العبد إلى الزهد والتقوى.

وقد كان كثير من المتصوفة، مثل الغزالي، وابن عربي، ومولانا جلال الدين الرومي، علماءَ وفقهاء ضليعين في العلوم الظاهرية، وهناك أيضًا كثير من العلماء في السلسلة النقشبندية، مثل يوسف الهمداني، والشيخ نقشبد، وعلاء الدين العطَّار، ويعقوب الجرخي، ودرويش محمد، والإمام الرباني، وخالد البغدادي، قد وصلوا إلى الذروة في العلوم الظاهرية وأجيزوا فيها، وقد أطلق أهل العلم في السلسلة النقشبندية على هذه الشخصيات اسم «خواجكان» أي «الأساتذة» لأنهم تعلموا في المدارس الدينية.

وتعلُّم علم الظاهر لا يغني عن تعلم علم الباطن، وقد ثبت ذلك عن كثير من العلماء الأكابر المتقدمين والمتأخرين: فمِن الحنفية كابن الهمام، وابن الشلبي، والشرنبلالي، وخير الدين الرملي، وأحمد بن محمد الشريف الحموي المعروف بمحشي الأشباه وأمثالهم؛ ومن الشافعية كسلطان العلماء العز بن عبد السلام، والإمام الغزالي، وتاج الدين السبكي، والسيوطي، وشيخ الإسلام القاضي زكريا الأنصاري، والعلامة الشهاب ابن حجر الهيتمي المكي وأضرابهم؛ ومن المالكية





كالعارف أبي الحسن الشاذلي، وخليفته الشيخ أبي العباس المرسي، وخليفته الشيخ ابن عطاء الله الاسكندري، والعارف ابن أبي جمرة، وناصر الدين اللقاني، والشيخ العلامة المحقق العارف أحمد زروق البرلسي وغيرهم؛ ومن الحنابلة كالشيخ عبد القادر الجيلي، وشيخ الإسلام عبد الله الأنصاري الهروي، والشيخ ابن النجار الفتوحي وغيرهم.

وثمة علماء مشهورون منتسبون للنقشبندية، مثل السيد الشريف الجرجاني، والملا الجامي، وعبد الحكيم السيالكوتي، وعبد الغني النابلسي، وابن عابدين، وشهاب الدين الآلوسي، وهؤلاء العلماء الأجلَّة بعد التضلع من علوم الظاهر اشتغلوا بتحصيل علوم الباطن وتلقيها عن أهلها بالصحبة والخدمة والسلوك[٥٨].

وثمة كلمة مأثورة عن بعض السلف توضح الكثير من الأمور، وتضع الكثير من القواعد، وتنفي الكثير من الخبَث، يقول الإمام مالك:

«من تفقَّه ولم يتصوف فقد تفسَّق، ومن تصوَّف ولم يتفقَّه فقد تزندق، ومن جمع بينهما فقد تحقَّق»[٥٩].

ويذكر عبد الخالق غجدواني أن المرء الذي يصل إلى مرتبة فناء النفس هو من يحمل القرآن الكريم بيده اليمنى والأحاديث الشريفة بيده اليسرى، ويسلك سبيل الهداية بنوريهما[٦٠]، وينصح أحد مريديه قائلًا:

---

٥٨ العلامة محمد بن سليمان البغدادي الخالدي، الحديقة الندية، اسطنبول ١٤٠٣، ص٢٥-٢٦؛ محمد بن عبد الله الخاني، البهجة السنية، اسطنبول ٢٠٠٢، ص٦.

٥٩ أحمد زروق، قواعد التصوف، القاعدة، ٤؛ علي القاري، مرقاة المفاتيح، بيروت، ١٤٢٢، جـ١، ٣٣٥؛ شرح الشفا، بيروت ١٤٢١، جـ ٢، ٥١٠؛ الإمام الشعراني، الطبقات الكبرى، مصر ١٣١٥، جـ٢، ١٥٦.

٦٠ عبد الرحمن الجامي، نفحات الأنس من حضرة القدس (التحقيق: محمود عبيدي)، طهران ١٣٧٥، ص٣٨٤.





«تعلم علم الفقه والحديث، وابتعد عن الجهَّال من المتصوفة»[٦١].

فإدراك المعنى الكامل للإسلام والعيش بمقتضاه يتحقق بوحدة العلم والعرفان، والجمع بين الفقه والتصوف، أي بين علوم الظاهر والباطن.

أما من يدعي التضاد بين التصوف والفقه، أو يتوهم التعارض بين علوم الظاهر وعلوم الباطن، أو يرى البون شاسعًا بين الأحكام الدينية والتربية الصوفية، فهؤلاء قليلو العلم والعمل، محدودو الإدراك والشعور، أصابهم الجهل أو قيدهم التزمت أو أعمى بصيرتهم وأبصارهم الكِبر، وهو ما أدى -في بعض حقب التاريخ- إلى التشوه الذي أصاب العلاقة بين الجانبين.

وخلاصة القول في العلاقة بين التصوف وبقية العلوم الإسلامية أن التصوف جزء لا يتجزأ من تلك العلوم، وهو عضو فيها كسائر أعضاء الجسد الواحد.



---

٦١ عبد الخالق غجدواني، الوصايا، مكتبة بيازيد العامة، قسم ولي الدين أفندي، الرقم: ٣٢٢٩، الورقة: ١١أ.



﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾

(فصلت، ٥٣)

 

٢. التصوف والعلوم الطبيعية

للوهلة الأولى قد نجد تناقضًا بين التصوف والعلوم الطبيعية، فالعلوم الطبيعية الخاضعة للنتائج المعملية وأبحاث المختبرات بعيدة كل البعد عن العلوم الميتافيزيقية، أما التصوف فهو مغرق فيما وراء الطبيعة.

لكن الحقيقة غير ذلك، فكلاهما له هدف واحد، وهو الوصول إلى الحكمةِ من وراء الخَلْق، والعلةِ من وراء الموجودات، وإدراك الأسرار الكامنة في الكائنات، وإشباع شغف الإنسان بالاطلاع الأمثل والأشمل على الكون وخالقه؛ أي الانتقال من عالم المشاهدة إلى عالم الشهود، ومن الـمُلك إلى الملكوت.

والعلوم الطبيعية ومكتشفاتها وعالمها المادي هو المرحلة الأولى للوصول إلى عالم الحقيقة، وهو الأدلة الأولى والدائمة على عظمة الخلق وقدرة الخالق.

كما أن الإسلام في تعامله مع المخلوقات -عاقلة وغير عاقلة- يهتم بالنواحي الميتافيزيقية كما يهتم بالنواحي الطبيعية، والنبي ﷺ كان يأمر بالرفق ويتعامل به في شأنه كله حتى مع الجمادات، وها هو جذع النخلة الميت يحنُّ إليه، والجمادات في طريقه تسلم عليه.





والاكتشافات العلمية كلَّ يوم تقرب المسافة بين الطبيعة وما وراء الطبيعة، وتوثق الصلة بين الفيزياء والميتافيزيقا، وتنفي كل القواعد الجامدة التي وضعها اللادينيون في العلوم الفيزيائية الطبيعية، فنظرية النشوء والارتقاء وأصل الأنواع محكوم عليها بالإخفاق والقصور من يوم ظهورها، وقانون بقاء المادة وبقاء الكتلة للكيميائي الفرنسي أنطون لافوازييه ذهبت أدراج الرياح بعد تمكن الإنسان من تفتيت الذرة، التي تفتت معها مسلمات قديمة طال النزاع فيها بين العلم والدين حول «قِدَم المادة» وبقائها وفنائها، فأثبت العلم أن ذلك كلَّه مجرد «طاقة»، وأن وجودها «عرضي» مؤقت، وليس بقديم.

واكتشاف الجينات وما تحمله من مورثات أو كروموزومات تحتوي على أسرارِ وخصائصِ الشخصية دليلٌ على عظمة الخالق سبحانه، وعلى عظمة كتابه الكريم الذي أشار إلى هذه الحقائق بشكل ميتافيزيقي، ليؤكد لنا الترابط بين العالمين المادي والمعنوي، وليؤكد الصلة بين الطبيعة وما وراء الطبيعة، ولم يكن التباعد بينهما سوى قصورٍ في العلم، واحتاج اكتشافُ ذلك التقارب أو التواصل إلى مرور الأزمان المتطاولة، واكتشاف حقائق علمية لإدراك حقائق قرآنية معجزة ثابتة وكامنة وراء الألفاظ والتعبيرات القرآنية.

لكنَّ المسلمَ الحقيقي مؤمن منذ البداية بعظمة خالقه، كما أنه مقرٌّ بعجز نفسه البشرية عن فهم كل معاني هذه القدرة.

وفي القرن التاسع عشر كتب ضياء باشا بيتَين من الحكمة يقول فيهما:

سبحان من تحيَّرت في صُنعه العقول

سبحان من بقدرته يُعجِز الفحول

والمسلم موقن بأن المعجزات الكونية التي يتوالى ظهورها لن تنقطع، وأن تكشُّفها المستمر هو أدلة جديدة ومتجددة تناسب الزمان والمكان والعلوم والأفهام، وأن كل اكتشاف جديد يؤكد عجز الإنسان أمام صُنع الخالق وعظمته، ولا يبقى





مفرٌّ له من الاعتراف بالحِكم اللانهائية وراء تلك الصنعة والعظمة، وقد أوضح ضياء باشا هذا العجز البشري خير توضيح حين قال:

العقل المحدود لا يطيق ولا يُدرك الغيوب والأسرار

كالميزان الصغير لا يحمل ما ثقل من الأوزان

وهذا يجعل التصوف مرحلةً متقدمة وتالية للعلوم الطبيعية في بحثه عن أسرار الكون، وسعيه وراء الحكمة الكامنة في الكائنات، وها هو القرآن الكريم يلفت الانتباه في كثير من مواضعه إلى الأسرار والحكم في الكائنات، فقد قال الله ﷻ:

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصلت، ٥٣)

وتشير كلمة «الآفاق» في الآية الكريمة إلى العالم الخارجي الذي يحيط بالإنسان، أما كلمة «أنفسهم» فهي تشير إلى الحِكَم والعِبَر والأسرار في بنية الإنسان المادية والروحية، ويزيل الله تعالى غفلة العباد، ويستلفت انتباههم بقوله:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج، ٤٦)

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ. مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الدخان، ٣٨-٣٩)

ويبين الحق تعالى في آية أخرى -بعد أن أظهر فيض قدرته واستمرارها- أنه قد خلق الإنسان مثل الكائنات الأخرى لغاية:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمنون، ١١٥)

ففي كل ذرة من الذرات تجليات رائعة للصنعة الإلهية.





ويمتلك التصوف بفكره ومعنوياته القدرةَ على صياغة تصورٍ كلي شامل يجمع حقائق الكون الطبيعية والميتافيزيقية، ويجعل الإنسان في مركزها، ثم هو يحقق هذا التصور واقعيًا، وينقله من مستوى النظرية إلى مستوى التطبيق عبر أساليبه التربوية المعتمدة أساسًا على «ذكر الله»، ثم الرياضات الروحانية الأخرى.

هذه الرياضات التي تمنح العقل والقلب وأدوات الحس قدراتٍ أكبرَ على إدراك العلوم والحكمة من ورائها.

ثم إنَّ الكونَ كله في عين المتصوفة ما هو إلا موضع لتجلي وجود الله تعالى وأسمائه وصفاته، وما هذه المخلوقات والموجودات سوى نوع من الإبداع الفني للخالق سبحانه، وإن أبسط المشاهدات التي تتكرر أمام نواظرنا كل يوم بصورة عادية غير ملفتة تحمل في طياتها وظاهرها أعظم المعجزات الناطقة بقدرة الله تعالى والداعية إلى الإيمان العميق به ﷻ.

فها هي ورقة التوت الخضراء، يأكلها الغزال فيعطينا المسك، وتأكلها دودة القز فتعطينا الحرير.

وغيرها، وغيرها من المخلوقات والعطاءات، الورقة واحدة، ولكن الإبداع لا يحصى، فإذا انتقلت إلى غيره من النباتات والأوراق والأعشاب، وجدت الأصل الذي تستمد منه حياتها وغذاءها واحد: الطين والضوء، ثم تختلف ألوانها وأشكالها وطعومها وأريجها، ألا يجعلك ذلك تتوقف مندهشًا أمام إعجاز الله تعالى وقدرته وتجلياته؟!

لقد خُلق الكون نتيجة تجلي الأسماء الحسنى، مثلما تجلت في القرآن وفي الإنسان، وما من شيء في الكون خُلق عبثًا، هذا ما يؤمن به أهل التصوف إيمانًا عميقًا.

لذا فالتصوف يأخذ بيد العلوم الطبيعية في بحثها عن الحِكمة الظاهرة لله سبحانه في هذا الكون، وهي ذلك التجلي؛ إذ تقف العلوم عاجزة، فلا تدرك تلك





الأسرار والحِكم والمعاني، وهنا تلتقي مع التصوف الذي استطاع بالذكر والرياضة الروحانية أن يوسع مداركه، ويطور معارفه القلبية، فيكمل المسيرة في التعرف على الحكمة، وإدراك أسرار التجلي.







(التصوف هو من أوجد الأدب التركي وطوَّره وارتقى به.)

نهاد سامي بانارلي




٣. التصوف والأدب

يتبادر إلى الذهن أن الأدب لصيق الصلة بالتصوف، وهذا حق، فالتصوف مجاله عالم القلب والروح والمشاعر، وهي الساحات نفسها التي يعمل فيها الأدب عمله، يصدر عنها، ويخاطبها، ويزدهر بها، ويؤثر فيها، أي إن كلاهما يؤثر في الآخر ويُثريه، وهو ما حدث بالفعل مع الأدب التركي الذي ارتقى قممًا شامخة من الرقي الفني، وترسخت أقدامه في مجالات أعمق من الشعور الإنساني، وامتدت آفاقه وآثاره إلى الكثير من مجالات الفكر.

وقد تفاعل الأدب وتشكل وتطور مع ما تميزت به أساليب الحياة الصوفية، فمثلاً هناك ما يسمى «أدب التكايا»، الذي أنتج صورًا مميزة من الأنواع الأدبية، مثل الشعر الغنائي والشعر التعليمي، وأنواعًا أخرى بسيطة سلسة عكست القيم الصوفية، وعبرت عنها، وصارت قوالب لها توصلها في صورتها الراقية إلى جمهور عريض من المريدين، فكان منها نوع يُدعى «التوحيد» وهو الذي يبين معنى التوحيد، ويتناول ذات الله تعالى وصفاته وأسماءه، ونوع آخر يُدعى «المناجاة» وهو يشمل التوجه إلى الله تعالى ودعاءه ومناجاته وذكره تعالى بلهفة وشوق، ونوع ثالث يُدعى «النعت» وهو مختص بالمدائح النبوية، وذكر صفات النبي ﷺ وأخلاقه، وحبه، والشوق له.

وكان لهذه الأنواع الأدبية دور كبير ومؤثر في دعم القيم الصوفية نشرًا وتقوية وتشجيعًا ومواساة، فهي تنشرها بين العامة والخاصة على نطاق أوسع، وتمس حبات القلوب بأدوات أوقع، وتعالج المشاعر الإنسانية بالعلاج الأنجع، وترتقي بها إلى





درجات أرفع، وتجمع الناس على حالة شعورية جماعية من الأخوة والتكاتف والمحبة، وتضرب في ذلك الأمثلة الأروع، كل ذلك في أشكال من البلاغة والأدب المبدع.

وها هو ذا شعر «يونس أمره» ما زال يقدم للناس المواساة والطمأنينة منذ أن قاله مع كارثة الاجتياح المغولي قبل سبعة قرون.

وغيره من الأولياء ذوي الإنتاج الشعري والأدبي أمثال: الشيخ أحمد اليسوي، والولي حاجي بيرام، وأشرف أوغلو الرومي، وعزيز محمود هدائي، قدس الله سرهم جميعًا، فقد نقلوا التصوف ومعانيه وقيمه من الخاصة إلى العامة، وجعلوها متاحة للجميع، يفهمونها ويدركون معانيها، ويتفيؤون ظلالها، ويلجؤون إليها.

ولا نُغفل هنا «أدب الديوان» ببحوره وأوزانه وعَروضه، فقد أثراه شعراء الصوفية بقصائد ودواوين خالدة، ما زالت نبعًا ثرًا يحتذيها الشعراء، ويتغنى بها المنشدون إلى يومنا هذا، إضافة إلى الأعمال الأدبية النثرية الأخرى.

كل نوع من هذه الأنواع الأدبية الصوفية يأخذك إلى عالم مختلف من المشاعر والأحاسيس:

- ففي «التوحيد» تأخذك الروح الجياشة إلى آفاق رحيبة من معاني الأسماء والصفات، وتسمو بك إلى حالة من العشق الإلهي المتماهي في ذاته سبحانه، وتلك هي قصائد التوحيد التي كتبها المتصوفة تحلق بك في فضاء إيماني شاسع وبعيد، تنال فيه فيوضات لم تدركها من قبل.

- وفي قصائد «النعت» تحيا معاني الوله والعشق للرسول النبي ﷺ، والاشتياق إلى رؤيته والتغني بسيرته وسنته، فتبدو هذه القصائد وكأنها لوحاتٌ رائعةٌ نُقِشت على جدران الأفئدة، وها هو الشاعر «فضولي» في إحدى قصائد النعت، وهي «قصيدة الماء» يقول معبرًا عن الاشتياق للحبيب النبي ﷺ:

يقضي الماء عمره كي يصل إلى غبار قدميه

جاريًا بلا هدف من صخرة إلى أخرى سعيًا إليه





وهناك مجموعة من الشعراء مثل:

مولانا جلال الدين الرومي، وفضولي، ونائيلي، ونابي، ونحيفي، والشيخ غالب، وشعراء عظماء آخرون كتبوا مؤلفات نبعت من قلبٍ يهيم بالنشوة الصوفية.

ومع اقتران الأدب الراقي بالمشاعر الصوفية السامية، ومشاعرها العميقة أنتج لنا التقاء هذين العملاقين محتوىً ضخمًا في ثرائه وعمقه، ينهل منه القاصي والداني، ويشبع رغبات الجميع على اختلاف الأذواق والأمزجة والأفهام والمشاعر.

وقد أوضح نهاد سامي بانارلي المختص في تاريخ الأدب هذه الحقيقة بقوله:

«التصوف هو من أوجد الأدب التركي وطوَّره وارتقى به».

ولعلَّ الشاعر «نديم» المعروف بميوله الدنيوية قد كسب شهرته حين برع في أدب «النعت»، وكذلك الشاعر «توفيق فكرت» العلماني اشتهر في الساحة الأدبية بعد أن كتب أشعاراً في أدب «التوحيد».

وهذه هي نتيجةٌ مباشرة لهذا التطور والرقي الذي ارتقى بالأدب التركي إلى العالمية.

لم لا، وقد جاء الحديث النبوي مؤيدًا للأدب والشعر، داعمًا لتوجه الشعراء والأدباء في توجيه الناس والدفاع عن الدين، وإلهاب حماس المقاتلين والمجاهدين.

فعن عائشة ﵂، قالت: كان رسول الله ﷺ يضع لحسان منبرًا في المسجد يقوم عليه قائمًا يفاخر عن رسول الله ﷺ -أو قالت: ينافح عن رسول الله- ويقول رسول الله ﷺ:

«**إن الله يؤيد حسان بروح القدس ما يفاخر، أو ينافح عن رسول الله**» (الترمذي، الأدب، ٧٢؛ أبو داوود، الأدب، ٨٧)

إن وقوف جبريل ؑ مع الشاعر حسان ﵁ في هذا الموضع يُبيِّن أن الحق تعالى يُلهم الشاعر الذي يسير في طريق الله تعالى ويؤيده بتأييده.





إن الفنون التي امتزجت مشاربها بينابيع التصوف، واستمدت مشاعرها من رقة قلوب المتصوفة، أبدعت أعمالاً فنية راقية كانت أدلة شاهدة على رقي الحضارة الإسلامية.

 

٤ . التصوف والفنون الجميلة

الفن هو انعكاس المشاعر الإنسانية على الأشياء المادية، وتشخيص هذه المشاعر والمعنويات في صورة ملموسة تدركها الحواس سمعًا وبصرًا، ومهما اختلفت وتنوعت هذه الفنون فهي في الأساس نابعة من روح الإنسان المبدع، وكلما رقت هذه المشاعر وتعمقت وسَمَت، انعكست على رقي تلك الفنون وتأثيرها.

إن الفنون التي امتزجت مشاربها بينابيع التصوف، واستمدت مشاعرها من رقة قلوب المتصوفة، أبدعت أعمالاً فنية راقية كانت أدلة شاهدة على رقي الحضارة الإسلامية.

ويقدم لنا التاريخ الأدلة الدامغة والكثيرة على ذلك، فالشعوب التي بنت الحضارات الإنسانية المتنوعة، لم تبنها فقط في عالم السياسة أو الاقتصاد أو القوة العسكرية، إنما الحضارات ذات الأثر الأبقى عبر الدهور شاخصة ماثلة للأعين؛ هي الحضارات ذات المعالم الفنية.

ولا يتسع المجال هنا لعرض تفصيلي للنماذج الصوفية التي تجلت في فنون الحضارات، ولكننا سوف نعرض هنا باختصار لنماذج من الفنون التي تأثرت بالتصوف، وهي: الموسيقى، والعمارة، والخط.





أ. التصوف والموسيقى:

الإسلام دين الفطرة، وهو يدعم من هذه الفطرة ما يرتقي بالإنسان إلى السمو الروحي، والموسيقى شأنها شأن المزايا الطبيعية الممنوحة للإنسان، لا يمكن للإسلام أن يرفضها كلها، ولا أن يقبلها كلها، إنما ينتقي منها ما يناسب فطرته، ويرتقي بمشاعره، وتصبح بالفعل فنونًا إبداعية تخدم الروح وتسمو بها، ولا تهوي بالنفس إلى منازل الشهوات.

والتصوف استخدم الموسيقى في هذا المضمار الذي يسمو بالروح، ويغذي النفس، وفي الإطار الذي يقع داخل حدود الآداب الإسلامية، وإلا رفضها. والطرب الذي في الموسيقى يوظف لإطراب الروح ودعم حالة الوجد التي تسعى إليها، سواء كان ذلك مصاحبًا لقصائد المدح أم المنظومات الشعرية الصوفية الأخرى، التي تحمل قيم التصوف وآدابه ومعانيه، وتزيد من رغبة المستمع في الإقبال على العبادة والطاعة والذكر لله تعالى، وهي تمنح القلب مشاعر وفيوضات إذا هي وُجدت في ظروف وأحوال خاصة، يراعى فيها المكان والزمان والأنغام والحال؛ كل ذلك يضفي على الحال جوًّا من الروحانية الخاصة التي يستغلها أرباب التربية الصوفية في الوصول بالمستمع إلى حالة شعورية صوفية تجعله مقبلًا على طاعة، مدبرًا عن معصية، متلقيًّا لمعانٍ وقيم، متخليًّا عن أفعال وأفكار، في حالة من الوجد تسمو بروحه إلى عالم أرحب بعيد عن دنيا الشهوات، محلقًّا في آفاق الذكر والتفكر حتى يبلغ ذرى الأجواء الإيمانية.

وقد استخدم المتصوفة الموسيقى ذلك الاستخدام على مدار قرون، مع الوسائط الأخرى حتى ظهر على الساحة الفنية نوع جديد خاص يُسمى «الموسيقى الصوفية».

وثمة خلاف دائر بين القوم في استخدام الموسيقى وسيلةً للتربية، ما بين مؤيد لاستخدام الآلات الوترية ومعارض، وما بين رافض لآلات الضرب وموافق، مستندين إلى الآراء الفقهية وما ورد في السنة النبوية من أدلة وشواهد.





وبعيدًا عن الدخول في جدل فقهي وتربوي حول تفاصيل الجواز والمنع في الموسيقى وأنواعها وآلاتها، نقول إن الصوت الجميل الندي تميل إليه الآذان، وتنجذب إليه القلوب، وذلك طبعاً ضمن الالتزام بالآداب الإسلامية والحدود الشرعية، ولا ينكر أحد أن الاستماع لأذان الصلاة من صوت خاشع جميل يجعل الإقبال أشد على صلاة الجماعة في مسجد ما دون غيره، وفي إشارة إلى معاني الجذب المعنوي بالصوت الرخيم اختار النبي ﷺ مؤذنه بلال بن رباح ليرفع النداء لأشرف أعمال الإسلام؛ الصلاة، رغم أن صاحبي الاقتراح -عبر الرؤيا الصادقة- كانا عبد الله بن زيد وعمر بن الخطاب ﭬ، وظل بلال ﭬ صاحب الصوت الرائع مؤذنًا للرسول النبي طوال حياته الكريمة.

ومن جهة أخرى؛ لابد لنا من الاعتراف بأن الموسيقى - كوسيط - يمكن استغلالها استغلالاً سيئًا في الشر، فتصبح مزمارًا للشيطان، ودعوة للمعصية وإثارة شهوات النفس، لاسيما في زماننا هذا.

وإليك القول الفصل في هذه المسألة:

يقول الشيخ مسافر الخوارزمي وهو أحد مُريدي الشيخ بهاء الدين نقشبند قدس الله سرَّه:

حين دخلت في خدمة سيدنا بهاء الدين كنت مولعًا بالسماع، وفي يوم من الأيام تحدثنا مع جماعة من الإخوان، واتفقنا على أن نُحضر المزامير والدفوف والناي، ثم نؤدي السماع في مجلس سيدنا بهاء الدين لنرى ما رأيه في هذا الموضوع، وجلبنا مجموعة من المنشدين ذوي الصوت الجميل الذي يلطِّف القلوب، فلم يمنعنا سيدنا من ذلك لكنه قال في النهاية:

«إننا لا نفعل هذا، ولكن لا ننكره أيضًا»[٦٢]

---

٦٢ مولانا علي بن حسين الصفي، رشحات، إسطنبول ٢٠١٠، ص١٣٩.





يشير كلام الشيخ نقشبند قدس الله سرَّه هنا إلى ضرورة أخذ الحيطة في هذا المجال لأن ذلك قد يتحول إلى آفة نفسية، لذلك علينا أن ندرك أن الاحتياط في هذا الموضوع مهم جدًّا، لأن الناس في أيامنا هذه لا يحافظون على التوازن والاعتدال، ويرون أن الأمر كله هو عبارة عن موسيقى فيغرقون فيها، ويبتعدون شيئا فشيئا عن جوهر التصوف.

ب. التصوف والعمارة:

رغم أن العمارة تعتمد على الهندسة والحساب والحجر والخشب، إلا أنها من أرقى الفنون الجميلة، فهي تحول هذه العلوم الرياضية والمواد الصماء إلى أرقى أنواع الفن وأسمى آيات الجمال حين تمزج علوم الرياضيات والهندسة بالمشاعر القلبية، والمواد الخشبية والحجرية بالذوق الرفيع، فتصير المعاني مجسدة في مباني.

لذا كان للعمارة قيمة كبيرة لدى أهل التصوف، وإذا ضربنا على ذلك مثالاً حيًا بواحد من أشهر مساجد العالم الإسلامي، وهو مسجد وكلية السليمانية -في إسطنبول- وحلَّلنا خصائصه المعمارية في إطار المفاهيم الصوفية، يمكن بكل وضوح رؤية انعكاس روح الإسلام فيه، والتمازج الروحاني الباهر بصورة تأخذ الألباب، وبعض الرموز الصوفية التي وُضعت بأسلوب ماهر في هذا المكان، فالقبة المركزية والقبب الصغيرة حولها صممت تصميمًا في غاية الإتقان، ويتدرج المسجد في العلو بدءاً من أرضيته لتصل في النهاية إلى القبة المركزية التي ترمز للوحدة الإلهية «الوحدانية»، أما القبب النصف دائرية والقبب الصغيرة الأخرى المنسجمة مع القبة المركزية فهي تُبرز سرَّ أصل من أصول التصوف وهو: «في الوحدة كثرة، وفي الكثرة وحدة».

إن مسجد السليمانية في الحقيقة يجسِّد لطافة مفهوم الروحانية بصورة غاية في الجمال، حيث إنه يرمز إلى الانتقال من التفرعات الكثيرة إلى «الوحدة» الإلهية، ثم العودة من تلك «الوحدة» إلى التفرعات (الكثيرة) مرة أخرى.





وترمز القبة الكبيرة في هذا المسجد إلى النبي ﷺ، فالقبة التي تعكس تلاوة القرآن الكريم في المسجد الشريف والأدعية فيها على المؤمنين هناك، تُمثِّل رسول الله ﷺ الذي تلقَّى الأوامر من المولى ﷻ وبلَّغها لأمته.

أما المنارات السامقة فتبدو وكأنها أيادٍ للمسجد الشريف ترتفع إلى السماء داعيةً الله ﷻ ومبتهلةً إليه.

ويبرز في المسجد المركزي تأثير الجو الداخلي على حالة الإنسان الروحانية، ويزور هذا المسجد التاريخي الكثيرون من أديان مختلفة، ويشهدون بتأثرهم بالجو الروحاني الذي يستشعرونه هناك، وتتلقاه أرواحهم في جو من الطمأنينة والسكينة.

وتشير الروايات إلى أن هذا المسجد العظيم -ومساجد أخرى مشابهة- قد بُنيت بناء على أمرٍ أُخذ في عالم الرؤيا من رسول الله ﷺ، وقد تم تشييد هذه الصروح من ناحية العمارة بنيَّة بقائها قائمة إلى يوم القيامة على هيئة متينة ومحكمة قدر الإمكان.

لقد التقى في هذا المسجد الفريد الجهدُ العظيم مع العبقرية والدقة، ومُزجت فيه السكينة والأصالة بصورة كاملة، فكانت النتيجة لوحةً إبداعية في قمة التناغم والانسجام.

هذا بالنسبة للمساجد، ولكن للتصوف أيضًا دور وبنايات أخرى متعددة، فهناك الزوايا والتكايا والرباطات والخانقاوات، وهي وحدات معمارية مميزة تعطي للمدن الإسلامية مذاقًا خاصًا، ومعنى مميزًا، وهي في انتشارها وكثرة أعدادها -على تنوع مساحاتها- تستشعر فيها الكثير من قيم التصوف، التواضع والبساطة، وإنكار الذات والشعور بالفناء، والبعد عن التكلف والفخامة والرفاهية الممقوتة، فهي مصممة فقط لأداء العبادات والنسك على المنهاج الصوفي، وأركانها وجدرانها مشبعة بتلك القيم التي تعكس معانيها الروحية على أشكالها المعنوية.





ت. التصوف وفن الخط:

وفن الخط الذي نعنيه هنا هو فن كتابة القرآن الكريم على أجمل صورة وفقًا لمعايير الجمال، وقد ظهر هذا الفن نتيجة الرغبة في التعبير عن الجمال الشكلي للحروف القرآنية كنوع من التعبير عن سمو جمال القرآن العظيم.

هذا الفن لقي الاهتمام الأكبر في الوسط الصوفي، إذ لعبت الخانقاوات والتكايا دورًا شديد الأهمية في رعاية هذا الفن وتطوره واستمراره، حيث كانت دور المتصوفة هي المكان الذي يتعلم فيه الفنانون هذا الفن، ثم يلقنونه لطلابهم.

وقد ساعد الجو الروحاني المهيأ في هذه الدور على الإبداع في هذا الفن؛ إذ هو عمل شاق يحتاج إلى صبر وجهد كبيرين للوصول إلى درجة متميزة من الإتقان في الخطوط والنقوش والزخارف، وبقية العناصر التابعة للخط، كما أن الاستسلام للمعلم القدوة في إبداع ذلك النوع يحتاج إلى ثقة، وإلى أناس من أهل التقوى، يكتبون كلام الله تعالى، وهو أشرف الكلام.

وهل يمكننا تخيل رجل حاد المزاج سيء الأخلاق يوكل إليه أن يكتب شيئًا في حالته تلك، ستخرج حروفه حينها حادة كمزاجه، سيئة كأخلاقه.

لذا؛ فالتصوف هو الضمانة التي تهذب أخلاق مبدعي فن الخط وأمزجتهم وأحوالهم، ويهيئ لهم الجو المناسب لكتابة كلمات الله سبحانه، في تقوى قبل الجمال، وفي ورع قبل التزيين، وفي محبة قبل النقوش، وفي مشاعر وجدانية تلف العملية الإبداعية في رسم المصحف من أولها إلى آخرها.

والحق أن تقوية الروح هي قاعدة لتنشئة العباقرة الكبار في هذا الفن –وفي غيره من الفنون– في كل وقت، وقد ترعرع أساتذة فن الخط الذين هم قدوة في هذا الفن، مثل الشيخ حمد الله، وقره حصاري، ويساري زاده، ومصطفى راقم، والكثير منهم، ووصلوا عبر التربية الروحية في ظل التصوف إلى النضج والإتقان.





وها هو واحد من أولئك الفنانين في مجال الخط، ومن المتشربين لأخلاق التصوف، يمزجون التضحية بالعمل، والفن بالتقوى، إنه الخطاط «قره حصاري» الذي قام بكتابة الآيات القرآنية في قبة مسجد السليمانية، فقام هذا الفنان الصوفي بجهد متميز في عمله ذاك، حتى فقد بصره مع آخر حروف أبدعها.

وعندما أرادوا افتتاح المسجد بعد إتمام الأعمال فيه، قال السلطان سليمان القانوني معربًا عن امتنانه وإعجابه بالعمل الفني الفذ للمعماري الأشهر سنان: «إنه لشرف عظيم للمعماري سنان أن يبدع هذا المسجد الرائع وينشئه على هذه الصورة المبهرة».

فماذا كان رد المعماري سنان على السلطان، ذلك المعماري الصوفي الذي تعلم القيم الإسلامية الصوفية قبل الفن، وأبدع فيها قبل أن يبدع في العمارة، فكان إنكار الذات والتواضع وإسناد الحق لأهله هو المسيطر على مشاعر يمكن أن يملأها العُجب والغرور.

لقد رد على السلطان في أدب جم؛ قائلاً:

«سلطاننا العظيم، إن الخطاط قره حصاري هو الأحق بهذا التكريم؛ لقد قدَّم عينيه فداءً لهذا العمل الرائع، فهلَّا منحتموه شرف افتتاح هذا المسجد؟».

فما كان من السلطان إلا أن أمر بأن يقوم قره حصاري بافتتاح هذا المسجد العظيم وسط دموع الإعجاب والانبهار من الحاضرين، دموع الانبهار بالإبداع الفني والخُلُق الصوفي.

ويعود الفضل في تطور فن الخط واستمراريته إلى قواعده الصوفية ومراعاته للمعايير المعنوية، ومن هذا المنطلق كان الإقبال الكبير على كتابة المصحف الشريف والحلية الشريفة، حيث إنه لم يكن باستطاعة كل خطاط أن يكتب القرآن الكريم والحلية الشريفة إلا إذا وصل إلى ذروة فن الخط، وصار ذلك عرفًا متَّبعًا بين الناس،





وهكذا بدت هذه المؤلفات القيِّمة، بجاذبيتها المدهشة التي تلاطف الأرواح والأفئدة، وسيلةً تحثُّ الناس على اتباع أمر الله تعالى الذي يقول: «اقرأ».

وقد تعلَّم الطلبة هذا الفن بلا مقابل على مدى القرون، لأنه فن يخدم القرآن الكريم بإخلاص، ولم يكن فنًّا مشوبًا بالمنفعة المادية، لذلك عرف كل خطاط زكاة هذا الفن بتعليم غيره.

وخلاصة القول في علاقة التصوف بالفنون أن المؤمن الذي يضع نصب عينيه الحديث الشريف: «**إن الله جميل يحب الجمال**»[٦٣]، ويدرك معناه، هو الذي يعرف قيمة هذه الفنون، ويدرك ما وراءها من المعاني الروحانية والقيم الإسلامية والمشاعر الصوفية.

فصناعة الجمال تعبر عن الجمال الداخلي للفنان، وعن طهره القلبي وصفائه الروحي، بعد أن يتخلص من دواعي الغرور والإعجاب بالنفس، ويدرك أنه ينقل بفنِّه صورة من صور إبداع الخالق في كونه، وهو ما يتطلب تربية صوفية عميقة تفجر ينابيع الإبداع في مشاعر هذا الفنان.



---

٦٣ مسلم، الإيمان، ١٤٧.





إن لم تملك مفاتيح عالم الحقيقة الأبدية، وهي حياة قلبك ومشاعر روحك، فلن يستطيع مفتاح العقل وحده أن يلج بك إلى ذلك العالم المنشود

 

٥. التصوف والفلسفة:

إذا أردنا تعريف الفلسفة بعيدًا عن أصلها اللغوي الذي يعتريه لغط كبير، فإن معناها الاصطلاحي أو المتعارف عليه هو ذلك العلم الذي يسعى إلى وضع أحكام عامة للعلوم كلها، وقواعد كلية للعقل يتوخاها في بحثه عن الحقيقة عبر كل العلوم البشرية الظاهرية.

وعليه فإن الفلسفة هي أم العلوم، محرابها العقل، وديدنها القوانين الطبيعية، ورغم سعيها إلى الحكمة عبر محاولة تفسير الأحداث والعلوم، فإن قصورها ناتج من اعتمادها على العقل وحده، والمبالغة في ذلك أحيانًا إلى درجة تصل به إلى القداسة.

فإذا رجعنا إلى قيمة العقل ومكانته في الإسلام وجدناه أحد الشروط الأساسية للفرائض والعقائد والعبادات، وهو مناط التكليف؛ إلا أنه ليس المنهاج الأوحد للوصول إلى الحق والحقيقة، بل صنوه الذي لا يفارقه هو «النص»، أو «النقل».

وهو ما يدفعنا إلى القول بقصور العقل منفردًا عن الإحاطة بحكمة «الشارع»، وإدراك حقيقة «الخلق» و«الخالق» سبحانه.

فما السبيل إذًا إلى مواصلة البحث فيما وراء الطبيعة، والكشف عن الحقائق الميتافيزيقية واستكناه علومها؟

هنا يأتي دور التصوف؛ حيث يوظف الإمكانات كلها: العقل، والنقل، والقلب، والكشف، ثم هو يتخطى إلى أفق أرحب، فيربي العقل تربية روحية تمنحه إمكانات أعلى في الاستيعاب والإدراك، وكذلك تضبط حركة «الكشف والإلهام»





بضوابط «النقل» فلا تقبل قدسية العقل، ولا تقبل أيضًا شطحات الكشف؛ إنما تصهر إمكانات الجميع في بوتقة واحدة تكون نتيجتها مقبولة من الجميع، فكرًا وعقلاً ونقلاً وقلبًا، يقبلها النقل والعقل، ويتقبلها الناس على اختلاف مستويات مداركهم ومشاربهم. أما إذا كان «الفتح» أوسع وأعمق، والكشفُ أكثرَ لطفًا ودقةً من أن تدركه العقول، أو تحتمله النصوص ظاهريًا، فثمة قانون صوفي مؤداه أن ما يكشفه الصوفي بقلبه وروحه لا يُجبَر غيرُه على التصديق به؛ هذا القانون يقول:

«الكشف دليل لأهل الكشف لا لغيرهم».

لكن المحير في الأمر أن الرغبة الجامحة في الوصول إلى الحقيقة، وفي كشف الغموض، وحب الاستطلاع هي رغبات فطرية مركوزة في الجِبِلَّة الإنسانية، وربما كانت هذه الرغبة هي الدافعَ لحيرة الفلاسفة وتعدد المناهج والمدارس الفلسفية، وربما السبب الآخر في قصور هذه الفلسفات والتيارات الفكرية كلها هو اعتمادها فقط على العقل؛ ذلك العقل الذي يبذل أقصى طاقاته، ويستنفذها في حل مشكلات الفلسفة، والإجابة عن تساؤلاتها الأزلية، لكنه في النهاية يعلن عجزه واستسلامه، ومن ثم يأتي فيلسوف جديد بمنهج جديد وفلسفة جديدة، لا تستطيع هي الأخرى أن تجد الإجابات المطلوبة، لكنها تستطيع فقط أن تنقد وتنقض الإجابات السابقة التي اقترحتها الفلسفات السابقة.

كل ذلك التيه الذي يعيشه الإنسان في فلسفته كان سببه عدم إيمانه، فلا دين يمنحه الحقائق الكبرى، ولا إيمان يهدي قلبه وفكره، ولا تقوى تهدهد روحه، وتطفئ ظمأها للحقيقة، إنما الموجود فقط عقل، وعقل بلا هدى.

فالعقل وحده غير كاف على الإطلاق، وهو سلاح ذو حدين، قد يقتلك أو يقتل عدوك، هذا العقل يمكنه أن يقودك إلى الخير والبر والصلاح، فترتقي درجات الكمال الإنساني إلى مرتبة {**فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**}، وقد يسوقك العقل إلى الغواية والبلايا والرزايا، فتهوى في دركات البهيمية إلى حضيض {**بَلْ هُمْ أَضَلُّ**}.





ولا ينكر أحد عبقرية جنكيز خان أو ذكاء هولاكو، ورغم ذلك لم يحجزهما عقلُهما عن ارتكاب أشنع الجرائم التي ما زالت وصمة عار في جبين الإنسانية، ومع ذلك لم يندى لهم جبين خجلًا مما فعلوه، ولا رف لهم جفن من تأنيب الضمير.

إذًا، فالعقل لابد له من هدى، وليس يهدي العقلَ سوى خالقه سبحانه، فإذا ما انضبط العقل بضوابط الشرع، والنص، والنقل، وتربى على منهاج الله تعالى قرآنًا وسنة، وتربية صوفية، كان في ذلك خلاصه من تيه الفلسفة وحيرتها.

ولو كانت العقول العظيمة لها القدرة وحدها على تدبير أمر البشرية لاستطاع الفلاسفة أن يوجدوا «المدينة الفاضلة» ولاستطاعوا أن يدلوا الناس على طريق السعادة، أو لأغنوا عن إرسال الأنبياء لهداية البشرية، ولما احتاج الناس إلى «هدى» من السماء ينزل به الوحي.

وقد لاحظ بعض الفلاسفة هذه الحقيقة، واعترفوا بعجز العقل، لذلك بدؤوا بالبحث عن وسائط أخرى يستخدمونها في بحثهم عن الحقيقة، ومن هؤلاء الفلاسفة الفيلسوف الفرنسي هنري برغسون (١٨٥٩-١٩٤١) الذي قبِل «الحدسَ» وسيلة من وسائل الوصول إلى الحقيقة، وكلمة «الحدس» هذه كان أهل الكشف يستخدمونها في الماضي لنشاطاتهم القلبية، وكانت تسمى «السوانح القلبية».

ويقول برغسون أنه من الخطأ واللامنطقي رفض الحقائق الميتافيزيقية التي يتلقاها المتدينون حين يصلون إلى مرتبة معنوية محددة بعد تطهير القلب وعبر الرياضات الروحية (الذكر الصوفي وغيره)، لأن هذه الحقائق لا تخضع للتحليل التجريبي مثل الحقائق الفيزيائية، وأوضح أن الحقائق المجردة مثل تلك الموجودة في التجارب الصوفية لا يمكن أن تكون موضوعًا في تجارب المختبرات، وهذا يظهر أن جزءاً صغيرًا من الفلسفة يلائم الفكر الديني، وبالتالي فهو يلائم التصوف.

أما البقية من الفلاسفة فما زال العقلُ محرابهم، وما زالوا يتخبطون في ذلك القفص الحديدي الضيق الذي حبسوا فكرهم فيه، ولم يفتحوا له آفاق الروح والقلب والمشاعر والدين، فصاروا في غيِّهم يترددون ويناقضون.





وعلى النقيض تمامًا نرى العقل الذي غذاه الوحي، وهداه أنبياء الله الذين كانوا جميعا ينهلون من معين واحد، ويصدرون عن أمر واحد[٦٤]، ويدينون بدين واحد، ويؤمنون برب واحد.

ويقول الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ:

«ثم إني لما فرغت من علم الفلسفة وتحصيله وتفهمه وتزييف ما يزيف منه، علمت أن ذلك أيضًا غير وافٍ بكمال الغرض، وأن العقل ليس مستقلًّا بالإحاطة بجميع المطالب، ولا كاشفًا للغطاء عن جميع المعضلات»[٦٥].

ويوضح نجيب فاضل قيساكوراك موقف الإمام الغزالي بين العقل والمعرفة في أحد مؤلفاته قائلًا: «إن المفكر الكبير المعروف بـ(حجة الإسلام)... كان مما قاله في المرحلة التي ترك فيها أمور الإدراك العلمية والفكرية كلها، وتوجه إلى المعرفة الحقيقية: وجدت أن كل شيء هو عبارة عن اللجوء إلى روحانية نبي الأنبياء، وسائر ما تبقى ما هو إلا كذب ودجل، ووهم وخيال!.. أما العقل فهو لا شيء... مجرد حدود!

وهذا الرأس العبقري العظيم الذي لم ير العالم مثله قد تراجع عن تساؤلاته كلها، والتجأ إلى روحانية نبي الأنبياء، ووصل إلى اللاحدود»[٦٦].

ذلك هو العقل العاجز المحدود، وهذا هو التصوف بعالمه الرحيب اللانهائي، فإذا لم تكن تملك مفاتيح عالم الحقيقة الأبدية، وهي حياة قلبك ومشاعر روحك، فلن يستطيع مفتاح العقل وحده أن يلج بك إلى ذلك العالم المنشود.

---

٦٤ في ذلك يقول الحق عَزَّوَجَلَّ: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ (الشورى، ١٣).

٦٥ الغزالي، المنقذ من الضلال، ص٢٨.

٦٦ نجيب فاضل قيساكوراك، من جيش الأولياء، ص٢١٣.








خ. العلم النافع:

ثمة فروق جوهرية بين مصطلحات ثلاثة قد تتقارب حروفها ومعانيها: العالِم، والعارف، والعرفان.

فالعالم هو كل صاحب علم ظاهري، أو رجل يحمل «العلوم الكتابية»، أما العارف فهو شخص ذو علم وحكمة وإطلاع على الأسرار الكامنة وراء العلم بتجلياته الإلهية.

بينما العرفان هو تلك الحالة أو الدرجة التي يصل إليها العارف بعلمه وتقواه، بعقله وقلبه، حين تكون العلوم كالبذور التي تحمل الخير والبركة والنماء، وتوضع في التربة الصالحة، وتتفاعل مع البيئة الصالحة، فتنمو وتكبر، وتتكاثر وتنتج، ويعم خيرها، فكما أن هذه الحبوب لا تخرج أسرارها المودعة فيها إلا حينما تتفاعل مع الكون، كذلك العلم.

والعلم نافع بطبعه، مفيد لأهله وللناس شريطة أن يستخدم بالأسلوب الصحيح، والطريقة المثلى في استخدام العلم هي أن يتجذَّر هذا العلم في أعماق روحك وقلبك، كما تفعل البذور في التربة؛ حينها يحصل النفع بالعلم في الدنيا والآخرة، ويستطيع الإنسان أن يوجه الطاقة الخيرية في «العلم النافع» لسعادة البشرية.





ومن المعاني الدقيقة لتفادي الخلل البشري في استخدام العلم وتوجيهه ما قاله العلامة «ماهر عز» رَحِمَهُ اللَّهُ عندما ذكر أن الإرشاد المعنوي هو الذي يمكن من خلاله تجنب الزلل في تحصيل العلم بالعقل وحده دون القلب؛ يقول:

«إني موقن بأن المعرفة الحقة لن تصل إليها إلا من خلال أهلها تعليمًا، وإرشادًا، وتربيةً، وتوجيهًا، مع سعيك الدؤوب في التحصيل وجمع كل شاردة وواردة تستطيع الحصول عليها؛ لذا فإنني بمجرد أن تلقيت إشارة قلبية من تجليات الشيخ رمضان أوغلو للعروج إلى سماء المعرفة، فقد ربطت إرادتي به، وأسلمت قيادي له»[٦٧].

ودرجة «المعرفة» التي يصل إليها كبار المتصوفة، والتي لا يمكن الوصول إليها إلا بالرياضات الروحانية والتربية المعنوية، هي التي تنتقل بمدارك الإنسان إلى آفاق أرحب مما يدركه العلم الظاهري، وتنجو بروحه أيضًا من ذلك الغرور والكبر مهما بلغ علمه، لأنه حينها يدرك مدى عجزه، وهو غارق بفكره في هذا العالم اللانهائي من الدهشة بالحقائق والمعارف بالغة التعقيد، حينها يدرك أن الحواس والمشاهدة الظاهرة لا يمكن وحدها أن تحصل على المعرفة؛ بل بإدراك الحكمة والأسرار وراء العلوم والمخلوقات، فالعلم الحقيقي هو أن ندرك حل لغز هذا النظام الكوني الكبير، وما وراءه من الأسرار الإلهية الكبرى.

وهناك حكاية ذات مغزى ومدلول جوهري، يرويها لنا مولانا جلال الدين الرومي، يوضح بها أهمية «العلم النافع»، والمعرفة الحقة المنجية يوم الدين والموصلة للسعادة الأبدية في الدنيا والآخرة، والتي من دونها يكون عمر الإنسان وعلمُه وسعيه هباءً منثورًا، تقول الحكاية:

كان أحد علماء النحو يركب ذات يوم سفينة، وأثناء سفرها في عرض البحر كان العالِم المغرور بعلمه يجالس صاحب السفينة، ويسأله بين الحين والآخر أسئلة معجزة ما كان لدى صاحب السفينة من جواب سوى كلمة (لا أدري)، بينما العالم

٦٧ ذكريات السنين، ص ٣٩٦.





النحوي تزيده هذه الإجابة نشوة بعلمه، واستهزاءً بصاحب السفينة، وحينها قال النحوي للرجل: يا للأسف!! لقد أضعت نصف عمرك بلا طائل بسبب جهلك.

جرحت تلك الكلمات الغليظة مشاعر صاحب السفينة، لكنه إن فَقَد العلم فلم يفقد الأخلاق، وإن كُسِر قلبه بهذا التحقير فلم تُكسَر روحُه بالنزول إلى درك رد السفاهة؛ بل صمت، ولم يرد على كلمات وسلوكيات هذا المغتر بعلمه.

ثم هبَّت عاصفة هيجت الأمواج، وتلاعبت بالسفينة، وأدخلتها في دوامة الغرق، وجعلت الجميع يوقنون بالهلاك، وهنا ذهب صاحب السفينة ليطمئن على العالم النحوي، فسأله: يا سيدي، هل تعرف السباحة؟

وهنا تلعثم النحوي الخائف الجاهل بالسباحة، وقال: لا، لا أعرف.

وكان الرد الحكيم من صاحب السفينة:

«يا أستاذنا، إذا كان نصف عمري قد ضاع جهلاً لأني لم أتعلم النحو، فإن عمرك كله سيضيع الآن مع هذه السفينة في تلك الدوامة لأنك لم تتعلم السباحة، أما كنت تدري أيها النحوي أن علم السباحة هو أهم وأنفع من علم النحو في هذا البحر؟».

والنحو هنا رمز للعلم الظاهري العقلي الدنيوي، أما السباحة فهي رمز للعلم الباطني القلبي المنقذ، الذي يلبيك حينما تستدعيه، ويجيبك عندما تناديه، وينقذك عندما تحتاج إليه في الدنيا والآخرة، علم ينفع روحك وبدنك، ويوصلك إلى رضا الله تعالى عبر العمل الصالح والإيمان الكامل.

وهذه السفينة المقبلة على الغرق هي نفسها الجسد الفاني المقبل على الموت بعد الدخول في دوامة الحياة ومعترك الأجل، وحينما تأتي الساعة الحاسمة تتخلى عنك حظوظ الدنيا التي اتخذتها زينة وتفاخرًا، ولا تنجيك علومك التي تعلمتها لتماري بها السفهاء، وتجاري بها العلماء، وتصرف بها وجوه الناس إليك، لا تنفعك هذه العلوم التي تعلمتها للناس، لا لله تعالى؛ بل حتى لم تتعلمها لنفسك، فتجيب عن





أسئلتك الحائرة، وتقدم لك الإجابات الشافية، وترتقي بك من درجة العالم إلى سماء درجة العارف، ولم تُخرجها من خزائن عقلك لتغرسها في أرض قلبك، فتثبت وتورق وتتفيأ ظلالها في كنف الله تعالى ورضاه.

فما سبيل النجاة بهذه العلوم؟

السبيل هو التوجه بهذه العلوم إلى الله تعالى، والتخلص من كل مراد سواه، ومن كل رجاء عداه، وجعل العلم وسيلة لنيل رضاه، فالمرء الذي يتفاخر بالعلم، والنفس التي تتباهى بالمعرفة، ستوضع في التراب بعد أن تغرق السفينة، ولن يبقى منك سوى «قلب سليم» يقبل على الله تعالى حاملاً علمًا نافعًا، يستطيع وحده أن يمخر عباب المحيط، ناجيًا من كل ريح عاتية أو موجة عالية، لا تثقله نفسه فتهوي به وبعلمه إلى القاع، ولا تغويه شهواته فتجره وتدور به في دوامة البحر، إنما هو علم يتجرد به لله وحده سبحانه، ولا يعطي منه شيئا لنفسه ولا لشهوات نفسه، فهو يحارب هذه الشهوات من الغرور والكبر والرغبات حتى يقتلها، ليفوز بالحياة الأبدية الخالصة من الشهوات، المتخلصة من الرغبات، الصاعدة إلى أعلى الجنات، الناجية من كل الملمات.

وهذا هو معنى النصيحة الصوفية القائلة:

«موتوا قبل أن تموتوا». أي لتمت منكم النفوس والشهوات، قبل أن تموت منكم الأبدان وتنكسر الأرواح.

والسبيل إلى ذلك هو ما قاله أبو حفص عمر بن الخطاب ﵁ عندما قال:

«حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا».[٦٨]

ليكون الإنسان دائم المراقبة لنفسه، شديد الحرص على كل تحركاتها وسكناتها، ممسكًا بكل قوة بلجامها، فلا تدفعه لشهوة، ولا تجره لرغبة، ولا توقعه في آفة.

---

٦٨ الترمذي، القيامة، ٢٥.





ويروي لنا القاضي أبو بكر بن العربي الأندلسي هذا المشهد، فيقول:

رأيت الإمام الغزالي في البرية، وعليه مرقعة، وبيده عكاز وركوة، فقلت له: «يا إمام، أليس التدريس في بغداد أفضل من هذا؟» فنظر إليَّ شزرًا، وقال: «لما بزغ بدر السعادة في فلك الإرادة، وجنحت شمس العقول إلى مغرب الوصول:

تركت هوى ليلى وسعدى بمعزل وعدت إلى مصحوب أول منزل

ونادت بي الأشواق مهلًا فهذه منازل من تهوى رويدك فانزل

غزلت لهم غزلًا دقيقًا فلما لم أجد لغزلي نساجًا كسرتُ مِغزلي»[٦٩]

هذا العالم الفذ بعد طول علم ومجاهدة أدرك الغاية، وعرف الحقيقة، ورأى بعين البصيرة، فعرف قيمة هذه الدنيا الحقيرة، وعلم أن ما كان فيه من العلم ليس علمًا؛ بل العلم الحقيقي والأثر الأبقى والمنقذ الوحيد وطريق السعادة الأوحد إنما هو العلم الذي يزيدك بالله معرفة، ويملأ قلبك إيمانًا به وشوقًا إليه، فتؤدي العمل الصالح بروحك قبل جسدك.

والعلم الحق هو الذي يحملك على أن تدرك ما عليك من مسؤوليات يوجبها عليك هذا العلم: المسؤولية العقلية والوجدانية والقلبية، حتى لا يفلت زمام العلم من يديك، ويصبح قوة جامحة لا يُعلم لها توجه، ولا يُدرك لها قرار، وينقلب نفعه ضررًا بالغًا، وكأنه قوة نووية في يد مخرب؛ وبدلًا من أن تنتج طاقة تدير عجلة الإنتاج تصير خطرًا يدمر كل أخضر ويابس.

ولا تتحقق الاستفادة والنفع من العلوم، ولا يتم الانتقال من مرحلة النظرية إلى مرحلة التطبيق إلا بتوجيه العلوم من مجرد علم إلى «علم نافع»، متصل بالله تعالى، نابع من القلب، مفعم بالأخلاق.

---

٦٩ ابن العماد، شذرات الذهب، بيروت ١٤٠٦، جـ٦، ٢٢؛ محمد بن سليمان البغدادي الخالدي، الحديقة الندية، ص٢٦؛ محمد بن عبد الله الخاني، البهجة السنية، اسطنبول ٢٠٠٢، ص٦.





وها هي العلوم المجردة من الأخلاق تهبط بأصحابها من السماء إلى الأرض، ومن نور الإيمان إلى نار الجاهلية، فعلم القانون حين يُسلَب صاحبه الأخلاق يصير جلادًا قاسيًا لا قاضيًا عادلاً، وعلم الطب حين يُسلَب صاحبه الرحمة والرقة يصير قصَّابًا لا ملاك رحمة، وذلك راعٍ يسوس أمور الناس بسياسته المحنكة، لكنه حين يُسلب الرفق يشقُّ على قومه، وأصحاب العلم هؤلاء أشد ضررًا من الجهلاء مسلوبي العقول.

ولكم هو جميل كلام يونس إمْرَه حين قال:

تحصيل العلم له غاية

هي معرفة العبد خالقه في النهاية

إن قرأت ولم تعرف البارئ

فجهدك إذًا ضاع هباء

فالعلم القلبي هو العلم النافع الذي يرتقي بأصحابه وبالدنيا كلها في الدرجات المادية والمعنوية.

ودعنا نتساءل عن النفع المادي من العلم الظاهري المجرد عن المعنويات إذا كان يلفه الكبر والغرور، ويقود أصحابه إلى درك الشرور، فأي نفع يُرجى منه مهما كان ماديًا أو معنويًا، نفعه المعنوي انكسار للقلوب، كما فعل مع صاحب السفينة، ونفعه المادي دمار شامل كصاحب القنبلة النووية، لا نفع يُرجى منه مطلقًا.

لذا؛ فإن البيان النبوي الرشيد، والمنطق المصطفوي السديد، والعبقرية المحمدية الفذة كان دعاؤها بالعلم النافع؛ إذ يقول رسول الله ﷺ:

«**اللّهم إني أسألك علمًا نافعًا، ورزقًا طيبًا، وعملًا متقبلًا**» (ابن ماجه، إقامة الصلاة، ٣٢)

وفي هذا السياق نجد أن غاية العلم النافع الذي يكوِّن كُنه علم التصوف هي تزيين العبد بالزهد والتقوى والإحسان، ومن كان علمه على هذا النحو، صار علمه عندها معرفة، وصار صاحبه عارفًا.





ويقول مولانا جلال الدين الرومي:

«إن العلماء الذين يقتصرون على الظاهر فقط يعلمون دقائق وتفاصيل الهندسة، والفلك، والطب، والفلسفة، كل حسب مجاله، لكن علمهم هذا ما هو إلا علم بهذه الحياة الفانية التي تُزال بطرفة عين، وهو علم لا يُري الإنسانَ طريق المعراج الذي يتجاوز السماء السابعة».

«ولا يمكن للغافلين الذين تحكمهم أنفسهم أن يعلموا الطريق إلى الله تعالى، ولا المنازل في هذا الطريق، ولا يمكن إلا للعارفين من أهل القلوب أن يعرفوا علوم الطريق إلى الله سبحانه، ليس بعقولهم بل بقلوبهم».

فإذا ما اختلط العلم بالقلب، ونضج فيه، أدرك حقيقة الوجود وسره الأعظم، وحكمته الإلهية، وكان في وصال مع الحق سبحانه. وتنعَّم صاحبه بالتجليات والفيوضات الربانية، وسرى نورُ العلم من أذنيه وعقله إلى قلبه وسلوكه وروحه، فتحول العلم من صورة إلى سيرة، ومن فضول إلى فضيلة، ومن أوراق إلى أخلاق، ومن سطور وزبور إلى نور.

يقول الله تعالى في الآية الكريمة: ﴿**وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا**﴾ (طه، ١١٤)

وهذه الزيادة هي التي ترفع من منزلة العبد في التقوى والخشية، فالله ﷻ يقول: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ (فاطر، ٢٨)

ويقول نبينا الكريم ﷺ:

«**إنَّ أتقاكم وأعلمكم بالله أنا**» (البخاري، الإيمان، ١٣؛ الأدب، ٧٢)

وعن يزيد بن سلمة الجعفي رضي الله عنه قال، قال يزيد بن سلمة:

يا رسول الله، إني قد سمعت منك حديثًا كثيرًا أخاف أن ينسيني أولَه آخرُه، فحدثني بكلمة تكون جماعًا، قال: «**اتقِ الله فيما تعلم**» (الترمذي، العلم، ١٩/ ٢٦٨٣)

وقد لخص النبي ﷺ بهذه الكلمات غاية العلم ووضح طريقه الأمثل.





ويخاطب الإمام الغزالي قدس اللهُ سرَّه أولئك المشغولين بالعلوم الدنيوية المحضة، والذين يقضون عمرهم في «القيل والقال» متناسين ربهم ﷻ، قائلًا:

«يا بني، عارٌ عليك، إن لم يوصلك الكلام، والمنطق، والبلاغة، والشعر، والصرف، والنحو، وما شابهها من العلوم إلى العرفان، ماذا جنيت في عمرك الذي وهبك إياه الله ﷻ لكي تعبده فيه سوى أنك ضيَّعته؟!»

إذًا، ما فائدة العلم الذي لا ينفع في إيصال العبد إلى الجنة، والنظر إلى جمال الله تعالى، لا بل يوصله إلى الخسران؟ وهل من الممكن أن نطلق اسم علم على العلوم التي تجعل من الإنسان شبيهًا بإبليس، وبلعم بن باعوراء، وقارون، وأولئك الذين «أضلهم الله على علم»، فكان العلمُ سببَ ضلالهم وهلاكهم، فلم يملأهم العلم نورًا؛ بل حشاهم غرورًا، حتى تطاول المخلوق الحقير على الخالق العزيز سبحانه، فأورثهم العلم جهلاً وحمقًا وهلاكًا، ولم يعطهم نورًا وهداية.

ويقول علماء الإسلام في ذلك:

«العلم هو الإدراك، ودون الإدراك لا يتحقق العلم، ومنتهى الإدراك هو معرفة الله ﷻ، وبهذا تكون معرفة الله تعالى جوهر العلوم كلها، وبدرجة الاقتراب من هذه المعرفة تزداد قيمة هذه العلوم».

ويقول مولانا جلال الدين الرومي:

«الإنسان البارع المتعلم إنسان جيد، لكن خذ العبرة مما حصل مع إبليس ولا تعطه قيمة كبيرة، لأن إبليس أيضًا كان لديه علم، فقد رأى خلق آدم من التراب، ورأى وجهه الخارجي، لكنه لم يرَ حقيقته».

«إن أكثر أهل الجنة هم أهل القلوب الصافية، والإيمان المحض، وكم أضل العقلُ أهلَ العلم، وكم ضلت أفهام أهل العقل، وكم زلت أقدام الفلاسفة، فَانجُ بنفسك أيها الإنسان من هذا التيه، وتخلص من هذه الأرزاء، واحظَ بتنزلات رحمات ربك في كل حين».





فالطريق إلى الحقيقة لا يكون بالعقل وحده، فالعقل سبيله تحليل ألغاز الكون، وكشف أسرار الخلق، وتتوقف مهمته وقدراته عند مجرد الكشف عن وجود هذه الأسرار، والوقوف على عتبة الاندهاش والتعجب، والاستسلام عند نقطة التسبيح بقدرة الخالق سبحانه أما تجاوز هذه العتبات، والولوج إلى باب الأسرار، وكشف الأستار، فإنه بالإيمان والعشق.

فالعقل الذي تربى على منهاج الوحي الأمين بالقرآن والسنة، يوصلك إلى منتصف الطريق في الوصول إلى السر، ثم يأتي دور القلب ليكمل لك الطريق في كشف السر، وإدراك الحكمة من وراء الخلق.

وهذا العقل مجرد باب يمكنك فقط استخدامه لينفتح لك على عالم الحقائق والأسرار، لأنه مجرد درجة ترتقي بها في الدين إلى الدرجات الظاهرية الأولى.

أما الدخول إلى عالم الأسرار، والارتقاء في درجات الكمال، والوصول إلى «العرفان» فيكون بالعشق، كما قال مولانا جلال الدين الرومي في اجتياز هذه المراحل:

«اجعل العقل قربانًا أمام المصطفى ﷺ»

فعندما تنتهي طاقة العقل، لا تستطيع إكمال المسيرة وبلوغ الغاية إلا بطاقة القلب، بالمدد الإلهي عبر الفيوضات والوجد، لتصل إلى الله الحق.

وهذا هو طريق الأولياء، الذين عبروا بحر الوجود بالحب، واجتازوا إلى عالم الأسرار بالوجد، وتعالوا على دنيا الفناء والخراب بنشوة الإيمان، واحتضنتهم حالة الاستغراق والتفكر بنشوة العشق.

فأولياء الله تعالى هم الذين ورثوا مهمة الأنبياء واضطلعوا بأعباء مهمة الرسالة، وواصلوا طريق المرسلين في هداية البشرية، وتربية النفوس، وتزكية الأخلاق، وتلك هي الغاية الأساسية التي أرادوها، والتي وصلت بهم إلى ذروة عالم الروحانية.





وليست كل أحوال الأولياء كرامات، إنما هي علمٌ صار عرفانًا، وإيمانٌ ملأ القلبَ والروحَ فصار بصيرة ترى التجليات الإلهية في كل أرجاء الكون، عبر العشق الإلهي الذي تشربته خلايا قلوبهم.

ويرى أولياء الله تعالى هذا العالم في إطار تجليات القدرة الإلهية، وبالبصيرة التي كانت نتيجة العشق الإلهي، ويطَّلعون على أسرار وحقائق الإنسان والحياة والكون.

فإذا انحرف العلم عن مساره، وضل عن طريقه، ولم يتخذ سبيله في ينبوعه القلبي؛ صار في القلب شوكة لا وردة، وفي العقل ضلالاً وليس هدى، ولم يبصر عجائب المخلوقات والآيات التي يزخر بها الكون.

إن طعم الحياة يصير أكثر لذة وأعظم متعة لمن يفهم لغة الرياح والجبال والأنهار، ويتعلم من فنون الزهور والأشجار والطيور وحتى الوحوش والكواسر، ويحس بالفن الإلهي المبثوث في كل أرجاء الدنيا، فمن لم يدرك ذلك كله، أو شيئًا منه، فهو علامة على فراغ القلب وانعدام نضجه.

ويوجِّه سعدي شيرازي القلوبَ إلى الحكمة، ويدعو إلى العلم النافع بقوله:

«حتى أوراق الأشجار الخضراء هي ديوان للمعرفة في نظر الشخص الواعي، أفلا تبدي كل ذرة في هذا الوجود إبداع الفن الإلهي؟»

إنَّ الكون معرِضٌ للتجليات التي تفيض من ينبوع الأسماء الإلهية، والإنسان هذا السر الغامض، ما هو إلا تجلٍ كاملٌ للأسماء الإلهية، فمن يرد الوصول إلى الكمال في الدنيا، عليه أن يكون صاحب قلب يحمل أحاسيس سامية، وقد كان الحسين بن منصور الحلَّاج حتى أثناء رجمه يبحث عن القلب الكامل.

وكلُّ ذرة في هذا الكون تنقل لنا سلامًا وخبرًا جديدًا من الأسماء الإلهية في كل لحظة من لحظات العمر، فإذا لم تكن الأمورُ كلُّها، من ابتسامات الطفل الرضيع إلى خفقات جناحي الفراشة، ومن نغمات العندليب إلى ألوان الربيع وأريجه، تجلياتٍ للأسماء الإلهية، فماذا ستكون إذًا؟ وأعظم مظهر من مظاهر العلم النافع هو قراءة





المرء كتابَ الكون والمخلوقات بعينَي قلبه، وإدراكه أن العالم ما هو إلا حِكم وعِبر وتجليات إلهية، إذ يقول المولى في كتابه الكريم:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ (الدخان، ٣٨)

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمنون، ١١٥)

وتهدينا الآيات إلى أن المخلوقات في الكون هي معجزات، وأن وراء الموجودات حِكَمٌ وأسرار، وأن الخلق كان لعبرة وعظة، وأن ذلك الإبداع كله موصل إلى المبدع سبحانه، وهذه المخلوقات بعظمتها دليلٌ على عظمة الخالق سبحانه، وأنها كلها تجليات للعظمة الإلهية. هذه العظمة تلفت حتى الأنظار العمياء، وتحرك القلوب الجامدة، فالأزهار الرقيقة بألوانها المبهجة وأريجها الزكي تبعث السرور والبهجة والبسمة في أشد الوجوه عبوسًا وأكثر القلوب غلظة.

وجسم الإنسان الذي هو جُمَّاع لكل معجزات الخلق والكون، وأنموذج متفرد للدلالة على عظمة الخالق، عندما يقف أمامه الطبيب العالم، وينظر إليه من هذه الزاوية، زاوية الإبداع الإلهي، سيرى فيه كنزًا ضخمًا من كنوز الأسرار الربانية، عندها يدرك بالعلم النافع والنضج القلبي مقدار القدرة الإلهية، فينظر إلى مريضه بعين الشفقة والرحمة، لا بعين الكيمياء والعمل الروتيني.

فما بالنا بقلب المؤمن وروحه، وما بالنا بصاحب العلم الباطني، كيف يكون إدراكه لهذه العظمة. أما إذا لم يصل الإنسان إلى هذا الإدراك، ولم يبلغ ذاك الأفق، فقد سقط في هاوية من النقص والعجز لا يجبرها شيء من المناصب العلمية والدنيوية، فأي قيمة دنيوية يمكن قياسها بالنضج القلبي والكمال الأخلاقي.

ونفهم من كل ما سبق أن طريق العلم النافع يحتاج إلى التخلِّي والتحلِّي، التخلي عن خصال سلبية تصيب القلب والنفس مثل الرياء والتكبر والطمع والفخر وحب الرئاسة وغير ذلك....





والتحلي بملء القلب بالصفات الإيمانية التي تحيي الروح بالخلق المحمدي العظيم كالتقوى والخشوع والرحمة والصبر والشكر والتواضع والقناعة والزهد والورع والتوكل على الله تعالى.

ويبيِّن الإمام الرباني المحيط الذي يزدهر فيه العلم النافع بقوله:

«أيها الإخوة المؤمنون، إن أول أمر ضروري لنا إنما هو تصحيح الاعتقاد بناءً على الكتاب والسنة، فأهل البدعة والضلالة يظنون أن عقائدهم وأحكامهم الباطلة توافق الكتاب والسنة، ولكن اعتقادهم في الواقع بعيد أشد البعد عن الحق والحقيقة».

وعليه؛ فإنه من الواجب معرفة أوامر الشرع ونواهيه، ومعرفة الأحكام الدينية ومراعاتها بدقة، والسير على خطى الحبيب المصطفى ﷺ سنةً وسيرةً، والتخلق بخلق القرآن، وتطبيق ذلك كله في الواقع وترجمته إلى أعمال صالحة تحمل موافقة الشرع ومشاعر القلب، فتصل إلى الكمال.

فلا تطبيق للأحكام الدينية، ولا طائل وراء تنفيذها، إذا لم يكن الاعتقاد سليمًا.

ولا وصول إلى كمال الأخلاق وسمو المشاعر، إذا لم تراعَ أحكام الشرع.

ولن تتحقق سلامة القلب وتزكية النفس وتطهير الروح دون عمل وجهاد.

فإذا تحقق تطهير القلب وتزكية النفس، وتحققت سلامة الاعتقاد وصلاح العلم والعمل، حينها يصل السلوك بالعبد إلى الكشف والوجد، فينال الفيوضات الإلهية، وحينها يصل العلم إلى درجة «العلم النافع»، ثم يصير معرفة بالله تعالى.

اللهم إنَّا نسألك علمًا نافعًا، وقلبًا خاشعًا، وعملًا متقبلًا.

اللهم إنَّا نعوذ بك من علم لا ينفع، وقلب لا يخشع.

اللهم اجعلنا من عبادك الذين يعملون بعلمهم، واجعلنا يا رب من أولئك السعداء الذين وصلوا إلى العرفان، وارتقوا في معرفتك إلى الدرجات العلا.



الفصل الثاني

التربية الصوفية (السير والسلوك)

أ. النفس وتزكيتها

١. ماهية النفس

٢. تزكية النفس

٣. مراتب النفس

أ. النفس الأمارة

ب. النفس اللوامة

ت. النفس الملهَمة

ث. النفس المطمئنة

ج. النفس الراضية

ح. النفس المرْضية

خ. النفس الكاملة

ب. القلب وتطهيره

١. ماهية القلب

٢. أنواع القلب

٣. تطهير القلب

أ. الطعام الحلال

ب. الاستغفار والدعاء

ت. قراءة القرآن واتباع أحكامه

ث. أداء العبادات بخشوع

ج. إحياء الليل

ح. ذكر الله ومراقبته

خ. محبة رسول الله وإكثار الصلاة عليه

د. التفكر في الموت

ذ. صحبة الصالحين والصادقين

ر. التحلِّي بالأخلاق الحميدة

٤. رؤية العالَم بقلب صافٍ

ت. المبادئ الأساسية في التربية الصوفية

ث. المرشد الكامل وطرق الإرشاد

١. المرشد الكامل

٢. طرق الإرشاد

أ. المحبة- الرابطة

ب. الصحبة

ت. الخدمة

ث. التوجه

ج. الدعاء

ج) أسلوب التصوف

١. أسلوب الهداية والرحمة

٢. أسلوب الحلم والرأفة





قال الله ﷻ : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّىٰ﴾ (الأعلى، ١٤)



التربية الصوفية
(السير والسلوك)

التصوف مدرسة معنوية لتربية النفس وتطهير القلب على يد المربِّين الحقيقيِّن ورثة الرسول المبعوث رحمة للعالمين ﷺ




عالم التصوف هو ذلك المحضن التربوي الذي يدخله العبد، فيجد فيه مَن يزكي نفسه من أدرانها، ويطهر قلبه من أدوائه، ويقود روحه إلى سمو الرحمة في ظل هدي نبي الرحمة ﷺ على يد ورثة الأنبياء.

فللتصوف أساليبه التربوية الخاصة المتعددة بتعدد طبائع البشر، فقد خلق الله تعالى البشر مختلفين في طبائعهم وقلوبهم وأرواحهم واستعداداتهم وقدراتهم للسير في طريق الله تعالى، والعروج إلى كمالات الدرجات الصوفية.

بل إن من البشر من يقصر باعه وتضمر قدرته، وتستعصي على المربين أساليب تقويمه وتغييره، فيقف عند درجة لا يعدوها، وعند مرتبة لا يتخطاها.

والأساليب التربوية في الشريعة والتصوف قد وضعت للعامة والخاصة، فأما وضعها الشريعة فهي ما يَسعُ الجميعَ -على اختلاف قدراتهم وإمكاناتهم- أن يتربوا على أصولها، ويمتثلوا لنظمها التربوية، وأما من كان لديه بسطة في القدرة وسعة في الاستعداد، وقَدرًا من التميز ليصل إلى مرتبة أعلى، ودرجة أرقى، فإن التصوف يقدم له من تعدد الأساليب ما يوافق تعدد الطبائع البشرية والإمكانات المتفردة المستعدة للسلوك في الطريق للوصول بالجميع إلى حالة النضج المبتغاة عبر التربية بالتوجيه والأوامر الإلهية؛ وهذا التميز بين كل أسلوب وآخر كأنه مثل النظارات الطبية التي يضعها الإنسان وفق معايير طبية دقيقة تتفاوت مع تفاوت مقياس درجة البصر، ثم تتفاوت وفق درجة البصيرة.





إنه الفرق بين الشريعة والتصوف، لا خلاف ولا اختلاف بينهما، لكن علاقتهما معًا مثل الفرجار بذراعيه الثابتة والمتحركة، فالذراع الثابتة للفرجار هي الشريعة، لا يند عنها الفرجار قيد أنملة، فعليها ثباته، وحولها مداره، وأما الذراع الثانية للفرجار فهي التصوف، الذي يدور وراء التوجيهات الإلهية والأساليب التربوية الراقية، وأما المسافة بين الذراعين في الفرجار، فهي التي تتقارب وتتباعد وفق قدرة السالك في جهاده لنفسه، واستعداد قلبه للتلقي والتَّزَكِّي والتطهر.

وثمة معايير تتحكم في ذراعي الفرجار، وحركة أحدهما وثبات الآخر؛ هذه المعايير هي: دقة الالتزام بأوامر الله تعالى ونواهيه، لذا فإن المتصوف الحقيقي هو الذي التزم بالشريعة قرآنًا وسنة، فأصلح عالمه الظاهري، وانطلق إلى تربية عالمه الباطني، وهو في عمل دؤوب وجهاد دائم سعيًا إلى الكمال الظاهري، وإلى ذروة الانكشاف الباطني.

وهو لا ينسى أبدًا أن عالمه الداخلي الباطني هو الأساس وهو الأهم، لأنه هو المنطلق نحو الكمالات، فالقلب هو الذي يوجه الإرادة، والإرادة هي التي توجه الأفعال، والأفعال هي مناط الإصلاح.

ولهذا كان لابد في التصوف من تطهير القلب -الذي يعد مركز الأحاسيس والنيَّات- وتزيينه بالمحامد وتطهيره من الخبائث، فالقلب السليم يحوِّل ما ينزل به من قضاء الله تعالى إلى تجلياتِ لطف ورحمة وبركة، أما من ساءت نياتهم القلبية فلن يجدوا النور في طريقهم البتة.

والقصة التالية مثال معبِّر عن هذه الحقيقة:

خرج أَنُوشِرْوَان -الذي اشتهر بعدالته في التاريخ- ذات يوم إلى الصيد، ثم افترق عن أصحابه وسلك طريقًا أدَّى به إلى بستان، وهناك رأى شابًّا،فطلب منه رمانة يرتوي بمائها.





فعصَرَ أَنُوشِرْوَان الرمان وروى ظمأه، وسُرَّ كثيرًا بذلك، وغدا كالمنتشي، وقال في نفسه:

«لا بد أن أحصل على هذا البستان، فلثماره لذة ما بعدها لذة، عليَّ أن آخذه مهما كانت الوسيلة».

ثم طلب رمَّانة أخرى، لكنها كانت جافَّة حامضة، فسأل عن السبب، فأجابه ذاك الشاب ذو الفراسة:

«يا مولاي، لا بد أن قلبكم مال إلى الظلم، وفكَّرتم في أخذ هذا البستان منِّي بقوتكم وسطوتكم».

فتخلى أَنُوشِرْوَان عن أخذ البستان قسرًا، وندم على هذه النية السيئة وتاب، وحين طلب رمَّانة أخرى وجدها أحلى من الأولى وأكثر عصيرًا.

فاحتار السلطان، وسأل عن الحكمة في لذة هذه الرمَّانة، فقال له الشاب هذه المرة:

«أظن أنها التوبة عن غصب البستان».

ويُروى أن أَنُوشِرْوَان تاب -نتيجة هذه الحادثة وأمثالها- عن الظلم والجور، وأصلح قلبه، وصار يراعي الحق والحقوق مراعاة دقيقة، فغدا اسمه مرتبطًا بالعدالة إلى الأبد.

وأدى أَنُوشِرْوَان الحقوق لشعبه وزاد فيها، وتسامح معهم جميعًا، وحين تُوفي طافوا بتابوته في كل أرجاء مملكته، وفي تلك الأثناء صاح المنادي:

«من كان له حق عندنا فليأت ليأخذه».

فما وجدوا امرءًا له درهم واحد عنده[٧٠].

---

٧٠ انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ١، ٢٠٦-٢٠٧؛ إسماعيل حقي البورصوي، روح البيان، ١، ١٦؛ محمود سامي رمضان أوغلو، المصاحبة، جـ٦، ص٤٣-٤٤.





نفهم من هذه القصة أن من تطهرت قلوبهم يتركون دائمًا الفضائل والذكريات الجميلة وراءهم، فأحوال الإنسان وحركاته هي مرآة لعالمه الداخلي، فكما أنه لا يمكن رسم خط مستقيم بمسطرة عوجاء، كذلك لا يمكن انتظار سلوك حسن من إنسان لا يعرف قلبُه الصفاء والنقاء.

وإذا لم تكن ثمار الشجرة سليمة فنعلم حينئذ أنه ثمة مرض في جذرها ولا بد من علاجها، والقلب مثل الشجرة، فإن كان مترددًا على الهوى والوساوس، فينبغي أن يخضع لتربية معنوية.

وغاية التربية الصوفية هي جعل الفؤاد يحيا بمشاعر عميقة ووجدان سام، وبفضل ذلك وحده يغدو حال الإنسان وسلوكه في ذروة الفضيلة، فيصبحَان وسيلة لنيل رضا الله تعالى.

وقد كانت حياة النبي ﷺ تحتوي على أصولٍ وطرائق استثنائية تضمن للقلوب عبودية صادقة سامية، وقد اتبع ﷺ في أساليبه التربوية المعنوية أدق القواعد القلبية، ومن هذه القواعد أنه لم يوجِّه اللوم قط إلى الشخص الذي يخاطبه، أو الشخص الذي يتحدث عنه؛ بل كان النبي ﷺ يلجأ إلى التورية والتعمية، فلا يجرح ولا يفضح أحدًا، وربما كان يحمِّل القصور على نفسه، فكثيراً ما كان يبدأ حديثه في الأمور التي تقع بقوله: «**ما لي أراكم**»[٧١]، وكان إذا بلغه عن رجل أمرٌ ما، لم يقل: «ما بال فلان يقول؟» ولكن يقول: «**ما بال أقوام يقولون كذا وكذا؟**» (أبو داوود، الأدب، ٥/ ٤٧٨٨).

وقد تعلم أهل القلوب وأهل الإصلاح هذا الدرس النبوي، فنراهم يتبعون أصول الرقة، ويراعون الأحاسيس القلبية في معاملاتهم مع الناس، ويتخذون من مسامحة الخلق شعارًا لهم، ولأن اهتمامهم مُنصَبٌّ على الباطن وعلى القلب،

٧١ انظر: البخاري، المناقب ٢٥، الأيمان ٣؛ مسلم، الصلاة، ١١٩؛ أبو داوود، الخاتم، ٤؛ الأدب، ١٤؛ ابن حبان، صحيح، جـ٤، ٥٣٤.





فإنهم لا يهتمون بالظاهر الذي أساء إليهم؛ بل يسامحون المذنب ليتخلص من ذنبه، ويعاملون المسيء بالرحمة ليستميلوا قلبه، وينسون الذنب لتسكن عواصفُ الغضب، وتنطفئ نارُ الغيظ، فتهدأ الأجواء، وتسكن الأنواء، ولا يتبقى إلا الصفاء.

أهل القلب المصلحون يقومون بخطوة أكثر أهمية قبل إصلاح أحوال الناس؛ إنهم يجهزونهم أولاً لهذا الإصلاح وقبولِه والأنسِ به، من خلال أنس الصحبة، وهدوء الطبع، وسماحة النفس، ولطافة القلب، وبركات اللمسات النورانية.

هذا الأسلوب القلبي في التربية قائم على التسامح ونفي الشعور بالانتقام؛ بل حتى تجنب اللوم والتقريع والدفع بالكرم والإحسان، فها هو الكريم ابن الكريم ابن الكريم سيدنا يوسف عليه السلام وموقفه مع إخوته، يُلقونَه صغيرًا ضعيفًا في الجب، فيلقاهم قويًا «عزيزًا» بالحب، لبى طلبهم وأكرم نزلهم وأعطاهم من الطعام ما يكفي قومهم، ثم هو ينسب إساءتهم له إلى الشيطان لا إليهم، ثم هو يدعو الله لهم ويستغفر لهم:

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (يوسف،٩٢)

والنفس البشرية مهما كانت سادرةً في غيها عندما تقابل مثل ذلك الشعور القلبي الراقي، ومثل تلك المعاملة الشريفة، لابد أن تدركها المعجزة، ويؤثر فيها الإعجاز، أو على الأقل تبهتها المفاجأة. مفاجأة التحول من أقصى الشعور المتوقع للانتقام إلى أدنى الشعور المتلقي للتسامح والمحبة، عندها تنقلب الشقاوة هدى، وتتحول دواعي الذنوب إلى عوامل للتوبة.

وإذا استصعب بعض من الناس هذا المثال وتعذر بأن من قام به إنما هو نبي وليس فردا عاديا، فهاؤم قصة وليٍّ صوفيٍّ ورجلٍ مربٍّ مع شُرَّاب خمر، مجموعة من الشباب الغافل يجتمعون على شاطئ نهرٍ دجلة حول المعازف والقيان والكؤوس والدنان، يشربون الخمر ولا يبالون بأحد، وإذا بالشيخ معروف الكرخي -قدس الله سره- يمر بهم، وكأنه هتك سترهم، ومحا سرورهم، فقد ظنوا





أن الرجل الرباني سيدعو عليهم -وكان معروفًا أنه مستجاب الدعوة- فيصيبهم الهلاك، حتى إن أحدهم صدمه ذلك الشعور بالانتقام، فقام مغاضبًا، وصرخ في وجه الشيخ منتهرًا مستهزئًا: «هيا لا تتلكأ، ادعُ علينا حتى نغرق في خضم دجلة».

لكن معروفًا الكرخي لا يستفزه ذلك الاستهزاء، ولا يحركه الشعور بكراهية المذنب، إنما تدفعه مسؤولية التخلص من الذنب، واحتواء المذنب بالحب، فيرفع يديه إلى السماء داعيًا: «اللهم كما فرَّحتهم في الدنيا، ففرِّحهم في الآخرة».

ولوقع المفاجأة لا يدرك الشباب معنى كلمات الشيخ، فيسألونه:

«انظر ما تقول أيها الشيخ؟ هل تعي ما تدعو به».

وهنا لا يشرح الشيخ مقولته، إنما يبين لهم طريقته وأسلوبه التربوي:

«يا بَنيَّ، إذا فرَّحكم في الآخرة تاب عليكم».

وبعد أن زال عن الفتية هول الموقف ومهابته، إذا هم يعيدون حساباتهم، ويقرِّعون أنفسَهم، فيوبخهم شعور الندم، وتنتابهم رغبة التوبة، فيكسرون المعازف، ويريقون دنان الخمر، وينطلقون إلى طلب الفرحة والسعادة الحقيقية في الدنيا والآخرة.

وثمة خاصية أخرى في معايير التربية المعنوية لدى التصوف، وهي مراعاة اختيار أسلوب الإصلاح بما يتوافق مع طبيعة كل فرد واستعداده؛ إذ ليس من الحكمة أن تتجاهل طبيعة كل إنسان وخصوصيته، فتجهل الأسلوب الأمثل في توجيهه وتربيته، كما أن المرشد الكامل هو الذي يدرك كنه هذه الفطرة والطبيعة الخاصة لكل مريد، فيصون هذه الطبيعة وذلك الاستعداد عن الانجراف في التيار النفساني؛ ويقود المريد إلى استخدامه في أسمى الغايات ويوظفه للارتقاء به إلى أعلى الدرجات، وذلك عبر معادلة وتركيبة دوائية تناسب حالته، وتوافق أدواءه، فيكون شفاؤه في عالمه المعنوي، وترياقه في عالمه القلبي، ونبراسه في عالمه النوراني.





ألا ترى العرب في جاهليتهم -وكانوا مضرب المثل في قساوة القلوب، والتجرد من الشعور، لا تعرف الرحمة إليهم طريقاً، ولا يجد الضعيف لديهم جوارًا، ولا يجد اللين في قافلتهم ركابًا- ها هم أولاء تحدث فيهم المعجزة، فيصبحون أرق الناس أفئدة، وألين الناس عريكة، وأصفى الناس قلوبًا، وأرقاهم أخلاقًا، حتى صاروا مضرب المثل، وحديث التاريخ والدنيا في مناقبهم وآثارهم ونموذجيتهم.

كل ذلك التحول كان عبر التربية التي تلقوها على يد النبي ﷺ والمحبة التي ملأت جوانحهم لله ولرسوله ﷺ، فامتلأت عبادتهم خشوعًا، وأفعالهم لله خضوعًا، وصارت أخلاقهم مثالاً، وأفعالهم نبراسًا، وسِيَرهم أنموذجًا.

وكان الصحابة الكرام رضوان الله عليهم هم النموذجَ الأرفع للتربية النبوية في الظاهر والباطن، وها هو سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يصف هذه الحالة، فيقول:

«ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يُؤكل» (البخاري، المناقب، ٢٥)

تلك هي التربية القلبية المعنوية النبوية التي رباها النبي ﷺ لأصحابه، حتى وصلوا إلى هذا السمو ظاهرًا وباطنًا، وهي نفسها التربية الصوفية التي تهدف إلى تزكية النفس، وتطهير القلب، وهي أيضًا التي تتحقق على أيدي ورثة النبي من العلماء أهل السلوك والتصوف والمربين الحقيقيين.

أما السالكون في هذا الطريق، والمجاهدون للسير فيه حتى يبلغوا أعلى الدرجات، والساعون إلى مرتبة «الإنسان الكامل»، فهؤلاء هم المنتسبون إلى مدرسة التربية الصوفية، وهؤلاء هم أهل «السير والسلوك».





من عرف نفسه فقد عرف ربه.




أ. النفس وتزكيتها

١. ماهية النفس

عندما خلق الله تعالى سيدنا آدم أبًا للبشر كرَّمه وكرَّم نسله وذريته، فجعلهم من أفضل المخلوقات؛ لذا فقد شاءت العناية الإلهية أن تجعل العمل والطاعة سببًا لدخول آدم وبنيه الجنة، فاستقرارهم في الجنة يكون جزاءً لما عملوا في الدنيا منَّةً من الله تعالى وكرمًا منه سبحانه، وقد تحققت هذه الإرادة الإلهية كما جاء في القرآن الكريم، فقد كان الزلل البشري الذي وقع فيه سيدنا وأبونا آدم عليه السلام هو السبب الظاهري للخروج من الموطن الأصلي لبني آدم، ونزولهم إلى دنيا الاختبار وعالم الامتحان، وكان عليهم للعودة إلى الجنة والموطن الأصلي أن يتجاوزوا الكثير من الصعوبات، ويقدموا الكثير من التضحيات.

وعلى غير المنهج الرباني في المخلوقات، جَبَل الله تعالى الإنسان جِبِلَّة مغايرة، فلم يفطره على الخير المحض، ولم يخلقه على الشر المحض؛ بل هداه النجدين، وأعطاه النقيضين.

ولأن الإنسان هو أكرم المخلوقات وأشرفها، فقد ترك الله تعالى له حرية الاختيار، وتحديد المكانة التي يرنو إليها من أقصى اليمن إلى أقصى الشمال،





فإما أن يهوي إلى أسفل سافلين، وإما أن يرقى إلى أعلى عليين، فيحدد هو بنفسه درجته، إما أن يكون كالأنعام أو أَضل، وإما أن يكون كالملائكة بل أجلَّ، وذلك وفق إرادته واستعداده، وما تهديه إليه فطرته خيرًا أو شرًا.

ويتوقف اختياره والمكانة التي يتبوؤها على نتيجة الحرب الضروس التي تدور رحاها في جوانحه بين نوازع الخير ونوازع الشر، هذه النوازع تمثل جيشين متحاربين في فطرة نفس واحدة، الميول السلبية من ناحية، والميول الإيجابية من ناحية أخرى؛ كلٌّ يجهز عُدته وعَتاده، ويحمل على الآخر ويجلب عليه بخيله ورجله.

ومنشأ هذه الميول -كما يرى الفكر الصوفي- يعود إلى ما يسمى «الروح الحيوانية»، و«الروح السلطانية»، فما هما هاتان الروحان؟

الروح الحيوانية: هي تلك القوة الحيوية التي تسري في جسد الإنسان، فتحفظ حياته، وتمده بعوامل البقاء، وهي التي نسميها «النفس» أو «الروح»، وهي المسؤولة عن العمليات الحيوية لاستمرار حياة الإنسان، إراديًا ولا إراديًا، في يقظته ونومه وحتى في حالة غيابه عن الوعي، كالتنفس وعمل المخ وسريان الدم ونبضات القلب، وغيرها من النواحي البيولوجية.

هذه الروح هي التي تنتهي بنهاية الحياة، والتي تخرج مع الموت، ومركزها إما في الرأس والدماغ، وإما في الصدر والقلب؛ أما انتشارها ففي كل أعضاء الجسد وخلاياه، ومع كل قطرة دم تسري فيه، وهي الروح الحيوانية المرتبطة بعالم الخَلق والجسد.

لذا فهي المسؤولة بشكل ما عن الحركات والسلوكيات والأفعال، ومن الضروري أن تخضع - هذه الروح الحيوانية- إلى التربية والإصلاح حتى لا يكون اتجاه الإنسان ونوازعه إلى الميول السلبية وحدها.

الروح السلطانية: هي تلك النفخة الإلهية التي بثها الله تعالى من روحه في الإنسان، فميزته عن سائر مخلوقات الكون، هذه الروح الآتية من عالم الغيب هي





التي تتحكم في العالم القلبي للإنسان، وفي أعماله الصالحة، وهي تسكن الجسد البشري إلى حين أيضًا؛ لكنها لا تنتهي بنهايته كما هو الحال في الروح الحيوانية، إنما تغادر الجسد، وتنتهي ولايتها عليه بمجرد موته وفنائه.

وكلاهما موجود في الإنسان -الروح الحيوانية والروح السلطانية- فأيهما كانت له الغلبة والسيطرة والتوجيه، كان توجه الإنسان وعمله، فإما أن تخلد به الروح الحيوانية إلى الأرض وطينها وشياطينها، وإما أن تصعد به الروح السلطانية إلى السماء وأفلاكها وأملاكها.

وكل ذلك معلق بإرادة الإنسان وقدرته على السيطرة والتوظيف والقيادة، وذلك بقدر معلوم، وهو مناط التكليف، ومبعث الثواب والعقاب والحساب.

وفي هذا المعترك الدنيوي الذي يدور الإنسان في رحاه، ويحاول أن يجتاز عقباته، يجد أن أكبر تلك العقبات هي النفس، وليست النفس في ذاتها، إنما فيما تجر إليه من كبوات، وما تتبعه من شهوات.

أما جوهر النفس وكنهها فهو جوهرة ثمينة، ومعدن نفيس إذا نفى عنها الإنسانُ خَبَثَها بالمجاهدة، وعمل على تجليتها وتلميعها بالسلوك، وهذبها وشذبها كالجواهري، فأبدى جمالها، ووضعها في موضعها الذي تستحقه بالعمل الصالح؛ وكل ذلك عبر التربية المعنوية.

أيها الإنسان إنك تجني ما زرعت، فمن جاهد وَجَد، ومَن زرع حَصَد، ومن سلك بلغ، ومن تَزَكَّى تَرَقَّى.

هَب أنك مغترب سعيًا وراء المال، فهل تضيع الوقت وتبخل بالجهد الذي يمنحك المال، طبعا لا، فما بالك بغربة الدنيا التي تجمع منها مال الآخرة.

يقول البوصيري في «البردة»:

والنفس كالطفل إن تهمله شب على ... حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم.





والنفس كذلك مثل الفرس القوي، فإما أن تلجمه وتتحكم في قوته، فيقطع بك الطريق إلى غايتك، وتكون قوته في خدمتك؛ وإما أن يهيم بك جامحا، تسيل به الأباطح، فلا يصل إلى غاية، ولا تستقر به نهاية، إلا هلاكًا أو هاوية.

والفرس لجامه التربية، وسرجه الاتباع والانقياد، وترويضه المجاهدة والسلوك.

والفيصل في مسألة النفس هو التربية، فمن أخضعها للتربية فقد زَكَّاها، ومن تركها لهواها فقد دَسَّاها.

والنفس التي تحملها بين جنبيك مثل الفرس الذي يحملك، كلما كان ضامرا كان سباقًا، وكلما أجهدته قطع بك أبعد المسافات، وكلما حفزته على تخطي العقبات قويت سواعده، وبلغ الغاية، وإنما تكون عظمة النتيجة وكبر الجائزة على قدر العرق المصبوب، والجهد المبذول.

لكن ذلك كله منوط بمن يروِّض الفرس، وليس بالفارس وحده، فليس اللجام هو الذي يكبح جماح الفرس، وليس السرج هو الذي يسهِّل قيادته، إنما هو الـمُرَوِّض الذي يعرف طبعه، ويدرك فنون سياسته وقيادته، ويدرك أسباب جموحه ونفوره، ويعالج كبواته، ويجيد التحكم بزمامه.

والنفس كالفرس في احتياجها لمن يروضها ويسوسها، ويعرف طبائعها، ويدرك أساليب علاجها، ويهديها سبيلها لتبلغ غايتها، وتحتاج أيضًا لمن يساعدها على القيام من كبواتها، وعلى تجاوز عثراتها، ومواصلة الطريق رغم العقبات، والبلوغ إلى أقصى الغايات وأرفع الدرجات.

إنه المرشد المعنوي الذي يقود نفسك في طريقها، ويسوسها في سلوكها، وينقذها من غفلتها، ويملأ فراغها، ويكفيها من حرمانها، ويطلعها على حقائق النفس والكون.

إن أبرز سيئات النفس، وأشد جوانبها ظلامًا أن تكون حاجزًا بين العبد وربه، وحجابًا بينه وبين طريق الهدى، فتحرم القلب من الذكر، وتشغله بما سوى الله





تعالى، هنا لابد من إعلان الحرب عليها، والاستعداد لقتالها بكل سلاح، ووضع خطة محكمة للتغلب عليها؛ خطة تخضع لأصول وعلم ومعرفة وتجربة، كي تكون النتيجة مضمونة، والنصر أكيدًا، فجهاد النفس -لكل سالك- هو قدر محتوم.

لذا؛ فإن النبي ﷺ أشرف مخلوقات الكون يقول في الحديث الشريف:

«**المجاهد من جاهد نفسه**»[٧٢]

فهو الجهاد الأكبر والأصعب والأخطر.

والهدف من جهاد النفس ليس قتلها، إنما أسرها لتتمكن من قيادها، ولتحسن السيطرة عليها، والتحكم فيها.

لأن الأصل ليس إفناء النفس، بل تجنيبها الإفراط، وتربيتها، وتحديد رغباتها وميولها بالأحكام المطابقة للرضا الإلهي، والإمام الغزالي يشبِّه الإنسان في هذا الخصوص بالراكب على دابة، فيقول:

«النفس مطية الروح، فإذا ما أطلق الإنسانُ لجام النفس وتبِعها فقدَرُه الهلاك، وإذا ما سعى إلى قتل هذه النفس وإفنائها[٧٣] فلن تكون له مَطيةٌ يركبها في طريق الحقيقة، لهذا كله، عليك أن تمسك لجام النفس، وتستفيد منها لتكون مطيتك إلى غاياتك.»

إن مراعاة هذا المعيار في تربية النفس حاجة تقتضيها الأصول النبوية. فالنبي ﷺ كان شديد الحسم والوضوح في أمر الثلاثة الذين أرادوا الغلو في مخالفة الفطرة، ومنع النفس عن حاجاتها الأساسية، فرجل أراد الصيام الدائم، ورجل أراد القيام المستمر، ورجل أراد التبتل والانقطاع عن النساء والحياة الأسرية،

---

٧٢ الترمذي، فضائل الجهاد، ٢؛ أحمد بن حنبل، مسند، جـ٦، ٢٠.

٧٣ كما هو الحال في بعض الأديان الهندية والفلسفات الروحانية.





فجاء البيان النبوي الشافي بأن هذا الغلو مخالف لسيرته وسنته ﷺ؛ ومناقض كذلك لفطرة الله تعالى التي فطر الناس عليها[٧٤].

ولا يتوقف خطر النفس على حجبها لطريق الهداية؛ بل خطرُها كذلك أعظم للسالكين في ذلك الطريق، ولعل أعظم تلك المخاطر وأكبر تلك الآفات على الطريق: العُجْب، والكِبْر.

فهي تعجب بذاتها، وتتكبر بطاعتها وعبادتها، وتتطاول على الآخرين بمكانتها من الله تعالى. وهو ما يحتاج إلى يقظة دائمة وحماسة مستمرة في المجاهدة، واحتراسٍ دائم من مكائد النفس، فتعيش حياتَك كلَّها وأنت تخشى مكرها، ولا تأمن شرَّها، ولا تغفل عن دسائسها.

فالمعركة حامية الوطيس، لا تنفك تدور رحاها فتطحن بين شقيها من تدركه الغفلة أو يخلد إلى الراحة، أو ينتابه ضعف الإرادة، أو تخبو جذوة الحماسة في صدره وقلبه. فالمؤمن الواعي، والسالك اليقظ هو من يظل متنبهًا لأخطار النفس، وينصب لها دائمًا المحاكمة العادلة الحاسمة التي تكبح جماحها، وتضمن لها الصراط القويم.

وبعد ذلك كله لابد أن يمتلك صاحبها وقائدها إرادة قوية لا تخور، وعزيمة ثابتة لا تفتر، عزيمة تَرَبَّت على منهج القرآن، وإرادة عاشت على منهاج السنة، تدرك كيف تحكم، وتعرف كيف تتحكم.

لكن كيف يكون ذلك؟ كيف تقود فرسًا جامحًا، وتتحكم بنوازعَ بشريةٍ الشرُّ مطيتُها والشهواتُ فطرتها؟ إن تربية هذه النفس وتزكيتها أمر جِدُّ خطير، فهيا بنا نقف على حقيقة الأمر.

---

٧٤ انظر: البخاري، النكاح، ١، الصوم ٥٥-٥٧، التهجُّد ٧، الأنبياء ٣٧، النكاح ٨٩؛ مسلم، الصيام ١٨١-١٩٣؛ الواحدي، أسباب النزول، ص. ٢٠٧-٢٠٨، (المائدة ٥/ ٨٧)؛ علي القاري، المرقاة، جـ١، ١٨٢-١٨٣.





الهدف المأمول والغاية المرجوة في هذه الدنيا من تهذيب النفس أن تجعل طبيعتك كالزهرة الندية وسط أشواك البرية، فلا يرغمك جفاف طبيعتهم على فقدان نداوتك، ولا جفاء طبعهم على نسيان سخاوتك، فإذا قُذفت بحجر ألقيت أطيب الثمر.

 

٢. تزكية النفس

تفيد معاجم اللغة عن معنى التزكية بأنه التطهير والتنظيف والتخليص من كل ذميم، وكذلك تفيد معاني الزيادة والنماء والبركة[٧٥].

أما التزكية في معناها الصوفي فتشمل عملية التربية المعنوية بحذافيرها، فتزكية النفس في واقعها العملي هي أن تبدأ بتطهيرها من الكفر، ثم من الجهل، ثم من الأحاسيس الدنيئة، والمشاعر الشهوانية، والأقذار الإنسانية، والمعتقدات المشوهة، والأخلاقيات المنحرفة، والأعمال الزائغة عن أوامر الشرع ونواهيه،

---

٧٥ التزكية اكتساب الزكاة، وهي نماء النفس بما هو لها بمنزلة الغذاء للجسم، قاله الحرالي، وأصل التزكية نفي ما يستقبح قولًا أو فعلًا، وحقيقتها الإخبار عما ينطوي عليه الإنسان. (التعاريف – المناوي)

وقوله تعالى: (قد أفلح من زكاها) الضمير للنفس، و«التزكية» التطهير من الأخلاق الذميمة الناشئة من شر البطن والكلام والغضب والحسد والبخل وحب الجاه وحب الدنيا والكبر والعجب، ولكل هذه المذكورات علاج في المطولات. وفي الغريب: (قد أفلح من زكاها) أي ظفر من طهر نفسه بالعمل الصالح. (مجمع البحرين – الطريحي) (المترجم)





أي تطهيرُ القلب من فساد الاعتقاد، وتطهير الأفعال من مذمات الأعمال، وتطهير العقل من نقائص الجهل.

ثم متابعة ذلك التطهير بالتدبير، ومتابعة تلك التخلية بالتحلية، فإذا خَلَّيت القلب من فساد الاعتقاد حَلَّيته بالتقوى والإيمان، وإذا خَلَّيت العقل من نقائص الجهل حليته بالعلم والحكمة والعرفان، وإذا خليت الأفعال من مذمات الأعمال حليتها بالأعمال الصالحة والمشاعر النقية، وإذا خليت الروح من جفاف الدنيا ملأتها بروح وريحان، وندى من جنات عدن، ورويتها من كوثر القرآن والسنة.

والتزكية في المفهوم الصوفي هي أن تنزع لجام الرغبات من أيدي النفس، وتنزع مِقْوَدَ الشهوات من سيطرة الرغبة، وتخلُّص البدنِ من نفوذ نوازع الشر يكون بتقوية الإرادة، وتتأتى هذه الإرادة برياضة النفس وترويضها، وتدريبها على أصول الاعتدال في مدخلات النفس؛ لتحسن مخرجاتها، وليسهل التحكم فيها، ويحصل إلجامها.

ومن أصول إلجام النفس لدى أهل التصوف:

نقص الطعام، وقلة المنام، وندرة الكلام.

وهي الخطوات الأولى في طريق الرياضة، والقواعد الأولى لحكم النفس والسيطرة عليها؛ لكن لابد أن نضع في الحسبان اعتدال الميزان، فنحن هنا نروض النفس ولا نقتلها، فعلينا أن نحافظ على أمانة الله لدينا، وهي أبداننا، فنصونها عن البوار المادي، ولا نقصر في تطهرها المعنوي.

والاعتدال في كل الأحوال هو كمال الإسلام وميزته الكبرى، فلا تهاونَ ولا غلو، ولا إفراط ولا تفريط، فالعبادات والرياضات والمجاهدات إنما وضعت قواعدها للتزكية والتربية، وفق الخضوع للأوامر الإلهية.

وعاقبة الإنسان ومآله في أخراه ودنياه متوقف -إلى حد كبير- على هذه التربية وتلك التزكية؛ هل تسوقه إلى هلاك، أم تقوده إلى نجاة؟ وكي نقف على





بداية طريق التربية والتزكية، لابد من الوقوف في البداية ضد الشهوات، وضد فساد الأحوال والطموحات، وكذلك لابد من الخضوع التام للإرادة الإلهية.

ثم إدراك المؤمن السالك مدى عجزه وقصوره ونقصانه وجهله، وفنائه، وفي المقابل؛ يدرك مدى عظمة ربه وقدرته وجلاله وكماله.

وبناءً على ذلك الإدراك ينظم المؤمن أفعاله، وحينها يمكن للنفس الأمارة بالسوء -وفق الوصف الرباني- أن تتطهر من هذا السوء لتصل إلى حالة مقبولة.

ولأن هذا السبيل -سبيل التربية والتزكية- هو جهاد في طريق السير والسلوك، فقد أطلق عليه اسم «الجهاد الأكبر» لمدى قدره وخطره، وهو ما جاء في الأثر عن النبي ﷺ إبان عودته من غزوة تبوك، ورغم أنها أيضًا كانت من أصعب وأخطر الغزوات، إلا أنه ﷺ قال لأصحابه عند القدوم منها:

«قدمتم خير مقدم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»[٧٦]

وهل هناك جهاد أكبر من الجهاد في الغزوة بالذات، التي أحاطت بها العقبات والمصاعب منذ اللحظات الأولى للإعلان عنها، فالجيش الذي يجابهه المسلمون جيش عرمرم ملأ الشرق والغرب، والوقت الذي بدأ فيه الإعداد للزحف كان حين اشتد الحر، وطاب جني الثمر وحان موسم الحصاد، كل ذلك مع خفة الزاد، وانعدام الراحلة، وبُعْدِ الشُّقة، وتباطؤ الناصر، فقد تخاذل المنافقون، وكثر اللامزون، ومع هذا كله انطلق نحو ثلاثين ألف صحابي يقطعون الفيافي، ويضربون أكباد الإبل لمسافة بلغت نحو ألف كيلو متر.

فمَنَّ الله تعالى على رسوله ﷺ وصحبه الكرام بإحدى الحُسنَيين وأحد الوعدين، وها هو الجيش يعود إلى المدينة، وقد صارت عكن بطونهم عظامًا،

٧٦ البيهقي، الزهد الكبير، ١٦٥، ١٩٩٦؛ السيوطي، الجامع الصغير، جـ٢، ٧٣/ ٦١٠٧.





وأطرافهم من ضمورها كأنها سهام، تغيرت منهم الوجوه حتى أنكرهم القريب، وتبدلت أحوالهم حتى رق لهم العدو مع الحبيب، ثم بعد كل هذه الأهوال والأحوال، يسمعون من النبي ﷺ ذلك المقال:

«الجهاد الأصغر»، فتطلعت الأبصار والأفئدة إلى صاحب الحكمة ونبع العرفان، المصطفى ﷺ يسألونه:

«يا رسول الله، إنك ترى حالنا هذا! وهل هناك جهاد أكبر من هذا؟»، فأجاب الرسول ﷺ:

«قدمتم خير مقدم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر: مجاهدة العبد هواه»(٧٧)

أي ربي، أجهاد النفس أصعب من ذلك كله؟

وفي هذه الغزوة أيضًا ما هو أشد على الأفهام وأصعب على الأحلام، إنه ذلك الدرس الدقيق من قصة الثلاثة الذين خُلِّفوا، فأقعدتهم أنفسهم عن اللحاق بالركب الكريم إلى الجهاد، رغم أنهم شاركوا في معظم الغزوات السابقة، هاهم منبوذون من الناس، مقطوعون من الجماعة، ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، بل ضاقت عليهم جلودهم ندامة وتقريعًا، وأصابهم العار قبل أن يأتيهم الفرج من العزيز الغفار.

هؤلاء الثلاثة تخلفوا عما يُدعى «الجهاد الأصغر» فأصابهم التحقير، فما بالنا بمن يتخلف عن «الجهاد الأكبر»، أي تحقير يصيبه؟ وأي عار يلحق به؟ وبأي جواب سوف يجيب مولاه حين يُنصَب الميزان، ويُنشَر الديوان، وتنطق الجوارح

---

٧٧ انظر: البيضاوي، أنوار التنزيل، جـ٤، ٨٠ (الحج: ٧٨). قارن: السيوطي، الجامع الصغير، جـ٢، ٧٣؛ المناوي، فيض القدير، جـ٣، ١٤١/ ٢٨٧٣؛ علي المتقي، جـ٤، ٤٣٠/ ١١٢٦٠.





قبل اللسان، لتشهد الأعضاء والأبدان على من أتبع نفسه هواها، فما طهرها وما زكَّاها، لكنه تخلف عن الجهاد الأكبر فدسَّاها(٧٨).

وكما يقول الفاروق عمر ﷺ: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا»، فحاسبها حسابًا غير يسير، ولم يغفل لها أو يغفر أي أمر قليل أو كثير، وأخضعها لحساب دقيق، قبل أن يأتيه الحساب الإلهي الأدق.

ويحذر المولى ﷻ عباده تحذيراً شديداً حين يقول:

﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ**﴾ (المؤمنون، ١١٥)

ويقول الحق تعالى في آية أخرى:

﴿**أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى**﴾ (القيامة، ٣٦)

---

٧٨ الصحابة الثلاثة هم: مرارة بن ربيع العمري، وهلال ابن أبي أمية الواقفي، وكعب ابن مالك شاعر الرسول. وقد شارك هؤلاء الثلاثة في الغزوات كلها، وكان مرارة وهلال من أهل بدر. ولكن ضاقت عليهم الدنيا بما رحبت حين قوبِلوا بهذه المعاملة التي كانت بسبب تخلفهم عن الجهاد في غزوة تبوك. لقد صاروا غرباء بين الناس، حين هجرهم الرسول ﷺ وأصحابه، وحتى إن نساءهم صِرْنَ غريبات بالنسبة لهؤلاء الثلاثة؛ إذ كان من اللازم قطع أي علاقة والانفصال عنهم، حتى يأتي الوحي الإلهي ويبين وضعهم. لقد كانوا في مأزق لا مخرج منه، لهذا ذرفوا دموع الندامة كل ساعة، وباتوا كالشموع التي تذوب يوماً بعد يوم. لقد ارتكبوا خطأً، لكنهم لم يبتعدوا عن الإخلاص والاستقامة والتسليم والتوبة. واستمر الحال بهم هكذا على مدى خمسين يومًا، وفي النهاية كان ثواب اعترافهم بذنبهم، وتوبتهم النصوح، هو نزول آية بحقهم، تعلن العفو عنهم:

﴿**وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾ (التوبة، ١١٨-١١٩)

(للاستزادة في هذا الموضوع انظر: عثمان نوري طوباش، سيدنا محمد المصطفى، جـ٢، ٥٠٥-٥٠٩)





ويقول الرسول الأكرم ﷺ:

«**الكَيِّسُ من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبعَ نفسه هواها، ثم تمنى على الله**» (الترمذي، القيامة، ٢٥؛ ابن ماجه، الزهد، ٣١)

بعد كل هذه المعاني في القرآن والسنة، وكل هذه التكليفات المؤكدة بمواثيق لا تنحل، وكل هذه المسؤوليات الملقاة على عاتقك، لابد أنك أدركت عظم الغاية والتكليف المنوط بك، وأدركت ما تحتاج إليه من خطط تعينك على أداء هذه المهمة الشاقة المعقدة والدقيقة، فينبغي أن تكون كل حركة من حركاتك سعيًا نحو القمة، وكل سكنة من سكناتك انتقاصًا لحظ الشيطان من نفسك، وكل فعل من أفعالك معراجًا للتقرب إلى الحضرة الإلهية. وإلا، وقعت في زلل عظيم، وخسران مبين، وكنت كمن يبني قصرًا، ويهدم مصرًا.

ويُنبِّه الله تعالى عباده من مخاطر النفس في قوله:

﴿**أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا**﴾ (الفرقان، ٤٣)

ويقول سيدنا محمد ﷺ:

«**إني أخاف على أمتي من ثلاث: من زلة عالم، ومن هوى متبع، ومن حكم جائر**»[٧٩].

«**إن مما أخشى عليكم شهوات الغي في بطونكم وفروجكم ومضلات الهوى**»[٨٠].

لذا، فإن تزكية النفس للمؤمن أمر مصيري، ومسألة حياة أو موت، حياة قلب أو موت روح، وكأنها جزء من الأمانة التي عرضت على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها، وأشفقن منها، ما أعظمها من مسؤولية!

---

٧٩ انظر: الهيثمي، جـ١، ١٨٧؛ السيوطي، الجامع الصغير، جـ١، ١٢.

٨٠ أحمد، جـ٤، ٤٢٠، ٤٢٣؛ الهيثمي، ١، ١٨٨؛ أبو نعيم، الحلية، جـ٢، ٣٢.





ويقول الله تعالى عن هذه المسؤولية في الآية الكريمة:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس، ٩-١٠)

فالفلاح منوط بتزكية النفس وتربيتها، أما إهمالها في توحشها، وتركها سادرةً في غيها، فهو الخسران المبين.

إن النفس هي السيف الذي يقتل ويقاتل، يقتل صاحبه، أو يقاتل عدوه، يفعل الشيء وضده، يحفظ حياتكم ويقاتل دونها، أو هو يضيعها ويودي بها، والفيصل بين الأمرين هو التربية؛ تلك التي تسمو بالإنسان أو تهوي به.

وثمة إشارة وعلامة على أنك تسير على الدرب الصحيح، وهو أن ترى شجرة عملك قد أثمرت، وآتت أُكُلها، وأن ترى ثمرتها قد أينعت، وأطعمت أهلها؛ أي أن يكون عملك ذا فائدة وأثر في الناس، كالإنفاق والصدقة والخدمة، فإذا ما أثمر العمل في الناس فقد أثمر فيك وأثَّر، وضربت جذوره في أعماق شخصيتك، واستأنست به روحك.

وثمة وسيلة عظيمة في إصلاح النفس تزكيةً وتربيةً وتهذيبًا، ألا وهي قراءة القرآن، أصدق الكلام وأعظمه، وأرشد الهدي وأحكمه، قراءة وتدبرًا وعملاً وامتثالاً.

والعبد حين يجعل القرآن منهاجه، ويجعله هدايته ونبراسه وسراجه، ويتخذه قانونًا عمليًا، وواقعًا فعليًا، يعيش به، ويعيش له، وتستقيم أموره وحياته كلها عليه، حينها تكون نجاته محتومة، وبراءته مختومة، وآثار دسائس الشيطان فيه معدومة، عندها يرضى برضا الله تعالى ويسخط بسخطه، فتنفتح له أبواب التجليات، وسماء الانكشافات، وتنهال عليه شآبيب الألطاف الإلهية، ويرقى إلى حال الفتح، فيفتح الله تعالى عليه فتوح العارفين، وينفذ من عالم الشهود إلى عالم المشاهدة، ومن عالم الظاهر إلى عالم الباطن، ومن دنيا الماديات إلى أفق المعنويات؛ حيث





التجليات والفيوضات، فيسمع ما لا أذن سمعت، ويرى ما لا عين رأت، ويدرك ما لم يخطر على قلب بشر، ويمسي الكون كلُّه أمامَ بصره وبصيرته كتاباً مليئًا بآيات الحكمة والعظمة.

والقرآن والسنة معا هما دستور ذلك كله ومفتاحه، والسبيل إليه ومعراجه، بما يحمله من توجيهات وأوامر ونواه وعظات وأحكام وآيات.

وثمة آيات كثيرة في قرآننا العظيم تتحدث عن تزكية النفس، والتزكية في هذه الآيات تقع في ثلاثة أقسام، وهي:

- تزكية الله تعالى.
- تزكية الرسول ﷺ.
- تزكية المرء نفسه.

١) تزكية الله تعالى

يقول الله تعالى في الآية الكريمة:

﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ (النجم، ٣٢)

وقد فسَّر الشيخ ألماليلي حمدي رحمه الله هذه الآية بقوله:

«لا تُثنوا على أنفسكم بظنِّكم أن لا ذنب أو عيب فيكم، وأنكم طاهرون أنقياء، فكم من عيوبٍ موجودة فيكم وأنتم غير مطلعين عليها». (الدين الحق، ٧، ٤٦٠٥)

أما الألوسي فيقول في تفسير هذه الآية:

«نزلت -على ما قيل- في قوم من المؤمنين كانوا يعملون أعمالاً حسنة، ثم يقولون صلاتنا وصيامنا وحجنا، وهذا مذموم منهي عنه إذا كان بطريق الإعجاب أو الرياء، أما إذا لم يكن كذلك فلا بأس به، ولا يعد فاعله من المزكِّين أنفسهم».

(روح المعاني، ٢٧، ٦٤)





يقول المولى ﷻ في آية أخرى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾

(النساء، ٤٩)

والتزكية في هذه الآية هي عبارة عن سعي المرء لمدح نفسه، وإظهارها على أنها طاهرة، لكن التزكية الحقيقية منوطة بالتقوى، والتقوى هي صفة من صفات الباطن لا يعلم حقيقتها إلا الله تعالى؛ ولهذا لا تُقبل تزكيتنا لأنفسنا، بل تزكية الله تعالى لنا.

وكان من دعاء الرسول ﷺ:

«اللَّهم آتِ نفسي تقواها، وزكِّها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها».

(مسلم، الذكر، ٧٣)

ويقول عز من قائل:

﴿...وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (النور، ٢١)

في هذه الآية الكريمة المحكمة نجد بلاغة النص الحاسم القاطع في أن فعل التزكية منسوب إلى الله تعالى وحده، فهو الذي يزكِّي، وهو الذي يفتح لك الطريق للتزكية، وهو الذي يدعمك فيه، ويأخذ بيديك إليه سبحانه، وليست التزكية جهدًا خالصًا من نفسك، ولا عملاً متفردًا من إرادتك، ولا سموًا راقيًا من قلبك، فاحذر من الإعجاب بذاتك إذا أنت وجدت بعضًا من نتائج جهادك، فكل ذلك لا جدارة ولا دراية ولا هداية منك إليك، إنما هو توفيقه سبحانه، والخلاص الأبدي في الدنيا والآخرة هو أمر إلهي عبر توفيق الله لك بجهادك، وإرساله الأنبياء والمرسلين، وإمدادك بالأولياء والمرشدين، وهدايتك إلى ذاته العلية، برحمته الإلهية.





٢. تزكية الرسول ﷺ

يوضِّح المولى ﷻ مهمات النبي محمد ﷺ في قوله:

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة، ١٥١)

﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (آل عمران، ١٦٤)

نفهم من هاتين الآيتين الكريمتين أن للرسول الكريم ﷺ ثلاثَ مهمات هي:

أ. تلاوة آيات الله على الناس:

المهمة الأولى مشتقة من اسم صاحبها -الرسول- فهو الذي يحمل رسالة السماء إلى الأرض، ويبلغ كلام الله إلى عباد الله، فينقل آيات الوحي الإلهي إلى مسامع وأفهام وقلوب الناس، كمرحلة أولى وأساسية في تبليغ رسالته، وإرساء قاعدة رئيسية في مهمة نبوته.

ب. تزكية الناس:

وهي المهمة التالية للأنبياء والمرسلين، وتسبق دعوتَـهم إلى التوحيد والإيمان، إنها تزكية أنفسهم من أدران الشرك ومساوئ أخلاق الجاهلية، وتطهير قلوبهم من تعلقها بالأغيار، وعبادة ما دون الله أو الشرك به سبحانه، أو التصورات الخاطئة عن ذاته العلية، وبعد أن تطهر هذه النفوس والقلوب من علائق الجاهلية، يجد الخشوعُ سبيلَه إليها مع الطمأنينة بالإيمان، والأنس بصحبة أهل الإيمان، والسير في طريق الهداية في هدي النبي ﷺ كما فعل الصحابة الكرام الذين كانوا من قبل في جاهلية جهلاء وظلمة ظلماء، حتى جاءهم النور المبين، فأخرجهم من الظلمات، وأعطاهم البينات والآيات، فصاروا معجزات يضرب بهم المثل في المناقب حتى ارتقوا أعلى المراتب.





ت. تعليم الكتاب والحكمة:

وهي المهمة الثالثة والمرحلة التالية في توصيل الرسالة، فالنفوس التي تزكت، والقلوب التي تطهرت، تحتاج لما يملؤها ويهديها وينورها، ولا يملؤها مثل القرآن، كما أن القرآن لا يفقهه على حقيقته، ولا ينفذ إلى أعماق معانيه إلا قلب سليم طاهر.

فهذا الكنز الثمين الذي لا يتناهى ولا ينفد مستودعه وخزائنه، هو كتاب الله المسطور (القرآن)، وكتاب الله المنظور (الكون)، والإنسان هو الذي يقرأ هذا وذاك، وتتجلى حكمة الكتابين وأسرارهما في قلبه، وبمقدار نضج قلبه وتزكيته يدرك هذه الأسرار ويسبر أغوارها.

أما تعليم الحكمة فهي المرحلة الأخيرة من تلك المراحل، ومترتب عليها ومرتبط بها، فالآية الكريمة تربط العلم بالتزكية؛ بل تجعل التزكية أساسًا للعلم والحكمة، كما أن العلم لا طائل من ورائه ولا نفع منه دون الحكمة، وصاحبه كمن بلغ منتصف الطريق بين المنطلق والغاية، فلا هو أراح نفسه من عناء العمل، ولا هو واصل العناء ليبلغ الهدف، فلا ظهرًا أبقى ولا أرضًا قطع.

ويبدأ الأنبياء عليهم السلام مهمتهم بقراءة كتاب الله، ثم يعملون على تطهير نفوس حوارييهم من أدرانها، ثم يعلمونهم الكتاب، وعندها تكون القلوب قد طهرت واستعدت لتعلم الحكمة، والاطلاع على أسرار الكون ومظاهر القدرة فيه.

ويقول سيدنا عثمان رضي الله عنه في ذلك:

«لو طهرت قلوبكم، لما شبعتم من كلام الله عز وجل» (علي المتقي، كنز العمال، جـ٢، ٤٠٢٢/٢٨٧)

إن مهمة الرسول ﷺ في قراءة الآيات، وتعليم الحلال والحرام ستستمر على يد العلماء، أما مهمة تزكية النفوس وتطهير القلوب فهي مهمة المرشد الكامل إلى يوم القيامة.





٣. تزكية المرء نفسه

يقول الله تعالى:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا. قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس، ٧-١٠)

والحُكم في الآيات واضحٌ لا تأويل فيه، والحق فيها بيِّن حاسم لا مواربة فيه، مآل ومصير مَن عمل على نفسه وجعلها شغله الشاغل تربية وتهذيبًا، أو إهمالاً وتقصيرًا، فإما الفلاح، وإما الخيبة والخسران في الآخرة.

ويبشِّر الله تعالى في الآية التالية عباده الذين سينالون السعادة الحقيقية:

﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي. وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ (الفجر، ٢٩-٣٠)

ويقول الله جَلَّ جَلَالُهُ في آية أخرى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى. وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ (الأعلى،١٤-١٥)

كما أن الترتيب الموجود في هذه الآية الكريمة يجذب انتباهنا، وهذا الترتيب هو كالتالي:

- أولاً تطهير القلب والبدن والمال من السيئات، وبهذا يزول حاجز الغفلة بين العبد وربه.
- ثم تزيين القلب باللذات الروحانية من خلال دخول العبد في حالة عبادة خاشعة تامة، ببدنٍ يتغذى على الطعام الحلال، وقلب ذاكر لله ذي الطَّول والجلال.

ويعبِّر البورصوي عن ذلك في تفسيره قائلًا:

«وفي الآية إشارة إلى تطهير النفس من المخالفات الشرعية، وتطهير القلب من المحبة الدنيوية، بل من ملاحظة غيره والتوجه إلى الله تعالى بقدر الاستعداد»

(روح البيان، جـ١٠، ٤١٠)





وها هو ولي الله أبو بكر الكتَّاني -قدّس الله سره- يسألونه عن ماهية عمله في الدنيا، بينما هو مفارقها، طريح على فراش الموت، فيجيبهم واضعًا قواعد جليلة في كلمات قليلة:

«أما عملي، فما كنت لأذيعه عليكم خشية الرياء، لكن الوقوف على أعتاب الموت ما ترك للرياء بابًا، لقد أمضيت أربعين حولاً حارسًا أمينًا عند باب قلبي، وجاهدت ألا أفتح هذا الباب إلا لله سبحانه، فلما استوثقت من الباب لم يعد قلبي عارفًا إلا بالله تعالى».

وكلمة «تَزَكَّى» الواردة في الآية السابقة فسَّرَها حبرُ الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما بأنها قول «لا إله إلا الله»[٨١]؛ إذ إن أول خطوة ومرحلة في التزكية هي تطهير القلب من الكفر والشرك، وكلمة التوحيد تبدأ بنفي الأغيار والآلهة التي تُعبد من دون الله تعالى من الأهواء والطبائع والشهوات وكل أوثان النفس، ثم بعد النفي يأتي الإثبات للّه تعالى وحده، بعد أن يتم تجهيز عرش القلب ليتربع عليه العظيم الأوحد.

وما أروع ما قاله الشاعر في هذا المعنى:

لا يتجلى الحق في فـؤادك ما لم تُخرج من قلبك الأغيارْ

فالسلطان لا يدخل قصره إلا بعد أن تبلـغ الدار غايـة الإعمارْ

وعن أهمية التزكية يقول إبراهيم الدسوقي قدس الله سره:

«يا بُني، لا تغتر بعبادتك مهما بَلَغَت، ولا بسريرتك مهما طهرت، ولا تُعجَبَنَّ بذاتك مهما نلت من الحق تعالى معاملة خالصة، فللنفس حِيَلٌ لا تنتهي، ولها غرور لا ينفد، فكم من درويش غرته نفسُه حتى أهلكته شهواتُه».

٨١ القرطبي، الجامع، جـ٢٠، ٢٢.





ويقول الشيخ العالم حاتم الأصم قدس الله سره:

«لا تغتر بموضع صالح، فلا مكانَ أصلح من الجنة، وقد لقي آدم عليه السلام فيها ما لقي، ولا تغتر بكثرة العبادة، فإن إبليس بعد طول تعبده لقي ما لقي، ولا تغتر بكثرة العلم فإن بلعام(٨٢) كان يحسن اسم الله الأعظم فانظر ماذا لقي.

وكم من آية كريمة يحذِّر فيها ربنا الرحيمُ عبادَه من حيل الشيطان ومكائده:

﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الأعراف، ١٦)

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الحجر، ٣٩)

ولا تغتر برؤية الصالحين، فلا شخص أكبر قدرًا من المصطفى ﷺ، ولم ينتفع بلقائه أقاربُه أو أعداؤه». (القشيري، الرسالة، جـ١، ٢٥٧)

والأمثلة على ذلك تترى:

- فها هو ابن نبي؛ يأوي إلى الجبل ولا يأوي إلى رب الجبل؛ يستغني عن نبوة أبيه وسفينة أبيه، فيكون من الهالكين.

- وها هي امرأة نبي، لم تركن إلى دعوة زوجها لوط، ولا إلى فيوضات رب لوط، فكانت عاقبتها عاقبة قوم لوط.

استغنى هؤلاء جميعًا عن الحق، فأعرض الحق عنهم، رغم أنهم كانوا إلى كنفه أدنى، وإلى ساحته أقرب، لكن قرب المكان لا يُعتد به إذا لم يكن قربٌ في المكانة، وأنسٌ في القرب، وشعورٌ في القلب.

فلا زوج ولا ولد، ولا أب ولا معين ولا سند، ولا ينفع في النجاة أحد، إلا الواحد الأحد.

---

٨٢ انظر: الأعراف، ١٧٥-١٧٦.





فمن تجاوز عقبة نفسه، ونجا من غوايتها فقد أدرك النجاة، وأدركه الفلاح، ومن وقع في براثنها، واشتبك في حبائلها فقد ضل طريق النجاة، وصار من المهلكين.

ويقول المولى سبحانه في الآية الكريمة:

﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ﴾ (فاطر، ١٨)

والتزكي في هذه الآية يحمل أيضًا معنى الصلاة الخاشعة والعبادات الخالصة للّه، وقبله تحذير بالخشية، وإنذار بالمراقبة، كما تلقي الآية المسؤولية عليك وحدك، وتلزمك طائرك في عنقك، فتزكيتك لا تنفع أحدًا سوى نفسك، وعملك الصالح لا يفيد أحدًا سواك.

وتوضح آية **﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾**[٨٣] أنَّ من يصل إلى العلم الحقيقي، ترتعد فرائصه خشية من الله تعالى، أما من لا يعرف ربَّه، ولا يخشاه، فقلبه ميِّت، ولا يؤثر التنبيه ولا النصيحة في مثل هؤلاء الأشخاص، والآية السبعون من سورة يس تفيد المعنى نفسه **﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا...﴾**، وهذا يعني وجوب الخشية في الباطن، والصلاة الصحيحة في الظاهر.

والآية التالية تبيِّن أن من يتطهر من الذنوب، فجزاؤه الجنة والدرجات الرفيعة:

﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى . جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾ (طه، ٧٥-٧٦)

أَوَتدري أيها العبد المخلص ما جزاء الحب الخالص، وما هو رد المحبوب على حبيبه الوفي؟ إنه جزاء أعظم من الجنة، وأرفع من الفردوس الأعلى،

---

٨٣ فاطر، ٢٨.





وأحسن من الحسنى، فمن تعلق قلبُه بالله وحده، ولم ينشغل بسواه سبحانه، وأخلص الحب له، والشغف به، والسكون الدائم إليه، والركون والتوكل الحق عليه؛ كان جزاؤه من الله يوم القيامة النعمة العظمى بالنظر إلى وجه الله تعالى، والتمتع بجماله، والانبهار بجلاله، فلا كلمات تعبر عن مقدار الجزاء، ولا بلاغة تومئ إلى عظمة الأجر.

وما من امرئ يتوجه إلى الله تعالى حق التوجه بإرادته واختياره، إلا انقطعت جميع أفكاره بغير الله ﷻ وزالت همومه، وتبدأ معرفة الله تعالى بإدراك حقيقة النفس بعد تزكيتها، وهذا هو المعنى الحقيقي لعبارة «من عرف نفسه، عرف ربه».

لكن من الذي يُعَرِّفك نفسك؟ ومن الذي يقودها إلى الفلاح؟ ومن الذي تأمن فيه علمه وتجربته وتقواه وقدرته على القيادة؟ وأين نجد هؤلاء النورانيين في دنيا الظلام، وأين نجد أهل الحق في عالم الأوهام؟

إنهم هاهنا؛ أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، سواء من كان منهم حيًا، أو من انتقل إلى كنف ربه، ولنا في سيرتهم ومآثرهم امتداد نور الهداية، وطوق النجاة في بحر الغواية.

وهم كثير قد لا يفطن بعض الناس إليهم، لكن التاريخ لا يغفل ذكرهم، من هؤلاء السلاطين في دنيا الظاهر والباطن، السلطان سليم الأول، وهذا الموقف ذو الدلالة العظيمة:

يعود السلطان سليم فاتح مصر والشام من فتوحاته المظفرة، وقبل دخول عاصمته -إسطنبول- يعلم بالحشود الهائلة من شعبه تستعد لاستقباله في فرحة عارمة، تملؤهم مشاعر الفخر والفرح بسلطانهم الفاتح وجيشه المظفر، فإذا بالسلطان الذي هزم الجيوش وأزال العروش يخشى على نفسه من الهزيمة أمام جحافل الفخر والعجب والغرور، فيأمر على الفور جيشه بالتوقف خارج المدينة عند سفوح (شامليجه) ويلجأ إلى مرشده ومربيه «حسن جان» قائلاً:





«لقد رأيت ألا أدخل المدينة إلا في جنح الظلام، بعد أن تنفض الجموع، ويأوي كلٌّ إلى داره، فإني أخشى أن تهلكنا عبارات المدح والثناء، ويصيب نفوسنا من إعجابهم البلاء».

وبالفعل يلج السلطان وجيشُه عاصمته في ستر الليل، هروبًا من أضواء الانبهار، وخوفًا من تحية الانتصار، لقد كان حذر السلطان على نفوس جيشه أشدَّ من حذره من عتاد أعدائه وجيوشهم، لقد كانت معركة «شامليجه» أشد خطرًا في أعين السلطان وفكره من وقائعه في مرج دابق والريدانية.

لقد كانت سلطنته على نفسه أجدر من سلطنته على الدولة والجيش والأعداء.

ويوضح بيته الشعري التالي أن الإرشاد على يد أحد الأولياء الصالحين أكثر قيمة من حكم الدنيا وما عليها:

ليس الخير في كون المرء سلطانًا على الدنيا

بل الانتساب إلى ولي يوصلك إلى الدرجات العليا

وفي دنيا التصوف وعلم الروحانيات ما يسمى «التفحص الباطني» أو ما يعرف في الأوساط التربوية باسم «محاسبة النفس»، وهو أمر يجب على كل مسلم أن يعتاده، حتى يصبح ديدنه في كل وقت، وعادته في كل مساء حين يخلد إلى النوم، وتنكفئ عنه زخارف الدنيا، فيحادث نفسه ويحاسبها، ويجادلها في أفعالها، ويقرعها على أخطائها، ويزجرها عن إصرارها، حتى تخفَّ أثقالها، وتبرأ من أدرانها.

ولنستمع هنا إلى نصيحة الإمام أبي حامد الغزالي بأذن واعية:

فإذا أصبح العبد وفرغ من فريضة الصبح، ينبغي أن يُفرِغ قلبَه ساعةً لمشارطة النفس، كما أن التاجر عند تسليم البضاعة إلى الشريك العامل يفرغ المجلس لمشارطته، فيقول للنفس: ما لي بضاعة إلا العمر،فإن فني فقد فني رأس المال، ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح، وهذا اليوم الجديد قد أمهلني الله فيه،





وأنسأ في أجلي، وأنعم علي به، ولو توفاني لكنت أتمنى أن يرجعني إلى الدنيا يومًا واحدًا حتى أعمل فيه صالحًا، فاحسبي أنك قد تُوفِّيْتِ، ثم قد رُدِدتِّ، فإياك ثم إياك أن تضيعي هذا اليوم، فإنَّ كل نفس من الأنفاس جوهرة لا تعدلها قيمة.

واعلمي يا نفس أن اليوم والليلة أربعٌ وعشرون ساعة، وقد ورد في الخبر أنه ينشر للعبد بكل يوم وليلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة، فيفتح له منها خزانة، فيراها مملوءة نورًا من حسناته التي عملها في تلك الساعة، فيناله من الفرح والسرور والاستبشار بمشاهدة تلك الأنوار التي هي وسيلته عند الملك الجبار، ما لو وزع على أهل النار لأدهشهم ذلك الفرح عن الإحساس بألم النار، ويفتح له خزانة أخرى سوداء مظلمة يفوح منها نتنها، ويغشاه ظلامها، وهي الساعة التي عصى فيها، فيناله من الهول والفزع، ما لو قُسِّم على أهل الجنة لتنغص عليهم نعيمها، ويفتح له خزانة أخرى فارغة ليس فيها ما يسره ولا ما يسؤه، وهي الساعة التي نام فيها أو غفل أو اشتغل بشيء من مباحات الدنيا، فيتحسر على خلوها، ويناله من غبن ذلك ما ينال القادر على الربح الكثير والملك الكبير إذا أهمله وتساهل فيه حتى فاته، وناهيك به حسرة وغبنًا.

وهكذا تعرض عليه خزائن أوقاته طول عمره، فيقول لنفسه: اجتهدي اليوم في أن تعمري خزانتك، ولا تدعيها فارغة عن كنوزك التي هي أسباب ملكك، ولا تميلي إلى الكسل والدعة والاستراحة، فيفوتك من درجات عليين ما يدركه غيرك.[٨٤]

وللنفس التي تجاهد على التزكي والتطهر جنود يساعدونها، وأعوان يؤازرونها، فهذا البدن وجوارحه أمانة منحها الله تعالى للإنسان، وحدد لها مهمتها ووظيفتها، فمن وضعها في غير موضعها واستخدمها لغير أغراضها، فقد ضيع الأمانة، وأهدر الفرصة التي لن تعوض.

---

٨٤ الغزالي، إحياء علوم الدين، جـ٤، ٣٩٤-٣٩٥.





- فالعين تغض بصرها عن المحرماتِ وكلِّ ما يشغلها عن النظر إلى آيات الله تعالى في الكون، فهي التي تُدخل على القلب الشواغل بغير الله.

- واللسان الذي باستطاعته أن يورد صاحبه المهالك بما يحمله من آفات يجب أن يُمنع من مزالق الشيطان كالغيبة والكذب والزور، والذم والنفاق، ويستخدم فيما يرضي الله تعالى من الذكر والخير.

- والمعدة وهي بيت الداء ومستودع الطعام، وأصل البِطنة التي تُذهب الفطنة، إذا أُطعمت من حلال فتحت لك بابًا إلى السماء لا يُغلق، وكنت مُستجاب الدعوة.

وهكذا كل الأعضاء والجوارح؛ خلق الله لها القدرة على فعل الحلال والمباحات، فمن اكتفى بالحلال، واحترز عن المحرمات، ولم يشغلها بما دون ذلك، كان على الهدي النبوي القائل:

«**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**»[٨٥].

فمن أنفق جهده وأتعب جوارحه فيما يملأ خزائن حسناته، كان هو الحصيف الذي يستحق الفوز المبين؛ أما من أضاع جهده، وأفنى جوارحه في مباحات لا تغني ولا تسمن من جوع فقد أنفق كنزه فيما لا يجدي، وبعثر خزائنه فيما لا يغني.

ولا تغفل -أيها المحاسب نفسه- حين تحاسبها أن تدقق وتمحص في معرفة غايتها، هل تعمل النفس أعمالها لله وحده، أم لحظ النفس وحده؟ هل غرَّها الشيطان، وألبس عليها المفاهيم والظنون، فأحسَّت بالرضا والركون إلى عملها والسداد فيها، فبعدت عن الغاية، وتعكر إخلاصها؟



وهناك حالات ثلاثة يمكننا رؤيتها أثناء تزكية النفس وصولاً إلى «القلب السليم»، وهي:

٨٥ الترمذي، الزهد، ١١؛ ابن ماجه، الفتن، ١٢.





- حالة أهل التقوى، وهي الحالة التي لا يؤذي القلب فيها أحدًا، فتقيه أخلاقه عن شرور النفس، وتحجزه عن إصابة الناس ببلواها.

- حالة أهل المحبة، وهي الحالة التي لا ينالهم الأذى من أحد، فلا مديحُ الناس يغرُّهم، ولا الأحوال تغريهم، ويقول الشاعر معبِّرًا عن هذه الحالة:

أيها العاشق، غاية كُل عاقل في هذه الدنيا

أن لا يؤذي أحدًا ولا يتأذَّى من أحد

- حالة أهل الإخلاص، وهي الحالة التي يضع فيها المسلم رضا ربه نصب عينيه، ويترجح عنده أمر الآخرة، مهما لقي من معارضات منافع الدنيا.

وخلاصة ما ذكرناه:

لقد جعل الله تعالى النفسَ عائقًا أمام كل إنسان في هذه الدنيا، التي ما هي إلا امتحان أراده الله تعالى، وأمرَ الإنسان بالأوبة إلى خالقه من خلال الانتصار على المصاعب التي تضعها النفس، وجعل النفس أداة بيد البشر فقد تكون وسيلة للخير أو الشر، أي قد تكون بابًا للفوز أو هاوية يلقى فيها الإنسان غيًّا إذا ما أتبع النفس هواها؛ أما بركة تزكية النفس، فأمر عظيم لا يمكن مقارنته بأي شيء في هذه الدنيا.

اللّهم اجعلنا ممن يتغلَّبون على أهواء أنفسهم!

آمين!





إن الإنسان الذي وصل إلى مرتبة طهارة النفس وسلامة القلب لَهوَ آية بيِّنة من آيات الخالق المبدع سبحانه، وهو مظهر تجليات الجمال الإلهي.

 

٣. مراتب النفس

النفس في معراجها نحو الكمالات التربوية وصولاً إلى القمم المعنوية تمر بمراحل ومراتب، وتنقسم إلى أقسام سبعة هي:

النفس الأمارة- النفس اللوامة- النفس الملهمة- النفس المطمئنة- النفس الراضية- النفس المرضية- النفس الكاملة.

أ. النفس الأمَّارة

وجاء اسمها من فعلها الدائم بالأمر، فهي كثيرًا ما تأمر الأعضاء بإطاعة الهوى، وإرضاء النزوات، والتمرغ في الشهوات، وتأمر العبد دومًا بكل ما يبعده عن مرضاة الله تعالى.

وهذه النفس واحدة من فريق الشيطان وحزبه، عملها الذنوب، وهدفها اللذات، وطريقها الشهوات، ودأبها المعاصي.

والعبد الواقع في أسر هذه النفس الأمارة لا يستطيع مقاومتها، ولا يملك سوى الاستسلام، والانقياد التام لرغباتها وميولها وغواياتها.

وفي هذه الحالة تكون «النفس الأمارة» أشدَّ خطرًا وأقوى غواية على العبد من إبليس وشياطينه، وهي حقيقة واقعة يؤكدها ابن عطاء الله السكندري بقوله:

«إن ما يجب أن تكون أشدَّ له خشية هو نفسك التي بين جنبيك، فهي الخصم





الذي لا يفارقك، والعدو الذي لا ينفك يحاربك، أما الشيطان فهو قيد الأسر في بعض الأوقات، ألا ترى أن الشياطين حين تُصَفَّد في رمضان لا تمتنع الجنايات من الوقوع، ولا المظالم من الحدوث، ولا الأخلاق من الانحدار، فمنْ المسؤول عن ذلك كله سوى النفس وغوايتها».

وقوله تعالى في الآية الكريمة: ﴿...**إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ**...﴾[٨٦] إنما هو إيضاح لمرتبة هذه النفس وصفتها.

والشاعر «نوئي زاده عطائي» يشبه النفس بالأفعى السامة، لأنها في مثل خطرها ونعومتها، وفي مثل تخفيها وسُمِّيتها، وفي مثل آفاتها المفجعة، وآثارها على العالم المعنوي للإنسان.

يقول عطائي في شعره:

كل خلق ذميم صار كالأفعى ورأس الأفاعي النفس الأمارة

والمؤمن الحصيف الواعي الحريص هو الذي يبذل دومًا كل ما في وسعه للنجاة من لدغاتها وسمومها وآفاتها.

إن إعلان حالة التأهب القصوى، والاستنفار الدائم لجهاد النفس ومجابهتها هو طريق النجاة، فرُبَّ غفلةِ ساعةٍ تودي بك إلى الخسران حتى قيام الساعة.

فمنْ أراد أن يريح فرسه فاته العَدْو، ومنْ أراد أن يغمد سيفه خسر المبارزة، ومنْ أغمد سيف عقله وإرادته في غمد غفلة النفس خسر المعركة الكبرى في الدنيا والآخرة؛ ذلك هو الخسران المبين، ولا ينجو من ذلك سوى عباد الله المخلَصين، أي هؤلاء الذين يستمدون العون والحماية منه سبحانه، مثل سيدنا يوسف عليه السلام، وقصته مع السيدة زليخة في بيت عزيز مصر، ويقص علينا القرآن تفاصيلَ معبرةً عن عجائب قصة يوسف عليه السلام، ذلك الشاب جميل الصورة، نقي

---

٨٦ يوسف، ٥٣.





السريرة، والأحوال التي تقلبت به خفضًا وارتفاعًا، حتى كانت الفتنة الكبرى التي نسجت خيوطها امرأة العزيز.

ويوضِّح المولى سبحانه هذه الحادثة في الآيات الكريمة الآتية:

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ. وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾

(يوسف، ٢٣-٢٤)

لقد تنزلت ألطاف الله بالمدد الإلهي على سيدنا يوسف عليه السلام، فكانت ترياقًا ضد سموم أفاعي النفس الأمارة المتمثلة في زليخة وحبائلها، أما هؤلاء الذين لم تبلغ نفوسهم اللطف، ولم ترقَ درجتهم إلى نوال المدد، فقد ألجأهم الله تعالى إلى الاعتصام بتقواه، واتخاذها مجنَّة ضد سهام النفس وغوائلها.

وقد وضع الله تعالى لنا المنهج الرباني الحكيم الذي يقينا الاقتراب من شواطئ بحر المعاصي، فضلاً عن الخوض فيه. فالإسلام -في تشريعاته الوقائية- لا يحرم الزنا فحسب، إنما هو يحرم ويمنع كل ما يؤدي إلى ذلك الطريق، أو يسهل الوصول إليه من الخلوة والنظرة، وغيرها من المقدمات.

فإذا عدنا إلى الحادثة الزليخية ومجمع العبر والبلايا اليوسفية، نجد «البلاء العظيم» الذي تعرض له «الكريم ابن الكريم ابن الكريم»، منذ أن كان غلامًا صغيرًا إلى أن صار رجلاً بلغ أشده، وبلغ معه الاختبارُ أشده، ربما كان ذلك هو الثمن الذي يدفعه في الدنيا، ليكون الجزاء في الآخرة أيضًا بالغًا أشده.

لقد اجتمعت عناصرُ وعواملُ وخيوطٌ نسجت طولاً وعرضًا نسيجًا محكمًا في لحمته وسداه، وأفضت إلى ابتلاءٍ قلَّ أن نجد في عالم المعنويات له مثيلا: شابٌ يافعُ الشباب نابضٌ بالحياة، جمع من الحُسن ما لم يجمعه إنسي، ونال





من انجذاب القلوب إليه ما جعل صفوة النساء يقطعن أيديهن، ووضع في مكانة تجعل المعصية أقرب إليه من شراك نعله ومتناول يديه.

وامرأة جمعت مع الحسن الوافر مالًا أوفر، ومع الجاه والشهرة حظًا أكبر، وإلى جانب ذلك كله جاذبية وشهوة أكثر، ثم تدبيرًا وتهيئة للمعصية أشد حنكة.

فقد غَلَّقت الأبواب، وغيبت الحُجَّاب، وهيأت الأسباب، في أيسر معصية تنالها النفس، وأعظم ذنب يقترفه البدن، فقالت المرأة: «هيت لك» في إصرارٍ سبقه إعداد، وأحاطت به تيسيرات، وكلما كانت التيسيرات أكثر كانت الصعوبات على يوسف أكبر، فاشتد عليه البلاء والامتحان، وصَعُبَ عليه الأمر حتى لا يطيقه إنسان، حتى جاءه من الله تعالى مدد وبرهان، ويصف القرآن الموقف قائلاً: «لولا أن رأى برهان ربه»، وكان طوق النجاة الذي ألقاه الله تعالى إليه، وحبل السماء الذي تعلق به هو: «معاذ الله».

«اللجوء إلى الله» هو ملاذ المستجيرين وغوث المستغيثين وطوق النجاة في خضم الحياة، وحبل السماء المنقذ من براثن البلاء؛ لكن منْ يستحق هذا المدد المنقذ، ومنْ الذي يدرك هذا اللجوء المعجز؟

إنهم أهل التقوى؛ الذين قويت لديهم مشاعر مراقبة الله والخوف من سلطانه تعالى، فقاومت مشاعرهم رغبات النفس الأمارة، وتصدت لأوامرها، ونجت من بلواها.

ولعل الاختيار الأصعب للشباب مواجهة شهوة امرأة وإغرائها، وقد هُيِّئت الأسباب وأُسدلت الستور.

لكن منْ أطفأ نار الشهوة بالتقوى، واستظل في الدنيا بمجنة الأخلاق، كان جزاؤه في الآخرة أن يستظل في ظل عرش الرحمن، كما أخبر النبي ﷺ:

«**رجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله**» (البخاري، الأذان، ٣٦)





وإذا كان الإغراء والوعد لم يُجدِ مع نبي الله يوسف ﷺ، فلعل الوعيد والتهديد ينفع معه، فقد تواصل الإغواء، وطال الامتحان، وبعد أن كانت قد هيأت له امرأة العزيز أسباب الغواية فأعرض عنها، وأعدت له أيضًا غياهب السجون، لكن كمالات المقام التربوي وسموه، واكتمال الرعاية الإلهية، وشمول الكنف الرباني، كان السبب الدائم للنجاح والنجاة، وكانت نجاته هذه المرة هروبًا إلى بلاء أقل قسوة وأسهل مراسًا إذ ﴿**قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيه**﴾، ثم يكرر اللجوء والاستعاذة بلطف الله وحده، ﴿**وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ**﴾، فهو سبحانه صاحب الملاذ الآمن، والركن الركين.



والتقوى هي القلعة الحصينة، والدرع الواقي، والترياق الشافي من كل آفات النفس الأمارة.

وحين تُعرَف النفس على حقيقتها فلن يكون منك إلا الذعر والفرار منها، وها هي الإشارات في قصة سيدنا موسى ﷺ توضح لنا حقيقة هذه النفس وتجلِّيها.

فلقد كُلِّف سيدنا موسى ﷺ بالنبوة في طور سيناء، وجاءه عقِب ذلك التكليف الأمر الإلهي:

﴿**وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ**﴾ (القصص، ٣١)

لقد أظهر الله سبحانه قدرته لموسى ﷺ في العصا، واستأنس بهذه القدرة، وحين اصطفى الله موسى ﷺ نبيًا، وتكلَّم معه عن قرب، وألقى عليه بعض التكاليف، خاطبه قائلاً:

﴿**وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى**﴾ (طه، ١٧)





فأجابه سيدنا موسى عليه السلام:

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ (طه، ١٨)

فأمره الله تعالى:

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى﴾ (طه، ١٩)

فاستجاب موسى سريعًا لهذا الأمر الربَّاني:

﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ (طه،٢٠)

فما كان من موسى عليه السلام إلا أن فرَّ منها:

﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ (طه، ٢١)

لقد ذكر سيدنا موسى عليه السلام في كلامه مع رب العالمين، وفي إجابته البديهية عن العصا التي في يمينه أنها من المهمات الدنيوية والعلائق المادية، فأمره الحق تعالى برميها والتخلص منها، وكأنه يأمره أن يخلع من نفسه كل سبب يعتمد عليه من دون الله تعالى، فلا يعتمد على غيره، ولا يتعلق إلا به سبحانه.

وسيدنا موسى عليه السلام حين نفذ الأمر الإلهي، وألقى أسباب الدنيا وعلائق النفس أظهر الله تعالى له النفس على حقيقتها حيةً تسعى، وأفعى ضخمة تلقف ما يأفِكون من الأفاعي والحبال، فكان ذعره شديدًا، وهربه بعيدًا، وتجلى الدرس الرباني والمعنى الإشاري في الآيات:

«يا موسى، إن تلك الحية هي نفسك، وهي العلائق والأسباب التي تركن إليها من دون الله تعالى، فانظر كيف كانت حقيقتها حين ألقيتها، فإذا هي حية تسعى، وكيف فررت منها فزعًا ومُلئت منها رعبًا.

يا موسى، إنك منذ اليوم نبي موحد، فكيف ترتبط بالأسباب، ولا يكون ارتباطك الأعز والأوحد برب الأسباب؟





كيف تعتمد في عالمك المادي والمعنوي على الأشياء!

وكيف يسمح لك أدبك النبوي وسلوكك التوحيدي بأن تعدد أوجه الاستفادة من أشياء ما أنزل الله تعالى بها من سلطان!

تذكرُ الأشياءَ ولا توحد رب الأشياء!

ثم كيف يكون لك فيها مآرب أخرى؟ بل كيف يكون لك أصلًا اتصال مع أي أشياء أخرى؟

إن أولى خطوات التوحيد تركُ الاعتماد على الأسباب، والتسليمُ المطلق لله تعالى، والتوكل عليه سبحانه حق التوكل.

يا موسى، كما ألقيت عصاك، ألقِ كل الأسباب والعلاقات، وتخلصْ من كل الطلبات والرغبات، حينها ترى نفسك على حقيقتها، فتفر منها إلى الله».

وقد قيل:

«منْ سمع بقلبه نداء ربه، ورأى ببصيرته نور جماله، وأدرك سبحات جلاله، فإنه ينخلع من نفسه ودنياه، ومن كل شيء ويلجأ إلى كنف الله، ويأوي إلى فضل وكرم مولاه، ويتجرد من كل أهواء نفسه».



والإنسان يترك سعادته الحقيقية، ويتنازل عن حياته الأبدية والأخروية -بتأثير النفس الأمارة- في مقابلٍ بخسٍ من اللذة الزائفة الدنيوية الفانية، وهكذا بأقل القليل تغريه على ترك منازلٍ عليين، لتهوي به إلى أسفل سافلين.

هذا الإنسان المبتلى بالنفس الأمارة يركبه العناد، فيتنكب طريق الحق، ويعميه الكبر عن النظر إلى سبيل النجاة، وتشغله سفاسف الأمور عن معاليها، فيشغله الزور عن الذكر، ويلهيه اللهو عن التسبيح، ويستغرقه الكذب والنميمة والأفعال الذميمة عن لطف الذكر وطيب الكلام والأفعال العِظام.





فهل يترك الجنةَ إلا جاهلٌ، وهل يعمى عن جمال الله تعالى إلا غافل، وهل يتنازل عن السعادة الأبدية إلا إنسان خُتم على قلبه وسمعه وبصره.

إنها النفس الأمارة التي تسيطر فيها الروح الحيوانية على الروح السلطانية، وتتحكم الصفة الحيوانية بالنفس حتى تفقد الصفة الإنسانية.

ويقول المولى ﷻ في هؤلاء:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (الأعراف، ١٧٩)

إن هذه هي صفات أهل الغفلة، الذين تحجرت مشاعرهم فلا يقدِّرون حقيقة الأشياء، ولا يرونها على طبيعتها، فيسوغون لأنفسهم سدورهم في غيهم، متعللين بتأجيل التوبة وتأخير العذاب، أَلْبَسَ عليهم الشيطان مفاهيم الأشياء، وقلَّب لهم الأمور، فكأن الإمهال إهمال، وكأن الرحمة إغفال، وكأن الآية تِلو الآية، والفرصة تلو الفرصة، تأييد على الباطل، وتغييب أبعد لغفلة الغافل؛ حتى استمرؤوا الذنوب، واستلذوا المعاصي، واستصغروا الكبائر، وتهاونوا وتناسوا ظُلمة المصائر.

وما أعظم تحذير الله تعالى عباده حين يقول:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ﴾ (لقمان، ٣٣)

ومن مساوئ النفس الأمارة أنها تعبث بمشاعر الإنسان فتشوه مفاهيمه، وتُضعف عقله ومداركه، فهو في غفلة شديدة عن السعي الحثيث نحو الآخرة،





يعبُر صحراء الدنيا بلا زاد ولا راحلة، يأوي إلى واحة غنَّاء في طريقه فلا هو يتزود منها ولا يستعد لما هو مُقدِم عليه، فلا هو بالخير يتزود، ولا عن الشر ينتهي.

وفوق ذلك كله إذا تصادف أن قام أحدهم بخير ما مهما كان قليلاً، فهو في عينيه كبير، وفي موازينه كثير، لا يزال يكبر في نفسه حتى يشغله عن غيره من الخيرات، وإذا اتفق أن شعر ببعض الندم على منكر ما، فلا تزال به نفسه الأمارة تطمئنه وتواسيه حتى يتلاشى تأثير الندم، ويفقد الإنسان قدرته على التغيير في السلوك نحو الأقوم، ويفقد قدرته على التوجيه في الطريق نحو الخير.

إن المؤمن في هذه المرحلة كمريض بحاجةٍ إلى دواء ليتخلص من النفس الأمارة، وينتقل إلى النفس اللوَّامة، ولذلك كان من أهم الأصول الضرورية في التداوي المعنوي محاسبتُه لذاتِه محاسبةً دقيقة. ويجب على العبد أن يعرف أن الله -صاحب العظمة والجلالة- مطَّلعٌ على كل شيء، فيعزم على التوبة، ويفكِّر في الأسئلة التي ستُوجَّه إليه في القبر، والحساب يوم الحشر، والعذاب الشديد في سقر، ويجب على العبد أثناء التوبة أن يُخلِص ويشعر بالندامة، ولا يناجي الحقَ تعالى بلسانه فقط، بل يناجيه بالقلب أيضًا.

فالندم حين يعض القلب ويسكب فيه مرارته، يُخرج منه حبَّ المعصية والإصرارَ عليها، فتكون التوبة نصوحة صافية، وليست شعلة من النار تهيج فجأة ثم ما تلبث أن تخمد، وحين تبرد حرارتها يبحث القلب عن معصية يروي بها ظمأه إلى الذنوب واللذة الشهوانية ولسان حاله يقول:

رمضان وَلَّى هاتها يا ساقي مشتاقة تسعى إلى مشتاقِ

فهى توبة زائفة مؤقتة، وهي توبة المنافقين المستهزئين بمقام التواب، غير المدركين لعظمة الغفور الرحيم.

أما التوبة الحقيقية فهي التي يروي بذرتها الندمُ، ويشيد بنيانها تركُ الإصرار، وينمي فروعها التعهد بعدم العودة، وينبت ثمرها ترك المعصية أبدًا.





وفي طريق التوبة والتخلص من النفس الأمارة، يجب على العبد أن يجاهد ساعيًا في معرفة كلمة التوحيد، والتعمق في روحها، وإدراك حقيقة معانيها، وتنفيذ متطلبات القول، وما وراءه من فعل، والفعل المطلوب في الأساس -تنفيذًا لكلمة التوحيد- هو مراعاة الأحكام الشرعية الضرورية على أقل تقدير.

وبمجرد قول «لا إله» يجب أن تنفي من قلبك -كما نفيت بلسانك- كل الأغيار من دون الله تعالى، وكل معبود للشهوة سواه، فتنفي كل أوثان الهوى، وتحطم كل أصنام الرغبات، وتمحو آثارَ كلِّ تعلقٍ بغير ذاته سبحانه، وتنفي كل توجُّه وقصد لغير جلاله تعالى.

ثم بعد أن تنظف قلبك من كل تماثيل الشرك، تنطلق كلمة «إلا الله»، ومعها تثبِّت حقيقتها في جوهر قلبك، فيكون القلب هو عرشه وحده، لا يدنو من مكانه شيء من رغبات النفس، فلا يكون في قلبك إلا الله، حينها يرتقي إيمان العبد من التقليد إلى التحقيق، وتنتقل أعماله الصالحة من التمثيل إلى التوثيق؛ ليبلغ في النهاية إلى كمالات الطريق.

وكان من دعاء محمد أسعد أفندي:

«جعلنا الله آمرين للنفس الأمارة ونائلين للنفس المطمئنة بمقتضى مقولة: (الحُرُّ منْ كان أميرًا على نفسه) وجعلَنا من المستحقين لمقام خطابه الجميل حين قال:

﴿**فَادْخُلِي فِي عِبَادِي. وَادْخُلِي جَنَّتِي**﴾! آمين!»[87]

---

87 محمد أسعد أفندي، المكتوبات، دار السعادة ١٣٤٣، مطبعة أحمد كامل، ص٤٣، رقم:١٧.





ب. النفس اللوَّامة

يدرك المسلم أن الله عفوٌّ غفور مهما ارتكب العبد من المعاصي، فهو يركن إلى هذا الغفران، أما إذا أراد التوبة بصدق، وشعر بالندم يحرق الأعماق، وجاهد نفسه للإقلاع عن الذنوب؛ عندها ينتقل المرء من حالة النفس الأمارة إلى حالة النفس اللوامة.

واللوم في اللغة يعني المؤاخذة والتقريع، والنفس اللوامة هي التي يغالبها الشعور بالندم على ما قصرت في جنب الله تعالى، وما أهملت من حقوق وواجبات، وهي النفس التي تلاقي تعذيب الضمير في كل حين على انحرافها عن منهج الله وعدم التزامها بأوامره ونواهيه سبحانه.

هذا اللوم والندم هو المقدمة الأولى الأساسية للتوبة، والمدخل إلى المغفرة، والخطوة الأولى نحو طريق الهداية، والبعد عن طريق الغفلة، والانتصار -المؤقت- على الرغبة في اقتراف الذنب.

ويحدث الندم بعد الوقوع في الذنب مباشرة، عندما تتخلص الروح السلطانية من أسر الروح الحيوانية، فيلوم العبد نفسه، ويعيب عليها معصيتها، ثم يشرع في الاستغفار.

وتبدأ بوادر الإفاقة من الغفلة، فتجد في قلبك بعضًا من نور، فتسرك حسناتك، وتحزنك سيئاتك، ثم لا تجد ميلاً قويًا للشهوات، ولا اندفاعًا نحو الرغبات، بل سعيًا من النفس لمجاهدة الإفراط في السيئات، والبعد عن المعاصي.

وهذه حالة الخاضع لأمر الله تعالى على الدوام، المكثر من الأعمال الصالحات، المخلص فيها لوجه الله تعالى.

لكن ذلك الإخلاص منقوص غير تام، فلم تصل أنفسهم بعد إلى حالة النضج والطمأنينة، ولا أرواحهم إلى حالة السكينة التي يلهمها إياها الفيض الرباني، فهم رغم عملهم لوجه الله تعالى يرغبون أن يطَّلع الناس على تلك الأعمال، وأن





يشتهروا بتلك الأحوال، وهم بذلك ما زالوا يحملون بعض طبائع السوء للنفس الأمارة، فتلومهم النفس اللوامة.

وقد ورد في القرآن الكريم اسم هذه النفس حين أقسم المولى ﷻ:

﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ (القيامة، ٢)

هذا الاسم «اللوامة» ليس مجرد كلمة ينطقها اللسان؛ إنما هو فعل وشعور تدور رحاه في الجنان ليؤدي إلى النتيجة المطلوبة، وهو عبور الحد الفاصل والدقيق بين «النفس الأمارة»، و «النفس اللوامة»، وإلا منعك الكبر من لوم نفسك لومًا حقيقيًا، فبقيت تحت حكم النفس الأمارة.

يقول المولى سبحانه في الآية الكريمة:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (ق، ١٦)

لذا؛ يجب على الإنسان أن يكون شديد الحيطة والحذر من وساوس هذه النفس ومداخلها، وألا يأمن جانبها، وألا يتهاون في مراقبة أفعالها، فهي تُفسد من حيث تُظهر الإصلاح، فتراها تُظهر التواضع المصطنع أحيانا؛ لأنها تريده، وتحب أن تُحمد عليه، فقد أصابها الرياء، وفارقها الإخلاص، وانزوت فطرتها، فتوارى «التواضع»، وجاء «الفخر بالتواضع»[٨٨].

ويستطيع المرء أن ينجو من هذه الوساوس، ويغلق أمام وساوس النفس تلك المداخل إذا هو أخضع نفسه للتربية المعنوية، وآنسها بصحبة الصالحين، ومتابعة المرشدين، عندها يتحقق الثبات على التوبة، والتطهر من خبائث الأفعال.

---

٨٨ الفخر بالتواضع: هو مدح الذات بما يوحي بالتواضع. مثل أن يقول المرء: «أنا فقير وعاجز، إلا أنني أختم القرآن في ثلاثة أيام»، وذلك كي يمدح ذاته.





ولكن تبقى هناك في القلب بعض العادات، وفي الروح بعض الآفات، وعليك أن تواصل الجهاد والانتقال من مرحلة إلى أخرى أعلى منها، وأن تتجاوز مرحلة النفس اللوامة إلى غيرها.

والمرحلة التي تلي مرحلة النفس اللوامة هي «النفس الـمُلهَمة»، لكن التجاوز إلى هذه المرحلة يحتاج إلى أحد الأصول المهمة في التربية المعنوية، وهو ما يسمى «الرابطة»، إنه الارتباط القلبي الدائم مع المرشد الكامل، فالمرشد الذي أخذت عليه عهدك وأسلمت إليه قيدك، عليك أن تلتصق به كالرضيع مع أمه.

تتطلب مرحلة النفس الملهمة الالتزام التام بالأوامر الإلهية، والحذر التام في كل السلوكيات والأحوال، ومداومة حساب النفس ومحاكمتها على كل صغيرة وكبيرة، وتجديد التوبة في كل حين، ثم السعي بتدرج للتخلص من آفات قلبك وعيوب نفسك ومذمات أخلاقك، فتتعرف على أكثر طباعك سوءًا، وتبدأ صادقًا في التخلص منها والتحلي بضدها رويدًا رويدًا، وسيساعدك في ذلك أن تنظر إلى إخوانك المؤمنين لتراهم بمرآة نفسك، وتعلم أنهم أيضًا يرونك بالمرآة نفسها، فالمؤمن مرآة أخيه، فإذا أحببت أن يروك كما تراهم، أو إذا خجلت ونفرت، فستعلم كم هي مسيئة تلك العيوب إليك، وكم هي مشوهة لصورتك، وكم هي بغيضة إليك وإليهم، فتهجرها مليًا، وبعون الله تتنزه عنها و تتبرأ منها.

والذكر الدائم لله ﷻ هو أحد معارج الوصول لهذه النفس الملهمة، مع اليقظة التامة في مواجهة المعاصي، والسعي قدمًا لأن تملأ قلبك بنور الله ﷻ ومحبته.

ت. النفس الـمُلهَمة

وهي المرتبة الثالثة من مراتب النفس، والمرحلة التي تصل إليها بعد النفس اللوامة، وذلك حين تغلب عليك التوبة من الذنوب، ويصبح ديدنك الاستغفار من المعاصي، وتجاهد للصدود عنها والحذر منها، وينصرف قلبك عن سبيلها





منشغلاً بجهاد نفسك تحت مظلة الإرشاد المعنوي، وفي أُنسِ الصحبة الصالحة مدعومًا بكنف وحماية «الرابطة».

وفي هذه المرحلة يكون العبد قد وصل من الإخلاص إلى درجة تجعله متوجهًا إلى الله تعالى، واضعًا رضاه سبحانه نصب عينيه، منشغلاً عن مراءاة الناس، متعلقًا قلبه بربه، متغافلًا عما سواه تعالى، وبفضل لطف الله وفيوضاته يصبح قلبه فرقانًا بين الخير والشر، ومجنَّة ضد الهوى، وماءً يطفئ نار الشهوة، ونسيمًا يلطف حرارة الرغبات، ويصفو القلب لتتجلى فيه حقائق الإيمان.

وقد جاءت كلمة «مُلهَمة» التي تصف مرتبة النفس هذه من القرآن الكريم حين قال الله تعالى:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (الشمس، ٧-٨)

أي إن النفس الـمُلهَمة هي النفس التي تتلقى الإلهام، والعبد الذي يعيش بهذه النفس ينكشف له قليل من المعرفة والكشوفات والحقائق من لدنه تعالى، وذلك ببركة مراعاته الأوامر والنواهي الإلهية على أفضل وجه، فيتوجه حينئذ العبد بالعشق إلى عالم الأرواح، ويصل إلى النضج الذي يُمكِّنه من نيل بعض النسمات والإلهامات الربانية، بيد أن فهمها وتمييزها -أرحمانية هي أم لا- يتطلب الخضوع المطلق لمرشدٍ معنوي.

وينبغي الحذر الشديد هنا أيضًا، فالنفس التي أصابتها الهزيمة، والروح الحيوانية التي طُردت من سلطانها، لن تستسلم بسهولة، ولن تترك الروح السلطانية تستمتع بالانتصار، وتتذوق حلاوة الكمال؛ بل تناوش وتحاور وتراوغ، ولا تنفك تدبِّر حيلها ودسائسها الخفية، حتى لا يهنأ العبد بكمال التسليم والتوكل على الله تعالى، وحتى لا يتحقق له الكمال الظاهري والفعلي في الباطن.

وبالتالي؛ لا تزال الطبائع السيئة تجد لأقدامها موطنًا في النفس، ولا تزال الأخلاق الخبيثة تجد لآفاتها أثرًا في القلب، مع أنها لا تكون متجذرة، فتجد





أثرًا للوساوس وضيق القلب والأوهام والشهوات، وشيئًا من القلق وعدم ثبات للطمأنينة، ولا تجد سعادة التسليم الكامل لله تعالى.

ولا يزال طول الأمل يداعب الإنسان، ولا تزال هموم العيش والمعيشة تشغله، والقلق على المستقبل والخوف على الرزق يشاغله، ولم تركن النفس تمامًا إلى فضيلة التوكل، ولم تستوعب تمامًا معاني اسم الله «الرزاق».

إذًا، فالتسليم لله تعالى، والتوكل عليه سبحانه لما يتحقق بتمامه في القلب، والرضا بقضائه ﷻ لما يترسخ في المشاعر؛ بل يكون فقط تقليدًا ظاهريًا.

إذ إن نجاح العبد في هذه المرحلة هو نجاح صغير، متمثل في هزيمة الروح الحيوانية، وترك رغبات النفس وتأديبها بعض الشيء، ولمَّا تأتِ بعدُ مراحل غرس الطبائع الجميلة والأخلاق الحميدة واستنباتها.

وهنا تكون نجاحات الرياضة والمجاهدة في «ترك» ما تُسر به النفس، لكن هذا الترك لابد أن يتبعه فعل، وهو «ذكر الله»، وذكر الله تعالى يجب أن تُراعى آدابه وتُسلك دروبه بالإرشاد المعنوي والهداية الربانية من لدن أولياء الله.

فلن يستقر الذكر في القلب ويصفو، والقلب لا زال مأخوذًا بهموم الدنيا وشواغلها. إنما يصفو الذكر حين يكون الذكر للتلذذ، والتسبيح مفعمًا بالعشق الإلهي، والتكبير ممتلئًا بالوجد، وليس ذكرًا يهدف منه إلى التداوي فقط، والتخلص من العيوب.

وإذا كان الذكر للحب وبالحب، فحينها يطَّلع العبد عبر الإلهام الربَّاني على أسرار الكون، ويتعجب من مظاهر القدرة الإلهية أمامه ويندهش منها، ويصل قلبه إلى الاطمئنان، ويبدأ بإدراك قول الله تعالى في الآية الكريمة:

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ (النحل، ١٢٥)

وحين ينال العبد من ربه ذاك النوال، ويمسه من لطفه سبحانه ذاك الجمال تنضح كلماته بالحكمة، وتتألق كلماته بالموعظة.





وكلما توغلت أكثر في هذا الدرب، وكلما نوَّرت بالذكر جنبات القلب، وكلما صرت مهيئًا لفيوضات الرب؛ تصاغرت في نفسك الروح الحيوانية، وازدادت سيطرة الروح السلطانية، وتصاغرت لديك الميول السفلية، وصرت أكثر تواضعًا وقناعة وكرمًا، وقويت عندك روح المسامحة وسعة الصبر وقوة التحمل.

بيد أن إحدى آفات هذه المرتبة هو ظن المرء أنه «صار شخصًا أفضل»، وهذا ما قد يجرُّه إلى الكِبر والعُجب إذا ما أصابته الغفلة، لهذا يجب على المؤمن في مرتبة النفس الـمُلهَمة أن يعلم دائمًا أنه تحت المراقبة الإلهية، ويرتكز في أحواله وسلوكه على مشاعر التواضع وإدراك فنائه، وينبغي له أن يتفكر في الموت وعدم الغفلة عن التفكير في الآخرة.

يقول رسول الله ﷺ في الحديث الشريف:

«**أكثروا ذكر الموت فإنه يمحِّص الذنوب، ويزهد في الدنيا، فإن ذكرتموه عند الغنى هدمه، وإن ذكرتموه عند الفقر أرضاكم بعيشكم**» (السيوطي، الجامع الصغير، جـ١، ٤٧)

وينبغي على السالك الذي وصلت نفسه إلى هذه المرتبة أن يحيا بمقتضى نصيحة سيدنا عمر رضي الله عنه حين قال:

«حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزِنوا أعمالكم قبل أن تُوزن لكم، وتزيَّنوا للعرض الأكبر، وإنما يخِفُّ الحسابُ يوم القيامة على من حاسب نفسه في الدنيا»[٨٩].

٨٩ الترمذي، القيامة، ٢٥/ ٢٤٥٩؛ ابن كثير، التفسير، جـ١، ٢٧.





ث. النفس المطمئنَّة

هي النفس التي اطمأن فيها الإيمان ورسخ اليقين، فسكنت بتقواها وقويت بأخلاقها، وتطهرت من أمراضها، وسمت بالذكر روحها، بالامتناع عن نواهي الشرع، والامتثال لأوامر الحق.

في هذه المرحلة والمرتبة تمت عملية التخلية بإخلاء النفس والقلب والروح من كل الآفات والأمراض والأغراض، وإغلاق منافذ الوساوس ومواضع الدسائس، ليصبح المجال بعد ذلك طاهرًا مهيئاً لعملية التحلية، فتترسخ محاسن الأخلاق، ويكون المرء جديرًا بأن يتخلق بأخلاق سيد الخلق، وأسوة البشرية رسول الله ﷺ، فتصير حليته الصبر، ووسامه التوكل، وقلادته الرضا، وتاجه التسليم لله سبحانه.

والنفس المطمئنة هي نفس أهل التقوى واليقين، وهي مرتبة أهل الله العارفين، الذين انشغلت بذكر الله قلوبُهم، واطلعت على بواطن أحكام الشرع عقولهم.

يقول الإمام الرباني قدس الله سره:

«إن العبودية والعبادات هي محض تقليد، لكن حين يصل المرء إلى مرتبة النفس المطمئنة يغدو التقليد تحقيقًا».

ويقول شيخنا سامي أفندي:

«إن دخول الإسلام بالمعنى الحقيقي منوطٌ بالتخلص من النفس الأمَّارة، واتباع أوامر الله تعالى، وبناءً على ذلك، تُطلق كلمة (الإسلام المجازي) على الإسلام الذي يُصدِّقه القلب فقط قبل الوصول إلى النفس المطمئنة، وتُطلق كلمة (الإيمان الحقيقي) على الإيمان بعد أن تصل النفس إلى مقام النفس المطمئنة»[٩٠].

---

٩٠ محمود سامي أفندي، المصاحبة، إسطنبول ٢٠٠٨، جـ١، ١٢٧-١٢٩.





أما الترقي في العبودية إلى مستوى التحقق، فهو الوصول إلى «مرتبة الحقيقة» الموجودة في تسلسل الشريعة، والطريقة، والحقيقة، والمعرفة.

وكلما ارتقى العبد في طريق السلوك والمجاهدات ازدادت الأعباء الملقاة على كاهله، ولم تنفعه المبررات التي يتعلل بها عند الكبوات، فإذا وصل إلى سن الرشد في الطريقة بعد أن يُكمل السير والسلوك، وتنتهي مرحلة الطفولة المعصومة التي لا يُؤاخذ فيها على عيوبه، ولا يُلام على هفواته؛ حينها يصير مسؤولاً مؤاخذًا على أصول الشريعة وآداب الطريقة، وهنا تقف مسؤوليته عند حدود درجته، ولا يُحاسب على آداب الحقيقة إلا بعد أن يخطو خطوته الأخيرة في مرحلة «النفس المطمئنة» عبر «الحقيقة»، ويكون قد وصل إلى سن الرشد فيها، ليُحاسب بمقتضى آدابها.

وتختلف موازين الأخطاء باختلاف الدرجات، وكما يقال: «حسنات الأبرار سيئات المقربين»، فإن بعض المباحات في «الشريعة» تُعد ذنوبًا في «الطريقة»، وبعض الهفوات في «الطريقة» تعد كبائر في «الحقيقة» لدى العارفين.

وإذا ضربنا لذلك مثلاً نقول:

الإسراف في الطعام لدى الشريعة هو الأكل بعد الشبع.

أما الإسراف في الطعام لدى الطريقة فهو الأكل حتى الشبع.

والإسراف في الطعام لدى أهل المعرفة فهو -إضافة لما سبق- ألا يرى العبد التجليات الإلهية في النِعَم.

وعلى ذلك يمكنك قياس مدى دقة الموازين، وتضخم المسؤوليات مع الرقي في الدرجات.





وحين تبلغ النفس المطمئنة عين الحقيقة، وتستروح برد اليقين[٩١] وراحة السكينة بنوال عناية الله تعالى وتوفيقه بعد أن تخلصت من هموم الدنيا، ومآسي القلب، وجواذب الروح، تنطلق مرفرفة في سماء الوجد لتنال حظها من منحة «الإلهام» و«الكشف».

ففي هذه المرتبة تنزاح ستائر الغفلة عن بصيرة القلب، وتنحسر أغطية الشك عن بصيرة العقل، فيرى كلاهما بعين اليقين حقائق الحكمة، بعد تمام التسليم لله تعالى والاستسلام لقضائه وقدره والاطمئنان لرضائه، ونرى العبد يقبل من التكاليف الدينية والأوامر الإلهية ما ثقل وما غمض بلا أدنى ريبة، ويقوم بها دون أدنى تقصير، وعلى أفضل وجه ولو اضطرته الظروف أن يواجه العالم كله بتكاليف إيمانه وحقائق يقينه، كمثل نوح عليه السلام عندما كان يصنع السفينة في قلب الصحراء منفذًا أمر ربه في يقين لا يدانيه ريب رغم سخرية الناظر، واستحالة الأمر الإلهي في عيون الناس، لكن أهل اليقين ينظرون من نافذة الحقيقة إلى العالمين المادي والمعنوي، فيرون ما لا يراه المبصرون.

وأمثال هؤلاء لا يضرهم كيد الكائدين، ولا أذى المسرفين، ولا سخرية المجادلين، فإذا رسخ في القلب اليقين، لن تزحزحه مكائد العالمين.

وهاهم سحرة فرعون يأتون في صلف المتكبرين، عونًا للسلطان على أهل الإيمان، يطلبون نوال الدنيا وعطايا أهلها، لكنهم يرون الحقائق جلية، والآيات بينة.

---

٩١ اليقين: كلمة تعني الحزم والبتات، أي لا مكان للشبهة في اليقين، وهي الحالة التي يكون فيها القلب مطمئناً بحقيقة الشيء أمامه، واليقين أيضاً تجاوز الدلائل المعروضة، ورؤية الأمور بقوة الإيمان واضحة جلية، ويقسِّم القشيري اليقين إلى ثلاثة أقسام:

علم اليقين: مَا كَانَ بشرط البرهان.

عين اليقين: مَا كَانَ بحكم البيان.

حق اليقين: مَا كَانَ بنعت العيان.





وكأن هول المعجزة يسارع في العبور بهم من مرحلة إلى مرحلة في السير والسلوك، من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين، فيترسخ في قلوبهم اليقين، فيؤمنون ولا يأبهون بما دون ذلك من فوات نعيم الدنيا، وإقبال عقابها الأليم، ويكون الرد الحاسم البليغ على تهديدات فرعون:

﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ. وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ (الأعراف، ١٢٥-١٢٦)

فاستحقوا بذلك الثناء والنداء الإلهي:

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (الفجر، ٢٧)

هذا الثناء الرباني لم تنله الأنفس الأدنى درجة؛ لا النفس الأمارة، ولا النفس اللوامة، إنما نالته النفس التي اطمأن بالإيمان قلبها، وسكنت باليقين روحها.

ثم تواصل هذه النفس جهادها، وتضع مِقْوَدها ولجامها في يمين طاعة الله، وتستسلم لقضائه سبحانه، لتنعم بالوصال مع الله، وتحظى بالدنو من جنابه تعالى، فترتقي في الدرجات، وتداني الكمالات، وتصعد إلى مراتب النفس الراضية، والنفس المرضية، والنفس الكاملة.

ج. النفس الراضية

هي النفس التي وصلت إلى حالة الفناء في إرادة الله تعالى، فتلاشت إرادتها أمام إرادته، وفنيت مشيئتها أمام مشيئته، وتوجهت إليه سبحانه بكل كيانها، فلم يبقَ لها توجه ولا رغبة لأحد سواه جل في علاه، فخضعت لحُكمه، وقنعت بحكمته، ورحبت بقدره، وفرحت بقضائه.

ويقول الحق تعالى مخاطبًا هذه النفس:

﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ (الفجر، ٢٨)

وكلمة «راضية» في الآية تشير إلى مسمى هذه النفس ومقامها.





ذلك الرضا يعني أن تصبر النفسُ على كل ما يختبرها اللهُ تعالى به من امتحانات، وأن تخوض ما قسمه لها من ابتلاءات، وأن ترضى بمراد الله لها من مصائب وملمَّات مهما كثرت وتنوعت، يقول سبحانه:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة، ١٥٥)

تُعدِّد الآيةُ أصنافًا وجوانب ومراحلَ من البلايا والرزايا، ثم هي تبشر الصابرين، ولكن الدخول في زمرة الصابرين يتطلب الانتساب إلى زمرة الذين ارتقوا بالنفس، فترضى بما اُبتليتَ مهما بلغ البلاء، ولا تشكو من الرزايا مهما كان القضاء، ولا تتذمر مهما عاندتك الدنيا وتقلبت بك الأنواءُ؛ بل تُبدي التسليمَ والرضا التام، وكأنك تبصر ما وراء القضاء من حِكمة، وما وراء الحكمة من إرادة إلهية.

وخير مثال نذكره عن الصبر والرضا هو سيدنا جعفر الصادق ﵁، فقد مات بين يديه ولدٌ صغيرٌ له من غصة اعترته، فبكى، لكنه تذكر النعمة في هذا الوقت، وقال: «لئن أخذتَ لقد أبقيتَ، ولئن ابتليتَ لقد عافيتَ» ثم حمله إلى النساء فصرخن حين رأينه، فأقسم عليهن ألا يصرخن، ثم أخرجه إلى الدفن وهو يقول: «سبحان منْ يقبض أولادنا ولا نزداد له إلا حباً»، ويقول بعد أن واراه التراب:

«إنا قوم نسأل الله تعالى ما نحب فيمنْ نحب فيعطينا، فإذا أنزل ما نكره فيمنْ نحبُّ رضينا»[٩٢].

ما أشد الابتلاء هنا! وما أعظم الصبر! ثم ما أرقى الرضا! وما أتم التسليم! إنه ابتلاء يناسب سمو المقام وعلو المرحلة، وهي حقيقة وناموس كوني، فكلما ارتقى المرء في الدرجات زادت وقست عليه الابتلاءات، وهو ما عبر عنه النبي ﷺ في الحديث التالي:

٩٢ محمد أبو زهرة، الإمام الصادق، ص٨٠.





عن مصعب بن سعد، عن أبيه، قال: قلت: يا رسول الله، أي النَّاس أشدُّ بلاءً؟

قال: «**الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، فيُبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينُه صلبًا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتُلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة**» (الترمذي، الزهد، ٥٧)

وما يساعد العبد على هذا الصبر، وذلك الرضا؛ هو أن يتجاوز عقبة النفس، فيرضى من ربه كلَّ شيء، لأنه في الأصل يرضى بربه، ويقبل بالتالي كل ما أتى من جانبه سبحانه؛ لأنه يدرك أن المحنة تأتي في أعقابها بمنحة، والاثنان متلازمان، فالمكافآت الكبرى تأتي بعد مجاهدة كبرى، وللطريق المعنوي غرائب وتقلباتٌ وأحوال.

في هذه المرحلة -النفس الراضية- يستوي في عين العبد الخير والشر، ويستوي في قلبه الغم والسرور، ولأنه يوقن أن كل شيء هو بقدَر الله تعالى، فإن السعادة والأسى عنده سيان، فكلاهما عطية الرحمن.

وتلك أبيات الشاعر الصوفي تعبّر عن هذه الحالة:

كل شيء من الله جميل أكان وردًا أو شوكًا

أو تاجًا أو كفنًا أو قهرًا أو لطفًا

إنها ليست كلمات تُقال، ولا مبالغات شعراء يقولون ما لا يفعلون، إنها حقائقُ أحوالِ نفسٍ جاهدت، ونتيجةُ سلوكِ من سار في الطريق وواجه مصاعبه، واعتاد على متاعبه حتى وصل إلى ذلك المقام بعدما أدى مطالبه؛ لذا فالواجب على المرء ألا ينطق بمثل هذه الكلمات هباءً ولا تقليدًا، فقد يأخذ الله تعالى قدرك من لسانك فيعرضك لاختبار المقام وابتلاء المرحلة للتحقق من حقيقة ما تقول، وعندما تجد الاختبار شديد الصعوبة بعكس نطق الكلماتِ شديدة السهولة يكون الإخفاق كذلك أقرب إلى الواقع من النطق والمنطق.





أما منْ وصل إلى مقام النفس الراضية حقًا، فإنه يبدأ في الاطلاع على الأسرار الإلهية، ولأنه يدرك معنى الوحدانية بعمق، فإنه يرى الكمالات في العالم الروحاني، وينال شرف تجليات أسماء الله تعالى وصفاته، ويصير هو مصدرًا للنور، وينبوعًا للخير، ونبراسًا للحق، وفيضًا من الأخلاق الحُسنى والشمائل الفُضلى.

والنفس الراضية تتبع أوامر الله تعالى بكل سكينة، وتنتهي عن نواهيه بكل طمأنينة، وتؤدي العبادات بكل إخلاص وتفانٍ، لذا فهي تتكاسل أحيانًا في أداء تلك العبادات، لماذا؟

لأن القصد من وراء العبادات التي تُتعب الإنسان الارتقاء في المراتب، أو نيل الكرامات والكشوفات، أو ما شابهها من مقاصد جليلة، ولكن إذا ما كانت غاية الإنسان من السعي هي الحصول على مثل هذه الكرامات، فإنه يغلق الطريق أمامه بنفسه، وتذهب جهوده كلها هباءً، وفي هذه الحالة تظهر المتاعب والمشقات التي تُنسي الإنسان الذكر والفكر، ولذلك لا ينبغي الأمل إلا من أجل رضا الله تعالى من بداية السير والسلوك إلى نهايته.

فإذا أردت القرب من الله تعالى، فعليك أن تدرك قربه تعالى منك، وأن تعي معنى أنه سبحانه أقرب إليك من حبل الوريد.

كذلك؛ إذا أردت رضا الله تعالى فعليك أن ترضى عن الله تعالى، برضاك عن قدره وقضاه، والسعي في طريقه إلى منتهاه، والصبر على لأواء الطريق وابتلاءاته، لأن في ذلك الخلاص والنجاة.

ويقول الإمام الرباني عن هذه المرتبة:

«الأحوال والمواجيد والعلوم والمعارف التي تحصل للصوفية في أثناء الطريق (السير والسلوك) ليست من المقاصد، بل هي أوهام وخيالات تربى بها أطفال الطريقة، فينبغي أن يجاوز جميع ذلك، وأن يصل إلى مقام الرضا، الذي





هو نهاية مقامات السلوك والجذبة، فإن المقصود من طيِّ منازل الطريقة والحقيقة ليس إلا تحصيل الإخلاص المستلزم لحصول مقام الرضا»[٩٣].

ح. النفس المرضية

إذا كانت النفس الراضية هي التي رضيت عن الله تعالى، فإن النفس المرضية هي التي رضي الله عنها بعد أن أتمت هي رضاها عن الله تعالى، وقدمت من الأعمال الصالحات ما تنال به رضاه.

هذه المرتبة والمرحلة -النفس المرضية- هي التي أتمت العمليتين الأهم في التربية: التخلية، والتحلية، فتخلت عن كل الأخلاق السيئة والطباع الذميمة والآفات المشينة، ثم تحلت بالأخلاق الحسنة والطباع الحميدة، والفضائل والمكرمات.

وفيها يجد العبدُ لذة الرأفة والرحمة والعفو، وحلاوة المحبة والكرم، وجمال الخُلق الكريم.

وفيها أيضًا تكون محاسبة العبد لنفسه أشد عسرًا، ومراقبته لها أعظم حيطة، وترصُّده لمكائد الشيطان أشد حذرًا، ويقظته لحيل إبليس أكثر وعيًا؛ حتى إنه يحاسب نفسه مع كل طرفة عين، ويراقبها مع كل شهيق، ويحذرها مع كل زفير.

وفيها يكون الاستسلام التام لله تعالى، والتسليم الكامل لمشيئته سبحانه؛ حتى يستوي عنده حنو اللطف وقهر الجبروت، طالما كلاهما من عنده سبحانه، فيكون الرضا عن الحالين هو رضاك عن الله، وذلك هو بشرى المؤمن برضا الله تعالى عنه كذلك في عالم الخلود، كما أشارت الآية الكريمة إلى النفس المرضية في قوله تعالى:

﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ (الفجر، ٢٨)

٩٣ الإمام الرباني، المكتوبات، جـ١، ٢٠٦، رقم: ٣٦.





ويؤكد ذلك أيضًا آية أخرى مبينة لحال أهل الرضا:

﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ (البينة، ٨)

ذلك الرضا هو مرتبة «حق اليقين» التي يطَّلع العبدُ فيها على الخفي من الأسرار، وتنكشف عن بصيرته الحقائق المحجوبة عن غير أهلها، فقد أيَّد الله تعالى بقدرته ما لديهم من حواس وبصائر، وصاروا عبادًا ربانيين، وكأن الله تعالى هو أعينهم التي بها يبصرون، وآذانهم التي بها يسمعون، وألسنتهم التي بها يتكلمون، وأيديهم التي بها يبطشون[٩٤]؛ لأن الله عنهم راضٍ، وهم عنه سبحانه راضون.

لذا؛ فإن الله تعالى يكرمهم في مقامهم هذا وأحوالهم تلك، فتتذوق أنفسُهم تجليات الكمال التي يشاهدها العبد في مرتبة النفس الراضية، وتجد ألطاف الأخلاق وجمال الخصال، مثل حلاوة الصبر، وراحة التوكل، ورضا التسليم، وسعادة الرضا.

وهذه الخصال هي التي عاشها الأنبياء واقعًا وأحوالاً، وها هو سيدنا يعقوب عليه السلام يفقد أحب أبنائه، ثم يفقد الآخر، فتبيض عيناه، ويشتد بلاؤه، ثم يصف حاله ومآله، فيحكي عنه القرآن الكريم:

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ (يوسف، ١٨)

وها هو سيدنا أيوب عليه السلام مضرب المثل في الابتلاء، لكنه أيضًا كان مضرب المثل في الصبر، وحين طلبت منه زوجته قائلة:

«لو دعوت الله ليفرج عنك حالك»، أجابها: «لقد وهبني الله تعالى ثمانين عاماً عشتها معافى صحيحًا، وإني لأستحي من الله جل جلاله أن لا أطيق الحياة في بلائي المدة التي لبثتها في رخائي».

---

٩٤ انظر: البخاري، الرقاق، ٣٨.





وحين رُمي إبراهيم عليه السلام في النار استقبله جبريل عليه السلام بين المنجنيق والنار، فقال: السلام عليك يا إبراهيم، أنا جبريل، ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا، حاجتي إلى الله ربي[٩٥].

وثمة نفس أخرى –غير تلك الأنفس التي عرضناها– في مراتب التزكية التي يمر بها العبد السالك في طريقه، وهي مرتبة النفس الكاملة، أو النفس الصافية، وهي المفوَّضة لأهل الكمال.

خ. النفس الكاملة / النفس الصافية

وهي النفس التي بلغت بها التزكية والتربية مرتبة الكمال، وتمام الصفاء، وسموَّ النضج، ويستحصل العبد في هذه المرتبة على كل أسرار المعرفة بلطف الله وعطائه، وإحسانه الإلهي، وليس فقط بالعمل، فتلك المرتبة من أسرار القدر.

فصاحب هذه النفس قد وصل إلى «مقام الإرشاد»، وصار متحملاً مسؤولية الإرشاد، ومكلفًا بمتابعة رسالة الأنبياء في إخراج الناس من الظلمات إلى النور، عبر التأثير فيهم بحاله وسلوكه، ومعالجتهم بنفاذ بصيرته في إدراك داء الشخص ودوائه؛ وهؤلاء المرشدون لا يفقدون الأمل في إصلاح الناس مهما بلغوا من الفسوق، فالطريق إلى الله لا يغلق في وجه أحد.

---

٩٥ أبو نعيم، حلية الأولياء، جـ١، ٢٠؛ البيهقي، شعب الإيمان، جـ٢، ٣٥٢.





القلب واحد من أكبر ساحات الصراع، وميادين المواجهة بين قطبي الدنيا: الخير والشر، وهو صراع أبدي لا تزال القلوب تضطرب فيه بين النفحات الملائكية والنزغات الشيطانية.

 

ب. القلب وتطهيره

١. ماهية القلب

للقلب دورٌ محوري وجوهري في عالمنا المادي وعالمنا الروحي، وهو مركز دائرة التربية، ومحط رحلات الأحاسيس، وميزان تقويم المشاعر.

ومن مقاصد الدين تربية الناس والوصول بهم إلى درجة من الرقي المعنوي تتطهر معها قلوبهم، فتدرك عبوديتها للخالق سبحانه، وتعمل وفق هذا الإدراك بعد أن تصل قلوبهم إلى درجة من النضج المعنوي تحيا فيه بذكر الله تعالى، وتقشعر خوفًا منه سبحانه.

وإذا كانت الحقائق العلمية قد أظهرت أن الخلية التي ينقطع عنها ضخ الدم لمدة أقصاها أربع ثوانٍ تموت، فما بالنا بالخلية التي ينقطع عنها المدد الرباني والفيوضات الإلهية، أو تلك الخلية التي تنقطع عنها المشاعر الإيمانية وذكر الله تعالى وكل ذلك يضخه القلب؛ فالدم في عالم المادة كالشعور في عالم الروح.

فإذا ما اتجهنا إلى العقل وأثره في العالم المادي والمعنوي وجدناه مركز التفكير، ومجمع إصدار الأوامر والإشارات للأعضاء والخلايا، إلا أن أفكاره وأحاسيسه مصدرها القلب.





إذًا، فالقلب هو صاحب السلطتين المادية والمعنوية في الجسد والروح حتى على العقل نفسه، فهو الذي يترجم إشارات الحواس ويحولها إلى مشاعر، وهذه المشاعر تدفع العقل إلى اتخاذ قرار تتصرف الأعضاء بموجبه، وبهذا يكون القلب هو المحرك الأساسي لأفعال الإنسان تجاه مواقفه، فالعين ترى حال المرضى، والأذن تسمع أنينهم، واليد تلمس جلودهم، لكن القشعريرة التي تمر من الجلود إلى الجلود تتحرك عبر القلب الذي شعر بالرحمة، فتحولت الإشارات العصبية من العين والأذن واليد إلى العقل، لكنها في العقل تظل مجرد مدركات للعالم الخارجي، وأحاسيس تنقل إليه صورة ذلك العالم، أما مشاعر الرحمة والمحبة أو الغضب والانتقام، أو اتخاذ قرار وتكوين رأي تجاه هذه الأحداث، فالمحرك الأول والأخير له هو القلب الذي يصيغ هذه الإشارات العصبية إلى مشاعر، وهذه الحركات الميكانيكية إلى دفقات شعورية.

هذه الحقيقة يمكننا إدراكها بسهولة في كل التصرفات البشرية، والخالق المبدع سبحانه حين خلق القلب، حدد له وظيفته وفق فطرته، وهي أنه بوصلة للحق والحقيقة في دنيا المعنويات. وأيُّ شيء يخالف الفطرة؛ تزيغ به الطرقات، وينحرف عن الغايات، فتنقلب سعادته ثبورًا، وتتحول نعمته شرورًا.

لذا؛ فمن الأسس التربوية أن يتجه القلب نحو غايته الفطرية التي خلقه الله تعالى لها، وكل منْ أراد أن يربي فعليه تغذية القلب لمواصلة سيره نحو تلك الغاية، ودعمه في التوجه نحو الهدف ليوافق الإرادة الإلهية.

وفي الآية التالية يحذر الحقُّ عباده من ذلك الميل القلبي نحو الدنيا، والانحراف الشعوري عن الغاية، منخدعين بالملذات ومغترين بالشهوات، فيقول جل جلاله:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ﴾ (فاطر، ٥)





ويوضح مولانا جلال الدين الرومي -قدس الله سره- ضرورة إلجام الرغبات النفسانية، كي لا يحيد الإنسان عن الغاية الأساسية التي خُلق لأجلها قائلاً:

«لا تهتمنَّ بتسمين بدنك، فمآله في النهاية إلى التراب، إنما الأصل أن تربِّي قلبك، فالقلب هو منْ سيرتقي، ويصل إلى مراتب الشرف وينال حُسن المآب».

«قدِّم القليل من الدسم والعسل لبدنك؛ لأن منْ يزيد في تسمينه عن الحد الضروري يقع في الرغبات النفسانية، ويصل إلى الدناءة في نهاية المطاف».

«ولكن قدِّم للروح الغذاءَ المعنوي، وقدم لها الفكر الناضج، والفهم الدقيق، والغذاء الروحاني، كي تبقى قوية ومقتدرة أينما حلَّت».

وينصح لقمان الحكيم ابنه بقصد إيقاظه من الغفلة، فيقول:

«يا بُني، إن الدنيا بحر عميق، هلك فيه عالمٌ وخَلق كثير، فاجعل سفينتك فيه الإيمان بالله، واجعل حشوها تقوى الله وطاعته، واجعل شراعها الدين، به تجري توكُّلًا على الله، لعلك تنجو ولعلك لا تنجو» (البيهقي، كتاب الزهد، ص٧٣)

وإذا كان للقلب دور أساسي في حياة البدن وعمل الجسد، فإن دوره أكثر أهمية وأعظم أثرًا في الحياة الروحية، لأن الذي يمنح الإنسان صفة الإنسانية هو روحه لا صورته.

فالقلب هو الذي يصل بالإنسان إلى معنى «الإنسانية»، وهو الذي يمده بأسبابها ويرفده بينابيعها، ويحقق فيه معانيها؛ لأنه هو الذي يحمل الأسرار الكونية والتجليات الربانية، ويضم في جوهره الحِكَم الإلهية.

وبناءً على هذه الحكمة، يتحقق الإيمان بـ«تصديق القلب» قبل «إقرار اللسان»؛ واللافت للانتباه أن «التصديق الجازم» بالقلب كافٍ أكثر من مجرد الإقرار بالذهن أو الفكر.

والإنسان هو جوهر الكون كله، وقد جبله الله تعالى على ما فيه من المتناقضات؛ إذ يحمل في فطرته الخير والشر معًا، كما أن القلب هو جوهر





ذلك الإنسان الذي هداه الله النجدين، وهيأه للطبيعتين المتضادتين، للتأثيرات الملائكية وللتدخلات الشيطانية، فالقلب واحد من أكبر ساحات الصراع، وميادين المواجهة بين قطبي الدنيا: الخير والشر، وهو صراع أبدي لا تزال القلوب تضطرب فيه بين النفحات الملائكية والنزغات الشيطانية.

هذه النفحات الملائكية هي التي تمنح القلب أحواله الروحانية وسلوكياته الإيمانية، فتروي في أرضه شجرة الإيمان، وتُثمر في رياضه الأخلاق الحميدة، وتلقي ثمارها إلى الناس أعمالاً صالحة، فتحتويهم رأفة ورحمة وخدمة، ثم هي تستمد حياتها من معين لا ينفد، عبادات خاشعة، وذكر تطمئن به وتحيا.

أما تلك النزغات الشيطانية فهي التي تصيب القلب بآفات المادة، وتصرفه عن لذة الروح، فتبدله بالعمل الصالح ذنوبًا، وبالأخلاق الحميدة عيوبًا، وبينابيع الإيمان والتقوى غربة ووحشة، وتغريه ليمضي في سبل الشهوات والنزوات بعيدًا عن الله تعالى.

أما صد النزغات الشيطانية وطردها من القلب، فلا يكون إلا بالعبادة الخاشعة، وذكر الله تعالى، فترتقي القلوب حتى تتصاغر أمامها المغريات والأهواء، وتتوالى عليها النفحات والتجليات، ويترسخ فيها الإيمان كجذور الشجر؛ حتى ترقى إلى مرتبة تنكشف فيها الأستار، ويتجاوز القلب كل الأسوار، فيطَّلع على الكون من نافذة الكشف والتجليات.

فتبدو أسرار عالم اللاهوت المغيب وعالم الناسوت المشاهد واضحةً جليَّةً لصاحب هذا القلب، ويمسي الكون بأسراره كلها كالكتاب المقروء.

وليس القلب عضلة إرادية مثل بقية الأعضاء البشرية التي يسيِّرها الناس وفق إرادتهم، ويتحكمون فيها وفق رغبتهم، فالقلب مختلف عنها في تلك الطاعة وذلك التسليم للإرادة البشرية؛ إذ إنه متأثر أكثر بالعوامل الخارجية، وتراه منساقًا إلى الأحاسيس التي يكتسبها من عالم الماديات أكثر من الخواطر والسوانح التي





تأتيه من عالم المعنويات في داخله، وكأنه مثل الماء الذي يتخذ شكله ولونه ووضعه من الإناء الموضوع فيه.

أما أرباب القلوب- رواد الطريق والسلوك- الساعون إلى دار السلامة، فهم الذين تمكنت قلوبهم من اختيار النفحات الملائكية، والميل إلى الفطرة النقية، والاستسلام للميول الإيجابية في ساحة الصراع الكبرى بين الجانبين، لأنها تملك التركيبة الحيوية الفعالة التي تجعلها في الفريق المنتصر.

وتعرض لنا الآيات الكريمة الآتية هذا الموضوع:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (التوبة، ١١٩)

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنعام، ٦٨)

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ (النساء، ١٤٠)

والإرادة في ساحة الصراع تبدأ عملها أولاً بالتمييز بين الفريقين، وإلقاء نظرة فاحصة عليها حتى تتعرف على قوى الخير وأياديها البيضاء، وتتعرف على قوى الشر وأياديها الملوثة، ثم تختار إلى أي الجانبين تميل، ومع أيهما تمضي، فتقرر مصيرها، وتحدد غايتها، وتختار الرفيق في الطريق، ولا تستسلم لمنْ يسوقها إلى جهنم وعذاب الحريق، فالقلوب في طبعها الهوائي المستسلم للمؤثرات، والمنقاد للشهوات مثل أرجوحة الأطفال التي لا تستقر في أي من الجانبين، ومثل نواس الساعة لا يزال يروح ويجيء يمنةً ويَسرةً طالما الساعة تعمل، والعمر يمر، ولا يتوقف تأرجح القلوب إلا مع نهاية العمر والحياة.





وإذا ما رجعنا إلى الأصل اللغوي لكلمة «القلب» وجدنا المعاجم العربية تقول إن «قلب الشيء ضده، وتغيير الشكل واللون»، مما يؤكد على التغيير والتقلب، وهو خصوصية تميز بها القلب عن سائر أعضاء الجسد رغم أنه العضو المركزي في البدن.

ويقول النبي ﷺ:

«مثَل القلب كمثَلُ ريشةٍ بأرضٍ فلاةٍ تقلبها الرياح»[٩٦].

وتوضِّح الحادثة التالية التي جرت في حياة الرسول ﷺ حالة «التغير» في القلب خير توضيح:

فعن حنظلة الأسيدي -وكان من كُتَّاب رسول الله ﷺ- قال: لقيني أبو بكر، فقال: كيف أنت يا حنظلة؟، قلت: نافق حنظلة، قال: سبحان الله، ما تقول؟ قلت: نكون عند رسول الله ﷺ يذكِّرنا بالنار والجنة حتى كأنا نراهم رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، فنسينا كثيرًا، قال أبو بكر: فوالله إنا لنلقى مثل هذا، فانطلقت أنا وأبو بكر، حتى دخلنا على رسول الله ﷺ، قلت: نافق حنظلة يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: **«وما ذاك؟»** قلت: يا رسول الله نكون عندك، تذكِّرنا بالنار والجنة، حتى كأنا نراهم رأي عين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، نسينا كثيرًا فقال رسول الله ﷺ: **«والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عندي من الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة»** ثلاث مرات. (مسلم، التوبة، ١٢-١٣)[٩٧]

---

٩٦ ابن ماجه، المقدمة، ١٠؛ أحمد بن حنبل، مسند، جـ٤، ٤٠٨.

٩٧ تذكر الروايات الأخرى أن حنظلة رضي الله عنه مرَّ باكيًا بسيدنا أبي بكر رضي الله عنه وشكى له حاله. (الترمذي، القيامة، ٥٩/ ٢٥١٤؛ ابن ماجه، الزهد، ٢٨؛ أحمد، جـ٤، ١٧٨)





وفي الحديث دلالة واضحة على ضرورة التوفيق بين العالمين المادي والمعنوي، فعليك أن تؤدي العبادات أداءً تستشعر معه معاني الآخرة وأسرارها، كما عليك أن تؤدي من مشاغل الدنيا ما يقيم أودك، ويصلح شأنك، وتستمر به الحياة.

وهو إشارة نبوية إلى تأكيد المعنى اللغوي للقلب من حيث «التلوُّن» والانتقال من حال إلى حال.

ومن الأهداف الأساسية والأولية للتصوف أن تُستبدل حالة «التمكين» بحالة «التلوُّن» بحيث يتمكن القلب من «الاستقرار على استقامته» ببركة الذكر والصحبة.

ولعل من أظهر الأمثلة على ثبات القلب وتمكينه من الحق وثباته على الاستقامة والتصديق، هو موقف سيدنا أبي بكر الصديق ﵁ إبان حادث الإسراء والمعراج، فلم يسرِ إليه تردد، ولم يساوره أدنى شك؛ بل كان تصديقه يقينًا، وثباته على فكرته متينًا، واستقرار الإيمان في قلبه مكينًا.

وهاهم رؤوس الفتنة وزعماء الكفر يصولون في ساحات مكة بين أهل الإيمان، كما تصول نزغات الشيطان في ساحات القلب، ينشرون الشك والتكذيب، ويخاطبون الصحابة رضوان الله عليهم -وعلى رأسهم أبو بكر الصديق- مستهزئين قائلين: «هل لك يا أبا بكر في صاحبك، يزعم أنَّه قد جاء هذه اللَّيلة بيت المقدس وصلَّى فيه ورجع إلى مكَّة؟»

وكما كانت صولتهم أقوى عنفوانًا، كانت وقفة أبي بكر ﵁ أثبت إيمانًا، وكان ثبات القلب البكري أقوى من زلزلة التشكيك المكي، وجاءهم الرد الـمُسكت الصادم:

«والله لئن كان قاله لقد صدق، فما يعجبكم من ذلك! فوالله إنه ليخبرني أن الخبر يأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه، فهذا أبعد مما تعجبون منه» (ابن هشام، السيرة، جـ٢، ٣١)





لقد خلق الله تعالى ثلاثة أصناف من مخلوقاته شديدة التباين في فحواها ومبناها:

- الملائكة، وهم لا يفعلون إلا الخير.
- الشياطين، وهم لا يقترفون إلا الشر.
- البشر، وهم في الوسط بين الطرفين، أو هم يجمعون بين النقيضين.

ومن ثم يجب على بني الإنسان أن يحافظوا على هذا التوازن، وألا يكونوا متطرفين في الميل؛ لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، فالفطرة البشرية لا طاقة لها بنورانية وحياة الملائكة، فتصير مثلهم تمامًا، وليست بقدر السوء والظلامية التي عليها الشياطين فتنجذب إليهم بالكلية، إنما يجب على الإنسان الاعتدال بين الإفراط والتفريط، وأن يكون على فطرته التي فطره الله تعالى عليها، وأن يدرك هدفه وغايته، ويعرف أن شغله الشاغل هو «الاستعداد لما بعد الموت»، والاستعداد ليوم الرحيل، والحشد للوقوف بين يدي الله تعالى يوم القيامة، فتكون غايته الدنيوية هي حماية قلبه من نزغات الشيطان، وعمله هو تعريضه للنفحات الرحمانية، فيحافظ على قلبه سليمًا كما كان في أصل خلقته.

يقول الرسول الأكرم ﷺ في الحديث:

«ما من مولود إلا يُولَد على الفطرة[98]**، فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه، أو يمجِّسانه»** (البخاري، الجنائز، ٨٠)

وتعني هذه الحقيقة أن البناء الفطري والسليم للقلب هو «الإسلام»، لكن حين يتعرض القلب لتأثيرات سلبية، تفسد بنيته السليمة ويفقد الاستقامة.

---

٩٨ وفي رواية: «ما من مولود يولد إلا على هذه الملة، حتى يُبيِّن عنه لسانه» (مسلم، القدر، ٢٣؛ أحمد، ٢، ٢٥٣). وقال البخاري: «والفطرة الإسلام» (البخاري، التفسير، ٣٠)





لكن ثمة قلوب لها من المناعة والقوة والقدرة ما يضعف هذه التأثيرات السلبية فلا تنالها بسوء، تلك هي القلوب المليئة بالتجليات الروحانية، التي جعلت الأخلاق الحميدة شعارها، والأعمال الصالحة لها ديدنها، والأحوال المعنوية غايتها، وانهالت عليها الفيوضات من عالم المعنويات، كما ينهال القطر من السماء، فيجعل الصحراء جنات وأنهارًا. وبهذه الطريقة وحدها ينال العبد سر الاحتفاظ بالأصل الفطري له، والذي هو ﴿أحسن تقويم﴾.

وللقلوب عيون تُرفع عنها الحُجُب[٩٩]، ولا تَظهر في سمائها السُحُب، فترى الحقائق والدقائق، ولا يتوارى عن أبصارها أسرار ولا رقائق، وهي القلوب ذات البصيرة والفراسة في النظر إلى الحادثات والمخلوقات.

وأصحاب هذه القلوب المبصرة هم أهل التربية والإرشاد، المجاهدون لكل ما يصرفهم عن سبيل الرشاد والحق.

أما منْ فقد مزية الصدق في الإخلاص والسعي، فقد كبا جواده بعيدًا عن مرحلة اليقين، وصُمَّت أُذنه عن كلمات الأولياء والمرسلين، فأقعده عناده عن الطريق، وصده تكبره عن المسير، وهوت به نفسه إلى ظلمات قسوة القلب والضلال؛ بل يحسب نفسه أنه قد أحسن صنعًا، ويشفق على العميان فاقدي الأبصار بينما هو فاقد للبصر والبصيرة.

وقد أعطى الله تعالى للإنسان الـمُكلَّف القدرة على الأفعال، والإرادة في الاختيار، والتمكن من فعل الخير أو الشر، والرغبة في الميول الملائكية أو الشيطانية بكل حرية ومحض إرادة.

لكن الذي يحدد اختيار الإنسان، ويتحكم في توجيه إرادته هو قلبه، ومدى ميله إلى النزعة الشيطانية أو الملائكية، وعمق تأثر هذا القلب بالمؤثرات

٩٩ انظر: سورة: الحج، الآية: ٤٦.





الخارجية أو الميول النفسانية، ومستوى استقامته أو انحرافه عن غايته الأخروية.

فإذا وقعت القلوب تحت سلطان النفسانية وملأتها الطموحات الشهوانية انعدمت فيها الأخلاق، وران عليها الفسق والنفاق، وغلفها الشرك، واغتالتها الوساوس، فخالفت فطرتها، وضلت طريقها وغايتها، وكانت -وفق التعبير القرآني- ﴿أَضَلّ﴾[100] وأقل وأذل من مرتبة الحيوانات، تحتاج لعلاج طويل، وجهد جهيد في تخفيف علتها، والبرء من أدوائها.



١٠٠ سورة: الفرقان، الآية، ٤٤.





سلوكنا يرسم ملامح قلوبنا،

وهمسات قلوبنا تحدد مسيرة سلوكنا.




٢. أنواع القلوب

يمكن تصنيف القلوب -حسب حالاتها المعنوية- في ثلاث فئات:

أ. القلوب المحافظة على نبلها لتحقيق الغاية من خلقها.

ب. القلوب المختومة والميتة.

ت. القلوب المريضة الغافلة.

أ. القلوب المحافظة على نبلها لتحقيق الغاية من خلقها

وهي القلوب التي أيقظها الذكر من غفلاتها، وحررها النور من ظلماتها، وأنقذتها الروحانية من ضلال النفسانية، وأهلُ هذه القلوب هم الذين عملوا بمقتضى الآيات الكريمات التالية:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ (الأحزاب، ٤١)

﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ (المزمل، ٨)

﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ (النور، ٣٧)





لقد تخطّى هؤلاء بنضج قلوبهم مرحلةَ تجلِّي أسماء الجلال إلى مرحلة تجلِّي أسماء الجمال، فتخطوا الرهبةَ إلى الرغبة، وبلغوا الكمال باتباعهم أخلاقَ ربِّ الكمال، وباقتفائهم آثار رسول الكمال ﷺ، وبتعبدهم بوصايا القرآن الكريم.

فتجردت قلوبهم من الميول النفسانية، وأُشبعت بفيوضات العشق وتجليات الوجد بعد أن أُشربت بحب الله تعالى وحب رسوله الكريم ﷺ، فحققوا معنى التوحيد، وتنزهت قلوبهم عما سوى الله تعالى.

وقد منح القرآن الكريم لهذه القلوب صفات ومسميات متعددة هي:

القلب السليم –القلب المنيب– القلب المطمئن.

– **فأما القلب السليم**، فهو ذلك القلب الذي نجا من غوائل النفس وآفاتها، وتخلص من أهواء النفس وشهواتها، فحافظ على طهره ونقائه واتساقه مع الفطرة بمعونة من الله تعالى.

وهذا الصفاء لا يتم التوصل إليه أو الحفاظ عليه إلا من خلال الأصول التربوية الصوفية، من تزكية النفس وتطهير القلب وما يندرج تحت هذين الأصلين من مجاهدات، وبذلك ينال العبد ألطاف ربه وفيوضاته، بعد أن يجلوَ قلبه من صدأ الذنوب، ويتخفف من أوزار المعاصي، ويخلِّصه من القسوة التي رانت عليه، ويهيئه لتلقي الأنوار الإلهية، والتقلب في نعيم الروحانية بانتصاره على شهوات نفسه ونزواتها.

وكأنها قبسات عظيمات من أنوار الشمس تجمعت في بقعة واحدة، فتركزت أشعتها وحرارتها وقوتها في عدسة محدبة لتقلب النور نارًا تأكل الذنوب وتضيء الدروب، فتهتدي بفضل الله تعالى القلوب، وتفوز بالقبول، وتأتي ربها بحال سليم كما يقول تعالى:

﴿**يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ. إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾ (الشعراء، ٨٨ – ٨٩).





وهو ما صاغه الشاعر روحي البغدادي في شعره:

أيها التاجر والمغامر في نوال الأمر العظيم

ليس الذهب أو الفضة ما تروم

إنما يوم الحساب مرادك القلب السليم

- **وأما القلب المنيب**، فهو ذلك القلب الذي حلق في السماء بعيدًا عن جاذبية الأرض، وانطلق في الفضاء حرًا من قيود المادة، فنبذ علائق الدنيا، وذاب شوقًا في ملذات عالم الخلود، وشغله الوجد والعشق عن عالم الفناء.

والقلب هنا في حالة اضطراب بالمشاعر السامية لمظاهر القدرة الإلهية، يقول الله تعالى في الآية الكريمة:

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ. هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ. مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ (ق، ٣١-٣٣)

- وأما **القلب المطمئن** فهو ذلك القلب الذي استراح بعد عناء السفر وبُعد الشُقة وعوائق الطريق، الذي لم يترك المسير بالنهار ولا السرى بالليل حتى يبلغ المقصد، لم يمنعه مانع، ولم يقطعه قاطع، فنوَّر قلبه بالذكر، وسلّم قياد نفسه للروحانية، وخلَّص عبادته من التقليد إلى رسوخ التحقيق، وبلغ الآفاق في كمالات الأخلاق، وتركز فيه الإيمان، فصار مركزًا للإحساس.

هذا الحال الذي وصفه القرآن الكريم، فقال:

﴿أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد، ٢٨)

فوصول القلب إلى حال الأمان والاطمئنان يتطلب منه «الإيمان الحقيقي»، و«الرضا».

ولا يغيب عن الذهن أيضًا الحال الذي لم تصفه الآية، لكنها أشارت إلى ضده، فالقلوب المنقطعة عن الله تعالى، البعيدة عن ذكره، لا يمسها الرضا، ولا





يقربُها الاطمئنان مهما راوغتها خيالاتُ الدنيا وتصاويرها، فتظل على الدوام أسيرة الاضطراب، مقطوعة الأسباب، منبوذة من الحضرة الإلهية.

وعلاماتُ القلب السليم والمنيب والمطمئن كثيرةٌ منها: الرقة، والرحمة بالمخلوقات، والبكاء، والرضا، وخدمة الحق والخير، والهروب من الشر، والنصيحة، والسعي للإرشاد، والامتلاء بلذة العشق الإلهي.

وذخيرة القلب في ذلك السمو المعنوي، ورأس ماله في العالم الروحاني، هو تحري الحلال وإطابة المطعم، ثم إخلاص الدعاء والاستغفار، ودوام التوبة، وإحاطة ذلك كله بسياج من العمل الصالح.

فالقلب حتى يظل صامدًا في طريقه يحتاج إلى المدد الرباني، وهذا المدد إنما يُستجلب بالدعاء والاستغفار، فالاستغفار والتوبة تعمل عمل الزارع الحصيف الذي يتعاهد غرسه بالرعاية من كل الآفات أولاً بأول، حتى تخرج حين حصادها ناضجة الثمر، كذلك القلوب إن لم تتعاهدها بالتنظيف والتخليص من الآفات والأكدار بالدعاء والاستغفار، يضعف حسها وتقسو مشاعرها، وتُحجب عنها الحقيقة شيئًا فشيئًا بصممها وعماها المعنوي.

لذا كان الاستغفار هو بداية أوراد التصوف للتطهر من الأكدار، وثمة قاعدة مشهورة في «مجلة الأحكام العدلية»، تقول:

(درء المفاسد مقدم على جلب المصالح).

كما أن قاعدة أخرى يضعها أولياء الله عن تحري الحلال في المطعم والمشرب، تقول:

(مَنْ أكل الحلال أنار الله فؤاده، وجعل ينابيع الحكمة تفيض من قلبه، وتظهر على لسانه).

وللحفاظ على هذه المنزلة والدرجة لا ضمانة للعبد سوى العمل الصالح.





تلك القلوب الحية المفعمة بنور الله تعالى، الغارقة في لذة نعيم محبته، هي قلوب الأنبياء والمرسلين، وقلوب الأولياء والمرشدين، فهم الذين طلقوا الدنيا ثلاثًا؛ بل إنهم لم يجعلوا أقصى رجائهم ومنتهى أملهم الجنة ونعيمها، ولم يجعلوا أشد خوفهم وأعظم إشفاقهم من النار وعذابها، إنما مقصدهم و غايتهم الحقيقية إنما هو الرضا والحب الإلهي.

وقد حمّلَ الله هؤلاء الربانيين الأمانةَ العظمى والمسؤولية الكبرى، وهي دعوة الناس إلى «دار السلام»، وهداية الخلق إلى الحق، فهم الذين يرفعون عن العباد حُجُب الغفلة، ويزيلون الغشاوة عن عيون القلوب، ويُحيون هذه القلوب بحُسن الخُلُق، ويهدونها بالحث على إخلاص العبادة، والارتقاء بالسلوك الإنساني إلى كمال المعرفة والوصول إلى الله تعالى.

إن المقام الذي يُطلب من السالك الارتقاء إليه بتربية القلب هو مقام الإحسان، وبهذا ينال صفة «القلب الحي».

ب. القلوب المختومة والميتة

ذلك الصنف الثاني من القلوب هو المناقض تمامًا لكل ما ذكرناه في الصنف الأول، فهي قلوب ميتة قد سُدت في وجوهها أبواب الإيمان، واشتعلت بنيران المعاصي والأهواء.

وإن المثل الأعلى لأصحاب هذه القلوب في إسفافهم وملذاتهم هي الأنعام والحيوانات، فلا هَمَّ لهم طوال حياتهم سوى لذة الطعام وصفاء الشراب.

ويصف الحق تبارك وتعالى حالهم مقارنًا بأحوال أضدادهم، فيقول:

﴿إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ (محمد، ١٢)

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (الفرقان، ٤٤)





هؤلاء الذين جعلوا الدنيا أكبر همهم، ومبلغ علمهم، فعميت أبصارهم عن حقائق الكون والإنسان والحياة، وقصرت حواسهم عن مظاهر العظمة في الوجود؛ بل عميت أبصارهم عن أسرار الحياة في أنفسهم فهم لا يبصرونها؛ هؤلاء الذين ضلوا لن تكون لهم النار عذابًا فقط؛ بل هي مثوى لهم، ومستقر أبدي، وذلك هو الخسران المبين.

لأنهم تركوا بإرادتهم المرتبة الإنسانية، وهبطوا إلى ما هو أدنى من المرتبة الحيوانية، والأغرب من ذلك أنهم لم يكتفوا بضلالهم فحسب؛ بل كانوا مصدر ضلالة وفتنة لمنْ حولهم؛ ضلوا وأضلوا، وتمادوا في نكران عظمة الخلق حتى أنكروا عظمة الخالق، واستغرقوا في كفران النعمة حتى كفروا بالـمُنعم، وبارزوا الله بالمعاصي، وحاربوه -سبحانه- بالذنوب، وعادوه بالكفر، ولم تردعهم الأوامر ولا النواهي، ولم تزجرهم الآيات والمعجزات، فكانوا كما صورتهم آيات القرآن:

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ (يس، ٧٧)

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (البقرة، ١٨)

﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ. وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (النمل، ٨٠-٨١)

والآيات الكريمة تؤكد وتثبت أن قلوب هؤلاء مقفلة ومختومة، ويوضِّح القرآن الكريم هذه الحقيقة:

﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (البقرة، ٧)





إن هذه الحالة سرٌّ وحكمة إلهية تجعل البشرية كلها مضطربة بالخوف والخشية، ولأن كل إنسان لديه نصيب من صفة «هادي» و«مُضل»، فلا يمكن أن يعتقد أن قلبه سيُختم عليه، وأن أبواب الهداية ستُغلق تمامًا بالإرادة الإلهية، طالما أنه موجود في هذه الدنيا، وذلك لأنه ثمة أمثلة عن أشخاص لم تُغلق أبواب الهداية أمامهم، ومنهم: سيدنا عمر ﵁ الذي خرج لغاية سيئة حين أراد قتل الرسول ﷺ، ووحشي حين قتل سيدنا حمزة ﵁، وهند زوجة أبي سفيان حين بقَرَت بطن سيدنا حمزة ﵁ وأخرجت كبده، ولاكته بكل حقد.

ومع أن القرآن الكريم قد ذكر أشخاصًا خُتم على قلوبهم، لكن لا يمكن تحديد من خُتِم على قلبه في الحياة الدنيا، ذلك أن العاقبة مجهولة، فسحرة فرعون مثلاً عاشوا في الضلالة، لكنهم نالوا الهداية في آخر أعمارهم، في حين طوى كلٌ من قارون وبلعم بن باعوراء كتاب حياتهم بالخسران، بعد أن عاشوا طوال عمرهم في الهداية.

والنقطة المثيرة للانتباه هنا أن الأشخاص الذين خُتم على قلوبهم وذُكروا في القرآن الكريم كان بعضهم ممنْ ارتكب الذنوب العظيمة مثل «الظلم» و«الكفر» و«الفسق»، وقد ورد في القرآن الكريم **(والله لَا يَهْدِي)** في ستة وعشرين موضعًا للدلالة على منْ اتصف بهذه الصفات الثلاث، اثنتا عشرة آية من هذه الآيات ذَكرت الظالمين، وثمان منها الكافرين، وستٍّ منها الفاسقين، فباب الهداية إذًا مفتوحٌ لمنْ يتوب عن هذه الذنوب، ويتوجه إلى الله بقلب خالص.

وإذا كانت هذه الذنوب الثلاثة هي السببَ الأساسي في الختم على القلوب، والمسارَ الرئيسي للضلالة والخسران والعذاب العظيم في الآخرة، وقبل ذلك الحرمان من الهداية في الدنيا، فيمكننا أن نتتبع أسباب ذلك الحرمان لنتّقيها، ونتباعد عنها كما يتباعد المشرق من المغرب، وهذه الذنوب الثلاثة هي:

(الظلم، والكفر، والفسق).





ثم لا يبقى سوى تسليم الأمر كله لله تعالى، والاستسلام لمشيئته وقدرته وقضائه وقدره سبحانه.

وسنصرف النظر عن التعمق أكثر في هذه النقطة لأن القضاء والقَدَر يبقى مجهولاً بناءً على الكثير من الحكم، ولأن التفتيش والبحث العميق في هذا الموضوع غير جائز.

ومهما كانت الحكمة من وراء ذلك، فثمة حقيقة لا تقبل الإنكار، وهي أن منْ خُتم على قلبه، فقد أُغلقت أمامه الأبواب المؤدية للحق تعالى، وانقطعت علاقته مع الإنسانية الحقيقية والحياة المعنوية، ولا يستطيع أحد أن يُزيل هذا الختم من قلبه سوى صاحب القدرة المطلقة، وهو المولى الذي نسيه، وينبِّه الله سبحانه عباده من الوقوع في مثل هذه الغفلة في قوله:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (الحشر، ١٩)

وتعني الآية أن منْ ينسى اللهَ تعالى يُنسيه اللهُ نفسه؛ فيصبح من الفاسقين الذين خسروا الدنيا والآخرة وتبلدت أحاسيسهم ومشاعرهم، وضلت قلوبهم عن إدراك حقائق هويتهم وكيانهم، فلا ترى النور ولا تعرف الهداية، ولا تكترث بالاطلاع على ذلك كله، فضلاً عن أن تتبعه أو حتى تدرك أهميته لها.

وهمهم الوحيد وشغلهم الشاغل إعمار هذه الدنيا بالملذات، وتزيينها بالشهوات، ثم الغرق فيها سُكرًا وتيهًا، لا يعرفون موتًا ولا آخرة ولا حسابًا.

إنها قلوب تعيش في ظلمات كهوفٍ لا يصلها النور، وفي عالم مظلم عفن عششت فيه الخفافيش وطيور الظلام، فهذه القلوب لا تستطيع الخروج إلى العالم الطبيعي الذي يناسب الفطرة الطبيعية، لأنها قلوب استعبدتها الميول الشيطانية، فبدلت فطرتها وشوهت طبيعتها، فترى الشقاوة سرورًا، وترى الظلمة نورًا.





ويقول الشاعر محمد عاكف في هؤلاء:

الإيمان في القلب جوهر ما أعظمه

والقلب الصدئ بلا إيمان وزر ما أثقله

وحتى لو أفاق ذلك الذي غرق في مستنقع النفسانية والجحود، ورأى عالم الحقيقة، حين يتزلزل خوفاً ساعة خروج الروح، وحين يضرب ملك الموت ضرباته الصاعقة، ستكون هذه الإفاقة متأخرة لا نفع فيها؛ لأن تكليف الإنسان ينتهي في اللحظة التي يقف أمامه ملك الموت، وبعد تلك اللحظة تضيع الفرصة التي كانت بين يديه إلى الأبد، وتكون تلك الأوبة والندامة عديمة النفع والفائدة، كما كان حال فرعون حين آمن وسجد متأخرًا لحظة خروج أنفاسه الأخيرة؛ وما عاقبة هؤلاء إلا لهيبُ جهنم التي تزداد اتقادًا، كلما أُلقي فيها فوج من أجسادهم.

ت. القلوب المريضة والغافلة

هذه القلوب تقع في الحالة المتأرجحة أو المتوسطة بين الحالتين السابقتين، بين القلوب الحية والقلوب الميتة، تراهم مذبذبين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وقد اختلط لديهم الحابل بالنابل، فلا يتسقون مع الفطرة ولا ينسجمون مع الطبيعة، لا يهدأ لهم بال ولا يقر لهم قرار، لا تستقر بهم السكينة ولا يلبثون طويلا في كنف الطمأنينة؛ شوَّش الغموض عالمهم الداخلي فجعلهم في تيه بين عالم الماديات وعالم المعنويات؛ تشعَّب بهم الالتباس فشتت فكرهم، وزلزل حالهم.

هذه القلوب التي ابتليت بالغفلة فأصابتها العلل والأدواء، فهي تتخبط في أرجوحة التناقض، وتدور في دوامة الشك، وتتوه في شُعب التردد، أصابت العللُ عالمها المعنوي، وفتح الجهل أبواب أعماقها للشهوات، وأسقطت الطموحات أسوار دفاعها ضد الرغبات، فتخطت سياج الأخلاق، وتجاوزت حدود القيم، وانطلقت في دنيا الشهوات.





ويصف الله تعالى هذه الزمرة في القرآن الكريم بقوله:

﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾

(البقرة، ١٠)

وأخطر أمراض هذه القلوب هي: الشك، والجهل، والشهوات والطموحات، وانعدام الأخلاق، والقسوة.

الشك: مرض عضال يحجب المرءَ عن عالم المعنويات، ويحرمه من تذوق لذة الروحانيات، ويعمي بصره وبصيرته عن نور الحقائق، ويصيب قلبه بالموت المعنوي، محرومًا من الاستقرار والطمأنينة؛ وتتزلزل الأرض من تحت أقدامه قلقًا واضطرابًا.

الجهل: هو أن يسير المرء في طريق الخسران، وسوء الخاتمة، وظلمة المصير، ولا يدري حتى أنه ثمة عالم من الحقائق والنور وسعادة المصير، فقد عميت الأبصار، وضلت الأفكار، وأظلمت المدارك، ولم يذق صاحبُها سوى مرارة التعاسة.

الشهوات والطموحات: هو الرق والأسر الذي يظل صاحبه مقيدًا في قسوة قلبه، ومكبلاً بلجام رغباته، لا يسوقه سواها، ولا يرى إلاها، وهو كالشاربين شُرب الهيم، كلما شرب ازداد هوسًا بالشهوة، وسُكرًا بالرغبة، ولا يجد ريًا في شرابه، ولا خلاصًا من هيامه، ولا تحررًا من نير شهواته إلا في تراب قبره.

انعدام الأخلاق: وهو من أخطر أمراض القلب؛ كخطورة السرطان على الجسد، ولكنه أيضًا غير مستحيل العلاج إن أدرك المرء خطورة علته، وبادره بالدواء الناجع، والله يشفي منْ يشاء، ويهدي منْ يشاء.

القسوة: وليس في العلل أشدّخطورة منها، وليس في الأمراض ما لا يُرجى شفاؤه مثلها، فهي عين الضلالة، وأصل الحرمان، وأسفل سافلين في دركات الشقاء، إنها انقطاع القلوب عن فطرتها، وانفصال المشاعر عن أحاسيسها،





وفقدان كل معاني الإدراك في عالم الروح والمادة، فلا تبصر نورًا، ولا تستشعر سرورًا، لا تسمع الأنَّات، ولا تعرف الرحمات، فتصير كالحجارة أو أشد قسوة.

وإن الحجارة هي أرق من هذه القلوب وأكثر حميمية ولطافة، وقد بيَّن المولى سبحانه هذه الحقيقة في القرآن الكريم حين قال:

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (البقرة، ٧٤)

ونفهم من هذه الآية الكريمة أن قسوة القلب هي نتيجة طبيعية لنسيان الله تعالى، والحرمان من الأُنس بالحقائق الإلهية لمدة طويلة، ويقول الله تعالى في آية أخرى:

﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (الزمر، ٢٢)

والأعمال والعبادات إن لم تكن صادرة عن قلوب واعية معافاة من الآفات كانت أعمالًا غير مقبولة، وغير ذات قيمة، لا ينظر الله تعالى إليها، فقد سُلبت هذه القلوب أحاسيسها ومشاعرها، ونورها وحياتها، فانقطعت عن حقائق الكون، ولم تبصر معجزات وآيات الخالق سبحانه.

يقول الله تعالى في الآية الكريمة:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج، ٤٦)

وتشير الآية إلى أن الأعضاء البشرية في الجسد قد تتعطل عن عملها الطبيعي رغم استمرارها في الحركة الميكانيكية، فهي وإن لم تفقد وظيفتها السريرية ولم تفقد حياتها البدنية لكنها فقدت حياتها الروحية، ووظيفتها المعنوية.





ثم تؤكد الآية حقيقةً شديدة الأهمية، وهي أن المسؤول عن العمل العضوي والبدني والروحي والمعنوي هو القلب، وليس العقل، أو المخ البشري؛ إنه القلب الذي في الصدر.

وأمراض القلب مهما صغرت تظل خطورتها كامنة فيه، وكذلك فإنها مهما كبرت يمكن تداركها وعلاجها، فلا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار.

وقد تتراكم الصغائر على القلب، وتتكاثر عليه حتى تهلكه، فلابد من الحذر الشديد، واللجوء إلى الله تعالى، والاعتماد عليه وحده، والتسليم لإرادته والاستسلام التام لما فرضه سبحانه من مقتضيات الإيمان وعوامل اليقين.

ولعل أبرز إيضاح لخطورة حال القلب، وضرورة الحفاظ عليه، والحذر من آفاته، هو حديث النبي ﷺ الذي يقول فيه:

«**ألا وإن في الجسد مضغة: إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**» (البخاري، الإيمان، ٣٩)

وما هذه الدنيا إلا صحراء ممتدة وتيه كبير، يسير الإنسان فيها نحو هدفه، تُسفي عليه الريح من رمالها، ويصيبه من حرها وقرها، وتُعرِّضه للمهالك كل حين، ولن يجد ملاذًا من تلك الرياح إلا في نسمات المدد الإلهي، ولن تجد الواحة الخضراء في هذه الصحراء القاحلة إلا في كنف العون الرباني، ولن تجد الإرشاد إلى الغاية، والدليل إلى الهدف، والمعين في الطريق إلا في ظل طاعة الله، والتسليم له سبحانه.

وما أبلغ الشاعر الفيلسوف المسلم محمد إقبال عندما صور هذا المشهد، فقال:

رأيت الكافر حيران له الآفـاق تيـه

ورأيت المؤمن كونًا تاهت الآفاق فيه





القلب مثل ينبوع الماء الصافي، وصفحة الماء المتلألئة، إذا شابته شائبة من الذنوب تَعَكّر الصفو وخَفَتَ البريق، فمنْ أراد رؤية كنوز النبع، والوصول إلى لؤلؤه وجواهره، فلابد من استعادة صفائه ونقائه.

 

٣. تطهير القلب

تحدثنا من قبل عن القلوب وأنواعها وحالاتها، وهاهنا نكمل الحديث عن الشروط الضرورية والصفات الأساسية والمزايا اللازمة لهذه القلوب كي تتدرج في رقيها، فتصير قلوبًا سليمة ومنيبة ومطمئنة، وكي تحارب الآفات وتعالج الأمراض التي قد تصيبها، وكي تتجنب الانزلاق في مهاوي دركات القلوب المختومة بالحرمان. وهذه الشروط هي:

أ. الطعام الحلال

ب. الاستغفار والدعاء

ت. قراءة القرآن واتباع أحكامه

ث. الخشوع في العبادة.

ج. إحياء الليل

ح. ذكر الله تعالى ومراقبته

خ. محبة الرسول ﷺ والإكثار من الصلاة عليه

د. التفكر في الموت

ذ. صحبة الصالحين والصادقين

ر. التحلي بالأخلاق الحميدة

ولْنقف الآن على كل شرط منها نتأمله مليًا، وندرك أهميتَه وعُمْقَ أثره، لنتمكن من العمل بهمة ومثابرة ودقة على تطبيقه.





أ. الطعام الحلال

يقول إبراهيم الدسوقي قدس الله سره:

«يا إخوتي، لن تنالوا الحكمة والمعرفة طالما أنكم تأكلون الحرام».

إن البدن الذي يؤدي العبادات ويقوم بالطاعات يستمد قوته وقدرته من الغذاء المادي والغذاء المعنوي؛ ذلك الغذاء الذي تنعكس طاقته الإيجابية أو السلبية على الجسد وعلى القلب وعلى العبادات والطاعات، فإذا كان الغذاء والطعام حلالاً طيبًا، انعكست الفيوضات والرحمات على البدن والقلب، وإذا كان الغذاء والطعام حرامًا خبيثًا انعكست الغفلة والقسوة والثقل على القلب والجسد وسائر أفعالهما.

وثمة ارتباط وثيق بين الحلال الكامن في الطعام والإخلاص والقبول الكامن في العمل الصالح، وعلى سبيل المثال فإن الدعاء لا يُرفع إلا بطعام حلال.

وقد وضَّح الرسول ﷺ هذا الأمر حين قال:

«أيها الناس، إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا، إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (المؤمنون، ٥١) **وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾** (البقرة،١٧٢)**، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء، يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذي بالحرام، فأنَّى يُستجاب لذلك؟»** (مسلم، الزكاة، ٦٥؛ الترمذي، تفسير القرآن، ٣)

ويقول محمود سامي رمضان أوغلو -قدس الله سره-:

«إن الشرط الأول في قبول دعاء العبد هو إصلاح القلب باللقمة الحلال، والشرط الأخير هو إخلاص القلب وحضوره، أي التوجه إلى الله تعالى توجُّهًا





تامًّا، فإذا لم تكن اللقمة في الفم حلالاً، فمن الصعب أن يكون هذا العبد مخلصًا حاضرًا، متوجهًا لله تعالى، تاركًا لما سواه»[١٠١].

وأولياء الله تعالى يدركون تمام الإدراك مدى خطورة المأكل الحرام، وما يترتب عليه من الأفعال والأقوال، وفي القاعدة التالية تجد مدى الحساسية الراقية في ذلك التحذير، يقولون:

«انتبه لما يدخل في فمك حين تأكل، ولما يخرج منه حين تتكلم».

ويضع لنا الهادي الأمين ﷺ الخطوط الفاصلة للحلال والحرام، ويضع معها الحدود التي تتقي بها الحرام، بل تتوقى مجرد الاقتراب منه، ويضرب لنا مثلاً حيًا مبسطًا ليشرح القضية برمتها، فيقول في الحديث الشريف:

«**الحلال بيِّن، والحرام بيِّن، وبينهما مُشبَّهات لا يعلمها كثير من الناس، فمنْ اتَّقى المشبَّهات، استبرأ لدينه وعرضه، ومنْ وقع في الشبهات كراعٍ يرعى حول الحمى، يوشك أن يواقعه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا إن حمى الله في أرضه محارمه**» (البخاري، الإيمان، ٣٩)

إن القلوب التي أشبعها الحلال، ورواها الرضا برزق الله تعالى، وأقنعها الاستسلام لقضائه، ولم تتطلع إلى ما وراء الحلال من شبهات أو محرمات أو شهوات- تلك القلوب التي حافظت على نقائها الأول، وفطرتها الأجمل- تمسي مهبطًا للفيوضات، وموئلاً للحكمة والتجليات، أما تلك القلوب التي أظلمت أعماقها، واستمرأت الحرام، فتمسي مهبطًا للشياطين وراية لعداوة الحق والدين.

ونسوق إليك بعض الأمثلة والقصص التي تدل على مدى حساسية أهل الإيمان والقلوب في معالجة هذه الأمور بدقة متناهية وحذر شديد.

---

١٠١ محمود سامي، المصاحبة، جـ٢، ٨.





عن زيد بن أرقم قال: كان لأبي بكر غلام يغل عليه[١٠٢]، فأتاه ليلة بطعام فتناول منه لقمة، فقال له المملوك: ما لك كنت تسألني كل ليلة ولم تسألني الليلة؟ فقال: حملني على ذلك الجوع، من أين جئت بهذا؟ قال: مررت بقوم في الجاهلية فرقيت لهم فوعدوني، فلما أن جاء اليوم مررت بهم، فإذا عرس لهم فأعطوني، فقال: أفٍ لك، كدت تهلكني، فأدخل يده في حلقه وجعل يتقيَّأ، وجعلت لا تخرج، فقيل له: إن هذه لا تخرج إلا بالماء، فدعا بعس[١٠٣] ماء فجعل يشرب ويتقيأ حتى رمى بها، فقيل له: يرحمك الله كل هذا من أجل هذه اللقمة؟ فقال: لو لم تخرج إلا مع نفسي لأخرجتها، سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«**كل جسد نبت من سحت، فالنار أولى به**».

فخشيت أن ينبت شيء من جسدي من هذه اللقمة.[١٠٤]

وإليك أيضاً دقة وحساسية وحذرًا أشد في التعامل مع الطعام؛ إنه الحديث الذي دار بين سيدنا الخضر عليه السلام وعبد الخالق غجدواني -قدس الله سره- أثناء زيارة الخضر عليه السلام لولي الله هذا.

فقد قدَّم شيخنا غجدواني رغيفَي خبز للخضر عليه السلام، لكنه لم يأكل منهما، فقال عبد الخالق غجدواني -قدس الله سره-:

«إن هذا الطعام طعام حلال، فلِمَ لا تأكلون منه؟»

فأجابه الخضر عليه السلام:

١٠٢ يغل عليه أي: يأتيه بِغلته، وفلان يغل على فلان، وأغل القوم: إذا بلغت غلتهم.

١٠٣ العس: القدح العظيم.

١٠٤ انظر: البخاري، مناقب الصحابة، ٢٦؛ أبو نعيم، الحلية، ١، ٣١؛ أحمد بن عبد الله الطبري، الرياض النضرة، جـ٢، ١٤٠-١٤١؛ القرطبي، تفسير، جـ١٩، ١٣٥.





«نعم، إنه طعام حلال، ولكن من عَجَنَ العجين لم يكن متوضِّئًا، فليس لي حقٌّ أن آكله».(١٠٥)

لقد تخطى هؤلاء الأطهار الأبرار مرحلة الحلال في الطعام إلى مرحلة الحلال في شعور منْ صنع الطعام، وفي الأحوال التي تحيط بالمسألة كلها؛ رقةً ودقةً ورقيًا.

وكان الشيخ نقشبند رحمه الله يفر من ريب الأمور، ويتحرى الحلال في طعامه، ودائمًا يردد في نفسه، ويقرأ على طلابه الحديث الشريف:

«**العبادة عشرة أجزاء: تسعة منها في طلب الحلال**»(١٠٦)، ويحث طلابه على العمل بذلك(١٠٧).

وحرصًا منه على تحري حلال الطعام، وحلال الحال الذي صنع فيه الطعام كان رحمه الله يزرع بيديه الشعير والمشمش وبعض الخضراوات، وهو على حذر شديد إذ يتوخى الحلال في كل ما يستخدمه للزراعة سواء أكانت الأرض أم الحيوانات أم الآلات، بل حتى البذور والمياه(١٠٨).

لذا فقد كان كثير من العلماء حريصين على التوافد إلى مجلسه للتبرك بحلال طعامه.

وقد سأل أحد علماء بخارى الشيخَ نقشبند يومًا:

«كيف يحضر القلب في الصلاة؟»

---

١٠٥ رشحات، ص٩٢- ٩٣.

١٠٦ الديلمي، مسند الفردوس، جـ٣، ١٠٧/ ٤٠٦٢.

١٠٧ صلاح الدين بن مبارك البخاري، أنيس الطالبين وعدة السالكين، ص٦٣، ٦٨.

١٠٨ صلاح الدين بن مبارك البخاري، أنيس الطالبين، ص٦٤؛ محمد باقر، مقامات الشيخ نقشبند، ص٣٧، ١١٢، ١٣٨؛ رشحات، ص١٥٩، ١٨٤.





فأجاب الشيخ: «حضور القلب يبدأ من اللقمة الحلال التي تطعمها وأنت تتفكر في نعم الله عليك، ثم بيقظة القلب عند الوضوء حتى تصل إلى التكبيرة الأولى عندها يبدأ حضور القلب في الصلاة.»[١٠٩]

وقال مرة لأحد طلبته حين اشتكى من فقد روحانيته التي كان فيها:

«اذهب وفتش عن لقمتك التي تتناولها أحلال هي أم لا!»، وحين ذهب ذاك الطالب وبحث، اشتبه بقطعة من الحطب في موقد الطعام، فتَاب[١١٠].

وبلغ من حرص الصالحين في مصلحة تحري الحلال في الطعام أنهم كانوا يشترونه من السوق سرًا، وينقلونه إلى بيوتهم خفية، كي يصونوه عن العيون التي تنظر، والنفوس التي ترقب الطعام فتصيبه بأحقادها وحسدها واشتهائها؛ حرصًا من هؤلاء الصالحين على كل لقمة في الطعام الذي يستمدون منه طاقتهم للعبادة، ومصدرهم للحلال.

وثمة أمر آخر مهم يُضاف إلى ذلك كله، وهو التوازن في استخدام الحلال، وعدم الإسراف في استعماله، يقول الله تعالى في الآية الكريمة:

﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا. إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ (الإسراء، ٢٦-٢٧)

ويوضِّح مولانا جلال الدين الرومي في كتابه (المثنوي) بأسلوب مجازي تأثيرَ اللقمة الحلال في البدن والروح فيقول:

«لقد تجلى علينا الإلهام بصورة مختلفة ليلة أمس، لأن بعض اللقيمات المريبة التي نزلت في المعدة سدَّت طريق الإلهام. إن الطعام المشبوه الذي تطلبه النفس يمنعك عن طريق الحق تعالى، فهو كالأشواك التي دخلت في قدميك،

---

١٠٩ صلاح الدين بن مبارك البخاري، أنيس الطالبين، ص٨٤.

١١٠ لجنة، موسوعة الأولياء، جـ٣، ٤٤١.





لهذا يمسي من لا يتحرى لقمته من العصاة.أيها البدن، إن فيك وردة غاية في الجمال إذا ما حافظت عليها، فستظهر من الروائح الزكية التي تنبعث من تلك الوردة حديقةُ عرفان ومعرفة لا حدَّ لها».

ويشير عبد القادر الجيلاني إلى أهمية اللقمة في تطهير القلب:

«انتبه يا بُني! الطعام الحرام يُميت القلب، ثمة لقمة تنير قلبك وأخرى تُظلِمه؛ وثمة لقمة تشغلك بالدنيا وأخرى تشغلك بالآخرة؛ وثمة لقمة تجعلك زاهدًا في الدنيا والآخرة وأخرى توجِّهك إلى خالق الدنيا والآخرة.

إن الطعام الحرام يشغلك بالدنيا ويُحبِّب إليك المعاصي، أما الطعام المباح فيشغلك بالآخرة ويُحبِّب إليك الطاعات، ويُقرِّبك من المولى تبارك وتعالى.

ولا يمكن معرفة ماهية الطعام وتأثيره إلا بمعرفة الله حين تستقر في القلب، لا في الدفتر والكتاب. والمعرفة الإلهية هي إحسان للقلب من الخالق لا من المخلوق، وهي تتحقق بعد توحيد الله والعمل بأحكامه.»

ويقول إبراهيم الدسوقي: «يا إخوتي، لا تظنوا أنكم ستنالون شيئًا من الحكمة والمعرفة طالما أنكم تأكلون الحرام».

وكم هو مثير الحديث الذي دار بين عبيد الله أحرار والسيد قاسم التبريزي حول الطعام الحلال؛ يقول شيخنا عبيد الله أحرار:

قال لي السيد قاسم يومًا: «يا بُني، هل تعلم لماذا تبدو الحكمة والحقيقة قليلة في زماننا؟ لأن تطهير الباطن في عصرنا قليل جدًا، الكمال هو في تطهير الباطن، وتطهير الباطن يكون بأكل اللقمة الحلال، واللقمة الحلال في عصرنا هذا قليلة جدًا، وكأنه لا يوجد إنسان طاهر الباطن...إذًا، كيف تريد أن تتجلى الأسرار الإلهية في مثل هذه الأحوال؟»[١١١].

---

١١١ مولانا علي بن حسين الصافي، الرشحات، اسطنبول، ٢٠١٠، ص.٤٣٩.





ب. الاستغفار والدعاء

﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾

(الفرقان، ٧٧)

إذا كان دوام اللجوء إلى الله تعالى هو حال الأنبياء والأولياء والصلحاء، فما بالنا بحال أصحاب الذنوب والخطايا والأهواء؛ إنهم أشد احتياجًا للأوبة إلى كنف الله تعالى واستغفاره والتضرع إليه، ولا يُتصوَّر أن عبدًا مهما بلغ يمكنه تحمل البعد عن الجناب الكريم، وكأنه كوكب يدور حول شمسه، فإذا انفلت من جاذبيتها ضل في التيه وتخبط في الفضاء حتى يبتلعه نجم أسود، فيظل إلى يوم القيامة يتخبط في أعماق الفناء.

لا يستغني امرؤ عن الدعاء والاستغفار مهما كان نبيًا أو وليًا صالحا، فلا ينجو بشر من زلل، ولا يسلم آدميٌّ من خلل، والذي يمكنه محو آثار كل زلل وإصلاح كل خلل إنما هو الدعاء والاستغفار، الذي يُقرِّب العبد من ربه مجددًا، لأنه في حقيقته هو الالتجاء والندم.

كما أن كلمة «الصلاة» في اللغة العربية تعني «الدعاء»، ولعل الحكمة من ذلك أن الصلاة هي أشمل وأكمل أشكال الدعاء والالتجاء إلى الله سبحانه.

كما أن الدعاء يبدأ بالاستغفار وطلب العفو من الله ﷻ، والتبرؤ إليه سبحانه من كل الذنوب والخطايا، فعلى قدر عزم العبد على ترك الذنب، وعلى قدر شعور العبد بالندم على الذنب، يكون زوال أثر ذلك الذنب من صفحة القلب، ويكون مقدار صفائه وجلائه من جديد، فيصير حينها كالمرآة الصافية التي تنعكس عليها الحقيقة بكل وضوح وجلاء، وحينها يصير مؤهلًا لاستقبال الفيوضات والتجليات النورانية.





والحديث الشريف التالي ينبِّه الناس ويرشدهم إلى ضرورة تصفية القلوب، ويبيِّن أن القلوب التي أظلمت بالذنوب لا يُنيرها شيء كالاستغفار:

«إن العبد إذا أخطأ خطيئة نُكتت في قلبه نكتةٌ سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب سُقل قلبه، وإن عاد زيدَ فيها حتى تعلو قلبه، وهو الران الذي ذكر الله (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)» (الترمذي، التفسير، ٨٣)

والخطوة الأولى في التقرب إلى الله تعالى هو الاستغفار، لأنه إعلان عن عجز العبد، وتبرئه من حَوله وطَوله، وخروجه عن قوته وإرادته، وإعلانه اللجوء إلى الله تعالى، والاستسلام التام له سبحانه، وهو وسيلة استجلاب رحمات الله تعالى، والنجاة من ابتلاءاته وامتحاناته، وهو المجنُّ الذي يصد سهام القضاء، والدرع الذي يقي من نصال البلاء؛ لذا كان الاستغفار مقدمًا على الشكر، وكان الاستغفار هو البداية الصوفية للدروس المعنوية مهما تعددت الوسائل التربوية والطرق الصوفية.

وليس أبلغ من آيات الله وقرآنه العظيم في بيان أهمية الدعاء؛ يقول الله ﷻ:

﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ (الفرقان، ٧٧)

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (البقرة، ١٨٦)

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (الأعراف، ٥٥)

كما تبين الأحاديث النبوية الشريفة أيضًا أهمية الدعاء وعظيم أثره، فيقول المصطفى ﷺ:

«ليس شيءٌ أكرم على الله تعالى من الدعاء» (الترمذي، الدعوات، ١)

«منْ سرَّه أن يستجيب الله له عند الشدائد والكرب فليكثر الدعاء في الرخاء» (الترمذي، الدعوات، ٩)





«مَنْ فُتح له منكم باب الدعاء فُتحت له أبواب الرحمة» (الترمذي، الدعوات، ١٠١)

«ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافل لاه» (الترمذي، الدعوات، ٦٥)

وللدعاء آدابه وشروطه التي نتعلمها من الأحاديث النبوية السابقة؛ لعل أبرزها حضور القلب، والشعور بجلال الموقف وهيبة المدعو وقدرته، كما أن التوسل بالضعفاء والفقراء والصلحاء من أسباب الإجابة، فلعلهم هم الأولى برحمات الله تعالى وتنزلات قدرته، فذلك النبي ﷺ يطلب من الله العون والنصر متوسلاً بفقراء المهاجرين[١١٢]، يقول ﷺ:

«ابغوني الضعفاء، فإنما تُرزقون وتُنصرون بضعفائكم»[١١٣]

وكان الصحابة الكرام ﷺ أثناء ذهابهم إلى الجهاد يطلبون دعاء أصحاب الصُّفَّة بالنصر إضافةً إلى أدعيتهم.

ويقول الإمام الرباني –قدس الله سره– في هذا الشأن:

«إن الفتح والنصر على قسمين: ظاهر وباطن، أما ظاهر النصر وصورته فهو ما ارتبط بالأسباب وكان متعلقًا بالعدة والعتاد، معتدًا بكتائب العسكر والسلاح، وأما الباطن أو حقيقة الفتح والنصر، فهو ما كان معتدًا بكتائب الدعاء، متسلحًا بعتاد الضعف بين يدي الله تعالى، وسلاح الانكسار لجلاله، حينها يكون أقوى العدتين؛ بل تصير كتائب الدعاء هي الروح والقلب لكتائب العسكر، فلا تمنح النصرة من الله إلا لقلوب تستحق التأييد الإلهي»[١١٤].

---

١١٢ انظر: البخاري، الجهاد، ٧٦؛ الطبراني، الكبير، جـ١، ٢٩٢.

١١٣ أبو داوود، الجهاد، ٧٠؛ أحمد بن حنبل، مسند، جـ٥، ١٨٩.

١١٤ الإمام الرباني، المكتوبات، جـ٣، ٣٣٠-٣٣١، رقم: ٤٧.





ويقول الرسول ﷺ:

«**ما دعوة أسرع إجابة من دعوة غائب لغائب**» (الترمذي، البر، ٥٠)

أي إن من أهم أسباب الإجابة للدعاء، ورفعه إلى السماء، وتحققه في القضاء، هو أن يدعو الإنسان لأخيه بظهر الغيب؛ لأن الغياب بعيد عن التملق والتصنع، وهو دليل على الإخلاص والصدق، وليس أضمن لقبول الدعاء عند الله من هذين الشرطين: الإخلاص، والصدق، إضافة إلى قبول الداعي عند الله ﷻ.

وثمة مسألة في أسباب قبول الدعاء قد تلتبس على المرء، فيتساءل بعضهم هل يلزم أن تجتمع كل الأسباب والشرائط لتتم الإجابة، بحيث إذا فُقد شرط امتنعت الإجابة؟

لا ريب في أنَّ تحقق كل الشروط، واجتماع كل الأسباب هو أبلغ وآكد في الإجابة، لكن فقدان شرطٍ لا يعني فقدان الإجابة، فإذا دعا العبدُ المذنبُ لأخيه بظهر الغيب مخلصًا تقبل الله دعوته، لأن ذنبه على نفسه، وحري بالله الكريم ألا يتركه ويتحاشاه لفقد معظم الأسباب، فربُّ الأسباب سبحانه يتقبل حتى من عباده العصاة أقل الأسباب؛ ولعل أن يكون في ذلك خطوة يقترب بها العبد من باب مولاه.

وسأل الصحابة الكرام رسول الله ﷺ:

أي الدعاء أسمع؟ قال:

«**جوف الليل الآخر، ودبر الصلوات المكتوبات**» (الترمذي، الدعوات، ٧٨)

فإذا سبق الاستغفارُ الدعاءَ وصاحبه الندم، وقارن العزم على ترك الذنب حرارة الدعاء، وخرج ذلك كلُّه من أتون قلبٍ متَّقدٍ بالتفكر في معاني الدعاء وألفاظ الرجاء، كان ذلك أحرى بالقبول وأجدر بالوصول.





وثمة بريدٌ أسرع ورسول أبلغ في إيصال الدعاء، إنه العمل الصالح، وهي حقيقة قررتها آيات القرآن الكريم؛ إذ يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ (فاطر، ١٠)

فإذا جمعت الخوف إلى الدعاء، ثم قرنت مع الخوف الرجاء، وأتبعت ذلك بالاستغفار، وصَدَر ذلك كله عن قلب منكسر وطرف باكٍ، كان ذلك الدعاء أبلغ وأسمع.

ويقول مولانا جلال الدين -قدس الله سره- في موضوع التخلص من أمراض القلب وقَبول الدعاء:

«تُب إلى الله، وادْعُ بفؤاد منكسر وعين ندية، فالزهور تتفتح في الأماكن المشمسة الرطبة!»

وأول منْ بدأ التوبة هو سيدنا آدم عليه السلام أول الأنبياء وأمُّنا حواء حين ابتهلا إلى الله تعالى:

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف، ٢٣)

وغدا هذا الدعاء مثالًا تدعو به ذريتهما من بعدهما إلى قيام الساعة.

ويدعو الله تعالى عباده إلى التوبة كي ينبِّههم من غفلة القلوب ويشفيهم من الأمراض المعنوية، فيقول عز منْ قائل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ (التحريم، ٨)

فإذا كانت الآية الكريمة تطلب التوبة النصوح من الذين آمنوا، فمعنى ذلك أن العباد مهما علت درجاتهم وبلغت منازلهم مُعرَّضون لخطر المعصية، فالقلوب





أشدُّ تقلبًا من القِدر حين تغلي، والعبد ليس في عصمة عن شراك المعصية، وحبائل الشيطان.

ولهذا كله يُعلِّم ربنا تبارك وتعالى العبادَ الدعاء التالي:

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (آل عمران، ٨)

وقد جعل نبينا الكريم ﷺ هذا التعليم الإلهي وِرداً له، فكان دائماً ما يردِّد:

«**يا مُقلِّب القلوب ثبِّت قلبي على دينك**» (الترمذي، القدر، ٧)

ويقول سيدنا محمد ﷺ أيضاً:

«**من لزم الاستغفار، جعل الله له من كل ضيق مخرجًا، ومن كل هم فرجًا، ورزقه من حيث لا يحتسب**» [١١٥]

ويقول: «**أنزل الله عليَّ أمانَين لأمتي ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [١١٦] فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة**» (الترمذي، التفسير، ٨/ ٣٠٨٢)

والدعاء والاستغفار من أهم الوسائل في تطهير القلوب، وتشير الآية الكريمة الآتية إلى أهمية الدعاء في تطهيرها من الأدران المعنوية:

﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (الحشر، ١٠)

---

١١٥ أبو داوود، الوتر، ٢٦/ ١٥١٨؛ ابن ماجه، الأدب، ٥٧؛ انظر أيضاً: أحمد، جـ١، ٢٤٨؛ الحاكم، جـ٤، ٢٩١/ ٧٦٧٧.

١١٦ الأنفال: ٣٣





ذلك التطهير المطلوب من أدران القلوب، يبدأ أولاً بالتخلص من السلبيات والآفات وكافة المثبطات التي تعيق عن بلوغ الهدف، ثم إعداد القلب وتجهيزه وتدريبه ليبدأ عمله الضروري، ويسير في طريقه الفطري ليبلغ هدفه الأساسي.

وقدوتنا في ذلك النبي ﷺ الذي كان يدعو الله تعالى، ويلجأ إليه سبحانه في التخلص من هذه السلبيات والآفات، يقول ﷺ:

«**اللَّهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يُستجاب لها**» (مسلم، الذكر، ٧٣)

«**اللَّهم اغسل عنِّي خطاياي بماء الثلج والبرد، ونقِّ قلبي من الخطايا كما نقَّيت الثوب الأبيض من الدنس**» (البخاري، الدعوات، ٣٩)

ولا يتحقق الوصول إلى درجة القلب السليم إلا بألطاف من الله ﷻ، وهذا ما أقر به أبو الأنبياء سيدنا إبراهيم ﵇، نتبين ذلك من دعائه القرآني القائل:

﴿**وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ. يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ. إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾ (الشعراء، ٨٧-٨٩)

وكان النبي الأكرم ﷺ يلتجئ إلى ربه ويبتهل إليه كما كان يفعل سيدنا إبراهيم ﵇، فكان من دعائه:

«**وأسألك لسانًا صادقًا، وقلبًا سليمًا**» (الترمذي، الدعوات، ٢٣)

ومن الأمور المهمة في الدعاء أيضًا الإلحاح؛ والتكرار والثبات في الدعاء من سُنن النبي ﷺ، وهو يُظهر مدى الفاقة والتذلل لله ﷻ، أما الثبات فيعني التمسك بالأمل في الإجابة، واليقين بأن الله تعالى يرى لعباده ما هو أصلح لشأنهم، فإذا ما استوثقت من شروط الإجابة، فتيقن من القبول، ولا تظهر الفتور، ولا تستبطئ





الاستجابة[117]، فربما أخَّر الله تعالى دعوتك إلى حينٍ معلوم، أو بدَّلها لقدر محتوم، أو عوضك عنها يوم القيامة بأجر عظيم.[118]

ت. قراءة القرآن، واتباع أحكامه

إذا تطهرت القلوب لم تشبع من كلام الله سبحانه، وإذا سمت روحانيتها استشفت أسرار الكون المنظور عبر تأمل الكتاب المسطور.

إن القرآن الكريم هو النعمة الكبرى التي منحها الله تعالى للبشرية؛ لأن فيوضاته اللانهائية هي المدد المادي والمعنوي لكل معاني السكينة والطمأنينة، وهي المصدر المثالي لسلامة الإنسان وقلبه، ولسعادته في الدنيا والآخرة.

ومنْ اطلع على هذا الكنز العظيم، ثم أدار له ظهره فهو المحروم حقًا، وذلك هو عين جحود النعمة، ووصمة عار الإنسانية، وطريق الهلاك الذي لا موطن فيه لقبس من نور.

هذا النبع الروحاني الفياض يقدم للبشرية أنجع الأدوية لعلتها الأزلية، ويجيب على أسئلتها الحائرة التي ضل في غياهبها الفلاسفة، ويسقي البشرية إكسير السعادة والحياة المثالية، ويمنح القلوب المتعبة والكليلة الراحة والهدى والسكينة.

والحق تبارك وتعالى يصف لنا كنه هذا القرآن ووظيفته، فيقول:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس، ٥٧)

---

١١٧ انظر: البخاري، الدعوات، ٢٢؛ مسلم، الذكر، ٩٠، ٩١؛ أبو داوود، الوتر، ٢٣؛ الترمذي، الدعوات، ١٢؛ ابن ماجه، الدعاء، ٧.

١١٨ انظر: الموطأ، القرآن، ٣٦؛ الترمذي، الدعوات، ١١٥/ ٣٥٧٣؛ ٩/ ٣٣٨١.





والنبي الهادي ﷺ، ومنْ تَنزَّل عليه القرآن يصف القرآن فيقول:

«**ليس من مؤدب إلا وهو يحب أن يؤتى أدبه، وإن أدب الله القرآن**» (الدارمي، فضائل القرآن، ١)

«**اقرؤوا القرآن ولا تغرنكم هذه المصاحف المعلقة، فإن الله لن يعذب قلبًا وعى القرآن**» (الدارمي، فضائل القرآن، ١)

«**أهل القرآن هم أهل الله وخاصته**»[١١٩] (الحاكم، المستدرك، جـ١، ٧٤٣)

إن القلوب المحرومة من ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن تصيبها القسوة، وقد بعث أبو موسى الأشعري إلى قرَّاء أهل البصرة، فدخل عليه ثلاثمئة رجل قد قرؤوا القرآن، فقال:

«أنتم خيار أهل البصرة وقراؤهم، فاتلوه، ولا يطولنَّ عليكم الأمد فتقسو قلوبكم، كما قست قلوب منْ كان قبلكم» (مسلم، الزكاة، ١١٩)

والحادثة التالية تحمل الكثير من العِبر عن تأثير القرآن الكريم حتى على الحيوانات والملائكة:

عن أسيد بن حضير قال: بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوطة عنده، إذ جالت الفرس، فسكت فسكتت، فقرأ فجالت الفرس، فسكت فسكتت الفرس، ثم قرأ فجالت الفرس فانصرف، وكان ابنه يحيى قريبًا منها، فأشفق أن

١١٩ إن الله تعالى يُكرم أهل القرآن الذين لا يكتفون بحفظه فقط بل يتبعون أحكامه ويتخلَّقون بأخلاقه. وقد خصَّ الله تعالى بعضًا من عباده من حفظة القرآن بإكرام خاص بأنهم لا تفنى أجسادهم بعد الموت. ومن هذا ما شهد به الشيخ محمود سامي رمضان أوغلو –قدس الله سره– وهو من أولياء الله، إذ شهد على فتح قبر أحد الحفاظ بعد ثلاثين عاماً من موته أثناء اضطرارهم لفتح طريق في محافظة أضنة من المكان الذي دُفن فيه، فكان جسده كما هو، حتى إن الكفن كان موجوداً عليه.





تصيبه فلما اجترَّه رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها، فلما أصبح، حدَّث النبي ﷺ فقال: اقرأ يا ابن حضير، اقرأ يا ابن حضير، قال: فأشفقت يا رسول الله أن تطأ يحيى، وكان منها قريبًا، فرفعت رأسي فانصرفت إليه، فرفعت رأسي إلى السماء، فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح، فخرجت حتى لا أراها، قال:

«**وتدري ما ذاك؟**»، قال: لا، قال:

«**تلك الملائكة دنت لصوتك، ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها، لا تتوارى منهم**» (البخاري، فضائل القرآن، ١٥)

لقد أنزل الله تعالى القرآن من أجل الإنسان، أخرجه من مستودع السماء إلى مستودع الأرض، إلى قلوب المؤمنين، فأيُّ سرٍ إلهي أعظمُ من القرآن الكريم، وأي مستودع رباني أوعى من القلب السليم، فهل من الممكن أن تُغلق هذه القلوب دونه، وتبخل على نفسها بفيض حِكَمه وعِبَره وأسراره؟

﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾ (محمد، ٢٤)

إن القرآن الكريم هو انعكاس لأسماء الله تعالى على إدراكنا الدنيوي في صورة كلام، ويُظهر الله تعالى عظمة المعاني التي لا تُعد ولا تُحصى في القرآن الكريم بالصورة التالية:

﴿**وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ (لقمان، ٢٧)

فإن القلوب إذا تطهرت لم تشبع من كلام الله سبحانه، وإذا سمت روحانيتها استشفت أسرار الكون المنظور عبر تأمل الكتاب المسطور.

لذا، على المرء أن يُعد قلبه إعدادًا يليق بتلقي القرآن، وبفهم القرآن، وبإدراك أسرار القرآن، وبانكشاف حقائق القرآن.





فمنْ أقام القرآن أمامه، وجعله إمامه، هداه إلى الصراط المستقيم، ومن جعل القرآن مهجورًا، نال في حياته ثبورًا، وصلي في آخرته سعيرًا.

وتوضح الآياتان الآتيتان الأثر العضوي والنفسي والمعنوي والإيماني في قلوب المؤمنين عند تلاوة القرآن الكريم:

﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ﴾ (الزمر، ٢٣)

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (الأنفال، ٢)

والقرآن هو أعظم دليل عرفته البشرية في الدنيا، وفي الآخرة، به تستقيم حياتها المادية حتى تبلغ المثالية، وبه ترتقي حياتها المعنوية حتى تبلغ العرفان، وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (الإسراء، ٩)

ولأن القرآن هو كتاب الله وكلامه سبحانه، فهو الحق المحض الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ليس كأديان البشر الوضعية تطالها أيدي التحريف، وليس كمذاهب البشر الآنية ينقض بعضها بعضًا، إنما قرآن كريم عظيم صالح لكل زمان ومكان، مناسب لكل الأحوال والأحيان، يقود البشرية في طريقها عبر الأزمان إلى أن يفتح لها باب الأبدية بعد الموت، ويرتقي بها في درجات الخلود.





وفي ذلك يقول المصطفى ﷺ:

«يُقال لصاحب القرآن: اقرأ، وارتقِ، ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلك عند آخر آية تقرؤها»[١٢٠]

وثمة إشارة نبوية جليلة هنا، تومئ إلى الحالة التي ينبغي أن يكون عليها قارئ القرآن؛ بل هي تمنح السامع مؤشر الحكم، فقد سُئل النبيُّ ﷺ:

أيُّ النَّاس أحسن صوتًا للقرآن، وأحسن قراءةً؟

قال: **«من إذا سمعته يقرأ، أُريتَ أنه يخشى الله»** (الدارمي، فضائل القرآن، ٣٤)

وهل ننسى المعجزة القرآنية التي حولت القلب العمري من عداوته الشديدة للإسلام والمسلمين إلى الفاروق الذي تتوافق آراؤه مع أحكام القرآن الكريم حتى قبل أن ينزل القرآن، يستمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى آيات الله تُتلى في بيت أخته فاطمة بخشوع، فيعتريه ما يعتريه.

وتسلِّط الآيتَان الكريمتَان الآتيتَان الضوءَ على كيفية قراءة القرآن الكريم:

﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (ص، ٢٩)

﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ (المزمل، ٤)

وعن نافع عن ابن عمر قال: تعلم عمر رضي الله عنه البقرة في اثنتي عشرة سنة، فلما ختمها نحر جزورًا[١٢١]. (القرطبي، الجامع، جـ١، ٤٠)

في حين أنهى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما سورة البقرة في ثمانية أعوام. (الموطأ، القرآن، ١١)

وكان الصحابة الكرام يقترئون من رسول الله ﷺ عشر آيات فلا يأخذون في

---

١٢٠ أبو داوود، الوتر، ٢٠/ ١٤٦٤؛ الترمذي، فضائل القرآن، ١٨/ ٢٩١٤.

١٢١ الجزور: ما يصلح لأن يُذبح من الإبل.





العشر الأخرى حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل، فكانوا يعملون بما في القرآن من علم، ووصلوا بحِكم القرآن إلى حالة الكمال. (أحمد، جـ٥، ٤١٠)

وحُكي عن أبي سليمان الداراني –قدس الله سره– أنه قال:

«إني لأتلو الآية فأقيم فيها أربع ليالٍ أو خمس ليالٍ ولولا أني أقطع الفكر فيها ما جاوزتها إلى غيرها»[١٢٢]

والأمثلة الواردة كلها توضح بجلاء أن من واجب قارئ القرآن أن يتخطى الألفاظ والسطور، وأن ينفُذ إلى المعاني والبواطن، وأن ينتقل من القراءة إلى تنفيذ ما فيها من أوامر ونواهٍ، وأن يمتثل ما في المعاني من أخلاق وسلوك.

ولعل أولَّ الشروط في التعامل مع القرآن والنفاذ إلى أعماقه احترامُ القرآن قلبًا وقالبًا، فتحترم صحائفه وأوراقه، كما تتمثل أوامره وأخلاقه.

والتاريخ يخبرنا عن الدولة العثمانية وما وصلت إليه من مرتبة في العالمين المادي والمعنوي ببركة احترامهم للقرآن الكريم وتقديسهم له.

وتشير إحدى الروايات التاريخية المشهورة إلى أن مؤسس الدولة العثمانية السلطان عثمان غازي رحمه الله بات ليلةً في بيت الشيخ أدبالي، فلم يستطع النوم فيها أبدًا احترامًا للقرآن الكريم الذي كان معلَّقًا على الحائط.

وثمة آداب أخرى للتعامل مع المصحف باحترام وقدسية، وهي من آداب حملة القرآن التي استقاها العلماء من نصوص الكتاب والسُنة، مثل عدم جواز مس المصحف للجُنُب أو الـمُحدِث، وعدم حمل المصحف أسفل الخصر، وعدم تركه مفتوحًا، أو موضوعًا على الأرض، أو وضع شيء فوقه، وغير ذلك من الآداب التي تُظهر وجوب احترام المصحف الشريف الذي يضم بين دفتيه كلام الله تعالى.

---

١٢٢ الغزالي، إحياء علوم الدين، بيروت ١٩٩٠، جـ١، ٣٧٤.





ويأتي بعد ذلك الاهتمام بالقرآن بكثرة قراءاته، والمداومة على تلاوته، والحرص على أن يكون لك ورد ثابت من القرآن مهما كان قليلاً، لكنه ثابت لا ينقطع، ولتتذكر دومًا أن أول أمر إلهي جاء به الوحي هو: ﴿**اقرأ**﴾ (العلق، ١).

وهل تصح أولى العبادات وعمود الإسلام -الصلاة- إلا بقراءة القرآن!؟

وعن أبي هريرة: أنَّ رسول الله ﷺ قال:

«**لا حسد إلا في اثنتين: رجل علمه الله القرآن، فهو يتلوه آناء الليل، وآناء النهار**»

فسمعه جار له، فقال: **ليتني أوتيت مثل ما أوتي فلان، فعملت مثل ما يعمل،**

«**ورجل آتاه الله مالًا فهو يهلكه في الحق**»

فقال رجل: ليتني أوتيت مثل ما أوتي فلان، فعملت مثل ما يعمل. (البخاري، فضائل القرآن، ٢٠)

وكان أول كلام تكلم به الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك مخاطبًا الرعية:

«يا عباد الله اتخذوا كتاب الله إمامًا وارضوه حكمًا، واجعلوه لكم قائدًا؛ فإنه ناسخ لما كان قبله ولن ينسخه كتاب بعده، اعلموا عباد الله أن هذا القرآن يجلو كيد الشيطان وصفاصفه كما يجلو ضوءُ الصبح إذا تنفس إدبارَ الليل إذا عسعس»

(البيهقي، كتاب الزهد، ص٦١)

بل إن مجرد النظر إلى كلمات القرآن وصحائفه استئناسًا، واتخاذها للعين نبراسًا، يُثاب عليه الناظر، فليس شيء يمس القرآن أو ينتمي إليه ويقرب منه إلا وينال صاحبُه ببركة القرآن نوالاً وثوابًا.

وعبر كل هذه الآيات التي تدل على عظمة القرآن، وتلك الأحاديث التي توضح جلال أثره، نستطيع أن ندرك ما للقرآن من قَدر في حياة المؤمن، بل هو حياة المؤمن، وحياة قلبه، والمدد الإلهي لهما.





وكان من دعاء الرسول الأكرم ﷺ:

«ما أصاب أحدًا قط هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك بن عبدك بن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك أو علمته أحدًا من خلقك، أو أنزلته في كتابك أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري، وجلاء حزني وذهاب همي. إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرجًا».

فقيل: يا رسول الله ألا نتعلمها؟ فقال:

«بلى ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها». (أحمد بن حنبل، مسند، جـ ١، ٣٩١)

ث. الخشوع في العبادة

«الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»

(البخاري، الإيمان، ٣٧، تفسير القرآن، ٣١/ ٢).

إن العبادة هي ذلك الميثاق الأزلي الذي أخذه الله تعالى على عباده وهم لا يزالون في أصلاب آبائهم، ميثاق العبودية له سبحانه، والإقرار بربوبيته تعالى، وأداء ذلك على أحسن حال وأكمله.

هذا الأداء للعبادات هو بوابة المرء إلى عالم الروح والوصال مع الحق سبحانه، وهو الخلاص من هموم الدنيا وأدناسها وأرجاسها، والرقي إلى جوار الحضرة الربانية حيث راحة الروح وطهر القلب، وطمأنينة النفس، والشفاء من كل داء، والأمن من كل خوف، والحصول على السعادة الأبدية.

فالعبادات هي الواحة الغنَّاء في الصحراء الدنيوية الجرداء، وهي زاد العبد وراحلته في رحلته عبر الدنيا إلى الآخرة.





وعندما يرفع العبد يديه في الصلاة بتكبيرة الإحرام فكأنه يرفعها ليطرق أبواب السماء، وحين ينادي بالتكبير فكأنه يطلب الإذن للدخول في معية رب الأرض والسماء، فيبدأ بالبسملة التي بها يُبتدأ كل أمر ذي شأن، ثم يحمد الله تعالى ويمجده ويثني عليه، وبعدها يبدأ الدعاء والطلب والرجاء، ويطلب الهداية إلى طريق السعادة.

وإذا كان الحق -تبارك وتعالى- قد خلق الناس لغاية، وهى العبادة؛ فإن الوصول إلى هذه الغاية لا يتأتى إلا بإتقان هذه العبادة بالخشوع.

والخشوع يعني المثول بين يدي الله تعالى في حالة شعورية خاصة، تجمع بين مشاعر الخوف والرجاء وعقائد الولاء والبراء، بين السكينة والطمأنينة، بين الانفصال عن عالم الأرض والاتصال بعالم السماء، واستشعار معية المعبود وحضرته، واستحضار مهابته وقدرته وخشيته.

- وأعظم هذه العبادات أثرًا وأعمها نفعًا هي الصلاة، وهي من أجَلّ النعم التي حبا الله تعالى بها عباده، ومن أقوى الأسباب التي تربط العبد بربه، بقول النبي ﷺ:

«ما من مسلم يتوضأ فيحسن وضوءه، ثم يقوم فيصلي ركعتين، مقبلاً عليهما بقلبه ووجهه، إلا وجبت له الجنة» (مسلم، الطهارة، ١٧)

وعن أنس، قال: كنا عند رسول الله ﷺ حيث حضرته الوفاة، قال: فقال لنا:

«اتقوا الله في الصلاة، اتقوا الله في الصلاة ثلاثًا، اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم، اتقوا الله في الضعيفين المرأة الأرملة والصبي اليتيم، اتقوا الله في الصلاة»

فجعل يرددها وهو يقول: «**الصلاة**» وهو يغرغر حتى فاضت نفسه[١٢٣].

---

١٢٣ البيهقي، الشعب، جـ٧، ٤٧٧. انظر أيضًا: أحمد، جـ٦، ٢٩٠، ٣١٥؛ أبو داوود، أدب، ١٢٣-١٢٤/ ٥١٥٦؛ ابن ماجه، وصايا، جـ١.





وإذا أدرك العبد ماهية الصلاة وحقيقتها، واستشعر معناها، وذاق لذتها، لم يستبدلها بغيرها أبدًا؛ حتى ولو كانت الجنة.

يقول سليمان الداراني قدس الله سرَّه:

«لو خُيِّرت بين ركعتي صلاة ودخول الفردوس لاخترت الركعتين، لأن دخول الفردوس في الجنة هو مطلبٌ للنفس يسعدها، لكن حين أصلِّي ركعتين، فإنني سأكون مع ربي عَزَّ وَجَلَّ».

والصلاة تختلف عن بقية العبادات، ففي الصلاة يكون العبد منفردًا مع ربه، لا يرائي الناس بزكاته، ولا يباهي بحجه، ولا يمارس حياته مع صيامه، إنما يقف بين يدي ربه بجسده وروحه وقلبه، لا تشغله من شواغل الدنيا سوى ما تشغله به نفسه.

وحين يقف العبد للصلاة يجب أن يقطع كل اتصال له بالدنيا، ويرفع كل حواسه عنها، ويصرف مشاعره دونها، ولا يقع في مداركه شيءٌ سوى الاتصال بالملأ الأعلى، فإذا وصل إلى حقيقة الصلاة وكنهها، حينئذ تنزاح الأستار، وتنكشف الأسرار، وتتجلى الحقائق والأنوار.

والصلاة تشترط للخضوع فيها -شأن كل العبادات- أن تستشعر معية الله تعالى ومراقبته لك، فإذا أيقنت بهذه المعية والمراقبة استحييت أن تنشغل بغيره سبحانه، أو أن يتعلق قلبك بشيء دونه.

يقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«**الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**» (البخاري، الإيمان، ٣٧، تفسير القرآن، ٣١/ ٢).

أي أن تجمع قلبك وذهنك، وتتخلص من جميع الأفكار الفانية، وتركز على ذكر الله تعالى، وأن تعبد الله تعالى كأنك تراه مهما كان الحال الذي أنت عليه!





«اذكر الموت في صلاتك فإن الرجل إذا ذكر الموت في صلاته لحريٌّ أن يحسن صلاته، وصلِّ صلاة رجل لا يظن أن يصلي صلاة غيرها، وإياك وكل أمر يعتذر منه». (الديلمي، الفردوس، جـ١، ٤٣١. قارن: ابن ماجة، الزهد، ١٥؛ أحمد، جـ٥، ٤١٢)

ويصف الله تعالى الصلاة الحقيقية في قوله:

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ (العنكبوت، ٤٥)

ودوام حالة الانتهاء عن الفحشاء والمنكر بعد الصلاة هو المؤشر الأوضح على استمرار حالة الخشوع والطمأنينة بعدها، وإلا فإن الصلاة لم تكن كما يريدها الله تعالى، حينها يستحق صاحبها هذا الوعيد الإلهي في الآيات التالية:

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ. الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ. الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ. وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ (الماعون،٤-٧)

وعن أبي هريرة ﷺ، قال: صلّى بنا رسول الله ﷺ يومًا، ثم انصرف، فقال:

«يا فلان، ألا تحسن صلاتك؟ ألا ينظر المصلي إذا صلى كيف يصلي؟ فإنما يصلي لنفسه، إني والله لأُبصر من ورائي كما أُبصر من بين يدي» (مسلم، الصلاة، ١٠٨)

وهؤلاء الذين لا يراعون في الصلاة إلا الحركات والسكنات، ولا يبالون بالرحمات والفيوضات، كمثل الذي يؤدي دَينًا وهو كاره، أو يفعل خيرًا وهو مُجبر، أو يقوم بواجب اعتيادي خالٍ من الروح والشعور.

ويصف المولى سبحانه الصلاة الحقيقية المثالية حين يقول:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ (المؤمنون، ١-٢)

ويصف الصحابي عبد الله بن الشِّخير ﷺ حال الرسول ﷺ في صلاته، فيقول:

«رأيت رسول الله ﷺ يصلي وفي صدره أزيز كأزيز الرحى من البكاء»[١٢٤].

---

١٢٤ أبو داوود، الصلاة، ١٥٦-١٥٧؛ أحمد بن حنبل، مسند، جـ٤، ٢٥.





ويوضح رسول الله ﷺ ضرورة الخشوع في الصلاة فيقول:

«...**إذا توضأ الرجل ثم قام فصلى، فحمد الله وأثنى عليه ومجّده بالذي هو له أهل، وفرَّغ قلبه لله، إلا انصرف من خطيئته كهيئته يوم ولدته أمه**» (مسلم، المسافرين، ٢٩٤)

وقال رسول الله ﷺ أيضًا بعد أن فرغ من وضوئه:

«**منْ توضأ نحو وضوئي هذا، ثم صلى ركعتين لا يحدّث فيهما نفسه، غُفر له ما تقدم من ذنبه**» (البخاري، الوضوء، ٢٤، ٢٨؛ مسلم، الطهارة، ٣-٤)

ويقول أبو الدَّرداء رضي الله عنه: «مِن فِقْه المرء إقبالُه على حاجته حتى يُقبِل على صلاته وقلبُه فارغ». (البخاري، الأذان، ٤٢)

وكان وجه سيدنا علي رضي الله عنه يصفرُّ حين يقف للصلاة لما يكون عليه من خشوع، ويتجرد حتى من إحساسه ببدنه، وقد وقف ذات مرة للصلاة كي يُخرجوا من قدمه المباركة سهمًا أصابه في المعركة، إذ كان يعلم من نفسه أنه لن يشعر في الصلاة بأي ألم، والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: كم من عبد يصلي صلاته على هذا النحو بأن يقطع علاقاته كلها عن الدنيا وما فيها؟

لكن العبد الذي لم يصل إلى هذه المرتبة في الخشوع والكمال في العبادة، لا ينبغي عليه أبدًا القنوط من عبادته وتركها؛ بل عليه أن يضع هذا الكمال موضع الهدف والغاية، ويجعل من أخطاء عباداته درجات أولية في سلم الرقي إلى الدرجات العلى، ويجعل شغلَه الشاغل في كيفية تجنب أخطائه، ويجعل مطاعن عبادته هي الجراحات التي يسعى لمداواتها، فمنْ تمسك بالخيط الرفيع، أوشك أن يرتبط بحبل الله المتين.

وثمة فائدة كبرى في انتظام الصلاة على وقتها، وهي انتظام حياة العبد على وتيرة مادية ومعنوية متناسقة، فيصير وقته منظمًا، وعمله منظمًا، ومدده السماوي منتظمًا، وحياته كلها تسير بوحي من ذلك التناسق والانسجام.





كما تحافظ الصلاة المنتظمة على نشاطك العقلي وتيقظك الفكري، وبها يرتفع مؤشرك الإيماني وسموك المعنوي، وبها تطهر من وصمات الدنيا وطينها الأرضي.

- **والصوم** كذلك من العبادات التي يجاهد بها المرء دنياه، ويسعى بها إلى أخراه، ويواصل بها السلوكَ في طريق مجاهدة نفسه وهواه، ليصل بها إلى أسمى درجات الإحسان والتقوى.

فغاية الصوم مجاهدة النفس، وتخطي عقباتها الكؤود، والانفلات من نيرها، والتحرر من قيادها، وإلجامها وقهرها بالامتناع عن تحقيق مرادها، وليس الصوم عن طعام وشراب وشهوة؛ إنما الصيام عن الرغبات الدنيوية للنفس، والصيام عن الذنوب صغيرها وكبيرها، وهو المعنى الذي قصده الشيخ عبد الله دهلوي عندما قال:

«إن حياتنا في هذه الدنيا هي يوم واحد فقط، فيجب علينا أن نصوم ذلك اليوم»[١٢٥].

ورياضة الصوم تبدأ بتدريبنا على التقليل من المباحات، والاقتصاد في الحلال، ثم الابتعاد عن الشبهات؛ فضلاً عن الامتناع التام عن المحرمات، فيكتسب العبد من الأخلاق والفضائل والقوة ما يجعله صامدًا أمام المشقات، قويًا أمام الصعوبات، متسلحًا ضد الشهوات والرغبات.

فيدرك الناس -غنيهم وفقيرهم- معنى الجوع، ويحسون بمدى عظمة نِعَم الله تعالى عليهم، ومدى معاناة المحرومين من هذه النِعَم، ومن ثم يزرع في الجميع الإحساس بالتعاون والتراحم.

---

١٢٥ رؤوف أحمد المجددي، دار المعارف، إسطنبول ١٩٩٨، ص١٤٣.





والصوم يُحيي في الناس مشاعر التقوى ويزيد من صفاء القلوب، فالله تعالى يقول:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة، ١٨٣)

ويوضِّح رسول الله ﷺ فضيلة الصوم في الحديث التالي:

عن أبي هريرة رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ:

«**قال الله: كل عمل ابن آدم له، إلا الصيام، فإنه لي وأنا أجزي به، والصيام جُنة، وإذا كان يومُ صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابَّه أحد أو قاتله، فليقل إني امرؤٌ صائم**» (البخاري، الصوم، ٩؛ مسلم، الصيام، ١٦٣)

إنَّ امتلاك العبد لإرادته هو الضمانة الأقوى أمام رغبات النفس وطبيعتها الشهوانية، والذي يقوِّي هذه الإرادة وينميها هو المنهج التربوي الذي يُعد الصوم أصلا من أصوله.

يقول مولانا جلال الدين الرومي -قدس الله سره- في ضرورة تناول الطعام القليل في الدنيا لنيل نِعَم العالم الأبدي:

«الغذاء الأساسي للإنسان هو الحكمة والعشق الإلهي، لهذا ليس من الصواب إعطاء البدن غذاءً أكثر من اللازم».

«إن الإنسان يفقد الطمأنينة حين يكون قلقًا على غذاء بدنه وينسى غذاءه الروحاني الأساسي؛ لأنه لن يعرف الشبع في هذه الحالة. لذلك تراه مصفرَّ الوجه مرتجف القدمين مضطرب القلب نتيجة حرصه، ولكن شتَّان بين الغذاء الأرضي والغذاء الأبدي!»





«ويقول الله تعالى عن الشهداء أنهم ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[126]، ولا يوجد فمٌ أو جسد لهذا الغذاء المعنوي».

وللصوم حقيقة -لابد من الوصول إليها وتحقيقها حتى يحقق العبد معنى الصوم، ويصل إلى الغاية من عبادة الصوم- هي صيام الحواس مع صيام الجوارح، فصيام الفم والفرج لابد أن يتبعه صيام العين والأذن واللسان وكافة الأعضاء،كي يكون وقت إفطارنا وقت العفو عن ذنوبنا.

وجاء في الحديث الشريف:

عن أبي هريرة ﵁، قال: قال رسول الله ﷺ:

«**ليس الصيام من الأكل والشرب، إنما الصيام من اللغو والرفث، فإن سابَّك أحد، وجهل عليك فقل: إني صائم**» (الحاكم، المستدرك، جـ١، ٥٩٥/ ١٥٧٠)

وعن عبيد مولى رسول الله ﷺ أن امرأتين صامتا وأن رجلاً قال:

«يا رسول الله إن ها هنا امرأتين قد صامتا وإنهما قد كادتا أن تموتا من العطش»، قال: فأعرض عنه أو سكت، ثم عاد فقال: «يا نبي الله إنهما والله قد ماتتا أو كادتا أن تموتا»، قال: «**ادعهما**»، قال: فجاءتا، قال: فجيء بقدح أو عس، فقال لإحداهما: «**قيئي**» فقاءت قيحًا أو دمًا وصديدًا ولحمًا حتى قاءت نصف القدح، ثم قال للأخرى:«**قيئي**»، فقاءت من قيح ودم وصديد ولحم عبيط وغيره حتى ملأت القدح، ثم قال:

«**إن هاتين صامتا عمَّا أحل الله وأفطرتا على ما حرم الله ﷻ عليهما، جلست إحداهما إلى الأخرى فجعلتا تأكلان من لحوم الناس**» (أحمد، جـ٥، ٤٣١؛ الهيثمي، جـ٣، ١٧١)

- وعبادة «**الزكاة**» أيضًا تملك من أساليب التربية والعلاج المجتمعي ما يصب في رافد خشوع العبادات، وتهذيب النفس، فـ«الإنفاق» عبادة فُرضت

١٢٦ آل عمران، ١٦٩.





لعلاج النفس الفردية للإنسان، والنفس الجماعية للمجتمع، ولعلاج الروابط النفسية والاجتماعية بين أفراد المجتمع المسلم.

فالمال أحد أقوى الشهوات التي تتحكم في النفس البشرية، فمنْ امتلك المال يرفض بشدة إنفاقه إلا على ملذاته، ويتعامى عمنْ هو في احتياج إلى فُتات منه، ومن لم يمتلكه كَنَز في قلبه حقدًا وحسدًا على منْ يضن عليه بالمال.

أما إذا أخرج الغني زكاته وصدقاته وهداياه ليطفئ نار حسد هذه القلوب، وليقطع حبال قيود هذه النفس الشحيحة، حينها تتحول هذه النار التي تأكل القلوب إلى حرارة تدفئ العلاقات الإنسانية بين الأغنياء والفقراء، وتتحول هذه القيود التي تلجم النفس عن الإنفاق إلى أسباب تربط القلوب بعضها ببعض، وتربطها بالله سبحانه في معادلة إسلامية من التكافل والتعاون والتراحم، ونفي التباغض والتحاسد، وحجة للجميع أمام الله تعالى حين يسأل صاحب المال من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وطُهرة لهذا المال من آفة الحرام والشبهات.

وقد حفل القرآن الكريم بذكر آيات الزكاة؛ بل ربطها المشرِّع في سبع وعشرين آية بالصلاة عماد الدين، تنبيهًا لأهميتها و خطرها.

والزكاة دَينٌ بمقدارٍ معيَّنٍ مفروضٍ من الله تعالى على من كانت لديه الإمكانية كي يؤدِّيها للمحتاجين، يقولُ المولى ﷻ في القرآن الكريم:

﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (الذاريات، ١٩)

هذا الحق المقرر من لدن صاحب خزائن السماوات والأرض لصالح السائل والمحروم يصير -وفق تفصيلات التشريع- وكأنه ضريبة إلهية في مال الغني، يُطَهِّر بها ماله، ويؤكد بها حله، فتزيل هذه الضريبة الثقل المالي الجاثم على قلب الغني، وتساعده على الانفكاك من ربقته، وتزيل التكدس المتزايد على كفة واحدة في المجتمع فتميلها ميلاً عظيمًا، وتعيد توزيع المال بشكل تسير معه عجلة الحياة في المجتمع الإسلامي بعدالة واتزان.





ويتحقق التوازن والعدالة والانسجام الاجتماعي، ويكفي لفهم هذه الحقيقة النظرُ إلى آية ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ (الأعلى، ١٤)

وثمة نكتة لغوية مهمة في تلك المسميات، فكلمة «**الزكاة**» تعني «**التزكية**» والتطهير، فمنْ فعلها كان هو صاحب العقلية الاقتصادية التربوية في الحفاظ على أصل ماله وحله، وطهارة نفسه ونقائها.

ولنعلم أن الزكاة هي الحد الأدنى المفروض من درجات الإنفاق، فمنْ أراد زيادة في التطهير والتزكية فعليه الزيادة من الإنفاق والصدقة، وهو المعيار الرباني الذي أشارت إليه الآية الكريمة:

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (آل عمران، ٩٢)

وفي لمحة تربوية شديدة الوضوح والترغيب، يربط هذا الإنفاق بنوال رباني، ويضعه تحت رقابة ربانية مباشرة.

ولعلنا نلحظ أن الإنفاق والصدقة -بخلاف الزكاة- ليس لها حدٌّ أو سقف تشريعي؛ بل تُرك الباب مفتوحًا أمام المسلم لينفق بلا حدود، وتُرك الأجر كذلك بلا سقف وبلا حدود، وظل الثواب مخفيًا كما في الصيام، فقد منح الله الأمة الخاتمة للنبي الخاتم ﷺ ما لم يمنحه لغيرها، فالحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف، حتى الهمُّ بالسيئة ثم الامتناع والهم بالحسنة والتوقف؛ كل ذلك له -من كرم الله وفضله- أجر.

ويقول الله تعالى في الآية الكريمة:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (التوبة، ١٠٣)





ولا بد من ملاحظة أن الآية الكريمة تشير إلى أن الزكاة والإنفاق تطهِّران العبد من ناحيتين: المالية والقلبية.

ويوجِّه الله تعالى تهديدًا في الآيتين الكريمتين الآتيتين:

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ. يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ (التوبة: ٣٤- ٣٥)

ويحذِّرنا رسول الله ﷺ حين يقول في الحديث:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:

«منْ آتاه الله مالًا، فلم يؤد زكاته مُثِّل له ماله يوم القيامة شجاعًا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة، ثم يأخذ بلهزمتيه -يعني بشدقيه- **ثم يقول أنا مالك أنا كنزك»**، ثم تلا: **﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾**[١٢٧] (آل عمران، ١٨٠)

ومنْ بخل بمال الله على الفقراء من عيال الله لم يسلب هؤلاء المحتاجين حقهم فقط؛ بل حرم نفسه أيضًا من فرصة التحرر من حب المال، وحرم قلبه من وسيلة تطهير وتهذيب.

وقد عاودت الآيات بيان خطر هذه المحبة للمال على قلب صاحبه، وكانت التسمية القرآنية لتلك الحالة أنها «فتنة»؛ إذ يقول الحق تعالى:

﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُم وأَوْلادُكُم فِتْنَةٌ﴾ (التغابن، ١٥)

---

١٢٧ البخاري، الزكاة، ٣؛ الترمذي، التفسير، ٣/ ٣٠١٢.





هذه الفتن في المال والأبناء يمكن للإنسان تفاديها والتحصن ضدها، ليس فقط من خلال الإنفاق والصدقة؛ إنما وسائل التحصن أوسع من ذلك بكثير، ربما تبدأ من دائرة الخلاص من حب الدنيا واجتثاث جذور هذا الحب من أعماق القلب، والدائرة الخاصة بالمال هي إدراك حقيقة أن هذا المال -ومال الدنيا كلها- مجرد أمانة في عنق صاحبها مُلزم بردها، وردُّها هو ثقل يزيحه عن كاهله، وليس جزءًا يقتطع من أملاكه.

أي أن زيادة الإنفاق هي زيادة في التخلص من الأعباء.

والقرآن الكريم يفتح لنا مصراعًا واسعًا لمعاني الإنفاق، فيجعل كل الأخلاق الكريمة مجالاً للتبادل والتباذل والتعاطي والتعامل والعطاء والإنفاق، ويقول الله تعالى في الآية الكريمة:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ (البقرة،٢١٩)

إن الغني الكريم الشكور، والفقير النبيل الصبور هما في مقام الشرف الإنساني والرضا الإلهي، وقد ذمَّ الإسلام الغنيَّ المتكبر الشحيح، والفقير الذي لا صبر عنده ويعصي الله ﷻ.

والزكاة ما هي إلا شكر عملي من صاحب المال والثروة، وزيادة النعم بالشكر هو وعد إلهي، فالله تعالى يقول:

﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (إبراهيم، ٧)

وكان النبي ﷺ يُحبُّ الإنفاق كثيرًا ويحث عليه، ويقول في الحديث القدسي:

«قال الله: أَنفق يا ابن آدم، أُنفق عليك» (البخاري، النفقات، ١)

وفي حديث آخر يقول:





«ثلاثة أُقسِم عليهن وأحدثكم حديثًا فاحفظوه»، قال: «ما نقص مال عبد من صدقة، ولا ظُلِم عبدٌ مظلمةً فصبر عليها إلا زاده الله عزًا، ولا فتح عبدٌ باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر أو كلمة نحوها»[١٢٨].

وكان النبي ﷺ دائمًا يحب أن يكون الكرم طبيعة المسلم الأصلية:

«لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالًا فسُلِّط على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها» (البخاري، العلم، ١٥)

ويوضِّح سيدنا محمد ﷺ الفوائد المعنوية للكرم بمثال من العالم المادي:

عن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ:

«مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثديهما إلى تراقيهما، فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت أو وفرت على جلده، حتى تخفي بنانه وتعفو أثره، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئًا إلا لزقت كل حلقة مكانها، فهو يوسِّعها ولا تتسع»[١٢٩].

ويقول النبي ﷺ أيضًا ليحث على السخاء:

«تجاوزوا للسخي عن ذنبه، فإن الله تعالى يأخذ بيده عند عثرته» (الهيثمي، جـ٦، ٢٨٢؛ قارن: أبو داوود، الحدود، ٥/ ٤٣٧٥)

وخلاصة القول إن فطرة الإنسان الـمُحبة للدنيا وزينتها، الميالة إلى الدنيا وزخرفها، تطمح إلى جمع المال وكَنزه، وكلما ازداد جمع المال ازداد الجشع والحرص والامتناع عن الإنفاق، وتطاولت المماطلة والتأجيل والتسويف،

١٢٨ الترمذي، الزهد، ١٧/ ٢٣٢٥؛ مسلم، البر، ٦٩.

١٢٩ البخاري، الجهاد ٨٩، الزكاة ٢٨؛ مسلم، الزكاة ٦٧-٧٧.





وتباعدت المسافة بينه وبين الناس فقرائهم ومحتاجيهم، ومرضاهم وعانيهم، فتقطعت الأوصال وتبلدت المشاعر، وخبت جذوة الأخلاق.

وأما الإنفاق، فمنْ يفقد الإحساس بالناس، يفقد القدرة على الإنفاق؛ بل يفقد الرغبة في ذلك، ولا يملك من وعود ماله إلا التسويف، وتخاطبه النفس بلغةٍ خدَّاعةٍ قائلة:

«يجب أن تكون غنيًا أكثر، فأنت تستطيع أن تنفق وتعمل الخير في المستقبل!»

وهؤلاء هم الذين ضل سعيهم، ويظل الشحيح طوال عمره جامعا لما يُحاسَب على جمعه، ومُمسِكا لما يُحاسب على إمساكه، ومقتِّرا حتى على نفسه التي أجهدها التقتير والإمساك، والسعي والشح، أولئك هم الذين انطبق عليهم القول المأثور: «هلك المسوِّفون».

ويصف الله ﷻ في الآية الكريمة حال الإنسان الذي أفاق من غيبوبته ساعة الموت وما يخالجه من شعور أبدي بالندامة:

﴿رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (المنافقون، ١٠)

وللإنفاق آداب ومشاعر، فالمنفق عليه أن يشعر بالامتنان تجاه من أخذ ماله وأراحه من ثقله، وتجاه من أخذ صك الدَّين الذي ينوء به كاهله، وتجاه من بسببه يملأ الله صحيفته أجرًا وثوابًا، وتجاه من أخذ المضغة التي هي حظ الشيطان في ماله ونفسه.

يقول الله تعالى مبيِّنًا أهمية تقديم الصدقة للمحتاج بقلبٍ حساس:

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ (التوبة، ١٠٤)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ (البقرة، ٢٦٤)





ويبيِّن الحديث التالي لزوم إعطاء الصدقة بحالة روحانية:

«**إن الصدقة لتقع في يد الله قبل أن تقع في يد السائل، وإن الله ليدفع بها سبعين بابًا من مخازي الدنيا**» (أبو نعيم، الحلية، جـ٤، ٨٥)

إنه المنفق لا يعطي ماله للمحتاج، ولكنه يعطيه ليعتق نفسه من أسر الدنيا، ويعتق قلبه من حَزَن الدنيا، ويشتري بهذا المال السعادة الأبدية، فليكثر منه أو ليقلل.

إن مالك الـمُلك سبحانه وصاحب الخزائن التي لا تنفد قادر على أن يحيل الجبال ذهبًا والرمال تبرًا، وسُحُب السماء منًّا وسلوى، وحصى الأرض حليبًا وعسلاً، وهو سبحانه يفعل ذلك وأكثر، ألا ترى مُزن السماء يسوقها إلى الأرض القاحلة فتحيا ويحيا الناس في خيرها؟! ألا ترى حبات صغيرة ينبِت الله بها من الطين ألوانًا شتى من الطعام والفاكهة رطبًا ويابسًا؟ أليس يملك سبحانه أن يجعل رزق الإنسان وفق إنفاقه وصدقته؟

بلى والله، وهو واقع بالفعل ولكنه يوم القيامة حين يكون كل امرئ في ظل صدقته.

والإنفاق على مخلوقات الله احتسابًا لله، وابتغاءً لمرضاته، وحبًا في ذاته، هو أيضًا لذة يجدها المنفق حين يسهم في إسعاد مخلوقات منْ يحب، والإنعام على موجودات منْ يعشق.

- وأما عبادة «**الحج**» فذات طبيعة خاصة، إذ هي عبادة بدنية ومالية في آن معًا، وطبيعتها الخاصة تعود إلى مناسكها وشعائرها التي تربط الإنسان بالماضي السحيق وعصور الأنبياء المتعاقبة من لدن آدم وإبراهيم وإسماعيل وخاتمهم محمد ﷺ، فمنْ يحج الآن كان ممنْ لبى نداء خليل الله إبراهيم عليه السلام حين أذّن بالحج فسمعته الذريات في أصلاب آبائها وأجابت نداءه.





وكذلك يرتبط الحاج بالغيب المستقبلي يوم القيامة حين يلبس ملابس الإحرام، ويقف على صعيد عرفات، لا يحمل من متاع الدنيا شيئًا، ولا يميزه عن بقية الخلائق شيء إلا ما يفقهه من معاني مناسك الحج؛ تلك المناسك التي ترتقي بالإيمان في القلب إلى أسمى الدرجات، وتربط القلب بالملأ الأعلى، فيدرك تسبيحات السماء التي تتناغم من ترنيمات قلبه المشتاق إلى لقاء ربه، والذي هيجته الذكرى في مشاعر الحج وذكرياته ومناسكه وتلبياته؛ لذا فالحج وسيلة للوصول إلى سر مقولة أهل التصوف:

«موتوا قبل أن تموتوا».

وحقيقة عبادة الحج أنها بوتقة واحدة كبرى ينصهر فيها المسلمون جميعًا بنار العشق وحرارة الوجد، ثم ينهلون جميعًا من تجليات الله تعالى، ويلتحمون جميعًا في حال معنوي واحد فتنفذ إلى روحهم فيوضات ربهم ﷻ.

والحج عبادة يجد فيها الإنسان طمأنينة روحية، ويتصل بجذوره الضاربة في أعماق التاريخ، وهي مظهر روحاني يتطهر فيه القلب حين يرتشف من معين الفيوضات الإلهية.

إن الكعبة المعظمة هي قبلة المؤمنين التي أمر الله تعالى بالتوجه إليها في الصلاة وهدفها الاستقامة حين قال:

﴿**كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ**﴾ (العلق، ١٩)

ومنزلة الكعبة ومكانها في الأرض بمثابة منزلة القلب ومكانه من الإنسان، وكما أن القلب هو مظهر تجليات الحق وفيوضاته، فكذلك الكعبة هي مظهر تجليات الله تعالى على الأرض وفيوضاته على عباده، فالكعبة هي قلب الكون، والحج بذلك هو أشد العبادات حساسية، وأكثرها إلحاحًا في استحضار القلب ومشاعره عند الأداء.





ويقول سلطان العارفين أبو يزيد البسطامي رحمه الله:

«في المرة الأولى التي ذهبت فيها إلى الحج رأيت الكعبة فقط، وفي الثانية رأيت الكعبة وربَّها، أما في الثالثة فقد رأيت رب الكعبة فقط»[١٣٠].

هذا الترقي في درجات الإحساس والصفاء المعنوي، وهذا الاختراق المتواصل لأستار الغيب سترًا وراء ستر، وهذه الرقة والرحمة والمحبة والعشق، كل ذلك يطهر طبيعتك الإنسانية لتصل إلى درجة الملائكة.

ففي الحج يكون المظهر والمخبر متشبهًا بالملائكة في اللباس الأبيض الناصع، وفي اللسان العفيف المنزه عن الرفث والفسوق والجدال[١٣١]، وفي السلوك الرفيق الممتنع عن الصيد الحلال، وفي المعاملة الرقيقة مع كل كائنات الكون حبًا وعشقًا لرب الكون.

وكذلك في الحج يكون المظهر والمخبر متشبهًا بمراحل الموت في الكفن الأبيض، وفي أرض المحشر، وفي المحاسبة الدقيقة لكل جزء من المال المشارك في رحلة الحج، كالمحاسبة الدقيقة لكل عمل يعمله المرء أمام ربه.

وثمة أمر آخر تحذيري هو أنه لا بد للمرء القادر على الذهاب إلى الحج أن يتفكر في هذه الأمور جيدًا، وأن يحذَر بشدة من التراخي أو التقاعس عن الذهاب إلى «الحج» إن توفرت أسبابه، وإلا فإنه سيواجه التحذير الشديد من النبي ﷺ حين قال:

---

١٣٠ الهجويري، كشف المحجوب، ١٣٩٤، مكتبة الإسكندرية، ص٣١٩.

١٣١ انظر: البقرة: ١٩٧. الرفث: هو ما يتعلق بالأمور الجنسية، أي الحديث عن هذا الموضوع أو التكلم بأي نوع من أنواع الكلام البذيء. والفسوق: كل فعل من أفعال الذنب. والجدال: المناقشة والجدل اللذان لا فائدة منهما.





«منْ ملك زادًا وراحلة تبلِّغه إلى بيت الله ولم يحج، فلا عليه أن يموت يهوديًا، أو نصرانيًا، وذلك أن الله يقول في كتابه:

﴿وَلِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾(آل عمران: ٩٧)،» (الترمذي، الحج، ٣/ ٨٢١)

ولم يصف الله تعالى في نهاية الآية أولئكَ الذين يمتنعون عن الذهاب إلى الحج على الرغم من استطاعتهم بقوله «منْ لم يحج» بل قال:

﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران، ٩٧)

إن هذه التحذيرات الإلهية موجَّهة لمنْ يهمل هذه العبادة -رغم توفر جميع شروطها لديه- بسبب غفلته، تحذيرات بأنه سيلقى خسرانًا أليمًا وسيذوق العذاب الإلهي.

وما أفدح خسارة المسلم حين يعرض عن الذهاب إلى الحج الذي يطهر قلبه وينقي من ذنوبه.

ويقول النبي ﷺ في الأحاديث الشريفة:

«منْ أتى هذا البيت، فلم يرفث، ولم يفسق، رجع كما ولدته أمه»

(مسلم، الحج، ٤٣٨)

«تابعوا بين الحج والعمرة، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد، والذهب، والفضة، وليس للحج المبرور ثواب إلا الجنة» (الترمذي، الحج، ٢/ ٨١٠؛ النسائي، المناسك، ٦/ ٢٦٢٩؛ ابن ماجة، المناسك، ٣)

«النفقة في الحج كالنفقة في سبيل الله بسبعمائة ضعف» (أحمد، جـ٥، ٣٥٤-٣٥٥)





ج. إحياء الليل

قدم الكؤوس مترعة بالشراب[١٣٢]

وارو ظمأ العابدين!

وادعُ الله أن يوقف عجلة الزمان

ويطيل ليل الساهرين!

فالنائمون مُفَرِّطون

والهاجعون مُضيِّعون

كنز الليل الثمين...!

خلق اللهُ النهار معاشًا للناس يكابدون فيه الدنيا ومتاعبها، لكنه برحمته سبحانه خلق لهم الليل يسكنون إليه ويهجعون فيه، يغتسلون في بحر الليل من أوضار النهار، ويأوون إلى كنف السماء إذ تطير إليها أرواحهم في هدأة المساء.

فالليل حضن يأوي إليه العابدون كما يأوي الرضيع إلى حضن أمه، يطمئن إليه ويستريح فيه، وينهل منه سر بقائه وحياته فَيَطعم ويشرب، ومن دفئه ينطلق بما يستمده من مشاعر الطمأنينة والسكينة ليتعرف على العالم ويواجه الدنيا من حوله.

وهكذا جعل اللهُ ﷻ النهار معاشًا ينتشر العباد في الأرض يبتغون من فضل الله ﷻ، وجعل الليل لباسًا وسترًا يختلي فيه العابدون بربهم ويحلقون بأرواحهم في عوالمه الرحمانية.

فالليل ميقات الفيوضات، ومحراب أهل الوجد، وتكية العارفين، ومنهل الراغبين، ومطمع الداعين، وملاذ القائمين الخائفين، وسكن العابدين.

---

١٣٢ شراب المحبة والعشق الإلهي





ويقول الله تعالى في هؤلاء:

﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ. فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (السجدة، ١٦-١٧)

وقد فسَّر سيدنا رسول الله ﷺ هذه الآية في الحديث القدسي:

«**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**» (البخاري، بدء الخلق، ٨؛ التفسير، ٣٢/ ١؛ التوحيد، ٣٥؛ مسلم، الجنة، ٢-٥)

ويقول الله تعالى في آية أخرى:

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلا﴾ (الإنسان، ٢٦)

ولا يمكننا هنا أن نجلّي للقارئ قيمة الليل، ولا أن نرصد كنوزه أو نَصِف جواهره، فذلك ما لا يعلمه العباد ولا يدركه البشر، ولا يحيطه علم الآدميين، ففيه من الأسرار والأنوار والإمدادات ما لا يُحصى، ويكفينا هنا أن نذكِّر أولي الألباب أن الحق ﷻ أشار إليه في القرآن الكريم في أكثر من موضع؛ بل أقسم به، والعظيم سبحانه لا يقسم إلا بعظيم، ورب الأسرار لا يقسم إلا بأحد مستودعات الأسرار.

إن قسم الله تعالى بالليل في آيات ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ (الانشقاق، ١٧) ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ (الضحى، ٢) ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ (التكوير، ١٧) هو تذكرة إلهية لنا كي ندرك ونلتفت بقلوبنا إلى الحقائق العظيمة المكنوزة فيه.

وثمة إشارة نبوية كبرى تلقي الضوء على كنز لا يفنى ومعين لا ينضب من عظمة الليل، إنها أعظم بشارة لقلوب العاشقين وأجزل عطاء للسائلين، وأصدق بشارة للخاطئين المذنبين القانطين.





جاء في الحديث: «**ينزل ربُّنا تبارك وتعالى كلَّ ليلة إلى السماء الدنيا، حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: مَنْ يدعوني فأستجيب له، مَنْ يسألني فأعطيه، مَنْ يستغفرني فأغفر له**» (البخاري، التوحيد، ٣٥؛ التهجد، ١٤؛ الدعوة، ١٣؛ مسلم، المسافرين، ١٦٨)

ويقول أولياء الله تعالى:

«إن إحياء الليالي هو الملك والسلطنة الحقيقية المشار إليها بقوله تعالى: ﴿**اللّٰهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ**﴾ (آل عمران، ٢٦)»[١٣٣].

فيعطينا المولى سبحانه لمحات من تلك السلطة الاعتبارية، والسلطنة المعنوية، إنها بدائع الكون التي خلقها الله تعالى لك، بها تعتبر وتتعظ وتستمتع وتُشبع مشاعرك وتُحيي قلبك.

ففي وقت السحر يبدأ الكون فصلًا جديدًا من حياته؛ حيث الصبح يتنفس، والطيور تغدو متوكلة على ربها لتلتمس رزقها، والكائنات تستيقظ من نومها وتتهيأ لتبدو في أبهى حلة وأجمل حال وأروع مآل، وبعد ذلك كله هل من غافل -مهما غفل- أن يفوِّت روعة هذه اللحظات؟ وكرم مانح تلك الهبات؟!

والخلاصة أن الله تعالى يدعونا إلى الاستيقاظ في الأسحار:

﴿**وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ**﴾ (آل عمران، ١٧)، ومن يستجب لهذه الدعوة يلق من الله تعالى الثناء والبشارة معًا.

ويقول أبو يزيد البسطامي: «لم يُفتح لي شيءٌ إلا بعد أن أيقظت ليلي حتى صار نهارًا» (البورصوي، روح البيان، جـ١، ٤٠١)

ويقول الحسن البصري رحمه الله:

«إن العبد ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل»

---

١٣٣ الخادمي، مجموعة الرسائل (رسالة الوصية والنصيحة)، ص١٩٤.





ويقول إبراهيم بن أدهم:

«لا تعصه بالنهار وهو يُقيمك بين يديه في الليل»

وكان الشيخ سيف الدين رَحِمَهُ اللَّهُ يكثر من الصلاة في الليل، ويختم القرآن في ركعتين، وحين يأتي الصباح يقول:

«يا رب إني لا أشبع من عطائك، يا رب كم هو قصير هذا الليل!»

تلك بعض من بشارات الليل وأسراره، فقد كانت هذه الليالي زاد أبي يزيد البسطامي، فكانت الفتوحات التي ما زلنا ننهل من أسرارها.

وكانت هذه الليالي موعد إبراهيم بن أدهم مع ربه وحبيبه وسيده الذي ينتظر طوال النهار لقاءه بشوق، فيكون ذلك عصمته من المعصية.

وكانت هذه الليالي حديث الشيخ سيف الدين مع ربه وصلته مع مولاه ومتعته المعنوية التي لا تنتهي؛ حتى ليود أن يكون اليوم كله ليلاً، فهل بوسعه أن يضيع من الليل لحظة؟

لكن عطاء الليل ومنحه وفتوحاته تحتاج إلى إعداد واستعداد لها منذ بداية النهار، فالمعصية بالنهار حجاب بالليل، والذنوب بالنهار غشاء على البصر والبصيرة، فمن عصى الله تعالى بالنهار حُرم من إحياء الليل، وغاب نبض الحياة عن فؤاده كما يعلمنا الحسن البصري.

ويعبِّر مولانا جلال الدين الرومي بهذه الأبيات في «الديوان الكبير» عن حالة العشق والوجد التي كان يعيشها في الليالي:

يا ساقي املأ القدح[١٣٤] بالعشق الإلهي

واعطِ السكران شرابًا لا خبزًا

---

١٣٤ القدح هنا له معنى مجازي أي القلب.





قدِّم الكوثر واروِ به القلوب العطشى

فالسابح في البحر لا يريد سوى الماء

املأ القدح بالشراب ثم قدمه

يا رب أوقف الليل واجعله يطول

واربط نومي بالسلاسل كي لا يمر الوقت

فالنائمون لا يدركون قيمة الليل

ويقول المولى تعالى في قيام الليل والأسحار واصفًا عباده المحظوظين الذين نالوا فيوضاته ونعمه الإلهية إذ كانوا يحذرون من غضبه ﷻ:

﴿**كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ. وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾ (الذاريات، ١٧-١٨)

﴿**وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا**﴾ (الفرقان، ٦٤)

ويقول الله تعالى في آية كريمة أخرى:

﴿**الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ. وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ**﴾ (الشعراء، ٢١٨-٢١٩)

ويقول القاضي البيضاوي في تفسير هذه الآية:

«لما نسخ قيام فرض الليل طاف النبي ﷺ تلك الليلة ببيوت أصحابه لينظر ما يصنعون حرصًا على كثرة طاعاتهم، فوجدها كبيوت الزنابير لما سمع بها من دندنتهم بذكر الله وتلاوة القرآن» (أنوار التنزيل، جـ٤، ١١١)

وللأسحار قيمة لا تبلغها ولا تدنو منها أيٌ من الأوقات الأخرى؛ إذ يصعب القيام فيها، وتشق على النفس العبادة فيها، فلا يلجأ إليها إلا أهل التعظيم والتوقير والمحبة الخالصة لجلاله سبحانه لأن هذه المحبة هي الحافز الأساسي لإحياء الليل والاستغفار بالأسحار والهيام بالأذكار والخلوة مع المولى سبحانه، والدنو من مجلس غفرانه، والدخول في زمرة محبيه لنوال فيوضاته ومعرفته.





فإن أدرك المؤمن قيمة الليل، وعرف قدر الأسحار، ونال من فضل العبادة فيهما، وذاق من روحانية الوصال، صار ليلُه ذاك أضوأ من نهاره، وصارت ظلمة ليله أسطع من شموس نهاره. لكنه إذا استسلم لغفواته، وأماتت قلبه غفلاتُه، وأَسَرته مناماتُه، فوَّت على نفسه التحرر من نير مشقة النهار ومرارة الدنيا، كالأرض التي تهدر قطرات الأمطار، فلا هي تنبت الكلأ ولا هي تحفظ الماء.

وكان من نصائح أم سليمان عليه السلام أن قالت له: «يا بُني لا تُكثر النوم بالليل، فإن كثرة النوم بالليل تترك الرجل فقيرًا يوم القيامة» (ابن ماجة، إقامة الصلاة، ١٧٤)

والنوم موت حقيقي، وقبره الليل، فإذا ما نوَّرتَ قبرك بالذكر، وآنست وحشته بالعبادة، وجعلت وداعك للدنيا لحظات المعية مع الله عز وجل؛ حينها لا يكون النوم موتًا إنما عرس أخروي، واحتفال سماوي.

وينقل لنا عبد الله بن عمرو بن العاص التنبيه الذي وجهه رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه:

«**يا عبد الله، لا تكن مثل فلان، كان يقوم الليل فترك قيام الليل**» (البخاري، التهجد، ١٩؛ مسلم، الصيام، ١٨٥)

ويخاطب النبي الكريم صلى الله عليه وسلم أصحابه الكرام قائلاً لهم:

«**عليكم بقيام الليل، فإنه دأب الصالحين قبلكم، وإنَّ قيام الليل قربةٌ إلى الله، ومنهاةٌ عن الإثم، وتكفيرٌ للسيئات، ومطردةٌ للداء عن الجسد**» (الترمذي، الدعوات، ١٠١)

ومن نافلة القول أن نذكر ما اكتشفه الطب الحديث من الأهمية البيولوجية لذلك العمل السيكولوجي، فقيام بعض الليل وعدم الاستسلام الكامل للنوم هو صنيع صحي له فوائد عظيمة للبدن؛ ناهيك عن فوائده الأعظم للروح والقلب.

ويحدثنا الطب عن قيام الليل فيقول: إن مَنْ يستيقظ بعد نوم طويل تجده يعاني من آلام في الرأس، وهذا نتيجة تباطؤ عملية الشهيق والزفير أثناء النوم، وعدم تزويد الدماغ بالمقدار الكافي من الأكسجين، أما مَنْ يقسِّم نومه فإنه





يستيقظ نشيطًا حتى لو كان نومه لمدة قصيرة، وذلك لأنه عاد إلى عملية الشهيق والزفير الطبيعية، وأخذ الكثير من الأكسجين حين قام من نومه.

ومن ناحية أخرى نجد أن الذين يموتون وخاصة الكبار في السن تقع حالات وفاتهم في الصباح في أغلب الأوقات، لهذا يُطلق الأطباء اسم «ساعة الموت» على «وقت السحر»، والسبب هو تباطؤ عمل القلب في أعمق ساعات النوم، فمَنْ يستيقظ في هذه الساعة ويتوضأ بماء بارد، يُعيد وظائف جسده كلها إلى حالاتها الطبيعية.

وإن كان هدفنا هنا إنما هو التذكير بالفوائد الأخروية والروحانية لقيام الليل، لكن أوامر الدين ونواهيه تحمل من الفوائد الدنيوية والأخروية ما يجذب أهل الدنيا وأهل الآخرة، وفيها ما يحمل الترغيب والترهيب، ومنافع البدن والروح، وغنائم المال والقلب، فكل العبادات لا تزال تكشف عن أسرارها، وتمد العلم باكتشافات ومعجزات تجعل من تفاصيل ودقائق السُنن النبوية حياة نموذجية للمؤمن العابد والإنسان العادي، وكلٌ يعمل على شاكلته، وينال من كنوز أوامر ربه ما يرضي بدنه أو يرضي روحه.

ح. ذكر الله ومراقبته

﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد، ٢٨)

يرى كثير من اللغويين أن كلمة «إنسان» هي اشتقاق من كلمة «نسيان»، ولعل لهذا الرأي وجاهته المنطقية وسنده الواقعي، فالآفة الكبرى للإنسان هي النسيان، وهي أكبر نقاط ضعفه وأسباب هلاكه.

والطريق الأنجع للقضاء على هذه الآفة إنما هو الذكر.

كما أن الإنسان إذا عاد إلى أصل خلقته وإلى حديث ربه إليه وإلى كل العباد عندما كانوا في عالم الذر حين قال لهم المولى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ فنطق الناس في عالم الذر بالحقيقة الأزلية، وأقروا بالعبودية لربوبيته سبحانه.





فإذا عاد الإنسان إلى إقراره الذي أقر به، عندها يدرك الغاية التي خُلق من أجلها، والطريق الذي ينبغي أن يسير فيه، ويحيا وفيًا للعهد الذي قطعه لربه والميثاق الذي أخذه على نفسه، فلا ينسى خالقه أبدًا، ولا يزيغ قلبه أو يضلُّ إدراكه عن ربه؛ فيعيش على فطرته، ولا تهلكه آفته أو يضيعه النسيان، فهذا التذكر للعهد والميثاق هو الذكر.

ويعتمد الذكر على التكرار الذي يقوي الفهم، ويرسخ المعنى ليستقر في الذاكرة كما استقر في اللسان.

لكن الاعتماد الأكبر في الذكر ليس على ترداد الكلمات باللسان إنما على استقرار المعنى في القلب وانشغال الروح به، فالله سبحانه لا ينظر إلى صورنا وأجسادنا وإنما ينظر إلى قلوبنا، فالقلب هو محل التجليات الإلهية، فينبغي حمايته من الغفلة والنسيان وتحصينه وتزيينه بالذكر.

وثمة دلالة عميقة في القرآن الكريم على كثرة ورود كلمة «الذكر»، فقد تكررت في أكثر من مئتين وخمسين موضعًا، ولعل في ذلك تأكيدًا على مدى أهمية الذكر، وعمق أثره على العبادة، وترسيخ العبودية في النفس.

ويصل العبد إلى حقيقة العبودية أكثر فأكثر كلما تعمق في معنى الذكر؛ فكلما ترسخ الذكر في قلبه وتعمق في مشاعره كانت معرفتُه لله أعمق، ولذلك كان الذكر مناط عبادة القلب، فمعرفة الله تعالى هي أرقى المعارف وأعظم العلوم وأنفعها للإنسان.

وقد أنزل الله تعالى آياتٍ في هذا الخصوص كي لا يغفل عبادُه عن روحانية الذكر، إذ يقول المولى تعالى:

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ (الحديد، ١٦)

﴿وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾ (العنكبوت، ٤٥)

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ (البقرة، ١٥٢)





وحتى حين أرسل الله تعالى موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون، أمرهما بألا يغفلا عن ذكره:

﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ (طه، ٤٢)

ولَكم هو خسران كبير أن يذكر اللهَ تعالى كلُّ ما في الكون في حين يغفل الإنسان عن ذكره وهو أشرف المخلوقات،

يقول الله تعالى:

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (الإسراء، ٤٤)

ولا ريب أن ذكر الله لا يقتصر على لفظ كلمة «الله» وتكرارها على اللسان، بل لا بُدَّ أن تجد هذه الكلمة وقعها في القلب الذي يشكل مركز الإحساس، يقول نبينا محمد ﷺ:

«مثل الذي يذكر ربَّه والذي لا يذكر ربه، مثل الحي والميت» (البخاري، الدعوات، ٦٦)

«علامة حبِّ الله تعالى حب ذكر الله» (السيوطي، الجامع الصغير، جـ٢، ٥٢)

وعن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ:

«الذين يذكرون من جلال الله من تسبيحه وتحميده وتكبيره وتهليله يتعاطفن حول العرش لهن دويٌّ كدوي النحل يذكرون بصاحبهن، ألا يحب أحدكم أن لا يزال له عند الله شيء يذكر به»[١٣٥]

وقال أبو هريرة: عن النبي ﷺ:

«قال الله تعالى: أنا مع عبدي حيثما ذكرني وتحركت بي شفتاه» (البخاري، التوحيد، ٤٣)

١٣٥ أحمد، جـ٤، ٢٦٨؛ ابن أبي شيبة، مصنف، جـ٧، ١٦٨/ ٣٥٠٣٧؛ الحاكم، جـ١، ٦٧٨/ ١٨٤١. قارن: ابن ماجه، الأدب، ٥٦.





إن البعيدين عن الذكر بعيدون عن محبة الله تعالى، وهم تحت التهديد الإلهي الوارد في الآية الكريمة:

﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ﴾ (الزمر، ٢٢)

ويبيِّن الله تعالى لزوم البقاء في حالة ذكر دائمٍ كي ينجو العبد من التهديد السابق بقوله:

﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (الأعراف، ٢٠٥)

ويقول الله تعالى أيضًا موضِّحًا خطر البعد عن ذكر الله:

﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ. وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ. حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ (الزخرف، ٣٦-٣٨)

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى. قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا. قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ (طه، ١٢٤-١٢٦)

ويقول سيدنا محمد ﷺ:

«مَنْ قعد مقعدًا لم يذكر الله فيه كانت عليه من الله تِرة، ومَنْ اضطجع مضجعًا، لا يذكر الله فيه كانت عليه من الله تِرة» (أبو داوود، الأدب، ٢٥/ ٤٨٥٦)

«ما من قوم يقومون من مجلس لا يذكرون الله فيه، إلا قاموا عن مثل جيفة حمار وكان لهم حسرة» (أبو داوود، الأدب، ٢٥/ ٤٨٥٥، ٩٧-٩٨/ ٥٠٥٩. قارن: أحمد، جـ٢، ٤٣٢)





إن الخصال والأخلاق الحميدة مخصوصة بمَنْ يخاف الحق تعالى ويحبه ويذكره كثيرًا، يقول نبينا الأكرم ﷺ في فضيلة الذكر ومجالس الذكر في الحديث القدسي:

«**يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملإٍ ذكرته في ملإٍ خير منهم**» (البخاري، التوحيد، ١٥)

وخاطب النبي ﷺ أصحابه الكرام يومًا قائلاً:

«**ألا أنبِّئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخيرٍ لكم من إنفاق الذهب والوَرِق، وخيرٍ لكم من أن تلقَوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟**»

قالوا: بلى.

قال: «**ذكر الله تعالى**» (الترمذي، الدعوات، ٦)

وكان الرسول ﷺ يعلِّم أصحابه الكرام الذكر على سبيل التربية القلبية حسب استعدادهم، وحواره مع أم هانئ خير مثال على ذلك:

فعن أم هانئ رضي الله عنها قالت: أتيت إلى رسول الله ﷺ، فقلت:

يا رسول الله، دلَّني على عمل فإني قد كبرت وضعفت وبدنت، فقال ﷺ:

«**كبِّري اللهَ مئة مرة، واحمدي الله مئة مرة، وسبحي الله مئة مرة خيرٌ من مئة فرس ملجم مسرج في سبيل الله، وخير من مئة بدنة، وخير من مئة رقبة**» (ابن ماجة، الأدب، ٥٦؛ أحمد بن حنبل، مسند، جـ٤، ٣٤٤)

وكما أن للذكر عظيمُ الأثر في الأسحار وفي الخلوات مع الله تعالى، كذلك له أجر عظيم حين يكون في جماعة، فقد خرج معاوية على حلقة في المسجد، فقال: ما أجلسَكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله، قال آلله ما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك، قال: أما إني لم أستحلفكم تهمةً لكم، وما كان أحد





بمنزلتي من رسول الله ﷺ أقلَّ عنه حديثًا مني، وإنَّ رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه، فقال:

«ما أجلسكم؟»

قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام، ومَنَّ به علينا، قال:

«آلله ما أجلسكم إلا ذاك؟»

قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك، قال:

«أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، ولكنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله ﷻ يباهي بكم الملائكة» (مسلم، الذكر، ٤٠)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنَّ لله ملائكةً يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قومًا يذكرون الله تنادوا: هلموا إلى حاجتكم» قال: **«فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا»** (البخاري، الدعوات، ٦٦)

وعن سلمان الفارسي رضي الله عنه، قال: كان سلمان في عصابة يذكرون الله ﷻ، فمر بهم رسولُ الله ﷺ فجاءهم قاصدًا حتى دنا منهم فكفوا عن الحديث إعظامًا لرسول الله ﷺ، فقال:

«ما كنتم تقولون؟ فإني رأيت الرحمة تنزل عليكم، فأحببت أن أشارككم فيها» (الحاكم، المستدرك، جـ١، ٢٠١/ ٤١٩؛ أبو نعيم، الحلية، جـ١، ٣٤٢)

ولِذكر كلمة التوحيد في جماعة أهمية خاصة بين الأذكار، إذ يروي شداد بن أوس رضي الله عنه الحادثة الآتية:

كنا عند النبي ﷺ، فقال ﷺ: **«هل فيكم غريب؟»** يعني أهل الكتاب فقلنا: لا يا رسول الله، فأمر بغلق الباب، وقال: **«ارفعوا أيديكم وقولوا لا إله إلا الله»** فرفعنا أيدينا ساعة، ثم وضع رسول الله ﷺ يده، ثم قال:





«الحمد لله، اللّهم بعثتني بهذه الكلمة، وأمرتني بها، ووعدتني عليها الجنة، وإنك لا تخلف الميعاد» ثم قال: **«أبشروا فإن الله ﷻ قد غفر لكم»** (أحمد بن حنبل، مسند، جـ٤، ١٢٤)

ويقول سيدنا محمد ﷺ عن كلمة التوحيد في حديث آخر:

«إن لا إله إلا الله كلمة على الله كريمة، لها عند الله مكان، وهي كلمة مَنْ قالها صادقًا أدخله الله بها الجنة، ومَنْ قالها كاذبًا حقنت دمه وأحرزت ماله، ولقي الله غدًا فحاسبه» (الهيثمي، مجمع الزوائد، جـ١، ٢٦)

والذكر دواء يتناوله المؤمن بلسانه ليمرره إلى قلبه، فإذا تغافل اللسان عن المداومة على الدواء تكاثرت على قلبه الأرزاء.

والذكر كذلك هو الحارس الأمين على قلبك ولسانك، وهو ميزان مراقبتك لله، يقول النبي ﷺ:

«لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوةٌ للقلب، وإنَّ أبعد الناس من الله القلب القاسي» (الترمذي، الزهد، ٦٢)

وإذا كان الذكر قد أورده القرآن الكريم في ٢٥٠ موضعًا كما أسلفنا، فكذلك السُنة النبوية الشريفة قد استفاضت أحاديثها حول الذكر وفضله وأثره وفيوضاته، والمحروم هو من حرم نفسه من نعمة الذكر بعدما علم عقباها في الدنيا والآخرة.

وكان الصحابة الكرام ﷺ يعطون أهمية كبيرة للذكر، فعن أبي سعيد مولى الأنصار قال:

«كان عمر لا يدع سامرًا بعد العشاء يقول: ارجعوا لعل الله يرزقكم صلاة أو تهجدًا، فانتهى إلينا، وأنا قاعد مع ابن مسعود وأُبيِّ بن كعب وأبي ذر، فقال: ما يُقعدُكم؟ قلنا: أردنا أن نذكر الله، فقعد معهم» (الطحاوي، شرح معاني الآثار، جـ٤، ٣٣٠)

والذكر يحتاج إلى المداومة، كما يحتاج إلى الاستغراق، حتى يشغلك عما سواه.





يقول الشيخ عبد الله الدهلوي:

«عليكم بكثرة الذكر، فلولاه لما استيقظ القلب وما وعى، فالإنسان دائمًا مفتقر إلى ربه، ومحتاج إلى مولاه، ولحظة من الغفلة هي دهر من الذنوب، ولا وقت لنضيعه في الغفلات، أو ننتقصه من أعمارنا القصيرات، فلنداوم الذكر في الخلوات والجلوات، في الليل والنهار، وليكن جسدك مع الناس وقلبك مع ربك، مستعدًا دائمًا لتلقى فيوضاته التي تأتي بغتة، فتستقبلها القلوب الواعية والأرواح الصافية والأفئدة الذاكرة»[١٣٦].

ويحثنا محمد أسعد أربيلي على الذكر بصورة أدق وأعمق، فيقول:

«أدعو الله أن يرزقكم قلوبًا مبصرة، وأفئدة مستبصرة، وذرات ذاكرة، ينضح الذكر من خلاياها، كما يفوح الرحيق من الزهور، والأريج من العطور... آمين».

«وأدعو الله أن ألقاه بقلب ذاكر سليم من الدنيا، معافى من رغباتها؛ غير مفتون بشهواتها، مكللاً بتاج الشريعة، متوجًا بشرف السُّنَّة، وحالي معه سبحانه هو الذكر الدائم، وحاله معي المعية التي لا تنقطع....»[١٣٧].

«من الضروري على كل متوجه إلى الحق تعالى أن يعوِّد لطائفه كلها على الذكر لأن هذه اللطائف كلها بحاجة إلى تطهير، فكما أنه من الضروري على الإنسان أن يغسل كل جزء من بدنه وكلَّ نقطة أثناء الغسل، فكذلك الحال مع مَنْ يريد تطهير قلبه، إذ يجب عليه أن يذكر الله تعالى بكل لطائفه وبكل ذرة من ذرات بدنه»[١٣٨].

---

١٣٦ عبد الله دهلوي، المكاتيب الشريفة، ص١٣٥، رقم: ٩٠.

١٣٧ محمد أسعد أفندي، المكتوبات، ص١٠٠، رقم: ٦٩.

١٣٨ محمد أسعد أفندي، المكتوبات، ص١٤٠، رقم: ١١٢.





وبقدر ما تشتعل نار المحبة في قلبك تستحضر ذكراه وتنشغل بذكره ولا يشغل قلبك سواه، فذكر الله ﷻ يزيد حلاوة الإيمان في قلوب عباد الله العاشقين لجلاله وجماله كما يزيد محبتهم له سبحانه، ومع أن رغبات النفس وشهوات البدن تنقضي بمجرد إشباعها إلا أن رغبات الروح تزداد إذا أشبعتها، ومحبة الله تزداد كلما ذكرته، وكأنها النار كلما ألقمتها شيئًا تزداد لهيبًا واضطرامًا.

هؤلاء الذاكرون العاشقون الذين ملأ ذكر الله ﷻ عليهم دنياهم يصفهم القرآن الكريم قائلاً:

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران: ١٩١)

فالذكر هو الطريق الذي يسير فيه الإيمان متزايدًا، وتحيا فيه القلوب مطمئنة، وهو القطار الذي يمر بك في مسيرك على محطات الألطاف الإلهية، ويجتاز رياض الروحانية، ويصل في النهاية إلى الحق سبحانه؛ لأنه عاش طوال حياته في ذكره وعلى طريقه، فالإنسان يموت على الحال التي عاش عليها في دنياه، ويُحشر على ما مات عليه، يقول النبي ﷺ:

«**يُبعث كل عبد على ما مات عليه**» (مسلم، الجنة، ٨٣)

ثم يدرك الحقيقة الأزلية، ويعرف إجابة السؤال الأبدي الذي كان -وما زال- يحير البشرية، وهو مناط فلسفاتهم، حينها يُشبع الإنسانُ توقه إلى المعرفة، ويطمئن قلبُه إلى العلم، وتركن روحه إلى محبة الله سبحانه.

وهو ما تعبر عنه الآية القرآنية القائلة:

﴿أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد، ٢٨)





خ. محبة الرسول ﷺ والصلاة عليه

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب، ٥٦)

يرتد البصر البشري خاسئًا وهو حسير إذا ما نظر إلى نور الشمس، وكل أقداح الدنيا لا تكفي إذا ما حاولنا أن نسكب فيها مياه البحار، فما بالنا بالعقل البشري العادي الذي يحاول استيعاب الحقيقة النبوية، وما بالنا بالبصر البشري العادي الذي يحاول رؤية واستبصار حقيقة النور المحمدي، إن أدوات الإدراك التي يمتلكها البشر لا تملك القدرة على استكناه واستيعاب هذه الكينونة النبوية المباركة على حقيقتها الكاملة.

ويقول الله تعالى في الآية الكريمة موضحًّا هذه الحقيقة:

﴿إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب، ٥٦)

إن الصلاة والسلام على سيد الكائنات واجب بمقتضى الأمر الإلهي الوارد في الآية الكريمة، وهذه من الآداب التي حثنا عليها المولى ﷻ، وأمر بها الأمة كلها تجاه النبي ﷺ. بل إنه من مقتضيات الإيمان ومن أساسيات الإسلام السعيُ الدائم للتخلق بأخلاقه الكريمة ﷺ، والتأسي بسيرته العطرة، وتتبع آثاره وسننه الشريفة، وترسيخ محبته ﷺ بالقلوب.

فهذا النبي الكريم هو الذي «يصلي ويسلم» عليه الحق ﷻ مع ملائكته الذين لا يُحصون، فيقول الله تعالى في الآية الكريمة:

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (آل عمران، ٣١)





تبدأ المشاعر الأولى في محبة النبي ﷺ بخشية الله تعالى، والتأدب في حضرته، والاستشعار الدائم لمعيته سبحانه، ثم تخليص النفس من شهواتها وآفاتها رغبة فيما عند الله تعالى، وحرصاً على نيل محبة نبي الله، إذ هو الطاقة الكبرى الدافعة في الاقتداء والتأسي بشخصيته العظيمة ﷺ.

وفي هذه الأمة المحمدية هناك أناس من «أهل القلوب»، وهؤلاء هم الذين حققوا في مشاعرهم معاني محبته والتأسي به ﷺ، حتى بلغت محبتُهم مرحلة الفناء فيه ﷺ، وهم يقدمون لنا نماذج حية وواقعية من هذه المحبة.

لقد استطاع هؤلاء أن يصلوا إلى نبع المحبة، فقد أحبوا الله تعالى حق المحبة، وأحبوا رسول الله ﷺ حق المحبة، فصاروا هم أيضًا أهلاً لمحبة الخلق إلى قيام الساعة، وحبنا لهم حبًا عمليًا يكون في تذكرهم والترضي عليهم، والدعاء لهم والاقتداء بهم.

فإذا ما تساءلنا عن كيفية وصولهم إلى هذه المنزلة والمحبة، نورد لك نموذجين وقصتين من حياة هؤلاء الأفذاذ.

أرسل رسول الله ﷺ إلى القبائل المحيطة به معلِّمين كي ينشروا الدين المبين ويعلموه، لكن بعضًا من هؤلاء المعلمين تعرضوا للغدر من بعض هذه القبائل، وهذا ما تحقق في وقعة الرجيع.

فقد أرادت كلٌّ من قبيلتي «عضل» و«قارة» من رسول الله ﷺ معلمين كي يعلِّموهم الإسلام، فأرسل الرسول ﷺ وفدًا من عشرة رجال، وحين وصلت هذه القافلة إلى موقع الرجيع، وقعت في المكيدة، فاستُشهد منهم ثمانية، بينما سُلِّم اثنان منهم إلى مشركي مكة.

وكان الأسيران الصحابيَّين زيدًا بن الدثنة وخبيبًا بن عدي رضي الله عنهما، واستُشهدا على يد كفار مكة، وكانوا قد سألوا زيدًا قبل أن يصلبوه:





«أيَسرُّكَ أن محمدًا في أيدينا مكانك وأنت في بيتك؟»

فأجاب زيد ﷺ: «والله ما يسرني أن محمدًا أُشيكَ بشوكة وأني في بيتي!»

فما كان لأبي سفيان بعدما رأى من هذه المحبة إلا أن يقول:

«ما رأينا أصحاب رجل قط أشدَّ حبًا من أصحاب محمد لمحمد».

ثم ذهبوا إلى خبيب ﷺ، وقالوا له: «ارجع عن الإسلام، نُخلِ سبيلك!»

فقال: «لا والله ما أحب أني رجعت عن الإسلام وأن لي ما في الأرض جميعًا!»

وسألوه ما سألوا زيدًا ﷺ فكان جواب خبيب مثل جواب زيد.

وقبل استشهاد خبيب كان له طلب واحد فقط وهو: «السلام على سيدنا محمد ﷺ!..»

لكن لم يكن عنده منْ يرسل سلامه هذا للنبي، فرفع عينيه بحزن إلى السماء ودعا قائلاً:

«اللّهم إني لا أرى إلا وجه عدو، اللهم إنه ليس ها هنا أحدٌ يبلغ رسولك السلام عني، فبلِّغه أنت عني السلام!»

وفي ذلك الحين كان رسول الله ﷺ جالسًا مع أصحابه، فأخذه كما كان يأخذه إذا أنزل عليه الوحي. ثم قال: «**وعليه السلام ورحمة الله**»، ثم قال: «**هذا جبريل يُقرئني من خبيب السلام**».

وكانت النهاية أن استشهد الصحابيَّان قتلا بعد التعذيب الشديد، وكان ممَّا قاله خبيب ﷺ من كلام عظيم حين استشهد:

« فلست أبالي حين أُقتل مسلمًا ... على أي جنب كان في الله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزع!»[١٣٩]

---

١٣٩ انظر: البخاري، المغازي، ١٠؛ الواقدي، مغازي، جـ١، ٣٦٠-٣٦٢؛ ابن سعد، جـ٢، ٥٦.





إذًا، هكذا كان إيمان الصحابي وعشقه وجسارته!.. وفي الوقت الذي يروعنا مثل هذا التعذيب، لم يكن محبُّو الله ورسوله ليشعروا بأي هول أو ذعر أمام مثل هذه المشاهد أبدًا، إذ كان جلُّ همِّهم هو تنفيذَ أمر وسُنة رسول الله ﷺ، وكان سلامهم يصل إلى مكانه بإخلاصهم ومحبتهم، وفوق ذلك كلِّه كان الذي يوصل السلام هو رب العباد جلَّ وعلا.

ولَكم هو معبِّر المثال التالي الذي يظهر اشتياق الصحابة للنبي ﷺ ومحبتهم له:

جاء عبد الله بن زيد الأنصاري رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ وقال له:

«يا رسول الله! أنت أحبُّ إلي من نفسي ومالي وأولادي وأهلي. ولولا نعمة رؤيتك لما أردت إلا الموت»، ثم بكى.

فسأله النبي ﷺ: **«ما يبكيك يا عبد الله؟»**

فأجاب: «يا رسول الله، إذا مُتَّ كنت في عليِّين لا نراك ولا نجتمع بك».

فسكت رسول الرحمة ﷺ، وفي تلك الأثناء نزلت عليه الآية الكريمة:

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ (النساء، ٦٩)

وبينما كان عبد الله بن زيد الأنصاري رضي الله عنه يعمل في أرضه، أتاه ابنه منقطع الأنفاس ليخبره بكل أسى وفاة رسول الله ﷺ، فلما سمع الأنصاري هذا الخبر دعا قائلاً:

«اللَّهم أعمني فلا أرى شيئًا بعد حبيبي حتى ألقى حبيبي، فعمي مكانه»[١٤٠]

وعن القاسم بن محمد أن رجلاً من أصحاب محمد ﷺ ذهب بصره فعادُوه، فلم يكن عليه هم أو غم من فقدان عينيه، وكان يقول لمنْ يواسيه:

---

١٤٠ انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، جـ٥، ٢٧١.





«كنت أريدهما لأنظر إلى النبي ﷺ، فأما إذ قُبِض النبي ﷺ فوالله ما يسرني أنَّ ما بهما بظبي من ظباء تبالة». (البخاري، الأدب المفرد، ٥٣٣؛ ابن سعد، جـ٢، ٣١٣)

ذلك الحب الذي صار عشقًا، لا تغيره الظروف، ولا تبدله الأحوال؛ يسري بين القلوب بلا انقطاع كما تسري الجاذبية بين الأقمار والكواكب، لا ينفرط عقدها إلا بأمر إلهي جليل. يقول الله في الآية الكريمة:

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (النور، ٥٦)

ومن منطلق مقولة «إن المحبَّ لمنْ يحب مطيع»، نرى أن اتِّباع الأسوة الحسنة في كل الأمور هو شرط لازم، ولهذا فإن العشق والمحبة والاتباع في هذا المجال هي العمود الفقري لمحبة الله تعالى.

إن الشهادة التي هي من أسس الإسلام ومقتضيات الإيمان، تجد فيها كلمة «محمد رسول الله»، دائمًا تتبع كلمة «لا إله إلا الله»، فهما على الدوام متلازمتان متتاليتان لا تنفصلان، يرددهما العبد قولاً وعملاً واعتقادًا، فمع كل كلمة توحيد، وكل صلاة على النبي ﷺ تكون خطوة يخطوها نحو ربه، يقترب منه سبحانه، ويغرس غرسًا جديدًا في جنة محبته، ويفتح آفاقًا جديدة في مدارك بصيرته، يرتادها بفتوحات معنوية، وتجليات ربانية، وفيوضات إلهية، وحيها وجبريلها هو محبة الرسول ﷺ.

والكون كله ما هو إلا تجلٍّ للمحبة الإلهية، وجوهر هذا التجلي هو «النور المحمدي»، والطريق الوحيد للوصال مع الله تعالى هو بمحبة نبيه ﷺ.

إن الروحانية في العبادات، واللباقة في المعاملات، والتأدب في الأخلاق، واللطافة في القلوب، والنورانية في الـمُحيا، والسلاسة في اللسان، والرقة في المشاعر، والعمق في البصيرة، والأمور الحسنة الحميدة كلها، ما هي إلا ومضات انعكست على القلوب من محبة نور الوجود ﷺ.





وما أجمل كلام مولانا جلال الدين الرومي حين يقول:

«تعال يا قلبي! فالعيد الحقيقي حين يكون الوصال مع سيدي محمد ﷺ، فضوء الكون كله من نور جمال هذا الرسول المبارك».

والصلاة على النبي ﷺ زاد عظيم للمسلم في كل الأزمنة والأمكنة والأحوال، فبها يقوِّي رابطته بحبيبه ﷺ، وبها يستمد من روحانيته ﷺ، وبها يستمطر الرحمات والبركات من السماء، وبها ينفرد في الأسحار وأوقات المناجاة، وبها تنزل الفيوضات الإلهية على قلبه.

هذه الصلاة على النبي ﷺ كانت سر الفضائل التي نالها أولياء الله، وكانت معراجهم إلى الدرجات العُليا في اتباع رسول الله ﷺ، وتتعدد هذه الفضائل والوسائل في الصلاة على نحو لا يمكن حصره؛ لكننا نورد فيما يلي بعضًا منه:

١. موافقة الله تعالى وملائكته في صلاتهم على النبي وذلك بالامتثال للأمر الإلهي، فالآية الكريمة تقول:

﴿إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب، ٥٦)

وبالطبع ثمة فرق في المعنى بين صلاة وسلام الله، والملائكة، والمؤمنين: «فصلاة الله» هي رحمته بنبيه ورفعه إلى أعلى الدرجات، «وصلاة الملائكة» هي الاستغفار للنبي الكريم والدعاء له، «أما صلاة المؤمنين» فهي الدعاء لرسول الله ﷺ ولأنفسهم.

٢. وسيلة للعفو عن الذنوب.

يقول النبي ﷺ:

«منْ صلَّى عليَّ صلاة واحدة، صلَّى الله عليه عشر صلوات، وحُطَّت عنه عشر خطيئات، ورُفعت له عشر درجات» (النسائي، السهو، ٥٥)





٣. وسيلة للقرب من النبي ﷺ يوم القيامة.

يقول رسول الله ﷺ في الحديث:

«أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليَّ صلاة» (الترمذي، الوتر، ٢١)

٤. رد رسول الله ﷺ على من يصلِّي عليه.

يقول النبي ﷺ في الحديث:

«ما من أحد يسلِّم عليَّ إلا رد الله عليَّ روحي حتى أردَّ عليه السلام» (أبو داوود، المناسك، ٩٦)

٥. عرض اسم منْ يصلي على النبي ﷺ.

يقول النبي ﷺ في الحديث:

«إن لله ملائكة سيَّاحين في الأرض يبلغوني من أمتي السلام» (النسائي، السهو، ٤٦)

٦. الصلاة على النبي ﷺ تحمل المسلم على التخلق بأخلاق النبي ﷺ، والترفع عن الرذائل، وتحثه على الفضائل، وترتقي بالعبد من وِهاد الدنيا إلى سماوات المحبة، فيحيا ساميًا عن أوضار المخلوقات، فانيًا في محبة الخالق، وسيد المخلوقات ﷺ.

٧. الصلاة على النبي ﷺ تزيدك حبًا له، وتزيد حبه ﷺ لك.

٨. الصلاة على النبي ﷺ نوع من شكر النعم العظمى التي امتن الله تعالى بها على عباده، تلك النعم التي لا تعد ولا تحصى والتي كان أجلَّها إرسالُ الهادي البشير النذير ﷺ لينقذنا من الظلمات إلى النور.

٩. هو وسيلة لنزول رحمة الله تعالى علينا.

يقول رسول الله ﷺ:

«من صلَّى عليَّ واحدة صلى الله عليه عشرًا» (مسلم، الصلاة، ٧٠)





١٠. الصلاة على النبي ﷺ وسيلة فريدة ليحظى المؤمن بدعاء ألسنة لم تعصِ الله قط، ولم تنطق بغير تسبيحه قط، إنهم الملائكة الكرام الذين يدعون الله لكلِ منْ صلى وسلم على النبي ﷺ، وعلى رأسهم جبريل الأمين عليه السلام يستغفر للعبد عشرًا بكل صلاة أو تسليم، ثم يأتي ربهم جل وعلا فيمحو ذنوبهم[١٤١].

١١. يكون سببًا لتذكُّر الكلام الذي ينساه العبد.

١٢. وسيلة لقبول الدعاء:

فقد رأى رسول الله ﷺ رجلًا يومًا يدعو بعد الصلاة دون أن يحمد الله تعالى أو يصلي ويسلم على نبيه فقال:

«**عجلتَ أيها المصلي**». ثم نادى على الرجل وقال له:

«**إذا صلَّيت فقعدتَ فاحمد الله بما هو أهله، وصلِّ عليَّ ثم ادعُه**»(الترمذي، الدعوات، ٦٤)

ويقول في حديث آخر:

«عن علي –يعني ابن أبي طالب– قال: كل دعاء محجوب حتى يُصلَّى على محمد ﷺ وآل محمد» (الهيثمي، مجمع الزوائد، ١٠، ١٦٠؛ البيهقي، شعب الإيمان، جـ٣، ١٣٦، رقم: ١٤٧٥)

١٣. يحمي العبد من التعرض للعتاب الإلهي:

يقول رسول الله ﷺ:

«**رَغِمَ أنفُ رجل ذُكرتُ عنده فلم يصلِّ عليَّ**» (الترمذي، الدعوات، ١٠٠/ ٣٥٤٥)

«**ما جلس قوم مجلسًا لم يذكروا الله فيه، ولم يُصلُّوا على نبيهم، إلا كان عليهم تِرة، فإن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم**» (الترمذي، الدعوات، ٨/ ٣٣٨٠)

«**ما قعد قوم مقعدًا لا يذكرون الله تعالى ولا يصلون على النبي إلا كان عليهم حسرة يوم القيامة وإن دخلوا الجنة للثواب**» (أحمد، جـ٢، ٤٦٣)

---

١٤١ النسائي، السهو، ٥٥/ ١٢٩٣.





١٤. إن العبد الذي يصلي على النبي يُكفَى همه ويُغفرُ ذنبُه.

يقول أُبي بن كعب ﷺ: سألت النبي ﷺ:

يا رسول الله إني أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي؟

فقال: «**ما شئت**».

قال: قلت: الربع،

قال: «**ما شئت، فإن زدتَ فهو خيرٌ لك**»،

قلت: النصف،

قال: «**ما شئتَ، فإن زدت فهو خيرٌ لك**»،

قال: قلت: فالثلثين،

قال: «**ما شئتَ، فإن زدت فهو خيرٌ لك**»،

قلت: أجعلُ لك صلاتي كلَّها،

قال: «**إذًا تكفى همك، ويغفرُ لك ذنبك**»[١٤٢].

إن الصلاة والسلام على النبي يضمن للعبد الارتباط مع روحانية سيدنا النبي والاستفادة من أنواره، وثواب هذه الصلوات ناتج عن محبة العبد للنبي والإخلاص له.

فالصلاة والسلام عليك سيدي يا رسول الله!..

اشفع لنا يا نبي الله!..

---

١٤٢ الترمذي، القيامة، ٢٣/ ٢٤٥٧؛ الحاكم، جـ٢، ٤٥٧/ ٣٥٧٨؛ البيهقي، الشُعب، جـ٣، ٨٥/ ١٤١٨؛ عبد الرزاق، جـ٢، ٢١٤.





د. التفكر في الموت

لازمان ولا مكان يمكن الهرب إليه من الموت في الدنيا، ولا عودة إلى الوراء في البرزخ، ولا ملجأ يأوي إليه العبد من هول يوم القيامة.

الموت قدر محتوم، والقبر مصير ابن آدم، ولا مفر لكل امرئ من أن يمر بحياة البرزخ، وأن يعيش أهوال القيامة، فلا ملجأ ولا مهرب من الله إلا إليه سبحانه.

وحتى تأتي هذه اللحظات الحاسمة يعيش الإنسان متأرجحًا بين نقيضين: بين الحياة والموت، وبين الرجاء والخوف، وبين السعادة والحزن.

وكلاهما ينغص على الإنسان مشاعره، فخوف الموت والمصير غصة في حلق سعادته، والانغماس في شهوات الدنيا هو غفلة عن الاستعداد للمصير المحتوم، وما لم يدرك الإنسان حقيقة الحياة والموت، فسيعيش فاقدًا سر الحياتين، مغيبًا عن حقائق الدارين، غير مدرك للحكمة من وراء الخَلق.

والموت لغزٌ كبير وسرٌ عظيم يجب على كل آدمي أن يتفكر فيه بكل طاقته؛ لأنه المصير المحتوم، والخطوة التالية في الطريق السريع الذي يسعى الإنسان فيه، ويجب أن يَحُلَّ اللغزَ قبل أن يحِلَّ عليه الموت.

يقول الله تعالى في سورة الـمُلك:

﴿**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا**﴾ (الملك، ٢)

ويقول في سورة الأنبياء:

﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ**﴾ (الأنبياء، ٣٥)





إن الدنيا مدرسة إيمان إلهية، أما الموت فهو قانون انتقال ضروري، ويقول مولانا جلال الدين الرومي: «موتوا كي تحيوا».

إذ لا يمكن إحياء القلب إلا بترك الأمور النفسانية، ويقول النبي ﷺ:

«**فأكثروا من ذكر هادم اللذات: الموت**» (الترمذي، القيامة، ٢٦)

والتفكر في الموت هو صافرة الإنذار الدائمة التي تذكرك بالخطر القادم قبل أن يدهمك، وتنبهك إلى المصير المحتوم قبل أن يفاجئك، فتتخذ كل استعداد لما هو قادم، وتدير ظهرك لشواغل الدنيا وشهواتها، وتولي وجهك شطر طريق ربك الذي أنت مقبلٌ عليه لا محالة، وتفك عن معصميك قيود النفسانية، وتشحذ همتك بالنفحات الربانية، وتجهز بالإيمان عتادك وعدتك مستعدًا لليوم الآخر.

وعن طارق بن عبد الله المحاربي، رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«**يا طارق، استعد للموت قبل نزول الموت**» (الحاكم، المستدرك، جـ٤، ٣٤٧/ ٧٨٦٨)

ولو عاش الإنسان أعمارًا متطاولة فوق عمره، ولو أمطرته السماء بأمانيه -وإن بلغت عدد حبات المطر- لما شبعت نفسه من الدنيا، ولما روى غُلته منها، حتى لو صارت أمانيه عدد أوراق أشجار يُسقطها الخريف على قبره منذ موته، وحتى مبعثه يوم القيامة.

كل هذا الأمل في الدنيا رغم امتلاء القلب بحكايات وذكريات من غيَّبهم الموت، ورغم علم كل السالكين في دروب الدنيا أن كل دهاليزها وفجاجها مهما استقامت أو اعوجت، أو ضلت أو اهتدت أو استسلمت أو هربت، لا تؤدي إلا نحو مصير محتوم هو القبر.

يقول الله سبحانه في الآية الكريمة:

﴿**قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ (الجمعة، ٨)





وليس ثمة أبلغ من صمت القبور ناصحًا، وليس ثمة صوتٌ أعلى من بُكم حجارتها واعظًا، يخاطب كلَّ منْ حولَه بلسان الحال، فيعظ مَن في القبور، ومَن هو خارجها، وكل مارٍ عليها، وكل ناظر إليها، مناديًا عبر الصمت، صارخًا بأعلى صوت: الموت... الموت... الحقيقة الباقية هي الموت، الموت بوحشته المهيبة ووحشيته الرهيبة، وثقله الراسخ في أعماق الأرض والحياة والمخلوقات.

وقد رأى الحسن شيخًا في جنازة، فلما فرغ من الدفن، قال له الحسن: يا شيخ، أسألك بربك: أتظن أن هذا الميت يود أن يُردَّ إلى الدنيا فيزيد من عمله الصالح، ويستغفر الله من ذنوبه السالفة؟ فقال الشيخ: اللهم نعم! فقال الحسن: فما بالنا لا نكون كلنا كهذا الميت؟ ثم انصرف وهو يقول: أي موعظةٍ؟ ما أبلغها لو كان في القلوب حياةٌ؟ ولكن لا حياة لمنْ تنادي[١٤٣].

ولكن الإنسان يظل أسيرَ الخداع، لاهثًا وراء السراب، يعمه في سكرته ويسدر في غيه حتى يفيقه الموت من غفلته، ويكتشف حينها أنه كان غارقًا في بحرٍ لجيٍّ لا يُرى له ساحل، ويدور في دوامة ذلك البحر دورانًا لا يدع له مجالاً للتفكير أو الإدراك والتقدير، وعندما ينتشله الموت من البحر، وتُسلمه الدوامة إلى القبر؛ هنالك فقط سيكتشف أنه كان مخدوعًا بصورة مرعبة حين يلقى مستقبله الأبدي. والحياة الغافلة هي الانهماك باللعب في الطفولة، والشهوة في الشباب، والغفلة في الرشد، والحسرة على ما فات في الشيخوخة، والندامة والتخبُّط في طيات الحياة.

وليست الآماد متطاولة إلى ما لا نهاية في انتظار يوم القيامة؛ بل هو أقرب إليك من شراك نعلك، فمنْ مات فقد قامت قيامته، وملك الموت على أهبة الاستعداد في كل زمان ومكان لتنفيذ الأمر الإلهي المحتوم، لا يقصر ولا يغفل

١٤٣ ابن الجوزي، آداب الحسن البصري، تحقيق. سليمان الحرش، دار النوادر، ١٤٢٨، ص٢٩.





قيد أنملة عن تنفيذ مهمته، بينما المرء الموكل به الموت والمنوط بروحه التنفيذ يكون سادرا في غفلة ما بعدها غفلة، ولا يفيق إلا حين يبدأ ملك الموت في عمله؛ حيث لا ملجأ ولا منجى ولا مهرب من الله إلا إليه، ولو كان المرء حصيفًا مؤمنًا لوجد المفر والمهرب في نداء الحق سبحانه ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللهِ﴾[١٤٤] فبادرَ بالفرار إلى رحمة ربه، والعيش في كنفه، حينها تستوي عنده الحياة والموت؛ لأنه قدَّم في حياته لما بعد الموت، واستعد للدارين، مستعينًا برب الدارين، الذي خلق الموت والحياة ليبلونا أيُّنا أحسن عملاً.

وكم من مشهد في الدنيا يعظك ويذكرك بالموت؛ منها الواعظ الصامت كمشهد الجنازات، ومنظر القبور، وزرقة شفاه الموتى، ولمعات دموع الثكالى على وجنات فقدت بريق الحياة، وأطفأ بهجتها ظلام انقطاع الروح عن المحبوب.

وأما الواعظ الصارخ فنزعات الحناجر عند سكرات الموت، ونزاعات انتزاع الروح عن خلايا الجسد، وأنَّات الثكالى، وآهات الحزانى، وشهقات المتفاجئين من انتزاع الموت لشباب وأطفال وأصحاء وآخرين كانوا يظنون بالحياة ونعيمها الظنونا.

أفلا يدعونا ذلك كلُّه إلى اليقين أن لحظات ميلادنا هي أولى خطواتنا نحو مصيرنا المحتوم، وهو الموت؟ ألا يذكرنا عري الميلاد والمجيء إلى الدنيا، بعري الخروج منها رغم ما كنزناه فيها؟ ألا تذكرنا صرخات القدوم والنَفَس الأول في الدنيا بصرخات الرحيل والنزع الأخير؟

وتوضح الآية الكريمة الآتية أن كل لحظة تمر في شريط الزمان تقرِّبنا من فجر الحقيقة:

﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ (يس، ٦٨)

---

١٤٤ الذاريات، الآية، ٥٠.





إنه قانونٌ سماوي وحقيقةٌ ربانية قاطعة لا مجال لتأويلها، فسطوعها يلقي الضوء على حقيقة الدنيا وما فيها من الغدر والانقلاب والانتقاص، فكلما ازداد الإنسان منها اُنتقص، وكلما أُعطي منها حُرم.

وهي أشد تقلبًا من القِدر إذا استجمعت غليانًا، ترفع أقوامًا وتخفض آخرين، ويتبدل حالها ما بين عشية وضحاها، إذا جلت أوجلت، وإذا دنت أودنت، وإذا حلت أوحلت، وإذا كست أوكست.....

والدنيا كالظل؛ لن تتمكن أبدًا من اللحاق بها، أو الإمساك بأطرافها، وكلما حاولتَ إدراكها هربتْ منك وهي عند أطراف أصابعك، أما إذا أعطيتها ظهرك أقبلَت إليك، وإذا تركْتَها ومضيتَ لحقتْ بك، فإذا حاولتَ الفرار منها لم تزل تتعقبك، وتطرح نفسها بين قدميك، ثم إذا فتحت لها أبواب قلبك غلَّقت في وجهك الأبواب، ولم ترَ منها إلا السراب.

وإذا سلَّمْتها زهرةَ نفسك أذبلت في حدائقك الزهور، ولم ترَ منها إلا وحشة التيه والغرور.

وإذا فتحتَ لها خزائن روحك أفقرتك وإن ملكتك الدنيا، وصرتَ كالملك الضليل يُحكَم ولا يَحكُم، ويصير الكون على اتساعه أضيق وأوحش في عينيك من ظلمة القبور.

وهكذا الدنيا تفعل بك الأفاعيل، وتوردك المهالك، وتصعد بك في متاهات السماء حتى يضيق صدرك، وتهوي بك في مجاهل الأرض حتى تضيق نفسك، وتغرق بك في تيه الدنيا حتى تضل روحك، ولا ينقذك منها سوى ملك الموت حين تأتي اللحظات الحاسمة الرهيبة... الموت.

وسأل رجلٌ رسول الله ﷺ يومًا، أي المؤمنين أكيس؟ قال:

«أكثرهم للموت ذكرًا، وأحسنهم لما بعده استعدادًا، أولئك الأكياس»

(ابن ماجة، الزهد، ٣١)





وقال رسول الله ﷺ أيضًا:

«**لِتذكرِ الموتَ والبلى، ومنْ أراد الآخرة ترك زينة الدنيا**» (الترمذي، القيامة، ٢٤)

وقد كان نقش خاتم سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

«كفى بالموت واعظًا».

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: مات رجل من أصحاب النبي ﷺ، فجعل أصحاب رسول الله ﷺ يثنون عليه، ويذكرون من عبادته، ورسول الله ﷺ ساكت، فلما سكتوا قال رسول الله ﷺ:

«**هل كان يكثر ذكر الموت؟**»

قالوا: لا

قال: «**فهل كان يدَعُ كثيرًا مما يشتهي**»

قالوا: لا

قال: «**ما بلغ صاحبكم كثيرًا مما تذهبون إليه**» (الهيثمي، مجمع الزوائد، جـ١٠، ٣٠٨-٣٠٩)

وعن مجاهد بن جبر رضي الله عنه وهو من كبار التابعين، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه، قال: أخذ رسول الله ﷺ ببعض جسدي فقال:

«**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، وعُدَّ نفسك في أهل القبور**»

فقال لي ابن عمر رضي الله عنه:

«إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء، وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح، وخذ من صحتك قبل سقمك ومن حياتك قبل موتك فإنك لا تدري يا عبد الله ما اسمك غدًا» (الترمذي، الزهد، ٢٥)

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه:

إن الأرض تنادي كل يوم بعشر كلمات وتقول:





يا ابن آدم! تسعى على ظهري ومصيرُك في بطني.
وتعصي على ظهري وتعذب في بطني.
وتضحك على ظهري وتبكي في بطني.
وتفرح على ظهري وتحزن في بطني.
وتجمع المال على ظهري وتندم في بطني.
وتأكل الحرام على ظهري وتأكلك الديدان في بطني.
وتحتال على ظهري وتذل في بطني.
وتمشي مسرورًا على ظهري وتقع حزينًا في بطني.
وتمشي في نور على ظهري وتقع في الظلمات في بطني.
وتمشي في المجامع على ظهري وتقع وحيدًا في بطني.

(ابن حجر العسقلاني، منبهات، ٣٧)

وقَدِمَ وفدُ قبيلة إياد على رسول الله ﷺ، فسألهم عن قس بن ساعدة الإيادي فقالوا: هلك يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ:

«لقد شهدتُه في الموسم بعكاظ وهو على جمل أحمر ينادي في الناس: أيها الناس اجتمعوا واسمعوا وعوا، واتعظوا تنتفعوا، منْ عاش مات، ومنْ مات فات، وكل ما هو آتٍ آت أما بعد، فإن في السماء لخبرًا، وإن في الأرض لعبرًا، نجومٌ تغورُ ولا تفور، وبحارٌ تفورُ ولا تغور، وسقفٌ مرفوع، ومهادٌ موضوع، وأنهارٌ ونبوعٌ، أقسم قسٌّ قسمًا بالله لا كاذبًا ولا آثمًا، لتتبعنَّ الأمر سخطًا، ولئن كان في بعضه رضًا إن في بعض لسخطًا، وما هو باللعب وإنَّ من وراء هذا للعجب، أقسم قسٌّ قسمًا بالله لا كاذبًا ولا آثمًا، إن لله دينًا هو أرضى له من دين نحن عليه، ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون، أرضوا فأقاموا؟ أم تُركوا فناموا؟» (١٤٥)

١٤٥ انظر: البيهقي، الزهد الكبير، جـ٢، ٢٦٤؛ ابن كثير، البداية، جـ٢، ٢٣٤-٢٤١؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، جـ٩، ٤١٨.





إنَّ لحظاتِ الموت وخاتمةَ الإنسان هي المرآة التي تنعكس عليها مصائر الإنسان يوم القيامة وتخبره بعاقبته في الحياة الآخرة، وهي النزول الأخيرة للستار على مسرح الحياة، والمشاهدون والجمهور هم شهود الله تعالى في أرضه، فإن أثنوا عليه خيرًا فهو إلى خير، وإن كان غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

تلك النفس التي تتهيأ للموت، وتنتظر اللحظات الأخيرة، وتستعد للحياة الآخرة، ولا يكون الموت عندها سوى بوابة مرور إلى العيش جسدًا وروحًا في العالم العلوي.

شتان بين نفس اتبعت هواها وأشبعتها شهواتُها وكان ذكر الموت لها خيالاً باهتًا، ونفسٍ سعت في التزكية، وجاهدت في التربية، وأشبعها عالم المعنويات وروتها الفيوضات والتجليات، وكان ذكر الموت لها شوقًا للقاء الأحبة، أو هو كما وصفها مولانا جلال الدين الرومي -قدس الله سره-: «ليلة العرس»[١٤٦].

نعم؛ باستطاعة المرء أن يجعل أشدَّ أمور الدنيا رعبًا -وهو الموت- أشدها رغبة في نفسه، وبوسعه أن يجعل «الموت جميلاً»؛ إذا هو تجاوز عقبة نفسه، وتقلَّب بها في المجاهدات والأحوال، وكانت محطاتُه في سفره إلى الموت هي: التوبة، الزهد، التوكل، القناعة، الذكر، التوجه، الصبر، المراقبة، الرضا.

أما كيف نتفكر في الموت، ونجعله نُصب أعيننا، ونعمل عملنا استعدادًا لمصيرنا بعده، فلنأخذ العبرة والوسيلة من هؤلاء المجاهدين الأوائل.

فعن عائشة ﵂، قالت: ذكرْتُ النار فبكيت، فقال رسول الله ﷺ:

«ما لك يا عائشة؟»

قالت: ذكرت النار فبكيت، فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟

١٤٦ ليلة العرس: مصطلح استخدمه مولانا جلال الدين الرومي ليدل على أن ليلة الوفاة تغدو وسيلة للقاء المحبوب الحقيقي وهو الله تعالى. (المترجم)





فقال رسول الله ﷺ:

«أما في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحدٌ أحدًا، حتى يعلم أيخف ميزانه أم يثقل، وعند الكتب حتى يقال: (هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ) حتى يعلم أين يقع كتابه أفي يمينه أم في شماله أو من وراء ظهره، وعند الصراط إذا وضع بين ظهري جهنم حافتاه كلاليب كثيرة وحَسَكٌ كثير يحبس الله بها من شاء من خلقه حتى يعلم أينجو أم لا» (الحاكم، جـ٤، ٦٢٢/ ٨٧٢٢)

وكان أسيد بن حضير ﵁ من أفاضل الصحابة، فكان يقول:

«لو أني أكون كما أكون محل حال من أحوال ثلاث، لكنت من أهل الجنة، وما شككت في ذلك: حين أقرأ القرآن وحين أسمعه، وإذا سمعت خطبة رسول الله ﷺ، وإذا شهدتُ جنازة، فما شهدت جنازة قط، فحدثت نفسي سوى ما هو مفعول بها، وما هي صائرة إليه» (انظر: أحمد، جـ٤، ٣٥١؛ الحاكم، جـ٣، ٣٢٦/ ٥٢٦٠)

ويروي محمدُ بن كعبٍ القُرظي الحادثةَ التالية، فيقول:

«لقيتُ عمر بن عبد العزيز ﵁ بالمدينة في شبابه وجماله ونضارته، قال: فلما استخلفَ قدمتُ عليه فاستأذنت فأذن لي، فجعلت أُحِدُّ النظر إليه فقال لي:

يا ابن كعب ما لي أراك تحد النظر؟

قلت: يا أمير المؤمنين لِما أرى من تغيُّر لونك ونحول جسمك ونفار شعرك،

فقال: يا ابن كعب فكيف لو رأيتني بعد ثلاث في قبري وقد انتزع النمل مقلتي، وسالتا على خدي، وابتدر منخراي وفمي صديدًا، لكنتَ لي أشد إنكارًا، دع ذاك، وأعد علي حديث ابن عباس...» (الحاكم، جـ٤، ٣٠٠/ ٧٧٠٦)

ويوضِّح الإمام الغزالي ضرورة أن يتفكر المؤمن في الموت ويوصيه بما يلي:

«يجب على المؤمن بعد أن يصلِّي صلاة الفجر وقبل أن يبدأ يومه أن يبقى وحيدًا مع نفسه لمدة محددة، وأن يتعاهد معها على بعض الأمور والشروط،





فالتاجر حين يسلِّم رأس ماله لشريكه يقوم بمثل هذه المعاهدات معه، ولا يهمل حينها بعضًا من التحذيرات لشريكه، والإنسان أيضًا ينبغي أن يحذِّر نفسه ويلِّقنها التالي:

إن رأس مالي هو عمري، ومع مرور كلِّ يومٍ من عمري يذهبُ رأسُ مالي، وينتهي الربح والمكسب، لكن هذا اليوم هو يومٌ جديد، وقد أكرمني الله تعالى في هذا اليوم أيضًا بأن أذن لي بالعيش، ولو توفَّاني لكنت تمنيت أن يعيدَني ولو ليومٍ واحدٍ فقط كي أعمل هنا صالحًا. أيها الولد، فلنفترض أنك تُوفِّيت الآن، ثم أُعدتَ إلى هذه الدنيا، لهذا لا تقترب أبدًا اليوم من الذنوب والمعاصي واحذر منها، ولا تبذِّر أية لحظة من لحظات يومك هذا؛ لأن كل نَفَسٍ تتنفسه نعمةٌ لا تُقدَّر بثمن».

وعلى هذا النحو يحقِّق الإنسان سِرَّ عبارة «موتوا قبل أن تموتوا»، ويضع بالمعنى الكامل محبة الله تعالى وطاعته مكان سلطة النفس التي كأنها زالت.

ذ. صحبة الصالحين والصادقين

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (التوبة، ١١٩).

فالآية الكريمة تحمل إشارة إلهية لطيفة بأن معية الله تعالى تبدأ بمعية الصالحين، والتحصن بتقوى الله يبدأ بمصاحبة الصادقين والتقرب منهم.

فالاستئناس بأهل القلوب ومصاحبة الصالحين والصادقين هو السبيل لتهيئة القلب أن يتلقى الفيوضات والروحانيات، وكذلك هو السبيل لوقاية القلب من خبث المؤثرات وسهام الدنيا، فيكون القلب في مأمن أمين وحصن حصين، لا يناله إلا الخير؛ إذ هو أضعف الأعضاء مقاومة، وأشدها تأثرًا بما حولها، وأميلها إلى اتباع الدنيا وما فيها مهما كان ما فيها.





وهناك حقيقة مهمة عن القلب ينبغي أن نقف عليها ونعيها جيدًا، وهي أنه سريع الانسجام والتأقلم مع الوسط الذي يعيش فيه، فإذا كانت الميول القلبية المحيطة ميولًا إيجابية انحاز إليها، وإذا كانت الميول القلبية المحيطة ميولًا سلبية مال إليها.

وكلما كان القلب بعيدًا عن المؤثرات الإيجابية، وبعيدًا عن النضج المعنوي، ظل هدفًا كبيرًا للمخاطر، فالتأثيرات الخارجية في البيئة المحيطة به قد تدفعه إلى قبولها حتى يحبها، أو تدفعه لرفضها حتى يكرهها؛ لذا فإن المحبة والكراهية درجة مهمة من المؤثرات القلبية ينبغي على أهل التربية استخدامها بمهارة، لأنها تؤثر بشدة في الترقية الروحية للإنسان أو حتى في تدنيه.

والذي يوصل الإنسان إلى الفوز العظيم هو عقيدة «الولاء والبراء» كما في مصطلح الأصوليين، بمعنى أن نتوجه بالمحبة لِمن يستحقها، ونناصب العداء مَنْ يستحقه، فإذا أخطأت أحد الهدفين وقعت في خطر عظيم.

كل ذلك يسهل على المرء فهمه وتنفيذه إذا ما عاش حياته متقربًا من الصالحين، دائرًا في دائرة قطبيتهم، واقعًا في محيط تأثيرهم، مستمدًا من نفحاتهم التربوية، محبًا لهم محبة حقيقية.

لكن هذه المحبة إذا افتقدت حقيقتها وبعدت عن عمقها الروحاني فإنها تظل بعيدة بصاحبها عن الوصول إلى الهدف المرجو، والنتيجة المطلوبة.

والحادثة الآتية التي مرَّ بها أبو يزيد البسطامي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيها الكثير من العِبر في هذا الموضوع:

في يوم من الأيام كان الشيخ أبو يزيد البسطامي يمشي في الطريق، وكان أحد الشباب يتعقَّبه ويمشي على إثره، وكان الشيخ يلبس فروًا، فقال الشاب:

«يا سيدي هلَّا أعطيتنا قطعة من هذا الفرو كي نتبرَّك ونستفيد من فيوضاتكم!»





فأجابه الشيخ البسطامي إجابة عظيمة:

«إذا لم تعمل مثل عمل أبي يزيد فلن يفيدك فرو أو حتى جلد أبي يزيد!»[١٤٧].

إنَّ في كائنات الكون جميعها ميلاً للتشبه ببعضها سواء في الهيئات والأشكال أو في الأحوال والأعمال، ومنشأ هذه الحقيقة هو أن هذه الكائنات من أصل واحد، فمثلًا إذا وقعت آنيةٌ مليئة بعطرٍ فوّاح في زاوية إحدى الغرف، فإن الرائحة المنبعثة ستنتقل من جزيءٍ في الهواء امتصّ الرائحة كاملة إلى جزيءٍ آخر حتى تصبح جزيئات الهواء في الغرفة كلها مشبعة بهذه الرائحة، وهذه الحالة أحد قوانين الفيزياء المنطبقة أيضًا على المظاهر المتناقضة كلها مثل الحرارة والبرودة، لكن ثمة حاجة لواسطة تحفظ هذا التشابه كي يظهر هذا القانون في الحياة البشرية، وهذه الواسطة ما هي إلا المحبة.

وثمة عبارة مشهورة متداولة على ألسنة الناس تقول: «من القلب إلى القلب سبيل»، وهي تؤكد الحقيقة والقانون الذي أسلفناه.

وفي طبيعة الإنسان وفطرته ميلٌ إلى التقليد؛ هذا الحس ينشأ مع الطفل منذ نعومة أظافره، ويبقى معه طوال حياته، ويتطور بين القوة والضعف، لكنه يبقى معه لا يفارقه في تصرفاته وأفعاله وميوله وكافة نواحي شخصيته.

والشخصيات القوية المؤثرة تصير مصدرًا لإلهام الناس من حولها، ومثالاً يحتذونه، وقدوة يتأسون بها، لاسيما إن كان هؤلاء القدوة من الصالحين والصادقين، الذين يؤثرون بحسن أخلاقهم وصدق أحوالهم وصلاح قلوبهم فيمَنْ حولهم من المقلدين والتابعين والمريدين.

ولعل المثال الأعظم على ذلك هو الصحابة الكرام -رضوان الله تعالى عليهم- عندما تحولوا من الجاهلية ودركاتها إلى أسمى درجات الرقي المعنوي ببركة التأسي بالنبي ﷺ وتأثيره الروحاني في شخصياتهم وأفعالهم.

١٤٧ فريد الدين عطار، تذكرة الأولياء، ترجمة: سليمان أولوداغ، اسطنبول ٢٠٠٧، ص١٩١.





والمحبةُ هي السرُّ الأكبر في شدة التأثر والتأسي واتباع القدوة، فها هو المعلم حينما يحبه تلاميذه يسهُل عليهم فهمُ دروسه، ويسلس الدرس مهما كان صعبًا، فالمحبة تجعل من شفقة المعلم عونًا في اجتياز الصعاب، ويجد الطلاب لذة في مواجهة التحديات والتغلب عليها، وها هو العامل يكِدُّ ويكدح في العمل ويلقى فيه المشقة والتعب، لكنه إذا أحب ذلك العمل، تراه يستعذب التعب ويستلذ المشقة؛ بل لا يشعر بقسوة التعب على حقيقته، إنما يجد خفة في ثقل هذا العمل، وراحة في أدائه.

وها هو المسلم يغدو إلى صلاة التراويح أو قيام الليل بعد يوم شاق في الصيام، ويؤدي ركعاتها العشرين، لكنه يشعر بروحانية هذه الصلاة وراحة التقرب من ربه، ولا يكاد يحس بشيء من التعب، بينما نجد مَنْ كسل عن العبادة ولم يجد في قلبه محبتها، نجده يستثقل حتى ركعتي الفجر.

فالمحبة هي ذلك الإكسير السحري الذي يحوِّل مشقة العبادة إلى لذة الطاعة، ويحوِّل عنت المجاهدة إلى نسمات على الطريق، ويجعل من العوائق رقائق.

وعلى الجانب الآخر فإن محبة أهل الغفلة والأنس بأهل الفسق، أكبر خطر يعرضه المرء على قلبه، وعليك المقارنة بين الرياح التي تمر على الحدائق فتحمل معها النسيم العليل والأريج الجميل، والريح التي تمر على الصحاري فتحمل معها الحميم والسَموم.

ذلك هو الفارق بين الصحبة الصالحة والصحبة الطالحة.

والفارق بين الفئتين هو كما صوره النبي ﷺ، فصاحب السوء كنافخ الكير تحرقك ناره، ويؤذيك دخانه، وصاحب الخير كحامل المسك يعطيك من أطيابه أو تشمُّ منه رائحة طيبة.

وينصح الشيخ عبيد الله أحرار رَحِمَهُ ٱللَّهُ أحبابه متحدثًا عن هذا الموضوع:

«إن صحبة المتساهلين في الدين والغافلين عن رب العالمين يؤدي إلى فتور القلب، وتشوش الروح، وتعاسة الفؤاد».





وفي يوم من الأيام أحسَّ أبو يزيد البسطامي رَحِمَهُ اللَّهُ بالقلق داخله، ولم يستطع التخلص من هذه الحال على الرغم من محاولاته، فقال لـمَنْ كان معه في المجلس: «انظروا هل بيننا غريب يجلس معنا؟»

فبحثوا، لكنهم لم يجدوا أحدًا، غير أن أبا يزيد البسطامي أصرَّ على ذلك وقال:

«ابحثوا جيدًا، وانظروا حيث العُصي»، ثم بحثوا مرة أخرى ووجدوا عصًا لرجل غافل، فأخرجوها، فعادت طمأنينة القلب لأبي يزيد البسطامي[١٤٨].

وفي يوم من الأيام جاء قريب للشيخ عبيد الله أحرار إلى حضرته، فقال له الشيخ:

«ثمة رائحة غريبة تأتي منك»، ثم أضاف قائلاً:

«يبدو أنك ترتدي لباس شخص غريب».

فقال الشخص:

«نعم، كلامك صحيح»،

فذهب وبدَّل ذلك اللباس، ثم عاد[١٤٩].

هذه الحالات الطيبة والأحوال الروحانية الراقية، تجعل بين الأخيار رابطة ربانية لا تنفصم رغم بعد المسافات وتطاول الأزمنة؛ بل إن هذه الرابطة تنتقل من الأشخاص إلى الأشياء، وليست في الأحوال الإيجابية فقط؛ بل في النواحي السلبية أيضًا، وها هي الأمثلة التي تؤكد ذلك القانون الروحاني.

ذلك الترابط القلبي بين سيدنا يعقوب وابنه سيدنا يوسف عليهما السلام، لقد أحب يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ ابنه يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أكثر من بقية أبنائه محبةً خاصة لما بينهما

---

١٤٨ صفي، رشحات، ص٤٦٩-٤٧٠.

١٤٩ صفي، رشحات، ص٤٧٠.





من التشابه الأخلاقي نتيجة المعين الواحد الذي يستقي منه كلاهما؛ معين النبوة والاتصال بالمدد السماوي، وبعد الفراق الكبير في الزمان والمكان بين الجسدين لم تفقد الأرواح اتصالها؛ بل إن الأشياء والجمادات الخاصة بهما لم تفقد اتصالها، وها هو قميص يوسف عليه السلام يأتي من مصر إلى بلاد الكنعانيين فيشمه الأب النبي المحب الرباني ويجد فيه ريح ابنه يوسف؛ بل يُلقى عليه القميص، فيرتد بصيرًا سعيدًا مستبشرًا.

وكذلك قلب الإنسان الذي هو أشد حساسية ورقة وتأثرًا بالأحوال من الجمادات والأشياء، هو دائمًا في حاجة إلى المحبة اليعقوبية والاتصال اليوسفي، ليمر في مراحل الأسر والعبودية والسجن الدنيوي، حتى يجد الملاذ الآمن في الجنة.

وذلك التأثر بالأحوال المعنوية سلبًا وإيجابًا يكون حتى على الجمادات والأماكن، ويقول كبار العلماء في هذا الموضوع:

«إن أعمال الناس وأخلاقهم تنعكس حتى على الجمادات، ومن هذا المنطلق ثمة فرق كبير في القيمة بين عبادة في مكان ارتُكِبَت فيه أنواع مختلفة من الأعمال البذيئة، وبين عبادة أخرى في مكان وُجدت فيه الأعمال الصالحة والخيِّرة، ولهذا السبب تكون الصلاة في حرم الكعبة أرفع بدرجات كثيرة من الصلاة في جميع الأماكن الأخرى».

فإذا كانت الكعبة وكان الحرم الشريف مثالاً على التأثر المعنوي الإيجابي، فثمة مثل آخر على التأثر المعنوي السلبي، وهو وادي الحجر، فعندما كان الصحابة الكرام - رضي الله عنهم أجمعين - عائدين من أكثر الغزوات عسرًا ومشقة، وهي غزوة تبوك، مروا في الطريق على ذلك الوادي -وادي الحجر- فأرادوا أن يستريحوا فيه ويستظلوا ويتزودوا بالماء، وكان المكان هو الآثار الباقية





من مساكن قوم ثمود، ويروي لنا سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنه ما حصل هناك فيقول:

لما نزل رسول الله ﷺ الحِجر في غزوة تبوك، أمرهم ألا يشربوا من بئرها، ولا يستقوا منها، فقالوا: قد عجنَّا منها واستقينا، فأمرهم رسول الله ﷺ

«**أن يهريقوا ما استقوا من بئرها، وأن يعلفوا العجينَ الإبل**» (البخاري، الأنبياء، ١٧)

إن هذه الحادثة وأمثالها ما هي إلا مثال حيٌّ واحد من بين الأمثلة الكثيرة على انعكاس الحالات الروحانية وانتقالها إلى الجمادات.

إن حصول المسلم الـمُجاهِد على الفيوضات -الطاقة المعنوية- التي تؤهله لنيل المزايا القلبية والوصول إلى الكشف يتطلب العمق في صحبة الصالحين، وخاصة الصحبة المعنوية وليست المعية الجسدية فحسب.

ويلفت انتباهنا هنا وصيةُ لقمان لابنه حين قال له:

«يا بُني، عليك بمجالسة العلماء، واسمع كلام الحكماء، فإن الله يُحيي القلب الميت بنور الحكمة كما يحيي الأرضَ الميتة بوابل المطر» (أحمد بن حنبل، الزهد، ٥٥٢؛ الهيثمي، جـ١، ١٢٥)

ويوضِّح الحديثُ الشريف الآتي أهميةَ الصحبة والدرجات المعنوية التي تمنحها للمؤمن:

«**ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمَنْ عنده**» (أبو داوود، الوتر، ١٤؛ ابن ماجه، المقدمة، ١٧)

وعن أبي إدريس الخولاني، أنه قال: دخلت مسجد دمشق فإذا فتى شاب برّاق الثنايا، وإذا الناس معه إذا اختلفوا في شيء أسندوا إليه، وصدروا عن قوله، فسألت عنه، فقيل هذا معاذ بن جبل، فلما كان الغد هجَّرتُ فوجدته قد سبقني





بالتهجير، ووجدته يصلي، قال: فانتظرته حتى قضى صلاته، ثم جئته من قِبَل وجهه، فسلمت عليه، ثم قلت: والله إني لأحبك لله، فقال: آلله؟ فقلت: آلله، فقال: آلله؟ فقلت: آلله، فقال: آلله؟ فقلت: آلله. قال: فأخذ بحبوة ردائي فجذبني إليه، وقال: أبشر فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«**قال الله تبارك وتعالى: وجبتْ محبتي للمتحابين فيَّ، والمتجالسين فيَّ، والمتزاورين فيَّ، والمتباذلين فيَّ**» (الإمام مالك، الموطأ، الشَعر، ٥)

ويقول المولى في الآية الكريمة:

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾ (التوبة، ١١٩)

هذه الصحبة والمعية هي السبيل لانتقال التأثير والأحوال، وقوة انتقال الأحوال تكون بحسب عمق المحبة والأنس، ومَنْ أراد المرتبة العليا في الإيمان فعليه بدوام الاتصال والأنس بأهل الكمال من الصادقين والصالحين.

وكم هو جميلٌ توضيحُ الرسول ﷺ لأهمية صحبة الصادقين من خلال هذا التشبيه الرائع:

«**مثل الجليس الصالح والجليس السوء، كمثل صاحب المسك وكير الحدَّاد، لا يعدمك من صاحب المسك إما تشتريه، أو تجد ريحه، وكير الحداد يحرق بدنك، أو ثوبك، أو تجد منه ريحًا خبيثة**» (البخاري، البيوع، ٣٨)

وكما أن صحبة الصالحين في الحياة مهمة، كذلك مجاورتهم في القبر أيضًا مهمة، فقد ذكر جماعة من العلماء استحباب الدفن بجوار الصالحين، ولم يذكروا دليلاً صريحاً على ذلك من السنة، وإنما هو مجرد استنباط من بعض الأحاديث، كما استنبط بعضهم ذلك من حديث:

«**أن موسى عليه الصلاة والسلام لَمَّا حضرته الوفاة سأل ربه أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر**» (متفق عليه)





وقد بوّب البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ للحديث بقوله:

«باب من أحب الدفن في الأرض المقدسة أو نحوها».

قال ابن بطال: «ومعنى سؤال موسى أن يدنيه من الأرض المقدسة، والله أعلم، لفضل من دُفن في الأرض المقدسة من الأنبياء والصالحين، فاستحب مجاورتهم في الممات، كما يستحب جيرتهم في المحيا، ولأن الفضلاء يقصدون المواضع الفاضلة، ويزورون قبورها ويدعون لأهلها» (شرح ابن بطال، ٥/ ٣٥٩)

وقال النووي:«وفي هذا استحباب الدفن في المواضع الفاضلة والمواطن المباركة والقرب من مدافن الصالحين» (شرح مسلم، ١٢٨/١٥)

وقد ورد عن غير واحد من السلف وأهل العلم الوصية بالدفن بجوار بعض الصالحين، فقد أوصى ابن مسعود أن يدفن بجنب قبر عثمان بن مظعون رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا. (الثقات لابن حبان، ٣/ ٢٠٨)

وأوصى غالب بن جبريل صاحب الإمام البخاري أن يدفن إلى جنب البخاري. (المتفق والمفترق، ٣/ ٢٠١)

وأوصى أبو بكر الخطيب الحافظ أن يدفن إلى جانب بشر بن الحارث.(تاريخ دمشق، ٥/ ٣٤)

ويبيِّن الحديث التالي أهمية تأمين الحاجة من الصالحين:

فعن ابن الفراسي، أن الفراسي، قال لرسول الله ﷺ: أسألُ يا رسول الله؟ فقال النبي ﷺ: «**لا، وإن كنتَ سائلاً لا بد، فاسأل الصالحين**» (أبو داوود، الزكاة، ٢٨؛ النسائي، الزكاة، ٨٤)

ويقول رسول الله ﷺ في حديثٍ آخر:

«**إن من الناس مفاتيح لذكر الله، إذا رُؤوا ذُكِرَ الله**» (الهيثمي، جـ١٠، ٧٨)

وعن القاضي شُريح، أنه كتب إلى عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يسأله، فكتب إليه:





«أن اقض بما في كتاب الله، فإن لم يكن في كتاب الله تعالى فبسنة رسول الله ﷺ، فإن لم يكن في كتاب الله تعالى، ولا في سُنة رسول الله ﷺ، فاقض بما قضى به الصالحون، فإن لم يكن في كتاب الله تعالى، ولا في سُنة رسول الله ﷺ، ولم يقض به الصالحون، فإن شئت فتقدم، وإن شئت فتأخر، ولا أرى التأخر إلا خيرًا لك، والسلام عليكم» (النسائي، آداب القضاة، ١١/ ٣)

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال:

«إنه قد أتى علينا زمان ولسنا نقضي، ولسنا هنالك، ثم إن الله عز وجل قدر علينا أن بلغنا ما ترون، فمَنْ عرض له منكم قضاء بعد اليوم، فليقض بما في كتاب الله، فإن جاء أمر ليس في كتاب الله، فليقض بما قضى به نبيه ﷺ، فإن جاء أمر ليس في كتاب الله، ولا قضى به نبيه ﷺ، فليقض بما قضى به الصالحون، فإن جاء أمر ليس في كتاب الله، ولا قضى به نبيه ﷺ، ولا قضى به الصالحون، فليجتهد رأيه، ولا يقول: إني أخاف، وإني أخاف، فإن الحلال بيِّن، والحرام بيِّن، وبين ذلك أمور مشتبهات، فدع ما يريبك إلى ما لا يريبك». (النسائي، آداب القضاة، ١١)

ويقول النبي ﷺ في ترك الشبهات:

«استفتِ نفسك! استفتِ قلبك... البر ما اطمأنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس، وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك».

(أحمد، جـ٤، ٢٢٧-٢٢٨؛ الدارمي، البيوع، ٢)

إن في أنفاس العلماء الصالحين ودعوات الرجال الكاملين تأثيرات عجيبة، وتشير الروايات أن أبا أبي حنيفة ثابتًا أهدى الفالوذج [نوع من الحلو] لعلي بن أبي طالب يوم النيروز ويوم المهرجان، فدعا له ولأولاده بالبركة، وكان ثابت يقول:

«أنا في بركة دعوة صدرت من علي» حتى إنه كان يفتخر بأولاده العلماء ويشكر الله على ذلك. (البورصوي، روح البيان، (التوبة: ١٢٢)).





وحين جاء درويشٌ إلى أبي يزيد البسطامي وقال له:

«أوصني بعمل صالح يقرِّبني من الله».

فنصحه البسطامي رَحِمَهُ اللَّهُ قائلاً:

«أحبَّ أولياء الله، وأظهر محبتك لهم، وحبَّب نفسك إليهم كي يحبوك، فالله تعالى ينظر إلى قلوب أوليائه سبعين مرة في اليوم والليلة، وعسى أن يغدو اسمك في قلب وليٍّ من الأولياء، فينظر الله إليه فيحبك ويغفر ذنوبك»[١٥٠].

لذا؛ فإنّ أرسى قواعد التربية الصوفية الحفاظ بقوة وفعالية على «الرابطة»[١٥١]، فيضمن المريدُ السالك والمجاهدُ في الطريق انتسابَه واستمرارَه على المحبة لأهل القلوب الصادقين الصالحين.

وتمتد بركةُ هذه الرابطة وعمقُ تأثيرها حتى إلى الذين تنكبوا الطريق، واستهوتهم المعاصي، وساروا في دروب الذنوب، فتنقذهم من مزالق الهاوية، وتحفظهم من حالات الضياع المعنوي، أو القنوط من رحمة الله تعالى، ولا تزال تمدهم ببركتها، وتتنزل عليهم فيوضاتها، فتقيهم من الانجذاب الكامل نحو طريق الغواية، وتشدهم إلى طريق الهداية، فلعل الله يمنُّ عليهم فيعتصمون بحبله.

وعندما تشتد هذه المحبة بين المريد وشيخه تتحول إلى تيار متدفق، مثل تيار الماء أو الهواء أو الكهرباء، وتنقل بين الطرفين شحنات موجبة هائلة من التأثير والتأثر والتبادل الروحي، حتى تصل إلى درجة «التشابه» في الشخصية.

---

١٥٠ قاسم محمد عباس، أبو يزيد البسطامي، المجموعة الصوفية الكاملة، دمشق ٢٠٠٤، ص٧٠؛ محمد بن علي، النور من كلمات أبي طيفور، (عبد الرحمن بدوي، داخل شطحات الصوفية)، قاهرة، ١٩٤٩، ص٩٩، ١١٥.

١٥١ للتوسع أكثر انظر الصفحة: ٣٤٢.





ورغم أن المُتأثِّرَ الذي يتلقى تيارات العطاء، يتدرج في الترقي عبر فيوضات الشيخ الصالح، إلا أن ذلك الصالح الصادق يصيبه الضرر من ذلك إلى حد ما.

فالصالحون الصادقون الذين يقومون بهذه العمليات المتتالية والمركبة والمعقدة من التنظيف المعنوي والتطهير النفسي والتعقيم الروحي، يقومون بتنفيذ معادلات كيميائية وحيوية ذات أهمية كبرى فيما يسميه علماء الطبيعة «التوازن البيولوجي»، أو بكلمات أخرى يقومون بعملية التصفية والتنقية التي تقوم بها أوراق النباتات للهواء في الجو، ثم بعملية «التمثيل الضوئي» لغذاء ذلك النبات؛ أو هم كغلاف طبقة الأوزون التي تحيط بالأرض فتمنع عنها الأشعة الكونية الضارة، ولا تسمح إلا بمرور الأشعة الكونية المفيدة للحياة على ظهر الأرض.

ولا تسعنا الأمثلة المتاحة لهذا الدور العظيم الذي يقوم به أهل التربية؛ بل الأدوار المتتالية والدقيقة التي يكونون فيها مثل المستشفى المتكامل الذي يعتني بالمريض المشرف على الموت، ويتابع حالته بدقة وعناية وتمكن فائق، حتى يتحول المريض إلى جسد قوي ذي مناعة.

والصالحون الصادقون المعنيون بهذه الصنعة المبهرة والتكليف المعجز، لابد أن ينالوا في مراحل إعدادهم النفسي وتكوينهم الروحي مرحلةً من العزلة والخلوة؛ ليس فقط تقربًا من الله تعالى، وإنما أيضًا بعدًا عن الدنيا وأدناسها وأوضارها.

ويفنى المحبُّ في الحبيب حين تقوى المحبة بالأُنس في نهاية المطاف، ويوضِّح مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله بكلماته التالية هذه الحالة التي تتحقق فقط حين تكون نتيجةَ العشق:

«حين يصب النهر في البحر يفقد خاصيته، ويمسي جزءًا من البحر الذي صبَّ فيه، والخبز الذي نأكله يذوب في عالمنا الداخلي ويصبح جزءًا من بدننا، والمحبُّ أيضًا يفنى وجودُه في الحبيب بحسب شدة محبته له».





ويستمر مولانا الرومي بكلامه مبيِّنًا الحالة الروحية الموجودة في حالة التشابه والفناء بقوله:

«أتى العشق ليملأ مثل الدم عروقي وجلدي، وأخذني من ذاتي وملأ وجودي بمحبته، واستولى المحبوب على كل جزءٍ من بدني، ولم يبقَ لي سوى اسمي، أما ما بقي فقد أصبح له».

وهذا هو ما يطلق عليه في التصوف «الفناء في الله» و«البقاء بالله»[١٥٢]، والسمو إلى درجة «البقاء بالله» أو الرقي إلى مرتبة «الفناء في الله»، يتطلب مراحل طويلة من إعداد القلب وتدريبه وتجهيزه؛ ليكون قادرًا وجديرًا ليتحمل هذا الأمر، عبر التدريب على المحبة البشرية، ليصل إلى كمال المحبة الإلهية والفناء في الله.

نعم، إنه الحب البشري؛ بل العشق الذي يسميه المتصوفة «العشق المجازي»، وهو عشق مباح ومطلوب لتحضير القلب وتدريبه، والوصول به إلى العشق الإلهي، وله صور كثيرة كعشق الرجل زوجته.

ولتحديد معنى العشق ومستواه يجب أن ننظر في كلام مولانا جلال الدين الرومي الذي يقول:

«أنصِف، لتعلم أن العشق أمر رائع، وما يجرحه هو طبائعك السيئة، فقد أطلقت اسم العشق على الشهوة. آه! فلتعلم أن الفرق كبير جدًّا بين الشهوة والعشق».

---

١٥٢ لهذين المصطلحين تعريفات مختلفة في المراجع الصوفية، ومن هذه التعريفات:
الفناء في الله: حين يفنى العبد في الله يتجرد قلبيًّا من العلاقات الدنيوية جميعها، ويتطهَّر من الصفات النفسانية.
البقاء بالله: هو تخلق العبد الذي تطهَّر من الصفات النفسانية بأخلاق الله، ويتحقق هذا الحال بالالتزام بأخلاق رسول الله ﷺ والقرآن الكريم وروحانيتِهما.





«العشق والوجد الإلهيَّان يجعلان من المؤمن متيقظًا دائمًا، أما العشق الدنيوي والشهواني فهو يجعل الإنسان أحمق أبله، والعشق هو الاحتراق والتخبط في الإنسان الذي خُلق من ماء وتراب، وليس المهم دوران الدم في العروق أي دوام الحياة، بل امتلاء الرئتين بالعشق».

وهكذا تكتمل صورة العشق البشري بأن تتماهى ذاتُ المحب في ذات المحبوب؛ حتى تتشابه -إلى أكبر درجة- أشكالُهم، وتتماثل -إلى أدق التفاصيل- شخصياتهم.

وعلى الجانب الصوفي عندما يصل المريد في التصوف إلى هذه النقطة في محبته لمرشده، يفنى في وجود شيخه، ويطلق على هذا المقام كلمة «الفناء في الشيخ».

وكان سيدنا أبو بكر ﵁ يعيش في حالةِ وَجْدٍ واستغراق مختلفة في كل مرة يلتقي أو يصحب بها رسول الله ﷺ، وحين يكون في حضرته، يزيد شوقه ومحبته للرسول بدلاً من أن يسكن ويهدأ.

وقد قال النبي ﷺ ذات مرة:

«ما نفعني مالٌ قط ما نفعني مال أبي بكر».

أما سيدنا أبو بكر الصديق ﵁ الذي تجرد من ذاته وفنى في وجود رسول الله ﷺ من خلال عشقه له، فقد أحسَّ أنه حين تلقى «خطاب» المديح النبوي انفصل عن النبي وصار من الأغيار، وشعر بألم حارق يشبه نيران الافتراق التي تكون في أعماق الروح، فبكى وأصابه قلق من أن يكون من «الغير» وقال:

«هل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله». (ابن ماجة، المقدمة، ١١؛ أحمد، ٢، ٢٥٣)

ويقول مولانا جلال الدين الرومي:

«ما الذهب وما الروح!... وما اللؤلؤ والمرجان إن لم ينفق على الحبيب ولم يكن فداءً له؟!»





وما أشبه هذه الحقيقة التي نطق بها مولانا الرومي بحالة سيدنا أبي بكر ﵁.

وحين مرِض سيد الكائنات محمد ﷺ في يوم من الأيام، مرض سيدُنا الصديق ولزم الفراش بسبب حزنه على النبي ﷺ.

وبسبب هذا التشابه بينهما قال عنه الرسول ﷺ:

«**أبو بكر مني وأنا منه، وأبو بكر أخي في الدنيا والآخرة**» (الديلمي، مسند، ١، ٤٣٧)

وكان كلام النبي هذا دليلاً على صحبتهما في العالم الروحاني وحالة التدفق القائمة بين قلبيهما.

وحين كان سيدنا رسول الله ﷺ على فراش الموت قال في حقِّ سيدنا أبي بكر ﵁:

«**سُدوا الأبواب، إلا باب أبي بكر!**» (البخاري، أصحاب النبي، ٣)

وكان هذا المديح من النبي دليلاً أيضًا على التدفق القلبي بينهما.

ويوضِّح الشيخ سعدي الشيرازي سمةَ الانتقال في الأحوال قائلاً:

«لقد نال كلب أصحاب الكهف شرفًا كبيرًا حين كان مع الصادقين، فقد ورد ذكره في القرآن الكريم وصار جزءًا من التاريخ، في حين وقعت زوجة النبي لوط في الكفر حين صحبت الفاسقين».

إن انتقال الحال عن طريق الأُنس بالصالحين والصادقين وما ينتج عنه من «تشابه» هو ما يصفه الشيخ سعدي في كتابه «غولستان» على صورة حكاية تشخيصية:

«يذهب الرجل إلى الحمام، فيعطيه أحد أصدقائه في الحمام صلصالاً ذا رائحة عطرة كي ينظف جسده، فتنبعث رائحة زكية من هذا الصلصال تلاطف الروح»





ثم يسأل الرجلُ الصلصالَ:

«أيها المبارك، لقد انتشيتُ برائحتك العطرة، فقلْ لي أأنت مسكٌ أم عنبر؟»

فيجيبه الصلصال:

«لست مسكًا ولا عنبرًا، فكما تعرفون أنا من تراب مُهمَل، لكنني كنت تحت وردة، وكنت أبتلُّ بقطرات الندى المتساقطة من براعمها. وتلك الرائحة التي كنتم تشمونها وتشرح صدوركم ما هي إلا لتلك الوردة».

هكذا تَسرَّب عبير الوردة عبر قطرات الندى إلى حفنات التراب إلى عجين الصلصال إلى أجساد الرجال؛ بل إلى أرواحهم، فما ظنُّنا بدفقات العشق السارية من قلوب الأولياء والصالحين والصادقين والمربين والمرشدين إلى قلوب ومشاعر المريدين والسالكين؛ لاشك أن هذه القلوب ستصير أشد عبيرًا من بستان الورد بأجمعه.

إن القمر الذي يفيض على الأرض نورًا وتلألؤًا وشاعرية، هو نفسه لا يملك شيئًا من ذلك النور ولا تلك الشاعرية، إنه مجرد انعكاس لنور الشمس وناقل لأضوائها، فصار وكأنه جزء من هذه الشمس، وهكذا المريد الذي يحب شيخه، ويصل إلى الفناء في محبته؛ حتى يصبح جزءًا منه فيتلقى من روحانياته ومعنوياته وفيوضاته، ليعكسها ويصبها على الآخرين.





ر. التحلي بالأخلاق الحميدة

«ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، وإن الله ليبغض الفاحش البذيء» (الترمذي، البر، ٦٢)

خلق الله تعالى الإنسان على الفطرة، وأودع في فطرته الأخلاق الحسنة التي ترتقي به في عالم المعنويات، وهداه السبيل وألهمه السير في طريق الترقي واستثمار هذه الأخلاق والمزايا للوصول إلى قمة العالم القلبي، كما أتاح له أيضًا ملكة الاختيار وإمكانية التحول إلى السبيل الآخر، في درب الغواية والشقاء والتشبع بالشهوات؛ وعلى الإنسان أن يتمسك بفطرته التي فطره الله تعالى عليها، ويبني بنيانه المعنوي على أساسها، ويتحول من صورة إلى سيرة، ومن هيكل بشري إلى نور سماوي، فيرسخ الأخلاق الحميدة في فطرته، وينفي خبث الأخلاق الذميمة من سريرته.

والقلوب التي تمتلك قدرًا مناسبًا من الروحانية هي التي تتمكن من استثمار الأخلاق الحميدة فيها للقيام بالأعمال الصالحة، ومن الترقي في الأحوال المعنوية، منطلقًا صاحبها من كونه خُلِقَ على أحسن تقويم.

وعلى النقيض نجد القلوب التي فقدت روحانيتها، وغلبت عليها شقوتها تصير أرضًا خصبة لمساوئ الأخلاق والشهوات ونزغات الشياطين، فيهجر فطرته ليختار طريق الشر بعد أن هداه الله النجدين، فيضل ويهوي، ويصير أضل من الأنعام سبيلاً.

وها هو الحق الرحيم سبحانه يخاطب الإنسان ويحذِّره كي يعود إلى ذاته ولا يقع في الهاوية فيقول:

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ. الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ. فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ (الانفطار، ٦-٨)





ويقول ربُّنا ﷻ أيضًا في القرآن الكريم:

﴿وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ (يونس، ٢٥)

لكن هذه الدعوة مشروطة بشروطها، مقيدة بمقتضاها، فليس الأمر هكذا خبط عشواء، أو احتطاباً بليل، إنما هو انتقاء للارتقاء، واستجابة لنداء السماء، فلابد من امتلاك المؤهلات التي تجعلك أهلاً لاستحقاق النداء وتلبية الدعوة، إنها «**دار السلام**»، فلا يستحقها إلا أهل السلام والسلامة، وأصحاب «**القلب السليم**».

والشرط الوحيد للعيش كإنسان هو تمثل الأهداف السامية للدين والأخلاق، فذروة الكمال الإنساني والأخلاق الحميدة هو سيدنا محمد ﷺ، حيث يقول المولى ﷻ تأييدًا وتصديقًا لصفة النبي محمد ﷺ:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم، ٤)

ويقول سيدنا محمد ﷺ في الحديث الشريف:

«**أدبني ربي فأحسن تأديبي**» (السيوطي، الجامع الصغير، جـ١، ١٢)

«**ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، وإن الله ليبغض الفاحش البذيء**» (الترمذي، البر، ٦٢/ ٢٠٠٢)

«**إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق**» (أحمد، مسند، جـ٢، ٣٨١؛ موطأ، حسن الخُلق، ٨؛ الحاكم، جـ٢، ٦٧٠)

إن الإنسان الكامل والنبي الوحيد في التاريخ الذي ذُكرت تفاصيل حياته الدقيقة كلها هو سيدنا محمد المصطفى ﷺ، فقد كان تدوين كلامه وأفعاله ومشاعره جميعها لحظة بلحظة وسام شرفٍ في تاريخ الإنسانية، فحياة النبي ﷺ «الأسوة الحسنة» تمثل ذروة قيم البشرية كلها، ويبيِّن الله ﷻ هذه الحقيقة في الآية الكريمة:





﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب، ٢١)

ومَنْ أراد الحياة الحقيقية، وأراد السير على منهج الله تعالى، والتزام طريق الهدى الذي خطته له فطرته؛ فعليه الأخذ بنصيب وافٍ من سيرة المصطفى ﷺ، فهو الإنسان الكامل، والأسوة الحسنة، ومحبتُه ﷺ هي السبيل إلى بلوغ رضا الله تعالى، والحياة في ظلال سيرته والاقتباس من معين روحانيته والتأسي بشمائله ﷺ هو السبيل لتمثل حاله وبلوغ بعض من كماله، ولعل أعظم مثال على ذلك هم الصحابة الكرام ﷺ، ثم ورثتُهم من الأولياء والصالحين والصادقين.

وتهيم الأرواح اللطيفة في سماء روحانيته، وتذوب القلوب الرقيقة في بحر محبته، حتى تفنى الأرواح والقلوب في عشقه، وتنعم في الدنيا نعيمًا يغرقها في الألطاف الإلهية.

إن أرقى النماذج البشرية في السمو والكمال على مدار التاريخ هم أولاء الذين اتخذوا من الرسول ﷺ مصدرهم النوراني، ونبعهم الإيماني، وفيضهم الروحاني، واتخذوا من محبته علاجًا ربانيًا لقلوبهم، ومددًا إلهيًا لأرواحهم.

ولنا أن نذكر هنا أن محبة النبي ﷺ هي أكثر علاج مؤثر في القلوب المريضة الغافلة.

ومن بين الأمثلة على رفعة خلقه وأخلاقه وسلوكه:

كان وجه رسول الله ﷺ المبارك أجمل وأطهر الوجوه، وحين هاجر إلى المدينة كان عبد الله بن سلام وهو من أحبار اليهود يسأل عن رسول الله ﷺ بفضول، وما إن رأى وجهه المبارك حتى قال:

«**أن وجهه ليس بوجه كذَّاب**»، وأسلم حينها. (الترمذي، القيامة، ٤٢/ ٢٤٨٥؛ أحمد بن حنبل، مسند، جـ٥، ٤٥١)





لقد كان الوجه الكريم وحده معجزة ودليلاً وبرهانًا على نبوته ﷺ؛ لأنه كان انعكاسًا لروحانيته، ومرآة لسريرته، ومظهرًا لنورانيته. كان الوجه الكريم للنبي ﷺ كتابًا مفتوحًا يقرأ الناظرون إليه أحوال الإنسان الكامل وأخلاقه ومشاعره، والنبي النوراني، والرسول الرباني؛ حتى كان أصحابه ﷺ يعرفون رضاه وغضبه من محياه، ويعرفون رغبته في شيءٍ ما أو رغبته عنه من قسماته، لقد كانت حركاته وسكناته وإشاراته وقسماته دليلاً على مشاعره وباطنه، وهي سُنة واجبة الاتباع لـمَنْ أراد سلوك طريق النجاة، ولـمَنْ أراد لقلبه طريق السلامة.

لقد كان أول نور خلقه الله تعالى هو نورَ محمد ﷺ، وكان الإنسانَ الكامل في خَلْقه وخُلُقه، فقد كان الجسد الشريف قويًا نشيطًا يحمل عزيمة ماضية، مع حياء شديد هو أشد من حياء العذراء في خدرها، وكانت الحكمة تتفجر ينابيعُها من لسانه الشريف، ولا يعرف الفم الشريف من الغيبة أو النميمة أو اللغو شيئًا؛ بل لا ينطق إلا بالحق، ولا ينطق عن الهوى؛ يخاطب الناس على قدر عقولهم، ويوصل المفاهيم للناس على قدر مداركهم، لينًا سهلاً متواضعًا، دائم التبسم، ضحكه تبسمًا لا قهقهة ولا لغوًا، ذا وقار ومهابة، يحبه مَنْ يراه، ويعشقه من يألفه، وتفيض بركات نوره وأخلاقه وفضائله على كل من حوله أو مرَّ به.

أما معاملاته ﷺ فقد كان يُنزل الناس منازلهم، ويعرف لذوي الفضل فضلهم، رفيقًا بأهل الضعف، مُكرمًا للضيف، خيرَ الناس في معاملته للأهل والأصحاب، أغدق الناس على الأقارب، أكثر الناس عطاءً لكل سائل وطارق، أكثر الخَلق رفقًا ولطفًا.

يقول الرسول ﷺ في الحديث الشريف:

«**لا يؤمن أحدكم، حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**» (البخاري، الإيمان، ٦؛ مسلم، الإيمان، ٧١-٧٢)





كان خلقه الكريم ﷺ يوازن بين الشجاعة والحلم، ويجمع بين الرأفة والرحمة والكرم والعطاء؛ حتى إنه لم يكن يلبس أو يأكل دون خدمه، ولم يسمعوا أو يجدوا منه ما يجرحهم قط.

وأما وعده فكان مُنجزًا، وعهده ثابتًا، وقوله صادقًا، كثير الصمت تغشاه السكينة، لا ينطق إلا بمقدار، مفوهًا بليغًا قد أوتي جوامع الكلم، يسترعي إليه آذان السامعين وقلوب المستمعين.

وكان صمته فكرًا ونطقه ذاكرًا، دائم التفكر، يطول حزنه خشية لله وشفقة على الأمة، ولا تنقطع ابتسامته أملاً في الله وبشرى للأمة.

لا يستثير غضبَه شيء من أمور الدنيا، إلا أنْ تُنتَهك حرمةٌ من حرمات الله، ولا يدخل في شيء من الجدال أو المراء، ولا يغضب لنفسه؛ يراعي مشاعر الناس أشد ما تكون المراعاة، حتى إنه لم يدخل بيت أحد دون استئذان، حتى بيوت زوجاته.

وكان وقته مقسمًا بين ثلاثة: وقت في عبادة الله، ووقت في معية أهله، ووقت لِذاته، ويشاركه في القسم الثالث العوام والخواص، وكلٌّ آتٍ يطلب الهدى والنصيحة وفيوضات النور النبوي.

وكان ﷺ دائمًا في معية الله تعالى، وكنفه، عبادة وذكرًا وتفكرًا.

ورغم قدسية المسجد فإنه لم يتخذ فيه مكانًا محددًا، يقوم فيه أو يصلي أو يعظ، ولم يُرِدْ أن يضفي قدسية على مكان ما، ولا يضفي على نفسه مكانة ما تكبرًا بالمكث في مقام ما؛ بل كان يجلس حيث ينتهي به المجلس، ولا يتصدر مجلسًا أو يتخذ فيه كرسيًا أو مكانًا متميزًا، وكان يأمر أصحابه بذلك.

لا يردُّ صاحب حاجة حتى يقضي له حاجته، عاجلة أو مؤجلة، مادية أو معنوية، فإن لم يستطع قضاءها عوَّض صاحبها بدعوة أو عظة أو نصيحة، يعيش بين الناس





كواحد منهم، فعلى سمو مقامه وقدسية مكانته عند ربه وعند المؤمنين؛ إلا أنه ﷺ كان شديد التواضع، شديد التواصل والتعايش مع الناس، يشاركهم أتراحهم وأفراحهم وحياتهم ومواقفهم، لا فرق عنده بين غنيهم وفقيرهم، ولا بين سيدهم ومولاهم، رابطة الإنسانية والإسلام هي التي تجمع الناس وتزن مقاديرهم عنده.

وكانت مجالسه ﷺ نبراسًا للهدى وفيضًا للنور، ونبعًا للفضائل الكبرى من الحلم والعلم والحياء والصبر والتوكل والأمانة.

يعالج أصحاب المعايب والنقائص بالإشارة والتلميح، ولم يُعرف عنه قط أنه فضح أحدًا بالتصريح، إنما هي إشارات لطيفة، وإيماءات لا تجرح المشاعر، فيقول في حديثه معرضًا: ما بال أقوام، ما بال أحدكم،... وغيرها من إشارات عامة، لم تكن عيوب الأشخاص تشغلُه إلا بقدر رغبته في إصلاحها، ولا يتبعها تجسسًا ولا ظنًا؛ بل كان ينهى عن ذلك ويزجر.

ومن أحاديثه ﷺ:

«**لا تُظهر الشماتة لأخيك فيرحمه الله ويبتليك**» (الترمذي، القيامة، ٥٤)

كلماته وأحاديثه إنما هي في شؤون الآخرة، وما يوصل إلى نعيمها من أفعال وأعمال، يفيض منها الوجد، وتغمرها السكينة، وتشع منها المحبة.

وحين يتكلم يُفتَن مَنْ حولَه بروعة كلامه، ويمسي آذنًا صاغيةً له، وقد روى سيدُنا عمر رضي الله عنه أنهم كانوا يستمعون للنبي ﷺ الساعات الطوال بسكينة وكأن على رؤوسهم الطير، لقد كان الأدب الذي ينعكس على الصحابة والحياء من النبي ﷺ في أعلى درجاته، حتى إنهم كانوا يَعُدُّون سؤالَه نوعًا من التطاول على النبي ﷺ، لذلك كانوا ينتظرون قدوم أعرابي يسأل النبي ﷺ كي يستفيدوا من فيوضاته وروحانيته. (انظر: ابن سعد، جـ١، ٤٢٢-٤٢٥؛ الهيثمي، جـ٩، ١٣)





ويوضِّح أبو هريرة رضي الله عنه سعة رحمة النبي ﷺ ورأفته في روايته التي يقول فيها:

قيل لرسول الله: يا رسول الله ادعُ على المشركين، فقال:

«**إني لم أُبعث لعَّانًا، وإنما بُعثت رحمة**» (مسلم، البر، ٨٧)

ويقول الله تعالى في القرآن الكريم واصفًا حبيبه ﷺ:

﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾ (الأنبياء، ١٠٧)

ويقول شيخنا أحمد الرفاعي -وهو من أولياء الله تعالى- ناصحًا أبناءه وإخوته في الدين:

«يا طالب العرفان، انفق كل ما تملك في سبيل الله، واتَّبع السُنة الشريفة لرسول الله ﷺ، وأمضِ أيامك ولياليك في عبادة مليئة بالخشوع، ولتكن معاملتك دائمًا معاملة حسنة... فبهذا فقط تستطيع أن تصل إلى المعرفة، وما لم تفعل ذلك فلن تنال نصيبًا من ذلك كله، وإن لم يكن حالك كحال النبي، فستبقى عبدًا ناقصًا».

هذه الجولة السريعة في روضة الأخلاق النبوية الفيحاء هدفنا منها أن نتنسم من عبير هذه الجنة الغنَّاء، وأن تتساقط على أرواحنا قطرات الندى، فتروي ظمأها، وتُنبت في أرضها من خيرات الفيض النبوي، فالوصول إلى الله تعالى له طريق وسر، هو العيش بقلب خالص في ظلال كتاب الله تعالى وسُنة رسول الله ﷺ، وليس هناك دافع وحافز على ذلك مثل محبته ﷺ، وكراهية كل من عاداه.







خلق الله الدنيا وجعل من مشاهدة ما بثَّ فيها من إبداعات مصدر تفكر وعبادة وآيات لأولي الألباب، بينما هي عند الحمقى مجرد لعب ولهو وزينة.

 

٤. رؤية العالم بقلبٍ صافٍ

إن الإنسان الذي ارتقى بقلبه ليصل به إلى مرتبة «القلب السليم» عبر المجاهدات البشرية والتربية الصوفية والألطاف الإلهية، ووصل إلى حالة الطهر والصفاء والربانية، هو إنسانٌ في صورته، لكنه كالملائكة في مقامه وسيرته.

وبعض مَنْ وصل إلى هذه الدرجة هم كالنجوم التي تحتل موقعًا بين ملايين النجوم في هذا الفضاء، يعيشون في خفاء بالنسبة إلى العالم الخارجي، ويحيون في عالمهم الخاص، ولا يُعرفون أبدًا.

وبعضهم الآخر قد يعيش ظاهرًا في دنيا الناس وعالمهم، إذ يؤدي مهامَّ ووظائف اجتماعية موكولة إليه، وهؤلاء ممَنْ حظوا بالخلود والحياة بعد الموت؛ إذ يصيرون في حياتهم قادة وقدوة، وبعد وفاتهم نبراسًا وأسوة، وطوال تاريخ البشرية مشاعل هداية؛ لا بل يستمرون في وظائفهم البشرية حتى بعد انتقالهم إلى دار القرار.

ويدركون السبب النهائي في سلسلة الأسباب الموجودة وراء الحوادث، أي إنهم يدركون الإرادة الإلهية، ولهذا يعيشون وهم محيطون بالحكمة ومُظللون بالطمأنينة والسكينة، ويُمسون مصونين عن كثير من حالات الضَعف البشري مثل الاضطراب والقلق.





فبالنسبة إليهم لا شيء اسمه «عبث»، إذ إنهم يبدؤون مرحلة الترقي المعنوي بعبارة «اصفح عن المخلوق من أجل الخالق»، وينظرون إلى العالم بأحاسيس مليئة بالعِبرة والمحبة والدهشة، ومدركين الحكمة من وراء الأحداث.

فنظرتهم إلى الكون هي نظرة قلبٍ مفعم بالجمال، يسهل عليه رؤية الجمال وإدراكه في كل شيء حتى في الصحراء الجرداء، فيرى تموجات رمالها وصفير رياحها لوحة سمعية بصرية بديعة، رغم ما تثيره لدى الناس من ذعر؛ حتى غروب الشمس وإقبال الليل وحِزَم الضوء التي تتسرب أشعتها عبر غيوم السماء التي قد توحي للبعض بخوفٍ من يوم شاتٍ ممطر ذي رعد وبرق، بينما هو يوحي لهم بمشهد لوحة إعجازية سماوية ترسمها القدرة الإلهية.

حتى الحيوانات والهوام المتوحشة لا ينظرون إلى وحشيتها وأظلافها ومخالبها وسمومها نظرة الإنسان الخائف من عداوتها؛ بل نظرة الفنان المفتون بألوانها وحركاتها وعجائب أشكالها وقدراتها، وما منحها الله تعالى من خصوصيات.

أمثال هؤلاء الأولياء لا يضرهم خوف الهوام ولا تضيرهم وحشية الوحوش؛ بل يسلِّمهم الله تعالى من أذى مخلوقاته، لأنهم نظروا إلى كل خلقه نظرة العِبرة والاندهاش، وجعلوا المحبة رابطة بينهم وبين هذه المخلوقات، لأنهم جميعًا من صنع الله تعالى، فالمحبة تجعل الـمُحب دائمًا في طاعة المحبوب وفي كنفه وفي رباط معه، كأن التأثير بينهما ينتقل عبر إشعاعات غير بصرية؛ إنما هي إشعاعات قلبية تحكم وتتحكم وتفعل الأعاجيب.

والأولياء تختلف نظرتهم للكون عن نظرة الإنسان العادي؛ تمامًا كاختلاف نظرة الشاعري الرقيق إلى مشهدٍ ما في اللوحة المرسومة وفي الطبيعة المخلوقة، شتان بين المشهدين وشتان بين النظرتين، فهذا الجمال الكوني الخلاب ما هو





إلا «عمل عادي» منقول على لوحة وألوان، فاقدة الإحساس مهما كانت مشابهة للواقع، فاقدة الحياة مهما كانت نابضة بالجمال.

الفرق بين المشهدين كالفرق بين النظرتين، نظرة أولياء الله تعالى ذوي القلوب الصافية التي ترى من الجمال والإبداع ما لا يراه البشر العاديون بأبصارهم المحدودة، وقلوبهم المتعبة، ومشاعرهم الكليلة.

إن قلوب الأولياء تتلذذ بمشاهد الإبداع الإلهي، وتندهش بعجائب الإبداع الإلهي، وتسجد مسبِّحةً لقدرة الخلق الإلهي، والتي يراها غيرهم كل يوم، فيمرون عليها وهم عنها معرضون.

فهذه الأرض قطعٌ متجاورات تُنبت الأشجار المتنوعة، والفواكه الكثيرة، رغم أنها تُسقى بماء واحد.

وهذه الأزهار التي تتفتح، فتتفتح معها آفاقٌ من التسبيح بالجمال ورب الجمال، أرضها واحدة وطينها واحد، وألوانها شتى، وإبداعها ليس له حدود.

وهذه اليرقات العمياء الصماء؛ سرعان ما تتحول إلى فراشات تخطف الأبصار، وتخلب الألباب بإبداع ألوانها.

ولا نذهب بعيدًا، فالآيات لا تحتاج إلى رحلة في الكون؛ بل لا تحتاج إلى سمع وأبصار: ﴿**وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ**﴾ هذا الجسد الإنساني الذي يحمل في كل جارحة آية، وفي كل عضو معجزة؛ بل في كل خلية عجائب وغرائب.

ولمثل هؤلاء فقط يغدو الكون كله كالكتاب الـمُعدِّ للقراءة، فقد تجاوزوا العلم الموجود في السطور، ووصلوا إلى علم الصدور، وخير مثال على ذلك مولانا جلال الدين الرومي الذي كان في وقت من الأوقات مدرِّسًا مُنكبًّا على الكتب في مدرسةٍ سلجوقية، حتى أصابه قبس من إرشاد الدرويش البسيط شمس الدين الذي كان قلبُه مليئًا بالعشق، وما إن أخذ مولانا ذلك القبس حتى





بدأ بالاحتراق بنيران العشق، وبعد أن وُلد مولانا من جديد في العشق على هذا النحو، غاص في بحر العلوم الباطنية بعد أن أكمل كتب العلوم الظاهرية، وعلى هذا الأساس بدأ بقراءة أسرار الكون وحقائقه، وبعد أن أكمل مولانا هذه المرحلة من حياته، ظهر كتابُه المليء بالنُذُر المسمَّى بـ«المثنوي» الذي كشف أسرار القرآن والإنسان والكون، والحكم الكامنة فيها.

ولا يمكن للمؤمن التحلي بمثل هذه الأحوال إلا بمقدار ترقِّي العشق والاستعداد والمقدرة في قلبه. أو كما يقول ابن عطاء الله السكندري في حِكَمه:

«ورود الإمداد بحسب الاستعداد، وشروق الأنوار على حسب صفاء الأسرار».

«فإذا تحقق الاستعداد، وصَفَتِ الأسرار، وطَهُرَت السرائر، ووصلت القلوب إلى ذروة السمو، صارت محلاً للتجليات الإلهية؛ بل يصبح القلب مركزًا للأرض وقطبًا تدور حوله الألطاف».

وها هو المُلا جامي يؤكد حقيقة «كعبية القلب» أي إن القلب صار كالكعبة؛ بل أعظم، فيقول:

«إن الكعبة بناها إبراهيم بن آزر، أما القلوب فهي محل نظر الله العلي العظيم».

إن تشبيه القلب بالكعبة يَرِدُ كثيرًا في كتب مناقب المتصوفة، وذلك لأن موقع القلب في الإنسان الذي هو جوهر الكون يشبه إلى حد كبير موقع الكعبة بالنسبة إلى الكون، والحق أن القلب والكعبة كليهما يُعدَّان مركزَين تحلُّ فيهما التجليات الإلهية ونقطتَين لتموضعها.

حتى إن بعض كُتَّاب المناقب يبالغون أحيانًا في تفضيل القلب على الكعبة، إما لشدة الوجد وطغيان العشق على الأفهام، وإما تأكيدًا لأهل السلوك على أهمية الإرادة البشرية في الوصول بالقلب إلى أرقى الدرجات وأرفع المستويات، ولتحفيز المجاهدين في الطريق على التنافس في نيل هذا الهدف السامي.





ويلفت انتباهنا هنا خِطابُ ابنِ عمر ﵁ للكعبة المشرفة ويقصد به أصحابَ القلوب الذين صارت قلوبهم محلًّا للتجليات الإلهية، إذ يقول:

«ما أعظمكِ وأعظمَ حرمتك، والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك» (الترمذي، البر، ٨٥)

والقلب هو موضع الإيمان، ونفهم من كلام ابن عمر ﵁ أنَّ قلبَ المؤمن الكامل أفضلُ من الكعبة.

ويقول مولانا جلال الدين الرومي مؤيِّدًا هذه الحقيقة:

«إذا كنت تملك البصيرة، فطُف حول قلبك! فالمعنى الحقيقي للكعبة التي تعتقد أنها مصنوعة من تراب هو القلب».

«لقد فرض المولى ﷻ الطواف الذي تراه وتعرفه حول الكعبة كي تكون صاحب قلب طاهر خالٍ من كل معصية».

«ولتعلم جيدًا أنك إذا ما جرحت أو كسرت قلبًا هو محلُّ نظر الله تعالى فلن يوازي الثوابُ الذي أخذتَه من الذهاب إلى الكعبة –حتى لو مشيًا– الذنوبَ التي اكتسبتها نتيجة كسر القلب».

ويبيِّن الشيخ عبد القادر الجيلاني شرط الوصول إلى هذا السمو بقوله:

«لا يمكن أن يكون القلب كعبةً إلا حين تطهِّره مما سوى الله، ويكون طالبًا لمعرفة الله».

ويقول إسماعيل حقي بورصوي في هذا الموضوع:

«إن مَنْ يدخل القلوب أفضل ممَنْ يدخل الكعبة، لهذا السبب يقولون للعباد الصالحين وأولياء الله: (لا تخرجونا من قلوبكم)، وهكذا يستمدون الفيوضات، ويطلبون الهمة»[١٥٣].

---

١٥٣ استمداد الفيوضات: طلب الفيوضات.
طلب الهِمَّة: طلب اهتمام المرشد.





ويوضِّح الإمام الرباني رَحِمَهُ اللَّهُ حقيقة أن الإنسان «كون صغير» بقوله:

«إن الإنسان هو خلاصة العالم المصغَّر، وبناءً على ذلك، نجد في الإنسان مثالاً على كل شيءٍ موجودٍ في العالم».

ومعنى ذلك أن الإنسان الكوني هذا يدور في الفضاء الواسع بين قطبين مغناطيسيين هما الخير والشر، فإما أن يجذبه أحدهما، أو ينجذب هو إلى أحدهما، وغاية كل تكاليف الدين، وغاية كل ممارسات التصوف هو أن تُضعِف نوازع اجتذابه إلى الشر، وأن تُقَوِّي نوازع اجتذابه إلى الخير.

ولا محيص من استخدام كل أعضاء الجسد الكوني في هذه المهمة المصيرية، وعلى رأسها يأتي القلب؛ إذ هو مركز الإحساس، ودفة الفكر، وزمام الإرادة ومصدر كل الأفعال الاختيارية.

لكن القلب غير خاضع للإرادة، وهو أشد الأعضاء استقلالية وحرية، بل هو المتفرد بذلك؛ لذا فهو أصعبها مراسًا في التطويع لأوامر الله، وأكثرها احتياجًا للاهتمام والرعاية والموالاة الدائمة تطهيرًا وتحصينًا وعلاجًا وتزكية.

وعلى قدر المشقة يكون الأجر، فالذي جاهد في تزكية قلبه وإخضاعه لأوامر الله؛ ينال لطف الله تعالى الذي يمنحه لعباده، والذي يرتقي بهم إلى درجة الملائكة؛ بل أسمى وأعلى.

ولأن القلب ووجوده المعنوي المسمى بالفؤاد ذو أهمية كبيرة لضمان سعادة الإنسان وسلامته، فإن جرحه من أي شخصٍ يُعدُّ جُرمًا عظيمًا عند أرباب التصوف كلهم.

ويقول مولانا الرومي محذِّرًا من جرح القلب:

«إن القلب المكسور الذي لا تعطيه أي أهمية، وتنظر إليه كأنه قشة هو أسمى من العرش والكرسي واللوح والقلم!.. فلا تحتقرنَّ القلب ولو كان ذليلاً! فذلك





القلب على الرغم من ذلِّه أسمى من أسمى شيء، وذلك القلب المكسور هو المخلوق الذي ينظر إليه الله تعالى، ولَكم هي مباركة تلك الروح التي تصلحه، فإعمار قلب مكسور محطَّم لمئتي قطعة أفضل من كثير من الحسنات وأعمال الخير عند الله ﷻ... صه! فحتى لو كان في كل شعرة منك مئتا لسان، لن تستطيع شرح القلب والتعبير عنه».

إن للقلب أهميةً تفوق أهمية الأعضاء الأخرى؛ لأنه يحتل موقعًا رفيعًا في جسد الإنسان، وهو محل انعكاس التجليات الإلهية، والذي يتلقى هذه التجليات، وكما ذكرنا في الأعلى، نرى أن «التصديق بالقلب» شرط لتحقيق الإيمان، والآية الكريمة التالية تذكِّر أن الوحي خاطبَ القلب الذي هو مركز الإحساس، لا الدماغ الذي هو مركز التفكُّر:

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ. بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (الشعراء، ١٩٣-١٩٥)

ومع السعي البشري الدؤوب في تربية القلب يحتاج المرء إلى اللطف الإلهي العجيب في إتمام هذه التربية، فالسعي البشري هو توجيه الإرادة، والمدد الرباني هو إنجاح الصادق في هذه الإرادة، وعلى السالك في الطريق أن يعلق آماله -بعد سعيه- على كرم الله تعالى، الذي لا يُعجزه شيء، ولا يبخل على عباده بشيء، وقد قال الحبيب المصطفى ﷺ: «**استعن بالله ولا تعجز**».

وكان من أقوال السلف الصالح: «ما لا يُدرَك كلُّه لا يُترَك كلُّه»، ولا بُدَّ من التفكير على هذا النحو أثناء تربية القلب، إذ لا يجب التقصير في تحقيق ما يمكن تحقيقه.

وفي التصوف مثل شائع هو:

«مدد يا أبي، سعي وعمل يا ولدي»، أي أن مَنْ ينتظر مددًا من شيخه، لا بُدَّ أن يسعى حسب طاقته، وما يطلبه الله -صاحب اللطف والكرم اللامحدود- من





عبده أثناء تربية قلبه هو السعي الحقيقي والخالص لوجه الله تعالى بإدراكه عجزه و«فنائه» أمام العظمة الإلهية، وبمقتضى الحكمة التي تقول: «مَنْ عرف نفسه عرف ربه»، فإذا ما كان السعي لمجاهدة النفس من العبد، فالتوفيق من الله تعالى، ولا شكَّ أن الله ﷻ سيحاسب عبده وفقًا لما لطف عليه، والمهم هنا هو أن يتوجه العبد للحق والخير بقَدر النعم التي تلقَّاها من المولى ﷯.

فيا ربِّي أرِنا بوارق الحقيقة في قلوبنا وأسرار وحِكم الدنيا والآخرة، وأنِر أبصارنا وأفئدتنا، كي نتشرف بجمالك في الدار الآخرة!

آمين







لن يبلغ الإنسان مصافَّ الكمال مالم يتجرد من كل صفاته السلبية السيئة، ويتخلق بأسمى الأخلاق الإنسانية، وذلك حين يراعي أشواق القلب وتطلعات الروح وحاجات النفس.

 

ت. المبادئ الأساسية في التربية الصوفية

لقد وضعت الطرق الصوفية أصولاً وقواعد هي بمثابة القوانين في السَير والسلوك، لاسيما لدى الطريقة النقشبندية، ولهذه القواعد والأصول رعاية وأهمية خاصة، فهي التي تؤهل المريد حالًا ومقالًا لترتقي به نحو الكمال درجة بعد الأخرى.

ومن هذه المبادئ تلك التي وضعها ونظمها أحد كبار المتصوفة وهو الشيخ عبد الخالق غجدواني رحمه الله، وهي بمثابة المعايير المعنوية التي تربي وتقيس هوية الإنسان الكامل، وهي كالتالي:

١. **هُوشْ دردم**: أي الذكر مع كل نَفَس يتنفسه العبد، والوعي روحانيًا لهذا الذكر، والحذر من الغفلة عنه.

ويعرِّف مولانا سعد الدين كاشغري هذا المعيار بقوله: «هو عدم السقوط في الغفلة أبدًا حتى حين الانتقال من نَفَسٍ إلى نَفَسٍ آخر، والبقاء مع الله دائمًا وأبدًا».

(رشحات، ص٦٣)

يقول الشيخ نقشبند: «إن مبنى هذه الطريق على النَفَس، فينبغي لك أن تحفظ النَفَس وقت الدخول والخروج، بل تحفظ ما بين النَفَسَين!»





إن البقاء واعيًا مع كل نفَسٍ عند الذاكر هو عدم الغفلة عن الله تعالى أثناء أوقات الذكر وسائر الأوقات. وتخليصُ الأنفاس من الغفلة يمنح القلبَ الطمأنينةَ، وبقاءُ قلب العبد مع الله تعالى في كل نفَس يتنفسه منوطٌ بإحياء الأنفاس ببركة طاعة الله ﷻ، وحين تستقر طمأنينة المعيَّة في قلب الإنسان، فسوف يستشعر التحسن في كل أحواله ومواقفه.

٢. **نَظَرَ بَرْقَدَم**: وهو المشي بالنظر إلى طرف القدم، أي إن على السالك المشي في الطريق ناظرًا إلى قدمَيه، كي لا يشغل العين والقلب والجوارح بما حوله، فالعلاقات التي لا تكون مع الله تعالى وتجاوز حدودها، تُذهِب طمأنينة القلب، وتضع حجابًا بين العبد وربِّه.

وهذا الأصل في حد ذاته ما هو إلا تطبيق للسُنَّة في صفة مشي النبي ﷺ، إذ لم يكن الرسول الكريم ﷺ كثير التلفت، ولا ينظر حوله من غير ضرورة أثناء مشيه، بل ينظر إلى طرف قدميه، ويمشي بوقار وسرعة كأنه ينحدر من مكان عال، أي إن هذا المبدأ مقتبسٌ من الأخلاق الـمُثلى لرسول الله ﷺ.

فالنظرة بوابة الفؤاد، والعين رسول القلب وقلمه، تدوِّن في القلب ما تنظر إليه، وتسجل في النفس ما تراه، ويصير القلب أرشيفًا يحفظ ما تورده عليه العين، وكأن العين كاميرا تصوِّرُ كلَّ ما تمر به، ثم ترسله إلى القلب، فتجعله متخمًا بغثاء كثير من شواغل الدنيا وتوافهها، وتشغل منه حيزًا كبيرًا كان جديرًا أن تشغله فيوضات الله تعالى؛ لذا فعدم الإسراف في النظر وقصره على المهم يجعل القلب متفرغًا لما هو أبقى وأنقى، ويتركه بعيدًا عن التشويش والانشغال والاستهلاك والهلاك، ولا تنعكس عليه من الصور إلا ما يوقظه ويطهره ويتركه سليمًا.

فالوساوس تبدأ حين يتعلق قلب السالك بما سوى الله تعالى، فإذا ما اختلط العبد مع الغافلين، فستنعكس قسوة قلوبهم وطبائعهم السيئة وأفعالهم الشَّنيعة عليه، وهي من أشد المخاطر.





فيجب على المريد السالك أن يجاهد اضطراب النظر وفضوله، وأن ينتبه إلى مواضع نظره، وما يعكسه من صورٍ على قلبه، وأن يمتثل دائمًا للسُنة النبوية في النظر أثناء السير، أدبًا وتواضعًا وحفظًا للقلب والنظر.

٣. **سَفَر دَرْوطَن**: يعني توجه السالكين إلى الهوية الحقيقية للعبد، أي إلى الأخلاق الحميدة والمشاعر اللطيفة، بعد تطهيرها من الأخلاق السيئة وتخليصها من ثقل الذنوب، كل ذلك إضافة إلى السير بقصد الوصول إلى المرشد الكامل.

وينبغي على السالك السعيُ والاجتهاد الدائم للارتقاء من مقامٍ إلى مقامٍ أعلى، وعدم الرضا أبدًا بالحالة المعنوية التي هو عليها.

يقول الشيخ أبو عثمان المغربي:

«يجب على السالك تركُ الهوى والنزوات، والرجوع إلى عبادة الله وطاعته. إن ما يُقْصَدُ بعبارة (سفر دروطن) ليس السفر من بلد إلى آخر، بل وصول الإنسان إلى الله ﷻ في عالمه الداخلي، وحين يجد السالك المرشدَ الكامل، فإنه يترك حينها الرحلةَ الظاهرية، ويبدأ رحلته الباطنية».

عبر هذا الدستور في السير والسلوك يُدرك السالك أنه يتجه إلى ربه في كل خطوةٍ يخطوها كما هو حال إبراهيم عليه السلام حين قال:

﴿**وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي**﴾ (الصافات، ٩٩)

٤. **خلوة دَرْ انجمَن**: هو قُدرة العبد على استحضار المعية مع الحق تعالى دومًا حتى لو كان بين الناس، أي أن يدرك السالك أنه مع المولى ﷻ في الباطن، حتى لو كان في الظاهر يختلط مع الناس وينشغل بالأعمال اليومية.

وبفضل هذا يستمر في صحبة الله تعالى دون أن يحسَّ عليه أحد ممَّن حوله، ولا يُنقِص في الوقت ذاته من مقتضيات الحياة البشرية، وتوضِّح هذه الحالةُ خيرَ توضيح العبارة القائلة: «اليد في الكسب، والقلب مع الرب».





ويصف الله في قرآنه الكريم عباده الذين يملكون مثل هذا القلب الـمُدرِك بقوله:

﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ (النور، ٣٧)

ومن أساسيات الطريقة النقشبندية صحبة الناس والاختلاط بهم، وليس اعتزالهم والابتعاد عنهم، فالخلوة النقشبندية ليست الخلوة بالجسد بعيدًا عن دنيا الناس وحياتهم، إنما هي الخلوة الدائمة بالقلب مع الله تعالى؛ حتى لو كان العبد يعيش بين الناس ويخالطهم.

٥. **يَادْكَرد**: وصول القلب إلى حالة الذكر، أي تثبيت فكرة أن المقصود الوحيد في القلب هو الله تعالى، بعد إخراج الأدران التي تشمل ما سواه تعالى، والتي تجذَّرت في القلب، عبر النفي والإثبات (بذكر لا إله إلا الله).

وحين تنتشر حرارة الذكر وتسري من القلب إلى سائر البدن، تنتقل المشاعر السامية المكنوزة في اللاشعور أيضًا إلى حالة الشعور، وتنعكس على السلوك، فالإنسان الذي يذكر الله تعالى ويكون فكرُه معه دائمًا لابد أن يأخذ نصيبًا من أخلاق الله مثل الرحمة والصبر والكرم والعفو، وهي كلها من الشروط الضرورية لكمال الإنسان، لهذا السبب نجد أن من أهم مبادئ التصوف تنبيه القلب بالذكر.

ووفقًا لبعض النصائح التي قدَّمها الشيخ «عبيد الله» نجد أن القصد من وراء الذكر هو بقاء القلب دائمًا مع المولى ﷻ، ولا بُدَّ من إضافة صفَتَي المحبة والتعظيم لهذه المعية. (رشحات، ص٦٩)

٦. **بَازْكَشت**: أي إن المطلوب والمقصود هو رضا الله وحده، والتفكر العميق في دعاء «إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي» بعد ذكر النفي والإثبات في التوحيد (لا إله إلا الله)، من أجل تأكيد معنى النفي والإثبات، وتثبيت سر التوحيد في القلب بمعناه الحقيقي.





وعلى هذا النحو يصل القلب إلى الاطمئنان بنفي الغايات والرغبات كلها التي تكوِّن حاجزًا بين العبد وربِّه، ومن ناحية أخرى تتأصَّل الغاية الأساسية وهي نيل رضا الله تعالى في القلب مرة أخرى، وذلك بطرد الوساوس كلها التي قد تدخل القلب، ومن هذه الوساوس أن غاية الذكر -الذي هو تدريب روحاني- هي ارتقاء المراتب ونيل الكرامات.

وحين يأخذ معنى الذكر بهذه الصورة مكانه في الشعور، وينعكس على الحياة، ينعدم الهوس بالأمور الفانية، ويبدأ العبد برؤية التجليات الإلهية في كل شيء.

٧. **نِكَاه داشْت**: أي الوقاية من الخواطر النفسانية والشيطانية، والمحافظة على معنى النفي والإثبات في القلب.

ويعني الحفاظ على الجوارح من تلك الخواطر الشيطانية، فتحافظ على عينيك بعيدًا عن فضول النظر، وتحافظ على عقلك من شطحات الفكر، وتحافظ على قلبك من كل زيغ وغفلة وخطر، فهو محل نظر الله تعالى وفيوضاته، ومستقر وجوده في دنيا العبد وحياته.

وحماية القلب من المكاره أحد أهم أهداف التصوف، ولا ينال هذه الثمرة اليانعة أحد من الزُرَّاع إلا بعد طول عمل ورعاية ومجاهدة.

٨. **يادداشت**: يجب على العبد أن يستحضر دومًا في عقله وقلبه أنه تحت نظر الله تعالى في كل وقت، وبهذا الشعور يهتم بأعماله وأفعاله، ويطلق على هذا اسم «المراقبة»، وجميع المبادئ التي ذكرناها إلى الآن هي لتحقيق هذا الحال.

يقول الله تعالى في الآية الكريمة:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (ق، ١٦)





هذا القرب الإلهي المتجاوز للعمق البشري يؤكد للإنسان أنه دائمًا تحت رقابة شاملة لا يعزب عنها مثقال ذرة من عمله، ومَنْ أراد النجاة من حال العبيد إلى حال العباد، والوصول إلى حال «المراقبة»، فعملية اللجوء إلى معنى «الإحسان»، وهو: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» ذلك المعنى والشعور يجعلك واقفًا دائمًا بين يدي الله سبحانه، وحينها تستحيي الذنوب أن تقاربك، وتخجل أنت أن تقترفها.

٩. **وقوف زماني**: هو التدقيق في كل ساعة تمر في حياة العبد، هل مرَّت بـ «حضور» أم بـ «غفلة»؟ وتقويم الوقت خير تقويم.

فيجب على السالك أن يعرف قيمة الوقت جيدًا، ويترك الأمور غير الضرورية، ويخصص وقته للأشياء القيّمة، وبحسب تقديره للوقت سيحاسب نفسه مرارًا وتكرارًا.

و«وقوف زماني» بمعنى آخر هو أن يعلم السالك حاله في كل لحظة، والعمل بموجب معرفته لحاله، أيتطلب الشكر أم الاستغفار؟

ووقت الإنسان هو حياته وعمره، ووقت السالك هو ميدان جهاده وسيفه ورمحه، وعليه أن يحسن استثمار كل لحظة في ذلك الوقت؛ ليدرك مَنْ سبقوه، ويسابق مَنْ زاحموه، ويتغلب على عواقب الدنيا الكؤود، ونزغات الشيطان الرجيم، وما أعد له أعداؤه من مثبطات وعقبات دون الوصول إلى الكمال والارتقاء إلى خير حال.

وعلى السالك أن يتفحص كلَّ لحظة... هل كانت لحظة عمل صالح فيشكرَ الله تعالى عليها، أو لحظةَ عملٍ طالح فيستغفرَ الله تعالى منها، أو لحظَةَ غفلةٍ فيتوبَ إلى الله عنها، وعن تضييعِ عمرهٍ وتفويت جهاده؟

ولابد أن يدرك السالك حقيقة قيمة الوقت وأنه من أثمن الأشياء، فإذا فات لا يعوّض وإذا مضى لا يعود، ولا يملك الإنسان أثمن منه لا مالاً ولا جاهاً ولا سلطاناً.





وثمة مبدأ مهم في الصوفية يخلصك من الحيرة في إضاعة الأوقات بين الماضي والحاضر والمستقبل، يقول: «الصوفي ابن وقته». أي يجب عليه أن يتخلص من الالتفات نحو هموم الماضي، وأن يتخلص من القلق تجاه غموض المستقبل، وأن يتخلص من كل غفلة تضيع عليه وقته ولحظاته، وأن يركز أشد التركيز على حالته الحاضرة، ولحظته الراهنة، فيستثمرها أنفع استثمار، ولا يضيع منها مثقال حبة من خردل، وأن يكون على حذر شديد من الغفلة، ويكون في أشد درجات محاسبة النفس على حال كل لحظة، فما مضى من لحظاته في حضور قلب يجب أن يشكر الله عليه، وما مضى من لحظاته في غفلة يجب أن يتوب إلى الله تعالى منه، أي: يداوم الاستغفار في حالة القبض، ويداوم الشكر في حالة البسط.

١٠. **وقوف عددي**: مراعاة عدد الذكر والانتباه إليه.

فالمرشد الكامل يعطي السالك مقدارًا معيَّنًا من الذكر بحسب حالته المعنوية، فللوصول إلى النتيجة المأمولة من الذكر هناك عدد محدَّد لا بد من تكراره، فهي بمثابة جرعة إذا ما جاز التعبير هنا، لهذا السبب ينبغي على السالك أن يراعي العدد الذي أعطاه إياه المرشد والمعيار الذي حدده كي لا يتشتَّت انتباهه، ويقع قلبه في الوساوس أثناء الذكر.

فمهما كانت نوعية الذكر مهمة، فإن عدم تحديد مقدار الذكر قد يتسبب في انعدام الحضور الذهني والقلبي أحيانًا، وهذا الحال هو نتيجة للأخطاء التي تنشأ من الإفراط في الذكر، كما هو الحال في الأمور الأخرى، لذا يجب السعي لأداء الذكر على أجمل صورة، مع مراعاة النوعية والكمية، وليس المقصود من مراعاة عدد الذكر هو الأرقام المجردة، بل هو التعمق في «الذكر القلبي» في إطار العدد، ومن الواضح أن كمية الذكر لا تقف عائقًا أمام نوعيته بل هي شرط يقوِّي الذكر ويدعمه.





والحق أنه لا يمكن مراعاة عدد الذكر في كثير من الأوقات حين يكون الذهن مليئًا بأفكار مختلفة، والقلب بعيدًا عن الطمأنينة نتيجة الهموم المتنوعة، لذلك فإن حماية العقل من التشتُّت، والتركيز على المعنى الحقيقي للذكر، ومراعاة عدده، كل هذا يعني الجديَّة في هذا العمل.

١١. **وقوف قلبي**: هو انشغال القلب دائمًا بذكر الله سبحانه، أي هو الإحساس دائمًا بشعور الإحسان، فالسالك يتفقَّد قلبه وينظر في حاله كل حين.

والغاية الأساسية من الذكر هي معرفة القلب الذاكر بالرب المذكور، إذ ليس الذكر مجرد تكرار ألفاظ لا تجاوز الفم إلى القلب، وإنما يجب على العبد أن يكون في حالة مراقبة أثناء الذكر، والسعي لتركيز انتباهه كله على مذكوره، وكان كبار المتصوفة يقولون إن الوقوف القلبي أي توجيه الانتباه إلى القلب هو شرط في الذكر، ولكي يتذوَّق الإنسان المعنى الحقيقي للذكر يجب عليه أن يتوجه بكيانه كله -لا سيما القلب- إلى الله جل جلاله.

يقول المولى عز وجل:

﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ (المزمل، ٨)







الصالحون الذين يملكون نفوسًا طاهرة، وقلوبًا نورانية، ينفثون من روحهم في أرواح السالكين..

 

ث. المرشد الكامل وطرق الإرشاد

١. المرشد الكامل

المؤمن الذي يتدرج في طريق الروحانية ويرتقي، يجد الكثير من التجليات والفيوضات، فهو يبحر بقلبه في بحرٍ لجي تتقلب عليه نواميس الكون، من الهدوء والسكون إلى العاصفة وجبال الأمواج، ومن بريق النجوم الهادية إلى برق الرعود الهادرة، وسفينة قلبه في ذلك البحر الهادر تحتاج إلى قبطان خبير وربان حصيف يقودها عبر الأهواء والأهوال إلى شاطئ النجاة، ويبلغ بها الضفة الأخرى وشاطئ الأمان، عابرًا بها بين العواصف والأمواج، متجاوزًا بها الأنواء والظلماء، وكل عوامل الإفناء في غياهب المحيط.

ومثل هذه التجليات والأمور لا تُرى في بداية الطريق، وتبدأ المظاهر التي لا تُعرف أرحمانية هي أم شيطانية تتراءى للسالك مع الدخول في عرض هذا المحيط، وتبدأ بعض الأحوال والتقلبات المعنوية التي تختلف من فردٍ لآخر مثل الانقباض والانبساط[١٥٤]، لذلك يحتاج السالك إلى هداية المرشد الكامل العارف من أجل تحديد هذه الأمور واتخاذ الاحتياطات اللازمة.

---

١٥٤ الانقباض والانبساط: هما حالتان متضادتان عند السالك. والانقباض هو الضيق المعنوي نتيجة المشاعر المرعبة وما شابهها، أما الانبساط هو الانشراح المعنوي بالأمل.





والوصول إلى الطريق المستقيم يتطلب من المؤمن أن يضع نفسه تحت نظام تربوي محكم ومتكامل، وليس ثمة أكمل من سُنة وسيرة النبي المصطفى ﷺ في حياته العادية والروحانية، فليسعَ كلُّ امرئ بحسب طاقته وقدرته في تحصيل القدر الأكبر من سُنته ﷺ، والامتثال لسيرته التي حوت كل المواقف والمصاعب والمغريات التي يمكن أن يواجهها مسلم في صبره وشكره وعسره ويسره، في تبسمه للبلايا وتخطيه للرزايا وتعاليه على الدنايا وتواضعه للخلائق وتساميه عن النقائص وتفرده بالخصائص.

وغيرها من الصفات النبوية التي تملأ دنيا المؤمن، والتي يقوم عليها ورثة الأنبياء من العلماء والعارفين والأولياء والمرشدين الكاملين، يتوارثونها كابرًا عن كابر، ويورثونها للسالكين تدريبًا وتعليمًا ومجاهدة وفيضًا، فليحرص كل سالك على صحبة هؤلاء المرشدين الأولياء لتنعكس عليه الصفات والأخلاق النبوية كما ينعكس نور الشمس على الدنيا عبر القمر، وهؤلاء المرشدون هم الأقمار التي تعكس الأنوار النبوية على القلوب البشرية.

وقد خلق الله تعالى الإنسان على فطرة الإسلام، ومهمة التصوف هي الانطلاق من هذه القاعدة الفطرية نحو المعالي، واستثمار الإمكانات المتاحة لدى المسلم مهما كانت درجة الاستعداد قليلة أو كثيرة، وما على أهل الطريق الصوفي سوى تنمية هذه الاستعدادات، ورعاية هذه البذرة في أرضها، فكأن هذه الفطرة وما فيها من استعداد معدن مدفون في أعماق الأرض، فعلى قدر الجهد الذي يبذله المنقِّبون في استخراجه تأتي النتائج، وعلى قدر المسبار الذي يغوص في أعماق الأرض بحثًا عن النفط، يتدفق هذا النفط جودة وغزارة.

والمرشد الكامل هو الذي يُخرج هذه الجوهرة إلى الوجود عبر استخدامه المسبار المعنوي للارتقاء بهذه الفطرة وتنمية استعداداتها، ولكن من الضروري أن يتعمق هذا المسبار إلى أن يصل إلى تلك المنطقة التي تحتوي على النفط





كي يخرج إلى الأعلى، ومن الضروري أن يكون المسبار قويًّا لكي لا يتحطم إذا اصطدم بصخرة كبيرة، وهذا يعني أنه من المهم جدًّا أن يكون المرشد الكامل الذي يخضع المرء لتوجيهاته المعنوية مقتدرًا وعارفًا، وثمة بعض المعايير المحددة لهذا الأمر، ونريد هنا أن نقدم لمحةً عن هذه المسألة المهمة بما أننا ذكرناها هنا:

حيث إنه يمكن معرفة المرشد الكامل الحقيقي عبر هذه الصفات الثلاثة الآتية:

الصفة الأولى: الاتباع التام للكتاب والسُنة

فحياة المرشد الكامل هي العيش بالقرآن، وعلى القرآن، وللقرآن، وهي تطبيق عملي لمعنى التأسي بالنبي ﷺ واتباعه ومحبته، لأن المرشدين هم «ورثة الأنبياء»، بمعنى أنهم هم المؤتمَنون على استمرار النبوة برسالتها وأخلاقها وأهدافها بين الناس إلى يوم الدين، فكل أفعالهم وأقوالهم وأعمالهم وخطواتهم دليل في طريق الله، دليل لا يصيبه زيغ، و طريق لا تقرب منه غفلة، ولا يدنو من هذه الرابطة المعنوية بين المرشدين والسالكين شيء من الحياة النفسانية؛ بل هي فيوضات روحانية نورانية.

الصفة الثانية: تذكيرهم بالله تعالى من خلال أقوالهم وأحوالهم

حيث نجد أن أولياء الله تعالى من عباده يذكِّرون من حولهم بالله تعالى دائمًا كل حين، لأنهم يتعرضون لتجليات أسماء الله بالكامل، وتنعكس الصفات الجمالية على أخلاقهم، فحين سأل الصحابة الرسول ﷺ:

«مَنْ هم أولياء الله؟»

أجابهم:

«**الذين إذا رُؤُوا ذُكر الله** ﷻ» (الهيثمي، مجمع الزوائد، جـ١٠، ٧٨؛ قارن: ابن ماجة، الزهد،٤)





وهؤلاء الأولياء من المرشدين الكاملين لا يحتاج مَنْ صحِبهم ولا مَنْ رآهم إلى طول الصحبة، ولا إلى درس وموعظة وخطبة، إنما التأثر بهم يتأتى بمجرد النظر إليهم؛ بل أكثر من ذلك، بمجرد الوجود في محيط معيتهم، كأنهم المادة المشعة التي لا تتوقف عن إرسال إشعاعاتها فيما حولها مخترقة كل الحواجز؛ دون إجراء أي معادلات كيميائية أو فيزيائية، فقد تشبعوا بإشعاعاتهم تلك من نور الله تعالى ومن معية رسول الله ﷺ، ففاضت فيوضاتهم على مَنْ حولهم دون أن ينبسوا ببنت شفة.

فقد تخلق أولياء الله بأخلاق الله تعالى واقتبسوا من نوره سبحانه، فجعل الله تعالى لهم نصيبًا من أسمائه وصفاته:

فاسمَا «الرحمن» و«الرحيم» هما من أكثر أسماء الله المعروفة، وقد رزق الله تعالى أولياء نصيبا من هذين الاسمين حتى صاروا على درجة عالية من الرحمة.

والحق جلَّ جلاله «ستار العيوب»، وولي الله لا يبحث عن العيوب بل يسترها.

والمولى ﷻ «كريم»، وأولياء الله هم أيضًا كرماء ويتلذذون حين يكرمون الناس.

والله ﷻ «غفور»، والأولياء أيضًا يغفرون الأخطاء والنواقص.

والخالق جلَّ في علاه «حليم»، وأولياء الله هم أصحاب الحلم.

لذا فهم يختلفون عن الناس اختلافًا كثيرًا، فقلوبهم للَّه أخشع، وعبادتهم للَّه أخضع، وأعمالهم للَّه أطوع، ودعاؤهم للَّه أسمع، ومقامهم عند الله أرفع.

هؤلاء هم الذين ساروا على خطى الحبيب ﷺ فكان لهم نصيب من أخلاقه ونوره، فهم يحملونها إلى كل مكان يحلون فيه، فينشرون فيه أريج النبوة ونورها، بعد أن صارت صدورهم فواحات بهذا الأريج، وصارت قلوبهم مرآة لهذا النور.





على عكس صحبة أهل المعاصي، فلهم ثقل معنوي ينوء به كاهل من يصحبهم من المؤمنين الصادقين، وسرعان ما يشعرون بوطأة هذا الصحبة الفاسقة، بينما تجد روحه السكينة والطمأنينة في كنف الظلال النبوية.

إنه لضرب من اللذة المعنوية لا يبلغها الخيال في صحبة المؤمن للنبي ﷺ نفسه؛ حين تكون في معيته وجواره وتحت ناظريه وبين يديه، ويتوجه خطابه الكريم إليك، إنها الجنة بعينها.

ومَنْ أراد القرب من هذه المنزلة فعليه بالمرشد الكامل، صحبة ومعية وجوارًا والتزامًا ومحبة، فالمرشد الكامل هو ذلك الإنسان الذي جعل من النبي ﷺ قدوته وأسوته وقائده في كل أفعاله وخطواته وخلجاته، وحتى في أنفاسه، فورث من علمه وأخلاقه، وصار مرآة لنوره وروضة لروحانيته، وانعكاسًا لهيبته، ومصدرًا لفيوضاته.

ومَن مِن المريدين يتحمل قلبه ذلك الفيض النبوي، إنَّ هول المفاجأة التي تصطدم بها روح المريد عند بدايته مع المرشد الكامل، هي كالصعقة الكهربائية الشديدة من تيار كهربائي نوراني متدفق، يزلزل كيانه، ثم يحمله روحًا مرفرفة، وقلبًا غائصًا في الآفاق المعنوية.

الصفة الثالثة: التعيين المعنوي

فلا يكفي اجتماع مجموعة من الأشخاص لتعيين مرشد؛ لأن هذه الوظيفة يعيِّنها ويحدِّدها مرشد كامل مجاز من تلك السلسلة الصحيحة الموصولة بالنبي ﷺ. فإذا لم يوجد مثل هذا التعيين فإن السلسلة تنقطع هنالك، لهذا السبب حين لا يجد المرشدون الكاملون شخصًا صالحًا كي يخلفهم، لا يستطيعون تعيين مَنْ يكمل طريقهم، وقد يكون المعيَّن أحيانًا شخصًا واحدًا فقط، وأحيانًا أخرى مجموعة من الأشخاص كما كان الحال مع الشيخ خالد البغدادي حين ترك الكثير من المرشدين خلفه، وهي حكمة لا يعلمها إلا الله تعالى.





والخلاصة أن هناك مجاهدات وممارسات يمر بها القلب وتجتازها الروح كي يصل العبد إلى حالة من الصفاء يستحق بها تلقي الفيوضات، ويستقبل بها الحقائق المعنوية بعد نضوج قلبه، هذا النضوج القلبي -عبر تلك الممارسات- يقتضي سلوك الطرق الموصلة إلى الكمال المعنوي، ومعرفة شروط هذه الطرق ومقتضياتها ليطبقها بدقة.

وفي هذا الطريق الوعر يحتاج السالك إلى مرشد كامل من أولياء الله، يكون له دليلاً ونبراسًا وزادًا ومرشدًا عبر الطريق؛ هؤلاء المرشدون لا يبلغون هذه الدرجة إلا بالصفات الثلاثة المذكورة فيما سبق.



بعض التنبيهات المهمَّة:

بما أن المرشد الكامل يملك خصائص قد أبرزناها آنفًا، وهو عبد للَّه ﷻ مختارٌ ليس كغيره، فيجب التأدب معه، وإظهار الاحترام له، والاستفادة من روحانيته، لكن يجب ألا يُخرِج هذا الأدب والاحترام والاستفادة المرءَ عن الحدود الموضوعة ليقع بين سندان الإفراط ومطرقة التفريط؛ لأن الأنبياء والصالحين كلهم عبادٌ للَّه تعالى أولًا وآخرًا، فهم قد نالوا حظًّا وفيرًا من بحر العلم والحكمة والمعرفة بالقدر الذي حدَّده الله لهم، وقد يأتي زمان تُفتح أمام أعينهم وقلوبهم أسرار العالَمين، وقد يأتي زمان لا يبصرون شيئًا أمامهم.

ويقول الشيخ سعدي في كتابه «غولستان»:

سأل أحدُهم سيدنا يعقوب عليه السلام:

«يا مَنْ تملك قلبًا نورانيًا، يا أيها النبي العاقل! لقد وجدت ريح يوسف في ثوبه الذي أتوك به من مصر، لكن لماذا لم ترَ ابنك حين أُلقي وحيدًا في البئر القريبة منك؟»

فأجابه سيدنا يعقوب عليه السلام:





«إن النصيب الذي نلناه من الله تعالى في هذا الأمر هو كالبرق الذي يومض، لهذا السبب تظهر لنا الحقائق واضحة أحيانًا، وتغيب عنَّا أحيانًا أخرى».

وحين سُئل النبي ﷺ يومًا عن الروح وما كان يدري الجواب، قال للسائل وهو على يقين أن الوحي سيأتيه، لكنه لم يتلفظ بكلمة «إن شاء الله»: «غدًا أجيبك!»

بيد أن الوحي لم يأته في اليوم التالي وغاب عنه خمسة عشر يومًا، وبقي هذا المخلوق النوراني الذي أُرسِل رحمة للعالمين محجوبًا عن الإجابة، وفي النهاية نزلت عليه الآية الآتية عبر الوحي تنبيهًا له وللناس:

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا. إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾[155] (الكهف، ٢٣-٢٤)

وبعد معرفة أن هذا المعيار يُطبَّق حتى على رسول الله ﷺ، فمن اللازم إدراك أن محتواه يشمل العباد جميعًا دون استثناء. ومن هذا المنطلق لا يمكن القول إن دعاء عبدٍ يحبه الله تعالى سيُقبَل حتمًا، أو سيُشفى المريض الذي يقرأ عليه؛ لأن الأساس هو توافق إخلاص الطرفين مع الإرادة الإلهية، إذ لا بُدَّ أن نضع في الحسبان أن الأدعية جميعها والالتجاء إلى الله تعالى قد لا تُقبَل، فلا تتحقق في هذه الدنيا مباشرة، بل تتجلى فيما بعد، أي في الآخرة؛ لأنها مرتبطة بإرادة الله تعالى وحكمته.

ولنا أن نذكر أمرًا آخر لا يقل أهمية وهو أن لكل نبي وولي طبيعةً وسلوكًا يختلف بهما عن غيره، لهذا قد لا تجد صفة بارزة في أحدهم موجودة في المستوى نفسه لدى الآخر، فمن الخطأ إذًا توقع تشابه الطبيعة والسلوك فيهم جميعًا.

فالقرآن الكريم يُعلِّمنا أن سيدنا موسى عليه السلام قد أُعطي علمًا لم يكن لدى سيدنا الخضر، وأن سيدنا الخضر عليه السلام قد أُعطي علمًا لم يكن لدى سيدنا موسى

---

١٥٥ انظر: ابن كثير، جـ٣، ٨٣؛ الألوسي، جـ١٥، ٢٤٧.





عليه السلام، وكما أن الشيخ الجيلاني لم يكن مثل مولانا الرومي كذلك لم يكن مولانا مثل شيخنا الجيلاني، وذلك بسبب اختلاف ما وُهِب كل منهما، وما يُطلب منهما من خدمات، لكن لا شكَّ أن الغاية الأساسية لهم جميعًا هي العبودية والمعرفة؛ لأن الطرق المؤدية إلى مرضاة المولى عز وجل كثيرة كثرة أنفاس المخلوقات.

ولا بُدَّ أن نذكر إحدى الحقائق وهي أن العباد كلهم باستثناء الأنبياء لا يأمنون مكر الله تعالى، أي إن العبد حتى لو صعد إلى قمة القمم، يبقى معرَّضًا لخطر انزلاق قدمه وسقوطه، وأفضل مثال على هذا هو بلعام بن باعوراء الذي كان صالحًا في وقت من الأوقات، لكنه اتَّبع هوى نفسه فيما بعد، ووقع في الخسران الأبدي، ويخبرنا القرآن الكريم عن هذه الحادثة:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ. وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ (الأعراف، ١٧٥-١٧٦)

وقصة قارون التي وردت في سورة القصص قريبة من قصة باعوراء، فقد كان قارون صالحًا في غاية الصلاح لا يشابهه أحد، لكنه خسر سعادته الأبدية بأن صار غافلًا سيئًا وعاصيًا حقيرًا، وقد جعله المولى جل جلاله في أسفل سافلين مع ثروته التي كان يعتمد عليها ويسند ظهره إليها متفاخرًا، ولهذا السبب، مهما كان العبد في مقام معنوي أو مرتبة عالية، فإن نفسه التي بين جنبَيه دائمًا تنصب له الكمائن، وتنتظر الفرصة المناسبة كي توقع قلبه في الخسران، ولذلك كله كان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يلتجئ إلى ربه تعالى قائلاً:

«اللَّهم رحمتَك أرجو، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت» (أبو داوود، الأدب، ١٠٠-١٠١)





ويحيا أولياء الله تعالى دائمًا حياتهم ضمن إطار هذا الحديث الشريف، فلا ينخدعون أبدًا بقول بعضهم: «وصلنا إلى التمام في كل أمر»؛ لأن مَنْ يتوهم مثل هذه الأوهام حتى لو أنهى السير والسلوك، يبقى في منتصف الطريق، أما الذين يقولون: «لم أصل إلى التمام بعد» ويدركون عيوبهم ونقصانهم، ويكونون في حالة عجز والتجاء، فأولئك يستمرون في طريق الروحانية.

ومع أن سيدنا محمدًا ﷺ -وهو خير الأنبياء- قد وصل إلى درجة من العبودية لا تُقارن مع أحد من خلق الله، فقد كان يُحيي الليالي حتى تتورم قدماه ولم يترك ذلك أبدًا، وحين سألته السيدة عائشة عن سبب هذا، أجابها:

«أفلا أكون عبدًا شكورًا» (مسلم، المنافقون، ٧٩)

ووفقًا لرواية زوجاته الطاهرات كان الرسول الكريم ﷺ ينشغل بالحمد والثناء أكثر حينًا بعد حين بعد أن نزلت عليه آية:

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ (النصر، ٣)

وعلى هذا الأساس لا يمكن أبدًا لأي عبد من العباد أن يتخلص من مسؤولية العبودية، أو أن يُرفع عنه بعض التكاليف، أو يُعفى منها، مهما كانت الدرجة التي وصل إليها في طريقه للوصول إلى الحق تعالى، أي إن الفروض والواجبات والسُنن والحلال والحرام والمباح وجميع القوانين والتكاليف الإلهية ستبقى ملقاةً على كاهل الذي يمشي في طريق العبودية، ولن تُرفَع عنه إلى أن يلقى الموت. ولهذا السبب يسعى المرشد الحقيقي لكي يعيش عمره كاملاً وهو يتَّبع أمر الله تعالى الذي يقول:

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ. وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾
(الحجر، ٩٨-٩٩)

ومثل هؤلاء المرشدين في طريق الروحانية لا يطلبون أيَّ طلب ولو كان صغيرًا مقابل ما يقدمونه من خدمات لأمة الإسلام، وحتى إنهم لا ينتظرون شيئًا





مقابل عبوديتهم لربهم جل وعلا، إذ إنهم يعلمون أن مَنْ ينتظر شيئًا مقابل العمل الصالح، فسيُنقص من قيمة عمله ودرجته، ومن هذا المنطلق أعطى سيدنا علي وسيدتنا فاطمة رضي الله عنهما الطعام للمسكين الذي أتاهم وقت الإفطار في اليوم الأول وهما صائمان، ولليتيم في اليوم الثاني، وللأسير في اليوم الثالث، واكتفيا بالإفطار على الماء لثلاثة أيام متتالية، وكان ردُّهما على شكر الفقير لهما:

﴿**إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا**﴾ (الإنسان: ٨-١١) [١٥٦]

والخلاصة أن المرشد الحقيقي هو ذروة العالم الروحاني الذي يُكمِل مهمة التربية والتزكية التي كُلِّف بها الأنبياء، لكونه شخصية مثالية، وفي الوقت ذاته، وصل أولياء الله هؤلاء إلى درجة الإحسان في إيمانهم فعرفوا الله تعالى وصفاته السامية، ولهذا وهبهم الله سبحانه العلم من لدنه والحكمة والمعرفة وسائر النعم الأخرى، بيد أنه لم يصل أحدهم إلى الدرجة التي وصل إليها الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، وبالطبع لم يصل الصحابة إلى مرتبة الأنبياء، والأنبياء أنفسهم لم يصلوا إلى مقام سيدنا محمد ﷺ، وحين نتكلم عن سيدنا محمد ﷺ نجد أنه هو أيضًا مجرد عبدٍ للَّه ورسوله.

وبناءً على هذه الحقيقة يجب الحذر من تقدير الناس زيادة عن الحد، وينبغي معاملتهم على حسب الحالة التي هم عليها، فأويس القرني وحتى الإمام الأعظم أبو حنيفة الذي جمع الحقوق في الإسلام لا يمكن أن يصلا إلى درجة الصحابة الكرام، وثمة بعض الغافلين أحيانًا يقدِّرون بعض شيوخهم أكثر من الصحابة رضوان الله عليهم، وحتى أكثر من رسول الله ﷺ، ويُظهرون الاحترام والولاء -كما يظنون- وهم في الحقيقة بفعلهم هذا لم يرتكبوا خطأً فحسب، بل وقعوا في الضلالة، وهذه الضلالة إفراط غريب لا يناقض إرادة المولى عز وجل فحسب بل يُبعد المرء عن الحقيقة أيضًا، لهذا السبب كان رسول الله ﷺ يمنع المدح والثناء

---

١٥٦ انظر: الواحدي، ص٤٧٠؛ الزمخشري، جـ٤، ١٩١-١٩٢.





دون سبب جائز؛ لأنه كان قلقًا من الوقوع في حالات الضلالة هذه، وإذا ما كان المدح يقوِّي النفسانية في العبد، كان يقول قاصدًا المدَّاحين: «**احثوا في وجوههم التراب**» (أحمد بن حنبل، مسند، جـ٦، ٥)

وعن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه، قال: أثنى رجل على رجل عند النبي ﷺ، فقال:

«**ويلك قطعت عنق صاحبك، قطعت عنق صاحبك**» مرارًا

ثم قال:

«**مَنْ كان منكم مادحًا أخاه لا محالة، فليقل أحسب فلانًا، والله حسيبه، ولا أُزكِّي على الله أحدًا أحسبه كذا وكذا، إن كان يعلم ذلك منه**» (البخاري، الشهادات، ١٦)

وعن أبي موسى ﵁، قال: سمع النبي ﷺ رجلاً يُثني على رجل ويُطريه في مدحه، فقال:

«**أهلكتم -أو قطعتم- ظهر الرجل**» (البخاري، الشهادات، ١٧)

أي إنكم حمَّلتم الرجل ذنوبًا لا قِبَل له بها؛ لأن هذا الشخص قد يصيبه العُجب والكبر بعد مدح الناس له مدحًا يزيد عن حدِّه، ثم ينجرُّ إلى طريق المتكبِّرين، ويحمِل على ظهره ذنوبًا تُنهكه وتقضي عليه.

فالمدائح التي تثير النفسانية ما هي إلا توقيعات على هلاك القلب.







دنيا المخلوقات جوهرها المحبة وكنهها الرابطة، ولأن الرابطة هي إحدى مظاهر المحبة، فإن استمرار الرابطة هو ديمومة لحيوية المحبة في قلوب الخَلق.

 

٢. طرائق الإرشاد

أ. المحبة – الرابطة

إن جوهر التصوف وغايته ودافعه لا يخرج عن المحبة والأدب والرابطة، فالحافز الأساسي الذي يدفع إلى السير في الطريق والسلوك فيه هو «المحبة»، والهدف الذي يبتغيه السالك هو «الأدب»، والزاد والواسطة والمطية هي «الرابطة»؛ إذًا فالمحبة والرابطة في التصوف هي رأس الأمر وعموده، وتعجز الكلمات أن تصف أهميتهما.

أما المحبة فهي بمثابة الجاذبية المغناطيسية التي تجمع فتات الذرات، فتجعل منها الجبال، ولو انفرط عقد هذه الجاذبية لانهارت وصارت هباءً منثورًا، وكلما اشتدت محبتك لشخص ما فإنها تشمل بظلالها كل ما يمس هذا الشخص ويرتبط به من أهل وأصدقاء؛ بل كل ما ينتمي إليه من جمادات وأشياء، كذلك كل ما يتصف به من آداب وأخلاق، وكل ما يشبهه من صفات وأشباه ولمحات، وكل ما يذكِّر به من خطرات ونفحات، هذه المحبة إذا وُجدت في قلب المريد لشيخه، فسوف تمد هذه المحبة ظلالها على أقارب الشيخ والمنتمين إليه والمتصفين





بصفاته، والمشابهين له في سلوكه وحركاته؛ بل إن هذا المريد يزداد سعادة وهناءً؛ إذ ما امتلك شيئًا من حاجيات وأشياء شيخه، ويذكرنا ذلك بالشعور الذي شعر به سيدنا أويس القرني ﵁ حين تلقَّى خرقة النبي ﷺ التي أُرسِلت إليه. (فريد الدين عطار، تذكرة الأولياء، ص٢١)

وكلما ازدادت هذه المحبة ازدادت «النسبة» إلى المحبوب، والانتماء إليه؛ حتى تصير شاملة مستغرقة جامعة مانعة.

وهذا يجرنا إلى الحديث عن مصطلَحين صوفيين هما: «العشق المطلق»[١٥٧] و«العشق المجازي».

أما «العشق المطلق» فهو المحبة التي تشمل الجميع، وهو كالدائرة التي يقع المحبوب في مركزها، وتتسع إلى ما لانهاية لتحتوي جميع من حول المركز سواء كان قريبًا أم بعيدًا، وهذا ما وصفه يونس أمْرَه في بيتٍ من الشعر يقول فيه:

أيها الإنسان تسامح مع المخلوقِ ليس من أجله بل من أجل الخالقِ

وهذا يعني احتضان جميع مخلوقات الله تعالى بالمحبة والرحمة مهما كانت صفاتها وماهيتها وأعمالها احترامًا وتبجيلاً للخالق ﷻ، وهذه آخر المراحل التي قد يصل إليها العاشق، وأما الأحوال التي يكون فيها قبل وصوله -تدريجيًّا- إلى هذه المرحلة فتسمى بـ«العشق المجازي».

ويبدأ هذا «العشق المجازي» حين يرتبط السالك بمرشده بالمحبة والعشق، وهو عشق «مجازي»؛ لأن القلب المخصوص لله تعالى لن يجد معشوقًا حقيقيًّا غيره ﷻ، أما المحبوبون الآخرون والأحوال التي يعيشها العبد فهي بمثابة

---

١٥٧ يبينِّ القرآن الكريم للمؤمنين في الآية الكريمة ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ (البقرة: ١٦٥) ضرورة أن تكون محبة الله في أقصى درجة ممكنة، وهذه الدرجة من المحبة هي ما نطلق عليه اسم «العشق الإلهي».





درجات سلَّم الصعود إلى القصر، وهي في حكم تحضير القلب لمحبة الله جلَّ وعلا، وهي السعي للانتقال من «ليلى» إلى «المولى» إذا جاز التعبير هنا، وأفضل المراحل في هذا السعي وأكثرها فيوضات هي حين اللقاء بالمرشد الكامل الحقيقي، والشعور بالارتياح المعنوي في محبته والأُنس به، وأحسن تجلياته هي الرابطة، والرابطة هي الوصول إلى أشد درجات المحبة التي لا تُقاس بغيرها من العلاقات البسيطة العادية.

والمعنى اللغوي للرابطة هو العلاقة والتجمع والتوحد والارتباط، وعلى ذلك فإن جميع الكائنات في الوجود لها رابطة، فجميع المخلوقات مرتبطة ببعضها البعض، ليس فقط رباطًا عضويًا فيزيائيًا أو بيولوجيًا، إنما هو رباط قلبي شعوري، نستطيع أن نمثلها بالرابطة الموجودة لدى الحيوان تجاه صغيره، والوالدَين تجاه أولادهم، والأولاد تجاه والديهم، والشاب تجاه خطيبته، والمرء تجاه مَنْ يتَّخذه قدوة لنفسه، ولولا الرابطة لما وُجدت الحياة في المجتمع، ولما كابدت الأمهات صعوبة تربية الصغار، ولانقطعت في النهاية السلسلة التي تربط الأحياء بعضها ببعض، وإذا كانت هناك رابطة محبة طبيعية في مثل هذه الأمور الدنيوية الفانية، أفلا تكون هناك رابطة في العالم الروحاني؟

وللرابطة ثلاثة أنواع هي:

١. الرابطة الطبيعية:

وهي المحبة التي يشعر بها الفرد تجاه من حوله، وهي من آثار الدوافع الفطرية مثل محبة الأم لأولادها.

٢. الرابطة السفلية:

وهي الارتباط بالميول الشيطانية الممنوعة، مثل انشغال قلب المقامر دائمًا بالقمار وغفلته واجباته حتى عن عائلته وأهله.





٣. الرابطة العلوية:

وهي الارتباط بالمفاهيم المقدسة والوسائل التي تحمل الإنسان -عبر المشاعر السامية- إلى الله ﷻ، ولكي يستفيد المرء قلبيًا من روحانية الذين وصلوا إلى مقام التجلية والمشاهدة، فلا بُدَّ له أن يكون فعليًّا أو معنويًا في أكنافهم وتحت أنظارهم.

هذا النوع الثالث من الرابطة هو المقصود في العلاقة بين المريد ومرشده الكامل؛ إذ يجب على المريد أن يمكِّن قلبه من محبة شيخه ومرشده، كي يكون أهلاً لإرشاد الشيخ، والتدرج على يديه، والارتقاء بواسطته، ونيل الفيوضات منه.

ولعل المثال الأشهر على هذه الرابطة العلوية، هو تلك المحبة التي كانت في قلوب الصحابة الكرام ﵃ للنبي ﷺ، وأبرز هؤلاء في محبة النبي ﷺ هو سيدنا أبو بكر الصديق ﵁.

وبفضل الارتباط القلبي بين الصحابة ورسول الله نتج الانعكاسُ والانصباغ في أرواحهم عن طريق انتقال أحوال النبي إلى الصحابة، ولهذا السبب استطاع الصحابة الكرام أن ينالوا لذة كبيرة من قولهم للنبي بكل إخلاص وود: «فداك أبي وأمي يا رسول الله!»، فحين افتدوا كل شيءٍ في سبيل الله ورسوله، عرفوا الشكر والمنة في قلوبهم، ولأنهم فهموا معنى الحديث الشريف «المرء مع مَنْ أحب»[١٥٨] وعملوا بمحتواه، صاروا في معية النبي حالاً وعملاً وإحساسًا وفكرًا.

ويشير سيدنا الحسن سبط النبي ﷺ إلى أهمية موقع الرابطة في التكامل المعنوي:

فقد وصف سيدنا الحسن ﵁ حالته الروحية التي كان فيها حين سأل خاله هند بن أبي هالة عن حلية النبي ﷺ فقال:

١٥٨ البخاري، الأدب، ٩٦.





«سألت خالي هند بن أبي هالة، وكان وصَّافًا عن حلية رسول الله ﷺ، وأنا أشتهي أن يصف لي منها شيئًا». (الترمذي، الشمائل، ص١٠)

إن كلام سيدنا الحسن رضي الله عنه يدل بالفعل على الرابطة؛ لأن الاستماع إلى وصف النبي ﷺ من أفضل الوسائل لتأسيس رابطة قلبية معه، وهذا يعني أن الرابطة التي هي من أصول التصوف مأخوذة من تطبيق النبي ﷺ وأصحابه لذلك.

الرابطة محبة

إن الرابطة التي تُعدُّ إحدى طرائق التربية الصوفية هي مظهر من مظاهر المحبة التي تُكوِّن جوهر المخلوق، وهي التي تحافظ على نضج المحبة وحيويتها وتختلف أسماء الرابطة وطرق ممارستها من طريقة صوفية إلى أخرى، لكن المريد عمومًا يستحضر صورة مرشده أمام عينيه، ويتذكَّر حاله وسلوكه، ليصير مع حال مرشده من خلال المشاعر السامية الراقية، وبمعنى آخر، يسعى المريد لتقليد مرشده في أعماله الصالحة وأحواله الرائعة عبر المحافظة على المحبة التي يشعر بها تجاه مرشده في قلبه دائمًا وأبدًا. إن المحافظة على نضج هذه المحبة والاحترام والتبجيل للمرشد دائمًا على هذا النحو، يُكسِب المريدَ حيوية معنوية.

لقد أوضحنا من قبلُ مدى التأثير الذي تحدثه صحبة الصالحين، فما بالنا بالتأثير الذي تُحدثه محبتهم.

والمحبة هي إحدى أزواد السفر، وإحدى مطايا الطريق؛ بل هي الدافع الأهم في السلوك، فمحبة المريد لشيخه ومرشده تدفعه لتقليده، والتشبه به، والسير على منهاجه، ومن ثم الترقي في طريق الروحانية، واكتساب الحالة المعنوية من المرشد وانعكاسها على المريد.

بيد أن التجاوز في مقدار المحبة التي تُعدُّ أساس الرابطة، تجرُّ المرء إلى الإفراط؛ لهذا السبب، ليست الرابطة تجاوز الحدود في السلوك لدرجة إضافة الألوهية إلى المرشد المُتَّبع، وليحفظنا الله من هذا، فمثل هذه المحبة تُوقع العبد





في مصيدة الشرك؛ لأن المرشد ما هو إلا «واسطة» بالنسبة إلى المريد، وإيصال الواسطة بالمحبة الزائدة إلى مرتبة «الغاية» هو خطأ ما بعده خطأ، وحالات الإفراط هذه تخالف روح التصوف، فالكشوفات والكرامات والتوفيق والأحوال الروحانية جميعها من إحسان المولى ﷻ للعبد.

يقول الشيخ إبراهيم الدسوقي:

«يا أولادي لا تصحبوا غير شيخكم، واصبروا على جفاه فإنه ربما امتحنكم ليريد بكم الخير، وأن تكونوا محلاً لأسراره، ومطلعًا لأنواره؛ ليرقيكم بذلك إلى معرفة الله ﷻ، فمَنْ أشغل قلبه بمحبة شيخه رقاه الله ﷻ، ولولا أنَّ الشيخ سُلَّمٌ لترقية المريدين لمقت اللهُ تعالى كلَّ قلب وجد فيه محبة لسواه، فإن الله تعالى غيور»[١٥٩].

والآية الكريمة تقول:

﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ (الرعد، ٢٨)

ويجب ألا ننسى أن كل عبد سوى الأنبياء عاجزٌ وناقص، وحتى الأنبياء أنفسهم قد يقعون في زلَّات بسبب طبيعتهم البشرية، لكنهم يُوجَّهون إلى الطريق الصحيح بسبب تلقِّيهم التأييد الإلهي، ومهما كان من الضروري إظهار المحبة والاحترام والتبجيل لكبار أهل التصوف والروحانية، فمن الضروري الحذر غاية الحذر كي يصون العبد نفسه من المبالغة في تعظيمهم من خلال مراعاته للحدود الشرعية.

وحين توفِّي الصحابي عثمان بن مظعون وقد كان مشهورًا بزهده وعبادته في المدينة، قالت أم العلاء رضي الله عنها: «رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله»، فقال رسول الله ﷺ: «**وما يدريكِ**»، قلت: «لا أدري والله»،

١٥٩ الطبقات الكبرى، لوافح الأنوار في طبقات الأخيار، مصر، ١٣١٥، ١، ١٥١.





قال ﷺ: «**أما هو فقد جاءه اليقين، إني لأرجو له الخير من الله، والله ما أدري- وأنا رسول الله- ما يُفعل بي ولا بكم**»، قالت أم العلاء رضي الله عنها: «**فوالله لا أُزكِّي أحدًا بعده**» (البخاري، التعبير، ٢٧)

لأن الله ﷻ هو الوحيد الذي يعلم الغيب.

الرابطة تحافظ على الحال

الإنسان مخلوقٌ معقدُ التركيب، شديدُ التقلب والتأثر بما حوله، لذا فإن «أحوال» الإنسان مثل جسده الضعيف، سريعة التأثر سلبًا بالأمراض والأحوال المعدية، وإيجابًا بأحوال الصالحين إذا توفر لها شرطا الصحبة والمحبة، وعلى قدر تحقق المحبة يزداد التأثر بالحال.

ويستطيع الأفراد ذوو الخلق الراسخ والشخصية القوية أن يؤثروا بأخلاقهم وسلوكهم فيمَنْ حولهم، فما بالنا بالأولياء والصالحين من المرشدين الكاملين، ويمكننا أن نطلق على هذا التأثر والتأثير اسم «التبادل الروحاني»، هذا التبادل يتم عبر قناتي المحبة والرابطة، فهما الطريق الأسرع والأبلغ إلى الغاية المرجوة في طريق الله تعالى.

ومن العجيب والمؤسف أن ترى المسلم العاقل منزعجًا إذا أصاب ملابسه شيءٌ من الأقذار الحسية التي تشوه منظرها وتذهب بجمالها، بينما تراه غير آبه لما أصاب قلبه من الأدناس المعنوية التي تذهب بطهارته وصفائه، وما ذلك إلا لغفلته وتخدير مشاعره، وتغييب حواسه التي استحوذ عليها الشيطان فحجبها بالوساوس.

وعلى المؤمن أن يكون كيِّسًا فَطِنًا، فيحفظ قلبه منتبهًا واعيًا، ويغلق دونه أبواب النزغات الشيطانية، ويوقف انحداره في هوَّة الخسائر وتضييع الفرص والأوقات؛ ليدرك الطريق الصحيح نحو السعادة الأبدية.





وثمة مصطلحٌ في أصول التربية النفسية يُدعى «انتقال الشخصية»، ويدخل في معناه التأثيرات الإيجابية والسلبية التي تتلقاها الشخصية وتختارها أسوة لها، ومن رحمة الله سبحانه لنا أن حدد لنا الاختيار الصحيح، وترك لنا حرية اتباعه، فقال في القرآن الكريم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (التوبة، ١١٩)

وعندما تمعن النظر والتأمل في بلاغة الأمر القرآني ودلالاته، تجد الحق تبارك وتعالى لم يأمر المؤمنين بأن « كونوا صادقين» في إيمانهم حتى يحافظوا على تقواهم ودرجة الإيمان التي وصلوا إليها؛ بل كان الأمر الإلهي بأن ﴿**كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾ فوجههم إلى بداية الطريق، وأول السلم الصاعد إلى مراتب الصدق والصادقين والصديقين، وهو صحبة الصادقين ومحبتهم، والأنس بهم، واقتفاء آثارهم، والسير على منهاجهم والحياة على منوالهم، لتكون النتيجة الطبيعية لذلك هي وصول المؤمن إلى درجة الصدق ومرتبة الصادقين.

وقد ورد في المثل المشهور حول تأثير الصحبة، وهو يقول: «مَنْ عاشر القوم أربعين يومًا صار منهم»، وليس أنفع ولا أنجع ولا أروع للمسلم من صحبة هؤلاء الصالحين والأولياء والمرشدين الكاملين، وإلا، وجدت على الجانب الآخر صحبة الفارغين والضائعين والغافلين؛ لأن الطبيعة البشرية تبحث دائمًا عمَنْ تصاحبه، وتعيش في كنفه، وعن جماعة ترتبط بها، وتحيا في ظلالها، وهو ما عبر عنه المثل القائل: «الطبيعة لا تعرف الفراغ».

وهناك منطق آخر يفكر به الرافضون لمنهج الصحبة، المتعالون على اتباع الصالحين، المهووسون بهوى النفس، والمسحورون بأسطورة العقل البشري، الذين ضاق أفقهم فلم يبصروا ولم يدركوا سوى ما تمليه عليهم حواسُّهم القاصرة، وعلومهم الوضعية المحدودة، هؤلاء يقولون: لا حاجة لنا للعباد الصادقين، فالقرآن يكفينا، ولدينا العقل الذي نعرف به معاني القرآن ونفسره.





ونسى هؤلاء أن القلب هو الذي يستطيع معرفة معاني القرآن، وأن فيوضات الصالحين هي التي تنير لهم حقائق القرآن، وأن العلوم الوضعية تقيس الظواهر، ولا تعرف البواطن، وليس كل شيء يمكن إخضاعه للبحث والتجربة والاختبار المادي، ولا حتى للتفكير العقلي أو المنطق العلمي، فعقل الإنسان محدود، وحواسه قاصرة، وعمره محدود، وعليه أن يستفيد من تَرَاكُم الخبرات التي سبقته، والتي استغرقت دهورًا طويلة، وتجارب مديدة، وعقولاً وقلوبًا لا حصر لها.

إنَّ صحبة الصالحين والصادقين في عملية تهذيب النفس هي كالإشعاعات التي لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة، لكن تأثيرها لا يخفى على أحد، فالجلوس في جوار الصالحين، ومراقبة أحوالهم وسلوكهم، وحتى النظر إلى وجوههم النورانية يُذكِّر الإنسان بالله تعالى، وتكون وسيلةً للاغتراف من أخلاقهم الحميدة، لذا، يُعدُّ الوجود في حضرة كبار أهل الدين والروحانية نعمة كبيرة للعبد؛ لأن الأحوال- كما ذكرنا- تنتقل من شخص لآخر، فكما تَعْلَقُ رائحة الورود في لباس المرء حين يتجول في حديقة مليئة بالزهور، كذلك الحال في مجالس الصالحين إذ تصير هذه المجالس كالأسواق تنعكس وتتبادل فيها الحالات المعنوية الروحانية.

ويقول الشيخ عبيد الله أحرار:

«إن الأمر الذي جاء حين قال الله تعالى ﴿**كُونُوا مَعَ**﴾ في الآية الكريمة ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾ تعني الصحبة والمعية دائمًا، أي أن للمعية وجهين؛ لأنها ذُكرت بصراحة، أحدهما فعلي والآخر اعتباري، والمعية الفعلية هي وجود العبد فعلاً في مجالس الصادقين وبقلب حاضر، أما المعية الاعتبارية فهي تخيُّل أحوال الصادقين في غَيْبَتهم».

إذًا، فكما أنه من الضروري أدبًا التحلي بالمشاعر السامية الراقية حين يكون العبد في صحبة ظاهرية مع أولياء الله، كذلك يجب عليه الاستمرار على هذا





الحال بصحبة قلبية حين لا يكون مع الأولياء؛ لأن الصحبة الفعلية مع أولياء الله تعالى قد لا تُتاح في كل وقت، وفي هذا الوضع ثمة حاجة للرابطة كي تستمر الصحبة القلبية.

إن غاية الرابطة هنا وهدفها الواضح هو التعلق بحبل الله تعالى، والنجاة من الطوفان بركوب سفينة نبي الله، والاتصال بالسند النبوي عبر السلسلة الطاهرة من أولياء الله الذين توارثوا النور والأخلاق والصحبة كابرًا عن كابر، في سلسلة تمتد إلى رسول الله ﷺ فيما يشبه نور الشمس التي تعكسها الأقمار إلى كل كواكب المجموعة الشمسية، على حسب درجة قرب الأقمار وبُعدها من الشمس والكواكب.

وإذا ما كانت هناك صحبة بالجسد إلى جانب الصحبة المعنوية مع أولياء الله تعالى، فهي «نور على نور».

إلا أن الاقتصار على الصحبة الفعلية الجسدية في التربية الصوفية غير مقبول؛ لأن الإنسان قد يقف أمام المرشد الكامل دائمًا، ولكنه لا يحظى بأي حس ومشاعر بسبب غفلته، في حين نرى أن المريد الحقيقي وإن كان في بلاد بعيدة عن مرشده ينال ما يناله من فيوضات كثيرة وذلك عبر مشاعر الاحترام والتبجيل التي يكنُّها لمرشده، والعشق والشوق له والارتباط معه، ومن أقوال كبار أهل التصوف:

«مَنْ في اليمن جانبي، ومَنْ في جانبي في اليمن»،

لهذا فإن الأمر المهم هو عدم فقدان مشاعر الصحبة القلبية مهما كان المكان الذي أنت فيه. يقول رسول الله ﷺ:

«إن أولى الناس بي المتقون، مَنْ كانوا، وحيث كانوا» [١٦٠]

---

١٦٠ أحمد بن حنبل، جـ٥، ٢٣٥؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، جـ٩، ٢٢.





والتدفق المعنوي الذي ينتقل فيه الحال من المرشد إلى المريد، ترتبط قوته ودرجته بمدى إدراك المرشد الكامل، وبمستوى استعداد المريد ومحبته، ومع ذلك فإن هذه الرابطة لا تعد كافية وحدها في ذلك السياق للإصلاح، فالدرجات والمستويات في التصوف لا يصل إليها المريد لمجرد كونه مريدًا؛ بل مستواه في الدرجة مرتبط بمستواه في الاستعداد، وبمستواه في المحبة، ومن هنا تتفاوت المستويات بين المريد وبين أخيه في الطريق نفسه وفي زمرة المرشد نفسه، فالمرشدون الكاملون مهما تفاوتت مقاديرهم في الدرجات والفيوضات هم بالنسبة إلى المريدين كالبحيرة الفياضة، أو كالبحر الزاخر، أو كالمحيط الواسع، ماؤهم يفيض، والمريد الذي يريد أن يملأ دلوه من ذلك الماء يملؤه حسب قدرة دلوه على الامتلاء، وليس بحسب كثرة الماء في ذلك البحر؛ إذًا فاستعداد المريد هنا هو مناط الفيوضات.

ويعبر يونس أمْرَه عن هذه الحالة بقوله:

لو وُضع القدح بجانب الصنبور

ومضت الأعوام تلو الأعوام

ما مُلئ القدح لوحده

الرابطة ليست مسألة اعتقادية

إن الرابطة -التي تُعدُّ من الأصول المهمة جدًا في التربية الصوفية- موجودة في الطرق الصوفية كلها تقريبًا مهما كان الاختلاف بينها في الاسم وطريقة التطبيق، بيد أن الرابطة- بدءًا من القرن التاسع عشر- وضعها بعض الأشخاص ضمن مسائل الإيمان والكفر، وهذا ما عرَّضها للانتقاد الشديد، مع أن الرابطة -كما ذكرنا سابقًا- حالة طبيعية أثبتها علم النفس، ولا علاقة لها أبدًا بالاعتقاد، ويقول عبيد الله أحرار في هذا الموضوع:





«ألا يقع المرء في الكفر حين يكون قلبه معلَّقًا بالمال والمُلك وما شابههما من الرغبات الدنيوية النفسانية؟ فهل يكون مخطئًا حين يكون قلبه مرتبطًا بمؤمن ويشعر بالمحبة تجاهه؟»[١٦١]

استذكار الصالحين وسيلة للبركة

تُعدُّ قراءة السلسلة الشريفة[١٦٢] من الأصول المستخدمة في الرابطة والمراقبة، والغاية من ذلك نيل جزء من الرحمة المرجوة التي تتنزل على القلوب عبر استذكارهم، وانعكاس أحوال الصالحين الحسنة، ويقول سفيان بن عيينة وهو من كبار العلماء: «عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة»[١٦٣].

فذكر الصالحين واستحضار قصصهم والاسترواح في ظلال مناقبهم، والاستذكار في ضوء قبس من أنوارهم، والاستنشاق من عبير سِيَرهم، والاستبصار عبر بصرهم وبصيرتهم ورؤيتهم ورؤاهم؛ كل ذلك سبيل لأن تهيم الأرواح في عالمهم، وتحيا في جنتهم، وتستمطر الرحمات والبركات والفيوضات من عليائهم.

ولكي لا تكون صحبة الصالحين ظاهرًا فقط بل قلبًا وروحًا، يجب قراءة السلسلة الشريفة كي تكون وسيلة لتنزُّل الرحمات والبركات، فكم من كتب أُلِّفت كي تحتوي صفحاتها مناقب أولياء الله تعالى، وتكون وسيلة لإلهام أولئك الذين يقرؤونها بمحبة.

---

١٦١ علي بن حسين صافي، رشحات عين الحياة (تحقيق: علي أصغر مُعينيان)، طهران ٢٥٣٦/ ١٩٧٧، جـ٢، ٦٣٦-٦٣٧.

١٦٢ السلسلة الشريفة: هي اسم أُطلق على سلسلة المرشدين التي تمتد لتصل إلى الرسول ﷺ.

١٦٣ أبو نعيم، الحلية، جـ٧، ٢٨٥؛ أحمد بن حنبل، الزهد، بيروت ١٤٢٠، ص٢٦٤؛ عجلوني، كشف الخفاء، جـ٢، ٧٠.





ويقول الإمام أبو حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ:

«الحكايات عن العلماء ومحاسنهم أحب إليَّ من الفقه؛ لأنها آداب القوم»[١٦٤]

وقد جاء في القرآن الكريم:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ (الأنعام، ٩٠)

وقال بعض المشايخ:

«الحكايات جند من جنود الله يثبت بها قلوب أوليائه»، وشاهده قوله تعالى:
﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (هود، ١٢٠)[١٦٥]

وانطلاقًا من هذه القاعدة القرآنية، فإن قصص الأنبياء والمرسلين والصالحين تصير مصدرًا للموعظة، وينبوعًا للحكمة، وسجلاً للذكرى، وملهمًا للعقول والقلوب، وزادًا للأرواح، ونبراسًا للطريق.

فهي أمثلة واقعية ونماذج حية لأناس جاهدوا، فارتقوا من الثرى إلى الثريا، وارتفعوا من أدنى دركات الدنيا إلى أسمى درجات الجنة في الفردوس الأعلى، وفيهم القدوة والأسوة لكل حال، ولكل موقف مما يمر به الإنسان، فيتعلم المواجهة، ويمارس الجهاد، ويباشر الرقي على نبراسهم، دون اللجوء إلى الأساليب التربوية الجامدة التي تستخدم عبارات الأمر والزجر مثل: افعل هذا، ولا تفعل ذاك.

إضافةً إلى أن قراءة السلسلة الشريفة بشكل منتظم يجعلك مطلعًا على كل أحوال الصالحين والأولياء الذين استمدوا من القبس النبوي وعاشوا في كنف

---

١٦٤ القاضي عياض، ترتيب المدارك، المغرب ١٩٦٥، جـ١، ٢٣.

١٦٥ القاضي عياض، ترتيب المدارك، مغرب ١٩٦٥، جـ١، ٢٣.





سيرته ونورانيته، فتتجذر محبتهم في قلبك، ويترسخ اتباعهم في روحك، ويصح نسبك إليهم.

ويمكن للمريد أن يبتهل إلى المولى ﷻ ويتوسل بالأولياء في السلسلة الشريفة، ويقول الشيخ أبو سعيد محمد خادمي رحمه الله:

«مَنْ قرأ سلسلة المشايخ بعد ختم الأوراد، وعند تلقين الذكر، وعند الشروع في ذكره، وعند تمام ورده تحصل له الترقيات والمكاشفات، ويقرؤها صاحب الورد والذكر خصوصًا حين تغلب عليه الروحانية، ويقرؤها كذلك لتفريج الكروب والهموم والغموم وتيسير المراد وقضاء الحوائج ولشفاء المريض وتكتب أيضًا وتُحمل»[١٦٦].

مقامات الفناء

من مقامات الفناء، مقام «الفناء في الشيخ»، وهو مقام يصل إليه المريد حين تزداد الرابطة مع الشيخ وتصل إلى المحبة، وتنعكس صور هذه المحبة على سلوك المريد في وجود الشيخ وفي غيابه، فيظهر له الحب والأدب والتبجيل في كل الأحيان، ويتخلق دائمًا بأخلاقه.

والمقام الأسمى منه هو مقام «الفناء في الرسول ﷺ»، فالنبي ﷺ هو الحلقة الأولى والأعلى في السلسلة الشريفة، وهو مصدر ذلك النور، وينبوع تلك المحبة، وبحر تلك الأخلاق، ومنه بدأ إشعاع النور والحال الذي انعكس على الصحابة الكرام رضي الله عنهم فانقلبت حياتهم من الظلمات إلى النور، واعتدلت فطرتهم من الاعوجاج إلى السلامة والاستقامة، وكانوا هم ورثة العلم والنور، وأصحاب البلاغ بعد النبي ﷺ، ثم جاءت الحلقات التالية في السلسلة الشريفة من الأولياء والصالحين والمرشدين، فواصلوا إبلاغ الهدى إلى الخلق، وواصلوا انعكاس النور على قلوب المريدين.

---

١٦٦ محمد أمين الكردي الأربيلي، تنوير القلوب في معاملة علام الغيوب، حلب ١٤١١، ص٥٩٨





وتتطلب مرتبة «الفناء في الرسول ﷺ» شدة الامتثال للسيرة النبوية الشريفة أسلوبًا ومنهاجًا، وتتطلب من المريد أن يتصرف وكأنه في حضرة النبي ﷺ، ويساعد على ذلك قوة الرابطة مع حضرته عبر محبته، وأما الذي يقوِّي في القلب محبته فدوام الصلاة عليه واتباع سُنته ﷺ.

ولا يخفى على أحد أن حال الفناء في الرسول ﷺ تحقق على أجمل صورة لدى سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ولهذا قال عنه رسول الله ﷺ:

«لو كنت متخذًا خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا، ولكنه أخي وصاحبي، وقد اتخذ الله عز وجل صاحبكم خليلًا» (مسلم، فضائل الصحابة، ٢٣٨٣)

ولكم يعبِّر هذا الحديث الشريف أجمل تعبير عن القرب بين القلبين!

والمرحلة الأعلى من مرحلة الصحبة القلبية هذه هي مقام «الفناء في الله»، فقد ذكر الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ (الحديد، ٤)

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (ق، ١٦)

ولا يمكن للعبد أن يصل إلى سرِّ هاتين الآيتين إلا إذا وصل إلى مقام «الفناء في الله تعالى».

والمرشد الكامل الذي وصل إلى هذا المقام، يكون قلبُه موئلاً لتلقي الفيوضات وتجليات أسماء الله الحسنى وصفاته العلى، وكأن هذا القلب هو عدسة مقعرة تُركِّز حزم الضوء في بقعة واحدة فتحولها إلى لهب يحرق الذنوب، وإلى نار تحول القبائح إلى رماد تذروه الرياح، وإلى حرارة عالية تطهر القلب من كل الآفات الدنيوية والنفسانية.

وينبغي على المريد أن ينال من بركة هذه الفيوضات والتجليات التي تنهمر على شيخه، وذلك عبر تقوية الرابطة ومشاعر المحبة مع ذلك المرشد الكامل؛





حيث تنمحي شخصيته النفسانية، وتذوب في شخصية شيخه الروحانية، وبذلك تزول أحوال المريد الدنيوية لتنعكس عليه أحوال شيخه العلوية.

إن انتقال الحال من المرشد إلى المريد هو مظهر لزيادة التشابه بينهما.

فقد ورد في الحديث الشريف: «**المرء مع مَنْ أحب**» (البخاري، الأدب، ٩٦)

ويلفت انتباهنا هنا قصة أصحاب الكهف[١٦٧] التي ذُكرت في القرآن الكريم، فقد انعكس الولاء والإخلاص على كلبهم قطميرَ نتيجة حراسته للصالحين والصادقين[١٦٨]، ويروى أنه سيدخل الجنة؛ لأنه كان مع الصادقين، وإذا ما ارتفعت درجة الكلب قطمير إلى هذه الدرجة الرفيعة بسبب حراسته للصادقين بوفاء وإخلاص، فلا ريب أن المؤمن الذي يرتبط بمحبة مع أولياء الله والصالحين سيرتقي إلى درجات سامية.

رابطة الموت (التفكر في الموت)

وهي مسألة مهمة ورابطة ذات بال من روابط التصوف؛ حيث يطلق مصطلح «التفكر في الموت» على رابطة المريد مع الموت وعلاقته بهذه الحقيقة الحتمية؛ لأن التفكر في الموت له أثر كبير على سلوك الإنسان وأحواله.

وقد قال رسول الله ﷺ في الحديث:

«**اكثروا ذكر هادم اللذات** -يعني الموت-» (الترمذي، الزهد، ٤)

وذلك التفكر في الموت، واستحضار معانيه شاخصة أمام الأبصار، يشغل في القلب حيزًا كبيرًا، تضيق معه مساحة حب الدنيا فيه، وتنطفئ معه جذوة نار الرغبات والشهوات، وتفقد الملذات طعمها، ويصبح ذلك كله جدارًا مانعًا ضد غزوات الغفلة، وترياقًا شافيًا ضد أمراض النفس؛ بل دافعًا حثيثًا نحو الأوبة

١٦٧ انظر: سورة الكهف، الآيات، ٩-٢٦.

١٦٨ إسماعيل حقي بورصوي، روح البيان، جـ٥، ٢٢٦.





وخشوع العبادة، وإخلاص التوبة، ويصبح الذكر الدائم هو الوسيلة التي تسمو بالمؤمن، وترفرف به في عالم السعادة في الدنيا والآخرة.

ولم يزل التفكر في الموت هو وصية العلماء والأولياء والمرشدين، وأحد وسائلهم في إيقاظ القلوب، والتنبيه من الغفلة، وإحياء المشاعر وإلهاب الحواس.

وقد كان من وصية سيدنا علي لابنه الحسن رضي الله عنهما:

«يا بُنيَّ، أصلح قلبك بذكر الموت، واعلم أن كل شيء إلى زوال، وأنك إلى فناء، وأن الدنيا دار محن وبلاء، فاذكر ذلك ولاتنسه قلبك أبدا!»

والواقع أن الزمان لن يمر على الإنسان مثل خطٍ مستقيم لا منعطفات فيه، فكما توجد أيام سعيدة في هذه الدنيا، فمن الممكن والمقدَّر أن تكون هناك أيامُ همٍّ وغمٍّ لا ينبغي أن يغفل عنها الإنسان.

ومن نصائح الإمام الغزالي رحمه الله:

«يا بُني، لتحيا قدْرَ ما تريد، فسيأتيك يوم تموت فيه. ولتحبَّ ما تهواه، فسيأتيك يوم تنفصل عنه. ولتعمل ما تشاء، فسيأتيك يوم تُحساب فيه!..

يا بُني، يجب أن يكون مقصدك السعي لتربية الروح، والسيطرة على نفسك، وتحضير بدنك للموت. فالموقف الأخير لك هو القبر، ومَنْ في القبور ينتظرونك ويقولون: (متى ستأتي إلينا؟)، فإياك ثم إياك أن تذهب إليهم دون زاد!»

ومما جاء في الخطبة الأخيرة لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قوله:

«إنكم لم تخلقوا عبثًا، ولم تتركوا سدى، وإن لكم معادًا ينزل الله فيه ليحكم بينكم، ويفصل بينكم، وخاب وخسر مَنْ خرج من رحمة الله، وحُرِمَ جنةً عرضُها السموات والأرض، ألم تعلموا أنه لا يأمن غدًا إلا مَنْ حَذِرَ الله اليومَ وخافه، وباع نافدًا بباق، وقليلاً بكثير، وخوفًا بأمان، ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين،





وستصير من بعدكم للباقين، وكذلك حتى تردوا إلى خير الوارثين، ثم إنكم تشيِّعون كل يوم غاديًا ورائحًا، قد قضى نحبه، وانقضى أجله، حتى تغيبوه في صدع من الأرض، ثم تتركوه غير ممهد ولا موسد، فارق الأحباب، وباشر التراب، ووُجِّه للحساب، مرتهن بما عمل، غني عما ترك، فقير إلى ما قدم، فاتقوا الله وموافاته، وحلول الموت بكم، أما والله إني لأقول هذا وما أعلم عند أحد من الذنوب أكثر مما عندي، وأستغفر الله وما منكم من أحد يبلغنا حاجته لا يسع له ما عندنا إلا تمنيت أن يبدأ بي وبخاصتي، حتى يكون عيشنا وعيشه واحدًا، أما والله لو أردت غير هذا من غضارة العيش لكان اللسان به ذلولاً، وكنت بأسبابه عالـمًا، ولكن سبق من الله كتاب ناطق، وسُنة عادلة، دل فيها على طاعته، ونهى فيها عن معصيته.

ثم رفع طرف ردائه فبكى وأبكى مَنْ حوله»[١٦٩]

والموت هو الحقيقة الوحيدة الباقية في أجل الإنسان، والذي يستمر معه منذ ميلاده، وحتى مبعثه وخلوده إما في الجنة أو في النار، فقد جاء في الأثر أن: «الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا». لكن هيهات أن ينفع ذلك الانتباه بعد فوات العمر، وبعد رفع القلم، وبعد جفاف الصحف، فهلَّا انتبهت أيها المسلم قبل أن ينبهك الموت، وهلَّا استيقظت قبل أن يوقظك النفخ في الصور؟

يمكن الآن -عبر التفكر في الموت وأمور الآخرة- أن ترى بعين البصيرة من الحقائق والغيبيات ما يصعد بك إلى جبل يعصمك من الماء، وما يدخل بك إلى قلعة حصينة ضد هجمات الأعداء، وما يكشف عنك الغطاء قبل الفناء، فيجعل بصرك حديدًا، وقلبك زهيدًا، وقرينك -من الشياطين- طريدًا.

وبما أن الغاية الأساسية في التصوف هي قهر النفس، فإننا نجد أن التفكر في الموت أصلٌ من الأصول الموجودة في كل طريقة.

١٦٩ أبو نعيم، الحلية، جـ٥، ٢٩٥.





ب. الصحبة

مجالس الذكر والصحبة في الدنيا هي جنة الله تعالى في الأرض، تتنزل عليها الملائكة، وتغشاها الرحمة، وتظللها السكينة.

وللصحبة معنى آخر هو «الخطاب» أي: الحديث الذي يتوجه به الصاحب إلى صاحبه في مجالس الذكر والصحبة، وذلك الخطاب هو أحد أهم الوسائل التي يستخدمها المرشد الكامل للتأثير على المريدين السالكين وتربية أرواحهم وقلوبهم، فذلك المرشد صاحب القلب السليم والروح الطاهرة والنفس الزكية لابد وأن تحمل كلماته روح التربية، ويحمل خطابه مفاتيح القلوب، وتفيض توجيهاته بمشاعر الإخلاص والحب لمريديه، فتصل الكلمات من القلب إلى القلب، وتتجاوز اللسان إلى الآذان، ثم إلى أعماق الجوارح والجنان.

وثمة عوامل تقوِّي من تأثير الخطاب والصحبة؛ يأتي على رأسها «الإخلاص»، فالإخلاص هو أصلُ كلِّ عملٍ وفرعُه وجوهرُه، وهو مناط القبول عند الله تعالى، والمرشدون المخلصون يبتغون من خطابهم توصيل البلاغ النبوي إلى المريدين قيامًا بواجبهم في حمل الرسالة ورثةً للأنبياء.

كما ينبغي أن يتحقق الإخلاص أيضًا في المريد المتلقي لهذا الخطاب؛ ليكون شديد الحرص على تنفيذ ما يسمعه.

والعامل الثاني المقوِّي لتأثير الخطاب والصحبة هو «الإيجاز»، فالإيجاز هو أصل البلاغة، وأحد عوامل الإعجاز في الخطاب والأدب، وعندما يختار الناصح والمرشد أبلغَ الكلمات وأوجزها في خطابه، يكون ذلك أكثر تأثيرًا في السامع وأحرى به في استيعابها وتنفيذها.

ولعل أسمى مثالٍ على ذلك هو بلاغة القرآن الكريم التي هي أبرز مظاهر إعجازه، فقد بُعث صاحب معجزة القرآن النبي ﷺ إلى قوم هم أكثر الناس أدبًا





وبلاغة، وأعظمهم فصاحة، وأوضحهم بيانًا، ومجال المنافسة والتفاخر بينهم هو البلاغة، وأهم محاور حياتهم هو الشعر والأدب، وأسواقهم التجارية هي في الأصل أندية لعرض نتاجهم الأدبي والشعري؛ حتى إن القصائد التي تنال أعلى الدرجات في البلاغة يعلقونها على أستار الكعبة، ولهذا تسمى هذه القصائد الخالدة «المعلقات»؛ لكن نزول القرآن الكريم كان أكبر تحدٍّ عرفته بلاغة العرب، وأعظم أنموذج للبلاغة البشرية على الإطلاق، فواجهوا إعجازه بالعجز، ولم يملكوا إلا أن ينزلوا المعلقات من أستار الكعبة، وها هو لبيد بن ربيعة العامري أحد شعراء المعلقات المشهورين وقد أسلم وهو في قمة شهرته وعطائه الشعري، قد اعتزل بإسلامه الشعر منبهرًا بالقرآن الكريم، وقد قال أكثر أهل الأخبار: إن لبيدًا لم يقل شعرًا منذ أسلم، وقيل إنه لم يقل بعد إسلامه إلا قوله:

الحمد لله إذ لم يأتني أجلي حتى اكتسيت من الإسلام سربالا.

وقال له عمر بن الخطاب يوماً:

يا أبا عقيل أنشدني شيئاً من شعرك، فقال:

«ما كنت لأقول شعراً بعد أن علمني الله البقرة وآل عمران».

ولم يبق ثمَّ مظهر للإعجاز والبلاغة سوى القرآن الكريم، فقد أسكتَ كلَّ البلغاء والفصحاء بمستوى لا تطاوله المستويات الأدبية كلها، وكان سببًا مباشرًا في إيمان الكثيرين ودخولهم في الإسلام[١٧٠]؛ حتى الآخرين الذين لم يدخلوه، لم يستطيعوا منع أنفسهم من التصريح بشدة الإعجاب به، حتى بلغ أن رموه بالسحر، وكان التحدي الإلهي لهم أن يجتمعوا -وهم أرباب الفصاحة- ليأتوا بشيء من مثله؛ سورة أو بضع آيات أو حتى آية واحدة، فأعجزهم الأمر.

---

١٧٠ أحمد جودت باشا، قصص الأنبياء، جـ١، ٨٣.





وصدق النبي ﷺ إذ يصف مدى تأثير البلاغة في الناس، فيقول:

«**إن من البيان سحرًا**» (البخاري، النكاح، ٤٧)

أي إن الكلمات لها تأثير ساحر في القلوب.

هذا البيان البليغ مع الإخلاص في الصحبة والخطاب هو الذي جعل لهما التأثير الأكبر في الإرشاد وتربية المريدين، فإذا أردنا أن ندرك ذلك بوضوح تام، فليس أنصع وأنفع وأنجع من المثال الأعظم للبشرية في بركة الصحبة، وهو الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، مع النبي ﷺ، ولعل ذلك هو السبب في أن المؤرخين الأتراك أطلقوا على تلك الفترة الزمنية اسم «عصر السعادة».

فالصحبة من الناحية الشرعية هي سُنة مؤكدة من سُنن النبي ﷺ، ومن الناحية الصوفية هي ذات موقع خاص جدًا في كل الطرق -لاسيما النقشبندية- لأنه من خلال تلك الصحبة تنتقل الفيوضات من القلب إلى القلب.

ويعبِّر يونس أمْرَه بإيجاز عن قدرة الخطاب في التأثير الإيجابي أو السلبي عبر الأبيات التالية:

رُبَّ كلمة تنهي الحروب

ربَّ كلمة تقطع الرؤوس

ربَّ كلمة تحوِّل الطبق المسموم

إلى طبق زبدة وعسل

وها هي الصحراء العربية كانت في الجاهلية ظلمات بعضها فوق بعض، تحجب ما في قلوب الناس من بقية خير، حتى كادت أن تصير أرضًا بلقعًا جرداءَ لا خير في قلوب أصحابها ولا ندى، لكنها في صحبة النبي ﷺ وجدت الظل والندى، والاخضرار والنور والهدى، ووجدت الرواء بعد الصدى، وانغرست في هذه الصحراء نخلاً باسقات من القيم، وأنبتت ما كان في أعماقها من بذور للأخلاق، فتحولت صحراء الجاهلية إلى روضة الإسلام، وفاضت عليها بركات





الصحبة النبوية، والبركة المحمدية، والمحبة المصطفوية، فتبدلت الأحوال، وانعكست الأهوال، فالأيدي التي وأدت بنات أحياءً علمت أهل الأرض بعد ذلك الرأفة، والقلوب التي تربت على الغلظة صارت نماذج في الرحمة، والأرواح القاحلة التي أخذت من الصحراء قسوتها صارت مضرب المثل في ندواتها ورقتها ورهافتها.

وفي هذا السياق ينبغي أن نلفت الأنظار إلى أن الاشتقاق اللغوي العربي لكلمتي «الصحابي» و«الصحبة» من جذر لغوي واحد، ولعل في ذلك إشارة واضحة إلى قوة تأثير الصحبة في التربية والترقية؛ إذ صار هؤلاء الصحابة الكرام رضوان الله عليهم كنجوم السماء في الظلمات، بأيهم اقتدينا اهتدينا، لقد كانوا في صحبة النبي ﷺ ماديًا ومعنويًا، وعرفوا للصحبة حقوقها، وطبقوا شروطها، فكانوا بحق نماذج لورثة الأنبياء، بعدما جعلوا من قلوبهم وعقولهم أوعية تتلقى الفيوضات النبوية، وسجلات يُسطَّر فيها العلم النبوي، ونبراسًا يرسل نوره إلى كل الخلائق إلى يوم القيامة ويقول الله ﷻ عنهم:

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة، ١٠٠)

وكل صحبة تجتمع على عبادة، وترتبط بمحبة ربانية، وتمتلئ بفيوضات روحانية، ما هي إلا صحبة تحمل انعكاسًا لصحبة رسول الله ﷺ، وهي حلقة في سلسلة شريفة مركزها صحبة رسول الله ﷺ؛ بل وتقتبس نورها وفيضها من رسول الله ﷺ ذاته عبر انعكاسها من خلال أولياء الله تعالى؛ لأن ذلك النور الساري يشع من المركز النبوي مباشرة إليها، وما الأولياء والمرشدون إلا قنوات يسري فيها ذلك النور، فأصل النور واحد، وكل الأنوار -مهما بعدت الشُقة- ما هي إلا قبس من ذلك الأصل وامتداد له.





إن مجالس الصحبة والذكر هي جنة الدنيا؛ حيث تتنزل الرحمات الإلهية والسكينة على القلوب وتزخر بها، فعن الأغر أبي مسلم أنه قال: أشهد على أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما أنهما شهدا على النبي ﷺ أنه قال:

«**لا يقعد قوم يذكرون الله عز وجل إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمَنْ عنده**» (مسلم، الذكر، ٣٩)

والعابد الذكي والسالك الحصيف ينبغي أن يكون شديد الحرص على مجالس الصادقين وصحبة الأولياء ومعية الصادقين، فهي كنوز لا تُقدَّر بثمن، وجِنان وارفات تؤتي أُكلَها كلَّ حين، وعيون فياضات تأتيك بالماء السلسبيل من أنقى معين.

فأهل الصلاح والقلوب، وأهل المعرفة والمعالي، تُفيض جوارحُهم في مجالس الصحبة على أهل الاستعداد فيوضاتِ المحبة والعشق والوجد والأنوار والأسرار؛ كأنها نسائم الصباح التي تسري على جنة غنَّاء فتحمل في نداها من عبير ونعيم تلك الجنة إلى أنوف وصدور وأرواح من تيقظ واستعد وفتح صدره وروحه لاستنشاق ذلك العبير، واسترواح ذلك النعيم الرباني.

يقول المولى عز وجل في الآية الكريمة:

﴿**وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ (الذاريات، ٥٥)

ويقول رسول الله ﷺ الذي أدرك المعنى الكامل لهذه الآية الكريمة:

«**الدين النصيحة**» (البخاري، الإيمان، ٤٢)

وللنصيحة معنيَان، أحدهما الدعوة للخير، والآخر هو الإخلاص.

وكان عبد الله بن رواحة رضي الله عنه إذا لقي الرجل من أصحابه يقول له: «تعال نؤمن بربنا ساعة»، فقالها ذات يوم لرجل، فغضب الرجل، وجاء إلى النبي ﷺ فقال:

«يا رسول الله ألا ترى إلى ابن رواحة يرغب عن إيمانك إلى إيمان ساعة»





فقال النبي ﷺ:

«يرحم الله ابن رواحة إنه يحب المجالس التي تباهي بها الملائكة عليهم السلام»[١٧١]

ويدلُّ على الأهمية الكبيرة للصحبة ما رواه أبو سعيد الخدري أنه قالت النساء للنبي ﷺ:

«غلبنا عليك الرجال، فاجعل لنا يومًا من نفسك»، فوعدهن يومًا لقيهنَّ فيه، فوعظهنَّ وأمرهنَّ. (البخاري، العلم، ٣٦)

وكانت الصحابيات اللواتي هن قدوة للأمهات جميعًا يعلمْنَ جيدًا قيمة الصحبة وما فيها من بركة، فكنَّ ينبِّهن أولادهن إذا ما تأخروا عن الذهاب إلى رسول الله ﷺ، ويقول حذيفة رضي الله عنه:

«سألتني أمي منذ متى عهدك بالنبي ﷺ؟»

قال: «فقلت لها منذ كذا وكذا»

قال: «فنالت مني وسبتني»

قال: «فقلت لها دعيني فإني آتي النبي ﷺ، فأصلي معه المغرب، ثم لا أدعه حتى يستغفر لي ولك» (الترمذي، المناقب، ٣٠؛ أحمد بن حنبل، مسند، جـ٥، ٣٩١-٣٩٢)

وكان الشيخ محمد ضياء الدين رحمه الله وهو من كبار العلماء، يجمع الفتيان الصغار بين الحين والآخر ويجلس معهم، فسألته زوجته في أحد الأيام:

«إن هؤلاء ما زالوا صغارًا، أنَّى لهم أن يفهموا معنى الصحبة؟»

فأجابها الشيخ: «وهؤلاء أيضًا يستفيدون، قليلاً كان أم كثيرًا، لكن مقصودي ليس أن يفهموا شيئًا ما بعينه، إن مجالس الصحبة تُنزِل رحمة الله، وأنا أسعى لتلك الرحمة، وهؤلاء الفتيان وسيلة لذلك...»

---

١٧١ انظر: أحمد بن حنبل، مسند، جـ٣، ٢٦٥.





ويقول الشيخ نقشبند رَحِمَهُ اللَّهُ:

«حين يكون المرء مع الآخرين ويقدِّم الخدمات، يحظى بطمأنينة قلبية أكثر من تلك التي يحظى بها حين يكون في الخلوة، (أي إنه يدرك الوحدة في الكثرة، وإذا استطاع أن يكون مع الله تعالى حين يكون بين الناس، فإن القلب سيطمئن أكثر)، ولا ينكشف العالم القلبي في طريقتنا إلا بهذه الصورة، إذ إن طريقتنا في التربية قائمة على الصحبة، ففي الخلوة شهرة، والشهرة آفة، وكل الخير والبركة في المعية والاجتماع، ولا يمكن الاجتماع إلا بالصحبة، وتحقق هذا الحال منوط بكون الصحبة نافعة ومفيدة، ولا يكون المرء في صحبة مع غيره إلا إذا ترك الأنا وهجر ذاته.»

ويوضِّح الشيخ جعفر بن سليمان رَحِمَهُ اللَّهُ ما كان يحظى به حين يكون في صحبة الصالحين قائلاً:

«مهما فترت في العمل نظرت إلى محمد بن واسع وإقباله على الطاعة؛ فيرجع إليَّ نشاطي في العبادة، ويفارقني الكسل، فأنشط في العبادة أسبوعًا»[١٧٢].

وكان عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ يقول:

«كان حضور مجلس الفقيه عبيد الله بن عبد الله -وهو من فقهاء المدينة- أحبَّ إليَّ من الدنيا وما فيها، فبصحبة مثل هؤلاء وملازمتهم تتفتح العقول، وتطمئن القلوب، وينال المرء الأدب».

وذات مرة غاب أحد مريدي الشيخ عبد الخالق غجدواني عن مجالسه لمدة طويلة، وكان هذا المريد يرى في منامه في كل ليلة أنَّ مجموعةً من الناس يأتون إليه ويقولون له:

«لقد وصلت إلى الكمال الآن، دعنا نحملك إلى الجنة!»

---

١٧٢ الغزالي، إحياء علوم الدين، ٢، ١٨٤.





ثم يحملونه على ظهر ناقة إلى مكان فيه نمارق مصفوفة، وزرابي مبثوثة، وما لذَّ من الطعام، والمياه الجارية، وفي الصباح يجد نفسه في فراشه.

وفي يوم من الأيام انتبه الغجدواني رَحِمَهُ ٱللَّهُ بفراسته إلى حال المريد، فذهب إليه ليسأل عنه، فروى المريد ما يحدث معه، وبعد أن سمع الغجدواني كلامه أوصاه قائلاً:

«إذا رأيت نفسك في هذه الرؤيا مرة أخرى فقل ثلاث مرات: (لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم) ثم افتح عينيك!»

وفعل المريد ما طلبه شيخه منه في تلك الليلة، وفتح عينيه فرأى أنه بين عظام حيوانات ميتة، وفهم أن رؤياه كانت من الشيطان، ولزم شيخه وما عاد يفارقه بعدها[١٧٣].

وفي يوم من الأيام ترك أحدُ الطلبة مجالس الولي الكبير أبي الحسن الشاذلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فرآه الولي يومًا وسأله:

«لماذا اعتزلتنا، ورغبت عن مجالسنا؟»

فأجابه الطالب:

«يكفيني ما أخذت منكم وتعلمته إلى الآن، ولا حاجة للمجالس بعد اليوم».

فقال له الشيخ الشاذلي الذي أَسِف لهذا الموقف محذِّرًا:

«يا بُني، لو كان اكتفاء رجل بعلم وفيوضات رجل آخر صحيحًا، لكان يكفي سيدَنا أبا بكر العلمُ والفيوضات التي أخذها من رسول الله ﷺ، ولكنه لم يفارق الرسول ﷺ حتى وفاته».

---

١٧٣ مقامات عبد الخالق غجدواني وعارف ريوكري، ص١٤-١٥؛ بدر الدين السرهندي، حضرات القدس، جـ١، ورقة: ٨٣ ب، ٨٤ ب.





وبالطبع لم يكن سيدنا أبو بكر ﵁ هو وحده من لازم النبي ﷺ، بل كان الصحابة كلهم يهرعون بشوق إلى صحبة النبي ﷺ ويأخذون من علمه وفيضه، إذ كان رسول الله ﷺ يحث أصحابه على ذلك بالوسائل كلها؛ لأن الصحبة كانت من أهم أصول التربية التي يتبعها الرسول ﷺ.

وثمة أمر آخر يجب أن يؤخذ بالحسبان إضافة إلى الحرص على محاسن الصحبة؛ وهو الاهتمام بزمان الصحبة ومكانها، فعن ابن مسعود ﵁ قال: كان النبي ﷺ «يتخوَّلنا بالموعظة في الأيام، كراهة السآمة علينا» (البخاري، العلم، ١١)

وعن أبي واقد الليثي، أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس في المسجد والناس معه إذ أقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحد، قال: فوقفا على رسول الله ﷺ، فأما أحدهما: فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر: فجلس خلفهم، وأما الثالث: فأدبر ذاهبًا، فلما فرغ رسول الله ﷺ قال: «ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟ أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه» (البخاري، العلم، ٨)

وقد أدرك علماء الإسلام كلهم الحكمة من هذا الحديث الشريف، فأخضعوا قلوبهم دائمًا لمجالس أولياء الله تعالى، ولم يمتنعوا أبدًا عن حضور مثل هذه المجالس، وكان أحمد بن حنبل ﵀ وهو إمام أحد المذاهب الأربعة المتبعة يذهب مرارًا وتكرارًا إلى بشر الحافي ﵀ وهو من أولياء الله، ويجلس معه، وكان متعلقًا به غاية التعلق.

وفي يوم من الأيام قال له طلبته:

«يا إمام، إنك عالم مجتهد في علوم القرآن والسُنة، ومع ذلك تذهب بين الحين والآخر إلى مثل هذا الرجل، فهل يليق ذلك بمقامك؟»

فأجابه الإمام: «نعم، إنني أفقه منه فيما ذكرتم، لكنه أعلم بكثير مني بالله ﷻ».





ت. الخدمة

أساس الخدمة هو التوجه إلى عباد الله تعالى بقلب يملؤه الإخلاص، وجوارح تغمرها الرحمة، وروح يزينها الإيثار، وتلك هي مقتضيات رضا الله تعالى، ومناط قبول تلك الخدمة.

وينبغي على أهل الخدمة أن يكونوا شديدي التنبه في معاملتهم للناس الذين يخدمونهم، وأن يكونوا شديدي الحرص كطبيب يعمل بمبضعه في جسدٍ بشري مليء بالأوردة والشرايين، فأي خطأ بسيط قد يصيب ذلك الجسد بمكروه؛ والذي يقدم الخدمة أشد حرصًا من ذلك الطبيب، لأنه يخاطب قلوب الناس، والقلوب هي محل نظر الله تعالى.

إن للخدمة في التربية الصوفية أهمية عظيمة، وهي من أكثر الطرق تأثيرًا في غرس التواضع وانعدام الذات ومشاعر الرأفة بالمخلوقات في القلوب، ومن هذا المنطلق كانت الخدمة واسطة مهمة بالنسبة إلى المرشد الكامل في تربيته للسالكين وكان من أقوال الشيخ عبيد الله أحرار:

«كان شيوخنا يُشغِلون مَنْ يرون فيهم الأمل في المستقبل بالخدمة»[١٧٤].

والتوجه إلى الله تعالى بالمحبة والإخلاص هو أساس الأخلاق في الإسلام، والدليل عليها هو «الخدمة»، فالخدمة هي خطوة أساسية في طريق الله تعالى، والوصول بالقلب إلى أسمى المراتب.

وهو ما يعبر عنه الشعار الصوفي «من يخدم الناس تعلو همته».

وهي الخطوة التي بدأ منها جميع من نال الوصال مع الله تعالى من الأنبياء والأولياء، ثم ارتقوا بعدها إلى مراتب الكمال والعلا، أي إنهم كانوا طوال عمرهم

١٧٤ الكشمي، نسمات القدس، ص٢٤٤.





مثالاً واقعيًا لحديث النبي ﷺ الذي يقول فيه:

«**سيد القوم خادمهم**»[١٧٥].

والسيادة هنا هي صنو السعادة، والخدمة هي طريقها، والإخلاص حقيقتها، والولاء وسيلتها، وقد أمدتنا السُنة المباركة بنماذج جعلت الخدمة -ولو كانت صغيرة- عند الله تعالى أعظم درجة من النافلة.

فعن أنس رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ في السفر، فمنا الصائم ومنا المفطر، قال: فنزلنا منزلاً في يوم حار، أكثرنا ظلاً صاحب الكساء، ومنا مَنْ يتقي الشمس بيده، قال: فسقط الصوام، وقام المفطرون، فضربوا الأبنية وسقوا الركاب، فقال رسول الله ﷺ:

«**ذهب المفطرون اليوم بالأجر**» (مسلم، الصيام، ١٠٠-١٠١)

ويقول النبي ﷺ في أحاديث أخرى:

«**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومَنْ كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومَنْ فرج عن مسلم كربة، فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومَنْ ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة**» (البخاري، المظالم، ٣؛ مسلم، البر، ٥٨)

«**مَنْ مشى في حاجة أخيه كان خيرًا له من اعتكافه عشر سنين، ومَنْ اعتكف يومًا ابتغاء وجه الله جعل الله بينه وبين النار ثلاثة خنادق كل خندق أبعد مما بين الخافقين**» (الهيثمي، جـ٨، ١٩٢؛ البيهقي، الشعب، جـ٥، ٤٣٥-٤٣٦)

وكان رسول الله ﷺ في مقدمة الصحابة بكل تواضع حين يكون العمل لوجه الله تعالى، فمع أنه كان سيد أصحابه لدى بناء المسجد النبوي إلا أنه كان يشاركهم في حمل الطوب. (البخاري، مناقب الأنصار، ٤٥)

---

١٧٥ البيهقي، الشعب، جـ١، ٣٣٤؛ جـ٦، ٣٣٤؛ الديلمي، مسند، جـ٢، ٣٢٤؛ علي المتقي، الكنز، رقم: ٢٤٨٣٤.





وعن البراء بن عازب قال:

«كان النبي ﷺ ينقل معنا التراب يوم الأحزاب، ولقد رأيته وارى الترابُ بياض بطنه» (البخاري، المغازي، ٢٩؛ الجهاد، ٣٤)

وعن أبي الزبير، أن جابر بن عبد الله حدثهم، قال:

«كان رسول الله ﷺ يتخلف في المسير فيزجي الضعيف، ويردف ويدعو لهم» (أبو داوود، الجهاد، ٩٤/ ٢٦٣٩)

وها هو العاتق الشريف يحمل الحجارة في بناء المسجد، وها هي الأيدي الكريمة تشارك في حفر الخندق مثل بقية المشاركين؛ بل أكثر، ويأتي الصحب الكرام ليكفوه المؤونة، ويكفُّوه عن العمل، فيأبى إلا المعاونة والمشاركة كأي فرد فيهم، بركةً وتواضعًا وخدمةً وقدوةً.

فقد كان النبي ﷺ قدوة في الخدمة، خدمة الصغير والكبير، والقوى والضعيف، والمرأة والطفل والشيخ، وكل محتاج؛ بل كانت حياته ﷺ كلها خدمة للبشرية ومخلوقات الله كلها.

وعلى منهاج النبي ﷺ سار الصحابة رضوان الله عليهم في الخدمة والبذل والإيثار، وكانوا في العطاء كالبحر الفياض، وكانت مسيرتهم في الحياة والقدوة كمسيرة النهر الجاري من منبعه النبوي عبر العصور والدهور، ويسقي في طريقه البلاد والعباد والأحياء، ولا يضن على أحد حتى الجماد، حتى يصب في بحر المحبة والوصال بالمولى جل جلاله.

ومَنْ يألف هذه الحقيقة، يرى نفسه خادمًا للناس حتى لو كان سلطانًا عليهم، وخير مثال على ذلك هو السلطان العثماني ياووز سليم خان، فحين صارت البلاد الحجازية المباركة أمانة في عنقه، ونودي في خطبة الجمعة باسم «حاكم الحرمين الشريفَين»، اعترض على ذلك وعيناه تذرفان الدموع؛ وقال مصححًا: «لا، بل





خادم الحرمين الشريفَين»، وكان ذلك مظهرًا من مظاهر فهمه الدقيق لمعنى الخدمة والغاية الأساسية للعبودية.

وكان عبيد الله أحرار رَحِمَهُ ٱللَّهُ ينسب المرتبة التي وصل إليها لبركة الخدمة، ويقول من باب الشكر على النعمة والاعتراف بها:

«إنني لم أتعلم هذا الطريق من كتب الصوفية بل من خدمتي للناس كافة إن الخدمة فضيلة من الفضائل الكبرى، فلقد حملوا كل فرد من طريق مختلف، وحملونا من طريق الخدمة، لهذا السبب؛ الخدمة بالنسبة لي أصل أرضى عنه وأفضِّله على غيره، وهي من أحبِّ الأصول، وأوصي بالخدمة مَنْ أراه مستعدًا للروحانية والكمال وقادرًا عليها»(١٧٦).

ويوضِّح هذا الكلام في الوقت ذاته أن العلم وحده لا يكفي، بل لا بُدَّ من تطبيق ما تعلَمه في الخدمة.

ويلخِّص أحمد الكاساني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كلامه أهمية تقديم الخدمة بقلب ناضج واعٍ فيقول:

«الدنيا مكان للخدمة، والآخرة للقربة؛ أي الاقتراب من الله تعالى، واقتراب المرء من الله منوط بنسبة الخدمة في الدنيا»(١٧٧).

لهذا السبب يجب على المرء أن يأخذ بوصية الشيخ يوسف الهمداني الذي يقول:

«أغلق باب الأنانية، وافتح باب الخدمة والصحبة!»(١٧٨)

وكان والدي الشيخ موسى رَحِمَهُ ٱللَّهُ يعطي أهمية كبيرة للخدمة ويقول:

---

١٧٦ رشحات، ص٤٢٦-٤٢٧.

١٧٧ أحمد الكاساني، آداب السالكين، ورقة: ٥٣ب- ٥٤أ.

١٧٨ أحمد الكاساني، آداب السالكين، ورقة: ٥٧ب، ٦٢أ.





«يجب السير في طريق الخدمة بالصدق. ويجب على كل فرد -بحسب الزمان الذي يعيش فيه- أن يقدِّم الخدمة للمؤمنين وحتى للمخلوقات كلها بمقدار استعداده وقدرته على ذلك!»[١٧٩]

«يجب على كل مسلم صاحب عقل سليم -بعد أن يؤدي الفرائض التي عليه ويجتنب الحرام- أن يكون فعَّالاً بأن يقدِّم الخدمات للمسلمين ولمجتمعه وللمخلوقات جميعًا، ولا يمكن لـمَنْ لا يخدم الناس ببدنه وفكره وماله لوجه الله تعالى أن يكون مؤمنًا كاملاً؛ لأن هذا مكمِّلٌ للفرائض وجزءٌ من سُنة رسول الله ﷺ»[١٨٠].

ولقبول هذه الخدمة -شأنها شأن كل عمل- ينبغي أن يملأها الإخلاص، كما يقتضي قبولها أيضًا أن تكون متوجهة إلى الله سعيًا لرضاه سبحانه، ومتوجهة إلى عباد الله تعالى بقلوب ملؤها الرحمة والإيثار، بعيدة عن كل الأغراض النفسانية، لا يشغلها سوى الأغراض الأخروية، رضا الله تعالى والفوز بجنته، والنجاة من عذابه.

ومن أبرز وسائل هذه النجاة «شق تمرة»[١٨١] تقدمها إلى محتاج فتقيه من الجوع، ويقيك الله بها من النار، كما جاء في حديث النبي ﷺ.

ويروي لنا الشيخ عبيد الله أحرار رحمه الله هذه الحادثة، فيقول: كنت في يوم من الأيام أمشي في السوق، فجاءني رجل وقال: «إنني جائع، هلَّا تطعمني لوجه الله تعالى!»

---

١٧٩ انظر: من رسائله إلى مريديه، الميزاب الذهبي، عدد: ١٦٢، ص٦، آب/ أغسطس ١٩٩٩؛ صادق دانا، مجالس الميزاب الذهبي، جـ١، ٥٢- ٥٣؛ جـ٣، ٢١٠.

١٨٠ صادق دانا، مجالس الميزاب الذهبي، جـ٣، ٢٢٠.

١٨١ البخاري، الزكاة، ١٠؛ الرقاق، ٥١؛ التوحيد، ٣٦؛ مسلم، الزكاة، ٦٦-٧٠.





ولم تكن لي قدرة على إطعامه في ذلك الوقت، وكانت معي عمامة قديمة، فذهبنا إلى دكان أحد الطباخين، وقلت للطبَّاخ:

«خذ عمامتي هذه، هي قديمة ولكنها نظيفة، يمكنك أن تجفف فيها الأطباق، لكن أريد منك أن تطعم هذا الجائع مقابل ذلك، فهل ترضى بذلك؟»

فأعطى الطبَّاخ الطعام للفقير، وأراد إرجاع عمامتي لي، لكنني لم أقبل مع كل إصراره، ثم انتظرت ذلك الجائع حتى ينتهي من طعامه مع أنني كنت جائعًا مثله أيضًا[١٨٢].

وثم تتبدل الأحوال المادية للشيخ، ولا تتبدل الأحوال المعنوية، فيتحول فقره المدقع إلى ثراء واسع؛ لكن حبه للخدمة لا يتبدل ولا يزداد إلا إيثارًا، ولا تغره الدنيا التي منحته حقولاً يعمل فيها الآلاف من العمال، ومع اتساع غناه وطَوْلِه تتسع دائرة عطائه وخدمته، ويصف جانبًا من ذلك بقوله:

«لقد أخذت على عاتقي رعاية بعض المرضى في مدرسة مولانا قطب الدين في سمرقند، وكان هؤلاء المرضى يوسِّخون السُرر حين يزداد مرضهم، فكنت أغسل ثيابهم بيديَّ وألبسهم إياها، فأصبت ذات يوم بمرضهم بسبب خدمتي المستمرة لهم، وصرت طريح الفراش، ولكن على الرغم من هذه الحالة التي صرت إليها، داومت على جلب الماء بالقِراب للمرضى، وتنظيف سُررهم، وغسل ثيابهم»[١٨٣].

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ يقدم هذه الخدمة لكل الناس بلا تفرقة أو تمييز، لِمَنْ عرف ولمن لم يعرف، ثم ينسلُّ منسحبًا في هدوء كي لا يفسد أحدٌ عليه خدمته بأي مقابل.

---

١٨٢ رشحات، ص٤١٩.

١٨٣ مير عبد الأول، المسموعات، اسطنبول ١٩٩٣، ص٣٢-٣٣؛ رشحات، ص٤٢٥.





وثمة أدب آخر من آداب الخدمة يكلمنا عنه الشيخ موسى رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيقول:

«يجب على العبد أن يرتقي في أخلاقه ومعاملاته طالما أنه يقدِّم خدمات للآخرين، وعليه أن يسعى لتوجيه قلبه لربه جَلَّ جَلَالُهُ توجيهًا يليق بكماله، ويؤدي العبودية للحق تعالى على أكمل وجه؛ هذه العبودية القائمة على الإخلاص والأدب والتواضع، وإن لم يكن الحال كذلك، فإن أهل الخدمة الذين لا يجدون في أنفسهم الروحانية وكمال الأخلاق والأصول، إن لم يرتقوا إلى الدرجات العليا، فإن خدماتهم تفسد الروحانية ويُحرمون من نصرة المولى عَزَّ وَجَلَّ بسبب ضعف نيتهم»(١٨٤).

وغير ذلك من الآداب المتعلقة بالخدمة والإنفاق التي نجد نماذج راقية منها في حياة وسلوك أهل العلم والدين والولاية، فقد أدرك هؤلاء أن شكرهم لنعمة الله تعالى عليهم لا يكون إلا بالفيض بهذه النعمة على عباد الله جميعًا، وجعلهم شركاء لهم فيما أنعم الله عليهم، ويتأتى ذلك عبر حفاظهم على دوام الترقي في المراتب، ودوام الحفاظ على الرقي المعنوي إلى معالي الأخلاق والروحانيات، فلا تزيدهم التقوى إلا خُلُقًا، ولا يزيدهم الغنى إلا زهدًا، ولا يزيدهم الرقي إلا تواضعًا.

ومن المراتب صعبة الوصول في الخدمة ما سنراه في القصة التالية للشيخ معروف الكرخي وهو من كبار أولياء الله تعالى:

فقد حلَّ رجل مريض طاعن في السن ضيفًا على الشيخ معروف الكرخي، وكان مسكينًا لا حيلة له؛ قد تساقط شعره وشحُب لونه، وكأنه يلفظ أنفاسه الأخيرة، فجهَّز له الشيخ الكرخي سريرًا ليستريح عليه.

كان المريض يعاني كثيرًا من مرضه ويئن ويصرخ بصوت عالٍ، واستمر على هذا الحال طوال الليل حتى الصباح، فما استطاع لا هو ولا مَنْ كان معه

١٨٤ صادق دانا، مجالس الميزاب الذهبي، جـ٢، ٢٣٧.





في البيت أن ينام بسبب ألمه وصراخه، وفوق ذلك كله؛ ازداد طبعُه سوءًا وبدأ بإزعاج الآخرين وذلك بعتابه الشديد عليهم، وفي نهاية المطاف بدأ من كان في البيت بالمغادرة لأنهم لم يستطيعوا تحمُّل كلامه الفظِّ وسلوكه السيئ، ولم يبقَ مع المريض سوى معروف الكرخي وزوجته.

ولم يكن معروفٌ الكرخي ينام في الليل، بل كان يلبي حاجات هذا المريض سيئ المزاج، ويحاول جاهدًا خدمته، وفي يوم من الأيام غلبه النعاس، فنام دون قصد، وحين رأى هذا المريض الغافل الكرخيَّ الذي كان يرعاه برأفة ورحمة نائمًا، بدأ بمعاتبته ولومه بدل أن يشكره، وقال:

«أي نوع من الدراويش هذا! إن مثل هؤلاء لهم سمعة في الظاهر فقط، أما في الحقيقة فهم في قمة الرياء، وكل عمل من أعمالهم من أجل هوى أنفسهم، ظاهرهم طهارة وباطنهم قذارة، يأمرون الناس بالتقوى وينسون أنفسهم، ولهذا ينام هذا الرجل هنا ولا يفكر في حالتي، وكيف لمثل هذا الذي أشبع بطنه ونام أن يعلم حالة مريض لا حيلة له ولا يدخل النوم إلى عينيه حتى الصباح!»

أما معروف الكرخي فقد كان يسمع هذا الكلام المرير الذي يرميه الرجل به لكنه يصبر عليه ويحتمل، وكأنه لم يسمعه، لكن زوجته ما استطاعت أن تصبر وتتحمل أكثر، فقالت لزوجها بصوت خافت:

«لقد سمعت ما يقوله سيئ الطباع هذا، ليس علينا أن نؤويه بعد هذا اليوم، ولن نسمح له بأن يحمِّلنا معاناته ويقابلك بالجفاء، أخبره أن يغادر هذا المكان وليعتنِ بنفسه لوحده، فالخير يُقدَّم لـمَنْ يقدِّرُه، ومن السوء الإحسان لـمَنْ ينكر عليك إحسانك، فهذا يجعلهم يتمادون أكثر، ولا يجوز أن توضع وسادة تحت رأس هذا الدنيء، بل لا بد أن يوضع رأس الظالمين على حجر».

وكان معروف الكرخي يستمع بهدوء إلى كلام زوجته، ثم قال لها وهو يبتسم:





«يا امرأة، لماذا يغضبك كلام هذا الرجل؟ فإنه إذا صرخ كان صراخه علي، وإذا أساء الأدب فهو يوجه كلامه إلي، وكلمات هذا الرجل التي تبدو مُستقبحة تُسعدني، ألا ترين أنه في حالة اضطراب وألم! ألا ترين أنه لا ينام ولو للحظة! ولتعلمي أن الرأفة الحقيقية والرحمة في معناها الأصلي هي أن تتحملي جفاء مثل هؤلاء».

ويقدم الشيخ سعدي الذي نقل هذه القصة نصائحَه لنا فيقول:

«إن الفضيلة في الخدمة هي تحمل الضعفاء شكرًا لكونك قويًا تتمتع بصحة جيدة».

«إن القلب العفو هو ذلك القلب المليء بالمحبة، وإذا ما كنت شخصًا فظًّا غليظ القلب، فإن ذكرك سيموت مع موت جسدك، أما إن كنت صاحب كرم ومن أهل الخدمة والخير، فإن ذكرك سيدوم بعد موت جسدك بمقدار تضحيتك ودخولك في قلوب الناس، ألا ترى القبور الكثيرة في الكرخ! ألا ترى أنه لا توجد قبور معروفة يزورها الناس هناك سوى قبر معروف الكرخي!»

ومن العبارات الجميلة التي نطق بها أهل الدين والعلم قولهم: «التصوف أن تكون محبوبًا لا حِملاً على الآخرين» أي أن تتحمل كل فرد في المجتمع، وألا تكون حِملاً على أحد.

إن أبواب الرحمة تُفتح للأمة عبر خدمات التضحية والإيثار، وقيمة الخدمة منوطة بعظم التضحية في أدائها، وبتقديمها كأنها عبادة من العبادات المفروضة، والخدمة المقبولة عند الله تعالى هي تلك الموجهة لنيل رضاه، والتي يؤديها العبد دون أن يجرح مشاعر مَنْ يتلقَّى هذه الخدمة، ويقول عبد الله بن المُنازل رحمه الله:

«الأدب في الخدمة أفضل وأعز من الخدمة ذاتها».

ويقول مولانا جلال الدين الرومي بناءً على هذه الحقيقة:





«اعمل واخدم الناس لوجه الله تعالى، إذ لا يضيرك قبول الناس عملك أو رفضهم، ألا يكفيك في سوق الدنيا هذه أن يشتري منك الله تعالى كل بضاعتك وتصبح غنيًا بها؟ وكيف لك أن تقارن بين ما ستأخذه من الله تعالى وبين ما يمكن للناس أن يعطوك إياه! لذلك وجِّه عينيك وقلبك إلى ما ستناله من فيوضات من الله تعالى لا إلى عبارات الشكر من الناس!»

إذًا؛ هذا هو الجمال والسمو والرقي الذي أراد التصوف إيصال القلوب إليه، وكان من الوصايا التي تلقاها الشيخ بهاء الدين نقشبند رَحِمَهُ اللَّهُ من أستاذه كي يتخلَّص من ميوله النفسانية في داخله: «راقب القلوب وانتبه إليها، واعتنِ بأولئك الفقراء والضعفاء ومكسوري القلوب واخدمهم، وراعِ أولئك الذين يستصغرهم الناس وامدحهم وجاملهم، وأظهر لهم التواضع والمَحوية!».

كان الشيخ نقشبند رَحِمَهُ اللَّهُ في السنوات الأولى من انتسابه للطريقة يسعى للوصول إلى حالة «المحوية» التي هي عكس الغرور والتكبر، وفي سبيل ذلك عاش سبع سنوات لا يمكن لأي فرد أن يعيش مثلها، فقد كان يخدم المرضى والمعاقين والحيوانات الجريحة، وحتى إنه كان ينظِّف الطريق الذي يمشي عليه الناس.

ويوضح بنفسه هذه الحالة التي عاشها فيقول:

«لقد عملت مدة طويلة كما أمرني أستاذي، وقدمت الخدمات كلها، ووصلت إلى حالة كنت فيها إذا ما صادفت أي مخلوق من مخلوقات الله أثناء سيري في الطريق، أقف وانتظر مروره، واستمر حالي على هذا المنوال طوال سبعة أعوام وأكرمني الله تعالى بعد هذه الخدمات بحال من الفيوضات الربانية التي لم أكن عليها من قبل، ففي إحدى الليالي صادفت كلبًا في طريقي، وأصابتني حالة لم أعهدها من قبل، فتوجهت إلى الله تعالى بالابتهال والتضرع، وبدأت بالبكاء الشديد، حينها استلقى هذا الحيوان المسكين على ظهره ونظر إلى السماء، ورفع أطرافه الأمامية، وبدأ بالأنين بحزن، فرفعت يديَّ، وبدأت بقول: (آمين) بقلب





خاشع مكسور لله، واستمر هذا الحال إلى أن سكت هذا الحيوان وعاد إلى وضعه الطبيعي»[١٨٥].

إن المثال السابق هو مظهر من مظاهر خدمة المخلوقات من أجل الخالق عبر النظر إليهم بعين الله تعالى الممتلئة بالمحبة.

ويوضح الشيخ علاء الدين العطار خدمات أستاذه نقشبند بقوله:

«كانت أخلاق أستاذنا الشيخ نقشبند أخلاقًا رفيعة سامية، فإذا ما زاره أحد في بيته، كان يخدم ضيفه بنفسه، ويكرمه خير إكرام، ويظهر ترحيبه به ورعايته له. وكان يعتني أيضًا بدابة الضيف اعتناءً شديدًا، فلا يعود الضيف مشغولاً بدابته»[١٨٦].

ويقول الشيخ شادي وهو من مريدي الشيخ نقشبند:

«عندما كان يأتي صاحبٌ للشيخ نقشبند رَحِمَهُ ٱللَّهُ أو ضيف إلى داره، كان الشيخ يخدمه، ثم يقدم الماء والعلف لدابته، فقد كانت جميع الخدمات نعمةً بالنسبة إليه، وحتى لو أتى الدراويش الذين يربيهم إلى داره، كان يُعِدُّ لهم ما يلزم من أجل طهاراتهم ونظافتهم ويقول: (إن هذه الخدمات كلها نعمة ومِنَّة بالنسبة إلي)، وإذا ما شرَّف شيخُنا دارَ مريد من المريدين، كان يسأل عن أولاده وأقاربه وخدمه ودوابه وحتى دجاجاته، وكان يهتم بكل فرد من أفراد البيت ويجذب قلبه إليه»[١٨٧].

وإذا ما طُبِخ طعام في مجلس، كان الشيخ نقشبند يقدِّم الطعام بيديه لـمَنْ طبخه وحضَّره.[١٨٨]

---

١٨٥ انظر: أنيس الطالبين، ص٤٩-٥٠؛ محمد باقر، مقامات الشيخ نقشبند، ص١٧-١٨.

١٨٦ أنيس الطالبين، ص٧٠.

١٨٧ أنيس الطالبين، ص٧١؛ أبو القاسم، الرسالة البهائية، ورقة: ٤٦ب، محمد باقر، مقامات الشيخ نقشبند، ص٣٨.

١٨٨ أنيس الطالبين، ص١٩٨؛ محمد باقر، مقامات الشيخ نقشبند، ص١٥٣.





ويقول أحد طلبته:

«كان السبب في انتسابي للشيخ نقشبند وارتباط قلبي به هو الحادثة التالية:

في يوم من الأيام اجتمع الدراويش في بخارى -وكنت واحدًا منهم- ليعودوا الشيخ نقشبند الذي كان مريضًا آنذاك، والتقينا به في مكان يُسمى (باغي مزار)، كان الشيخ يلتقي بالدروايش بوجه مبتسم حتى في مرضه، ويذهب مباشرة ليحضر الشياه التي ستُذبح لهم، حتى إنه جاء حاملاً شاة على ظهره المبارك وانشغل بنفسه في طبخ الطعام، وإلى مثل هؤلاء من أولياء الله مال قلبي لما يتحلَّون به من أخلاق حميدة سامية»[١٨٩].

كان الشيخ نقشبند رَحِمَهُ اللَّهُ يسعى جاهدًا لحل مشكلات كل فرد ويهتم بأمورهم، ولهذا كان يُطلق عليه اسم «الشيخ حلال المشكلات».

وكان الشيخ نقشبند رَحِمَهُ اللَّهُ يقول:

«إن أولياء الله يتحمَّلون الناس وأعباءهم من أجل تحسين أخلاقهم، والقلوب كلها تحت نظر الله دون استثناء، سواء أعلم صاحب القلب أم لم يعلم. ولهذا يتحمل الأولياء الناسَ كي ينالوا قلوبهم فتكون وسيلة لنيل الفيوضات من النظر الإلهي في تلك القلوب!» [١٩٠]

ويقول الله تعالى واصفًا المؤمنين الصالحين:

﴿**وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ**﴾ (آل عمران، ١١٤)

ولعل أفضل الخدمات التي تحقق معاني الآية الكريمة هي الأوقاف، وما تذخر به من صور متنوعة وكثيرة تقدم الخدمات لكل المخلوقات، وبشتى السُبل التي تخفف عنها أعباء الحياة.

---

١٨٩ أنيس الطالبين، ص١٤٥.

١٩٠ ديوان مولانا خالد البغدادي، البيت: ١٣٦-١٣٧.





وكان الأنبياء -عليهم السلام- قدوةَ البشرية في تقديم الخدمة للناس، وتبعهم الأولياء والمؤمنون في ذلك الطريق، فكانت حياتهم وسلوكياتهم موقوفة لخدمة الناس، وحوَّلوا هذه الخدمات إلى أصقاع الدنيا، وسطروا أجمل الصفحات في تاريخ البشرية.

وتختلف الخدمات من وقف إلى آخر، وتختلف الجهود الخدمية من شخص إلى آخر، كما تختلف الظروف والاحتياجات والقدرات على البذل والعطاء والخدمة، لكن الله تعالى يقدِّر ذلك كله وفق ما وهبه للإنسان من قدرة واستطاعة، ووفق ما يحمله قلب ذلك الإنسان من إخلاص وإيثار.

ولا ينسى التاريخ أبدًا موقف مئة وعشرين ألف صحابي في حجة الوداع حول النبي ﷺ، فسرعان ما تفرق هذا الجمع الكريم تفرق أشعة الشمس في دروب الكون عند شروقها، فما تركوا مكانًا يستطيعون بلوغه، إلا حملوا إليه النور والهداية والعلم والدين والبركة، خدمة لدين الله تعالى وخلقه.

وتَذْخَر بقاع الدنيا شرقًا وغربًا بمقابر الصحابة الكرام، فقبور أولاد سيدنا عثمان والعباس ﷺ في سمرقند، وغيرهم في الصين، وفي القسطنطينية، وأرجاء الجزيرة العربية، وأفريقيا، وآسيا.

فذلك الصحابي الجليل جار رسول الله ﷺ -أبو أيوب الأنصاري ﷺ- رغم تجاوزه الثمانين من عمره يصل مرتين إلى أسوار القسطنطينية مع جيوش الفتح ليحمل النور والخدمة والسعادة إلى الناس.

وذلك الصحابي وهب بن كبشة ﷺ مدفون في الصين[١٩١]، وهي مسافة تحتاج إلى عام كامل من السفر والمسير، لكنه كان يؤدي الرسالة التي كلفه بها النبي

١٩١ يوجد مقام في مدينة غوانغهو الصينية يُنسب إلى سعد بن أبي وقاص ﷺ. ومن إحدى حقائق التاريخ هي أن الأماكن التي توجد فيها قبور الصحابة الكرام وأولياء الله تكون غالبًا ذا تأثير في الحفاظ على الدين وإيمان الناس في تلك الأماكن، والأمثلة عن هذه كثيرة في آسيا الوسطى في مدن مثل سمرقند وبخارى وتركستان وطشقند.





ﷺ، فقام بها كما أُمر، ثم تجشم عناء العودة إلى المدينة في سنة أخرى شوقًا إلى الحبيب ﷺ، والذي وجده قد انتقل إلى جوار ربه، فعاود السفر الطويل مرة أخرى مكملاً المهمة المقدسة في الخدمة والتبليغ، وإنفاذ الأمر النبوي بحمل الرسالة إلى أقصى بقاع الأرض، وما زال عليها حتى لقي ربه في تلك البلاد البعيدة.

لقد كان الإيمان العميق لهذا الجيل العملاق من الصحابة هو الدافع والوازع الأقوى الذي حفزهم على تقديم الخدمة، من قلوبهم إلى البشرية كلها في كل مكان؛ بل في كل زمان عبر القوة المعنوية التي حملتها سيرتهم وقدوتهم.

ولا ريب أن الصحابة الكرام قد وصلوا إلى هذه المرتبة العالية من خلال التزامهم بمبادئ الخدمة التسعة في ضوء تربية النبي ﷺ لهم؛ وهذه المبادئ هي:

١. خدمة الله تعالى: الالتزام بأوامره ونواهيه بكل صدق ومحبة.

٢. خدمة رسول الله ﷺ: العيش بمقتضى سُنته، ومحبته من صميم القلب.

٣. خدمة أولياء الله: إظهار المحبة والوفاء والصدق لهم.

٤. خدمة الوالدين: نيل رضاهما وإطاعتهما دون أدنى تردد أو تذمر.

٥. خدمة الأولاد: حسن تربيتهم كي يكونوا مؤمنين صالحين.

٦. خدمة الأقارب: صلة الرحم والإحسان إليهم.

٧. خدمة المؤمنين: مشاركتهم أفراحهم وأتراحهم.

٨. خدمة الناس كلهم: السعي لفائدة الآخرين بالقول والفعل.

٩. خدمة المخلوقات: النظر إلى المخلوقات كلها بعين الرأفة.

وما أحسن قول الشيخ علي راميتني في هذه الخدمات والقيام بحقها:

«هناك الكثير ممَنْ يخدمون الناس وهم يمنون عليهم، وهناك الكثير ممَنْ يخدمون الناس وهم يمتنون لهم، وشتان بين الفريقين، لكن مَنْ ينال رضا الله هو





الذي يؤدي الخدمة ويستشعر معها أنها نعمة من الله ينبغي عليه أن يقدم الشكر مع الخدمة، ولا يستشعر معها الشكوى». [١٩٢]

وفي خضم ذلك كله، هناك كنز مدفون في أعماق الروح لا يمكن استخراجه إلا عبر المشاعر الراقية التي يستشعرها المرء حين يقدم الخدمة للناس، هذا الكنز تبرز جواهره في السكينة والطمأنينة وسلامة الروح، وهي جواهر تتلألأ لكل مَنْ يقدم خدمة بإخلاص؛ سواء كان مدركًا لوجود هذا الكنز أم لا، لكن الذي يصل إليه سريعًا ويستمتع بذلك الأجر الرباني والسعادة الدنيوية والأخروية هو الذي يستشعر أن الخدمة عبادة من الفرائض يؤديها إلى الله -لا إلى الناس- بإخلاص ورضا.

ويجد العبد نفسه سائرًا في طريق النجاة حين تستولي على قلبه الرغبة الصادقة في الخدمة؛ حيث تحتل مكان القسوة والفظاظة، فتطرد رقةُ «يونس أمره» من القلب قسوةَ «الحجاج الثقفي»، وحينها يسمو القلب ويسمو معه العقل والحس والشعور، وترتقي معهم العلوم والفنون والآداب والأخلاق.

حين ذلك يكون القلب قد وصل إلى النضج المعنوي، وأنتج هذه الروائع بعد أن قدم هذه الخدمات الحقيقية والمخلصة، ومثل هذه القلوب هي التي تكون «محل نظر الله تعالى».

ويالسعادة مَنْ تمتع قلبه بهذه المزايا بعد أن استمتع بإخلاص الخدمة، ويالخسران من حُرِم قلبه تلك الصفات المعنوية التي تحقق سعادة الدنيا والآخرة.

ث. التوجه

ويقصد به توجيه كل القوى الروحية الموجودة لدى المرشد إلى قلب المريد، وعلى هذا الأساس ينقل المرشد حاله إلى المريد؛ والتوجه بمعنى آخر هو نقل الأحوال الفاضلة من المرشد الكامل إلى المريد وينتج عن ذلك تصرف

---

١٩٢ رشحات، ص٩٠.





المرشد بقلب المريد وروحه، ويكون ذلك بوسائل كثيرة أصيلة أو ثانوية، وسنتكلم هنا عن وسيلتين من وسائل التوجه وهما: «العين» (النظر) و«الجوهر» (القوة الروحانية).

العين (النظر):

والمقصود بـ «العين/ النظر» هو دلالتها في الاستخدام اللغوي والشرعي والحياة اليومية، وغالبًا ما تنصبُّ هذه الدلالة على الحَسَد، وذلك لدى عامة الناس.

وتشير الأحاديث الشريفة إلى هذا النوع من النظر:

«**العين حق**» (البخاري، الطب، ٥٤٠٨)

«**العين تُدخِل الرجل القبر وتدخل الجمل القِدر**» (أبو نعيم، حلية الأولياء، ٧، ٩٠؛ السيوطي، الجامع الصغير، جـ٢، ٦٠)

لكن ثمة معنى آخر إيجابيًا في تأثير النظر، وقد أثبتت الحقائق العلمية والفيزيائية أن هناك إشعاعات تخرج من عين الناظر إلى المنظور مما يدعم القول بأن التأثير سلبًا أو إيجابًا يكون متبادلاً بين الشخصين.

لكن التأثير الأكبر يكون للشخص الأكثر طاقة في الشر، وهو الحاسد، كما يكون الشخص الأكثر قابلية للتأثر هو الشخص المحسود.

ومن المعلوم أن «الليزر» المكتشف في عصرنا هو عبارة عن نوع من أنواع الأشعة غير المرئية، ومن الحقائق المعروفة لكل فرد اليوم أن الليزر يستخدم لقطع طبقات من الحديد وفي العمليات الجراحية، ومن المعلوم أيضًا أن بعض الأجسام تظهر رد فعل حين تتعرض للأشعة لاسيما في ألوانها.[١٩٣]

١٩٣ نجد في بعض المكاتب أن طاولات القراءة تُغطى بقماش أخضر اللون، كي تحفظ العينين من التعب، ولأن عين الإنسان ترتاح حين تنظر إلى اللون الأخضر كما هو





والمعنى الإيجابي في النظر نجده في التصوف على النحو التالي:

إن «النظر» الذي يعرف العامةُ ماهيته بطريق الحس أو النقل -ولو لم تكن معرفة علمية- يلعب في التصوف دورًا أساسيًا أثناء تربية السالكين تربية معنوية؛ لأن المرشد الكامل هو الشخص الذي وصلت قوة تأثير نظره إلى أعلى درجة نتيجة الرياضات وطهارة القلب، وهذه الأهلية والقدرة مقتبسةٌ من رسول الله ﷺ لأنه من ورثته.

وتأتي مرتبة «الصحابة الكرام» في المرتبة الثانية بعد سلسلة الأنبياء التي تحتل المرتبة الأولى في سلم الرقي المعنوي، والسبب في رفعة شأن الصحابة وشرفهم ومكانتهم لا يقتصر على «بركة صحبتهم للنبي ﷺ» فحسب، فالأساس هو أن «النبي ﷺ كان يوجه نظره إليهم»، وإذا ما أردنا بالفعل ذكر المعايير المختلفة التي تجعل من الرجل «صحابيًا»، نجد أنه من المعايير المسلَّمة مواجهة الرجل الرسول ﷺ، أي تبادل النظر بين الرسول ﷺ وذلك الرجل وهو مؤمن به.

ولا يمكن المقارنة أبدًا بين أفضل ولي من أولياء الله وأدنى صحابي في المرتبة؛ لأن الصحابي نال ما لا يمكن أن يناله الولي وذلك مما أخذه من نظر النبي ﷺ ومخاطبته إياه، وهذا هو الفارق الكبير بينهما الذي لا يمكن أن يكون إلا بهذا النظر، لذلك لم يصل مَنْ أتى بعد وفاة النبي ﷺ إلى مقام الصحابة لأنهم لم يحظوا بالنظر إليه، بيد أن مَنْ نال شرف رؤية الصحابة وصل إلى مرتبة «التابعين»، ومَنْ رأى التابعين نال شرف مرتبة «تابع التابعين».

الحال حين تنظر إلى البحر والأفق. ويلبس الناس ثيابًا بيضاء في الصيف لأن اللون الأبيض يعكس أشعة الشمس، أما اللون الأسود فردُّ فعله تجاه أشعة الشمس هي عكس ردة فعل اللون الأبيض، فالألوان القاتمة لا تعكس أشعة الشمس بل تمتصها، لذا ترفع من حرارة الجسد. ويلبس الأطباء في المستشفيات ثيابًا بيضاء لأن اللون الأبيض هو رمز النظافة، أما في غرفة العمليات فهم يلبسون ثيابًا خضراء اللون قريبة من اللون الياقوتي، ليس لعدم إتعاب العينين فقط بل لإراحتهما أيضًا. أما اللونين الأصفر الداكن والأزرق الداكن فلهما خاصية امتصاص الأشعة.





لقد ورث أولياء الله تعالى من النبي ﷺ الروحانية والأخلاق الحميدة، لذلك لا يمكن أن تُقاس صلاحياتهم وقدراتهم مع غيرهم، وعلى هذا الأساس إذا أراد المرء الاستفادة الكاملة من المرشد الكامل، فلا يكفي أن يكون محبًّا له فقط، بل لا بُدَّ من نيل الشرف والفيوضات عبر التعرض لنظره النوراني.

وجاء في الحديث:

«**اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله**» (الترمذي، التفسير، ١٥)،

ويشير هذا الحديث إلى أن فراسة المؤمن تزداد بازدياد إيمانه، ونفهم من هذا القول أيضًا أن فراسة أولياء الله -وهم المؤمنون الذين ارتقوا إلى الدرجات العالية- أقوى من فراسة المؤمنين الآخرين.

إن التحذير المذكور في الحديث الشريف من خلال كلمة «اتَّقُوا» تعني:

«ألا تذهبوا إلى المؤمنين الكاملين بأفكار تخفونها، وبقلب مشغول بالأمور الدنيوية؛ لأن هؤلاء أشخاص مستثنون يرون بفراستهم ما تَسْعون لإخفائه».

فمَنْ يكون نظره قويًّا إلى هذه الدرجة، تزول أمامه الحواجز الظاهرية، ويرى الحقائق بصورة واضحة جليَّة، لذلك كله، نجد أنه من الآداب الدينية المحافظة على اللسان أمام العالِم، وعلى القلب أمام العارف.

وبما أن العين (النظر) هي وسيلة مهمة من الوسائل التي يستخدمها المرشد في طريقة التربية، فإن تلقِّي السالك لنظر المرشد يُعدُّ فوزًا عظيمًا.

ذكرى:

حين كنت في مدرسة الأئمة والخطباء، تعرفت على شخص لطيف ذي قلب سليم اسمه أحمد جان، كان باكستانيًّا متعلقًا بالشيخ سامي، وكان يحب والدي الشيخ موسى رحمه الله كثيرًا، ولا يرغب في الابتعاد عنه، وكان يأتي إلى تركيا مرارًا لزيارة شيخنا سامي، ويبقى في بيت الضيافة عندنا.





كانت المحبة تملأ قلبه، حتى إنه كان يجول حول منزل الشيخ سامي في الأيام التي لا تكون فيها صحبة معه، وذلك بسبب اشتياقه الشديد لرؤيته، وفي إحدى الليالي روى لنا كيف بدأت محبته للشيخ ووصلت إلى هذه الدرجة فقال:

كان ذلك في موسم الحج حين كنت جالسًا في المكان الذي يُطلق عليه اسم أصحاب الصُفَّة في الروضة الشريفة، إذ مرَّ من أمامي شيخ لطيف نوراني الوجه يذكِّرك بالله حين تنظر إلى وجهه، مع جماعة نورانية ترافقه، وحين صار بمحاذاتي تمامًا نظر إليَّ نظرة.

ومن خلال نظرة العين الملائكية هذه دخلتُ حينها في حالة غريبة إلى عالم يختلف عن عالمنا هذا، لقد تغير كل شيء، فصرت وكأني فقدت ذاتي بعد أن تلذذت بهذا العالم الروحاني، وصرت فجأةً متعلقًا بهذا الإنسان الذي لا مثيل له غايةَ التعلق، وأصبحت في حالة تشبه الغيبوبة، وما هي إلا لحظات حتى عدت إلى وعيي من جديد، وعزمت مباشرة على إيجاد هذا الشيخ، لكن كان من الصعب إيجاده بين هذا الحشد الكبير المألوف في الروضة الشريفة.

ففكرت في العودة إلى المكان نفسه وانتظاره هناك، والحمد لله الذي لم يخيِّب لي أملي، فتبِعته بسعادة وفرح، واقترب مني بعض ممَّنْ كانوا بصحبته، وأرادوا تقديم صدقةٍ لي ظنًّا منهم أنني متسوِّل، لكنني لم أقبل، وعلى الرغم من أنني لم أكن ميسور الحال، إلا أنني ببركة نظر هذا الرجل الصالح لم أعد أهتم بقيمة أي شيء في هذه الدنيا، وباتت لدي قناعة مختلفة.

ثم وصلوا إلى بيت ودخلوا فيه، وأردت الدخول خلفهم أيضًا، لكن أصحابه منعوني من ذلك لأنهم لم يعرفوني، وهذا أمر طبيعي، بيد أن سلطان العارفين الشيخ سامي رجع إلى الوراء وقبِل أن يدخلني معهم.

في ذلك اليوم، وفي ذلك البيت، تلقيت من ذلك العالم الكبير الكثير من التجليات والنظر والتوجه.





والحمد والشكر لله، فبفضل هذه النظرات والتوجه تغيرت حياتي كلها رأسًا على عقب، وصارت على أجمل حال، وغدوت إنسانًا لطيفًا يهتم بالحياة الأبدية ويعمل لأجلها، وفي الوقت الحاضر أدَّخر المال كي أزور هذا الشيخ في كل عام وأستفيد من نظراته وتوجهه، وهذا بالنسبة لي أعظم فوز يمكن لقلبي أن يحظى به، ونشوتي التي ما بعدها نشوة.

الجوهر (القوة الروحانية)

إن الوسيلة الأكثر تأثيرًا التي يستخدمها المرشد كي يوجِّه قلب المريد وروحه هي «قوته الروحانية»، ويطبَّق هذا باستخدام «السر» الذي نربطه بالأولياء دائمًا حين نقول «قدس الله سره»، ولا يعلم أحد ماهية هذه الوسيلة إلا مَنْ يستخدمها، وهي تدخل في قسم الحال في التصوف، فلا يمكن أن تشرح في الكتب؛ لأنها ليست من قسم المقال (الكلام).

ج. الدعاء

الدعاء هو سُنة من سُنن النبي ﷺ، وقد اتخذ المتصوفة هذه السُنة كأحد الأصول والوسائل في تربية السالك، والتي يستعين بها المرشد الكامل في توجيه المريد.

وقد كان من دعاء النبي ﷺ في المرحلة المكية للدعوة قبل الهجرة حينما كان المسلمون مستضعفين، أن يُعِزَّ الله الإسلام بأحد العُمَرَين، رغم أن كلا العمَرَين كانا من أشد الناس ضغينة وحربًا ضد الإسلام، حتى إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان عازمًا على قتل النبي ﷺ، لكن بركة الدعاء كانت أسرع إلى قلبه فملأته نورًا وهداية، وحولت نار كراهيته إلى نار حماسة وحمية للإسلام وأهله.

وفي أثناء حصار الطائف طلب الصحابة من النبي ﷺ أن يدعوَ على قبيلة ثقيف التي أصاب المسلمين كثيرٌ من شرها وأذاها، لكن كيف للنبي ﷺ أن يدعو





على أحد وهو الرحمة المهداة؛ فما كان منه إلا أن دعا لهم، فما لبثوا غير يسير حتى جاؤوا مبايعين مسلمين ببركة الدعاء النبوي الكريم لهم ولغيرهم من القبائل والبلدان والأصقاع.(١٩٤)

وكان من دعائه أيضًا: «**اللّٰهم اهدِ دوسًا وأتِ بهم**» (١٩٥)

وفي حق اليمنيين: «**اللّٰهم أقبِل بقلوبهم**» (١٩٦)

وعن جابر ﵁ أنه سمع النَّبي ﷺ على المنبر نظر نحو اليمن فقال: «**اللَّهم أقبل بقلوبهم**»،ونظر نحو العراق فقال مثل ذلك، ونظر نحو كل أفق فقال مثل ذلك، وقال:«**اللَّهم ارزقنا من تراث الأرض وبارك لنا في مُدِّنا وصاعنا**» (البخاري، الأدب المفرد، ص٢٤٣/ ٤٨٢)

وقد استجاب الله تعالى لدعاء سيدنا رسول الله ﷺ، وانتشر الإسلام في كل بقعة من بقاع الأرض.

ويروي الصحابي شيبة الحادثة الآتية: خرجت مع رسول الله ﷺ يوم حنين، واللهِ ما أخرجني إسلامٌ ولا معرفةٌ به، ولكن أَبيتُ أن تظهر هوازنُ على قريش، فقلت وأنا واقف معه: يا محمد إني أرى خيلاً بُلْقًا، فقال: «**يا شيبة إنه لا يراها إلا كافر**»، فضرب يده في صدري ثم قال: «**اللَّهم اهْدِ شيبة**»، ثم ضربها الثانية فقال: «**اللَّهم اهْدِ شيبة**»، ثم ضربها الثالثة ثم قال: «**اللَّهم اهْدِ شيبة**»، فو الله ما رفع يده عن صدري في الثالثة حتى ما كان أحدٌ من خلق الله أحبَّ إليَّ منه.(ابن كثير، البداية، جـ٤، ٣٣٣)

وكانت أم أبي هريرة ترفض دعوات ابنها الكثيرة إلى الإسلام، لكنها في نهاية المطاف اهتدت إلى دين الإسلام ببركة دعاء النبي ﷺ.(١٩٧)

---

١٩٤ الترمذي، المناقب، ٧٣/ ٣٩٤٢؛ ابن هشام، السيرة، جـ٤، ١٠٣.

١٩٥ البخاري، المغازي، ٧٥؛ أحمد، جـ٢، ٢٤٣؛ ابن سعد، جـ٤، ٢٣٩.

١٩٦ الترمذي، المناقب، ٧١/ ٣٩٣٤.

١٩٧ انظر: مسلم، فضائل الصحابة، ١٥٨.





ويمتد تأثير بركة الدعاء النبوي إلى دعاء ورثة الأنبياء من الصالحين والأولياء كوسيلة للإصلاح والتربية. والدعاء وسيلة متاحة للجميع، ومستجابة من الجميع، إذا تحققت شروطها، فليس الصالحون فقط هم مستجابي الدعاء، المذنبون أيضًا مستجابوا الدعاء، إذا هم أخلصوا النية فيه، وصدقوا في اللجوء إلى الله تعالى، والخشوع بين يديه، فالله تعالى لا يترك عباده مهما عظمت ذنوبهم، ودعاء المسلم لأخيه بظهر الغيب مقبول؛ بل تؤمِّن عليه الملائكة.

ونذكر هنا نبذة عن خصائص الدعاء لعلنا نستفيد منها: فقد كان رسول الله ﷺ يوصي المؤمنين دائمًا بالدعاء بعضهم لبعض سواء أكان في حضورهم أم في غيابهم، فعن عُمر رضي الله عنه، قال: استأْذنت النبي ﷺ في العمرة، فأذن لي، وقال: «**لا تنسنا يا أُخيَّ من دعائك**»، فقال كلمة ما يسرُّني أنَّ لي بها الدنيا.[198]

ولا شك أن النبي ﷺ هو أشرف المخلوقات عند الله جل جلاله، ومع ذلك فقد طلب المخلوق النوراني ﷺ الدعاء من أصحابه، وهي إشارة إلى أهل الدين والعلم الذين وصلوا إلى درجات سامية بأن يستفيدوا من دعاء مَنْ هم أقل منهم مقامًا.

وقد قال رسول الله ﷺ لسيدنا عمر رضي الله عنه: «**إن خير التابعين رجل يُقال له أويس، لو أقسم على الله لأبرَّه، فمَنْ لقيه منكم فليستغفر لكم**»[199].

وقد التقى سيدنا عمر رضي الله عنه في النهاية بسيدنا أويس القرني وطلب الدعاء منه.

وهكذا نرى أنه من وصايا رسول الله ﷺ لأمته طلبُ الدعاء من الصالحين أصحابِ الفضيلة والتقوى من أجل دفع البلاء والغم، وجلب الخير والبركة.

---

١٩٨ أبو داوود، الوتر، ٢٣/ ١٤٩٨؛ الترمذي، الدعوات، ١٠٩/ ٣٥٦٢؛ ابن ماجه، المناسك، ٥.

١٩٩ انظر: مسلم، فضائل الصحابة، ٢٢٣-٢٢٥.





﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾

(الأعراف، ١٩٩)




ج. أسلوب التصوف

١. أسلوب الهداية والرحمة

يعرف المرشدون الكاملون أهمية الأسلوب في التصوف بقدر معرفتهم محتوى الإرشاد ومضمونه، ويتّبعون الهدي النبوي في هذا الموضوع، لذلك كانوا دائمًا وسيلة لهداية الكثير من العباد، وقد كان شعارُهم في التربية المعنوية الاقترابَ من السالكين بالرأفة والرحمة ليرتقوا في درجات الكمال، فكان ذلك سببًا في وصولهم إلى نتائج مثمرة.

وتمتلئ حياة أولياء الله بأمثلة لا تُعد ولا تُحصى عن هذا الموضوع، ولَكَم هي مُعبِّرة قصة الشيخ إبراهيم حقي الأرضرومي وهو من كبار المتصوفة:

ففي يوم من أيام رمضان دُعي الشيخ إبراهيم حقي إلى إحدى قُرى أرضروم كي يعظ الناس وينصحهم، وأُرسِل له فرس مع خادم غير مسلم كي يساعده مقابل أجرة، وعند السفر، وبما أنه لم يكن هناك إلا دابة واحدة، ما كان للشيخ إبراهيم حقِّي إلا أن يتناوب على ركوبها مع الخادم، إذ كان يقتدي بسيدنا عمر رضي الله عنه حين توجه إلى القدس بصحبة عبدٍ له وتناوب معه آنذاك على ركوب الناقة، وقد اعترض الخادم غير المسلم على ذلك مرارًا قائلاً:

«إذا سمع أهل القرية بهذا سيوبِّخونني، ولن يعطوني أجري!»





فأجابه الشيخ:

«يا بُني، إننا نجهل ما سنؤول إليه حين تخرج أنفاسنا الأخيرة! إنك تقلق من معاتبة أهل القرية وتوبيخهم لك، لكنني أخاف من الحساب الكبير أمام المولى عزّ وجلّ!»

ثم بدأ بالتناوب على الفرس مع الخادم.

ولحكمة إلهية، حين شرعا بالدخول إلى القرية كان الخادم هو الذي يركب على الفرس، تمامًا كما كان الحال مع سيدنا عمر رضي الله عنه وعبده، فخاف الخادم المسكين من أهل القرية، وتنازل عن حقه في الركوب، وأصرَّ على ركوب الشيخ، لكن الشيخ إبراهيم قال:

«أنت تركب الآن» ودخل القرية وهو يمشي أمام الحصان.

وما إن رأى أهل القرية هذا الموقف، حتى أسرعوا إلى الخادم وبدؤوا بتأنيبه والصراخ عليه قائلين:

«ما أشدَّ وقاحتك! إنك تَنْعَم بالركوب على الفرس مع أنك شاب، وتترك هذا الشيخ ذا اللحية البيضاء ماشيًا! هل هذه هي أمانتك؟ أهكذا أمرناك؟»

حينها وضَّح لهم الشيخ إبراهيم حقِّي الموقف فكفُّوا عن التوبيخ، وفي تلك الأثناء صاح رجل من أهل القرية مخاطبًا الخادم غير المسلم:

«أيها الرجل، لقد رأيت ما رأيت من هذه الفضائل، أفلا تُسلِم!»

فسكت الخادم بضع دقائق ثم قال جملة فيها الكثير من العِبر:

«إذا كنتم تدعونني إلى دينكم، فلن أستجيب لكم أبدًا! أما إن كنتم تدعونني لدين هذا الشيخ المبارك، فأقول لكم إنني آمنت وأنا في طريقي إلى هنا!»

السر في معاملة هذا الرجل الصالح للخادم هو أنه نظر إليه نظرة العارف إلى الجوهر؛ لقد أبصر في الخادم إنسانيته وتشرفه بكونه مخلوقًا قد نفخ الله تعالى





فيه من روحه، وجعله خليفة له في الأرض، ولم ينظر إليه على أنه غير مسلم أو عاصٍ أو جاهل.

لذلك نرى الصالحين مدركين تمامًا أن الله تعالى قد شرَّفهم بأن كانوا «خليفته» في الأرض، ويعرفون عِظَم الحقيقة التي وردت في قوله تعالى: **﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾**[200]، وهم لا يولُّون العبدَ ظهورهم بل ينظرون إلى الكمال في جوهره مهما كان غارقًا في الذنوب والآثام، ولا يقطعون بسهولة الأمل بصلاح أي إنسان، ويسعون لعدم فقدان الإنسان أمله، وأكثر ما ذكره الله تعالى في القرآن من أسمائه: «**الرحمن والرحيم**»، وقد أنزل سورة كاملة باسم «**الرحمن**» التي تعني أن رحمته تشمل المخلوقات كلها، وابتدأ أول آية فيها بـ «**الرحمن**».

وانطلاقًا من هذه الفكرة نرى أن التقرُّب من الإنسان من باب قلبه، أي بأسلوب الهداية والرحمة، أنجع طريق لبلوغ الرضا الإلهي.

وبالنظر إلى النتيجة، نجده أكثر الطرق بركة في تحصيل الغايات وبلوغ المرام، وأرقها في إزالة الصدأ عن القلوب وعن معدنها الثمين، وهو أسلوب يمنح الجميع -الداعي والمدعو، المرشد والمريد، العاصي والمربي- المزيد من الخصال والأخلاق، ويوصلهم إلى طريقٍ من النضج والمحبة واللطافة والرغبة في الوصال مع الله تعالى؛ كلٌّ بحسب درجته، واستعداده، ومقامه، وهذا الأسلوب هو إكسير الحياة الذي أحيا القلوب الكثيرة من مواتها، وعالجها من أسقامها، كما حدث على يد مولانا جلال الدين الرومي، ويونس أمره.

لهذا كان لمحتوى التصوف وأسلوبه في تبليغ الإسلام أهميةٌ كبيرة في كل زمان، ومن حقائق التاريخ ظهور شخصيات صوفية كبيرة مثل مولانا جلال الدين الرومي ويونس أمْرَه في مجتمع يقبع تحت نير الاحتلال المغولي، وكانت هذه

---

٢٠٠ انظر: سورة الحجر، ٢٩.





الشخصيات ينابيع السلام والطمأنينة والسكينة، وقدمت الشفاء والعزاء لطبقاتِ المجتمع المضطربة وللكثيرِ من الجرحى وأصحاب القلوب المتعبة، وكانت تحتضن الكثير من الغافلين كالمرضى الذين ينتظرون التخلص من أمراضهم، وتبتعد دائمًا في معاملاتها مع الناس عن «الحقد والكره»، ويوضِّح يونس أمرَه هذه الحقيقة أجمل توضيح بقوله:

لم آتِ لأدَّعي

فعملي المحبة

وبيت الله الأفئدة

قد أتيت لإحياء القلوب!

لقد أتت هذه الشخصيات الكبرى من أجل إحياء القلوب؛ حيث إنهم كانوا ينظرون إلى قلوب الناس، وينشرون المحبة والرأفة حولهم، فكانوا بحق وسيلة لهداية الكثير من الناس، ولو أن هؤلاء سلكوا عكس هذا السلوك الرائع الذي يعتمد على الفراسة، لانقطعت روابطهم مع الناس الذين تفصلهم عنهم هاوية كبيرة، وضاعت إمكانية تبليغهم بالتوجه إلى الله تعالى، وصار ذلك عكس ما أراده الله ﷻ، إذ إنه يأمر بإنقاذ عباده الذين غرقوا في مستنقع الذنوب، وهذا هو السبب في إرساله ﷻ آلاف الأنبياء على مدى التاريخ، وأمْرِهم بتزكية قلوب العباد بأجمل وأنجع أسلوب، ويستمر أولياء الله -الذين وهبهم الله تعالى للناس للغاية نفسها- في التربية المعنوية بأسلوب الأنبياء نفسه.

إن الله ﷻ هو المصدر الوحيد للرأفة والرحمة، وهو الذي يوضح لنا الأسلوب الأكثر تأثيرًا في دعوة العباد إلى الدين بقوله:

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾

(النحل، ١٢٥)





﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ. وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت، ٣٣-٣٤)

وكانت نتيجة تطبيق هذا الأسلوب الذي أوصى به رب العالمين أن تحولت الأرواح المليئة بالأشواك إلى ورود رائعة، وامتلأت بالأنوار بعد أن كانت في ظلام حالك.

ويبيِّن مولانا جلال الدين الرومي -الذي سار وراء هذه الحقيقة- أهميةَ توجيه الناس إلى الطريق الصحيح سواء أكانوا كفَّارًا أم مذنبين، والأسلوب الضروري لتطبيق ذلك بقوله:

«على الرغم من أنَّ الحديد شديد السواد ولا يُرى النور فيه، إلا أن الصدأ المتراكم عليه يذهب عنه ما إن يُصقل، وحين تُلمَّع المرآة -حتى لو كانت من حديد- تبدو جليَّة لامعة، وتظهر عليها الأشكال والصور المقابلة لها».

«فلا تعكِّرنَّ صفو مياه القلب حتى تستطيع أن ترى عليها نور القمر والنجوم! فالناس مثل مياه النهر، إذا ما تعكَّرت هذه المياه فلن ترى فيها شيئًا!»

هذا التعكير الذي يصيب المياه، ويذهب بصفائها وبريقها - كما يقول مولانا - مثل الذنوب التي تعكر القلوب وتذهب بملامح الخير فيها، ولكي يصل المرء إلى درر العالم المعنوية، وإلى أنوار الحقيقة، فعليه التخلص من كدر الذنوب وعكر المعاصي.

ولهذا فإن غاية التصوف هي تربية المشاعر التي تخالطها الأنانية والنفسانية، وإيصال الأفراد -ومن ثم المجتمع كله- إلى الصلاح والسكينة والطمأنينة؛ لأن الله ﷻ قد زيَّن الإنسان باللطافة والرقة وسمو المشاعر، وقيمة الإنسان منوطة بتمكين هذه المزايا في القلب وتحسينها.





وتتجلى الأخلاقُ الحميدة على القلوب المليئة بالروحانية، والأعمال الصالحة والأحوال المعنوية الرفيعة، ويصل العبد - على هذا الأساس- إلى حقيقته الأساسية في أنه خُلق على ﴿أحسن تقويم﴾.

ونرى مما سبق أن الإنسان لا يُحرَم أبدًا من الدعوة إلى الهداية مهما كانت درجة كفره وشركه وارتكابه للموبقات، والأمثلة كثيرة على ذلك في عصر الرسول ﷺ، ومن هذه الأمثلة:

دعوة رسول الله ﷺ وحشيًّا الذي قتل عمه حمزة، وهو الأمر الذي أثَّر فيه تأثيرًا عميقًا، حيث إنه أرسل إليه أحد الصحابة يدعوه إلى الإسلام، فكان جواب وحشي للرسول ﷺ:

«يا محمد، كيف تدعوني إلى دينك وأنت قد قلت:

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا. يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ (٢٠١) وأنا صنعت ذلك فهل تجد لي من رخصة؟»

فأنزل الله تعالى حينها قوله:

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر، ٥٣)

ففرح وحشي بهذه البشارة في الآية الكريمة وقال:

«ما أعظم رحمتك يا رب!» ثم تاب توبة نصوحة وأسلم مع أصحابه.

لقد تحول وحشي الذي كان قد قتل حمزة في غزوة أُحد إلى الصحابي وحشي رضي الله عنه، وصار ينعم بروحانية الهداية والمغفرة، وانطلق -آملًا بالعفو وراغبًا

---

٢٠١ الفرقان، ٦٨-٦٩.





في أداء ديَّة سيدنا حمزة- إلى مسيلمة الكذاب فقَتَلَه متحمِّلًا كل المخاطر، وأطفأ بقتله مسيلمة نار الفتنة.

فقال الناس: يا رسول الله، إنَّا أصبنا ما أصاب وحشي، قال:

«هي للمسلمين عامة» (٢٠٢)

وفي هذا الحديث بشرى عظيمة تفتح الباب واسعًا أمام كل تائب مهما كان ذنبه، وأمام كل إنسان مهما كان جُرمه، إنه ليس فقط باب التوبة، ولكنه أيضًا باب الرحمة والمحبة بمعناها الحقيقي الذي يوضحه النبي ﷺ، بالمفهوم النبوي النوراني المقتبس من العفو والكرم الرباني؛ المتمثل في الخطاب القرآني والنداء العلوي: (يا عبادي) وما ذلك إلا إكرام لسيد هؤلاء العباد، وفخر الكائنات محمد ﷺ.

هذه الرحمة الواسعة، والبشارة النبوية والربانية هي الأسلوب الأمثل والأنجع في علاج البشرية عامة، والأمة الإسلامية خاصة، فإن مجتمعاتنا الإسلامية تواجه اليوم أزمة عميقة كتلك الأزمة التي يعاني منها الغرب، فقد سيطرت المادية على حياتنا إلى درجة نبذنا فيها العواطف، وسيطرت العلمانية على الأفكار إلى درجة نبذنا فيها الدين، وسيطرت العقلانية على أسلوب الحياة حتى باتت الروحانية ضربًا من الخيال، وحتى صار أكثر الناس في مجتمعاتنا كالآلات التي تنتج وتستهلك ما تنتجه دون مشاعر حقيقية.

ولا مخرج من هذه الأزمة سوى بمخاطبة العواطف والعقول معا، وبالعمل على استحالة المشاعر لا الأفكار وحدها، والرحمة والهداية هي الأسلوب الأنجح والأنجع.

فالإنسان حين يخضع لشروط وظروف سلبية خاطئة، فهذا يمنعه من قبول الدلائل العقلية، ولكي تألف القلوبُ الحقيقةَ، لا بُدَّ أولًا من التقرُّب منها

٢٠٢ انظر: الهيثمي، مجمع الزوائد، جـ١٠، ٢١٤-٢١٥.





بالمسامحة، والعمل على تحسين تلك الميول الحسنة الرفيعة في داخلها، وهذه الطريقة هي الأكثر تأثيرًا.

ويجب أولًا نيل قلب ذلك الإنسان الغارق في الأخطاء والذنوب والعصيان قبل أن يوجَّه له الانتقاد واللوم، ومخاطبته بالحسنى قبل أن يُطلَب منه تنفيذ أوامر الدين، لهذا لا بدَّ من السعي لتأسيس علاقة محبة تكون قاعدة تأثير على هذا الشخص وسببًا في الاقتراب من عالمه الخاص، وبعد أن يصل قلب هذا الشخص إلى حالة استعداد، يمكن أن تُصحح الأخطاء بالتدريج، ولا بد من الأخذ في الحسبان ثمرة الإكرام والمديح سواء أكان ماديًّا أم معنويًا، وهي الثمرة التي تنمو في المخاطَب نتيجة هذه العلاقة الروحية، ومن اللازم هنا فهم الحديث الشريف التالي فهمًا جيدًا:

«**شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي**». (أبو داوود، السنة، ٢٠)

فهذا الحديث هو الـمُتنفَّس للقلوب المخنوقة بدخان الذنوب، وعن طريقه تتنفس من جديد وتعود لها الحياة.

وما أجمل توضيح مولانا جلال الدين الرومي لهذا الحديث والموقف الذي يتخذه رسول الله ﷺ من المذنبين:

«إن الدواء يبحث عن المرضى والجرحى كي يشفيهم، وأينما وُجِد الهمُّ يكون ذلك المكان قبلة الدواء، وأينما وُجدت الحفر والأماكن الواطئة، فإليها تسيل المياه».

«وإذا كنت في حاجة ماسة لقطرات الرحمة والمرحمة، فاقتدِ بما ذكرت!»

وينبغي أولا تطهير الجراح من الجراثيم قبل أن يأخذ الدواء تأثيره، وهذا يعني تطهير القلوب المريضة من جراثيم الذنوب، وغسلها بماء التوبة، ثم يأتي الدواء -الشفاعة- بعد ذلك.

والحديث الشريف الذي يقول فيه النبي ﷺ:





«**التائب من الذنب، كمَنْ لا ذنب له**» (٢٠٣)

هو رحمة بنا، إذ إنها بشارة من ناحية، ومن ناحية أخرى تُظهِر الشرط الذي يوصل إلى هذه البشارة.

وكما كان الأنبياء كلُّهم يراعون الفطنة في أسلوب الهداية والرحمة في إطار هذا المعيار، كذلك هم أولياء الله تعالى الذين يتتبَّعون خطا النبي ﷺ، وبناءً على هذا، تعد الرحمة أولى ثمرات الإيمان، وقد عُرِّفت العبودية باختصار في إطار المعيارين التاليين:

- «**التعظيم لأمر الله تعالى**» أي تنفيذ أوامر الله تعالى بإجلال.

- «**والشفقة على خلق الله تعالى**» أي إظهار الرأفة والرحمة بالمخلوقات من أجل الخالق ﷻ.

ويقدم الفضيل بن عياض -وهو من أولياء الله- مثالًا حيًّا عن المؤمن الذي يعيش ضمن هذه المعايير:

فقد رُؤي يومًا وهو يبكي، فسألوه عن سبب بكائه، فأجابهم:

«أبكي لأنني أشفقت على مسلم مسكين ظلمني، وسبب همِّي كله أن هذا الرجل سيُخزى يوم القيامة».

ويقول مولانا جلال الدين الرومي موضِّحًا ما يبعث مثل هؤلاء الناس الكاملين على الرحمة والمرحمة:

«حين تضطرب أمواج الرحمة، يرتوي كل شيء من مياه الحياة حتى الحجارة، ويُبعَث من مات منذ مئات القرون من قبره، وتتحول الوجوه الشيطانية المسودة إلى وجوه ملائكية تغار منها حتى حوريات الجنة».

---

٢٠٣ ابن ماجه، الزهد، ٣٠.





ويُروَى أن إبراهيم بن الأدهم غسل مرة فم سكران تفوح منه رائحة الخمر الكريهة، وحين سألوه عن سبب ذلك أجاب:

«إنه لمن عدم الاحترام ترك فمٍ ولسانٍ خُلقا لذكر اسم الله ﷻ على مثل هذه الحال».

وحين أفاق الرجل من سكرته، قالوا له:

«لقد غسل زاهد خراسان إبراهيم بن الأدهم فمك».

حينها شعر الرجل بالخجل، فاستيقظ قلبه وقال:

«إذا كان هذا ما حصل، فإنني أتوب إلى الله من هذه اللحظة».

وبعد أن كان إبراهيم بن أدهم وسيلة لتغير حال هذا الرجل، رأى في منامه رؤيا صادقة يُخاطَب فيها:

«لقد غسلت فم هذا الرجل من أجلنا، ونحن غسلنا قلبه من أجلك!»

ويخاطب الله نبيه ﷺ وأمته من بعده:

﴿**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ**﴾ (الأعراف، ١٩٩)

ولا ريب أن خير قدوة لنا في تطبيق هذا الأمر هو سيدنا رسول الله ﷺ، فثمة الكثير من المواقف التي أظهر فيها النبي ﷺ نماذج من فيض رحمته وعفوه، وهي نماذج سامية لا مثيل لها تغبطه عليها حتى الملائكة، ومن هذه المواقف:

إعلانُه ﷺ بعد فتح مكة عفوًا عامًّا عن الجميع وإعطاؤهم الأمان، وكانت مكة تعيش تجليات المحبة والرحمة في هذا اليوم العظيم الذي كان عيدًا عظيمًا عُفي فيه عن الجميع، بعد أن عاشت مكة سنوات طوالًا يسودها الظلم والعداوة، لكن أحد المكِّيين واسمه فُضالة أراد أن يمنع فرحة الانتصار بقتل سيدنا محمد ﷺ، فاقترب منه وهو يبيِّت القتل، فانتبه له النبي ﷺ وعلم ما ينويه، ولم يظهر





أي اضطراب أو غضب، بل فتح له جناح الرأفة والرحمة وتوجه إليه وخاطبه بهدوء:«**أَفَضالةُ؟**» قال: «نعم فضالةُ يا رسول الله»، قال: «**ماذا كنت تحدِّث به نفسك؟**» قال: «لا شيء، كنت أذكر الله»، فضحك النبي ﷺ، ثم قال: «**أستغفر الله**»، ثم وضع يده على صدره، فسكن قلبه، فكان فضالةُ يقول: «واللهِ ما رفع يده عن صدري حتى ما من خلق الله شيءٌ أحبَّ إليَّ منه»[٢٠٤].

ولا شكَّ أن هذا الموقف يظهر السلوك الرفيع والقلب الكبير، وهو التطبيق العملي لمقولة: «دع مَنْ يُقدِم على قتلك يحيا بك».

وتاريخ الإسلام مليءٌ بأمثلة شبيهة لا تُعد ولا تُحصى، وقد كان سيدنا عمر رضي الله عنه ثمرة من الثمار القيِّمة الأولى لهذا الأسلوب الرائع والراقي، وجاء الكثيرون من بعده، يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«حين تتحرك أمواج رحمة الله وكرمه، تتساقط الأمطار في كل أرض قاحلة، وترتوي جميع الأراضي الجدباء»

«اعلم يا مَنْ تدعو للهداية أن علاج العين الشريرة إنما هي العين الخيِّرة، فالعين الخيرة والنظرة الحسنة تسحقان العين الشريرة، والعين الخيرة والنظرة الطاهرة تنشآن من حقيقة أن رحمةَ الله تفوق غضبَه، أي تنشآن من رحمته، أما العين الشريرة فهي من الغضب واللعنة، ولأن العين الخيرة هي من رحمة الله تعالى فهي تغلب العين الشريرة.

وهذا الحال تجلٍّ من تجليات الحديث القدسي الذي يقول فيه الله تعالى: (إن رحمتي تغلب غضبي).[٢٠٥] ولتعلم أن رحمة الله تعالى تفوق قهره في كل حين، ولهذا نجد أن الأنبياء كلهم يفوقون أعداءهم وينتصرون عليهم».

---

٢٠٤ ابن هشام، السير، جـ٤، ٤٦؛ ابن كثير، السير، جـ٣، ٥٨٣.

٢٠٥ البخاري، التوحيد، ٥٥.





«وعليه فإن الحل في دفع البلاء ليس اللوم ولا الظلم؛ بل العفو والمسامحة والكرم، ولتكن واعيًا لقول النبي ﷺ: (باكِروا بالصدقة، فإن البلاء لا يتخطَّى الصدقة)[٢٠٦]، ولتفهم بعد هذا الكلام أصولَ علاج الأمراض والبلايا».

«ولا تنسَ أيضًا أن العفو عن الظالمين هو ظلم للمظلومين، وأن الإشفاق على اللصوص ومَنْ يرتكب أنواعًا مختلفة من السيئات هو ضربٌ للضعفاء وإيذاء لهم!»

فيجب إذًا تحقيق توازن دقيق في هذا الموضوع؛ لأن الله تعالى «غفور رحيم»، وهو في الوقت ذاته «عزيز ذو انتقام»، أي إنه ينتقم من الظالمين الذين يأكلون حقوق الناس.

لذلك كان من أحاديث رسول الله ﷺ:

«انصر أخاك ظالـمًا أو مظلومًا»، فقال رجل: يا رسول الله، أنصرهُ إذا كان مظلومًا، أفرأيت إذا كان ظالـمًا كيف أنصره؟ قال: «تحجُزُه أو تمنعه من الظلم، فإنَّ ذلك نصره» (البخاري، الإكراه، ٧؛ مسلم، البر، ٦٢)

وخلاصة القول: إن البشرية جمعاء في ذنوبها مثل الطيور الجريحة، تحتاج إلى تضميد جراحها بكل رفق ورقة، كي تتخلص من آلامها وجراحها ومعاصيها، وليس أنجع لها من أسلوب الرحمة والمحبة الذي شرحناه فيما سبق.



٢٠٦ انظر: الترمذي، الزكاة، ٢٨؛ البيهقي، الشعب، جـ٥، ٥٢/ ٣٠٨٢؛ الهيثمي، جـ٣، ١١٠؛ السيوطي، الجامع الصغير، جـ١، ١٠٨.





ينبغي مسامحة المذنب لا الذنب، وكراهية الذنب لا المذنب، ويجب على المؤمن المتحلِّي بهذا الشعور أن يعتمد دائمًا في التبليغ والإرشاد أسلوبَ «مؤاخذة النفس، ومسامحة الغير».




٢. أسلوب الحلم والرأفة

إن النظر إلى الإنسان من المنظور الصوفي يتطلب ملاحظة أصله وجوهره، لا الاكتفاء بحالته التي تشوبها الذنوب، وهذه من الحِكم الكبيرة لإقبال الأسلوب الصوفي على المذنب -لا الذنب- بالرحمة والمسامحة، والمتصوف الحقيقي هو ذلك المتصوف الذي يرى المذنب كالطيرِ المكسورِ جناحُه وبحاجة ماسَّة إلى الرأفة والاهتمام، ويشعر في داخله بأهمية إعادة الصحة والطمأنينة لهذا المذنب، وتسكين روحه التي تتخبط في أزمتها، وذلك لأن إظهار الرأفة والمسامحة للمخلوقات من أجل الخالق إحدى أكثر الأمور المؤثرة في وصول المؤمنين إلى الفضيلة والمراتب العليا.

ونضرب هنا مثالاً على ما ذكرناه من قصص الصحابة الكرام، فقد كان الصحابي أبو الدرداء قاضيًا في الشام، فمرَّ يومًا على رجل قد أصاب ذنبًا، فكانوا يسبُّونه، فقال: «أَرأيتم لو وجدتموه في قَليب، ألم تكونوا مستخرجيه؟» قالوا: نعم، قال: «فلا تسبُّوا أخاكم، واحمدوا الله الَّذي عافاكم»، قالوا: أَفَلا تبغضه؟، فأجابهم أبو الدرداء الذي تربَّى في المدرسة النبوية: «إِنما أبغضُ عمله، فإذا تركه فهو أخي»[٢٠٧].

---

٢٠٧ انظر: عبد الرزاق، المصنف، جـ١١، ١٨٠؛ أبو نعيم، الحلية، جـ١، ٢٢٥.





لقد أراد الصحابي الحكيم أبو الدرداء رضي الله عنه أن يغرس من خلال هذا الموقف بعضًا من المعاني التي عاش عليها وتعلمها في كنف رسول الله ﷺ، وهو مكلف بتبليغها للمؤمنين، وغرْسِها في نفوسهم لتكون أُطُرًا حاكمة لتصرفاتهم تجاه كل صاحب ذنب، ولتكون قوانين مادية وقلبية في معاملة الخاطئين، ولتكون حدًا فاصلاً بين الذنب والمذنب، وكذلك بين المذنب ومَنْ يشاهد هذا المذنب، في كيفية التعامل معه، والشعور تجاهه، ومحاولات إنقاذه، والأخذ بيده.

إن الذنوب بحرٌ لجيٌّ لا مناص لأحد من البشر من الإصابة منه، فإما غريق، وإما مصاب بقطرات مائه، ولا نجاة لأحد أو للبشرية كلها إلا بأن يأخذ الجميع بيد الجميع؛ متمسكين بحبل الله تعالى المنقذ من ذلك البحر.

فأسلوب الحلم والرأفة هدفه إنقاذ المذنب من الاختناق بدخان ذنبه، أو التلوث بقذارات جرمه، ثم تطهيره بالمسامحة والعفو، والتقرب منه بالرحمة والمحبة، وإغراق ذنوبه في بحر التوبة.

وتأمل الأسوة الحسنة -رسول الله ﷺ- كيف لم يبالِ بما فعله المشركون به، فلم يعاتبهم ولم يجادلهم فيما اقترفوه؛ إنما دعاهم إلى الإسلام والإيمان والهدى، والتخلص من الشرك، والتطهر من ذنوب الماضي والحاضر، والإقبال على الله سبحانه.

ولله المثل الأعلى، فالحق تبارك وتعالى لا يدعو فقط عباده المسلمين المؤمنين؛ بل يؤكد الدعاء والنداء على أكثر عباده ذنوبًا وأعظمهم إثمًا وأفدحهم جرمًا؛ يدعوهم للتوبة والتطهر، ويرغبهم في الإقبال عليه سبحانه دون الالتفات إلى ذنوب الماضي مهما بلغت؛ بل يتخطى ذلك كله ويبشر هؤلاء التائبين -مُظهِرًا مدى عظمة الكرم والعفو الرباني- بأنه يجعل هذه الجبال من الذنوب في حسنات تطفح بها صحائف الخير، وفي ميزان العبد إذا هو تاب وآمن وعمل صالحًا، وهو ما تقره الآية الكريمة:





﴿**إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا**﴾ (الفرقان، ٧٠)

إن مَنْ لا يستطيع أخذ نصيبه من هذه الرحمة الفياضة هو عدوٌ لنفسه وللإنسانية جمعاء، وهؤلاء الغافلون الذين لا يجدون الرحمة والرأفة هم الأشقياء الذين يسدُّون بأيديهم طريقهم نحو السعادة الأبدية، أما أولياء الله تعالى مثل مولانا جلال الدين الرومي ويونس أمْرَه وغيرهم ممَنْ وصلوا إلى منبع الرحمة، فهم مثل زهور الجنة بوجوههم النورانية المتبسِّمة، يلقَون المحبة من الناس جميعًا، بل حتى من الكون كله بدءًا بالطيور الأليفة وانتهاءً بالذئاب الشرسة؛ لأنهم ينشرون السعادة والخير بين الجميع دون استثناء، ويداوون القلوب الجريحة دون تفرقة، والأمر المهم في الموضوع هو أنه يجب أن تكون طبيعة المريد مثل طبيعة الوردة التي لا تتأثر بمجاورة الأشواك حين تكون في حديقة الدنيا، فتتحول هي أيضًا إلى أشواك، بل تنشر عبقها داخل الأشواك في هذه الدنيا حتى لو كانت تعاني من برودة الشتاء التي تفسد جمال الربيع واخضرَاره، ومن الكلمات الجميلة لمولانا جلال الدين الرومي قوله: «لقد بدأ القمر بتلقي النور وبثِّ الضوء في كل مكان؛ لأنه لم يَخَفْ من الليل ولم يهرب من ظلامه الدامس، كذلك صار للوردة رائحة زكية؛ لأنها تعايشت مع تلك الأشواك التي تحيط بها».

«ولتسمع هذه الحقيقة من الوردة وهي تقول: لِمَ أشعر بالغمِّ، وأرمي نفسي في الهم، حين أكون مع الأشواك؟ فأنا قد حصلت على هذه الابتسامة من خلال صحبتي مع هذه الأشواك على الرغم من طباعها السيئة، وبواسطتها استطعت أن أنشر العبق في أنحاء العالم».

ويلخِّص الشيخ أشرف أوغلو الرومي الأسلوب الضروري للوصول إلى هذه الحالة في هذا البيت من الشعر:

يجب أن تتجرع السموم وكأنها الشهد لأجل الحبيب





وعن عمر بن الخطاب ﷛ أن رجلاً على عهد النبي ﷺ كان اسمه عبد الله، وكان النبي ﷺ قد جلده في الشراب، فأُتي به يومًا فأمر به فجُلِد، فقال رجلٌ من القوم: اللّهُمَّ العنه، ما أكثر ما يُؤْتَى به؟

فقال النبي ﷺ:

«**لا تلعنوه، فوالله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله**» (البخاري، الحدود، ٥)

وفي يوم من الأيام وقع أحد تلامذة الشيخ محمود سامي رمضان أوغلو ﵀ في ضَعف نفسه نتيجة لأزمة وضائقة حلَّت به، فأتى باب الشيخ وهو سكران، ففتح له البواب وقال له مؤنِّبًا:

«ما هذه الحالة التي أنت عليها؟ هل أنت مدرك إلى أي باب أتيت؟»

فأجابه الرجل المسكين الذي لا حيلة له:

«وهل يوجد باب أدخل منه غير باب الرحمة هذا!» فكان هذا اعترافًا منه بعجزه وموقفه الصعب.

وما إن سمع الشيخ سامي كلام العاجز هذا، حتى أسرع إلى الباب، وأدخل تلميذه المجروح قلبه إلى قصر الروحانية، وأحيا بالرحمة والرأفة والمحبة قلبه المكلوم، ومع مرور الأيام تحول هذا التلميذ الذي أرشده الشيخ بأسلوب الرقة القلبية إلى أحد الصالحين الكبار بعد أن تخلص من أحواله السيئة كلها.

إن الأخلاق الحميدة التي نراها في أولياء الله تعالى، والتي تتلخص في «النظر إلى المخلوقات بنظرة الرأفة التي أمر المولى ﷻ بها»، تتجلى على أجمل صورها في الحديث النبوي الشريف الذي يشمل الجميع دون استثناء:

«**والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تراحموا**»، **قالوا: يا رسول الله كلنا رحيم، قال:** «**إنه ليس برحمة أحدكم ولكن رحمة العامة رحمة العامة**» (الحاكم، المستدرك، جـ٤، ١٨٥)





ومهما ابتعد الإنسان عن الغاية الأساسية التي أرادها الله تعالى منه فإنه يبقى صاحب شرف ومكانة رفيعة؛ لأنه «إنسان»، فبقاؤه غارقًا في مستنقع الذنوب وعدم معرفته بنبل ورفعة جوهره هو كسقوط الحجر الأسود من جدار الكعبة الشريفة إلى الأرض وتلوثه بالوحل، فلا يتصوَّرُ في هذا الموقف أن ضمير المؤمن لن يكترث ولن يحرك ساكنًا، فالمؤمنون احترامًا للحجر الأسود وتعظيمًا له لن يتركوه على حاله، بل يسارعون لتناوله مع ما عليه من وحل وأذى، ويشرعون في تنظيفه، وعيونهم تغرق بالدموع، ثم يتنافسون في إرجاعه إلى موقعه المقدَّس، لأنهم يعلمون أن هذا الحجر من الجنة، ويعرفون القيمة العظيمة في جوهره، والحال نفسُها مع الإنسان؛ فهو أيضًا كان في الجنة وأُخرج منها، فمهما وقع في الذنوب والآثام، تظل قيمة جوهره باقية إلى الأبد.

ومن ناحية أخرى، لن نجد أي طبيب ماهر يغضب على مريضه ويقول له: «لماذا مرضت؟» وحتى لو كان المرض بسبب إهمال المريض وتقصيره، فإنه سيعلل المرض بالعجز الطبيعي لدى المريض سواء أكان بدنيًا أم فكريًا، وبدلًا من أن يغضب على المريض بسبب قيامه بأي أمر أدَّى إلى مرضه، يأخذ في حسبانه الألم الذي يعانيه المريض، ويسرع في إعطائه العلاج بالرحمة والرأفة دون أن يضيع المزيد من الوقت، إذ إنه يرى نفسه مكلَّفًا بمعالجة هذا المريض، والمتصوف أيضًا يرى نفسه مثل الطبيب الذي ينتقل من مكان إلى آخر في المجتمع كي يعالج المرضى، فيكون إحساسه هذا -الذي يحكم سلوكه- كحبل النجاة لـمَنْ ضلَّ الطريق، فيكون تقديم هذا الحبل وانتشال المذنب من مستنقع الذنوب الذي غرق فيه وسيلةً تجعل المرء ينال السعادة العظمى.

ويلفت انتباهنا ما قاله محمد ﷺ لِعلي رضي الله عنه في ساحة الحرب أثناء فتح خيبر:

«(يا علي)، والله لأن يهدي الله بك رجلاً خيرٌ لك من أن يكون لك حمر النعم»

(البخاري، الجهاد، ١٤٣)





وتعبِّر الآية الكريمة التالية عن الحقيقة نفسها:

﴿**وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا**﴾ (المائدة، ٣٢)

لقد تخطت المسألة هنا مجرد العلاج والتطهير والدعوة إلى التوبة، إنها مسألة إيمان أو كفر، إنقاذ من جهنم وإرشاد إلى الجنة؛ تلك هي مهمة المسلم والداعي عبر أرق الأساليب بالرأفة والحلم.

هذا الأسلوب يكون حتى مع أشد الناس كفرًا وعتوًّا، فقد أمر المولى ﷻ موسى عليه السلام حين أرسله إلى فرعون -كي يدعوه إلى الإيمان- بأن يخاطبه بـ«القول الليِّن»؛ لأن نجاح الداعي في دعوته - كما ذكرنا فيما سبق- هو العمل الصالح الذي يحمل إلى الفوز الأعظم، فالله تعالى لم يكن غافلاً -وحاشا أن يكون- عن شدة كفر فرعون، إذًا، حتى لو كان المخاطَبُ عظيمَ الكفر مثل فرعون، يجب ألا تطغى علينا مشاعرنا، وألا نستخدم التهديد والوعيد ونبالغ فيهما، بل نتبع الأوامر الإلهية التي تطالبنا بالقول الحسن اللين، وما أحسن كلام مولانا جلال الدين الرومي حين يقول:

«افهم وأدرك جيدًا قول الله تعالى ﴿**اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى. فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا**﴾»

«فإنك إذا ما وضعت الماء على الزيت المغلي، فستفسد الموقد والقِدْر معًا»

ويوضح الله تعالى للأمة كلها هذه الحقيقة في الآية الكريمة التالية التي قالها في النبي ﷺ:

﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ**﴾ (آل عمران، ١٥٩)

وكما أن أسلوب الرأفة مستخدم حتى مع أشد الناس كفرًا، فكذلك يجب أن يستخدم مع أشد الناس التزامًا وإيمانًا، فهذا الكائن البشري الطيني لا يخلو





من ضعف، ولا يَسْلَم من خطأ، وإذا ما اعتمدتَ على قوة إيمانه في توجيه اللوم والتعنيف إليه، واستخدام الأسلوب الفظ في إيقاظه من غفوته أو زجره عن غفلته، فقد يجرح ذلك مشاعره ويصدم حواسه، فيجعل ذلك حاجزًا بينه وبين النصيحة، ويلقى أسلوبك آذانًا صمًّاء، فتُفْسِدُ من حيث أردتَ أن تُصلح، وتلقى نتائج عكسية تمامًا، فذلك أسلوب مرفوض حتى من الوالدين مع ولدهما، وهما من هما قربًا ومحبة إليه، فما بالنا بالآخرين.

إن الطبيب الذي يضطر إلى إجراء جراحة للمريض، ويستخدم المبضع للقطع والاستئصال، لا يستخدمه بعنف وغضب؛ بل يستخدمه بكل رفق حتى في حالات البتر، لأنه يريد التخلص من الأذى في الجسد، ولا يريد أن يتسبب في الأذى لبقية الجسد.

يقول مولانا جلال الدين الرومي: «حين يعاتبك أبوك بسبب خطأ ارتكبتَه، يبدو لك كالوحش الذي سيهاجمك وينقض عليك، مع أنه أبوك».

«وهذا هو تأثير الهم الذي ينبع من جفائه وتوبيخه لك، أي إنَّ تنبيهَ أبيك وعتابَه وجفاءَه -على الرغم من أنه لأجل صلاحك- يُظهِر رحمته بك وحزنه عليك كالوحش المفترس».

فيجب على الدوام أن تتذكر أنك تتعامل مع إنسان مسلم بشري الطبيعة، وليس ملائكي الخلقة، الذنوب أقرب إلى جبلته من النورانية، والرحمة والرأفة أشد تأثيرًا فيه من الفظاظة والغلظة. لهذا يقول النبي ﷺ في الحديث الشريف:

«**بحسب امرئٍ من الشر أن يحقر أخاه المسلم**» (مسلم، البر، ٣٢)

ومن الحوادث التي تنير عقولنا ما قامت به السلطانة (بزم عالم) التي أدركت الحكمة من هذا الحديث الشريف، فبَنَت وقفًا في الشام تعويضًا للأشياء التي تكسرها الخادمات ولكي لا تجرح مشاعرهن بتوبيخ أسيادهم لهن[٢٠٨].

---

٢٠٨ كان صاحب البيت يأخذ من الوقف الأواني التي تكسرها الخادمات.





إن المؤمن بمثل هذا الشعور والإحساس يجب أن يستخدم دائمًا في التبليغ والإرشاد أسلوبَ «مؤاخذة النفس، ومسامحة الغير». فالله تعالى يقول:

﴿وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ (الحجرات، ١٢)

مثل هذه التوجيهات الإلهية والإرشادات الربانية والقيم الجمالية، ينبغي أن يعيشها المسلم منهاجًا حياتيًا، وليس فقط نموذجًا حكائيًا، فيجعلها نبراسًا في الدنيا، ومعراجًا إلى السماء، وقنطرة إلى الجنة، ورابطًا بين الدنيا والآخرة، وسبيلاً لسعادة الدارين. هذه القيم هي التي صنعت رجالاً غيروا وجه العالم، وصححوا مسار التاريخ، وتناولوا بأيديهم الثريا، وأثبتوا أن الإنسان المخلوق من طين هو المستحق لأعلى عليين.

ومن أمثلة هؤلاء الشيخ «أدبالي» السلطان الروحي والحامي المعنوي والمؤدب للسلطان العثماني «عثمان غازي» مؤسس الدولة العثمانية، فانظر كيف كان الأساس الذي قام عليه هذا البناء.

فنصائح هذا الشيخ وتوصياته للسلطان عثمان غازي فيها الكثير من المعاني والقيم العظيمة له ولمَنْ يأتي من بعده ممَنْ يتولون الإدارة من أعلى رتبة إلى أدناها، وحتى لأفراد الأسرة الواحدة في تعاملاتهم بينهم، فمن أقواله: «يا بُني، إنك السيد الآن، ومن الآن فصاعدًا الغضب منا ولين العريكة عليك، الاستياء منا وتحسين العلاقة عليك، الاتهام منا والمكابدة عليك، الخطأ والعجز منا والصفح عليك، سوء الخلق وعدم الانسجام والتصادم والخلافات منا والعدالة عليك، النظرات الخبيثة والتشاؤم والاتهام منا والمسامحة والعفو عليك».

«يا بُني، التفرُّق بعد اليوم منا وتوحيدنا عليك... الكسل منا والتوعية والتشجيع والتوجيه عليك».





إن هذه النصائح الفريدة هي مظاهرُ وتجلياتٌ لا مثيل لها، صادرة عن بصيرة القلب وسمو الفضيلة لإنسان يستطيع أن يعفو عن المساوئ لأجل الله ﷻ، وينظر إلى عباد الله بالرأفة والرحمة والمحبة في الظروف كلها.

فلم يكن رسول الله ﷺ يجرح مشاعر المذنب أمام العامة حتى لو كان يعرفه، بل كان يوجه كلامه للكل ويحذِّرهم من ذلك الذنب، وفي بعض الأحيان كان لا يُشعِر المخاطَب بخطئه أبدًا فيقول:

«**مَا لِي أراكم**»[٢٠٩]، فكأنه بذلك يحمِّل نفسه التقصير في الرؤية.

وهذا هو الأسلوب الذي يحمي المخطئ من الخزي والإذلال، وهو الصفة المشتركة لجميع مَنْ يفهم التصوف بمعناه الحقيقي ويعيش حياته على أساسه؛ لأن السبيل إلى الله تعالى ليس بهدم القلب بل ببنائه، وما أجمل قول يونس أمْرَه:

القلب هو عرش الرحمن

ونظر الله إلى عباده محله القلب

ومن يهدم هذا القلب

فقد خسر دنياه وأخراه

لقد كان أسلوب الرأفة والحلم هو طريق العودة والتوبة للكثيرين من الذين نبذهم المجتمع واحتقرهم الناس، لقد استطاعت الرأفة أن تكشف عن معدن قلوبهم الرباني، واستطاع الحلم أن يأخذ بأيديهم عبر التوبة إلى سماء القيم.

ويُروَى أنه كان للجنيد البغدادي طالب، وفي يوم من الأيام وجده جنيد في موقف معيب مُخزٍ، فاستحيا الطالب كثيرًا منه، وهجره، وما عاد يأتي إلى الزاوية الصوفية، وبعد مدة وبينما كان الجنيد البغدادي يمر في السوق مع أصحابه رآه

٢٠٩ انظر: البخاري، المناقب ٢٥، الإيمان ٣؛ مسلم، الصلاة، ١١٩؛ أبو داوود، الخاتم، ٤؛ الأدب، ١٤؛ ابن حبان، صحيح، جـ٤، ٥٣٤.





الطالب الذي خرب قلبه، فابتعد بسرعة من هناك خجلًا منه، وحين انتبه الجنيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ التفت إلى أصحابه وقال:

«أكملوا طريقكم، فأحد طيوري قد هرب من عشي!» ثم سار وراء طالبه، وحين نظر الطالب إلى الوراء ورأى شيخه يتعقبه اضطرب في خطوه وأسرع في مشيه إلى أن وصل إلى طريق لا مخرج منه، وهناك اصطدم بجدار دون قصد لشدة قلقه وخجله، وما إن رأى شيخه أمامه حتى تبدل لون وجهه وأطرق رأسه، فقال له الجنيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«يا بُني، إلى أين تذهب؟ ممَنْ تهرب؟ إن لم تكن مساعدة وعون الأستاذ لطالبه في مثل هذه الأيام الصعبة والأوقات العصيبة فمتى تكون؟». ثم أخذه بالرأفة والرحمة إلى الزاوية، وندم الطالب على ما فرط منه وانكبَّ على شيخه، وتاب عن ذنبه.

وغير هذه الحالة كثير من الحالات التي نالتها بركة النظرة الثاقبة والنضج التربوي في الإرشاد المعنوي، والتي اتسعت دائرة نورها، فشملت هدايتُها وإنقاذُها نماذجَ كانت بعيدةً كلَّ البعد عن النجاة أو مظنة النجاة، فمهما كانت عيوب الإنسان وذنوبه، فرحمة الله أوسع، وباب توبته أكبر من الدنيا ومَنْ عليها، ونظرة رحمته تشمل كلَّ الموجودات لا الإنسان وحده، ولا المسلم وحده، فما بالنا بالمذنب الذي هو أظمأ الموجودات إلى قطرات الرحمات.

ومن الصفات المميزة التي تدل على المسلم الناضج قدرته على العفو عن الشخص المخطئ، وليس ذلك فحسب، بل معاملته لـمَنْ أساء إليه بالخير والإحسان، ودعاؤه لـمَنْ رأى منه الإساءة بالصلاح والهداية، ويكفينا هنا أن نتذكر أن النبي ﷺ حين رماه أهل الطائف بالحجارة لم يدعُ عليهم، بل دعا الله تعالى أن يهديهم إلى سواء السبيل، وأن يخرج من أصلابهم من ينصر الدين وينشره، وكان ﷺ يحمي عزة الدين الجديد بعدم الدعاء على أهل مكة بالهلاك





والغضب الإلهي، بل كان يودُّ أن يدخل كل فرد منهم دائرةَ الهداية، فكان أسلوبه هذا وسيلةً في نجاة الكثير من النفوس الضائعة في هذه الحياة. يقول الله تعالى:

﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت،٣٤)

ويقول رسول الله ﷺ:

«لا تكونوا إمَّعة، تقولون: إن أحسن الناس أحسنَّا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطِّنوا أنفسكم، إن أحسن الناس أن تُحسنوا، وإن أساؤوا ألا تظلموا» (الترمذي، البر، ٦٣/ ٢٠٠٧)

وعن أبي الأحوص، عن أبيه ﷺ قال:

قلت: يا رسول الله، الرجل أمُرُّ به فلا يقريني ولا يُضيِّفني فيمرُّ بي، أفأجزيه؟ قال: **«لا، أقرِه»** (الترمذي، البر، ٦٣/ ٢٠٠٦؛ أحمد، جـ٤، ١٣٧)

ففي مثل هذه الحالات إذا كان الشخص عدوًّا وعُومِل بالخير والإحسان، فسيغدو صاحبًا، وإذا كان بعيدًا سيصبح قريبًا، وإذا كان قريبًا تزداد محبته، والناس اليوم أحوج إلى هذه القيم والأخلاق من الناس الذين نسمع أخبارهم، فقد طغت المادية حتى كادت تقتل الأرواح ظمأً، وانطفأت المشاعر حتى كادت تقتل الناس قسوة وتحجرًا.

لذلك فإن الحكمة من وراء رغبتهم في الروحانية هي سعيهم للتخفيف عن أرواحهم المثقلة بأدران المادية، وهنا يعدُّ استخدام أسلوب التصوف في تقديم الإسلام وتعليم آدابه من أنجع الأساليب وأنفعها.

إن الكثير من الذين اهتدوا في الغرب هذه الأيام يلجؤون إلى مراجعة مؤلفات كبار المتصوفة مثل مولانا جلال الدين الرومي وابن عربي لملء الفراغ الذي أحدثته المادية في أرواحهم، وتأتي الكتب الصوفية في مقدمة الكتب





الإسلامية التي يكثر الطلب عليها في العالم الغربي. فالعالم اليوم في حاجة ماسَّة إلى التعمق القلبي الذي يشمل العالم كله، والذي يعبِّر عنه مولانا جلال الدين الرومي في قوله:

هلُمَّ إلينا مهما كنت، هلمَّ إلينا!

كافرًا كنت أم مجوسيًا أم وثنيًا، هلمَّ إلينا!

فزاويتنا (الإسلام) زاوية لا تخلو من أمل!

وحتى لو أفسدتَ توبتك مئة مرة، هلمَّ إلينا!

إن الغاية من دعوة المسامحة التي أطلقها مولانا الرومي هي تعريف الإنسان بجوهره، وتشريفه بالإسلام عبر الخلاص من ذنوبه وأخطائه على أساس المسامحة والرأفة والرحمة، أي إن الأبيات لا تعني قبول الإنسان دون غاية والبقاء على حالته القديمة، بل المقصود هو فتح باب الله للجميع، فإذا دخلوا هذا المشفى الكبير، وهذا الحجر الصحي يجد كل داء دواءه، ويجد كل عليل شفاءه، ويجد كل مريض طبيبه الذي يدرك حالته، ويمسُّ بمبضعه ودوائه سبب العلة.

المقصودون بنداء مولانا هم أصحاب العلل وليس أصحاب المعافاة؛ لأن المقصود منحهم العلاج وليس الفقه والعلم.

ومن الضروري التعامل مع الناس بالأسلوب الصوفي القائم على الإيثار والرحمة والمسامحة في الأوقات التي تضعف فيها تطبيق الحياة الدينية، وتكثر فيها ذنوب الناس؛ لأنه الأسلوب الأنجع الذي يعيد الإنسان المذنب العاصي إلى الطريق الصحيح ويزيد من احتمال نجاته.

ولكن لا بد من أن نذكر هنا أن مسامحة المذنب والعفو عنه تكون في الأمور الشخصية، إذ ليس من الحق العفو عمن يظلم العباد و يأكل حقوقهم، فإن ذلك يفسد سعادة المجتمع وطمأنينته، وليس من الخطأ بالتأكيد أن ينظر الإنسان الذي يعيش





ظاهر الدين فقط إلى المذنب بمشاعر «الغضب»، فمن الضروري بالنسبة إليه أن يبقى بعيدًا عن المذنب كي يحمي نفسه مما ينتج عن صحبة المذنب من أضرار.

إن الغافل في حياته تروق له الذنوب كما تروق له نغمات الموسيقى، فتراه يرتكب هذه الذنوب دون أدنى شعور بثقلها وعواقبها، لهذا كان من الخطر بالنسبة إلى العامة مسامحة ذنب المذنب؛ لأنها قد تكون سببًا في عدم تعظيم الأوامر الإلهية، وإفساد القلب بالذنوب، وشيوع الفاحشة، وهذا يعني أن المراد هو التسامح مع المذنب لا الذنب، وعداوة الذنب لا المذنب.

وآخر ما نذكره هنا الحديث الشريف الذي يقول فيه رسول الله ﷺ:

«**يسِّروا ولا تعسِّروا، وبشِّروا، ولا تُنفِّروا**» (البخاري، العلم، ١١)

وبالطبع يكون ذلك بشرط عدم الإضرار بجوهر الدين والخروج عن الاستقامة.

إلهي، املأ قلبنا بالحِكم، واجعلنا ممَنْ يحبونك حق المحبة، وأطلعنا على أسرار الدنيا والآخرة.

يا رب، اجعل قلوبنا منبعًا للرحمة والرأفة يصب في قلوب مخلوقاتك، واجعل ذلك خالصًا لوجهك الكريم.

يا رب، بدِّل سيئاتنا حسنات، واغفر لنا ذنوبنا.

إلهي، ألحقنا بزمرة الصالحين، الهداة إلى طريقك، الذين يعفون عن خلقك، والذين أدركوا سر قولك «إن رحمتي تغلب غضبي». آمين...



الفصل الثالث

معرفة الله عزّ وجلّ والهبات الإلهية

أ. معرفة الله عزّ وجلّ

١. الذات الإلهية

٢. الصفات الإلهية وتجلياتها

٣. معرفة الله والتجليات لدى العارفين

ب. الهبات الإلهية

١. العلم اللدنِّي

٢. الفراسة

٣. التصرف والكرامة

٤. الرؤيا الصادقة





«من عرف نفسه فقد عرف ربه»



معرفة الله ﷻ والهبات الإلهية

إن المولى ﷻ ظاهرٌ، وكأنه لشدة ظهوره غائب




أ. معرفة الله ﷻ

١. الذات الإلهية

يقول رسول الله ﷺ: «**تفكَّروا في آلاء الله، ولا تفكَّروا في الله**» (الديلمي، مسند، جـ٢، ٥٦؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، جـ١، ٨١)

في الحديث نهيٌ عن التفكر في ذات الله تعالى؛ لأن الإنسان قاصر الفكر والإدراك والحواس عن إدراك ذات الله سبحانه، ويجب أن يُقصِر تفكيرَه على آلاء الله ونعمه ومخلوقاته.

وإن معرفة الله تعالى التي تصل بالبشر إلى الإيمان والعرفان، وتبلغ بهم أنوار الهداية لا تتعلق بذات الله تعالى بل بصفاته جلَّ وعلا، فالله تعالى منزَّه عن الزمان والمكان، أما إدراك الإنسان فهو محكوم بالزمان والمكان، لذا فإن منطقه الذي يعمل به مرتبط بما يتلقاه عن عالمه المادي من انطباعات، وإذا ما أراد فهم أي شيء وإدراكه، فمن اللازم أن يكون له مشابه في العالم المرئي وانطباع سابق عنه في ذهنه، أما الله ﷻ فمن صفاته أنه لا يشبه مخلوقاته فهو سبحانه (مخالف للحوادث)، وهذا يعني أنه مختلف كليًّا ولا يشبه أي شيءٍ مخلوق، وهو الكامل المتعالي على ما سواه.





وهذه الحقيقة المنطقية هي نتيجة إدراك كمال النظام الذي يحكم الكون كله، وحاشا أن يُقارَن السبب الأول الذي لديه القدرة على خلق مثل هذا العالم، أي المولى ﷻ، مع آثاره، فهو صاحب الكمال والعظمة والقدرة، الذي يفوق المخلوقات كلها، وهذه حقيقة يقتضيها العقل والمنطق، فمن المستحيل والخطأ أن يخمن البشر حقيقة بماهية ذات الله تعالى الذي لا مثيل له ولا شبيه.

أي إن التكليف الذي أُمرنا به في حق الله ﷻ هو البدء بفهم صفات الله تعالى لنصل من خلالها إلى الإيمان بوجود ذاته ﷻ، لهذا قدَّم الله لنا -نحن البشر- الأمثلة والإيضاحات عنه في القرآن الكريم وفقًا لهذا الأسلوب، ومنها قوله في الآية الكريمة:

﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (النور، ٣٥)

وإذا ما دققنا في هذه الآية الكريمة نجد أن القرآن الكريم -بضرب هذا المثل- يُعطِي الإدراك البشري أولاً انطباعات يمكنه استيعابها، ثم يُجرِّد من هذه الانطباعات بحقيقة تتجاوز الخيال والإدراك، يُعبِّر عنها قوله تعالى: **﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾**، أي إن نور الله تعالى ليس كأنواع الأنوار المحدودة التي تخطر على بال الإنسان، ولن تكون كأيٍّ منها، فهو نور غير محدود فوق كل الأنوار، ونور لا يمكن أن يدركه البشر، فمن المستحيل أن يرى كل إنسان الدليل الحق، ويعلم آيات الله تعالى، ويخضع لأوامره؛ لأن إدراك المرئي كما أنه مرتبط بالنور، مرتبط كذلك بالعين التي سترى، فكل شيء يمكن رؤيته بالعين سيكون واضحًا للعين ببركة النور، أما الأعمى فلن يرى أبدًا، لذلك فإن وجود الروح التي ترى هو ركن





أساسي في رؤية المخلوقات والحقائق، ولها أهمية كبيرة كأهمية النور، فالروح القادرة على الرؤية هي فقط التي تستطيع الإدراك والفهم.

ونرى من ناحية أخرى أن وصف المولى ﷻ ذاتَه في الآية الكريمة بـ «النور» وقوله: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يدل على أنه خالق العالم كله، وهو الذي يُري هذا الكون كله، ويُعلِّم الحقائقَ الكثيرة ما ظهر منها وما بطن، ويبعث الحياة في العيون والقلوب. ولو لم يكن نور الله تعالى، لما عُلِمَ أو وُجد أي شيء، ولما وصل الإنسان إلى الحقائق، ولما امتلأت القلوب بالبهجة والسعادة أبدًا.

إن جميع أنواع الأنوار التي تيسِّر رؤية المخلوقات ومشاهدتها ما هي إلا تجلٍّ من تجليات ذلك النور العظيم.

وعليه؛ فإنه كما توجد درجات للأنوار في السموات، كذلك توجد أمثلة عن هذه الدرجات في الحياة الدنيا، فعلى سبيل المثال، تضرب أشعة الشمس القمرَ، ومنه تتوجه هذه الأشعة إلى الأرض لتدخل في بيت من البيوت، وتسقط على مرآة في أحد الجدران، ثم تسقط على مرآة أخرى في الجدار المقابل، ثم تسقط على كأس ماء، ومن ثم تنعكس على سقف البيت، فنجد أن أقوى هذه الأنوار هو الذي انبعث من المصدر وهو الشمس، والنور الثاني من حيث القوة هو الذي كان في القمر، والثالث الذي كان في المرآة الأولى، والرابع في المرآة الثانية، والخامس في الماء، والسادس في السقف.

ونرى أن أقرب نور إلى نقطة الخروج الأولى هو أقوى من البعيد عنها، كذلك تدرُّج الأنوار في السموات، أي إن النور المستفاد منه أقوى من المستفيد، وتزداد هذه الأنوار جميعها وتتقوى لتصل في النهاية إلى النور العظيم الذي لا نهاية له، وهو نور الله ﷻ.

وهذا يعني أن كل شيء إنما يُكتشف ويُعرف بكشف الله تعالى له فهو نور السموات والأرض، فلولا نوره لاستحال وجود المخلوق ورؤيته. إن الإنسان





الذي ينظر إلى اخضرار الربيع في ضوء النهار، يقول أمام هذه الألوان المتنوعة التي يراها: «لم أرَ سوى الاخضرار!» وهذا يعني أنه استغرق في الربيع واخضراره، ولم ينتبه إلى النور الذي يضمن له رؤية هذا المنظر، أي إنه أدرك جميع الألوان التي رآها بفضل النور، وهذا النور في هذا الموقف يكون خفيًّا بالنسبة إلى الإنسان وذلك لشدة ظهوره ووضوحه.

ويقول أرباب المعرفة الذين ينطلقون من هذه الحقيقة:

«الله ﷻ ليس غائبًا في الواقع، لكنه غائب بالنسبة إلى استعدادنا وإدراكنا البشري؛ بسبب شدة ظهوره».

يقول الشيخ هُدائي:

ظهوره حُجبٌ للظهور

فهل لصاحب البصيرة حاجة لنور

وبتعبير آخر، إذا وضعنا إنسانًا في غرفة منارة، فيها ضوء قوته خمسة آلاف فولت، فإنه بسبب قدرة عينيه المحدودة لن يرى أي شيء تحت هذا الضوء. فمن هذا المنطلق سيغيب عن الإدراك البشري -بلا ريب- الله ﷻ صاحب النور الذي يفوق نوره كُلَّ أنوار الدنيا.

ولإبراز هذه اللفتة يقول المولى ﷻ في وصف المؤمنين:

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ (البقرة، ٣)

لكن هذا النوع من الغيب بالنسبة إلى أهل البصيرة هو أظهر وأوضح من أي مخلوق بسبب شدة تجلي نوره.

إننا نعيش اعتمادًا على الهواء، ولكننا لا نراه مع أنه يُحيط بنا من كل جانب، ولا نستطيع الإحساس به إلا أثناء التنفس، ونحن إذ لا نرى الهواء لا ننكر وجوده؛ بل نعترف أيضًا بضرورته حين نقول: «لن نستطيع العيش بلا هواء!».





والمخلوقات البحرية مثلنا أيضًا، فهم لا ينتبهون لوجود الماء حولهم داخل البحر، رغم أن الماء محيط بهم من كل جانب.

وهذا يعني أننا نستطيع إدراك الكائن حين يكون أمامنا، أو عن يميننا، أو عن شمالنا، أو في أية جهة كان، بيد أنه إذا أحاط بنا من كل جانب، فإنه يتجاوز حدود الجهات، ويفوق ظهورُه إدراكَنا، ويصبح خفيًّا عن عيوننا المحدودة بالجهات، ولو لم يكن الأمر هكذا -كأن يكون الهواء واضحًا لنا- لما استطعنا العيش في هذه الحياة؛ لأن المخلوقات الأخرى حين نكون في جو ضبابي، تصبح غير مرئية، أي إن رؤية الكائن الذي يحيط بنا من كل جانب سيكون سببًا في عدم رؤية الكائنات الأخرى؛ لهذا كان الله جلَّ وعلا خفيًّا عن العيون في هذا العالم، ولو كان ظاهرًا لما رأى الناس سواه بسبب جماله وإحاطته بهم من كل جانب، وبالطبع لما كان هناك شيء اسمه الحياة الدنيا.

وفي مثل هذه الحالة نجد أن الله المتعالي، أي الذي يفوق خيالَنا وإدراكنا، خفيٌّ عنا وظاهرٌ لنا في الوقت نفسه، وبمعنىً أدق؛ هو خفيٌّ عنا بذاته، ظاهرٌ أشد الظهور في تجلياته.

ظاهرٌ؛ لأن المخلوقات جميعها ناتجة عن نور ذاته.

خفيٌّ؛ لأن قوة العيون لا تكفي للنظر إلى نوره.

ظاهرٌ؛ لأنه يتجلى بصفاته على كل ما سواه.

خفيٌّ؛ لأنه لا مثيل له... فعلم الإنسان بالأشياء عمومًا يعتمد على مقارنته إياها بأضّادها، فبضدها تتميز الأشياءُ.

لهذا من الطبيعي جدًا لـمَنْ لا ضد له أن يكون خفيًّا.

وبالطبع لا يوجد أي مخلوق لديه شعور وقدرة كافية لإدراكه ﷻ، ولهذا السبب، نجد أن الإيمان هو الاعتقاد الجازم بوجوده، لا الإحاطة بحقيقة ذاته؛ لأن الوجود أو عدم الوجود أمر، والحكم على ماهية شيء موجود أمرٌ آخر.





ومن هذا المنطلق أنعم الله تعالى على الإنسان بالعقل كي يدرك وجود الذات الإلهية فقط، ومنح الإنسان بالتفكير إمكانية الانتقال من الأثر إلى المؤثِّر في عالم الشهادة الذي ملأه سبحانه بتجليات صفاته.

ويعكس المثال التالي هذه الحقيقة على أفضل وجه:

في يوم من الأيام رأى الشيخ الجنيد البغدادي -وهو من كبار أولياء الله- مجموعة من الناس يركضون وهم في حالة اضطراب وقلق، فسألهم:

«إلى أين تذهبون وأنتم في هذه الحالة من الاضطراب والهيجان؟»

فأجابوه: «لقد جاءنا اليوم عالم من كذا وكذا، وهو يوضِّح وجود الله تعالى ووحدانيته بآلاف الأدلة، نذهب إليه للاستفادة من أدلته وشرحه، فلتأتِ معنا إن أردت ذلك!»

فابتسم الجنيد ابتسامة تدل على حزنه لحالهم، وقال لهم:

«إن في الكون أدلة لا تُعد ولا تُحصى على وجود الله تعالى بالنسبة إلى العيون التي ترى، والآذان التي تسمع، والقلوب التي تعي، فما أكثر شواهد الله تعالى على ذاته! يا قوم، مَنْ كان لديه شكٌّ بعد هذا، فليذهب؛ أما أنا، فليس في قلبي أدنى شك في ذلك».

وبعبارة أوجز، أظهر اللهُ تعالى للعيون المبصرة تجلياتِ صفاته الإلهية اللامحدودة في الإنسان الذي يشكل جوهر العالَم، وفي الكون الذي يُعدُّ قرآنًا صامتًا، وفي القرآن الذي يعدُّ كونًا ناطقًا، وقد أرسل الله الأنبياء كي يكونوا عونًا في الاستفادة من هذه التجليات، ويهدوا الناس إلى الصراط المستقيم، ومن خلال هؤلاء الأنبياء أظهر الله ﷻ بعضًا من حقائق عالـمَي الشهادة والغيب بصورة تناسب الإدراك البشري، وعلى شكل «كلام» كما هو ظاهر في القرآن الكريم.





وهكذا نستطيع أن نقول في حق الله ﷻ على حسب قدرة الكلام وإمكانيته ما يلي:

هو الوجود المطلق في الواقع الذي لا تحدُّه الحدود، والذي لا يمكن أن يوصف بشيء خارج أوصافه الخاصة به، حتى إن كلمة «مطلق» التي نصفه بها تبعًا لإدراكنا قد تحدُّه، لكننا نضطر لقول ذلك لنشرح صفاته؛ لأن الله ﷻ مختلف عن أي شيء قد يخطر على بال الإنسان.

وإظهار صفات هذا الوجود المطلق ﷻ ضرورة لذاته، وكما هو حال ضوء القنديل الذي ينعكس في كل جانب، كذلك حال جميع الكائنات ثابت في علم الوجود المطلق مجملاً، فالكون مظهر من مظاهر هذه الحقيقة، والكائنات في هذا العالم الذي نسميه عالم الشهادة موجودة وجودًا نسبيًا، أي إنها لا توجد في وجودها لوحدها، فهي موجودة على أنها مظهر من مظاهر صفات الوجود المطلق وآثاره وأحكامه وقدرته وإبداعه، ومع أن الذات الإلهية تُظهر إبداعها وقدرتها وحكمتها وتدبيرها وتصرفها وصفاتها في الكائنات كلها، إلا أن هذه الذات لا تظهر أبدًا في عالم الوجود، أي إن عالم الوجود هو ظهور للصفات لا للذات.

ونستنتج من ذلك أن الذات مقدسة ومنزهة عن كل شيء، فانعدام الشمس يصاحبه انعدام الضوء، وعلى الرغم من أن ضوء الشمس لا ينفصل عن الشمس، إلا أن هذا الضوء ليس الشمس ذاتها.

بيد أن الاعتقادَ الباطل بأن كل شيء هو الله سبحانه، وأن الكون هو الإله، اعتقادٌ يقودُ إلى المادية التي تصور «الواحد» كأنه «الكل»، إن مذهب الحلولية الذي وضعه أفلاطون مصدره هذا الوهم المجانب للصواب، وقد رغب بعضهم في وضع فكرة وحدة الوجود داخل خانة الاعتقاد هذه، لكن المتصوفة الحقيقيين





دائمًا ما كانوا يرفضون مثل هذا الاعتقاد المنحرف، ففكرة وحدة الوجود[210] الحقيقية تقول إن كل شيء موجود بوجوده ﷻ، أما ذاته فهي منزهة عن الأشياء كلها، أي إن الكون مظهر لصفات الحق تعالى، أما ذاته فهي ليست الكون؛ لأن الخالق لا يمكن أبدًا أن يظهر على شكل المخلوق، ومَنْ كانت لديه قناعة مخالفة لذلك فهو واقع في الكفر الصريح؛ لأن الله ﷻ مخالف للحوادث، أي لا شبيه ولا نظير له، لذلك هو منزَّه عن الصفات البشرية جميعًا.

ومن المعلوم أن هناك مَنْ ابتعد كثيرًا عن هذه الحقيقة مثل اليهود الذين قالوا إن عزيراً عليه السلام ابن الله، والنصارى الذين قالوا إن عيسى عليه السلام ابن الله، وحاشا لله أن يكون هذا الكلام صحيحًا، ويأتي الجواب الإلهي على هذه الضلالات كلها، التي أنشأتها البشرية من خيالها ثم آمنت بها، في قوله ﷻ:

﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (الزمر، ٦٧)

وانطلاقًا من هذا نصل إلى أنَّ أساس الاعتقاد الإسلامي يتكون من كلمة التوحيد، وهي في الحقيقة إخراج كلِّ فهم عقائدي خاطئ عن الألوهية من القلب بكلمة «لا إله»، ثم تثبيت الفهم والاعتقاد الأصح في الألوهية التي أمرنا بها المولى ﷻ بكلمة «إلا الله»، وما أكثر الآيات الدالة على هذه الحقيقة:

---

٢١٠ وحدة الوجود: هو مفهوم صوفي وضعه ونظَّمه الشيخ محي الدين بن عربي. وهناك مفهوم آخر اسمه «وحدة الشهود» وضعه مجدِّد الألف الثاني الإمام الرباني. والرأيان في الأصل يوضحان الموضوع نفسه ولكن من جهتين مختلفتين، أي إن الاثنين إيضاح للفرق بين صفة الله تعالى وهي «الوجود»، والوجود/ الكينونة في عالم الشهادة. والفارق الوحيد بينهما هو أن «وحدة الوجود» هي الإحساس بالتوحيد، أما «وحدة الشهود» فهي مشاهدة تجليات التوحيد. وبما أنهما يتحدثان عن الحال، فلا يجب خلطهما مع تأويلات الفلسفة التي تعتمد على العقل.





﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ (البقرة، ٢٥٥)

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى، ١١)

﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ. اللهُ الصَّمَدُ. لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ. وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (الإخلاص، ١-٤)

والخلاصة هي أن إدراكنا للذات الإلهية يقتصر على معرفتنا بالله سبحانه وتسليمنا له في إطار الانطباعات والحِكم التي نتلقاها من عالمنا، أي إن العبد مهما كانت حاله وعظُمَت قدرته واستعداداته في هذا العالم الفاني داخل هذه المعايير الفانية، سيبقى عاجزًا ثم عاجزًا عن إدراكه للذات الإلهية.

ونعلم من القرآن الكريم أن سيدنا موسى عليه السلام تلذذ بالحالة المعنوية العظيمة حين تكلم مع المولى جلَّ وعلا في جبل طور، وقد ترنحت عواطفه نتيجة هذه التجليات الإلهية التي ذاقها هناك، فلم يعد يعلم هل هو في الدنيا أو في الآخرة، وكأنه خرج من مفهومَي الزمان والمكان، فتولَّدت في قلبه رغبةٌ شديدة في رؤية ذات الله تعالى نتيجة هذه الحالة العظيمة من العشق والوجد والاستغراق، فطلب ذلك من ربه ﷻ، وكانت إجابة الله تعالى له:

﴿لَنْ تَرَانِي﴾، وطلب منه النظر إلى الجبل، فإن رآه في مكانه، فسيرى ذات الله تعالى، وتقول الروايات إن نورًا من الله تعالى انعكس على الجبل من وراء حجب لا تُعد ولا تُحصى، فدُكَّ الجبل حينها دكًّا، وغُشي على موسى عليه السلام من دهشته، فلما أفاق بدأ بتسبيح الله والاستغفار؛ لأنه تجاوز الحد.[٢١١]

إن هذه الحقيقة القرآنية دليلٌ واضح على أن البشر محكومون بالعجز المطلق في موضوع إدراك الذات الإلهية.

٢١١ انظر: سورة الأعراف، الآية ١٤٣.





ونعلم من خلال الأحاديث الشريفة أن المؤمنين سيرون الذات الإلهية في الجنة كما يرون البدر في هذه الدنيا، ولا تناقض بين هذه الحقيقة وما ذكرناه آنفًا من حقائق؛ لأن الشروط في الدنيا والآخرة مختلفة، أي إن الله ﷻ سيهَب المؤمنين في الجنة قدرات واستعدادات مختلفة تجعلهم قادرين على مشاهدة الذات الإلهية، فالرسول ﷺ لم يُترَك داخل الشروط والظروف الدنيوية ليتلقى الوحي، بل أتاه جبريل وشقَّ صدره وأخضعه لعملية معنوية كي يمنحه بُنية وقابلية وقدرة تمكِّنه من حمل المهمات والتكاليف الخاصة بالأنبياء، ولو كانت قدرة النبي ﷺ وطاقته مثل غيره من البشر، لما صار مؤهلاً لوظيفة النبوة والتكاليف والتجليات الكبرى مثل المعراج.

ونَخْلص إلى أن مَنْ يرتقي من الإيمان إلى الإحسان هو مَنْ يحظى بالحقيقة والمعرفة في ضوء هذه الأسرار الإلهية كلها، ويغدو جوهرَ هذا الكون ولبَّه، ويمثِّل الإنسانَ الكامل الحقيقي، ويبحث دائمًا عن العالم الأزلي ويشتاق إليه، أي بحثٌ واشتياق للوصال مع الوجود المطلق، فهذا العالم النسبي المقيَّد الذي وقع فيه أشبه بمكان اغتراب بالنسبة إليه، لكنه تجَّرد عن وجوده الفاني في هذا العالم، فسلَّم إرادته لإرادة الله جلَّ جلاله.

اللهم يسِّر لنا الوصول إلى الإيمان اليقيني الصحيح.

اللهم زيِّن حديقة إيماننا ببراعم العمل الصالح الخالص لوجهك الكريم.

اللهم ارزقنا صحبة حبيبك محمد ﷺ في الجنة.

وشرِّفنا بالنظر إلى جمال وجهك الكريم يا رب العالمين!

آمين...





(إن مَنْ ينظر بنور الحق، يرَ الخلود في ذرة، ويشاهد المحيط كله في قطرة) مولانا جلال الدين الرومي




٢. الصفات الإلهية وتجلياتها

إن ذات الله ﷻ واحدة، أما صفاته فلا متناهية، أي إن صفاته لا تحدَّد بمقدار معين، فهي صفات لا نهائية، ولا يعلمها كلها إلا هو، وقد علَّم الله تعالى أنبياءه قسمًا منها، في حين علَّم الناس قسمًا آخر منها، وهي الأسماء التسعة والتسعين، أما العلماء فهم مطَّلعون على صفات إلهية كثيرة لا تدخل في الأسماء التسعة والتسعين.

وتُفيد الصفات الإلهية المعلومة وغير المعلومة أولاً تنزُّه خالق الكون عن صفات النقص، وأنه متعالٍ متصفٌ بصفات الكمال، أي إن كماله يفوق الخيال، ومن هنا نجد أنه من المستحيل أن يكون هناك نقصان في أية صفة من الصفات الإلهية التي تصنَّف إلى «ذاتية» و«ثبوتية»، أو أن تكون هناك صفات لا تناسبه ﷻ.

وبمعنى آخر، كمال الله تعالى هو لأنه حيٌّ حياة دائمة مطلقة، وصفة حياته ليست تلك الحياة التي تناقض الموت، فحياته ﷻ حياة خاصة به فقط، يقول الله ﷻ في ذلك:

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ (الفرقان، ٥٨)





أما علمه فهو علمٌ منزه عن أن يكون نتيجة التفكير والتأمل، وأصدق دليل على عظمة علم الله تعالى ولامحدوديته ذلك التناسق والنظام الدقيق الذي نراه في هذا الكون، والذي لا يمكن لأي عقل أو إرادة أن تصل إليه، أما البشرية بعلمها في هذا الكون فهي تصل إلى اختراع صغير بعد تضافر جهود الكثير من العلماء، ويكون هذا الاختراع نتيجة العلوم والقواعد البشرية الكثيرة المتراكمة على مدى القرون، فمثلاً الهاتف النقَّال المستخدم بكثرة في أيامنا هذه للتواصل بين الناس لم يُخترع إلا بعد آلاف السنين من وجود الإنسان في هذا الكون، وبعد تراكم الكثير من التجارب في هذا المجال، والحال نفسه في جميع مجالات الرقي الأخرى، وما هذه الاكتشافات والاختراعات والأسرار التي لم تُحل بعد إلا جزءٌ بسيطٌ من العلم الإلهي الذي وضعه في نظام الكون بلمح البصر.

وأفضل مثال على الفرق الكبير بين علم الله تعالى وعلم مخلوقاته هو قصة سيدنا موسى مع الخضر عليهما السلام:

ففي أثناء الرحلة التي رأى فيها موسى من الخضر عليهما السلام العجائب والغرائب والحوادث ذات الحِكم المجهولة، إذ بطائر يقف على زاوية السفينة التي ركبوها، ثم أخذ هذا الطائر بمنقاره من البحر، فجعل الخضر يُري موسى هذا المنظر ثم قال له:

«ما علمك وعلمي وعلم الخلائق في علم الله إلا مقدار ما غمس هذا العصفور منقاره» (البخاري، التفسير، ١٨/ ٤)

وفي ضوء هذه الحقائق يبيِّن مولانا جلال الدين الرومي الحِكم من وراء تعليم البشر صفات العلم والسمع والبصر الإلهية قائلاً:

«لقد أعلمك الله أنه عليم أي (يعلم كل شيء حق العلم) كي تخاف فلا ترتكب الشرور وتفسد».





«وقد أعلمك أنه سميع أي (يسمع كل شيء حق السماع) كي تغلق شفاهك فلا تنطق بالكلام السيئ البذيء».

«وقد أعلمك أنه بصير أي (يرى كل شيء حق الرؤية) كي لا تتورط في الأعمال السيئة في السر والخفاء».

وجميع أنواع الكلام الموجودة هي تجلٍّ لصفة كلام الله ﷻ، وهكذا يُظهِر الله تعالى قدرته اللامحدودة في صفة كلامه، ويذكر اسمه الشريف بألسنة ولغات لا تُعد ولا تُحصى، فقد وهب الله تعالى لكل مخلوق في الكون -بما فيهم المخلوقات التي يظن الإنسان أن لا روح فيها- لغة خاصة من صفة كلامه جلَّ جلاله، يقول الله تعالى في الآية الكريمة:

﴿**تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا**﴾ (الإسراء، ٤٤)

وبما أن التسبيحات كلها -التي لا شك في وجودها- تكون بذكر الأسماء، فإن الوسيلة الوحيدة الممكنة للإنسان كي يعرف الله تعالى هي تجليات الصفات الإلهية في حدود إدراكنا.

وهذه الصفات من ناحية المعنى هي «صفات»، أما من ناحية إشارتها للذات الإلهية الموصوفة فهي «أسماء»، أي إن الله ﷻ متصفٌ بهذه الصفات لدرجة أنها صارت أسماء له سبحانه، فكم من إنسان حين يتصف بصفة سامية لدرجة كبيرة، تغدو هذه الصفة اسمًا له في نهاية المطاف، مثل سيدنا الصدِّيق، والإمام الأعظم، وميِّت زاده وآخرين كثير.

لذا، يمكن إطلاق اسم «تجليات الأسماء» على تجليات الصفات الإلهية، وقد أخبرنا الله تعالى أن صفاته هي أسماؤه، كي تكون هذه الأسماء وسيلة لإدراك عباده له، ويبيِّن ذلك بقوله: ﴿**وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى**﴾ (الأعراف، ١٨٠)





لأن العبد يحافظ على ارتباطه بربه من خلال أسمائه، وتُظهِر هذه الحقيقة أن اسم الله تعالى عنصر لا غنى عنه في تنزيهه، ومن هنا نجد أن الأفعال الحسنة والسيئة من العبد لا تكون تجاه حقيقة الألوهية بل تجاه أسمائه ﷻ، وعلى هذا الأساس تكون حقيقته منزهة في كل حين.

والحق أنه لولا وجود اسم الله تعالى الخاص «الله»، لوجد الإنسان صعوبة كبيرة في تنظيم علاقته وصلته مع ربه؛ لأن الإنسان معتاد على إطلاق اسم على الكائن، ثم التعبير عنه بذلك الاسم، والاسم بالنسبة للإنسان تسجيل للكائن في إدراكه، لهذا السبب، علَّم الحق ﷻ آدم عليه السلام حين خلقه الأسماءَ كلها، وأظهر رفعة سيدنا آدم على الملائكة بهذا العلم؛لأن معرفة اسم الكائن، يعني أيضًا إدراك ذاته بمعنىً ما، ولو لم يعلمنا الله تعالى أسماءه الحسنى فكيف كان لنا أن ندركه ونعرفه حق المعرفة؟

أي إن الإنسان في حاجة دائمة لمعرفة أسماء ربه التي تبيِّن صفاتِه وخصائصَه، فكلُّ عبد يرغب في نداء ربه بالاسم المناسب لحاله في مختلف المواقف التي يعيش فيها، ولو لم تكن هذه الأسماء لكان هناك عجز كبير عن إيجاد ارتباط مع الله تعالى، وقد يستحيل ذلك.

ويمكن القول إن هذه الأسماء تُزيل إلى حدٍّ ما صمت الإنسان أمام الذات الإلهية، أي هي مفاتيح معضلات الإدراك البشري، فذكر أسماء الله تعالى يكفي وحده لتغذية الإيمان، وجعل الإنسان يشعر بأنه أمام الله تعالى، ويزيد من عشقه ومحبته، ويجعله خاشعًا لربه، راغبًا في نعمه، تاركًا للدنيا وما فيها من لذات وحظوظ فانية، ومتوجهًا للحياة الأبدية، ويحثه على الوصال مع الله تعالى، والدليل على هذه الفوائد هو أن الأدعية والأذكار التي أوصى بقراءتها رسول الله ﷺ في المواقف المختلفة كانت مليئة بأسماء الله تعالى.





وحين يكون المؤمن في ظروف صعبة جدًا وفي حاجة ماسَّة للرحمة الإلهية، فإنه يبحث عن تعبير مختصر يشرح حاله ورغبته في أن يعينه ربه، فيلتجئ إلى أنسب اسمَين من أسماء الله في هذه الحالة وهما «الرحمن» و«الرحيم»، أما حين يكون منهكًا تحت ثقل الذنوب، ويشعر بانقطاع حبل المحبة، فإنه يبحث عن وسيلة تُقرِّبه من المولى ﷻ، فيأوي إلى اسمَي الله «الغفار» و«الستار»، وحين يرى تجلي القدرة الإلهية وعظمتها في الكون وفي روحه، فإنه يبحث عن تعبير للمشاعر التي يحس بها والمعرفة التي نالها -المشاعر والمعرفة التي لا يمكن للكتب أن تصفها- فيجد في نهاية المطاف التعبير المناسب لحالته بقوله: «الله أكبر» وبهذا تسكن روحه الخفاقة المضطربة.

والخلاصة أن العبد في مختلف الأحوال التي يمرُّ بها يفتح أبواب روحه الموصدة بواسطة صفات الله تعالى المختلفة، وبها يتخلص من الاختلاجات الكثيرة التي يحس بها والحاجات التي يرغب فيها.

ولهذا السبب عرَّف الله تعالى نفسه بما يتناسب مع عظمته، وبأسلوب يفهمه الناس في الوقت ذاته، أي إنه ثمة سببٌ شخصي مرتبط بالإنسانِ نفسه، ولهذا عرَّفنا المولى ﷻ بنفسه عبر مجموعة من الصفات مثل العليم، والحكيم، والقدير، والغفور وما إلى ذلك من صفات، واستطاع الإنسان من خلال هذه الصفات أن يعرف ربه؛ لأن الإنسان يجد قسمًا من هذه الصفات في نفسه -ولو كانت محدودة إلى درجة كبيرة- وهذه هبة من الهبات الإلهية من أجل إيمان البشر وهدايتهم.

إن تجليات صفات الله تعالى وأفعاله هي عبارة عن «تكرُّم إلهي من أجل الإدراك البشري»، والتجلِّي هو إظهارٌ لما يُتجلَّى، لكن هذا الإظهار ليس كما هو موجود في ذاته ﷻ، بل يتحقق على صورة تكرُّم إلهي على إدراكنا.

يقول مولانا جلال الدين الرومي في إطار هذه الحقيقة: «إن مَنْ ينظرْ بنور الحق يرَ الخلود في ذرة، أي يرى شمس الخلود، ويشاهد البحر كله في قطرة».





وقد أدرك الشيخ إبراهيم غُلشاني دقة هذه الحقيقة فأنشد يقول:

يا روحي، كيف لهذه القطرات أن تحوي بحارًا؟

يا روحي، كيف لهذه الذرات أن تحوي شموسًا؟

وجواب هذا التساؤل مخفيٌّ في كلام مولانا جلال الدين الرومي الذي يقول:

«مَنْ ذا الذي يستطيع إدراك فعلِ الله الذي لا يُسأل عن حِكَمه؟ أو مَنْ ذا الذي يستطيع الوصول إلى حقيقة فعله؟ إن قولي هذا قول ضروري لشرح ذلك فقط».

«الدين في الحقيقة ليس إلا البقاء مُعجبًا مندهشًا، لكن هذا الإعجاب لا يعني إنكار الحقيقة لعدم استيعاب العقل لها، بل الافتنان والإعجاب والاستغراق في الحبيب».

«وإذا نمنا فذلك بسبب فقداننا لوعينا بعشقه تعالى، إذ نكون في غاية النشوة، وإذا ما استيقظنا فإننا نحيا الأسرار الكثيرة في صنائع الله جلَّ جلاله وإبداعه».

«وإذا ما بكينا، فسنكون غيومه المليئة برزقه وبركته؛ وإذا ما ضحكنا، فسنكون برقه المضيء».

«وإذا ما غضبنا وثُرنا ودخلنا في حرب، فهذا تجلي قهره وجلاله، وإذا ما تصالحنا واعتذرنا، فهذا مظهر وتعبير عن حبه».

«مَنْ نحن في هذا العالم الكبير المعقَّد؟ إننا كائنات فانية، كائنات لا قيمة لها، إننا مثل حرف الألف الذي لا يتصل بأيٍّ من الحروف بعده ولا يقبل أي نقطة، إن كل حركة وحال من أحوالنا هي تجلٍّ من تجليات أسمائه وصفاته الإلهية».

إن الباعث الذي جعل مولانا الرومي يغرق في بحر الحيرة والإعجاب هو التجليات السامية اللانهائية لأسماء الله وصفاته الظاهرة في نفسه والعالم، وهي تجليات توقف عمل العقول كلها.

وهذه الحقيقة -أي كثرة أسماء الله تعالى- تُسهِّل على الإنسان فهم كثرة أفعاله سبحانه، وتُبرِز اللامحدودية في محتوى ألوهيته، وتنزهه سبحانه عن اللبث





-الواقع في فهم الإنسان الناقص الضيِّق- وخاصة الصفات التي تناقض بعضها، فهي من الصفات التي تمنع وتعيق الأفهام والإدراكات التي تميل إلى تحديد الألوهية، فمَنْ يريد أن يرى أن الله تعالى ظاهرٌ فقط، فهو كذلك؛ لكنه باطن في الوقت ذاته.

أي إن الله ﷻ «جامع الأضداد»، فهو يجمع في كينونته الصفات المتضادة.

وهذا السمو والجلال هو السبب في اختلاف المخلوقات بعضها عن بعض، وعليه فإن أي شيء قابل للإدراك البشري يمكن أن يُفهم عبر التضاد، وكلما ازداد التضاد وصار تضادًّا تامًّا، ازداد الإدراك صفاءً.

ونجد من ناحية أخرى أن الأشياء المتضادة في عالمنا لا تعيش أبدًا في انسجام مع بعضها، بل فيها ميول لإفناء بعضها بعضًا أو الاتحاد، وهذا الميل يأخذ حيِّزًا في العالم المادي وفي الحقائق الميتافيزيقية أيضًا بصورة مطلقة؛ لأن أصل الوجود واحد، أي إنها ضرورة من ضرورات «عادة الله».

وكما أن الضوء والظلام، والحرارة والبرودة في سعي دائم لإفناء بعضها بعضا، كذلك التغيرات والتبدلات الروحية التي تظهر في الفكر والإحساس، كلها تجري وفقًا لهذا للقانون الإلهي.

أما صفات التضاد في الذات الإلهية فهي ليست كالميول في عالمنا تسعى لإفناء بعضها بعضًا، بل لهذه الصفات القدرة والاستعداد للانسجام بعضها مع بعض، أي إنه لا يوجد ضدٌّ لأية صفة من صفات الله الموجودة في ذاته.

فالله حيٌّ، لكن حياته منزهة عن الموت الذي هو ضد حياة المخلوقات.

وهو الموجود، ووجوده منزه عن العدم.

وهو عليم، وعلمه منزه عن الجهل.

وهو قاضي الحاجات، ومنزه عن احتياج سواه.

وجميع صفاته الأخرى تجري على هذا النحو.





وبما أنه لا قدرة لنا للاطِّلاع على المحتوى المطلق لصفات ذات الله ﷻ، ولا نستطيع التفكير إلا من خلال الانطباعات التي نأخذها من عالم الحواس، فإن إدراك طبيعة هذه الصفات وتحليلها يفوق طاقتنا، ويمكننا توضيح هذه الفكرة من خلال المثال الآتي:

إذا كان لدينا سلك كهربائي، فيمكننا من خلال هذا السلك واستطاعته أن نحصل على البرودة إذا وصلناه بثلاجة، وعلى الحرارة إذا وصلناه بمدفأة، فيكون لدينا نتيجتان متضادتان، ولنفترض أننا وضعنا الثلاجة والمدفأة في الغرفة نفسها وبدأتا العمل، سنجد حينها أن الحرارة والبرودة في حالة صراع، يحاول كل منهما القضاء على تأثير الآخر، بينما لا يوجد صراع في السلك الكهربائي الذي يعدُّ منشأ الحرارة والبرودة أبدًا، وبالمثل، منح الله ﷻ الكائنات حدًّا معينًّا من القدرة والاستعداد، وكلٌّ منها يتلقى تجليات أسماء الله في إطار استعداده، وينتج عن هذا صراع مستمر بين الأضداد، حيث يحاول الأقوى إخضاع الأضعف.

ويمكننا أن نقول بعبارة أخرى: إن الصراع بين الأضداد في عالمنا لا يسعى إلى إفناء بعضها بعضًا، بل ضمان الانتصار في هذا الصراع، وبما أن كل ضد يعتمد على اسم أو أكثر، وبما أن الأسماء الإلهية أسماء أبدية، فإنه لا يمكن لهذا التضاد أن يعرف نهايةً.

والنتيجة الطبيعية لهذه الفكرة أنه حين يتجلى على المؤمنين حال انتصار صفة «الهادي» الإلهية، تتجلى على الكافرين صفة «الـمُضِل»، فالضدَّان الإيمانُ والكفر مستمران حتى يوم القيامة، ومن المستحيل أن ينتهي الصراع بينهما بانتصار أحدهما، وفناء الآخر فناءً تامًّا؛ لأن تجليات أسماء الله تعالى كلها أبدية ومستمرة دون انقطاع.

ومن النتائج الأخرى لهذه الفكرة أنه مهما كانت قوة الكفَّار وسلطتهم، فلن يستطيعوا هزيمة وإفناء الإيمان، وهذه الحقيقة تنطبق أيضًا على المؤمنين،





وما ذكرناه هنا حول الإيمان والكفر في سياقه البشري ينطبق على جميع أشكال التضاد في هذا الكون.



ولا بُدَّ لنا من ناحية أخرى أن نعلم أن الكون الذي وُجد بتجلي أسماء الله كلها ليس المتلقي الوحيد لهذه التجليات، فالإنسان والقرآن كلاهما كان له النصيب نفسه من هذه التجليات أيضًا.

وفي الوقت الذي يشكِّل الكون عالـمًا فعليًّا في هذه التجليات نجد أن القرآن منظومة حقائق تعبِّر عن حقائق الكون على صورة «كلام»، والإنسان من حيث وجودُه مثل الكون تمامًا، فهو يتلقى تجليات أسماء الله كلها، وهو من هذه الناحية يحتل موقعًا بارزًا، فالإنسان جوهر الكون وبذرته وخلاصته، لهذا يُطلق عليه اسم «العالَم الصغير».

إن التضاد الموجود في أسماء الله تعالى موجودٌ أيضًا في الإنسان الذي يُعَدُّ المكان الأنسب لتجلي هذه الأسماء، وبناءً على هذا الأساس، نرى أن المؤمن الذي تنتصر فيه صفة «الهادي» الإلهية، لا بُدَّ وأن تكون فيه نبذة من صفة «الـمُضِل»، والإيمان الموجود في مثل هذا الإنسان ما هو إلا نتيجة غلبة صفة «الهادي» الإلهية فيه، أما الحال لدى الكافر فهو عكس هذا الحال.

والنتيجة الطبيعية لهذا الأمر هو وجود استعدادٍ - قويًّا كان أم ضعيفًا- لدى المؤمن للوقوع في الكفر، واستعدادٍ لدى الكافر للدخول في الإيمان، لذا، من الأمور المهمة أن يعيش المؤمن حياته «بين الخوف والرجاء»، فمن الضروري ألا ينسى المؤمن أبدًا احتمال أن تزلَّ قدمه بين ليلة وضحاها.

إلى جانب ذلك يجب الأخذ بالحسبان أن أكثر الناس كفرًا قد يأتي عليه يوم تغلب فيه صفة «الهادي»، فهذا يقتضي إذًا قبول مخاطبته في ضوء هذا الاحتمال والرجاء.





ويلفت انتباهَنا هنا الحديثُ الشريف الذي يقول فيه رسول الله ﷺ:

«**إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة، ثم يُختَم له عمله بعمل أهل النار، وإن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل النار، ثم يُختَم له عمله بعمل أهل الجنة**» (مسلم، القدر، ١١)

لهذا يجب أن يكون قلب المؤمن بين الخوف والرجاء، وأن يجعل الأمر الإلهي في قوله ﷻ: ﴿**وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ**﴾ [٢١٢] شعارًا له في حياته.

إنَّ الشعورَ بالأمن المطلق أو اليأس المطلق كفرٌ صريح بسبب جهل الإنسان للقدر، أي هل سينتهي به المطاف مؤمنًا أم منكرًا، فلا أحد يعلم كيف سيكون حاله عند النَفَس الأخير، ولا أحد يضمن آخرته سوى الأنبياء ومَنْ بُشِّروا بالفلاح من الناس (مثل العشرة المبشرين بالجنة).

وقد ذكرنا سابقًا أن الصفات المتضادة للذات الإلهية متداخلة فيما بينها وفي حالة انسجام وسكون، وتتجلى في الدنيا التي هي عالم امتحان، لكن ثمة ميل إلى انتصار إحداها على الأخرى، أي يغلب أحيانًا الذين اهتدوا بتجلي اسم «الهادي»، وأحيانًا أخرى يزداد الكفرة بغلبة اسم «المُضِل»، وحتى مع وجود الأنبياء وجهودهم الجبارة في هداية الناس، كان المجتمع يحوي الكفار والفاسقين، في حين لم تخلُ الحقب التي حكم فيها الكفر والظلم من المؤمنين الذين حافظوا على الإيمان واستمسكوا به.

ويحتوي القرآن الكريم على الكثير من الأمثلة لمؤمنينَ آمنوا وكافحوا في سبيل إيمانهم حتى آخر نَفَس، وارتقوا إلى ربهم شهداء، ومن هؤلاء أصحابُ الأخدود الذين أُلقوا في أخدود النار، والحواريون الأوائل الذين آمنوا بعيسى عليه السلام ولم يرجعوا عن إيمانهم مع أنهم سلَّموا أرواحهم بين أسنان الأسود،

---

٢١٢ سورة الحجر، ٩٩.





وحبيب النجار الذي رجمه قومه الظَلمة، وسحرة فرعون الذين آمنوا بموسى عليه السلام فعاقبهم فرعون بأن قطَّع أيديهم وأرجلهم من خلاف ثم صلبهم في جذوع النخل، فكان جوابهم:

﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ (الأعراف، ١٢٦)

إن هذه الحقائق كلها تعطينا دروسًا في الاعتقاد الصحيح والتربية الإيمانية، وعليه فإنه مهما كان الإنسان شديدًا في كفره، فلا يحق لأحد أن يحرمه من الدعوة إلى الإسلام، فقد يسيطر عليه فجأةً تجلي صفة الله «الهادي» المستقرة في لاشعوره، فتتغير شخصيته تغيرًا جذريًّا، أي إن احتمال الهداية يبقى حتى في أشد الناس كفرًا، وقد أوضح الله ﷻ هذه الحقيقة حين كلَّف سيدنا موسى وأخاه هارون عليهما السلام بدعوة فرعون إلى الإيمان فأمرهما الله تعالى أن:

﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (طه، ٤٤)

ولا ريب أن هذه الآية الكريمة تعرض لنا في الوقت ذاته أفضل طريقة لتبليغ الإسلام، ولهذه الطريقة أساسان:

١- تبليغ الحقيقة للمخاطب بأسلوب رقيق لا يستفزه أو يجرح كرامته:

فلو كان لدى فرعون ميول كثيرة للإيمان بموسى عليه السلام بعد رؤية معجزاته، لكان المانع والعائق في إيمانه هو هامان ومَنْ حوله، وسبب آخر في عدم إيمانه هو غروره وكِبره، لكنه حين كان يغرق في البحر الأحمر أراد في حالة اليأس أن يتمسَّك باسم الله «الهادي» لأنه كان في حالة عجز تام، فقال حينها:

﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (يونس، ٩٠)

بيد أن إيمانه لم يُقبل لأنه عاش حياته طالبًا تجلي اسم «المضل» فما أفاده هذا الإيمان في سكرة الموت، وانتقل إلى الآخرة كافرًا ظالـمًا مفرطًا في ظلمه ويؤكِّد الله ﷻ على هذه الطريقة في آية أخرى يقول فيها:





﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل، ١٢٥)

٢- تبليغ الإسلام للناس كافة بغض النظر عن الظروف والحالات التي هم عليها:

لقد كان فرعون ظالـمًا شقيًّا لايرغب في الدنو من الإيمان، وكان في الوقت ذاته قاتلاً لآلاف الأطفال وساعيًا للقضاء على سيدنا موسى عليه السلام، ومع ذلك كله أرسل الله له مَنْ يبلِّغه، وفوق ذلك كله، يأمر الله عز وجل موسى وهارون عليهما السلام:

﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (طه، ٤٤)

ونفهم من هذا البيان ضرورة أن يكون التبليغ شاملاً للناس جميعًا مهما كان وضعهم الذي هم عليه.

فقد كان رسول الله ﷺ يدعو أبا جهل كثيرًا ويبلغه الرسالة، لكن أبا جهل أنكر ذلك بسبب غلبة النفسانية والكِبر فيه، مع أنه كان يقبل بنبوة سيدنا محمد ﷺ في ضميره ووجدانه.

ومن ناحية أخرى، نجد أن السلوك الرفيع للنبي ﷺ كان وسيلة لهداية الكثير من الناس الذين كانوا من ألدِّ أعداء الإسلام في الماضي مثل سيدنا عمر بن الخطاب، وأبي سفيان، وهند، ووحشي.

هذا السلوك الدعوي والأسلوب الإرشادي يرسم ملامح نمط رقيق في التعامل فيه الكثير من اللباقة والرقة والجمال، ويضع في حسبانه كل الظروف المحيطة والعوامل المؤثرة في المدعوين والـمُخَاطَبين، وكذلك الذين تُقَدَّم لهم الخدمة، وكل الدوائر التي حول الداعية والمرشد. وذلك هو الأساس والقاعدة في السلوك الصوفي، حيث يبلغ هدفه بأشد تأثير وفائدة ونضج.







ونتيجة للتصديق بالقلب بوجود ذات الله تعالى ووحدانيته والإقرار باللسان، والضرورة الطبيعية الناتجة عن هذا الإيمان، أمر الله تعالى عباده بتعظيمه بالعبادات، ولم يهب الله تعالى الاستعداد الذي يحقِّق هذه العبادات للمخلوقات كلها، بل وهب الإنس والجن فقط، وقد وضع الله تعالى في هذين الصنفَين الفهم والإدراك، لذلك فهما مسؤولان ومكلَّفان كلٌّ حسب فهمه وإدراكه.

إنَّ الجنَّ أكثرُ عددًا من الإنس، لهذا حين يُذكران معًا في الآيات الكريمة يأتي ذكر الجن أولاً، لكن الإنسان يحتل شرفًا وموقعًا أكثر رفعة، ومع ذلك، فهما من حيث الغايةُ من خلقهما مكلَّفان بالعبادة والعبودية لله تعالى، يقول الله تعالى في القرآن الكريم مبيِّنًا هذه الغاية:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات، ٥٦)

ولم يكتفِ الله ﷻ -الذي غلبت رحمتُه غضبه- بإعداد الإنس والجن بالعقل والإدراك والفهم وقدرة التمييز من أجل الإيفاء بمهمة «العبودية»، بل فوق ذلك كله، أكرمهم ﷻ بالعون الإلهي، وعلى الرغم من أنَّ كلَّ عنصر في هذا الكون هو دليل على وجود الخالق ﷻ، فإن الله ﷻ أرسل قوافل الأنبياء والمرشدين الكاملين لمساعدة الإنس والجن في التخفيف من العقبات والمشاق التي قد يلقونها أثناء استنباط الأدلة المبثوثة في الكون لينتقلوا منها إلى ذاته سبحانه، ولكي لا يُحرَم أيُّ فردٍ من هذا المدد الإلهي ابتدأ اللهُ هذا المدد بالإنسان الأول، فقد توَّج سيدَنا آدم أبا البشر بتاج النبوة، ولأن الإنسان أرقى وأشرف من الجن كان الأنبياء كلهم من الإنس، حتى إن بعضهم كُلِّف بهداية الجن أيضًا.

وعلى أن التبليغ الذي جاء به الأنبياء هو نفسه عند الجميع من ناحية الاعتقاد والحقائق الكبرى، إلا أن الأحكام الاجتماعية جاءت متوازية مع تطور الحياة البشرية، ثم وصلت إلى أوج كمالها مع نبي آخر الزمان محمد ﷺ بالقرآن الكريم الذي أُنزل عليه، وسيستمر هذا القرآن معجزةً بيانيةً لا تتغير حتى قيام الساعة،





وكان من أسماء سيدنا محمد ﷺ «رسول الثقَلَين»؛ لأنه بُعث لعالـَمَي الإنس والجن معًا.

إن هذا الكون الذي خُلق بتجلي أسماء الله ﷻ هو عَرْضٌ مُبهِر لقدرة الله ﷻ، ومع كل يوم يتقدَّم فيه العلم يزداد فهم التجليات المدهشة للإبداع الإلهي بصورة أعمق وأشمل، ويزداد إدراك قدرة الله وعظمته، وما يؤكد قولنا هذا ما نراه من تقدم في مجالات العلوم كلها بدءًا بأبحاث الفضاء، مرورًا بالتطور في علم الوراثة، وصولاً إلى عجائب الحاسوب، لهذا كله، يقول الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر، ٢٨)

فكلما تقدمت العلوم خطوة إلى الأمام، قدَّمت للإدراك البشري دلائلَ جديدة على عظمة الله وقدرته، فالكونُ بهذه الأوصاف منظومةُ حقائق لامتناهية في خدمة الإدراك البشري، ككتاب مفصَّل وبيان محكَم لكن دون كلمات، أما الراسخون في العلم الذين يخضعون للأوامر الإلهية فهم قد تجاوزوا مرحلة قراءة الحقائق المكتوبة في السطور، وبدؤوا -من خلال استعدادهم الروحاني- بقراءة الحِكم والأسرار في كتاب الكون.

وتسعى العلوم الطبيعية إلى وضع قواعد للنظام الإلهي الذي يحكم العالَم تحت اسم «القوانين الطبيعية»، لكن الراسخين في العلم يصلون إلى الـمُراد الإلهي الذي يحكم الكون من خلال إدراكهم الحقائق التي تُسمى بقوانين الطبيعة من نقطة أكثر شمولاً.

والإنسان الذي يُسمَّى بالعالَم الصغير هو أيضًا مثل العوالم الأخرى، منظومةٌ من الحقائق اللامتناهية الموضوعة بين يدَي الإدراك البشري، وهذه هي الحكمة من وراء إطلاق اسم «زبدة الكون» أي جوهر الكون على الإنسان، فكما أن جميع خصائص ما سينتج عن البذرة مكنوزة فيها، كذلك تتركز في الإنسان جميع الأسرار والحقائق الموجودة في الكون والقرآن على صورة نواة فيه.





وبعبارة أخرى، إن الله ﷻ المنزَّه عن مشابهة المخلوقات، والمنزَّه عن إدراك البشر لذاته، والبديع الذي ترك فقط باب إدراك إبداعه وصنعه مفتوحًا للإنسان، قد خلق هذا الإنسان «خليفةً» له في الأرض، وجعله أشرف المخلوقات وجوهر الكون، وبسبب الحقائق المكنوزة في هذا الإنسان فهو يسمَّى بالكون الصغير، ويسعى العلم من هذا الجانب إلى جعل الإنسان يدرك ذاته أولاً، ثم يدرك الغاية من خلقِ المخلوقات، وبهذا يفتح أمامه الباب للوصول إلى معرفة الله تعالى.

ويوضِّح يونس أمْرَه غاية العلم الأصلية بقوله:

العلم معرفة العلم

العلم معرفتك نفسك

إن لم تعرف نفسك

فكيف تدرس؟

لا تقل قرأت فعلمت

لا تقل أطعت كثيرًا

إن لم تعرف الله الحق

فهذا مجرد كلام

إن ما وهبه الله ﷻ للإنسان من قيمة عالية وموقع مميَّز بين المخلوقات يمكن أن نجده في مؤلفات كُتبَت في الوسط الصوفي، هذه المؤلفات التي تعكس عمق العالم القلبي، وأول ما يبرز في الخاطر حين نستذكر هذه المؤلفات هو الشاعر المشهور الشيخ غالب -من شعراء القرن الثامن عشر- وهو الشاعر الذي كتب دواوين يعرِّف فيها الإنسان بما يحويه من قيم تناسبه، ويخاطب الشاعرُ «الإنسانَ» في شعره قائلاً:

فيك مخزن أسرار المحبة

فيك معدن الأنوار والفتوَّة





(أيها الإنسان! فلتعلَم أن محفظة أسرار المحبة (القلب) موجودة فيك، لديك... وأن مصدر نظافة الخَلق، وأنوار الكرم والمروءة هو فيك ولا في أحد غيرك...)

وكم من حالات سرية خفية موجودة فيك

والمعرفة فيك، والحذاقة فيك، والحقيقة فيك

انظر لترى فيك الأرض والسماء، والنار والجنة

انظر فلا شك أن فيك العرش والكرسي والملائكة

انظر إلى نفسك نظرة حسنة، فأنت خلاصة العالَم

وأنت بؤبؤ عين الوجود

وبعبارة أوجز، الإنسان هو خلاصة التجليات التي تتنزَّل على هذا العالم الفاني من الحقائق العظيمة لرب السموات والأرض الذي يسعى الإدراك البشري إلى الوصول إليه عبر الانتقال من السبب إلى الـمُسبِّب، ومن الأثر إلى المؤثِّر، ومن الإبداع إلى المبدِع؛ والإنسان بما فيه من مواهب هو عالَم آخر له مزاياه الخاصة، وهو المرشَّح الوحيد ليكون قرآنًا حيًّا في هذا الوجود.

ومع ذلك كله، لم تنجح الأبحاث العلمية في فهم «الإنسان» فهمًا يساوي المستوى الذي وصلت إليه في اكتشاف أسرار الكون، والسبب وراء ذلك أن الإنسان مركَّب من «روح» و«بدن»، وبسبب قلة المعرفة بطبيعة روح الإنسان لحكمة إلهية، لذا، فإن للإنسان عالمًا داخليًا غامضًا يحتوي أسرارًا أكثر من أسرار الكون، ومع أنه طرأ تغير وتقدم كبير، وعُلم الكثير عن بدن الإنسان على مدى ألفي عام، إلا أن الحال ليس كذلك مع روح الإنسان؛ حيث إن العلوم بقيت عاجزة عن معرفة طبيعة الروح وأسرارها، والآية الكريمة التالية تأكيد لهذه الحقيقة:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾

(الإسراء، ٨٥)





وحين نتكلم عن الكون، نجد أنه قد نُسج بطريقة منظمة وفق قواعد كاملة معقدة، وهذه القواعد هي ما نقول عنها:

عادة الله أو سُنة الله، وهي في الوقت ذاته القوانين التي تحتوي على حِكم عميقة، والمتعلقة بالعوالم المادية أو الميتافيزيقية، وهي التي تدل على قدرة الله وعلمه الـمُطلَقَين.

والخصائص المتشابهة بين هذه القواعد التي لا تتغير دليلٌ على أنَّ مَنْ وضع هذه القوانين واحدٌ لا شريك له، وشاهد على أن هذا الكون هو من صنع يدٍ واحدة ليس غير.

والإسلام يدعو الإنسانَ ليقرأ ويرى التجليات المنثورة في كتاب الكون مثلما يقرأ آيات القرآن الكريم؛ لأن الله ﷻ يُعرِّف الناس بوجوده وذاته من خلال الحِكم والعِبر والأسرار المكنونة في مخلوقاته.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ (الشعراء، ٧)

﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الروم، ٥٠)

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ. ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ (الملك، ٣-٤)

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ. وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ. وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ. وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (الغاشية، ١٧-٢٠)

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ (ق، ٦)





ومن الحقائق الجليَّة أمام أعيننا هذا النظام والانسجام الموجود في هذا العالم اللامحدود الذي يأخذ الألباب، وهو نظام مستمر منذ أن خلق الله الكون دون أي خلل أو عيب، نظام كامل متوازن بحسابات غاية في الدقة.

فمثلًا لو لم يكن ميل محور الأرض بدرجة ٥ ,٢٣، لما رأينا الفصول في كل عام، ولاستمرَّ الصيف إلى الأبد في مناطق، بينما استمر الشتاء إلى الأبد في مناطق أخرى، ولو كانت المسافة بين الأرض والشمس أكثر قليلاً، لصارت جميع المناطق في الأرض مثل القطبَين، ولو كانت المسافة أقرب قليلاً، لاحترق كل شيء على وجه الأرض، وهذه الحقائق وما شابهها تثبت لنا أن الأجرام السماوية كلها قد أُعدَّت ونُظِّمت بصورة تضمن استمرار الحياة.

إن العيون التي لديها البصر والبصيرة ترى أن هذه الدنيا -أمام سلطان الله تعالى- ما هي إلا جزء بسيط من ملايين ومليارات الأجرام التي تسبح في الفلك، وهذه الأجرام هي كالغبار المتناثر في هذا الكون، والأرض مجرد ذرة واحدة فيها، وجميع ما فيها من جبال وسهول ومحيطات وبشر يدخلون في هذا الغبار.

إذًا، لا قيمة للإنسان إلا بعبوديته لله تعالى.

ومع تقدم العلم، سيزداد فهم عظمة وقدرة الله تعالى الموجودة في الإنسان والسموات والأرض، فقد خلق الله ﷻ مخلوقاته بصورة تناسب جلال شأنه، وبحساب دقيق معقَّد كامل لا حدَّ له، يقول المولى جلَّ جلاله في كتابه العظيم:

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصلت، ٥٣)

والحق أن تقدم الأبحاث العلمية حول طبيعة الكون يساعدنا في فهم شامل للدقائق الـمُشار إليها في القرآن الكريم؛ لأن كل اكتشاف جديد في العلوم الطبيعية لا يؤكد على صدق القرآن الكريم فحسب، بل تشير بعض هذه الاكتشافات إلى الآيات العصية على فهم الإنسان حتى الآن.





فآيات القرآن الكريم التي تشير إلى مراحل خلق الإنسان قد جعلت العلماءَ المنصفين في مجال علم الأحياء والتشريح في دهشة وحيرة، وألزمتهم بالنطق بالحق، فالقرآن يصف أدق مراحل الخلقّ حتى مراحل تشكُّل الإنسان في رحم أمه، يقول الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ. ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ. ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (المؤمنون، ١٢-١٤) [٢١٣]

والقرآن الكريم غير مطالب أصلا بتقديم تفصيل علمي تقني، لأنه ليس كتابًا منحصرًا في علم الفلك أو النبات أو الأحياء أو الأرض، بل هو كتاب فيه جوامع الكَلم، ويسهم كل اكتشاف جديد في مجال العلم والتكنولوجيا في تأكيد الحقائق

---

٢١٣ كان مما أدهش الأستاذ د. مارشال كانسون الذي اشتُهِر في مجال التشريح تلك الآيات في القرآن الكريم التي تتحدث عن مراحل خلق الإنسان، ومما لفت انتباهه كثيرًا المعلومات المتعلقة بخصائص المضغة التي ذكرها القرآن:

وتأخذ المضغة شكلًا يشبه قطعة اللحم حين تمضغها الأسنان، وكل هذا في سنتمتر واحد لا غير. وتوجد في المضغة خصائص الإنسان كلها، لكن بعضها فعَّالة وبعضها كامنة لم يحن وقتها. ولم يتمكَّن الطب إلى الآن من التعبير عن هذا الموضوع، فإن قال إنه ثمة أعضاء تعمل، سيجد أعضاءً لا تعمل، وإن قال أنها لا تعمل، فهي تعمل. لذا ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: **﴿مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾** (الحج، ٥) فكان هذا الوصف للمضغة وصفًا شاملًا للمعلومات كلها، فقدَّم لنا القرآن هذه الحقيقة منذ قرون طويلة.

وكان مما قاله د. مارشال الذي رفض في البداية القرآن الكريم ثم وجد نفسه مضطرًا لقبوله، حين رأى هذه الحقائق:

«نعم، إن هذا القرآن الذي ينير درب أهل العلم أنزله الله تعالى، وستظهر حقائقه واحدة تلو الأخرى مع مرور الوقت، ليتحقق قوله تعالى: **﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾**(الأنعام،٦٧)».

(انظر: عبد المجيد زنداني، المعجزات العلمية في القرآن، ص٣١- ٣٦)





والعِبَر والحكم التي يشير إليها القرآن دون أن يصرِّح بها، وهذا ما يلقي الضوء على الحقائق الإلهية مع مرور كل يوم، وأكثر هذه الحقائق صراحة وتفصيلاً هو الكون، والسبب وراء ذلك أن الحقائق الموجودة في الإنسان والمكنوزة في جوهره موجودة في القرآن ولكن بصورة أوضح قليلاً، ومع ذلك كله تبقى الكثير من الحقائق العلمية في القرآن الكريم غامضة.

وترجع وجازة القرآن إلى ما يحتويه من حقائق لا تُعد ولا تُحصى، ولو أن الحقائق التي ظهرت بالأبحاث العلمية كانت في القرآن الكريم بصورة جليَّة ومفصَّلة، لوقع محظوران وهما:

أ. استصعاب قبول الحقائق وإنكارها بالنظر إلى المستوى العلمي الذي يعيشه الناس في كل عصر، لذلك كان من رحمة الله تعالى بعباده ورأفته بهم أنْ حجب هذه الحقائق بطريقة جعلها تُكتشف مع مرور الوقت.

ب. تعذُّر قراءته من البداية إلى النهاية وذلك للحجم الكبير الذي كان سيتطلبه، وهو حجم لن يتخيَّله أي إنسان، ناهيك بالطبع عن المحافظة عليه من خلال حفظه، يقول الله ﷻ موضِّحًا هذه الحقيقة:

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل، ٨٩)

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (الأنعام، ٥٩)

وهذا توضيح أن القرآن الكريم يشير إلى جوهر كل حقائق هذا العالَم.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (محمد، ٢٤)

وهذه دعوة من الله تعالى إلى عباده كي يتفكَّروا في القرآن الكريم تفكُّرًا حقيقيًّا.





وإذا ما أردنا استخدام لغة القرآن نفسها، فيمكننا وصف القرآن الكريم أنه «فرقان»، أي هو الكتاب المبارك الذي يبيِّن الفارق بين الهداية والضلالة، والخير والشر، والنور والظلام، ويبرز الاختلاف بين هذه الأضداد، ويعطي النتائج لـمَنْ يقترب منه تبعًا لاستعداده ونيَّته ونصيبه.

وتثبت الآيات الكريمة أن مَنْ يقترب من القرآن الكريم بقلب خالٍ من الفساد، يزداد إيمانه بما يراه من براهين جديدة في كل مرة، يقول المولى ﷻ:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (الأنفال، ٢)

ونجد من ناحية أخرى أن مَنْ ينظر إلى القرآن الكريم نظرةً سلبية، فإنه يزداد ضلالة على ضلالته.

فحين ينظر المرء إلى أمر ما نظرة محبة، تغدو جميع المحاسن فيه واضحة جليَّة أمامه، في حين إذا نظر عكس ذلك، فلن يرى أيًّا من مزاياه، فنظرة هؤلاء مثل نظرة أبي جهل للإسلام، ومثل هؤلاء حين يقرؤون القرآن الكريم يزداد كفرهم وإلحادهم؛ لأنهم يقفون عاجزين عن الوصول إلى مستوى القرآن الرفيع وبلاغته، وتكون حالتهم مثل حالة أولئك الذين يخسرون أمام منافسيهم بسبب طمعهم واحتدام عواطفهم، فيعيشون في حالة غيظ شديدة، ونتيجة لذلك يزداد استحقاقهم للجزاء والعقاب، يقول المولى ﷻ في ذلك:

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (الإسراء، ٨٢)

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ (فصلت، ٤٤)





وهكذا نجد أن القرآن دليل هداية للمتقين، في حين أنه يزيد الكافرين الذين يغلقون أعينهم بعناد أمام أنوار الحقيقة كفرًا وخسارةً، وهذا أمر ثابت بالبيان الإلهي، حيث يقول الله ﷻ في هؤلاء:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج، ٤٦)

وقد ذكرنا في ما سبق أن الكون منظومة مخلوقات وُجِدت بتجلي صفات الله، والقرآن الكريم هو انعكاس الحقائق الموجودة والمكنوزة في هذه المنظومة على صورة كلام، ولأن الإنسان هو الجوهر والخلاصة والبذرة الأساسية للكون والقرآن، فإنه ينال نصيبًا من هذه التجليات المتضادة، سواء أكانت قليلة أم كثيرة.



لقد خلق الله ﷻ الكون وما فيه بتجليات أسمائه، وجعل التجليات الكاملة لهذه الصفات من نصيب الإنسان وحده، وهذا هو السبب الذي جعل من الإنسان «أشرف المخلوقات»، وهو أيضًا «جامع الأضداد» لكن بحسب استعداده وقدرته، فهو يضحك ويبكي، ويحب ويكره، أي إن الإنسان في وجوده يحتوي على صفة الرحمة، وكذلك القهر والغيظ والغضب، لهذا يمكن أن يظهر على الإنسان اللطف والكرم، ونار الحقد والسخط، أما مشاعر الحلم والغضب دائمًا فهي في حالة مدٍّ وجزر لديه.

والخلاصة أن للإنسان نصيبًا من كثير من صفات الله ﷻ، لكن درجة تجلي هذه الصفات تختلف من إنسان لآخر، والاختلاف في الأخذ من هذه التجليات بين الحد الأقل والأكثر هو ما يكوِّن الدرجات لدى البشر.

فعلى سبيل المثال، كل إنسان في هذا العالَم له حتمًا نصيب معيَّن من صفة الله «الرحمن» أو «الرحيم»، لكن هذا النصيب دائمًا يتغير من إنسان إلى آخر





وتختلف درجته، فمنهم مَنْ تنحصر صفتا «الرحمن» و«الرحيم» في نفسه أو في أفراد أسرته وأصدقائه على أكبر تقدير، ومنهم مَنْ تشمل هذه الصفتان فيهم البشر جميعًا، وقد تشملان الحيوانات كلها.

ويمكننا أن نعرض هنا بعض الحوادث التي تتجلى فيها صفة «الرحمن» بالكامل:

بينما كان أبو يزيد البسطامي يسافر في إحدى سياحاته، جلس في ظل شجرة وتناول طعامه هناك، ثم استمر في سفره، وبعد أن قطع مسافة طويلة، إذ به يرى نملة في صرَّته، فقال: «لقد جعلت مخلوق الله هذا بعيدًا عن وطنه»[٢١٤]، لذا عاد إلى تلك الشجرة ليضع النملة هناك.

ومثال آخر على أشخاص وصلوا إلى أعلى درجات الرحمة هو الشيخ السري السقطي رحمه الله الذي يُحكى أنه قال:

«منذ ثلاثين سنة وأنا في الاستغفار من قولي مرة (الحمد لله)، قيل له: وكيف ذلك؟ فقال: وقع ببغداد حريق فاستقبلني واحد وقال: نجا حانوتك، فقلت: الحمد لله، فأنا نادم من ذلك الوقت على ما قلت، حيث أردت لنفسي خيرًا من الناس»[٢١٥].

ويقول سيدنا محمد ﷺ في الحديث:

«مَنْ لا يهتم بأمر المسلمين فليس منهم»[٢١٦]

وعلى هذا الأساس، مَنْ تتمركز فيه مشاعر الرحمة والمحبة كيفما كانت بدايتها، ويتسع قلبه لجميع المخلوقات دون استثناء، حينها يصبح مؤمنًا كاملاً في إيمانه، وبتعبير آخر عاشقًا حقيقيًا، وحتى لو بدأ العشق بميل وجاذبية لمحبوب

---

٢١٤ انظر: القشيري، الرسالة، القاهرة، دار المعارف، ص٢٢٩؛ سعدي، بستان، ص٧٨.

٢١٥ ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ٢، ٣٥٧؛ خطيب البغدادي، تاريخ، جـ٩، ١٨٨؛ الذهبي، السير، جـ١٢، ١٨٥ - ١٨٦.

٢١٦ الحاكم، المستدرك، جـ٤، ٣٥٢؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، جـ١، ٨٧.





معيَّن كما تتبرعم الزهرة في بدايتها، فسيكون هذا العشق عشقًا حقيقيًّا حين لا يقتصر على محبوب واحد، بل يشمل المخلوقات كلها وذلك من أجل خالق هذه المخلوقات.

وإذا لم تتجاوز علاقة الرحمة والمحبة التي نسميها «العشق الإلهي» الحدود والآفاق، فلا يمكن أن نقول عنها عشقًا، ولكن قد نصِف هذا العشق بـ«العشق المجازي» باعتبار شكله البدائي.

وقد كان من نتيجة تجليات أسماء الله ﷻ وجود طبائع مختلفة بقدر عدد البشر، وكما أن اللون الناتج عند امتزاج الألوان يكون قريبًا من اللون الطاغي بين هذه الألوان، كذلك تؤثر صفة التجلي الغالبة على تركيب تجليات الأسماء.

وقد تنوعت الطرق الصوفية بسبب تنوع الطبائع كي يترقى الإنسان بسهولة، فكان من اللازم اختلاف طريقة التربية بين مريد وآخر.

والحق أنه يمكن تصنيف الطبائع بحسب الصفات الغالبة في كل طبع؛ حيث يمكننا أن نقسمها إلى أنواع مختلفة كما نقسِّم المخلوقات إلى: إنسان، وحيوان، ونبات، وجماد. لكن قد يكون الفرق في صفة من الصفات بين مخلوقين في الصنف ذاته أكبر من الفرق بين مخلوقَين من صنفَين مختلفين. فمثلاً، تكون المسافة والدرجة بين أدنى وأعلى إنسان من حيث الموقع أكبر وأعظم من الدرجة بين الحيوان والإنسان، والسبب وراء هذا الفرق الكبير هو الاختلاف العظيم في التجليات، ويمكن أن يكون هذا الفرق في الصفات الحسنة والسيئة معًا، فثمة فرق شاسع بين مَنْ يكون في أقل درجات الظلم أو الكفر وبين الظالم العاتي أو الكافر الممعِن في كفره.

فالكافر الذي تغلب عليه صفة «الـمُضِل» ويكون في أدنى المستويات، يحيا حياة دنيئة في ظل حياته المحدودة، ولا يكترث أبدًا بإيمان المؤمنين من بني جنسه، لكن قد تزداد درجة كفره ليصل إلى درجة يواجه فيها الأنبياء والصالحين كما فعل أبو لهب وأمثاله.





والظلم مثل هذا، فالصياد الذي يصطاد بهدف التلذُّذ بالصيد لا من أجل الطعام يقسو قلبه مع مرور الأيام ليصل ظلمه إلى درجة السادية، وقد كان الملوك الظَلَمَة في الإمبراطورية الرومانية يتلذذون برؤية أتباع سيدنا عيسى عليه السلام والأسود تقطعهم إربًا إربًا، وهذا مثال عن أولئك الذين قال عنهم الله ﷻ في كتابه العزيز:

﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾.

إن التنوع اللامحدود بين التجليات الظاهرة في الأشياء الطبيعية وفي الإنسان يُظهِر أحد القوانين الأساسية في العالم وهو قانون «الاختلاف»، ومن العبث السعي لجعل مخلوقَين متساويَين تمامًا، ناهيك عن العالم كله؛ حيث إنه لا يوجد مخلوقان توأمان في هذا الكون، وذلك بمقتضى تجلي الأسماء الإلهية التي لا تُعد ولا تُحصى، فكما أنه لا توجد شجرتان تتشابهان بعدد الفروع والأوراق والثمار، كذلك لا يوجد توأمان من البشر بالمعنى الكامل للكلمة يتشابهان بدنًا وروحًا.

وإذا عرفنا الله تعالى والإنسان والكون كما ذكرنا، فإننا نستطيع تحمل الأضداد فينا وصولاً إلى الرحمة والمسامحة.

فالتصوف إذًا هو نضج النظر بالمحبة والمسامحة إلى الأشياء التي تُغضِب من لم يمضِ في طريق التصوف، وهذه فضيلة سبر الحِكم وراء الظاهر.

إن الفضيلة والنضج هما مصدر المزايا الكثيرة الموجودة فينا، فهما اللذان يضمنان تعاملنا بالرأفة أولاً مع المذنبين بدل الغضب، وبالرقة والأمل مع الكافر من خلال التفكير بالحرمان الذي يعيش فيه، وهما اللذان يمنحاننا القوة والشجاعة في التبليغ، ويجعلاننا نرى المذنبين والكفار كالعميان المحتاجين للتنبيه والإرشاد أمام المخاطر، ولأننا نتألم لهم كما نتألم حين نرى طيرًا كُسِر جناحه، نفهم من ذلك أنه ليس من المنطق الغضب على المذنب.

وتجعل هذه الفضيلة والنضج من أحاسيس المحبة والرحمة تفيض فينا كالشلال لتتجاوز علاقات القرابة كلها، وتشمل البشرية جمعاء دون أي استثناء.





والمجتمع الذي يتكون من مثل هؤلاء الناس تنتهي فيه الجرائم والصراعات، ليحلَّ محلَّها التعاون بالعطف والحنان، وبهذا يزداد عدد الصالحين والمصلحين، وتعمُّ «الأخلاق الحميدة» التي يتحلى بها هؤلاء الصالحون الذين اقتدوا بالنبي ﷺ، ويغدو التعامل مع المخطئين في المجتمع تعاملاً ناضجًا يشبه التعامل في الحادثة التالية التي تقدِّم لنا خير مثال:

من الشخصيات المشهورة في تاريخ التصوف الشيخ حاتم الأصم رحمه الله وهو من مشايخ بلخ، ومن الشخصيات النادرة التي استطاعت الوصول إلى المراتب العليا في الأخلاق من خلال إصلاح النفس والروح بالتربية المعنوية التي أمر بها الله تعالى ورسوله، ويرجع سبب لقبه المشهور «الأصم» -على الرغم من أن سمعه كان سليمًا- إلى الحادثة المعبِّرة الآتية:

في يوم من الأيام جاءت امرأة مسكينة إلى الشيخ حاتم تسأله عن مسألة، وحين أرادت أن تشرح طلبها، صدر منها صوت، فاستحيت المرأة، فتظاهر الشيخ حاتم أنه لم يسمعها كي لا يحرجها، ثم وضع يده في أذنه وقال:

«يا أختاه، هلَّا رفعتي صوتك، فأنا بالكاد أسمع!»

فسُرَّت المرأة أنه لم يسمع الصوت، وعادت تشرح مسألتها بصوت أعلى.

وتشير الروايات أن سيدنا حاتم بعد تلك الحادثة كان يدَّعي الصمم كي لا يحرج المرأة حتى توفَّاه الله بعد خمسة عشر عامًا، وبهذا اشتهر بين الناس باسم «حاتم الأصم».

إن سموَّ الأخلاق ورقَّة الإحساس التي أظهرها حاتم الأصم في هذا المثال ليست مجرد نقل لما قرأه في الكتب وتطبيقه في الحياة، فهذه اللطافة واللباقة والفضيلة التي أظهرها سيدنا حاتم دليل على تخلقه بصفة الله «ستار العيوب» وجعلها جزءًا من سلوكه، ويسمَّى مثل هذا السلوك -لاسيما في التصوف- بـ«التخلُّق بأخلاق الله».





لذا، يتلقَّى أولياء الله تعالى تجليات صفات الله ﷻ، وتخضع إرادتهم لإرادة المولى ﷻ، وهم يعرفون حق المعرفة أن إرادة الله هي الصواب، ويوجِّهون مَنْ حولهم إلى هذا الطريق الصحيح.

والمثال الآتي حول هذه الفكرة فيه الكثير من الحِكم والعِبَر:

سأل الشيخ سنبل سنان مريدِيه يومًا:

«يا أولادي، لو فرضنا أن الله ﷻ قد أعطاكم القدرة والإرادة التي تُسيِّر هذا الكون، ماذا كنتم تصنعون؟»

فتعدَّدت أجوبة المريدين، فمنهم مَنْ قال:

«كنت أفنيت الكافرين جميعًا»

ومنهم مَنْ قال:

«كنت أهلكت كل مَنْ يشرب الخمر».

وبعضهم بالغَ فقال: «ما أبقيت في الوجود أي شخص يُدخِّن».

وكان من بين المريدين العالم مصلح الدين أفندي الذي بقي صامتًا ولم يجب بشيء، فالتفت إليه الشيخ سنان وسأله:

«يا بُني، وأنت ماذا تقول؟»

فأجابه مصلح الدين أفندي بكلِّ أدب:

«يا سيدي، حاشَا أن تكون في إرادة الله ﷻ عيب أو خلل كي أفكِّر في تغييره، وجوابي هو أنني لا أغير شيئًا، وأبقي كل شيء على حاله».

فسُرَّ الشيخ سنبل سنان بجوابه هذا وقال:

«الآن وصلنا إلى الإجابة الصحيحة ومركز الفكرة».

وبعد ذلك اليوم لُقِّب الشيخ مصلح الدين بـ «مركز أفندي» وحمل الأمانة المعنوية بعد أستاذه الشيخ سنبل سنان.





ويلخِّص الشيخ إبراهيم حقِّي أرضرومي هذا الحال، ويعبِّر عن تفويض كل أمرٍ لله تعالى بقوله:

كل أموره تفوق أمور غيره

وتليق ببعضها

ومهما فعل فهو صواب

لنرَ مولانا ماذا يفعل

ففِعْلُه حسن مهما كان

ونفهم مما سبق أنه لا يمكن نيل هذه الأحوال الجميلة السامية إلا بالتخلق -في الأساس- بتجليات صفات الله ﷻ، وإن لم نكن كذلك فلن يختلف حالنا عن حال تلك الورقة التي لا علم لها بما يُكتب أو يُرسم عليها.

ويعبِّر مولانا جلال الدين الرومي عن هذه الحقيقة أجمل تعبير بقوله:

«إذا ما رسمت رجلاً مهمومًا مغمومًا على ورقة من الأوراق، فلن تعلم تلك الورقة وذلك الرسم أي شيء عن الغم أو الهم أو السعادة».

«فحين تنظر إلى ذلك الرسم ترى الغمَّ عليه، لكن الرسم والورقة التي رُسمت عليها لا تعرف الغمَّ، وإذا رسمت رجلاً ضاحكًا، فالرسم ليس لديه أية فكرة أيضًا عن الضحك».

لذلك إذا كان الإنسان -وهو أشرف المخلوقات- جاهلاً بتجليات صفات الله عليه، فإنه مثل تلك الورقة وذلك الرسم الجاف، مهما كثُرت التجليات.

ولهذا السبب علينا أن ندمج جميع الصفات الفانية والنسبية التي قُدِّمت لنا في امتحان الدنيا مع تجليات صفات الله ﷻ، ويجب علينا أن نعلم أن ما تتضمَّنه الصفات التي تعود لذات الله ﷻ لا يمكن لأي بُعدٍ أو حجم أن يحتوي مضمونها، فكلها صفات أزلية، وأبدية، ومطلَقة، ولا نهاية لها، أي لا حدَّ ولا أفق لأية صفة





من صفاته؛ فعلم الله، وكلامه، وقدرته، وتكوينه، وأوصافه الأخرى، كلها منزهةٌ عن أي نوع من أنواع التشبيه والإيضاح. أما خصائصنا وخصائص هذه الدنيا فكلُّها محدودة فانية، وما هي إلا ظلٌّ زائل، والإنسان الذي لم يدرك حاله هذا بعد بالمعنى الكامل، لن يستطيع فهم الصفات المنحصرة في الله ﷻ فهمًا صحيحًا، فكما أننا لا ندرك ماهية ذات الله تعالى وحقيقته، كذلك لا ندرك إدراكًا كاملاً حقيقة هذه الصفات وماهيتها.

إن مَنْ يطَّلع على هذه الحقيقة، ويدرك أن صفاته كلها من رؤية، وسمع، وفهم، وكلام، وسائر الصفات الأخرى، هي مجرد تجلي جزءٍ بسيط من صفات الله ﷻ، يحيا حياته بفيوضات المعرفة في المحوية، ويغوص في أعماق الإيمان الحقيقي ليقول:

«لا موجود إلا هو»

وحين تصل القلوب والعقول إلى ذروة العرفان، تُجبَل بالحكمة التي تقول:

«يا ربي، أنت كما أنت»

وبهذه الطريقة يصلون إلى ربهم بقلب سليم خالٍ من جميع أنواع الوهم والوساوس، ويُكتبون في سجل الأولياء.

سأل درويشٌ أبا يزيد البسطامي يومًا:

«يا شيخنا، ما هو اسم الله الأعظم؟»

فأجابه البسطامي:

«يا بُني، وأيُّ اسم من أسماء الله صغير حتى تسأل عن الأعظم؟ لا تكن غافلاً؛ أسماء الله كلها عظيمة. وإذا كنت تريد أن يحقق لك الله طلبك، فعليك أن تحمي قلبك من الانشغال بما سواه ﷻ، فأسماؤه لا تتجلى في القلوب الغافلة، أما القلوب المعمورة بنوره، فالله تعالى ينظر إليها بالكثير من أسمائه كل حين».





والكثير من الآيات الكريمة في القرآن تصف اسم الله بـ «العظمة» و«العلو»:

﴿**فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ**﴾ (الواقعة، ٩٦)

﴿**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى**﴾ (الأعلى، ١)

وقد طبَّق رسول الله هذا الأمر الإلهي، فقد كان أثناء ركوعه في الصلاة يقول: «**سبحان ربي العظيم**»، وفي سجوده «**سبحان ربي الأعلى**» (أبو داوود، الصلاة، ١٤٦-١٤٧/ ٨٦٩)

اللّهم إننا ندعوك بأسمائك الحسنى، وباسمك الأعظم، أن تجعل لنا نصيبًا من أسرار معرفتك ومحبتك!

آمين!







الإنسان الكامل هو ذلك الذي وصل إلى منبع النور الإلهي، وتجلى ذلك النور على نفسه نارًا لتحرق الميول النفسانية، فهو ببركة محبة الله ﷻ وعشقه وصل إلى معرفة الله ﷻ.

 

٣. معرفة الله تعالى والتجليات لدى العارفين

معرفة الله تعالى علم إلهي لا حدَّ له ولا نهاية، إذ يحتوي على أسرار الكون وحِكَمه جميعها، ولا يمكن تعريف هذا العلم بمعناه الكامل لأنه يتجاوز إدراك البشر، إلا أن كل شخص يأخذ نصيبه من هذا العلم بحسب قدرته واستعداده وسعيه، ولهذا السبب يقول سيدنا محمد ﷺ:

«**لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**» (مسلم، الصلاة، ٢٢٢)

والخواص من العباد يسمُّون «ورثة الأنبياء»؛ لأنهم ذوو أفعال وأقوال استثنائية جاءت بطريقة ربانية لدنية، لا كسبية بشرية، وليس أفضل كلامًا وسلوكًا بعد كلام الله تعالى وسُنة رسوله ﷺ مما ورثه هؤلاء فيضًا وتجليًا، وينعكس هذا الفيض على قلوب وأرواح كل مَنْ في معية هؤلاء الخواص، فيزداد سعيهم وجهادهم، وتزداد أنوار بصائرهم، فتتجلى لهم الأسرار، وتمتلئ قلوبهم بالأنوار، وتطهر صدورهم من الوساوس والشهوات.

ووراثة الأولياء من الأنبياء تمتد إلى ميولهم وطبائعهم وصفاتهم، فمجموعة من هؤلاء الأولياء يرثون من صفات نبي الله آدم عليه السلام، ومجموعة يرثون من





صفات أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، ومجموعة يرثون من صفات كليم الله موسى عليه السلام، ومجموعة يرثون من صفات روح الله عيسى عليه السلام، ومجموعة يرثون من صفات أشرف خلق الله محمد ﷺ.

فمَنْ كان منهم من أهل المعرفة والمحبة والتوحيد، فذلك محمدي المشرب، مصطفوي الوِرد.

وهناك مجموعة من الأولياء بلا صفة، وليس لهم تعيين واضح في الصفات والسمات؛ لأنهم نهلوا من جميع الأنبياء، واستقوا من كل المرسلين.

ويهب الله جل جلاله عباده هؤلاء الذين يحبهم تجلياته بحسب أحوالهم، فمنهم مَنْ كان الشاه نقشبند الذي كان بحرًا لا ينضب في معرفة الله تعالى والإحسان، ومنهم مَنْ صار مثل مجنون ليلى يجولُ في صحارى العشق، ومنهم مَنْ كان يطوف في أودية الدهشة والعَجَب، ومنهم مَنْ عجز عن النطق حين رأى العظمة الإلهية، ومنهم مَنْ صار مثل يونس أمْرَه بلبلاً يتغنى بالعشق، ومنهم مَنْ صار مثل مولانا جلال الدين الرومي الذي كان كسحب السماء بروحانيته تتقاطر الحِكم من لسانه كأنها اللآلئ النادرة.

هؤلاء وأمثالهم من الذين منحهم الله معرفته، وأفاض عليهم من تجلياته، جعلهم للناس دليلاً ونبراسًا، وهداية للبشرية في متابعة مهمة الأنبياء.

والإنسان الكامل هو ذلك الذي وصل إلى بؤرة النور الإلهي، وتجلى ذلك النور على نفسه نارًا لتحرق الميول النفسانية، فهو ببركة محبة الله وعشقه، وصل إلى معرفة الله عز وجل.

فيغدو ذلك الإنسان مركز جذب نوراني، تتوق إليه الأفئدة، وتهوي إليه القلوب، وتنجذب نحوه الأرواح محبةً واحترامًا واسترشادًا، فقد خلَّص نفسه من العلائق الدنيوية، وانفلت من جاذبية الدوران حول فلك الذات والكبر والعُجب والغرور.





وهو يعيش جسدًا وروحًا في عالمين، في دنيا الناس، وفي معية الله تعالى، فيحيا بين الناس بـ «التعظيم لأمر الله»، و «الشفقة على خلق الله»، وهو على العكس من ذلك في معاملته للظلمة والكافرين، لا يجنح إليهم، ولا يميل نحوهم مهما كانوا، فرباط محبته مع الله تعالى لا يُقبل فيه أهل الجحود والنكران، لكنه في الوقت نفسه يقتضي التألم لحال هؤلاء والدعاء لهم بالهداية؛ ذلك هو الإنسان الكامل العارف بالله تعالى.

الدنيا وما يتصل بها من مال وملك وثروة لا تشغله أو تلفت نظره سوى ما يقيم أوده من نَفَقة، فقد نذر نفسه وحياته لمحبة ربه ومعيته.

وفي القصة التالية يوضح مولانا الرومي رَحِمَهُ اللَّهُ اختلاف الأرواح والنفوس والاستعدادات من إنسان إلى آخر، وأن كل فرد يرى الزينة التي وضعها الله تعالى في الكون من منظوره ومن مرآته الخاصة، وأن من الناس مَنْ يكون مع الله ﷻ حتى لو كان وسط الناس:

«في يوم من الأيام ذهب صوفيٌ إلى إحدى الحدائق الغنَّاء طالبًا البهجة والتفكُّر العميق، فانتشى لـمَّا رأى تنوع الألوان هناك، ثم أغمض عينيه وبدأ بالمراقبة والتفكر.

فمرَّ به غافل، فظن أن الصوفي نائم، وتعجب من حاله وضاق صدره، ثم قال له:

«كيف لك أن تنام؟ افتح عينيك وتأمل في عناقيد العنب هذه، والأشجار المزهرة، وهذه الأرض بأعشابها المخضرة، وانظر إلى آثار رحمة الله».

فأجابه الصوفي:

«أيها الغافل، فلتعلَمْ جيدًا أن أعظم آثار الرحمة الإلهية هو القلب، وكل شيء خارجه هو بمثابة ظلٍّ لهذا الأثر العظيم، كما يجري جدول الماء بين الأشجار، فترى انعكاس صورة الأشجار في المياه البراقة على طرفي الجدول...





إن ما تراه داخل هذه المياه ما هو إلا جنةٌ من الخيال، أما الجنة الحقيقية ففي القلب؛ لأن القلب هو محلُّ نظر الله، وانعكاسُ هذه المشاهد البديعة التي تراها هو انعكاسٌ من العالم الدنيوي المكوَّن من الماء والتراب.

ولو لم تكن الإبداعات في هذا العالم مجرد انعكاس من عالم الفؤاد، لما سمى الله ﷻ عالم الخيال هذا بعالم الانخداع والاغترار، يقول الله تعالى في سورة آل عمران في الآية ١٨٥: ﴿**وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ**﴾

إن الغافل الذي يظن أن الدنيا هي الجنة ويقول: «الجنة هنا!» ما هو إلا إنسان انخدع بظاهر الغدير.

ومَنْ يبقَ بعيدًا عن الجنان والبساتين الأصلية، أي عن أولياء الله تعالى، ينخدع أشد الانخداع بميله إلى هذا الخيال.

فنوم الغفلة هذا ينتهي يومًا ما، فتُفتح حينئذ العيون، وتُرى الحقيقة، لكن ما فائدة رؤية المشهد الحقيقي مع خروج آخر نَفَس؟

وما أعظمَ سعادةَ ذلك العبد الذي مات قبل أوان موته، واستطاعت روحه أن تشم رائحة هذه الجنة...»

هذا العبد الذي عرف حقيقة الخلق ومصدره معرفة يقينية، ورأى بعيني قلبه تجليات ربه في مخلوقاته، هو عبد يرى بنور الله، فقد منحه الله من لدنه نورًا بعد أن طهَّر نفسه من اللذات النفسانية، وأشرع فؤاده لفيوضات الله تعالى.

فعن ابن مسعود، رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن النور إذا دخل الصدر انفسح**» فقيل: يا رسول الله هل لذلك من علم يعرف؟ قال: «**نعم، التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله**» [٢١٧]

---

٢١٧ ابن أبي شيبة، مصنف، جـ٧، ٧٦-٧٧؛ الحاكم، جـ٤، ٣٤٦/ ٧٨٦٣؛ الطبري، تفسير، جـ٨، ٣٧ (الأنعام، ١٢٥).





وأولياء الله السائرون في درب معرفته، ويقتاتون على نوره ومحبته؛ أولئك يعيشون في بحر فيوضاته كالأصداف التي تتلقى حبات الرمال لتصنع منها اللؤلؤ أعظم جواهر البحر[٢١٨]؛ بل هم يحوِّلون قلوب مريديهم ومحبيهم إلى أصداف ذات لآلئ وجواهر، وبحسب كل مريد أن يفتح قلبه كالأصداف لهذه الفيوضات، كي يصنع قلبه اللآلئ والمعجزات.

وقد ورد في شرح المثنوي:

«إن الله –صاحب الكلام– قد همس بسرٍّ في أذن السحاب، فانسكبت الأمطار من عيونها كانسكاب المياه من الدلاء، وهمس بسرٍّ في أذن الوردة، فأعطاها جمالًا بألوانها وعبقها، وهمس بسرٍّ في أذن الحجر، فجعل منه العقيق، أي إن الله تعالى بتجلي صفة اللطيف جعل الغيوم ماطرة، والورود جميلة، والحجارة قيِّمة.

وقد أودع سرًّا في جسد الإنسان، فمَنْ حافظ على هذا السر من أهل المعرفة ارتقى إلى الدرجات العليا. وبعد أن أخذ أولياء الله الإلهام من عالم الملكوت، تخلصوا من أجسادهم، ووصلوا إلى سر القرب من الحق جل جلاله».

ولا ريب أن هذه الأسرار هي سر المحبة التي هي وسيلة للمعرفة في التجليات المختلفة، وسر المحبة هذا يخفي جمال وكمال كل شيء في إطاره الفيَّاض.

إن أولياء الله تعالى الذين وصلوا إلى المراتب العليا تزداد لديهم تجليات المحبة الذاتية، والمحبة الذاتية المجازية هي محبة المرء لمرء أو لشيء فانٍ دون إرادة، والارتباط معه برباط العشق؛ أما المحبة الذاتية الحقيقية فهي انجذاب المرء لربه والفناء فيه.

---

٢١٨ يقال إن المحارة في البحر تتفتح في شهر نيسان لتتلقى بضع قطرات وحبات رمل فتتحول داخلها إلى لؤلؤة.





وأولياء الله محبتهم لله تعالى ثابتة ثبات الجبال، لا تزحزحها الأهوال، فلا هي تهتز إن أصابها حزن وهم، ولا هي تنتعش إذا لقيت إكرامًا؛ بل الحب على الحالين موصول.

وفي القصة الرمزية التالية مثال لتلك المحبة الذاتية:

يروي مولانا شمس الدين محمد روجي رحمه الله (تُوفي في ٩٠٤هـ/ ١٤٩٩م):

«كان أحد الشباب يداوم على حضور حلقات مولانا سعد الدين الكاشغري، وكان في المقدمة دائمًا في الخلوة والعشق والرياضة، وفي يوم من الأيام وقع في حب امرأة، فغلبت المحبة الزائدة لهذه المرأة قلبَه وجعلته أسيرًا.

وحضَّر هذا الشاب هدية من الذهب والألماس بعد أن تجاوز المحن والمصاعب للحصول عليها، ووضعها بجانب الطريق الذي تمر هذه المرأة منه واختبأ في إحدى الزوايا كي لا يأخذها إلا معشوقته، ولم يضع في الهدية أية علامة تدل معشوقته عليه، وحين علمتُ ما صنع قلت له:

«ما أغرب ما صنعت! لقد تركت ما حصلت عليه بصعوبة ومشقة في جانب الطريق! ولو وجدَت هذه المرأة هديتك ورأتها، لما علمت بأمرك، ولا بمَنْ وضعها هنا ولا السبب وراء ذلك، ليتك فعلت شيئًا تعلم منه أن الهدية منك لكي لا يضيع جهدك سُدىً»

وما إن قلت هذا القول حتى خرجت كلمة «آه» من أعماق قلبه، وانهمرت الدموع من عينَيه، ثم قال: «كيف لك أن تقول هذا؟ أتظنني لا أعرف غرابة ما صنعت، لكنني لا أنتظر أي مقابل لهذا العمل، فأنا لا أريد لذلك القلب الرقيق أن يشعر بأي مِنَّة تجاهي». (رشحات، ص٣٦٤-٣٦٥)

فإذا كانت المحبة المجازية الفانية تُظهر مثل هذا العمق والرقة واللطافة وجمال السلوك، فمَنْ يعلم إذًا التجليات العلوية لمعرفة الله تعالى التي يحظى بها مَنْ ينال «المحبة الذاتية».





ويوضح مولانا جلال الدين الرومي مراحل القلب بقوله إنه حين كان «مدرِّسًا عامًّا» في المدرسة السلجوقية، أي حين كان في قمة العلم الظاهري، «لم يكن ناضجًا»، وحين بدأ بنيل تجليات معرفة الله تعالى وبدت أسرار الكون واضحة جليَّة أمامه، صار «ناضجًا»، ثم حين صار في حالة فناء في المحبة الذاتية «احترق».

ولا يمكن الوصول إلى معرفة الله تعالى إلا بإيمان مطمئن بالذات الإلهية، والاطِّلاع على التجليات الإلهية بالقدر الذي يسمح له الإدراك البشري.

اللّهم امنحنا القدرة على أداء الأمانات التي وهبتها لنا حقَّ الأداء.

ووفقنا في عمل صالح يجعلنا ننال أعظم درجات رحمتك في الآخرة يا رب العالمين.

يا رب، تجلَّ على قلوبنا بمحبتك.

يا رب، وفقنا في معرفة سر ﴿أحسن تقويم﴾ التي شرفتنا بها على سائر مخلوقاتك بمحبتك ورحمتك بعبادك، وأحيِ قلوبنا بقطرات رحمتك يا أرحم الراحمين.

آمين!










ب. الهبات الإلهية

لقد خُلق كل مَنْ في هذا الوجود بتجلّي صفة «اللطيف» أي بلطف ربنا العلي العظيم، ولم يُخلق أي مخلوق بكسبه، والوجود الفاني والنسبي لهذه الكائنات، وجميع الأوصاف والإمكانات المرتبطة بالحكمة من خلقها هي كلها -دون استثناء- هباتٌ إلهية، وهذا يعني أن وجود كل موجود في هذا الكون ما هو إلا كرم وإحسان ولطف من الله ﷻ.

إن مصطلح «الهبَة الإلهية»[٢١٩] يستخدم في الأصل للدلالة على وجود كل شيء مخلوق وما يصاحبه من صفات، لكننا سنستخدم هذا المصطلح هنا للإشارة إلى الهبات التي ينالها العبد خلال سيره في طريق التصوف وفقًا للمراحل التي يقطعها، وكلما تقدَّم العباد ذوو الاستعداد في هذا الطريق نالوا مجموعة خاصة من الألطاف والمزايا حتى قبل انتقالهم إلى الدار الآخرة، ولو قلنا إن الإنسان ينال ما يناله بداية باستخدام الإرادة الجزئية، فإنه ينال بلطف الله تعالى أكثر بكثير مما بجهده، وهذا ما يسمى بـ «الهبة الإلهية»، لأن الفارق الكبير بين

٢١٩ الهبة الإلهية: المنحة الإلهية، و هي أيضًا اللطف الإلهي.





الاستحقاق واللطف أدى إلى الاعتقاد أن الاستحقاق «غير موجود» أصلًا، إذ إن الإمكانية التي هي وسيلة للاستحقاق هي بالأساس هبة إلهية.

وأهل الجهاد والاستعداد من المتصوفة الذين ينالون بالتربية درجاتٍ روحية ومعنوية ينالهم نصيبهم أثناء السير في طريق الله تعالى من تجليات الكمال، وأسرار الجمال، وحِكَم الجلال؛ وبفضل ما يكرمهم به الله تعالى من أنوار تنكشف لهم الأسرار، وتنزاح من أمامهم الأستار، وتتجلى لأنظارهم الغيوب.

وتوجِّه السوانحُ والإلهامات في القلوب السليمة العبادَ إلى الله ﷻ وإلى جوهر الحقيقية، ويحظى العبد بالرؤى الصادقة التي هي جزء من حقائق اللوح المحفوظ المستقبلية المنعكسة على القلوب، ويغدو صاحبَ تفكُّرٍ ناضج وفراسةٍ يدرك بها الإرادة الإلهية في كل أمر.

هذه الأحوال -وغيرها كثير- يصل إليها الإنسان بجهوده الخالصة لوجه الله، وأولاً وأخيرًا بلطف الله تعالى وكرمه وإحسانه؛ هذه الكرامات تُسمى علميًّا بـ «اللدنية».

هذا العلم اللَّدني الذي يفوق قدرات العقل الإنساني ومداركه واستطاعته ينال أولياءُ الله جزءًا منه بكرم الله تعالى ولطفه، مما يؤهلهم -حسب درجتهم- لفهم الأمور فهمًا شاملاً، وإدراكها إدراكًا محيطًا، واستيعابها بشكل مُدرك للحكمة من ورائها.

وفيما يلي نقدم شرحًا يقرب للأفهام معنى العلم اللدني بقدر ما تستوعبه الأفهام البشرية، وبقدر ما تسمح به النصوص الشرعية.







«ما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته، كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»[٢٢٠]

«... ولسانه الذي ينطق به وقلبه الذي يعقل به»[٢٢١]

 

١. العلم اللدني

والتسمية الاصطلاحية لـ «العلم اللَّدني» مشتقة من الآية الكريمة: ﴿مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾، وهو علم وهبي يناله العبد من الله تعالى لطفًا منه وكرمًا.

والحقائق التي تلقَّاها رسول الله ﷺ من المولى ﷻ تُقسَّم إلى ثلاثة أصناف، والحقائق في **الصنف الأول** لا تُدرك إلا بنور النبوة، لهذا بقيت سرًّا بين الله تعالى ونبيه الكريم، ولم يفصح النبي ﷺ عن هذه الحقائق لأيٍّ من أصحابه.

ومن خلال مضمون بعض الأحاديث الشريفة نفهم أنه ثمة حقائق بين الله تعالى ورسوله لا يجوز ولا يمكن إفشاؤها، وحتى لو صرَّح بها رسول الله ﷺ فيستحيل فهمها، ومن هذه الأحاديث قول الرسول الكريم ﷺ لأصحابه:

«والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرًا» (البخاري، الكسوف، ٢؛ مسلم، الصلاة، ١١٢)

---

٢٢٠ البخاري، الرقاق، ٣٨.

٢٢١ الطبراني، الكبير، جـ٨، ٢٢١/ ٧٨٨٠؛ الهيثمي، جـ٢، ٢٤٨.





«لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل» (المناوي، فيض القدير، جـ٤، ٨؛ العجلوني، كشف الخفاء، جـ٢، ١٧٣/ ٢١٥٩)

أما **الصنف الثاني** من الحقائق التي تلقَّاها رسول الله ﷺ من الله ﷻ، فيمكن أن يدركها «الخواص» أو «خواص الخواص»[٢٢٢] ممنْ ارتقوا في الدرجات العقلية والروحية، ولديهم الاستعداد والأهلية لهذا الإدراك، وهذه الحقائق المعلومة هي التي نقلها النبي ﷺ لسيدنا أبي بكر وعلي وبعض من كبار الصحابة ﭫ أجمعين، وصار انتقال هذه الحقائق من صدرٍ إلى آخر عُرفًا متَّبعًا؛ لأن انتقالها إلى السطور، وإطلاع مَنْ هم ليسوا أهلاً على هذه الحقائق قد يوقعهم في الأخطاء نتيجة سوء فهمهم، فعلى الإنسان مسؤولية يتحملها في هذا الموضوع بقدر استعداده وقدرته القلبية، وهو مجبور على كشف هذا الاستعداد فيه من أجل سلامته ونجاته.

والصنف الثالث من هذه الحقائق يتضمن الحقائق الشرعية، والناس كلهم مكلَّفون بالإيمان والعمل بالحقائق في هذا الصنف، لهذا السبب لم يستثنِ المولى ﷻ أيًّا من عباده في أحكامه الشرعية، بل شمل حتى أقل الناس استعدادًا وطاقة، وهي حقائق لازمة لكل إنسان، وقد أُعلنت في هذا العالم كله لأنها تكاليف مفروضة على الجميع.

وقد كان النبي ﷺ يوضِّح أحيانًا لأصحابه بعضًا من الحوادث التي ستمرُّ على الأمة حتى قيام الساعة، لكن الكثير من الصحابة لم يفهموها بمعناها الحقيقي، وقسم منها نُسيَ مع مرور الوقت[٢٢٣].

---

٢٢٢ الخواص: عباد الله المتَّقون المُختارون. خواص الخواص: المُختارون من المُختارين.

٢٢٣ انظر: البخاري، القدر، ٤، بدء الخلق، ١؛ مسلم، الفتن، ٢٣؛ أبو داوود، الفتن، ١/ ٤٢٤٠؛ الترمذي، الفتن، ٢٦/ ٢١٩١؛ ابن ماجه، الفتن، ١٨؛ أحمد، جـ٥، ١٥٣، ١٦٢؛ ابن حبان، صحيح، جـ١٤، ١٢٩/ ٦٤٣٢؛ الحاكم، جـ٤، ٥٥١/ ٨٥٤٣؛ البيهقي، شُعب، جـ٦، ٣٠٩؛ الهيثمي، جـ٢، ٨٨، جـ٨، ٢٦٣.





ويجب علينا أن نعلم - كما ذكرنا آنفًا- أن الرسول ﷺ قد أخبر أصحابه من ذوي الأهلية بحقائقَ يصعب فهمُها، وانتقلت الكثير من هذه الحقائق من صدر إلى آخر؛ لأن هذه الحقائق ليست ضرورية للعامة، وتتجاوز إدراكَ الكثير من الناس وإحاطتَهم بها. إن تسلسل هذه المعرفة بين ذوي الاستعداد، وعدم اطِّلاع كل فرد عليها، وانتقالها في كثير من الأحيان من صدر إلى آخر، أي من فرد مؤهَّل إلى فرد مؤهَّل آخر، هو عُرف متَّبع على مدى التاريخ.

ومن الصحابة الذين اطَّلعوا على بعض من أسرار هذا العلم الخاص، إضافة إلى أبي بكر وعلي رضي الله عنهما: حذيفة بن اليمان، وأبو هريرة، وعمر بن الخطاب، ومعاذ ابن جبل، وابن مسعود، وأبو سعيد الخدري، وحارثة بن مالك رضي الله عنهم أجمعين.



ولله عز وجل ألطاف كثيرة لا تراها العيون ولا تستوعبها العقول، يمنحها لقلوب عباده الذين يتقون، ويُخضِعون إرادتهم ورغباتهم البشرية لإرادة المولى جل جلاله.

ويبيِّن ربنا عز وجل ألطاف العلم والحكمة التي يكرم بها عباده المتقين بقوله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (الأنفال، ٢٩)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الحديد، ٢٨)

ويقول عيسى عليه السلام:

«مَنْ عمل بما يعلم ورَّثه الله علم ما لم يعلم» (أبو نعيم، حلية الأولياء، جـ١٠، ١٥)

وورد في الحديث القدسي أن الله تعالى قال:

«مَنْ عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ مما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته:





كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه» [٢٢٤]

وفي رواية أخرى: «**ولسانه الذي ينطق به وقلبه الذي يعقل به**» (الطبراني، الكبير، جـ٨، ٢٢١/ ٧٨٨٠؛ الهيثمي، جـ٢، ٢٤٨)

ومن معاني هذا الحديث القدسي أن العبد حين يؤدي فرائض الله تعالى على أتم وجه، وأحسن أسلوب، ويؤديها بإخلاص وقربى، ثم لا يزال نهمه للعبادة وشوقه لربه يدفعه حتى يُقبل على النوافل، فيبادله ربه إقبالاً بإقبال؛ بل يسعى نحوه بغير إمهال، ولا يزال العبد في حب لربه حتى يمتلئ قلبُه بالعشق وروحُه بالوجد؛ عندها ينال العبد من ألطاف الله ومَكْرُمَاتِه الإلهية بعد أن يكون قد اتخذ لقلبه حصنًا من الرغبات، ولنفسه نجوة عن الشهوات، ولبدنه ترسًا ضد الحرام والشبهات، ولحياته منهاجًا على خطى المصطفى ﷺ.

ولكي ينال هذه الألطاف الإلهية، يجب عليه أن يمسك اللذات البدنية عند حدِّها المناسب، ويسعى للارتقاء عن العالم المادي إلى العالم الروحي؛ لأن هذه الألطاف ألطاف عظيمة يفتح من خلالها الله ﷻ إدراك عبده -المحجوب بسبب ضعفه البشري- ويوجهه نحو الصواب والحقائق والحِكم. وحينها لا يخطو العبد خطوة في كل أحواله وحركاته إلا وفقًا للإرادة الإلهية، ويصيب في تفكيره ورؤيته للأمور، فلا تخدعه الأسباب والذرائع، ولا المظاهر الخارجية؛ لأن إرادته قد اتصلت بإرادة الله ﷻ، وحينئذ يستطيع العبد أن يكشف الوجه الداخلي للحوادث، ويبصر بما لا يبصر به غيره.

وفوق هذا وذاك تتولد في عقله وذهنه أفكارٌ ومعانٍ رائعةٌ لا حصر لها؛ عظيمة مثل أحوال القلب، دقيقة مثل خلاصات اللب، لطيفة مثل ألطاف الرب،

---

٢٢٤ البخاري، الرقاق، ٣٨، انظر: ابن ماجه، الفتن، ١؛ أحمد، جـ٦، ٢٥٦؛ ابن حبان، الصحيح، جـ٢، ٥٨/ ٣٤٧.





لا تعبر عنها الكلمات؛ بل تومئ إليها الرموز والإشارات، وهي ما يسميه أهل التصوف «لطيفة»، وجمعها «لطائف»، وهي الإشارات والأدلة التي يتكرم بها رب الكرم على عباده الصالحين، وأوليائه السائرين في طريق الروحانية.

ومن هذه الإشارات واللطائف ما نسميه «هاتف»، وهو الصوت الذي يأتي من الغيب تنبيهًا وإرشادًا لعباد الله تعالى حين يقعون في مواقف صعبة تحتاج الدعم الإلهي[٢٢٥]، وهو الصوت الذي يُسمع في قلب السالك يدعوه إلى الله ﷻ.

وتشير الحادثة الآتية إلى أنَّ سماعَ الصوت من الغيب حقيقةٌ لا يُنكرها أحد:

«لما أراد الصحابة غسل النبي ﷺ قالوا: والله ما ندري أنجرد رسول الله ﷺ من ثيابه كما نجرد موتانا، أم نغسله وعليه ثيابه؟ فلما اختلفوا ألقى الله عليهم النوم حتى ما منهم رجل إلا وذقنه في صدره، ثم كلمهم مكلم من ناحية البيت لا يدرون مَنْ هو: أن اغسلوا النبي ﷺ وعليه ثيابه، فقاموا إلى رسول الله ﷺ فغسلوه، وعليه قميصه يصبون الماء فوق القميص ويدلكونه بالقميص، دون أيديهم»[٢٢٦].



لقد علَّم الله ﷻ الناس «الكتاب» و«الحكمة» والعلوم الأخرى التي لم يعلموها بواسطة الأنبياء، وكان هذا التعليم ظاهرًا أحيانًا، وأحيانًا أخرى لدنيًّا على شكل إلهامات تنزل على القلب مباشرة، لكن هذه الأحوال، وتلك التي أشرنا إليها آنفًا يصعب على الإدراك البشري فهمُها في كثير من الأوقات، ولهذا السبب تبقى مجهولة عن الكثير من الناس، إلا أنه من الثابت في القرآن والسُنة أن العلمَ اللدني حقٌّ وحقيقة لا ريب فيها.

---

٢٢٥ لهذا دخلت هذه الكلمة في اللغة العربية المعاصرة بمعنى الاتصال.

٢٢٦ انظر: أبو داوود، الجنائز، ٢٧-٢٨؛ أحمد بن حنبل، جـ٤، ٢٦٧؛ ابن ماجه، الجنائز، ١٠.





وخير دليل على العلم اللدني تلك الحادثة التي جرت بين سيدنا موسى والخضر عليهما السلام، والتي وردت في القرآن الكريم(٢٢٧) وبعض من الأحاديث الشريفة:

كان فرعون وجنوده يلاحقون سيدنا موسى والمؤمنين به إلى أن وصلوا البحر الأحمر، وهناك غرق فرعون وجنوده أمام أعين بني إسرائيل، وبعد هذا اللطف الإلهي جمع سيدُنا موسى عليه السلام قومَه، وخطب فيهم بلغة فصيحة بليغة حماسية، فرَقَّت قلوب مَنْ سمعها، وذرفت عيونهم، وأُعجِب قوم سيدنا موسى بسعة علمه وعمق معرفته، فسُئل: أيُّ الناس أعلم؟ حينها لم يقل سيدنا موسى عليه السلام «الله أعلم»، بل قال: «أنا»، فكانت هذه غفلة منه وزلة(٢٢٨)، فعاتبه الله تعالى إذ لم يرُدَّ العلم إليه، فقال له: «بلى، لي عبد بمجمع البحرين هو أعلم منك»، أي قد أعطاه الله علمًا خاصًا هو (العلم اللدني).

فقال سيدنا موسى عليه السلام متشوِّقًا لنيل هذا العلم:

﴿لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ (الكهف، ٦٠)

ثم انطلق هو وابن أخته يوشع بن نون، فشاهد خلال رحلته هذه بعض التجليات، وفي النهاية وجدا مَنْ يبحثان عنه، وقد وضَّح القرآن الكريم هذا اللقاء بقول الله ﷻ:

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ (الكهف، ٦٥)

وقد وجد سيدنا موسى عليه السلام عن طريق الوحي هذا الرجل عند صخرةٍ مسجًّى بثوب أخضر، فاقترب منه سيدُنا موسى وسلَّم عليه قائلاً: «أنا موسى»، فأجابه

---

٢٢٧ انظر: سورة الكهف، الآيات، ٦٠-٨٢.

٢٢٨ الزلَّة: هو القول أو السلوك النادر الصادر من الأنبياء بغير قصد ولا يوافق الإرادة الإلهية.





الخضر[٢٢٩] عليه السلام: «موسى بني إسرائيل؟»، قال: «نعم، أتيتك لتعلمني مما عُلِّمْت رشدًا»، قال الخضر: «يا موسى، إني على علم من علمِ الله، علَّمَنِيه اللهُ لا تعلمُه، وأنت على علمٍ من علمِ الله، علَّمَكَه اللهُ لا أعلمُه».

فقال سيدنا موسى عليه السلام للخضر:

﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ (الكهف، ٦٦)

فبيَّن سيدنا موسى عليه السلام رغبته في تحصيل العلم من الخضر عليه السلام على هذا النحو، ومن الواضح في الآية الكريمة أن تحصيل العلم يتطلب أن يكون الطالب «تابعًا» لأستاذه؛ لأن هذا العلم سينتقل من صدرٍ إلى آخر، فمن اللازم إذًا وجود معية جسدية ومعنوية.

كان موسى عليه السلام يريد أن يتعلم من الخضر عليه السلام الحِكَم من وراء بعض الحقائق العجيبة والغريبة التي شاهدها، والتي لا يمكن أن تُفهم من الظاهر، فقال له الخضر عليه السلام:

﴿... إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا. وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ (الكهف، ٦٧-٦٨)

فكان هذا القول من الخضر عليه السلام أولَ كشف عن حالة سيدنا موسى النفسية والروحية، وكان بذلك يُعلمه حقيقة ذاته التي ستصبح واقعًا فيما بعد. لأن هذا العلم كان بحاجة إلى صبر عظيم، أمَّا موسى عليه السلام فقد كانت حياتُه حياة مليئة

---

٢٢٩ كلمة خضر في اللغة العربية تعني «أخضر» أو «ما له علاقة بالاخضرار». وقد قال رسول الله ﷺ: «إنما سمي الخضر أنه جلس على فروة بيضاء، فإذا هي تهتز من خلفه خضراء» (البخاري، الأنبياء، ٢٧؛ الترمذي، التفسير، ١٨؛ الديلمي، مسند، جـ١، ٣٤٥) ويقول التابعي مجاهد: «حين يصلي الخضر في مكان، يخضرُّ ما حوله». ونفهم من هذا كله أن اسمه الحقيقي ليس خضرًا بل هو اسم لُقِّب به.





بالحركة والنشاط، فكان الدرس الذي سيتعلمه سيدنا موسى هو معرفته لموقعه وعجزه أمام علم الحقيقة الإلهية.

فقال موسى عليه السلام بإصرار وإلحاح:

﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ (الكهف، ٦٩)

فأجابه الخضر عليه السلام:

﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ (الكهف، ٧٠)

فانطلقا يسيران في ساحل البحر، فمرت بهما سفينة، فكلَّموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر فحملوه بغير أجرة، ثم أخذ الخضر الفأس فنزع لوحًا، فقال له موسى عليه السلام مضطربًا:

«ماذا تصنعُ؟ قومٌ حملونا بغير أجرة تعمد إلى سفينتهم فتخرقها لتغرق أهلها، لقد جئت شيئًا إمرًا»

فذكَّره الخضرُ عليه السلام بتنبيهه الأول:

﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾.

فأجاب موسى عليه السلام:

﴿قَالَ لاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلاَ تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾.

ثم جاء عصفور، فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة أو نقرتين، قال له الخضر عليه السلام:

«يا موسى ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره من البحر».

فلما خرجا من البحر، مرَّا بغلام يلعب مع الصبيان، فأخذ الخضر برأسه فقلعه بيده (أي قتله)، فقال له موسى عليه السلام:





﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾.

فأجابه الخضر عليه السلام كجوابه الأول:

﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾.

قال له موسى عليه السلام:

﴿إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ﴾

فقال له موسى عليه السلام بعد رؤية عمله هذا: «قومٌ أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا، أصلحت لهم حائطهم، لو شئت لاتخذت عليه أجرًا»

فقال الخضر عليه السلام:

﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا. أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا. وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا. فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا. وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ (٢٣٠)

---

٢٣٠ الكهف، ٧٨-٨٢. انظر: البخاري، العلم ١٦، ٤٤، الأنبياء ٢٧، التفسير ١٨/ ٤؛ مسلم، الفضائل، ١٧٠-١٧٤؛ الترمذي، التفسير، ١٨/ ٣١٤٩؛ أحمد، جـ٥، ١١٧-١١٨. (ذُكرت هذه القصة في هذه الروايات)





وثمة الكثير من الشروحات والإيضاحات حول الحِكم والعِبر والأسرار الموجودة في هذه القصة، ويمكننا هنا عرض بعضٍ من هذه النُكت المليئة بالحِكم:

العلم اللدني هو رؤية الحوادث والظروف الخارجية رؤيةً تفوق المعايير البشرية، وبمعايير نظام يجهله الكثير من الناس.

فالكلُّ مثلًا يتفق على أن «السؤال» هو أهم مفاتيح التعلُّم، أما في هذا العلم، فلا مجال للسؤال، والاعتراض، والنقاش، والجدال؛ بل الصمت، والصبر، والتسليم بالأمر.

وفي هذا العلم تتوجه العيون نحو النهاية والنتيجة فقط، وما أجمل قول الشيخ إبراهيم حقِّي أرضرومي:

الحق يجعل الشرور خيرًا

فلا تظنن أن الله يفعل غير هذا

والعارف يشاهد

لترى ماذا يفعل مولانا

ففعله حسن دائمًا

لا تقل لِمَ هذا؟

فهكذا هو الصواب

اصبر وانظر إلى الخاتمة

لترى ماذا يفعل مولانا

ففعله حسن دائمًا

وقد ذُكر في قصة سيدنا موسى عليه السلام مع الخضر أن أصحاب السفينة الصالحين لم يأخذوا أجرة من موسى والخضر عليهما السلام أثناء رحلتهما،





ونرى من خلال هذا أن تقديم معروف صغير لأولياء الله تعالى يقابله أجر وبركة عظيمة، فقد نجت السفينة من الغصب من خلال ضرر صغير فيها، أي إن هذا المال الحلال الذي أحسن به المساكين على موسى والخضر عليهما السلام لم يضع هباءً.

وفي نجاة السفينة من غصب الملك من خلال إحداث عيب فيها معنى إشاري، وهو أن الإنسان سفينة تسير في بحر العمر، وإذا ما رأى نفسه بلا عيب، فذلك سيجرُّه إلى دوامة الكِبر والعُجب، أي إلى الهلاك، وهذا ما يفسِّر ضرورة الاعتراف دائمًا بالعجز والقصور والحذر من الضياع المعنوي الروحي.

وقتل الخضر عليه السلام للطفل البريء حادثة مليئة بالحِكم، ومن هذه الحِكم:

إنه يجب على الإنسان أن يُبقي محبته لأسرته، وأبيه وأمه، وأخوته وأصدقائه -وهي محبة بشرية فطرية- في الحد المناسب، وألا تتجاوز محبتُهم محبةَ الله عز وجل في قلبه، وما لم يلتزم بذلك، فإنه لن يصل إلى غايته الأساسية، وقد يخرج عن الصراط المستقيم، ويزيغ حتى يهلك.

ومن أسماء الله عز وجل «الرقيب»، وهو يعني عدم رضا الله تعالى عن أن يكون في قلب عبده- الذي أحبه- محبة تزاحم محبة الله عز وجل ولو قليلاً، إذ سلطان محبة الله لا يقبل الشراكة في ملكه.

وقبل أن يكون يوسف نبيًّا أحس والده يعقوب عليه السلام بذلك، ورأى نور النبوة في جبينه، فكان له في قلبه محبة شديدة، لكن محبة يعقوب عليه السلام الزائدة لابنه وولعه به كانت سببًا في غيرة الله، لهذا السبب أراد الله جل جلاله ابتلاءه، وكانت النتيجة -كما هو معلوم- أن فارق ابنه لسنوات طويلة، أي إن المحبة الزائدة تبعها فراق مؤلم[٢٣١].

٢٣١ انظر: روح البيان، جـ٤، ٢١٨.





إن بعضًا من الحقائق الكبرى تصبح معروفة للجميع من خلال تداولها في المجتمع، وتصبح جزءًا من ثقافة ذلك المجتمع، فمن الأمثال السائدة «المحبة الزائدة تجلب الفراق السريع»، وهذه العبارة تشير إلى انعكاسات المحبة المفرطة التي تصل إلى درجة عبادة هذه المحبة.

والحق أن في قتل الخضر عليه السلام للغلام عِبرًا وحِكمًا كثيرة، فمن الطبيعي أن الوالدين قد غمرتهما السعادة بولادة ولدهما هذا، ثم لبسا ثياب الحداد وحَزِنا عليه عندما مات، لكن لو عاش هذا الغلام وكبر لأهلَك نفسه ووالديه في الدنيا والآخرة، وبالطبع لو تُرك القرار للأب والأم لما أرادا موت ابنهما أبدًا، بيد أن الله الرحيم بعباده غاية الرحمة، والذي تفوقُ محبتُه محبةَ الوالدين لأولادهما، أكرم عبدَيه الصالحَين بأن قدَّر موت هذا الولد، ثم أعطاهما ولدًا صالحًا بدلاً عنه، ولأن الغلام الذي مات كان بريئًا في هذه الدنيا، وانتقل إلى الآخرة مع براءته، فإنه بذلك فاز بحياة الآخرة الأبدية بصحبة والدَيه، أي إن هذا اللطف الرباني الذي جاء على صورة قهر كان تفضيل الضرر الأصغر على الضرر الأكبر والأعظم.

وهذا يعني أن تقويم العباد للحوادث في أغلب الأحيان تقويم خاطئ؛ لأنه لا يعلم الحكمة الإلهية.

يقول المولى ﷻ في القرآن الكريم:

﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة، ٢١٦)

إنَّ قتلَ إنسان بريء جريمة كبيرة تقتضي القصاص شرعًا، إلا أن المثال الذي ورد في القصة ولم يأتِ موافقًا للأحكام الشرعية -واعتمد على العلم الباطني ليس غير- لا يمكن أن يحدث في أمة محمد ﷺ؛ لأنها أمة مكلفة بالظاهر فقط، ولهذا السبب لا يتصرف العارفون بالعلم القلبي تصرفًا يخالف الأسباب





الظاهرية، ولا يجاوزون عالم الأسباب، فحدود الأحكام الشرعية حدود لا يتعدَّاها أحد مهما كان.

وكان موسى ﷺ نبيًّا له شريعة خاصة بأمته مكلَّفٌ بتطبيقها، أما الخضر ﷺ فقد كان يتصرف في إطار العلم الذي منحه الله تعالى إياه، أي إنه كان يفعل ما يفعله تطبيقًا لأوامر الله تعالى لا لرغباته وأهوائه، واعتراض موسى على الخضر ﷺ كان بسبب مراعاته لحدود الله تعالى.

والله ﷻ هو الذي أخبر الناس بهذه القصص في القرآن الكريم، أي إن الحوادث في هذه القصة تبدو في الظاهر مخالفة للحقائق الشرعية، إلا أنها في الحقيقة مظاهر مختلفة تكمِّل بعضها بعضًا.

وحين علم سيدنا موسى ﷺ أسرار هذه التجليات توقف عن الاعتراض، وفهم أن الشريعة مثل البدن، والحقيقة مثل الروح.

وقد كُلِّف الناسُ بالظاهر فقط لأن الأحكام الشرعية تشمل الجميع دون استثناء، وأغلب الناس غير مطَّلعين على الحقائق الباطنية.

ومن ناحية أخرى نرى أن الخضر ﷺ قد قام بإصلاح حائطٍ في القرية كاد أن ينهار دون أن يأخذ أيَّ أجرٍ مادي، على الرغم من طرد أهل القرية ومعاملتهم السيئة لهما، وذلك ليُظهر أن حماية الأيتام واجب مهم وفضيلة سامية، ويوضح أيضًا حكمةَ أنَّ المال الحلال لا يضيع أبدًا، وأن ما يجنيه العباد الصالحون من مال حلال يحميه الله، ولا يضيع هباءً منثورًا.

وعن عثمان رضي الله عنه في قوله تعالى:

﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾

قال: الكنز لوح من ذَهبٌ عليه سبعة أسطر مكتوبة:

١- عجبتُ لـمَنْ عرف أن الدنيا سريعة الزوال ثم يرغب فيها.





٢- وعجبت لـمَنْ عرف أن الأمور بالأقدار ثم يغتم بالمآلات.

٣- وعجبت لـمَنْ عرف الحساب ثم يجمع المال.

٤- وعجبت لـمَنْ عرف النار ثم يذنب.

٥- وعجبت لـمَنْ عرف الجنة يقينًا ثم يستريح.

٦- وعجبت لـمَنْ عرف الله تعالى ثم يذكر غيره.

٧- وعجبت لـمَنْ عرف الشيطان فأطاعه. (ابن حجر العسقلاني، منبهات، ص٢٩)

ومن المعاني الإشارية في هذه القصة أن مجمع البحرين الذي التقى فيه سيدنا موسى والخضر عليهما السلام يدل على أن سيدنا موسى يمثل بحرًا في العلم الظاهري، والخضر عليه السلام يمثل بحرًا في العلم الباطني.

إن اتباع سيدنا موسى للخضر عليهما السلام بغية تحصيل العلم اللدنِّي يلفت الانتباه من حيث إنه يُشبه العلاقة بين المرشد والمريد في التصوف، ويمكننا القول هنا إنه يجب على العبد -ولو كان في علمه متعمقًا مثل سيدنا موسى عليه السلام- أن يجثو أمام أولياء الله تعالى المطَّلعين على المعاني، وأن يطلب إرشادهم بتواضع كي ينال علمًا جديدًا لا يعلمه.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

قلت: يا رسول الله، أَرأيت إن عرض لنا أمر لم ينزل فيه قرآنٌ ولم تمضِ فيه سُنَّة منك؟

قال: «**تجعلونه شورى بين العابدين من المؤمنين، ولا تقضونه برأي خاصة**»

(الهيثمي، مجمع الزوائد، جـ١، ١٧٨)

ويروى أن الإمام الشافعي رحمه الله تعالى كان يجثو كما يجثو الطالب بأدب أمام الشيخ شيبان الراعي -وهو من أهل القلوب- ليستفيد من فيوضاته المعنوية، وكان يستشيره في بعض الأمور، وقد سأله طلبتُه يومًا:





«يا إمامنا، الفرق شاسع بينك وبين شيبان، فما الحكمة من احترامكم وتأدبكم بين يديه إلى هذا الحد؟»

فأجابهم الشافعي: «يا أبنائي، إنه يعرف ما لا نعرف!»

وقد كان أحمد بن حنبل ويحيى بن معين يلجآن في بعض المسائل إلى معروف الكرخي، ويسألانه عن رأيه فيها.

إن الشيوخ الربانيين الروحانيين لا يكونون مقصدًا لـمَنْ يطلب العلوم الظاهرية، بل لـمَنْ يريد تحصيل العلوم القلبية؛ لأن مهمتهم أن يدلوا على الطريق التي توصل إلى الله ﷻ، وكان الكثير من كبار علماء التفسير والحديث والفقه ينتسبون إلى التصوف، ويستدلُّون بأولياء الله تعالى في المسائل الدقيقة التي لم يعرفوها، مثل السيد الشريف الجرجاني، ومُلا جامي، وابن عابدين، والألوسي، وآخرين كُثر.

وكان الإمام الأعظم أبو حنيفة -الذي كان أفقه أهل عصره- يأخذ من فيوضات صحبة الإمام جعفر الصادق[٢٣٢].

وقد ذهب الإمام أبو حنيفة إلى المدينة المنورة، وبقي يصحب الإمام جعفر الصادق سنتين، فقام بتحصيل الكثير من العلوم النافعة، وحين شرَّف جعفر الصادق رحمه الله العراقَ، صحبه الإمام أبو حنيفة هناك أيضًا، وكان مما روي عن الإمام أبي حنيفة قوله: «لولا السَّنَتَان لهلك النعمان»، يريد بهما السنتين اللتين صحب فيها الإمام جعفر الصادق لأخذ العلم عنه[٢٣٣].

---

٢٣٢ الذهبي، تاريخ الإسلام، بيروت ١٤١٣، دار الكتاب العربي، جـ٩، ٨٩-٩٠؛ المزِّي، تهذيب الكمال، بيروت ١٤٠٠، الرسالة، جـ٥، ٧٩-٨٠؛ محمد أبو زهرة، أبو حنيفة، قونيا ١٩٥٩، ص٩٠؛ مكي، مناقب أبي حنيفة.

٢٣٣ الألوسي، صب العذاب على من سبَّ الأصحاب، ص١٥٧؛ محمد أبو زهرة، الإمام الصادق، ص٣٧-٣٩، ٢٥٤.





وقد علَّم جعفرُ الصادق رَحِمَهُ ٱللَّهُ الإمامَ أبا حنيفة في لقاءاتهما الحِكَم الدقيقة في الأحكام الدينية، والأسس المهمة المتعلقة بالمواضيع الحساسة التي قد يخطئ العقل فيها[٢٣٤].

ولهذا السبب كان أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ يروي كثيرًا عن الإمام جعفر الصادق، وحين نقرأ كتاب الآثار لأبي يوسف، والآثار للإمام محمد بن الحسن، فإننا نجد فيهما رواية أبي حنيفة عن جعفر بن محمد في مسائل كثيرة[٢٣٥].

ومن الحوادث المهمة في حياة الإمام أبي حنيفة الحادثة الآتية التي تدل على احترامه الكبير لأهل الروحانية:

تشير الروايات إلى أن إبراهيم بن الأدهم -وهو أحد أولياء الله تعالى- مرَّ يومًا بمجلس الإمام الأعظم، فاستصغره طلاب الإمام، ونظروا إليه شزرًا، وحين رأى الإمام الأعظم موقفهم هذا قال لإبراهيم بن الأدهم:

«أهلاً بك يا سيدي، شرَّفت مجلسنا هذا!. فسلَّم عليهم إبراهيم بن الأدهم باستحياء، وأكمل سيره في طريقه، وحين ابتعد سأل الطلابُ إمامهم أبا حنيفة:

«كيف لهذا أن ينال كل هذا التعظيم والترحيب منكم؟»

فأجابهم الإمام الأعظم جوابًا فيه من التواضع بقدر ما فيه من كشف الحقائق:

«إنه مشغول مع الله دائمًا، أما نحن فمشغولون بالقيل والقال» (الهجويري، كشف المحجوب، ص١٢٦)



ولتحصيل العلم اللدني آدابٌ وأركانٌ يجب مراعاتها، كما هو الحال في كل العلوم والمقامات، وأهم هذه الآداب: التحلي بالتواضع، والشعور بالعجز، وانعدام الذات.

---

٢٣٤ انظر: أبو نعيم، الحلية، جـ٣، ١٩٦؛ الخاني، الحدائق، ص١٣٠.

٢٣٥ محمد أبو زهرة، الإمام الصادق، ص٣٨، ٢٥٣-٢٥٤.





وها هو «كليم الله» سيدنا موسى عليه السلام -وهو من «أولي العزم»- لم يقل يومًا: «يجب علي أن انشغل بقومي، أو التوراة تكفيني، أو أن الوحي يخاطبني، ولو طلبتُ العلم من الله فسيعلِّمني مباشرة»، بل كان عليه السلام يُظهر أشد التواضع، ويتَّبع أوامر الله جل جلاله، وبهذا كان مثالًا للبشر من بعده في كمال السلوك في هذا الموضوع.

وخير دليل على ذلك قوله: ﴿لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾، إن هذا التواضع الذي أظهره النبي موسى عليه السلام أمام الخضر هو خير قدوة لكل طالب علم ومعرفة.

ولو شاء الله عز وجل لالتقى موسى بالخضر عليهما السلام مباشرة، لكنه أراد أن يسيرا في طريق شاق إلى أن التقيا في النهاية، وهذا يعني أنه لا بد في هذا الطريق من العزم والهمة وبذل الجهد إضافة إلى «اللطف الإلهي».

وتشير هذه الحادثة التي جرت بين سيدنا موسى والخضر في الوقت ذاته إلى ضرورة أخذ العلم الباطني من عالِم يراعي أسباب هذا العلم وأصوله، أي إنه لا يمكن الوصول إلى هذا العلم دون أسباب ودليل ومرشد، والمستثنى الوحيد من هؤلاء هم مَنْ كانوا أمثال سيدنا أويس القرني أي «أويسي المشرب»، ونذكر هنا أن الوصول إلى المقصد في هذا الطريق يحتاج إلى عزيمة كبيرة وهمة عالية.

ومن ناحية أخرى، نجد أن طلب سيدنا موسى من الخضر عليه السلام العلم قد يثير في العقل السؤال التالي: «كيف لِوليٍّ أن يعطي درسًا لنبي من أولي العزم؟»

لذلك لا بد هنا من الإشارة إلى أن طلب سيدنا موسى عليه السلام العلمَ من الخضر لا يدل أبدًا على أن موسى عليه السلام لم يكن ذا علم ومعرفة، أو أن الله سبحانه لم يفض عليه من الكشف والإلهام، بل تدل على تلك الحالة التي يأخذ فيها المرء ممَّنْ هو أكمل منه في مجال معين.

فالمعماري «سنان» وهو واحد من أعظم المعماريين الذين عرفتهم الدولة العثمانية، كان يستعين ببعض كبار الفنانين والفنيين المختصين في الأمور الفنية





كالرخام وغيره، وهؤلاء كانوا أقل منه درجة وخبرة ودراية، وكانوا يعملون تحت إشرافه وتعليماته، أو أنه كان مشرفًا على الأعمال الإنشائية، وآخر مشرفًا على الأعمال الفنية، وثالث على الأعمال الزخرفية، وهكذا...

ولهذا لا يمكن القول إن الخضر عليه السلام أرفع درجة من سيدنا موسى عليه السلام لأنه صار معلِّمًا له لمدة محددة، ولا يمكن بالأصل إجراء مقارنة في رفعة الدرجة بينهما، لأن كلا منهما في واد مختلف عن الآخر، والحكمة من هذه الحادثة بينهما هي إظهار الحقيقة المطلقة للإنسانية جميعًا، هذه الحقيقة تقول إن المخلوقات كلِّها بما فيهم الأنبياء يقفون دائمًا عاجزين أمام العلم الإلهي.

والأنبياء هم من البشر الذين اختارهم الله ﷻ وخاطبهم بالوحي، ولا يمكن لعباد الله هؤلاء أن يرتكبوا الذنوب، بيد أنهم -بسبب طبيعة العجز البشرية فيهم- قد يقعون نادرًا في أخطاء تُسمى «هفوات»، فيذيقهم الله تعالى طعم العجز على هذه الصورة، كي يعلموا الأحكام من وراء ذلك أحيانًا، أو ليكونوا مثلاً للناس أحيانًا أخرى، ويربيهم بذلك الله ﷻ تربية نجهل ماهيتها وكيفيتها، وقد فهم موسى عليه السلام بعد هذه التجربة أن علمَ الله غيرُ محدود، أما علم البشر فهو علم يوصَف بالعجز والقصور، ورأى أنه ثمة الكثير من العلوم موجودة في هذا الكون لا يعلمها، فكانت هذه القصة عبرةً للبشر جميعًا حتى قيام الساعة.

والحق أن أنبياء الله تعالى على الرغم من نبوتهم وما عندهم من قدرات وصلاحيات كبيرة، يعلمون فقط بالمقدار الذي أنعم الله تعالى عليهم، ويطَّلعون على الغيب بالنسبة التي أكرمهم بها المولى جل جلاله، ولأن العلم اللدني هو علم وهبي، نجد أنه حتى الأنبياء يعلمون ما علَّمهم الله ﷻ، ويجهلون ما حجب عنهم، فحين طلب موسى عليه السلام العلم من الخضر، استخدم عبارة ﴿**أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا**﴾ وليس «مما عَلِمت»، أي إنَّ العلم يجب أن يُنسب إلى الله ﷻ لا إلى العباد، فالمنبع الـمُطلق للعلوم كلها هو الله جل جلاله، وإذا أحسن على عبد أحسن بالقدر الذي





يشاء، وييَسِّر مجموعة من الأسباب الظاهرية ليجعلها وسيلة لتحصيل بعض العلوم، في حين يمنح بعض العلوم لقلب عبد دون سبب.

ونحن نعلم أن العبد الصائم إذا أكل شيئًا سهوًا فإنه لا يفطر، والحال كذلك حين نسي سيدنا موسى وعده للخضر عليهما السلام فاعترض عليه، ومع ذلك استمرت صحبتهما، لكن سيدنا موسى عليه السلام جعل شرطًا لنيل العلم المحتمل بقوله بعد أن استحيا:

﴿**قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا**﴾ [٢٣٦]

مع أنه لم يكن مجبرًا على ذلك، فكانت النتيجة أن بقي علمه محدودًا.

يقول النبي ﷺ:

«**يرحم الله موسى، لوددت أنه كان صبر حتى يقصَّ علينا من أخبارهما**»[٢٣٧].

وهذا يعني أن الأساس في هذا الطريق هو أن يكون العبد من أهل الصبر والحذر.

ومن التعلقيات والشروحات التي قدمها أهل التصوف حول هذه القصة:

تشير الروايات أن الفتى الذي رافق سيدَنا موسى عليه السلام في رحلته هو ابن أخته يوشع بن نون، وهو من أوائل أصحابه الذين آمنوا بنبوته، وهو الذي صار خليفته بعد وفاته عليه السلام.

وحين هاجر النبي ﷺ اختار أبا بكر رضي الله عنه رفيقًا له في هجرته، وهو أفضل أصحابه وأمته أجمعين، والذي قال النبي ﷺ في حقه:

«**ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما**» [٢٣٨]

---

٢٣٦ سورة الكهف، آية: ٧٦.

٢٣٧ مسلم، الفضائل، ١٧٠؛ البخاري، التفسير، ١٨/ ٢.

٢٣٨ البخاري، أصحاب النبي، ٢.





وتُبرِز هذه الأمثلة أهمية الصحبة الحقيقية التي تبتغي رضا الله ﷻ أثناء السير في طريق القلب والروحانية.

إنَّ قصة سيدنا موسى عليه السلام هذه مليئة بالأسرار والحِكم، ومع ذلك لم تقدِّم لنا سوى بعض الأمثلة من محتوى العلم اللدني.



وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطَّت السماء وحُقَّ لها أن تئط، ما فيها موضع أربعة أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدًا لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا... ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله».

فقال أبو ذر رضي الله عنه بسبب خوفه وخشيته من الله ﷻ:

«لوددت أني كنت شجرة تعضد» (الترمذي، الزهد، ٦/ ٢٣١٢؛ ابن ماجه، الزهد، ١٩)

وقد عبَّر بعض الصحابة عن مشاعر العجز والحيرة والدهشة أمام عظمة الحقائق اللدنية بطرق مختلفة:

فسيدنا أبو بكر رضي الله عنه يقول:

«طوبى لك يا طير، والله لوددت أني كنت مثلك تقع على الشجرة، وتأكل من الثمر، ثم تطير وليس عليك حساب ولا عذاب، والله لوددت أني كنت شجرة إلى جانب الطريق مرَّ علي جمل، فأخذني فأدخلني فاه فلاكني» (ابن أبي شيبة، مصنف، جـ٧، ٩١)

وتقول أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها:

«وددت أني كنت نسيًا منسيًا».[239]

---

٢٣٩ البخاري، التفسير، ٢٤/ ٨؛ أحمد، جـ١، ٢٧٦؛ الحاكم، جـ٤، ٩.





إن السبب في كون الصحابة على هذه الحالة هو شعورهم بالعجز والخوف أمام عظمة الله تعالى وقدرته.

وكان الصحابي الحارث بن مالك الأنصاري ﵁ يمتلئ بالوجد لدى صحبة النبي ﷺ، ويحيا حالة تأمل واستغراق، وفي يوم من الأيام مرَّ بالنبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ: «**كيف أصبحت يا حارثة؟**»

قال: أصبحت مؤمنًا حقًا.

قال: «**انظرْ ما تقول؛ فإن لكل قولٍ حقيقة، فما حقيقةُ إيمانك؟**»

قال: عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي، وأظمأت نهاري، وكأني أنظر عرش ربي بارزًا، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها.

قال: «**يا حارثة، عرفت فالزم**» (الهيثمي، مجمع الزوائد، جـ١، ٥٧)

وقال النبي ﷺ في الحارث أيضًا:

«**مَنْ سرّه أن ينظر إلى من نوَّر اللهُ قلبَه، فلينظر إلى الحارث بن مالك**» (ابن حجر، الإصابة، جـ١، ٢٨٩)

ويصوِّر مولانا جلال الدين الرومي الحديث بين النبي ﷺ والحارث بلغة القلب فيقول:

يطلب الحارث ﵁ الإذن من رسول الله ﷺ بقوله: «هلَّا أشرح ما أراه؟» ثم يبدأ بالشرح:

«يا رسول الله، دعني أضع بين يديك صورة يوم المحشر الذي يؤمن به الناس أجمعين أن يكون غدًا، وأَكشِف عن أسرار الحشر والنشر كلها، وَمُرْني كي أمزق حجب هذه الأسرار، ولتضيء جواهر الحِكَم الإلهية داخلي كما تضيء الشمس في السماء!»





«يا رسول الله، مُرْني كي أبيِّن مَنْ هو كالذهب والألماس بين قذارة هذه الدنيا ومتاعها، ومن أصابه صدأ الكفر الحالك».

«وأُظهِر في ضوء نبوتك الأبدي هاويات النفاق السبعة».

«وأُظهِر للناس الثياب التي سيلبسها الأشقياء في الآخرة، وأُسمعهم أصوات الطبول التي ستُضرب لأجل الأنبياء».

«وأُريهم حوض الكوثر الفيَّاض، لعل رذاذ مائه يصل إلى وجوه الناس، وصوت خريره يداعب آذانهم».

«وأريهم كيف يركض العطاش إلى الحوض، فمناكبهم تزاحم مناكبي، وهتافهم يلاحق أذني».

«وأصحاب الجنة يصافح ويحضن بعضُهم بعضًا أمام عينيَّ بكل سعادة وفرح».

«وأصحاب النار يئنُّون ويصرخون في العذاب، حتى إن صراخهم هذا يصمُّ أذني!»

«هذه بعض من الإشارات خرجت من أعماقي، وأود أن أخبركم أكثر لكني أخشى من معاتبة رسول الله ﷺ!»

لقد قال الحارث ما قاله وهو مستغرق في حالة سُكر معنوية، فقدْ فَقَد وعيه وشعوره في ظل هذا الوجد، وكأنه آلَ إلى حالة يكشف فيها الأسرار كلها.

فأراد النبي ﷺ أن يوقظه من هذه الحالة فقال له:

«أفِق، واصمت!» ثم نكزه وقال:

«أفِق، والجم لسانك، فقد صرت إلى حالة تنطق فيها بما لا يجب أن يُنطق، وقد خرجت مرآة روحك من جسدك، ولا تنسَ أن كشفك عن الأسرار التي نلتها هو دليل عدم استيعابك لها، ولا تنسَ أن من أسماء الله (الستار)، فاعلم ذلك جيدًا ولا تضحِّي بسعادة هذه الصفة من أجل البوح بالأسرار ليس غير».





لقد كان لنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة في كل شيء، حتى في الحفاظ على تدفق الأسرار من قلبٍ أسكرته لذة الألطاف والمنح اللدنية، مهما كان صاحبها في ذروة الروحانية، فلا يخرج عن الحدود، ولا يحيد عن الطريق، ولا يتجاوز المعقول في مخاطبة الناس؛ لأن كل ذرة من ذرات هذا الكون تتوازن مع أخواتها بتوازن إلهي واعتدال رباني، ينبغي أن يحافظ عليها أهل الربانية أمام تجليات العالم الروحاني، وكان رسول الله ﷺ أحيانًا يمتلئ بالفيوضات المعنوية، فما كان من الممكن تحمُّل هذه الحالة لمدة طويلة، لا سيما حين ينزل الوحي عليه، حينها كانت تستقبله الرعدة، وتتقاطر حبات العرق كاللآلئ من جبينه، وكان حين يصل أحيانًا إلى مرحلة الفيض والاستغراق يضرب يده على فخذ عائشة ﵂ أحيانًا ويقول: «كلميني»، ليشتغل بكلامها عن عظيم ما هو فيه لقصور طاقة قالبه عنه فيرجع إلى حالته البشرية[٢٤٠].

وحين كانت الدنيا على وشك أن تغلبه كان يقول:

«يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها»[٢٤١]

فبذلك كان يحافظ على التوازن بين حالته البشرية والروحانية.

وكان رسول الله ﷺ معتدلاً في عالمه الداخلي إلى أقصى درجة، وكان سلوكه مع الناس في الخارج دائمًا سلوكًا معتدلا أيضًا، ولم يُعلِّم أحدًا الحقائق التي وهبها الله ﷻ له والتي تفوق إدراك العقل إلا لمنْ كان مؤهلاً لها، وبناءً على أهمية هذا الأمر كان سيدنا علي ﵁ يقول:

«حدثوا الناس بما يعرفون» (البخاري، العلم، ٤٩)

أي خاطبوا الناس بالقدر الذي تستوعبه عقولهم، لا بمستوى عقولكم.

---

٢٤٠ انظر: المناوي، فيض القدير، جـ٥، ٢٢٨.

٢٤١ أبو داوود، الأدب، ٧٨.





وفي سياق هذه الحقائق السرية يوضح أبو هريرة ﷺ أنه لم يروِ قسمًا من الأحاديث الشريفة لخوفه من عدم فهم الناس لها، إذ يقول:

«حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين: فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته قُطِعَ هذا البلعوم» (البخاري، العلم، ٤٢)

ويروى عن النبي ﷺ أنه قال:

«قام أخي عيسى ؈ في بني إسرائيل خطيبًا فقال: يا بني إسرائيل، لا تؤتوا الحكمة غير أهلها فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم» [٢٤٢].

ويقول المولى ﷻ في الآية الكريمة:

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (البقرة، ٢٦٩)



ولم يُقدِّم كبار أهل التصوف العلوم التي نالوها لذوي الإدراك المحدود؛ لأن هذه الأسرار التي يعجز العقل عن إدراكها يجب أن تبقى مخفية عمَنْ ليس أهلاً لها.

ومن عباد الله الذين أكرمهم الله تعالى بأسرار خاصة «أبو منصور الحلاج»، ولكنه حين أفشى جزءًا بسيطًا جدًا من تجليات قلبه أُهدر دمه، وأُقيم عليه حد القتل.

لقد كان الحلاج غارقًا في بحر الوحدة، وفي حالة وجد وسُكر شديدة، داخل دوامة من التجليات والفيوضات، حينها صرخ قائلاً: «أنا الحق»، فكان التصريح بمثل هذا السر باللسان أمرًا جعل الناس يقيسونه بحدود عقولهم، والعقل لا يمكن أن يقيس مثل هذا الأمر لدقة معناه.

٢٤٢ ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، ١، ٤٥٠، رقم: ٧٠٤.





وحال الحلاج هذا يمكن رؤيته لدى الكثير من أولياء الله تعالى، ولكنه لا يكون تحديدًا ولا تشخيصًا، بل هو حال مؤقت قد يظهر حين يفقد الولي حذره، ويفقد حالة التمكين أثناء كونه في حالة الفناء في الله، ولا يستطيع مراعاة العقل، وحين يغادر العقل عالم المقاييس الظاهرية، أي حين تنفد قدرته، يُرفع التكليف عنه شرعًا؛ لأن أول شروط التكليف الشرعي حسب المعايير الإلهية هو «وجود العقل»، ولا يمكن أن يكون هناك نصيب للعقل ولا تأثير له لدى النطق بمثل هذه الكلمات، فلا يمكن إذًا إدراك مثل هذه الأحوال بالعقل.

وتحدث هذه الأحوال حين يكون الجذب غالبًا، ويُطلَق على من يمرُّ بهذه الحالة اسم «المجذوب»[٢٤٣]، ومثل هذه الأحوال التي لا يمكن أن تدركها المقاييس الظاهرية يمكن أن يصفح عنها أهلها، لكن لا يمكن لوم عامة المسلمين إذا ما استنكروها وكرهوها، وعلى هذا الأساس قيل في الحلاج الذي ذكرنا كلامه وعاقبته أن: «كلا الطرفين كان محقًّا: الحلاج، ومن حَكَم عليه بالقتل»، ولهذا السبب كان «التمكين» من أكثر الأمور التي يوصي بها التصوف، وكان المقبول هو السعي لتكون جاذبًا لا مجذوبًا.

وتشير الروايات أنه حين وقف الجلاد أبو الحارث أمام الحلاج لتنفيذ الحكم، وضربه ضربة قوية هشَّم بها أنفه ووجهه، أطلق الشبلي في تلك اللحظة صيحة تمزقت منها جبته، ثم خرَّ مغميًا عليه.

---

٢٤٣ المجذوب: هو العبد الذي يضعف عقله أمام الجذب الإلهي، لكنه يبقى مرتبطًا بالمولى ﷻ في عالمه القلبي. وإذا كان المجذوبون غرباء في الحياة البشرية، فهم في مرحلة تجاوزوا فيها الكثير من الناس العاديين من ناحية الإدراك القلبي والباطني، وكأن إرادتهم وإدراكهم وفهمهم قد أصيب بصدمة كهربائية لا يطيقها أحد. وهؤلاء هم أمثلة حية للعجز البشري أمام تجليات الذات الإلهية.





كان هذا التجلي لدى الحلاج حالاً من الأحوال، وما إن ينتهي هذا الحال يبقى الحق حقًّا، والشيء شيئًا، ويقول الشيخ شبلي في ذلك:

«لقد مررت مع الحلاج بالمراحل نفسها، فنعتوني بالجنون وتركوني، أما الحلاج فقد نسبوا إليه العقل، فلهذا قتلوه».

ويقول شبلي أيضًا:

حين قُتل الحلاج زرت قبره في تلك الليلة، وصليت حتى الصباح، وناجيت ربي وقت السحر قائلاً:

(إلهي، لقد كان هذا العبد عبدًا مؤمنًا موحدًا عارفًا بك، فما حكمتك يا رب من هذه المصائب التي حلَّت به؟)

فغلبني النعاس في تلك الأثناء، ورأيت قيام الساعة، وسمعت الحق تعالى يقول:

(أنزلنا عليه البلاء لأنه كشف سرَّنا لـمَنْ ليس أهلًا له).

ونفهم من هذا الكلام أنه لا يوجد محذور في نيل سر الحقيقة بالفناء في الله، بل المحذور من إفشاء السر لـمَنْ ليس أهلًا له في حالة السُكر المعنوية التي تنتج عن نيل الأسرار، لذلك من الخطأ الكبير التكلم بالسوء عن أولياء الله والمتصوفة الحقيقيين، وذلك بتعميم حالات استثنائية مرَّ بها بعض المتصوفة بسبب عدم مراعاتهم لهذا المعيار وفرط نشوتهم، فالكلام بسوء عن العباد الذين يحبهم الله تعالى، وعدم تقدير قيمتهم أشد أنواع الجهل وانعدام البصيرة، إذ لا يمكن أبدًا أن يردهم أي مؤمن أبدًا.

فالأساس إذًا في هذا الطريق المعنوي هو التمسُّك بالمعايير الشرعية المقدسة، وعدم رفض الأسرار الأبدية، وهذا يقتضي أيضًا عدم الحديث عن الأسرار الخفية بين العبد وربه جلَّ وعلا.





وهذه كلها تجلياتٌ يعيشها العبد في حالات الاستغراق الروحية وفيما وراء قدراته العقلية، وحين يعود إلى حالة العقل السليم بعد تجاوزه للحالات الخاصة تغادر مثل هذه الشطحات مكمنها ليحل الهدوء من جديد.

ويُساق بعض أولياء الله إلى مجموعة من تصرفات غير معتادة نتيجة تأثير التجليات الاستثنائية التي تغلب على أرواحهم، لكن حين يعودون بوعي من العالم الذي ينعدم فيه العقل والإرادة يواصلون السير في طريق الاستقامة.

وحين سُئل الجنيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«إن بعض أولياء الله يخرجون عما هو معتاد بدخولهم في حالة الوجد، فماذا تقول فيهم؟»

أجاب قائلاً: «دعوهم وشأنهم، دعوهم فليرتاحوا في الطمأنينة التي وجدوها مع الله تعالى، فلا تلوموا أحوالهم إن لم تحرمها الشريعة قطعًا، ولْتعلَموا أن هذه الطريق قد أحرقت فؤادهم، وأتعبهم السعي والجهد، فتعرضوا للكثير من البلايا، وهم يقومون بتلك الأفعال كي يتجاوزوا الأحوال التي هم عليها، فلا ضير في ذلك».

وتشير الروايات إلى أن أبو منصور الحلاج قد دعا قبل قتله بالدعاء التالي الذي يُظهر إخلاصه والمرتبة المعنوية التي وصل إليها:

«اللهم هؤلاء عبادك قد اجتمعوا لقتلي تعصُّبًا لدينك وتقرُّبًا إليك، فاغفر لهم، إنك لو كشفت لهم ما كشفت لي لَمَا فعلوا ما فعلوا، ولو سترت عني ما سترت عنهم لَما كشفتُ سرك، يا ربي اعف عنهم، فهم مَنْ أوصلني إليك».

ونُقل عمَّنْ رأى حال الحلاج في العالم المعنوي قولُهم إنه حين عُلِّق الحلاج على الشجرة ليُصلَب جاءه إبليس فسأله:

«لقد قلْتَ (أنا) مرة، وأنا قلتُ (أنا) أيضًا مرة، فكيف تنزَّلت عليك الرحمات بينما نزلت عليَّ اللعنات!»





فأجابه الحلاج: «أنت بقولك (أنا) رأيت نفسك أعلى وأشرف من آدم، فأظهرت تكبرك، أما أنا فقد قلت: (أنا الحق)، فأفنيت ذاتي في الحق تعالى، إن التكبرَ الذي يُظهر الأنا علامةٌ من علامات جهنم، أما التخلص من الأنا، أي الفناء في الحق فيعني (المحوية)، فلهذا السبب نزلت الرحمات عليَّ، ونزلت اللعنة والذِّلة عليك».

ويُروى أن إبراهيم بن فاتك زار الحلاج يومًا، فنصحه قائلاً:

«يا بُنيّ إنّ بعض الناس يشهدون لي بالكفر، وبعضُهم يشهدون لي بالولاية، والذين يشهدون عليَّ بالكفر أحبُّ إليَّ وإلى الله من الذين يقرّون لي بالولاية». فقلت: «يا شيخ ولِمَ ذلك؟»، فقال: «لأنَّ الذين يشهدون لي بالولاية من حُسن ظنهم بي، والذين يشهدون عليَّ بالكفر تعصبًا لدينهم، ومَنْ تعصَّب لدينه أحبُّ إلى الله ممَنْ أحسن الظن بأحد».

ويقول مولانا جلال الدين الرومي الذي تجاوز بتجلياته تجليات الحلاج بكثير:

«لو علِم الحلاج بالتجليات بيني وبين ربي لرجمني هو بنفسه».

إن هذه الأحوال وما شابهها مظاهرُ لحالة الفناء في الله تعالى، ويوضِّح مولانا الرومي الفناء في الله تعالى عبر هذه التشبيهات:

«حين ترى نهر الحياة الذي لا حدَّ له، فامزج ماءك الموجود في الكأس، أي عمرك الفاني هذا، في ذلك النهر الأبدي! هل أتاك يومٌ رأيت فيه الماء يفر من النهر؟»

«وحين يمتزج ماء الكأس بماء النهر، يتخلص من وجوده هناك، ويكون ماء ذاك النهر».

«حينها تختفي صفة الماء الموجود في ذلك الكأس، ويبقى ذاته، وبعد هذا، لن ينقص ذلك الماء، ولن يتعكّر، ولن تخرج منه أية رائحة».





إن مولانا وأمثاله ممَنْ اتصل قلبهم باللهِ تعالى يصير سبحانه بصرَهم الذي يبصرون به، ويدَهم التي يبطشون بها؛ لأن كل إحساس وفكر متوجه لديهم إلى الحكمة الإلهية.

ويقول أحد المفكرين العاشقين لمولانا الرومي موضحًا عجز أكثر البشر عن إدراك أحوال مولانا القلبية:

«لقد استمعنا إلى صيحات الوجد الصادرة عن مولانا جلال الدين، ولكن لا مجال لنا أن نرى عمق بحر الطمأنينة التي سبر غورها، فما نراه هو ما خرج من عمق البحر وطفا على ظهر الماء، ولم نتنعَّم بعشق مولانا الرومي، بل بصيحات العشق التي نطق بها، وهذا كل ما استطعنا أن نعبِّر عنه بلساننا الملثوغ، فهو وحده من غاص في بحر الطمأنينة، وما بقي لنا إلا أصداءُ دوامةِ وَجْدِه وعشقه، وهيهات هيهات أن نكون مثل مولانا»[٢٤٤].

إنَّ حالة العشق والوجد والاستغراق هي تجلٍّ ربانيٌّ، كالبحر لا يَعلم كنوزَه وأسراره إلا أهلُه ممَنْ غاصوا في أعماقه.

ولنا أن نذكر هنا محي الدين بن عربي الذي عكس جزءًا من أسرار هذا العلم على السطور على شكل رموز، وقد كان ابن عربي ذا قدر كبير لدى أولياء الله، لأنهم رأوا في كلامه وشروحاته حقائق الأسرار التي لا مثيل لها، وأطلقوا عليه لقب «الشيخ الأكبر»، أما أولئك البعيدون عن العالم الباطني، فقد اتَّهموه بالكفر لأنهم لم يستطيعوا حلَّ هذه المعضلة.

وإذا لم يكن هناك صاحبٌ يستطيع تحمل الأسرار ويُؤتَمن عليها، فالصمت به أولى؛ لأنه ينبغي التكلم مع كل امرئ بما يبلغه عقله، أما ذكر الحكمة والمعرفة لـمَنْ لا يعرف شيئًا عن الحال يعدُّ ظلمًا للحقيقة.

٢٤٤ نور الدين طوپجي، مولانا والتصوف، ص١٣٩.





ويقول محي الدين بن عربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الأمر:

«مَنْ لم يألف أحوالنا، فلا يقرأنَّ كتبنا»

ويقول مولانا جلال الدين الرومي:

«لقد نطقت بالأسرار برموز غير جلية؛ لأن مَنْ يسعى إلى توضيح أكثر يُحرق لسانه، ومَنْ يستمع يحرق إدراكه».

وقد كتب مولانا الرومي كتابه «المثنوي» وقدمه للناس الذين يختلفون كثيرًا فيما بينهم في استعداداتهم وقابليتهم، ولكي لا يسير ذوو الإدراك السطحي في الطريق الخاطئ قام بشرح الحقائق المجردة والأسرار الإلهية التي يصعب فهمها من خلال قصص بسيطة مشخَّصة، أو أخفاها بستار الرموز فلا يعلمها إلا أهلها، وبذلك ستر دقائق المعاني الموجودة في «المثنوي» عمَّنْ لا يملك ذلك العمق القلبي.

ويقول مولانا رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«إن أبياتي ليست أبياتًا، بل عالماً مليئًا بالمعاني، وهزليَ ليس هزلًا بل تأديب؛ وقصصي ليست كلماتٍ بسيطةً عادية بل قصصًا تعليمية هدفها إدراك الأسرار وتوضيحها».

وعن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال:

«كنت أدخل على رسول الله ﷺ وهو وأبو بكر يتكلمان في علم التوحيد، فأجلس بينهما كأني زنجي لا أعلم ما يقولون»(٢٤٥).

فإذا كان ذلك هو موقف عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ من علوم وأعماق لم يبلغها عقله، وهو مَن هو فهمًا وإدراكًا وعبقرية ودينًا، فما بال أشخاصٍ عاديين تجاه هذه الكلمات والعلوم.

---

٢٤٥ انظر: أحمد بن عبد الله الطبري، الرياض النضرة، جـ٢، ٥٢.





وقياسًا على هذا المثال، كيف يدرك الأسرار اللدنية والمعاني الإشارية إنسان عادي؟

وهذه المجالس التي تُكشف فيها حقائق الأمور لا تُسطَّر أسرارها وإنما تتناقلها خواص الصدور، وتجعل في حرز عن العامة، فهي أمور لا يدركها إلا أهلها، ولا ينبغي أن يطلع عليها سواهم.

وهنا ندرك بعض أسباب قولنا (قُدِّسَ سِرُّه) عند ذكر أحد من أهل العلم اللدني، وهي تعني فيما تعني «طهَّر اللهُ عالمه الداخلي من كل الأدران المعنوية».



يوصف التصوف بأنه: «طريق العشق والمحبة»، ولذلك كان لزامًا على مَنْ يسير في هذا الطريق أن تكون «المحبة» دينه وديدنه ووسيلته وغايته، فالتصوف مكانه الطبيعي، وعالم القلوب مجاله الأساسي، والمحبة هي السبب وراء خلق الكون، لكن المحبة في بعض الأحيان تجعل المشاعر خارجة عن طور العقل، وعن طَول الإرادة، فيصعب حينها السيطرة على الجذب والوجد.

وخير مثال على المحبة الكبيرة التي كانت بين رسول الله ﷺ وجعفر الطيار رضي الله عنه هو الحادثة الآتية:

حينما عاد جعفر رضي الله عنه مع جماعة من الصحابة من الحبشة إلى المدينة، كان النبي ﷺ آنذاك في خيبر، فلم يسترح جعفر، بل تابع طريقه إلى خيبر بكل شوق وحنين، وحين رأى رسولُ الله ﷺ جعفرَ رضي الله عنه أمامه غمره السرور والفرح فقال:

«**ما أدري بأيهما أُسَرُّ أكثر: بفتح خيبر، أم بقدوم جعفر؟**» (ابن هشام، سيرة، جـ٤، ٣)

وأثناء عودة رسول الله ﷺ من «عمرة القضاء»[٢٤٦]، تداول مع أصحابه قضية

---

٢٤٦ عمرة القضاء: هي العمرة التي نوى رسول الله ﷺ أداءها في سنة صلح الحديبية، لكنه رجع حينها، وقضاها في السنة التي تليها.





رعاية فاطمة بنت حمزة سيد الشهداء، فكانت النتيجة أن يتكفل بها جعفر الطيار ﷺ، ثم قبَّل النبي ﷺ جعفر بين عينيه وقال له:

«**أشبهت خَلْقي وخُلُقي**» (البخاري، المغازي، ٤٣)

فَسُرَّ جعفر ﷺ بهذا المدح النبوي له وابتهج، ثم حجل حول رسول الله ﷺ كطفلٍ بريء[٢٤٧].

فإذا كان الإنسان ينتشي ويطرب حين يلقى ثناءً من أحد، فمِن باب أولى إذًا أن يتجرد عن عالمه الخارجي، ويدخل في حالة استغراق إذا ما نال الألطاف والتجليات الإلهية، ولكن المهم هو عدم الخروج عن المعايير التي تتطلبها الطبيعة البشرية، والمحافظة على التوازن والاستقامة أثناء الدخول في فيض الطرب والبهجة. والمحافظة على هذا التوازن تتطلب إرشاد أولئك الذين استطاعوا توحيد العلوم الظاهرية بالحياة الروحانية في الطرق الصوفية.

وما لم يصل أولئك المكلفون بمهمة الإرشاد إلى القدرة والمستوى اللازمَين في العلوم الظاهرية، فسيبقون معرَّضين للخطر في طريق العشق والمحبة، ولتفادي ذلك استمر المرشدون في بعض الطرق الصوفية مثل «النقشبندية» وكانوا من العلماء الذين لديهم العلوم الظاهرية، وبفضل هذا حافظوا على أنفسهم من الوقوع في المخاطر التي أشرنا إليها.

وتختلف أصول التربية لدى أولياء الله تعالى، ففي النقشبندية -التي تعد من أعظم الطرق الصوفية- يخضع السالك للتربية دون الوقوع في حالة الجذب، ويقول الشيخ عبد الخالق غجدواني:

«لو عاش الحلَّاج في زماننا وخضع لتربيتنا، لكنَّا حميناه بإذن الله ﷻ من الوقوع في حالة السكر».

---

٢٤٧ أحمد بن حنبل، مسند، جـ١، ١٠٨؛ ابن سعد، جـ٤، ٣٥؛ الواقدي، جـ٢، ٧٣٩.





وتعد زيادة حالات الإثارة بسبب شدة الجذب والطرب أحيانًا في بعض الطرق زلات أقدام من منظور الشريعة، وهذا ما يُظهِر المخاطر التي قد تنتج إذا زادت حالة الإثارة والبهجة المقبولة في أساسها.



ولقد علمنا من خلال سير وقصص الأنبياء عليهم السلام أنَّ لهم صفاتٍ مشتركة تجمعهم كالرسالة والنبوة والعلم، كما إن لكل منهم مزاياه وخصائصه التي يتفرد بها، فمنهم ذوو الطبيعة الجلالية، ومنهم ذوو الطبيعة الجمالية، لكنهم على الإجمال في درجةٍ من معرفة الله تعالى تتسامى كثيرًا عن درجة الإنسان العادي، وفي درجةٍ من الزهد في الدنيا والدنو من الله ترتقي كثيرًا على غيرهم من العباد، وهم مع ذلك كلِّه يدركون -حق الإدراك- مدى عجزهم تجاه علم الله تعالى ومعرفته التي تتسع أكبر مما يتسع أفق الكون على الذرة.

هؤلاء الأولياء مع اختلاف درجاتهم، تختلف كذلك مهماتهم وتكليفاتهم، فمنهم مَنْ يتوجه نشاطه إلى العوام في السير والسلوك، وتكون مهمتُه الإرشادَ والتربية، ويكون مثل معلم التلاميذ الذي يعرف الكثير من حقائق العلم لكنه يتظاهر أمامهم بأنه يعرف فقط ما يعلمهم إياه، وهي الحالة التي يُطلق عليها «تجاهل العارف».

ومع ذلك فيُسمَح لهم أن تنطلق من ألسنتهم وأفئدتهم ينابيعُ الحكمة، وتفيضَ منهم الأسرارُ على مَنْ حولهم من المريدين.

وهناك من الأولياء مَنْ لا يُكلَّفون بالإرشاد ولا ينطقون بالحكمة والأسرار، إنما هم في حالة دائمة من الصمت والانبهار أمام الحكمة الإلهية، وفي حالة دهشة وحيرة من عجائب العلم الإلهي.

وبعض الأولياء كانت تختلف الأحوال لديهم دائمًا، ويمرون بمراحل مختلفة في حياتهم، ولنذكر هنا مثالاً على هذه الأحوال من حال الشيخ محمد پارسا:





كان الشيخ محمد يقف قليلاً في ساحة المسجد بعد صلاة العشاء من أجل صحبة الناس، ثم يتوجه إلى داره، وأحيانًا يكون في حال مختلفة، فيقف في ساحة المسجد حتى أذان الفجر؛ حيث يدخل حالة دهشة وحيرة كبيرة، ثم يعود مرة أخرى إلى المسجد مع حلول الفجر.

وكذلك اختلف سلوك الأولياء لدى الموت مثلما اختلف نمط حياتهم وتصرفاتهم، فمولانا جلال الدين الرومي كان قد احترق بنار العشق الإلهي، ولذلك كانت ساعة موته بالنسبة إليه ساعة «وصال»، وليلةُ وفاته «ليلةَ العرس».

أما الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ فكان دائمًا في قلق دائم حول حالته التي سيكون عليها أثناء خروج نَفَسه الأخير، وذلك بسبب غلبة تجلي «خشية الله» عليه.

إنَّ كل ما نعرفه عن العلم اللدني مجرد انعكاسات قليلة على هذه الكلمات -بقدر ما تسمح الكلمات- من التجليات المأخوذة أولاً من حياة الأنبياء والقليل من تجليات حياة الأولياء، وبما أن هذا العلم المطلق علمٌ لا يعلمه إلا الله ﷻ، فإن إدراكه بمعناه الحقيقي يفوق حدود إدراكنا بكثير.







الفراسة هي القدرة على مشاهدة ما وراء الحُجُب، واستشفاف الأسرار المخفية، فمَنْ يبلغ بنظره جوف الصَّدفة لا بد أن يرى اللؤلؤة المكنونة داخلها.

 

٢. الفراسة

الفراسة هي النور الذي ألقاه الله ﷻ في قلوب عباده الذين يحبهم، أي وقوع أحوال مثل الحصافة، والعبقرية، والإحساس، والمعرفة، والفهم في القلب، على صورة استعداد للإدراك المعنوي، وبفضل الأحاسيس الصادقة والإلهامات الـمُتنزَّلة يمكن لـمَنْ لديه الفراسة أن يرى أعماق الحوادث، ويخمن ويشخص الأفكار في الأذهان والقلوب على حقيقتها.

يقول رسول الله ﷺ:

«**اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله**» (الترمذي، تفسير، ١٥)

ولا ريب أن مَنْ يحظى بالفراسة هو ذلك العبد الذي يتجرد عن غرور نفسه، وينظر بنور الله ﷻ، وثمة الكثير من الأمثلة على ذلك في تاريخ الإسلام:

يروى عن أنس بن مالك ؓ قال: دخلت على عثمان ؓ وكنت رأيت في الطريق امرأة تأملتُ محاسنها، فقال عثمان ؓ: «يدخل عليَّ أحدُكم وآثار الزنا ظاهرة على عينه»، فقلت: أَوحيٌ بعد رسول الله ﷺ؟ فقال: «لا ولكن تبصرة وبرهان وفراسة صادقة»[٢٤٨].

---

٢٤٨ القشيري، الرسالة، ص٢٣٨.





ومن المعلوم أن سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ كان يُصيب في رأيه في كثير من الأمور، وتأتي الآيات الكريمة موافقة لآرائه، يقول رسول الله ﷺ:

«لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدَّثون، فإن يك في أمتي أحد، فإنه عمر»

(البخاري، أصحاب النبي، ٦)

ويروي لنا أبو العباس بن المهدي الحادثة التالية:

«بينما كنت مسافرًا في الصحراء، رأيت رجلاً حاسر الرأس حافي القدمين يمشي أمامي، لا ماء لديه، فقلت في نفسي: كيف يصلي هذا الرجل صلاته؟ أظن أنه لا يعرف الوضوء ولا الصلاة، فقرأ عليَّ الرجل قول الله تعالى:

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾[٢٤٩]،

فأُغشي عليَّ وصُعقت في مكاني، فلما أفقت استغفرت الله تعالى بسبب نظرتي لهذا الرجل، وأكملت سفري. ثم رأيت الرجل مرة أخرى، فأحسست بالهيبة منه، ووقفت مكاني، فتوجه الرجل إليَّ وتلا عليَّ قوله تعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾[٢٥٠]، ثم اختفى عن ناظري، وما رأيته بعدها».

ويقول ذو النون المصري رَحِمَهُ اللَّهُ:

«رأيت يومًا شابًا عليه ثياب مهترئة مرقعة، فنفرت نفسي منه، لكن قلبي كان يشهد على أنه ولي، وبينما أنا على هذه الحال، بين ما تراه نفسي وما يراه قلبي، اطَّلع الشاب على سري وقال لي:

(يا ذا النون، لا تنظرنَّ إلي بعينٍ ترى اهتراء ثيابي، واعلم أن اللؤلؤة مكنونة في الصدفة)، ثم اختفى من ذلك المكان».

---

٢٤٩ سورة البقرة، الآية: ٢٣٥.

٢٥٠ سورة: الشورى، الآية: ٢٥.





وفي يوم من الأيام حضر شاب إلى مجلس الشيخ عبد الخالق غجدواني -وكان من أولياء الله- وكان هذا الشاب يخفي نصرانيته، فسأل الشيخَ: «ما سر الحديث الشريف: **(اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله)**».

فأجابه الشيخ عبد الخالق غجدواني:

«أخرِج ذلك الزنار من خصرك (أي حُلَّ علامة الكفر التي يضعها النصارى) وأسلِم».

فنطق الشاب بالشهادتين أمام ما رآه من فراسة الشيخ غجدواني، ودخل الإسلام. (جامي، نفحات الأنس، ص٥٢٤)

ويُروى أيضًا أن الجنيد البغدادي رحمه الله قد عرف بفراسته شابًا كان متنكِّرًا بزي إسلامي، ورأى أنه سيسلم في أقرب وقت.

والخلاصة أن الفراسة هبة إلهية تزداد وتنقص بحسب درجة الإيمان والتقوى في القلب.

يقول شاه بن شجاع الكرماني (توفي قرابة ٢٧٠ هـ) وكان من أبناء الملوك، مشمِّرًا لحياة الزهد، مشهورًا بفراسته الحادة:

«مَنْ صرف بصرَه عن المحارم وأمسك عن الشهوات، وعَمَر باطنه بدوام المراقبة وظاهره باتباع السُنة، وعوَّد نفسه أكل الحلال لم تخطئ فراستُه» (أبو نعيم، الحلية، جـ١٠، ٢٣٧)







نسأل الله لنا ولكم دوام الاستقامة، فعليكم بالسعي الحثيث في تحصيل أسبابها، فهي خير من ألف كرامة.

(مولانا خالد البغدادي)

 

٣. التصرف والكرامة

إن الله ﷻ -صاحب القدرة المطلقة- إذا أراد شيئًا، فإنما يقول له «كن» فيكون، وقد أودع ربنا ﷻ بمقتضى إرادته في بعضٍ من عباده القدرة على التصرف ببعض الحوادث، وهذا التصرف في الواقع لا يمكن أن يتحقق دون تدخُّل الله خالق كل مخلوق، وقد جعل الله تعالى العبد وسيلة في هذا التصرف، كما هو الحال مع الملائكة الأربعة العظام:

ولنذكر هنا هؤلاء الملائكة ومهماتهم: فجبريل عليه السلام مكلَّف بإبلاغ الوحي للأنبياء، وميكائيل عليه السلام بتسيير وإدارة أحداث الطبيعة، وعزرائيل عليه السلام بقبض الأرواح، وإسرافيل عليه السلام بالنفخ في الصور.

ولا ريب أبدًا أن المولى جل جلاله قادر على تنفيذ هذه المهمات على أكمل صورة دون الحاجة إلى هؤلاء الملائكة، لكن قضت الإرادة الإلهية أن تكون لهؤلاء الملائكة تلك الوظائف والصلاحيات، وتنبع قدرة هؤلاء الملائكة وقوتهم -في الأصل- من قدرة الله ﷻ، وهذه القوة ما هي إلا قوة منحها الله ﷻ لهم، وقوة جميع المخلوقات وصلاحياتها على هذا النحو.





وقد منح الله ﷻ أنبياءه أيضًا بعض الصلاحية في التصرف، ومن أشهر هذه الصلاحيات معرفة سيدنا سليمان عليه السلام بلغة الحيوانات، وتصرفه بالرياح، وحكمه الجنَّ.

إن المعجزة والتصرف والكرامة أمور تخضع تمامًا لإرادة الله وأوامره وقدرته، إذ لا يتحقق شيء خارج إرادته سبحانه، أي إذا لم يُرِد الله شيئًا فلا يمكن للمَلَك أو النبي أو الولي القيام به.

وعباد الله تعالى الصالحون وأولياؤه المقربون لا تقع في نفوسهم أدنى رغبة في القيام بأصغر تصرف في غير رضا الله تعالى أو على غير مراده سبحانه؛ بل يفضلون أن تسيل دماؤهم هدرًا، وتتقطع أوصالهم إربًا على أن يحيدوا عن رضاه تعالى قيد أنملة، فغاية الغايات لديهم هي السير على هداه، ونيل رضاه في كل لمحة ونَفَس.

ويهب الله تعالى لعباده الذين اختارهم المعجزةَ والكرامة والتصرف بالمقدار الذي يحدده، فقد أعطى ﷻ الهدهد التصرف الذي لم يعطه لسيدنا سليمان حين نقل له خبر بلقيس، وأشار إلى المكان الذي يمكن أن يخرج منه الماء ليلبي حاجة الجيش المحتاج إلى الماء.

ولم يكن سليمان عليه السلام هو الذي أحضر عرش بلقيس، بل عبد صالح عالمٌ كان في مجلسه[٢٥١].

وموسى عليه السلام الذي كان من أولي العزم صار طالبًا عند العبد الصالح الخضر عليه السلام، فتعلم منه العجائب والغرائب التي لم يعرفها، وحتى تلك التي لم يستطع تحملها[٢٥٢].

---

٢٥١ انظر: النمل، ١٧-٤٠.

٢٥٢ انظر: الكهف، ٦٠-٨٢.





وقد وهب المولى ﷻ ذا القرنين عليه السلام الكثير من التصرف، فبعد أن انتهى من بناء السد المشهور بقوة التصرف التي أكرمه بها الله تعالى، بيَّن أن كل شيء بيد الله سبحانه:

﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا. قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ (الكهف، ٨٣-٩٨)

وكان لإمام الأنبياء محمد ﷺ الكثير من الصلاحيات الاستثنائية.

وقد منح الله تعالى بعضًا من هذه الألطاف للعباد المختارين من أمة سيد الأولين والآخرين، فقد روي مثلاً الكثير عن أحوال عبد القادر الجيلاني وأحمد الرفاعي وأمثالهما من الأولياء الكبار، وما كان عندهم من تصرفات وكرامات في حياتهم وحتى بعد انتقالهم إلى رحمة الله.

ولا يمكن أن يحدث التصرف بإرادة الفرد فقط، بل لا بد من دخول تجلي صفة الله «الخالق» في ذلك الفعل كي يتحقق، كما هو الحال في جميع الوقائع، وهذا يعني أنه لا فرق بين التصرف وغيره من الحوادث سوى أن حصول التصرف هو حصولٌ استثنائي، أي إنه غير ميسَّر لكل عبد من عباد الرحمن.



أما الكرامة التي هي نوع من أنواع التصرف، فهي تلك الحوادث التي تظهر -بكرم الله تعالى- على أولياء الله الذين وصلوا إلى درجة كاملة من الإيمان، والمعرفة، والتقوى؛ وهي حوادث ميتافيزقية خارقة للعادة، ولا يمكن لقوانين الطبيعة أن توضحها وتفسرها، وهذا هو القسم الصوري للكرامة.

بيد أن الكرامة الأساسية كما يراها أولياء الله تعالى هي في العيش باستقامة.

ويختلف أولياء الله تعالى عن سائر الناس من حيث رؤيتهم، وتفكيرهم، وحتى سلوكهم، وذلك نتيجة الصلاحيات المعنوية التي أنعم الله تعالى عليهم بها.





يقول الله تعالى:

﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ (ص، ٢٨)

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (الجاثية، ٢١)

ويمكننا أن نفهم من هذا التعريف أن الكرامات التي تظهر على أولياء الله على قسمين:

١. **الكرامات المعنوية**: وهي الوصول إلى درجة معنوية سامقة بقطع المراحل في العلم، والأخلاق، والعبادات، والمعرفة، والتقوى، ثم العيش في ضوء الآية الكريمة:

﴿فاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾[٢٥٣] أي إن الكرامة المعنوية هي الاستقامة.

ولا يمكن نيل هذه الكرامات بالعقل والتفكر، فالله ﷻ يكرم بها عباده المختارين فقط.

٢. **الكرامات الكونية الصورية**: وهي خوارق العادات الظاهرة في العالم المادي مثل طي المكان، وجلب أشياء من بعيد، وتسخير الحيوانات الوحشية، وما شابهها من خوارق.

ولا يهتم أرباب التصوف الحقيقيون كثيرًا بمثل هذه الكرامات؛ لأن إظهار مثل هذه الكرامات ليس ضرورة من ضرورات الولاية، حيث إن الله ﷻ يُكرّم بعض عباده المختارين بمثل هذا النوع من التصرف، ولا يُسرُّ أصحابها بمثل هذا النوع من الكرامات ما لم تكن ضرورية، وإظهارها هو آخر ما يتمناه الولي؛ لأنها

---

٢٥٣ هود، ١١٢





تأتي مصحوبة بدهشة العامة وإعجابهم وثنائهم، فيبدأ حينها الجُهَّال من هؤلاء العامة بتوقع كل شيء من هؤلاء الأولياء.

وعلى الرغم من أن الناس يُقبلون على النوع الثاني من الكرامات، إلا أن الكرامة الحقيقية المقبولة هي النوع الأول، فأهل التصوف متفقون على أن:

«الاستقامة عين الكرامة»

وسعي السالك إن لم يكن باستقامة فهو سعي لا فائدة منه.

وفي المكتوب الذي بعثه مولانا خالد البغدادي لأحد طلابه:

«نسأل الله لنا ولكم دوام الاستقامة، فعليكم بالسعي الحثيث في أسبابها فهي خير من ألف كرامة، وأوصيكم بالاشتغال بإحياء السُنن السَنِيَّة، وقمع البدع الردية، ونَشْرِ العلوم بالإخلاص، والتمسك بآداب ساداتنا الخواص، ونفي الوجود، وبذل الموجود، والصبر على المفقود، والتبتل إلى الملك المعبود، وتذكر هذا المسكين بالدعوات الخيرية على الدوام، والسلام في البدء والختام»[٢٥٤].

وفي يوم من الأيام دار الحديث التالي بين الشيخ أبي يزيد البسطامي وطلابه:

- سمعنا أنك تمشي على الماء!

- والقشة تمشي على الماء.

- وتطير في الهواء!

- والطير يطير في الهواء.

- وتزور الكعبة في ليلة!

- والجان أو الشيطان يذهب في ليلة من الهند إلى جبال ديماوند في بلاد فارس.

---

٢٥٤ أسعد صاحب، بغية الواجد في مكتوبات حضرة مولانا خالد، ص٢٦٧، رقم: ٩٨.





- فما عمل أرباب القلوب إذًا؟
- ربط قلوبهم بالله ﷻ لا بسواه[٢٥٥]!

إنَّ للكرامات غايةً سامية، وهي توجيه الناس نحو الاستقامة عبر «تأثير الصدمة» إذا جاز التعبير، فالدين عبارة عن تكليف إلهي، وسيستمر بهذه الصفة حتى قيام الساعة، أما خوارق العادات فهي تضر بالتكليف في الدين، لذا لم يلجأ الأنبياء إلى المعجزات، ولا يظهر الأولياء الكرامات مالم يُجبروا على ذلك.

إن ما ينتج عن الكرامة الحقيقية بصورة عامة هو ما يلي:

١. تأديب النفس.
٢. تطهير القلب من الطبائع والميول السيئة، وتزيينها بالفيوضات الإلهية.
٣. تجلية الأسرار والحِكم للقلوب.

ومن أهم الوسائل في إظهار الكرامات هو الاسم الأعظم الذي علَّمه الله ﷻ عبده، وجعله سرًّا بينهما، ولنتطرق هنا قليلاً إلى موضوع الاسم الأعظم الذي يحتل موقعًا مهمًّا في بحث الهبات الإلهية.

الاسم الأعظم هو اسم من الأسماء الإلهية التي إذا ما دُعي به سبحانه كان الدعاء مُجابًا، ولكن معرفة الاسم الأعظم من بين أسماء الله ﷻ هو سرٌّ وردت فيه روايات كثيرة، ومن أقوى الآراء حول هذا الموضوع الرأي الذي يقول أن لفظ الجلالة «الله» هو الاسم الأعظم، فهذا اللفظ هو اسم ذات المولى ﷻ، وفيه تجتمع الأسماء كلها.

ولنا أن نذكر هنا أحد الآراء حول هذا الموضوع:

لقد وضع الله ﷻ أشمل وأعمَّ تجليات أسمائه الحُسنى في «الإنسان»، لأنه أكرمه من قدرته حين نفخ فيه من روحه، والإنسان الكامل هو ذلك الإنسان الذي

---

٢٥٥ عطار، تذكرة، ص٢٠١؛ سراج، اللمع، ص٣٧٩؛ قاسم عباس، أبو يزيد، ص٩٨.





وصل إلى سعادة التخلُّق بأخلاق الله تعالى، وذلك من خلال إخراج الأسماء الإلهية الموجودة في فطرته من القوة إلى الفعل، ولذلك يمكن القول إن الاسم الأعظم هو ذلك الاسم الذي يغلب تجليه في العبد سائرَ الأسماء الأخرى، أي إذا كانت مشاعر الرحمة والرأفة هي الظاهرة على العبد، فهذا يعني أن تجلي اسمَي «الرحمن» و«الرحيم» هو الحاكم والمسيطر على ذلك العبد، فيمكن القول حينئذ إن هذين الاسمين يكوِّنان الاسم الأعظم لمثل هذا العبد، والمهارة الحقيقية هي جعل مقتضى الأسماء الحسنى حالةَ أخلاق يعيشها المرء كل يوم، والكثير من الناس يقرأ الاسم الأعظم من الكتب وعن ظهر قلبه ولا ينتفع به، وفي تلك الحالة سيكون من العبث انتظار استجابة الدعاء؛ لأن اللسان ينطق بـ «يا رحمن، ويا رحيم»، في الوقت الذي لا يحتوي القلب في داخله على أية ذرة من الرحمة.

ومن القصص المعبرة في هذا الموضوع قصة سيدنا علي رضي الله عنه والأعرابي:

جاء أعرابي فقير إلى سيدنا علي وطلب منه صدقة، وما كان لدى سيدنا علي رضي الله عنه آنذاك أي شيء يعطيه، فأخذ قبضة من رمل وقرأ عليها، ثم نفخ فيها، ثم وضعها في يد الأعرابي ذهبًا، فدُهش الأعرابي من ذلك، وتوسَّل إلى سيدنا علي أن يخبره كيف فعل ذلك، وماذا قرأ على قبضة الرمل، فأجابه سيدنا علي بكل هدوء بأنه قرأ «سورة الفاتحة»، ففرح الأعرابي بذلك، ثم أخذ قبضة من الرمل، وبدأ يقرأ الفاتحة، وينفخ في قبضته، غير أن الرمل بقي رملاً، ثم سأل الأعرابيُ عن الحكمة في هذا الأمر، فأجابه سيدنا علي كرَّم الله وجهه: «الفرق في القلب».

ويروي مولانا في كتابه المثنوي القصة التالية:

صحب رجل سيدنا عيسى عليه السلام في سفره، وأثناء سيرهما، رأى هذا الرجل عظامًا على جانب الطريق، فتوسل إلى سيدنا عيسى قائلاً:

«أعلمني الاسم الأعظم حتى أُحيي هذه العظام».





فأجابه سيدنا عيسى:

«هذا ليس من عملك، فإحياء الموتى باسم الله الأعظم يتطلب نفسًا أطهر من قطرات المطر، وعبودية تفوق عبودية الملائكة، إن الاسم الأعظم بحاجة لقلب طاهر نقي، ولسان لا تشوبه شائبة، فمثل هذا العبد لا يتلوث بالحرام، ويكون كالملائكة طاهرًا من الذنوب والمعاصي، وحين يكون قلب العبد طاهرًا يغدو دعاؤه مقبولاً، ويجعله المولى ﷻ أمينًا على كنوزه وأسراره، ولنفرض أنك تمسك عصا موسى بيديك، فهل لديك قوته لتصير العصا حية تسعى، ثم تكون قادرًا على الإمساك بها؟ كيف لك أن تكون مثله وهو بنفسه قد خاف حين صارت العصا حية، فقال له المولى ﷻ:

﴿يَا مُوسَى لَا تَخَفْ﴾ (٢٥٦).

والحالة الآن لا تختلف، فما فائدة أن تقرأ وتحفظ الاسم الأعظم إن لم يكن فيك نفس عيسى؟»

لكن هذا الغافل لم يكتفِ بذلك، بل قال:

«يا عيسى، إذا لم يكن لدي الاستعداد لذلك، ليتك تقرأ أنت على هذه العظام!»

فتعجب سيدنا عيسى عليه السلام من كلام هذا الأحمق، وقال:

«يا رب، ما حكمة هذه الأسرار كلها؟ ما سبب ميل هذا الأحمق إلى الجدال إلى هذه الدرجة؟ يسعى إلى إحياء جسد عبد آخر، وقلبه الذي بين جنبيه قلب ميت، فالميت الحقيقي هو هذا، وليست تلك العظام، فبدلًا من أن يدعو لإحياء قلبه، يسعى لإحياء غيره، إنها غفلة ما بعدها غفلة!»

---

٢٥٦ النمل، ١٠.





ولأن أولياء الله تعالى قد وصلت قلوبهم إلى درجة راقية من النضج المعنوي فإن هذه الكرامات لا تترك فيهم أثرًا من كبر ولا غرور، ولا تزيد اطمئنانهم إلى ضمان المصير؛ بل لا تزيدهم إلا تواضعًا وشكرًا، واحتقارًا للنفس وصبرًا، وشعورًا بالعجز أمام كرم الله وقدرته، وخوفًا من ابتلاء الله تعالى وفتنته، ويصير حالهم هذا منبعًا للفيوضات خلال المجاهدات لأولياء الله الحقيقيين.

ولنا في قصة بلعام بن باعوراء العبرة في هاوية الأولياء وسقوط العلماء، فما أشهره في بني إسرائيل بالعلم والولاية ومعرفة اسم الله الأعظم، لكنه رسب في الاختبار ولم يسلم من الكبر والغرور، وسقط في الهاوية، ولم يبق له بعد فتنته شيء من العلم ولا الولاية ولا حتى الإيمان، وحوَّلته الفتنة من قطب إلى كلب، أو كما وصف القرآن الكريم حاله، فقال:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ. وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الأعراف، ١٧٥-١٧٦)

من أجل هذا، يُعد الثناء الزائد على الولي صاحب الكرامة خطرًا كبيرًا عليه،

وهذا الخطر هو أحد الأسباب التي تجعل من أولياء الله تعالى يجتنبون إبراز الكرامات، فالكرامة ليست نهاية المراتب، ولا تُظهِر درجة الولي المعنوية، ويعلم أولياء الله جيدًا أن لا أحد في هذه الدنيا يضمن الآخرة غير الأنبياء، فإن الرجل يعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها غير باع أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة، فيدخلها، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها غير ذراع أو ذراعين، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل





أهل النار فيدخلها[٢٥٧]، فلذلك على كل مؤمن أن يجعل الآية الكريمة التالية دستورًا له في حياته:

﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (الحجر، ٩٩)

ويبقى القرآن والسُنة بالنسبة إلينا المعيارَين الوحيدَين اللذَين نحتكم إليهما أمام مثل هذه الألطاف الإلهية التي تأتي على شكل كرامات، كما هو الحال في كل أمر أو موضوع يُعرض علينا، ولا بد أن نعلم أيضًا أننا لا نستطيع إنكار وجود الكرامات؛ لأنها حقيقة واقعة.

ولنذكر هنا بعض الأدلة على الكرامات من القرآن الكريم:

منها قول آصف وزير سليمان عليه السلام حين أراد أن يأتوه بعرش بلقيس ملكة سبأ:

﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾[٢٥٨] وقد حقق ذلك بالفعل.

وكان زكريا عليه السلام مكلَّفًا بالسيدة مريم التي نذرت نفسها لعبادة الله في المحراب، فكان في كل مرة يدخل عليها يجد عندها أنواعًا مختلفة من الأرزاق، فسألها راغبًا في معرفة الحكمة وراء هذا: ﴿يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا﴾، فأجابته السيدة مريم: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ (آل عمران، ٣٧)

ومن الأدلة على الكرامات في القرآن الكريم ما نقرؤه في سورة مريم في الآيتين اللتَين تتحدثان عن الرزق الذي كان يأتي مريم من عند الله عز وجل.

﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِياًّ. وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِياًّ﴾ (مريم، ٢٤-٢٥)

---

٢٥٧ البخاري، القدر، ١؛ مسلم، القدر، ١؛ الترمذي، القدر، ٤.

٢٥٨ النمل، ٤٠.





أما الأدلة من السُنة فهي كثيرة، منها:

قول رسول الله ﷺ:

«**لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى ابن مريم، وصاحب جريج، وصبيّ...**» (٢٥٩)

وسرد قصصهم.

وفي الحديث الصحيح يُخبر النبي ﷺ أصحابه قصة النفر الثلاثة الذين كانوا يتماشون فأخذهم المطر، فمالوا إلى غار في الجبل، فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل فأطبقت عليهم، فقال بعضهم لبعض: انظروا أعمالاً عملتموها لله صالحة، فادعوا الله بها لعله يفرجها، فكانت النتيجة أن خرجوا من الغار بفضل الكرم الإلهي(٢٦٠).

وعن أنس رضي الله عنه:

«أن رجلين من أصحاب النبي ﷺ خرجا من عند النبي ﷺ في ليلة مظلمة، ومعهما مثل المصباحين يضيئان بين أيديهما، فلما افترقا صار مع كل واحد منهما واحد حتى أتى أهله»

وكان هذان الرجلان هما أسيد بن حضير وعباد بن بشر(٢٦١).

وحين أسر مشركو مكة خبيبًا رضي الله عنه وجدوه يومًا يأكل قطفًا من عنب، وما بمكة من ثمر، وكان هذا مثالاً على الكرامات التي كان يحظى بها الصحابة. (البخاري، الجهاد، ١٧٠؛ المغازي ١٠، ٢٨)

وتشير الروايات إلى أن سيدنا عمر رضي الله عنه بينما كان على المنبر يخطب الناس، جعل ينادي: «يا سارية، الجبل، الجبل». وما كان لندائه هذا أية علاقة بخطبته، إذ

---

٢٥٩ انظر: مسلم، البر، ٨.

٢٦٠ انظر: البخاري، الأدب، ٥؛ الأنبياء، ٥٣؛ الذكر، ١٠٠

٢٦١ انظر: البخاري، الصلاة ٧٩، المساجد ٧٨، المناقب ٢٨، مناقب الأنصار ١٣.





كان سارية حينئذ يحارب أعداء الله في مكان يبعد عن المدينة مسافة شهر، إلا أن المولى جلَّ جلاله قد أسمع سارية صوت عمر ﵁. (ابن حجر، الإصابة، جـ٢، ٣)

وعن سعيد بن المسيب قال: لو رأيتني ليالي الحرة[٢٦٢]، وما في المسجد غيري، ما يأتي وقت صلاة إلا سمعت الأذان من القبر، ثم أقيم فأصلي[٢٦٣].

وكان التابعي مطرف بن عبد الله بن الشخير إذا دخل بيته سبَّحت معه آنيةُ بيته، وكان مطرف مرة يمشي مع أصحابه في ليلة ظلماء فقال له الغلام: «لا نبصر شيئًا»، فأضاء له مثل السراج على طرف سوطه[٢٦٤].

وثمة الكثير من الأمثلة المشابهة في عصر الصحابة والتابعين.

ومن ناحية أخرى، من الممكن أن تصدر خوارق للعادات -تشبه كرامات الأولياء- من الكفار والفسَّاق والمتمشيخين الذين يدَّعون الولاية وهم بعيدون عنها، وتُطلق كلمة «استدراج» على خوارق العادات هذه التي تناسب ادعاءاتهم.

وتتحقق مثل هذه الأحوال بواسطة مجموعة من الرياضات الروحية، أي إنه من الممكن إخراج بعض الاستعدادات الروحية من القوة إلى الفعل عبر تأثيرات تخرج عن إطار الدين، فيمكن مثلاً للعُبَّاد الهنود الوصول إلى القوة الروحية عبر ممارسة الرياضات، ويمكن أحيانًا أن يكون ذلك سحرًا أو استخدامًا

---

٢٦٢ وقعة الحرة: هي المعركة التي دارت بين أهل المدينة وجيش يزيد في الحرة (٦٣/٦٨٣). وقد ارتكب جيش يزيد الذي دخل المدينة المنورة الظلم فيها، واستشهد آنذاك الكثير من الصحابة وحفظة القرآن.

٢٦٣ الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ٤، ٣٧٥؛ ابن تيمية، الفتاوى الكبرى، جـ١١، ٢٨١.

٢٦٤ أحمد، الزهد، ص١٩٦؛ أبو نعيم، الحلية، جـ٢، ٢٠٥؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ٦، ٤٨١؛ ابن كثير، البداية والنهاية، دار الحجر، ١٤٢٤، جـ١٢، ٤٠٠؛ ابن تيمية، الفتاوى الكبرى، جـ١١، ٢٨١.





«للخدَّام»[٢٦٥] من الجن، ويمكن فهم الفرق بين خوارق العادات هذه والكرامات عبر المعرفة والعلم، ولا بد من القول هنا إن مثل هؤلاء يعيشون حياة تخرج عن إطار التقوى، وأول نقطة يجب الانتباه إليها هي أنهم لا يتَّبعون سُنة رسول الله ﷺ.

ويقول الجنيد البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

«إذا رأيتم الرجل يطير في الهواء، ولا يتَّبع الكتاب والسُنة، فاعلموا أنه استدراج».

إن مَنْ يكرمه الله ﷻ بقدرته على إجراء خوارق العادات لا يكون شخصًا يُظهر هذه الكرامات ويتفاخر بها، ولا يُظهر أولياء الله هذه الكرامات ما لم يكونوا مجبرين على ذلك؛ لأنهم منزهون عن التباهي والرياء، فهم قدوة للناس بكمال أخلاقهم البشرية، كما كان حال النبي ﷺ الذي بُعث ليكون أسوة للبشرية جمعاء، وكان يتعامل مع الناس وفقًا لظروفهم البشرية، ولا يُظهِر المعجزات إلا نادرًا -بإذن الله- حين تقتضيها الحاجة.

ولا ينحرف أولياء الله -ولو قيد أنملة- عن طريق رسول الله ﷺ، ويكفي الانتباه إلى هذا الأمر فقط للتمييز بين الكرامة والاستدراج.

وقد كان فرعون من أصحاب الاستدراج، فلم يعانِ من ألم في رأسه طوال عمره الذي بلغ أربعمائة سنة، وكانت أسنانه كلها سليمة، ويُروى أنه حين كان يعدو بفرسه في المنحدرات، كانت قامتا الفرس الأماميتان تطولان.

إن الاستدراج يصيب الكافر والفاسق بالغرور والكِبر، فيكون ذلك هو سوء عاقبتهم بإملاء الله تعالى لهم وكيده عليهم، وقد قال تعالى:

---

٢٦٥ من الممكن جعل جني تحت الطاعة واستخدامه خادمًا عبر بعض القراءات الخاصة بذلك، ويطلق على هؤلاء الجن اسم «خدَّام». ويستطيع الخدام تنفيذ أوامر الشخص الذي يطيعونه بحسب قدرتهم واستعدادهم.





﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ. وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ (القلم، ٤٥-٤٤)

فحين ضرب موسى عليه السلام البحر، فشُقَّ الطريق أمامه بإذن الله تعالى، توجه فرعون الذي كان يلاحقه إلى جنوده وقال لهم:

«أرأيتم؟ ها قد شُقَّ لي طريق في البحر لعظمتي» لكنه حين مشى في ذلك الطريق، عاد البحر إلى حاله، فهلك فرعون مع جنوده.

وقد أخبرنا النبي ﷺ في كثير من أحاديثه الشريفة أن الدجال سيسعى لخداع الناس بإظهار الكثير من الاستدراج[٢٦٦].

وثمة أحوال ظاهرة تكون عكس الاستدراج الذي يدعيه صاحبه، ويطلق عليه اسم «الإهانة»، مثل ما حدث مع مسيلمة الكذاب الذي ادَّعى النبوة، فحين تفل في ماء البئر مدعيًا أنه سيجعل البركة فيه جفَّ ماء البئر كله.

ومثلما كان ممكنًا تحقيق التصرف والكرامات في عصر النبي ﷺ وأصحابه الكرام، كذلك من الممكن تحقيقها أيضًا في العصور اللاحقة، فالتصرف والكرامات التي أظهرها الأولياء بغرض توجيه إرادة الناس كانت ببركة النبي الذي اتبعوه طبعًا، وفي الوقت ذاته استمرارًا نوعيًّا لمعجزاته.

ومن الحقائق التاريخية التي لا ينكرها أحد أن التصرف والكرامات التي وقعت في عصر السعادة (عصر النبي ﷺ وأصحابه) أو في العصور اللاحقة كانت وسيلة لهداية الكثير من البشر، ورُبَّ شاهد على مثل هذه الحوادث قد قال: «إذا كان الولي في هذا الدين على هذا النحو، فكيف بنبي هذا الدين العظيم!» وبهذا كانوا يؤيدون ويؤمنون بأصل الكرامات، ألا وهو نبينا محمد ﷺ.

---

٢٦٦ البخاري، الأنبياء ٣، ٥٠، الفتن، ٢٦، ٢٧؛ مسلم، الفتن ١٠٥، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠، ١١٣؛ الترمذي، الفتن ٥٩؛ ابن ماجه، الفتن ٣٣.





بعض الأمثلة الخاصة بالتصرف والكرامات

لقد جعل اللهُ تعالى -خالقُ هذا الكون ومالكُه - الإنسانَ أشرف مخلوقاته، وعيَّنه خليفته في الأرض كي يعرف اللهَ تعالى حق المعرفة، ويعبده ويطيعه، ويعمِّر هذه الأرض، ويبيِّن المولى ﷻ هذه الحقيقة في الآية الكريمة:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة، ٣٠)

وتنصيب الإنسان «خليفة» له معان منها:

«سأمنح هذا الإنسان بعض الصلاحيات من إرادتي وقدرتي وصفاتي، وسيتصرف بمخلوقاتي بدلاً عني، وسيطبِّق أحكامي باسمي، لكنه لن يكون الفاعل الأصلي، ولن يطبِّق الأحكام تبعًا لذاته وشخصه، بل سيكون نائبًا ووكيلاً لي في الأرض، وسآمره أن يطبِّق بإرادته إرادتي وأوامري وقوانيني، ومَنْ يأتي بعده ويرثه سينفِّذ المهمةَ نفسها، وبهذا يتضح سر قوله تعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾[267] » (محمد حمدي، (دين الحق ولسان القرآن)، جـ١، ٢٩٩-٣٠٠)

إن التصرف والمعجزات التي ظهرت على يد الأنبياء، أو التصرف والكرامات التي بدت على أولياء الله تعالى، ما هي إلا تجلٍّ لسر خلافة الإنسان في الأرض، ولنذكر هنا بعضًا من الأمثلة الكثيرة عن هذه التجليات:

عن منصور بن عبد الله أن أبا عبد الله بن الجلاء قال:

«دخلت مدينة رسول الله ﷺ وبي فاقة، فتقدمت إلى قبر الرسول ﷺ، وسلمت على النبي ﷺ وصاحبيه، وقلت: يا رسول الله بي فاقة، وأنا ضيفك، ثم تنحيت

---

٢٦٧ الأنعام، ١٦٥.





ونمت دون القبر، فرأيت النبي ﷺ في المنام جاء إليَّ فقمت فدفع إليَّ رغيفًا فأكلت بعضه، وانتبهت وفي يدي باقي الرغيف»(٢٦٨).

ومن الحوادث المليئة بالحكم بعد وفاة رسول الله ﷺ الحادثة التي رواها محمد العتبي أحد شيوخ الإمام الشافعي:

«كنت جالسًا عند قبر النبي ﷺ، فجاء أعرابي فقال: السلام عليك يا رسول الله، سمعت الله يقول:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾(٢٦٩)،

وقد جئتك مستغفرًا لذنبي مستشفعًا بك إلى ربي ثم أنشد يقول:

يا خير مَنْ دفنت بالقاع أعظمه ... فطاب من طيبهن القاع والأكم

نفسي الفداء لقبر أنت ساكــنه ... فيه العفاف وفيه الجود والكرم(٢٧٠)

ثم انصرف الأعرابي فغلبتني عيني، فرأيت النبي ﷺ في النوم فقال: يا عتبي، الحقْ الأعرابي فبشره أن الله قد غفر له»(٢٧١)

---

٢٦٨ انظر: الخركوشي (توفي سنة ٤٠٧)، شرف المصطفى، مكة المكرمة ١٤٢٤، جـ٣، ٢٣٥؛ ابن الجوزي، الوفاء بأحوال المصطفى ﷺ، جـ٢، ٢٠٨؛ الكلاباذي، التعرف، ص٢١٤؛ محمد بن موسى بن نعمان التلمساني، مصباح الظلام في المستغيثين بخير الأنام ﷺ في اليقظة والمنام، ص٦١-٦٢. لقراءة حوادث مشابهة انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ١٦، ٤٠٠-٤٠١، تاريخ الإسلام، جـ١٩، ٣٨٤.

٢٦٩ النساء، ٦٤.

٢٧٠ هذا الشعر مكتوب في الوقت الحاضر على عمودين في الحجرة الشريفة من جهة القبلة.

٢٧١ ابن كثير، تفسير، جـ١، ٥٣٢ (النساء: ٦٤)؛ الإمام النووي، الأذكار، جـ١، ٤٤٨، إيضاح، ص٤٥٤. انظر أيضًا: البيهقي، شعب، جـ٦، ٦٠/ ٣٨٨٠.





وحين حمي الوطيس في معركة (شاناك قلعة) صاح الرائد لطفي بك قائلاً:

«المدد يا محمد! فكتابك يُضاع!» كان الرائد لطفي آنذاك يطلب المدد من النبي ﷺ، وتبين الحادثة الآتية بوضوح شكل المدد والعون الذي جاء استجابة للطلب من رسول الله بإخلاص وصدق:

سنة ١٩٢٨... لقد مضى الآن ١٣ عامًا على النصر في شاناك قلعة.

كان العالم والعارف والشيخ جمال أوغوت ألاسونيوي آنذاك متوجهًا إلى الحج، وحين وصل إلى المدينة المنورة التقى هناك بالكثير من الأشخاص الكرام، ومن بين هؤلاء كان المسؤول عن الروضة الشريفة، وكان هذا الرجل الصالح محبًّا للعثمانيين بصدق، وكان يمدح العثمانيين دائمًا، فسأله الشيخ جمال أوغوت قائلاً:

«ما سبب هذه المحبة للعثمانيين؟»

فأجاب هذا الشيخ النوراني دون أي تردد:

«يكفيني أن أتذكر حادثة واحدة تجعلني أحب العثمانيين من أجل الإسلام».

وبعد أن أصر الشيخ جمال على أن يذكر هذه الحادثة، بدأ بسردها قائلاً:

«في عام ١٩١٥ جاء إلى الحج عالم من علماء الهند، كان من أولياء الله الربانيين، وبعد أن أدى فريضة الحج، قدم إلى المدينة لزيارة النبي ﷺ، كان الحزن ظاهرًا على وجهه، وعيناه لا تتوقفان عن سكب الدموع، وحين سألته عن السبب، ازداد بكاءً وقال:

(بعد سنوات طويلة كُتِب لي أن أزور أشرف خلق الله، لكني وجدت أن رسول الله ﷺ ليس في مقامه، هل من المعقول أن عينَي قلبي أصابتهما العمى؟ لماذا لا أحس بوجود رسول الله ﷺ؟ لقد جعلتني هذه الأفكار في حالة يرثى لها منذ أن وضعت قدمي في المدينة المنورة!)





في تلك الليلة رأى الشيخ المسؤول عن الروضة الشريفة رسولَ الله ﷺ في منامه، وتذكَّر ما قاله العالم الهندي، فقال له رسول الله دون أن يتركه في قلقه وهمه:

(نعم، كان على صواب فيما أحس، لست في المدينة الآن، بل في شاناك قلعة...لم أرضَ أن أترك جنودي في ذلك الموقف العصيب، فأردت أن أُعينهم)[٢٧٢]

وكان مما قال القائد الإنجليزي هاميلتون عن هزيمتهم في شاناك قلعة:

«إن سبب هزيمتنا أمام الأتراك ليس قوتهم المادية، بل تلك القوة المعنوية التي كانت فيهم، إذ لم يكن لديهم بارود كي يقذفوا به، لكننا شاهدنا بأم أعيننا المدد ينزل عليهم من السماء».

إن اعتراف القائد هذا لهوَ دليل على ما ذكرناه آنفًا.

ومثل هذه الأحداث هي تصرف قد منحه الله ﷻ لأنبيائه بعد وفاتهم، فهُم أحياء ولكن على صورة لا يمكن أن ندركها بانطباعاتنا وأحاسيسنا الدنيوية، والحديث الشريف الآتي دليل واضح على هذه الحقيقة:

فَعَن أوس بن أوس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خُلق آدم، وفيه قُبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا عليَّ من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة علي»

قال: قالوا: يا رسول الله، وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت– أي بليت–؟

فقال: «**إن الله ﷻ حرَّم على الأرض أجساد الأنبياء**» (أبو داوود، الصلاة، ٢٠١/ ١٠٤٧، الوتر ٢٦؛ النسائي، الجمعة، ٥)

---

٢٧٢ جريدة الزمان بتاريخ: الأحد ١٨ آذار/ مارس ٢٠٠١.





وفي رواية أخرى: قال:

«**وبعد الموت، إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء، فنبي الله حي يُرزق**» (ابن ماجة، الجنائز، ٦٥)

والشهداء أيضًا أحياء مثل الأنبياء، فالمولى ﷻ يقول في الآية الكريمة:

﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾ (آل عمران، ١٦٩)

ولا ريب أنه لا يمكن القياس بين الأنبياء والشهداء في حياتهم بعد فراقهم الدنيا، فالأنبياء أعلى درجة من هذه الناحية.

إن تصرف أولياء الله –ورثة الأنبياء– وكراماتهم مستمرة إلى يومنا هذا، وثمة الكثير من الأمثلة تدل على هذا:

فقد اشترك الشيخ عبيد الله أحرار في فتح القسطنطينة، وجاء من أواسط آسيا من خلال طي المكان، ويروي لنا ابن حفيده الشيخ محمد قاسم هذه الحادثة:

«أمر الشيخ عبيد الله أحرار بعد ظهر يوم الخميس بتجهيز فرسه فجأة، ثم ركب فرسه وخرج من سمرقند مسرعًا، وقال لطلابه: (ابقوا جالسين هنا!).

فذهب أحد طلابه المعروفين باسمه «مولانا الشيخ» وراءه متعقبًا إياه، وأخبر الآخرين أنه فقد أثر الشيخ عبيد الله أحرار بعد أن مال على ظهر فرسه يمنة ويسرة، ثم عاد الشيخ أحرار بعد مدة، فسأله طلبته سؤال المتشوِّقين عن الحكمة من سفره المفاجئ، فأجابهم: (لقد طلب السلطان العثماني محمد خان العون مني، فذهبت لأعينه، وقد أذِن الله ﷻ بأن ننتصر)»

ويروي لنا الشيخ عبد الهادي حفيد الشيخ عبيد الله أحرار أثناء زيارته للقسطنطينة قادمًا من خراسان ما جرى معه قائلاً:

«حين كنت في القسطنطينة وصف لي السلطان بايزيد الثاني شكل جدي عبيد الله وشمائله قائلاً:





(قال لي أبي الفاتح: حين اشتد الأمر علينا أثناء الفتح، التجأت إلى ربي، وطلبت المدد من قطب الزمان... فقدم إليَّ رجل صفاته كذا وكذا، راكبًا فرسًا بيضاء، وقال لي: «لا تخف، فالنصر حليفكم!»، فقلت لهذا الشيخ: «لكن عدد جنود الكفار كبير» ففتح لي عباءته، وقال: «انظر فيها»، فرأيت في داخلها جيشًا عرمرمًا، فقال لي: «إن هذا الجيش جاء ليعينك».

ثم قال: «اصعد هذه التلة، واضرب بالطبول ثلاثًا، ثم مُرْ جندك بالهجوم».

ففعلت ذلك، واشترك هذا الشيخ معنا بجيشه في الهجوم، فتحقق الفتح المبين»)[٢٧٣]

والخلاصة أن محمدًا الفاتح حين فتح القسطنطينية، استفاد من روحانية الأولياء وعونهم، وهذا الأمر حقيقة من حقائق التاريخ، وكان من هؤلاء الأولياء على وجه خاص الشيخ آق شمس الدين الذي قدم العون في المجال المادي والمعنوي.



ولنا أن نذكر هنا حادثة تدل على «تصرف» الشيخ عزيز محمود هُدائي[٢٧٤]:

جرت تلك الحادثة في عام ١٩٧٥، حين أتى شاب نوراني الوجه، حسن الهيئة، معتدل القامة، إلى مقام الشيخ هُدائي في وقت صلاة الظهر، فالتقى هناك بالصدفة مع إمام جامع عزيز محمود هُدائي، وسأل الإمام:

---

٢٧٣ انظر: مولانا الشيخ، مناقب الشيخ عبيد الله أحرار، ورقة، ٤ب-٥أ؛ جامي، نفحات الأنس، (قسم لامعي شلبي)، ص٥٦٦-٥٦٧؛ طاشكبري زاده، الشقائق النعمانية، ص١٥٧-١٥٨؛ مجدي محمد، حدائق الشقائق، ص٢٧٢-٢٧٣؛ الشيخ سعد الدين، تاج التواريخ، جـ١، ٤١٠-٤١١.

٢٧٤ سمعتُ هذه الحادثة من محرَّم قير أفندي أحد أئمة مسجد عزيز محمود هدائي، وقد كان صديقي أيام دراستي في مدرسة الأئمة والخطباء.





«يا سيدي، أتيت لرؤية الشيخ عزيز محمود هُدائي، كيف لي أن أراه؟ أهو هنا الآن؟»

فاحتار الإمام محرَّم أفندي حين سمع مثل هذا السؤال وأجابه:

«نعم يا بُني، هو هنا»

فحين سمع الشاب بوجود الشيخ هنا قال بسرور:

«أرجوك أن تأخذني للقائه».

ولكن محرَّم أفندي لم يفهم ماذا كان يقصد الشاب، وقال له حين صارا بالقرب من القبر:

«يا بُني، هنا عزيز محمود هُدائي!»

ثم أعاد الشاب طلبه:

«خذني للقائه إذًا، أودُّ أن ألقاه!»

لم يفهم محرَّم أفندي شيئًا عن حالة هذا الشاب، فسأله لعله يحل هذه المسألة:

«يا ولدي، أتعرف عزيز محمود هُدائي؟»

فأصابت الحيرة هذا الشاب -ذا القلب الصافي الذي ينعكس صفاؤه على محيَّاه- نتيجة إطالة هذا الحديث، وعدم رغبة محرَّم أفندي في لقائه مع محمود هُدائي، وقال لمحرَّم:

«إنني أعرف عزيز محمود هُدائي معرفة جيدة، فهو الذي دعاني إلى هنا، وتواعدنا على أن أزوره، وهو يعلم جيدًا أنني سآتي لزيارته».

حينها أدرك محرَّم أفندي أن للمسألة وجهًا آخر وأن سرًّا خفيًا وراءها، فسأله راغبًا بمعرفة تفاصيل أكثر:

«وكيف تواعدُّتما يا بُني؟»





فبدأ الشاب بالشرح قائلاً:

في عام ١٩٧٤ وأثناء العملية العسكرية في قبرص، كنت أحد الفدائيين المظليين الذين نزلوا هناك، وقد قفزنا بالمظلات أثناء اشتداد المعركة بين جيشنا الذي كان قادمًا من البحر وجيش اليونانيين المتمركزين في جبال بيشبارماك، ولكن الرياح الشديدة آنذاك قذفت كل واحدٍ منا إلى جانب، ونزلت عند خط العدو، فصرت بين نارَي الطرفين في موقع كثيف الأشجار، ولم أعرف كيف أتصرف، وبينما أنا على هذه الحالة وإذ بشيخ طويل القامة، ذي هيبة ووجه نوراني يقف أمامي، حينها أصبت بالدهشة والعجب، ونظر إليَّ بوجه متبسِّم وقال:

«ما الذي تفعله هنا يا ولدي؟ ألا تعرف أنك داخل خط العدو؟ ولماذا دخلت وحدك إلى هنا؟»

فأجبته: «لم آتِ إلى هنا باختياري يا سيدي، بل الرياح هي التي دفعتني إلى هنا».

فهزَّ الشيخ ذو الوجه النوراني رأسه قليلاً وقال:

«وأنا أيضًا أتيت من أجل القتال، وقد أُرسِلت قبلكم، وأعرف هذه المنطقة جيدًا، من أي وحدة أنت؟ هلمَّ معي إلى وحدتك!»

ثم مشينا في طريق تحت وابل من القذائف، وكان ذلك الرجل الصالح مرتاحًا في سيره، وكأنه يمشي في طريق لا شيء فيه البتة، لقد أصابني حقًّا بالحيرة والدهشة، ثم سألني عن اسمي، وعن المكان الذي جئت منه، وأسئلة أخرى كثيرة، وبعد أن أجبت على أسئلته التي طرحها، سألته بفضول:

«ومَنْ تكون أنت يا سيدي؟»

فأجابني: «اسمي عزيز محمود هُدائي يا ولدي».

ثم قلت له: «يا سيدي، قد قدمت إليَّ إحسانًا عظيمًا، وأودُّ أن أزورك إذا ما عدت إلى وطني سالـمًا، فهلَّا تعطيني عنوانك؟»





لكن هذا الرجل الصالح لم يقل لي سوى:

«يا ولدي، إذا أتيت أُسكُدار، فَسَل من شئت هناك، سيوصلونك إلي».

ثم وصلنا إلى وحدتي العسكرية، فقبَّلت يدي هذا الرجل الطيب باحترام ومحبة وامتنان، ثم ودَّعته هناك، وذهبت إلى قائدي.

حين رآني قائدي أمامه فجأة، أُصيب بالذهول والدهشة بسبب نجاتي وعودتي سالـمًا إلى وحدتي من طوق النيران هناك، وسألني:

«كيف استطعت أن تصل إلى هنا؟»

فأجبته: «لقد أوصلني شيخ صالح إلى هنا».

وبعد أن انتهت الحرب عدت إلى مدينتي، لكن الإحسان الذي قدمه إلي عزيز محمود هُدائي لم يغب عن بالي أبدًا، فنويت أن أذهب إلى أُسكُدار كي أوفي بوعدي له بالزيارة، وكلما سألت شخصًا، قال لي:

«إنه الرجل الصالح» ودلَّني إلى هذا المكان.

ثم سكت الشاب قليلاً، وأخذ نَفَسًا عميقًا، وأعاد ذكر طلبه لمحرَّم أفندي:

«هكذا التقيت بعزيز محمود هُدائي، يا سيدي، والآن هلَّا أخذتني إليه!»

لقد تأثر محرَّم أفندي كثيرًا أمام هذه الحالة الروحانية بعد أن علم المسألة بكل أبعادها، فلم يستطع أن ينطق ببنت شفة، وهذا الشاب ينظر إليه بنظرات متوسِّلة، ثم استطاع أن يستجمع قواه، وقال بصوت خافت متلعثمًا:

«يا بُني، ما عاد عزيز محمود هُدائي على قيد الحياة، فقد كان وليًّا من أولياء الله عاش بين عامي ١٥٤٣–١٦٢٨، ولا بُدَّ أنه قد دعاك إلى هنا كي تقرأ على روحه الفاتحة، وها هو ذا في قبره!»

حين سمع الشاب الوفي المليء قلبُه بالإيمان هذه الحقيقة تأثَّر تأثرًا كبيرًا، فقد كانت نيته أن يراه، وكان مشتاقًا لذلك، لكنه الآن لا يلتقي بهذا الولي الكبير بل





يقف أمام قبره فقط، وبدأ بإدراك التصرف والكرامة المعنوية التي عاشها في تلك اللحظة حين كانت المعركة حامية الوطيس، ثم جعل يشهق لمدة طويلة واضعًا يديه على وجهه.

أمام هذا الموقف؛ كانت الدموع تنهمر من عيني الإمام محرَّم...



ومن بين الذكريات التي كان يرويها الشيخ الولي محمود سامي رمضان أوغلو، وقد سمعتها لدى حضور مجلسه خلال طفولتي:

كانت أخت الشيخ محمود التي تصغره بعامين مُقعدة، وكان بالقرب من منزلهم ضريح لأحد أولياء الله اسمه كابلانجا بابا يزوره الناس كثيرًا، وبعد أن عجز الأطباء عن علاجها، ذهب مع أخته وأمه في يوم من الأيام لزيارة هذا الضريح، ومكثوا هناك في تلك الليلة، وفي ساعة متأخرة من الليل استيقظوا على صراخ أخته المشلولة، فهرعت الأم إلى الفتاة، وسألتها عمَّا حصل، فأجابت أنها رأت شيخًا نوراني الوجه قد أتى وضغط على قدميها، لقد روى الشيخ سامي أفندي هذه الحادثة، وذكر حينها أنه بعد ذلك اليوم صارت أخته تمشي، ولم تعد تشكو أي ألم من قدميها طوال عمرها[٢٧٥].

إن جميع ما ذكرناه هنا والحوادث المشابهة الأخرى هي ألطاف إلهية صارت ببركة التصوف من الكرامات التي أكرم الله ﷻ بها بعضًا من عباده، لكن يجب ألا ننسى أن الفاعل الحقيقي المطلق هو المولى ﷻ، فما زال عونه لعباده مستمرًا فياضًا غير منقطع إلى يومنا هذا عبر ملائكته أو أوليائه.

---

٢٧٥ انظر: محمود سامي أفندي، مجالس العيد، ص٢٨-٢٩؛ من دنيا ولي الله: حوارات مع الشيخ موسى طوبَّاش أفندي، منشورات دار الأرقم، ١٩٩٩، ص١٩٥.








٤ . الرؤيا الصادقة

إن الرؤيا الصادقة هي إحدى الهبات الإلهية، وهي إحدى الطرق المعروفة والمقبولة في الاطِّلاع على الحقائق الغيبية، فخلال النوم يصل ارتباط المرء بعالمه المادي إلى أدنى درجة، وتزداد قوة أحاسيس الروح المحبوسة في البدن، وتجلو الرؤية حين تتبعثر غيوم الآفات النفسية التي تحجب التجليات السامية، وهكذا يستطيع بعض عباد الله الصالحين أن يشاهدوا عالم الغيب في رؤياهم، ثم يعرفوا صحة هذه الكشوفات بعد الاستيقاظ.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول:

«لم يبقَ من النبوة إلا المبشِّرات»

قالوا: وما المبشِّرات؟

قال: **«الرؤيا الصالحة»** (البخاري، التعبير، ٥؛ مسلم، الصلاة، ٢٠٧-٢٠٨)

أي هي البشارات والإلهامات والإيحاءات التي تنزل على قلوب المؤمنين المخلصين أثناء الرؤيا، وتصبح مكشوفة لهم.

وقد سُئل رسول الله ﷺ عن قوله: **﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾** (٢٧٧)

فقال: **«هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو تُرى له»** (الترمذي، الرؤيا، ٣)

٢٧٦ البخاري، التعبير، ٢٦؛ مسلم، الرؤيا، ٦.

٢٧٧ يونس، ٦٤.





والرؤيا ثلاثة أقسام:

١. **الرؤيا الشيطانية:** وهي الرؤيا التي يُلقيها الشيطان على الإنسان بغية إخافته، أو إيقاع قلبه في الهموم، أو جعله حزينًا، مثل رؤية الإنسان نفسه يسقط من مكان مرتفع، أو يرى الكوارث والاضطرابات التي تجعله تحت تأثيرها، ومثل هذه الرؤى لا أساس لها أصلاً، وتكون رؤى غامضة مختلطة لا يتذكرها الإنسان كاملة، ولا يجب أن يخبر عنها أحدًا، بل يلجأ إلى الله هربًا من إغواء الشيطان.

وعن أبي سعيد الخدري ﵁: أنه سمع النبي ﷺ يقول:

«**إذا رأى أحدكم رؤيا يحبها، فإنما هي من الله، فليحمد الله عليها وليحدِّث بها، وإذا رأى غير ذلك مما يكره، فإنما هي من الشيطان، فلْيَستعِذْ من شرها، ولا يذكرها لأحد، فإنها لا تضره**» (البخاري، التعبير، ٣؛ مسلم، الرؤيا، ٣)

ويقول رسول الله ﷺ في حديث آخر:

«**إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها، فليبصق عن يساره ثلاثًا وليستعذ بالله من الشيطان ثلاثًا، وليتحول عن جنبه الذي كان عليه**» (مسلم، الرؤيا، ٥)

٢. **الرؤيا نتيجة التأثير الخارجي:** وهي المشاهد المرتبطة بحال الشخص وخياله، والتي تنعكس على رؤياه، فالرجل الذي أكل طعامًا مالحًا كثيرًا قد يرى في رؤياه أنه يشرب الماء بكثرة، أو قد ينشغل المرء في ذهنه بمسألة فيراها في رؤياه، ومثل هذه الرؤى لا تعبير لها، فهي لا ترتكز على أساس.

٣. **الرؤيا الصادقة:** يمكن تَذَكُّر هذه الرؤيا بسهولة ووضوح، وهي تكون بشارة أو تحذيرًا من الله ﷻ، يلقيها قسم من الملائكة المكلَّفين بهذه المهمة -بعد تلقِّيها من اللوح المحفوظ- إلى الإنسان النائم بأمر وإذن من الله ﷻ.

إن الرؤى الصادقة هي لمعات من اللوح المحفوظ تنعكس على المستقبل، فقد كانت بداية نبوة رسول الله ﷺ برؤيته الرؤى الصادقة على مدى ستة أشهر قبل أن يأتيه الوحي.





ويروي محمد بن سيرين، أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ:

«**إذا اقترب الزمان**[٢٧٨] **لم تكد تكذب رؤيا المؤمن، ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة**»[٢٧٩]، وما كان من النبوة فإنه لا يكذب، قال محمد: -وأنا أقول هذه- قال: وكان يقال:

«**الرؤيا ثلاث: حديث النفس، وتخويف الشيطان، وبشرى من الله، فمَنْ رأى شيئًا يكرهه فلا يقصُّه على أحد ولْيَقُم فليصلِّ**» (البخاري، التعبير، ٢٦؛ مسلم، الرؤيا، ٦)

ومن الأحاديث الشريفة قوله ﷺ:

«**أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثًا**» (مسلم، الرؤيا، ٥)

«**أصدق الرؤيا بالأسحار**» (الترمذي، الرؤيا، ٣/ ٢٢٧٤)

وثمة من هو أهلٌ لتأويل الرؤى الصادقة وحلِّ ألغازها، وتعبيرُ الرؤيا علمٌ وهبي، وقد كان رسول الله ﷺ يستمع أحيانًا إلى أصحابه ورؤاهم بعد أداء الصلاة، ثم يؤولها لهم، فيوضِّح بذلك التجليات المتعلقة بالمستقبل.

والحق أن تأويل الرؤيا علمٌ يستند إلى بعض القواعد، ويسمى الإنسان الضليع في هذا العلم بـ«المعبِّر»، وقد وضِعت الكثير من المؤلفات المتعلقة بتأويل الرؤيا كي يستفيد منها العامة، وأشهرها تأويلات ابن سيرين، ومحي الدين بن عربي، وأُلِّفت الكثير من الكتب إلى يومنا هذا مقتبسة من مؤلفات هذين العالِمين، ولكن يُمنَع تأويل الرؤيا استنادًا فقط إلى المعلومات الموجودة في صفحات تلك الكتب، فالقسم الأكبر من التأويل الحقيقي يكون «كشفًا»، لهذا

---

٢٧٨ يذكر في شروحات الحديث أن «اقتراب الزمان» يعني تساوي الليل والنهار، أو اقتراب يوم القيامة أو الصباح (وقت السحر)، أو قصر الوقت.

٢٧٩ استمرت نبوة رسول الله ﷺ ٢٣ عامًا، وكانت بداية النبوة على صورة رؤى صادقة لمدة ٦ أشهر، وهذه المدة إذا قسمت على ٢٣ سنة، تكون النتيجة ٤٦.





السبب يجب أن يكون لدى المؤوِّل استعداد وقدرة معنوية، وإلا فإن التأويلات الخاطئة تودي إلى المهالك، يقول النبي ﷺ:

«**الرؤيا لأول عابر**»[٢٨٠]

لذا لا ينبغي سرد الرؤيا لـمَنْ ليس أهلاً لها، ويقول المطَّلعون على هذا العلم:

«التأويل الأول مهم، لكن التأويلات الأخرى لا تصيب».

وقد ورد في الرسالة المسماة «ميزان النفوس»[٢٨١] أن التأويل قسمان: «الأنفسي» و«الآفاقي»، ويمكن لأي شخص من العوام أن ينال القسم الأول، أي يمكن تحصيله من خلال السماع، أو عبر الأخذ من المؤلفات المختلفة حول تأويل الرؤيا التي وضعها المختصون في الماضي، وهكذا يمكن تأويل الرؤى المتشابهة استنادًا إلى التجارب السابقة.

إن كل شيء موجود في الرؤيا بمثابة كلمة من كلمات المعاجم، أي كأنه لغة في حدِّ ذاته، وكل معنى يُوضَع لشيء في لغة الرؤيا يعتمد على علاقة بعيدة، وهذا يعني أنه يستند إلى أساس وسبب، فالحية مثلاً عدو، وهذا المعنى يستند إلى قصة آدم عليه السلام، فكل حالٍ وحركةٍ للأفعى تدل على سلوكٍ معين للعدو، أما إذا كانت الحية مستقيمة أو لا تُظهِر أيةً حركة كأنها ميتة، فهذا يُفسَّر على أنه طريق.

ومن ناحية أخرى علينا أن نذكر أنه ثمة مؤثِّرات كثيرة أخرى تلعب دورًا في تأويل الرؤيا مثل الأيام، والفصول، والساعة التي شوهدت فيها الرؤيا، وأمور أخرى، فالرؤيا في الشتاء يتأخر تحققها، أما في الصباح فتكون سريعة التحقق، بيد أن هذه التأويلات لا تكون دقيقة، وذلك لاختلاف طبيعة أصحاب الرؤى.

---

٢٨٠ ابن ماجه، تعبير الرؤيا، ٧.

٢٨١ كتب هذه الرسالة حافظ خلوصي من مدرسي مسجد بايزيد، وطبعت هذه الرسالة في إسطنبول ١٣٠٥.





أما التأويل «الآفاقي» فهو بحاجة لكشف لا يجده إلا الخواص؛ لأن التفريق بين الرؤيا الشيطانية والرحمانية منوط بالسوانح الإلهية، وقد يختلف تأويل الرؤيا بين شخصين -رأى كل منهما الرؤيا ذاتها- اختلافًا كبيرًا، بسبب اختلاف طبيعة البشر فيما بينهم، وفهمُ المرء دقائقَ الأمور مثل هذه، يتطلب أهلية معنوية.

فقد جاء إلى ابن سيرين يومًا شخصان رأى كل منهما في الرؤيا أنهما خطيبان يقرآن خطبة، فكان تأويل ابن سيرين أن أحدهما يذهب إلى الحج، أما الآخر فيُقتل؛ ولم يمضِ كثير من الوقت إلا وقد تحقق تأويله.

تقول السيدة عائشة رضي الله عنها:

«رأيت ثلاثة أقمار سقطن في حجرتي، فقصصت رؤياي على أبي بكر الصديق»، فلما توفي رسول الله ﷺ ودُفِن في بيتها، قال لها أبو بكر رضي الله عنه: «هذا أحد أقمارك وهو خيرها» (موطأ، الجنائز، ٣٠)

وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه: أن أم العلاء -امرأة من الأنصار- بايعت رسول الله ﷺ وأخبرته: أنهم اقتسموا المهاجرين قرعة، قالت: فطار لنا عثمان بن مظعون وأنزلناه في أبياتنا، فوجع وجعه الذي تُوفي فيه، فلما تُوفي غُسل وكُفن في أثوابه... فنمت، فرأيت لعثمان عينًا تجري، فأخبرت رسول الله ﷺ، فقال:

«**ذلك عمله**»[٢٨٢].

ومن الحوادث التي وقعت في حياة الرسول ﷺ الحادثة التالية:

جاءت امرأة إلى رسول الله كي يعبِّر لها رؤياها التي رأت فيها أن عمود بيتها تهدم، فسأل رسول الله ﷺ عن زوجها ومكانه، فقالت المرأة إن زوجها قد خرج إلى القتال وما زال غائبًا، فبشَّرها النبي ﷺ أن زوجها سيعود سالـمًا، وقد تحقق تأويل النبي ﷺ.

٢٨٢ البخاري، تعبير ١٣، الجنائز ٣، الشهادات ٣٠، مناقب الأنصار ٤٦.





وخلال خلافة أبي بكر ﷺ، رأت المرأة الرؤيا نفسها، وكان زوجها قد خرج إلى القتال أيضًا، فسألها أبو بكر ﷺ عن زوجها كما سأل النبي ﷺ ثم أخبرها أنه لن يعود هذه المرة.

فاضطربت المرأة وأصابتها الدهشة من كلام أبي بكر ﷺ وقالت:

«كان تأويل رسول الله ﷺ للرؤيا نفسها أن زوجي سيعود سالـمًا».

فأجابها: «قولك هذا صواب، ولكن كُشف له ذلك، وأُلهِم إلي هذا»، وقد تحقق تأويل أبي بكر ﷺ بعد مدة قصيرة.

إن التأويل الصحيح للرؤيا أمر صعب، وقد يكون مستحيلاً دون الدراية المعنوية، وذلك لأنه أثناء الرؤيا تُرى أحوال كثيرة خيالية غير واضحة، تفوق قدرة العقل والفكر.

وقد أخبرنا المولى ﷻ في القرآن الكريم أنه وهب هذا العلم ليوسف ﷺ (٢٨٣).

فحين كان يوسف ﷺ في السجن استمع إلى رؤيا الخبَّاز وساقي الملك اللذَين كانا معه، فأما الخبَّاز فقد رأى أنه يحمل خبزًا فوق رأسه تأكل الطير منه، فكان تأويل يوسف ﷺ أن الملك سيصلبه فتأتي الطير لتأكل من لحم رأسه، وأما الساقي فقد رأى أنه يسقي الملك كما كان يفعل في السابق، فقال يوسف ﷺ في ذلك: «ستعود إلى عملك ساقيًا للملك»، وقد تحققت هذه الكشوفات التي أخبر بها يوسف ﷺ في الواقع بعد حين.

وقد ذكرنا فيما سبق أن القسم الأكبر من علم التأويل يعتمد على الكشف، لهذا لا بد أن يكون المؤوِّل على درجة معنوية، وحين كنَّا ندرس في مدرسة إسطنبول للأئمة والخطباء، درسنا على يد الشيخ جلال الدين أوكتان رحمه الله الذي كان معروفًا آنذاك بأنه عالم في تأويل الرؤيا، وكان يقول إن تأويل الرؤيا يجب أن يكون بقلب صافٍ وروحانية، فإصابة التأويل منوطة بتقوى المؤوِّل.

٢٨٣ انظر: يوسف، الآيتَين: ٦، ١١١.





وكان شيخنا جلال الدين أوكتان رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شبابه يُدرِّس في مدرسة إعدادية أمور الدين، ويعيش حياة ملؤها التقوى بقلب حيٍّ يخشى الله تعالى، وكان مشهورًا آنذاك بإصابته في تأويلاته، وكان بعد أن يخبرنا بأمثلة عن هذه التأويلات يقول:

«مرت عليَّ مرحلة حُجب فيها هذا العلم عني بسبب إلغاء الدروس الدينية، ثم عيَّنوني مدرِّسًا للفلسفة، وحين بدأت بالغوص في نظريات الفلسفة العقلانية، نضبت ينابيع القلب».

ولنا أن نذكر هنا مثالاً من الأمثلة الأخرى المشهورة حول الرؤى الصادقة:

بينما كان الإمام البوصيري -صاحب قصيدة البردة المشهور- عائدًا إلى بيته التقى بشيخٍ نوراني الوجه، فقال له ذلك الشيخ:

«يا بوصيري، أرأيت رسول الله في رؤياك الليلة؟»

فأجابه البوصيري: «لا».

فذهب الشيخ دون أن ينطق بشيء، لكن كلام الشيخ هذا جيَّش مشاعر عشق النبي ﷺ ومحبته في فؤاد الإمام، وفي تلك الليلة رأى الإمام رسول الله ﷺ في رؤياه، فاستيقظ سعيدًا، شاعرًا بالطمأنينة، وبعد هذه الرؤيا كتب الكثير من المدائح عن النبي ﷺ التي جعلت العشَّاق يتعمقون في بحر المحبة.

ثم أُصيبَ الإمام بشلل نصفي بعد مدة، فصار إلى حالة لا يقدر فيها على المشي والحركة، وكتب حينئذ قصيدة البردة المشهورة طالبًا من الله الشفاء.

وفي الليلة التي أنهى فيها كتابة قصيدته هذه، رأى النبي ﷺ في رؤياه، وقرأ عليه القصيدة، وبعد أن قرأها بالكامل، مسح النبي ﷺ على الجزء المصاب من بدن الإمام البوصيري، فكان أثر هذه المحبة أثرًا كبيرًا إذ استيقظ الإمام البوصيري دون أن يشعر بأي مرض في بدنه، فشكر الله تعالى أن شفاه.

وفي ذلك الصباح، وبعد أن عادت صحته إليه، خرج الإمام بسرور قاصدًا المسجد، وبينما هو في طريقه، إذ بالشيخ أبي الرجاء يقول له:





«يا بوصيري، هلَّا قرأتَ علي قصيدتك في مدح سيد الكون؟»

فسأله الإمام البوصيري:

«إن قصائد مدح رسول الله ﷺ كثيرة، فأيها تريد؟»

فأجابه الشيخ أبو الرجاء:

«تلك التي قرأتها على الرسول ﷺ، لأني رأيته قد سُرَّ بهذه القصيدة». فأصابت الحيرة والدهشة الإمام البوصيري الذي كان يعلم أنه لم يكن قد قرأها على أحد حتى تلك اللحظة[٢٨٤].

إن في الإسلام أمثلة كثيرة جدًا عن حالات يرى فيها الصادقون الكثيرَ من أسرار عالم الغيب بواسطة الكشف والفراسة والإلهام والرؤيا الصادقة؛ لكن لا بد أن نتذكر دائمًا الحقيقة الإلهية التي تقول:

﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ﴾ (النمل، ٦٥)

لذلك تبرز هنا الحاجة إلى إيضاح هذه المسألة.

والحق أن إيضاح هذه المسألة وارد في محتوى الحديث القدسي الذي يقول فيه الله تعالى:

«فإذا أحببته (أي عبدي): كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها...» (البخاري، الرقائق، ٨٣).

ومركز الكشف والإلهام هو الروح التي نفخها الله تعالى في الإنسان، وإذا ما نظرنا ظاهرًا بالعين الموجودة في الرأس نجد أن حُجب الغيب يبطل عملها -بالقدر الذي حدَّده الله تعالى- أمام «النور الإلهي» الموجود في تلك العين، فالله إذًا هو من يُظهِر الغيب لعبده لأنه لا قدرة للعبد أصلاً على رؤية الغيب أو سماعه أو معرفته؛ فعلم العبد مقتصر على العلم الذي يكرمه به الله ﷻ.

---

٢٨٤ انظر: إلهان آرموتشي أوغلو، ترجمة قصيدة البردة، ص٧-١٠.





يقول المولى ﷻ في الآية الكريمة مشيرًا إلى أنه يخبر بعض الحقائق الغيبية:

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾[285] (آل عمران، ٤٤)

ولنا أن نذكر هنا أن الغيب نوعان: غيب مطلق، وغيب إضافي (نسبي).

الغيب المطلق: هو الغيب الذي لا يعلمه إلا الله ﷻ، وقدرة المرء على معرفة أي شيء من الغيب المطلق لا يرتبط أبدًا بدرايته وعلمه، فهو يعلم ما يُعلِّمه الله فحسب، وعلمه هذا بقدر لطف المولى ﷻ.

أما الغيب الإضافي: فهو الأمور المعلومة لبعض الأشخاص والمجهولة لبعضهم الآخر، فمثلاً لا أحد يعلم كم مقدار المال الموجود في جيب امرئ ما سواه، نفهم من هذا إذًا أن الغيب بالنسبة إلى بعض الناس ليس غيبًا بالنسبة إلى

---

٢٨٥ لقد نسب المولى ﷻ بعضًا من صفاته إلى عباده، فالله تعالى يكرم عبده بما يريد، وكيفما يريد، دون وجود أي سبب قسري شديد. ويكرم من يشاء، ويعلي مقام من يشاء، ويجعله أسمى من المخلوقات الأخرى، لكن هذا لا يعني أنه قد أعطاه صفاتٍ ألوهية.

ويجب علينا أن نعلم أننا حين نرى لدى العبد صفة من صفات الله ﷻ، فإن هذه الصفة تبقى على صورة تناسب الحدود البشرية ولا تتعداها، فهي لطفٌ من الله ﷻ، وليست بجهد العبد. وهو أمر مرتبط دائمًا بإرادة الله وإذنه، كما هو الحال في كل أمر.

فعلم الغيب مثلًا هو صفة من هذه الصفات، وحينما يقول الله تعالى:

﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ﴾ (النمل، ٦٥)

لا ننسى أن الله تعالى قد أخبر أنبياءه بأمور غيبية، وهذا ما نجده في آيات أخرى:

﴿مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران، ١٧٩)

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا. إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ (الجن، ٢٦-٢٧)





أشخاص آخرين.

والغيب الذي نتكلم عنه والذي يعلمه أولياء الله، هو غيب مطلق لا يعلمه الأولياء إلا بإذن ربِّ الأولياء، وبالمقدار الذي حدَّده لا أكثر ولا أقل.

ومهما أصاب أولياءُ الله في حدسهم وتخمينهم، لا يدَّعون أنهم أصحاب كشف وفراسة، وحين ينظر المرء إلى وجه مثل هؤلاء الصالحين، يتذكر الله ﷻ، إذ تتقاطر الحكمة والمعرفة من ألسنتهم، فهم لا يتكلمون بأنفسهم، بل يبدو أن الله يجعلهم ينطقون بالكلام إن جاز التعبير، ويقفون متواضعين أمام ألطاف الله تعالى، فالإنسان مخلوق ضعيف قد يتجاوز حدوده فيقع في الغرور، ومن المعلوم أنَّ تكبر الإنسان وتغطرسه من أعظم الكبائر والمصائب، لذلك قد يُذيق الله عبده طعم العجز من أجل تحذيره وتنبيهه.

فالأصل في الفراسة والكشف والرؤى الصادقة أنها ألطافٌ يُلهم اللهُ ﷺ بها الحقائقَ لعباده الصالحين.





الفصل الرابع

بعض المسائل في التصوف

أ. التوسل

ب. التبرك

ت. زيارة القبور





قال الله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد، ٢٨)



بعض المسائل في التصوف

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾

(المائدة، ٣٥)




أ. التوسل

التوسل مفهوم شرعي صوفي يستعصي على فهم من قست قلوبهم من الفقهاء والأصوليين وغيرهم ممن لا يؤمن إلا بالعلم فقط، لكن المتشربين منهم لروح الشريعة لا لحرفية النص، والذين يعرفون أن للعلم سُبلًا أخرى غير الكتب يدركون شرعية التوسل وروحانيته.

التوسل في مصطلح اللغة العربية هو اتخاذ وسيلة أو طريقة يصل بها الإنسان إلى مراده؛ حتى إن الزبيدي قرن في شرح القاموس بين التَّوسُّل والتَّوَصُّل، وهذه الوسيلة المتخذة في التوسل تحمل معنى أدق من مجرد الاستعانة، فهي تحمل معنى الرغبة الأخص، كما قال أبو البقاء في كتابه «الكليات»، وقد جاء معنى الوسيلة في «مختار الصحاح» بأنها «ما يُتقرَّب به إلى الغير... ويقال: وَسَّل فلان إلى ربه وسيلة بالتشديد، وتَوَسَّل إليه بوسيلة، إذا تقرب إليه بعمل».

أي إن التوسل يعني طلب الوسيلة والواسطة، والاستعانة في التوصل والتقرب.





أما أساليب التوسل فهي الدعاء إلى الله تعالى والتقرب إليه، والتزلف إليه سبحانه بأسمائه وصفاته العلى وقرآنِه الكريم ونبيه العظيم وأنبيائِه المرسلين وعبادِه الصالحين وكلِّ عمل مخلص رجوت فيه وجه ربك وحده.

والتوسل والوسيلة هي إحدى الأساليب التي أمر بها الشرع الشريف، فقد جاء في محكم التنزيل:

قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (المائدة، ٣٥)

وورود كلمة ومصطلح «الوسيلة» في الآية على صورتها المطلقة وغير المحددة دليل على تعدد مفاهيم الوسيلة واتساع نطاق التوسل، لكنه مشروط بشرط الآية، وهو تقوى الله تعالى، العاصمة للمؤمنين من الوقوع في الزلل والزيغ عند ابتغاء الوسيلة، وهو التغافل عن الأصل في التوسل، وهو أن الله غاية التوسل، وهو وحده سبحانه مانح الوسيلة.

وثمة بعض المفسرين الذين يُضيفون إلى معاني التوسل وسيلة أخرى ذات شأن، وهي الخضوع لتربية مرشد كامل، فهو الذي كلفه الله تعالى بوراثة الأنبياء في إرشاد الناس وهدايتهم إلى سبيل الحق.

هؤلاء العلماء والصالحون والمرشدون ليسوا على شاكلة الرهبان، ولا التوسل أو الوسيلة ضرب من الرهبنة، فالمرشدون ليسوا أكثر من أضواء على الطريق، وأدلاء في الصحراء، وقباطنة في لجج البحار؛ لكن الوضع مختلف تمامًا في النصرانية والرهبانية، فالواسطة أو الوسيلة المذمومة في الشرع هي تلك التي تجعل الراهب واسطة بين العبد وربه، والإسلام يرفض ذلك تمامًا وينهى عنه، فالعبد في الإسلام يستطيع الاتصال بالسماء، والتواصل مع ربه مباشرة وفورًا بلا واسطة ولا إجراءات ولا طقوس.





ولا زال دور المرشد يلقى بعض الاعتراضات، وذلك ناتج عن تسطيح الفهم واقتصاره على التعريف اللغوي أو التوارث المفاهيمي لمصطلحي المرشد والإرشاد، فهو في تصور المعترضين يتطابق مع مفهوم الرهبنة، فالعبد في النصرانية لا يستطيع أن يُقدِم على طاعة أو عبادة دون وساطة الراهب الذي يمنحه الموافقة والمباركة؛ بل والمغفرة والرحمة، وهذا ما حدث بالفعل لدى النصرانية المحرفة.

وهذا التدخل –من الراهب ومن المرشد– بين العبد وربه مرفوض من أهل الاعتراض على الإرشاد، وهو مرفوض أيضًا ممَنْ يفهمون الإرشاد بمفهومه الصحيح، فلا وجه للمقارنة بين المرشد والراهب، ولا وجه للتشابه بين التصوف والرهبنة المسيحية.

فالمرشد درع يكسو جسد المريد في طريقه وحربه ضد أعدائه المعنويين، ولا يقاتل نيابة عنه في معركته هذه، والمرشد سيفٌ وسلاحٌ في يد المريد يعينه في جهاده، وليس صك غفران يضمن له ملكيته لبعض أراضي الجنة، والمرشد قائد حصيف في معركةٍ يقود المريدين والسالكين إلى أساليب النصر وخططه، والمنفذون والمقاتلون هم جنوده من المريدين، وليس المرشد قائد العميان إلى الطريق الذي لا يعرفون.

فالقائد لا يختار الطريق وحده، ولا يسير فيه وحده، ولا ينتصر في المعركة وحده.

فإذا أدركنا –من خلال هذه الصور– بعض المعاني الحقيقية للإرشاد والتصوف، وابتعدنا عن المعاني المقولبة والمعدة سلفًا، أدركنا أن أخطاء فهم المعترضين وأخطاء فعل بعض المتصوفين هي التي تصنع ذلك اللَّبس في فهم معنى التوسل والوسيلة.

هذا اللبس قد يحدث كثيرًا عندما تختلط الأمور، لكن لا ينبغي عند اختلاط الأمور أن نحكم عليها جميعها بالخطأ، وأن نرفضها ونقصيها؛ خاصة أن موضوع





التصوف برمته هو محل هجوم كبير من غير المسلمين ومن بعض المسلمين أنفسهم، وأحد أغراض هذا الهجوم هو قضية التوسل، والتي لا يسلم مهاجموها ومهاجمو التصوف من الأغراض الشخصية وسوء النية وتصيّد الأخطاء أو الاتهام بوجود مخالفات لاختلاق مشهدٍ ضبابي حول المسألة برمتها لصرف الناس عنه، ولإيجاد صعوبات وملابسات في الفهم، وتعويق الوصول إلى الحقيقة.

وكل ذلك لا ينبغي أن يقلل من شأن التصوف، أو يطعن في المعنى الحقيقي للتوسل.

وإذا أدركنا معنى القائد ودوره في الألوية العسكرية، ومعنى الربان ودوره في الملاحة البحرية؛ ندرك وظيفة المرشد ودوره في طريق الروحانية، فالقائد لا يمسك كل الأسلحة بيديه، ولا يحارب وحده، ولا ينتصر وحده، ولا حتى بعظيم منزلته وعلو مقداره وعميم بركته، وإلا لانتصر النبي ﷺ في غزوة أُحد وحده؛ رغم مخالفة الرماة لإرشادات القائد والمرشد.

كما إن الرُّبان لا يمسك الدفة وحده، ولا يوجه الأشرعة وحده، ولا يحرك المجاديف وحده، ولا يراقب الطريق وحده، إنما هو يقود هذه المنظومة كلها؛ ليصل الجميع بخبرته وقيادته إلى شاطئ الأمان والغاية الموجودة مستفيدين من خبرته وقيادته.

وفي طريق الله تعالى يقوم المرشد بدوره في إرشاد المريد ونصيحته، وليس بدوره في العبادة نيابة عن المريد.

يقوم المرشد بدوره كربان في تحديد أفضل الطرق التي توصل إلى بر الأمان، أفضلها وأسلمها وأيسرها وأقصرها و....

ودوره هو تعليم الملاحين أسرار حياة البحر؛ لاسيما عندما يكون بحرًا لجيًا تتلاعب بسفنه العواصف، وتشرف بها على المهالك.





دوره هو قيادة السفينة عبر المضايق والصخور والشِّعاب المرجانية الظاهرة على السطح أو الكامنة بخطورتها تحت الماء.

دوره هو التحذير من مغبة انقياد الأشرعة للرياح، واستسلامها للهواء والأهواء.

دوره هو وضع الخريطة -للخرائطي- في موضعها الصحيح، وأن يقرأ له مفاتيحها، ويبين له دقائقها ورقائقها، ويبصِّره بالمواضع التي هو مقبل عليها لأول مرة، وقد وطئتها أقدام الربان، فعلمت متاهاتها ومخاطرها، وبحرها وبرها.

فإذا أطاعه البحَّارة ونفذوا تعليماته بدقة، ووضعوا محاذيره موضع الجد، واستلهموا تشجيعه لبلوغ القصد، كان ذلك هو طريق الرشاد ومهمة الإرشاد.

وربما وصل هؤلاء البحارة إلى طريق أبعد مما وصل إليه الربان، فقد أضافوا خبرته إلى خبرتهم، وتوصلوا بجهادهم إلى جانب إرشاده، وتوصلوا بإخلاصهم وعون ربهم إلى آفاق لم يبلغها مَنْ أرشدهم، فيصلوا إلى الجزيرة المجهورة والكنز المفقود الذي يبحث عنه كل البحارة والمريدين، وها هو التلميذ يتفوق على أستاذه، والمريد يسبق مرشده، وهو ما تراه -في الظاهر- من قصة شمس التبريزي ومولانا جلال الدين الرومي.[٢٨٦]

فالمرشد وسيلة لا غاية، أداة لا هدف، قائد لا مركبة.

والتوسل -إذا حررناه من جمود المعاني اللغوية، وأخرجناه إلى رحابة التطبيقات الإيمانية- وجدنا في معانيه التوجه بالدعاء إلى الله تعالى بقلب يملؤه حب أحباب الله، وبأعين دموعها قطرات ندى الاستغفار والتسبيح والذكر، وبأكف الضراعة التي يرفعها العبد مستجديًا ربه، فإذا استحى أن يرفعهما العبد لتقصيره، يمسكهما المرشد ليرفعهما عاليًا.

٢٨٦ إن شمس التبريزي الذي اكتشف بحر الروحانية التي كانت مكنوزة في روح مولانا جلال الدين الرومي، كان كالشرارة التي أشعلت النار العظيمة، فكانت هذه وظيفته ومهمته، وأمام هذا الفيضان العظيم من الروحانية وجد التبريزي نفسه في بحر لا حدَّ له.





فالمرشد هو حرارة الدعاء التي يحترق بها قلب العبد تجاه مولاه، وهو بلاغة الكلمات التي يوجز بها المريد مطلبه من ربه تبارك وتعالى.

وبذلك لا يعني التوسل إضفاء أي نوع من القدرة أو القداسة على الصالحين أو الـمُتَوَسَّل بهم.

يقول الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: «توسلوا برسول الله ﷺ في دعائكم».

ويقول الإمام الجزري رَحِمَهُ اللَّهُ: «اتخِذوا الأنبياء والصالحين وسيلة كي يُقبَل دعاؤكم».

ولنذكر هنا بعض الأمثلة عن التوسل:

التوسل برسول الله ﷺ

يقول الإمام السبكي:

«إن التوسل بالنبي ﷺ جائز في كل حال، قبل خلقه، وبعد خلقه، في مدة حياته في الدنيا، وبعد موته في مدة البرزخ، وبعد البعث في عرصات القيامة، وفي الجنة».[287]

ويقول رسول الله ﷺ في الحديث الشريف:

«لما اقترف آدم الخطيئة قال: يا رب أسألك بحق محمد لما غفرت لي، فقال الله: يا آدم، وكيف عرفت محمدًا ولم أخلقه؟[288] قال: يا رب، لأنك لما خلقتني

---

٢٨٧ الإمام السبكي، شفاء السقام، ص٣٦٠.

٢٨٨ لقد أراد المولى ﷻ الذي كان وحده في عالم الأزل أن يعلم الإنس والجن وجوده بحسب إدراكهم، فخلق المخلوقات كلها. وكان أول مخلوق هو «النور المحمدي»، فحين سأل الصحابة رضي الله عنهم النبي ﷺ: يا رسول الله متى وجبت لك النبوة؟ قال: «**وآدم بين الروح والجسد**» (الترمذي، المناقب، ١). إذًا كان النبي ﷺ أول مخلوق بجوهره، أي النور المحمدي، وصار حين بُعث ببدنه خاتم الأنبياء. وليس المقصود في الأعلى النور المحمدي، بل بعث النبي بصفته البشرية، أي «الذات المحمدية».





بيدك، ونفخت فيَّ من روحك، رفعتُ رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوبًا: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك، فقال الله: صدقت يا آدم، إنه لأحب الخلق إلي، ادعني بحقه فقد غفرت لك، ولو لا محمد ما خلقتك».[289]

وعن ابن عباس ﵄، قال:

كانت يهود خيبر تقاتل غطفان، فكلما التقوا هُزمت يهود خيبر، فعاذت اليهود بهذا الدعاء: اللّهم إنا نسألك بحق محمد النبي الأمي الذي وعدتنا أن تخرجه لنا في آخر الزمان، إلا نصرتنا عليهم. قال: فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا الدعاء فهزموا غطفان، فلما بعث النبي ﷺ كفروا به، فأنزل الله:

﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة، ٨٩)[290]

وعن عثمان بن حنيف ﵁ أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان ﵁ في حاجة له، فكان عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر في حاجته، فلقي عثمانَ بن حنيف فشكا ذلك إليه، فقال له عثمان بن حنيف:

«ائتِ الميضأة، فتوضأ، ثم ائتِ المسجد فصلِّ فيه ركعتين، ثم قل: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد ﷺ نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه لتُقضى لي، وتَذْكرُ حاجتك، ورُحْ إليَّ حتى أروح معك».

---

٢٨٩ الحاكم، المستدرك، جـ٢، ٦٧٢؛ البيهقي، دلائل النبوة، جـ٥، ٤٨٩؛ الإمام السبكي، شفاء السقام، ص٣٦٠-٣٦٤؛ الهيثمي، جـ٨، ٢٥٣؛ السيوطي، الدر المنثور، جـ١، ٦٠ (البقرة، ٣٧).

٢٩٠ الحاكم، المستدرك، جـ٢، ٢٨٩؛ البيهقي، دلائل النبوة، جـ٢، ٧٦؛ القرطبي، جـ٢، ٢٧؛ الواحدي، أسباب النزول، ص٣١.





فانطلق الرجل فصنع ما قال له، ثم أتى باب عثمان، فجاء البواب حتى أخذ بيده، فأدخله على عثمان بن عفان، فأجلسه معه على الطنفسة، وقال:

«حاجَتك؟» فذكر حاجته فقضاها له، ثم قال له: «ما ذكرت حاجتك حتى كانت هذه الساعة»، وقال: «ما كانت لك من حاجة فائتنا»، ثم إن الرجل خرج من عنده، فلقي عثمان بن حنيف فقال له:

«جزاك الله خيرًا، ما كان ينظر في حاجتي ولا يلتفت إليَّ حتى كلمتَه فيَّ»،

فقال عثمان بن حنيف:

«والله ما كلمتُه، ولكن شهدت رسول الله ﷺ، وقد أتاه رجل ضرير، فشكا إليه ذهاب بصره،فقال له النبي ﷺ:

«أو تصبر؟»

فقال: (يا رسول الله إنه ليس لي قائد، وقد شق علي)،

فقال له النبي ﷺ: **«ائت الميضأة، فتوضأ، ثم صلِّ ركعتين ثم ادع بهذا الدعاء: (اللّهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى لي، اللهم فشفعه في)»**.

فقال عثمان بن حنيف: «فوالله ما تفرقنا وطال بنا الحديث حتى دخل عليه الرجل كأنه لم يكن به ضرر قط». [٢٩١]

وكمال الأدب أن نقول نحن إذا دعونا بهذا الدعاء: يا رسول الله، بدل يا محمد، لحرمة ندائه ﷺ باسمه، وما ذكر في هذا الحديث مستثنى لتصريحه ﷺ وسلم بالإذن فيه لذلك الرجل. [٢٩٢]

---

٢٩١ انظر: الترمذي، الدعوات، ١١٨/٣٥٧٨؛ ابن ماجه، الإقامة، ١٨٩؛ النسائي، السنن الكبرى، جـ٦، ١٦٩؛ أحمد، جـ٤، ١٣٨؛ الحاكم، جـ١، ٧٠٧-٧٠٨؛ البيهقي، دلائل النبوة، جـ٥، ٤٦٤؛ الهيثمي، جـ٢، ٢٧٩.

٢٩٢ العلامة يوسف بن إسماعيل النبهاني، الفضائل المحمدية، حلب ١٤١٤، ص ٢٣٠-٢٣١.





ويُروى أنه قُحِط أهل المدينة قحطًا شديدًا، فشكوا إلى عائشة رضي الله عنها، فقالت: «انظروا قبر النبي ﷺ، فاجعلوا منه كوى إلى السماء حتى لا يكون بينه وبين السماء سقف.» ففعلوا، فمُطروا مطرًا حتى نبت العشب، وسمنت الإبل حتى تفتقت من الشحم، فسمي «عام الفتق» (الدارمي، المقدمة، ١٥)

وفي الحديث الصحيح يقول رسول الله ﷺ:

«إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم في بعض، فيأتون آدم، فيقولون: اشفع لنا إلى ربك، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بإبراهيم، فإنه خليل الرحمن، فيأتون إبراهيم، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بموسى، فإنه كليم الله، فيأتون موسى فيقول: لست لها، ولكن عليكم بعيسى، فإنه روح الله، وكلمته، فيأتون عيسى، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بمحمد، فيأتوني، فأقول: أنا لها، فأستأذن على ربي، فيؤذن لي، ويلهمني محامد أحمده بها لا تحضرني الآن، فأحمده بتلك المحامد، وأخِرُّ له ساجدًا، فيقول: يا محمد ارفع رأسك، وقل يُسمع لك، وسل تُعطَ، واشفع تُشفَّع، فأقول: يا رب، أمتي أمتي، فيقول: انطلق، فأخرج منها مَنْ كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان، فأنطلق فأفعل، ثم أعود، فأحمده بتلك المحامد، ثم أخر له ساجدًا» [٢٩٣]

وقد استعمل رسول الله ﷺ كلمة «الاستغاثة» في الحديث الذي قال فيه:

«إن الشمس تدنو يوم القيامة، حتى يبلغ العرق نصف الأذن، فبينا هم كذلك استغاثوا بآدم، ثم بموسى، ثم بمحمد ﷺ» (البخاري، الزكاة، ٥٢)



ومن المعلوم في آداب الدعاء وقواعده المرعية أن يبدأ الداعي بحمد الله تعالى والصلاة على رسوله الكريم ﷺ، ثم يختم أيضًا دعاءه بالحمد والصلاة، فهو

٢٩٣ البخاري، الأنبياء ٣، ٩، التفسير، ١٧/ ٥، التوحيد ٣٦؛ مسلم، الإيمان ٣٠٢، ٣٢٧، ٣٢٨؛ الترمذي، القيامة، ١٠.





متيقن أن هذه الصلاة على النبي ﷺ مقبولة؛ لذا فهو يحف كلماته ودعاءه بوسيلة وتوسل لقبول الدعاء.

فعن فضالة بن عبيد، قال: بينما رسول الله ﷺ قاعد إذ دخل رجل فصلى، فقال: اللَّهم اغفر لي وارحمني، فقال رسول الله ﷺ:

«**عجلت أيها المصلي، إذا صليت فقعدت فاحمد الله بما هو أهله، وصل عليَّ ثم ادعه**» (الترمذي، الدعوات، ٦٤)

التوسل بالأنبياء

يقول الله ﷻ في القرآن الكريم عن فضيلة «التابوت»:

﴿**وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾ (البقرة، ٢٤٨)

لقد كان هذا التابوت لدى بني إسرائيل، وكانوا يطلبون العون بذلك، أي يتوسلون إلى الله تعالى بما في داخله، وبناءً على ما نقله المفسرون وكُتَّاب التاريخ مثل الطبري، والقرطبي، وابن كثير، والسيوطي، كان فيه أشياء من آثار موسى وهارون:

«عصا موسى ؈، وقطعة من لباسه، ولباس هارون ؈ ونعله، وإناؤه، وألواح التوراة».

ويقول ابن كثير:

«من بركة ولاية هذا الرجل الصالح عليهم ويمنه عليهم أن يرد الله عليهم التابوت الذي كان قد سُلب منهم، وقهرهم الأعداء عليه، وقد كانوا ينصرون على أعدائهم بسببه، قيل طشت من ذهب كان يغسل فيه صدور الأنبياء». (البداية، جـ٢، ٨)





ومن الدلائل على هذه المسألة قول النبي ﷺ في كثير من أدعيته: «بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي».[٢٩٤]

التوسل بالملائكة

ثمة الكثير من الروايات حول إمكانية التوسل بالملائكة، فعن عتبة بن غزوان رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**إذا ضلَّ أحدكم، أو أراد عونًا، وهو بأرض ليس بها أنيس، فليقل: (يا عباد الله أغيثوني) ثلاثًا، فإن لله عبادًا لا يراهم**».[٢٩٥]

وبعد هذه الرواية توجد جملة: «وقد جرب ذلك».

ويقول الإمام النووي رحمه الله الذي نقل إلينا هذا الحديث:

«حكى لي بعض شيوخنا الكبار في العلم أنه أفلتت له دابة أظنُّها بغلة، وكان يعرف هذا الحديث، فقاله، فحبسها الله عليهم في الحال، وكنت أنا مرةً مع جماعة، فانفلتت منهم بهيمةٌ وعجزوا عنها، فقلته، فوقفت في الحال بغير سببٍ سوى هذا الكلام». (الإمام النووي، الأذكار، ص٢٠١)

وعن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال:

«**إن لله ملائكة في الأرض سوى الحفظة، يكتبون ما يسقط من ورق الشجر، فإذا أصاب أحدكم عرجة بأرض فلاة فليناد: أعينوا عباد الله**» (ابن أبي شيبة، المصنف، جـ٦، ٩١؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، جـ١٠، ١٣٢)

ويقول رسول الله ﷺ في حديث آخر:

«**إذا نفرت دابة أحدكم أو بعيره بفلاة من الأرض لا يرى بها أحدًا، فليقل: أعينوني عباد الله، فإنه سيُعان**» (ابن أبي شيبة، مصنف، جـ٦، ١٠٣/ ٢٩٨١٩)

---

٢٩٤ أبو نعيم، الحلية، ١٢١؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، جـ٩، ٢٥٧.

٢٩٥ الهيثمي، مجمع الزوائد، جـ١٠، ١٣٢؛ الإمام النووي، الأذكار، ٢٠١.





التوسل بالصالحين

من العوامل المهمة التي تستجلب الرحمة الإلهية، وتحقق قبول الدعاء، توجه العبد إلى ربه كي يستجيب له بحق الأنبياء أولاً، ثم ورثتهم من الأولياء، وعباد الله الصالحين الذين هم في أسمى الدرجات عنده، أي جعل مَنْ يحبهم الله وسيلة، والالتجاء والتضرع إلى المولى ﷻ بهذه المشاعر والأحاسيس، فالعبد لا يتوجه بالدعاء إلا إلى الله ﷻ، لذا يجب على العبد أثناء دعائه أن يطلب الاستجابة من الله تعالى، لا ممَّنْ يحبهم الله تعالى حين يجعلهم وسيلة في دعائه، فذكر الصالحين هو أصل من الأصول المتبعة، لا لشيء إنما ليكونوا فقط سببًا في قبول الدعاء.

وإضافة إلى هذا كله، يجب أن نذكر هنا أن التوسل بالصالحين ذوي الفضائل، هو في الواقع توسل بأعمالهم الصالحة وسجاياهم الحميدة؛ لأن أعمالهم الصالحة هي سبب وصولهم إلى المراتب العالية، واتصافهم بالقيم السامية.

حتى إن رسول الله ﷺ قد ابتهل إلى الله طالبًا النصر والعون متوسلاً بفقراء المهاجرين، فقد رُوي أنه قال:

«**أبغوني الضعفاء، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم**» (أبو داوود، الجهاد، ٧٠؛ أحمد، جـ٥، ١٩٨)

«**إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها، بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم**» (النسائي، الجهاد، ٤٣)

وقد جعل الإمام البخاري في صحيحه بابًا سمَّاه: «باب مَنْ استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب»، ونقل فيه أحاديث شريفة منها:

«**هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم**» [٢٩٦]

٢٩٦ البخاري، الجهاد، ٧٦؛ الطبراني، المعجم الكبير، جـ١، ٢٩٢.





«يأتي زمان يغزو فئام من الناس، فيقال: فيكم مَنْ صحب النبي ﷺ؟ فيقال: نعم، فيفتح عليه، ثم يأتي زمان، فيقال: فيكم مَنْ صحب أصحاب النبي ﷺ؟ فيقال: نعم، فيفتح، ثم يأتي زمان فيقال: فيكم مَنْ صحب صاحب أصحاب النبي ﷺ؟ فيقال: نعم، فيفتح» (البخاري، الجهاد، ٧٦)

لقد أخبرنا الرسول ﷺ في هذا الحديث الشريف أنَّ النصرَ يتحقق، والفتحَ يُكتَب بالصحابة الكرام، والتابعين، وتابعي التابعين. ونرى هنا معجزة واضحة من معجزات نبينا ﷺ، وندرك فضيلة الأجيال الثلاثة الأولى من هذه الأمة، فقد كانت صلتهم بالله أقوى، وسعيهم نحو الآخرة أرشد، وانقطاعهم عن شهوات الدنيا أشد.

ويذكر اللهُ تعالى في القرآن الكريم أنه لولا وجود مَنْ لا يستحق العذاب من المؤمنين الضعفاء لحقَّ على الكفار والفجار عذابٌ شديد من الله المجيد، يقول الله تعالى في ذلك:

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (الفتح، ٢٥)

ومما يعضد هذه الوسيلة، ويعين في قبول الدعاء التوسل بالصالحين الذين لا يفطن إليهم الناس، فهم لا يملكون مالاً ولا يحوزون جاهًا؛ إنما غناهم في قلوبهم، وجاههم عند ربهم، وهم بين الناس منكسرة قلوبهم.

وينقل لنا مالك بن دينار كلامًا واضحًا معبِّرًا، حول التوسل بمَنْ لديهم قلوب منكسرة حزينة، والوصول بهم إلى الرضا الإلهي:





«قال موسى عليه السلام: يا رب أين أبغيك؟ قال: ابغني عند المنكسرة قلوبهم». (أبو نعيم، الحلية، جـ٢، ٣٦٤)

ومن الحقائق المعروفة أن بركة الصالحين تشمل مَنْ حولهم، والدليل على ذلك قول رسول الله ﷺ:

«النجوم أمنة للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماءَ ما توعد، وأنا أمنة لأصحابي، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون» (مسلم، فضائل الصحابة، ٢٠٧)

«ما من أحد من أصحابي يموت بأرضٍ إلا بعث قائدًا ونورًا لهم يوم القيامة» (الترمذي، المناقب، ٥٨/ ٣٨٦٥)

واستنادًا إلى بيان علماء التحقيق، نجد أن بعضًا من بركات أولياء الله تنتقل إلى الناس طوعًا، وكذلك تنتقل بعض هذه البركات إلى غيرهم دون إرادتهم، وتنتقل بالصورة ذاتها بعض أحوال الصالحين إلى طلاب الحق ببركة وجودهم بجانب الصالحين، والأحاديث الشريفة التي ذكرناها تثبت وجود هذه البركة.[٢٩٧]



وعن أنس بن مالك، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، فقال:

«اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا»، قال: فيُسقَون. (البخاري، الاستسقاء، ٣)

وفي رواية أخرى قال العباس:

«اللَّهم إن عندك سحابًا، وإن عندك ماء فانشر السحاب، ثم أنزل فيه الماء، ثم أنزله علينا، فاشدد به الأصل، وأطل به الزرع، وأدر به الضرع، اللهم شفعنا في

٢٩٧ الشيخ أشرف علي تانوي، حقيقة الطريقة، ص١٦١-١٦٢، حديث رقم: ١٧٩.





أنفسنا وأهلينا، اللهم إنا شفعنا إليك عمَنْ لا منطق له عن بهائمنا وأنعامنا، اللهم اسقنا سقيًا وادعة بالغة، طبقًا، عامًا، محييًا، اللهم لا نرغب إلا إليك وحدك لا شريك لك، اللهم إنا نشكو إليك سغب كل ساغب، وغُرم كل غارم، وجوع كل جائع، وعُري كل عار، وخوف كل خائف في دعاء له» (عبد الرزاق، المصنف، ٣، ٩٢، ٤٩١٣)

استسقى عمر بن الخطاب عام الرمادة بالعباس بن عبد المطلب، فقال:

«اللهم هذا عم نبيك العباس، نتوجه إليك به فاسقنا»، فما برحوا حتى سقاهم الله، قال: فخطب عمرُ الناس، فقال:

«أيها الناس، إن رسول الله ﷺ كان يرى للعباس ما يرى الولد لوالده، يعظمه، ويفخمه، ويبر قسمه، فاقتدوا أيها الناس برسول الله ﷺ في عمه العباس، واتخذوه وسيلة إلى الله ﷻ فيما نزل بكم» (الحاكم، المستدرك، جـ٣، ٣٧٧)

وتوضح الرواية هذا الموضوع وفقًا لما قاله ابن عبد البر:

عن سيدنا عمر ﷺ أنه خرج يستسقي، وخرج معه بالعباس، فقال: اللّهم إنا نتقرب إليك بعم نبيك ونستشفع به، فاحفظ فيه نبيك كما حفظت الغلامين لصلاح أبيهما،[٢٩٨] وأتيناك مستغفرين ومستشفعين، ثم أقبل على الناس فقال:

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا. يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا. وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ (نوح، ١٠-١٢)

٢٩٨ هذا القول لسيدنا عمر ﷺ إشارة إلى الآية الكريمة التي تتحدث عن جواب الخضر لموسى عليهما السلام في رحلتهما:

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ (الكهف، ٨٢)





ثم قام العباسُ وعيناه تنضحان، (وبعد أن أغاثهم الله بالعباس ﷺ) طفق الناس بالعباس يمسحون أركانه، ويقولون: هنيئًا لك ساقي الحرمين.[٢٩٩]

إن هذه الحادثة أوضح دليل يُظهر توسل صحابي بآخر، لكن هذا الحال أثار نقاشًا وجدلاً، إذ رأى بعضهم أن التوسل ممكن بالصالحين الأحياء فقط، ولا يجوز التوسل بهم بعد وفاتهم، لكن لا دليل يُثبت قولهم هذا، فالروح باقية، تحس وتدرك وتشعر، والميت بحسب اعتقاد أهل السُنة يسمع، ويحس، ويشعر؛ ويستفيد من أفعال الخير ويُسر بها، ويتأذّى من أفعال الشر ويحزن بسببها، فإذا كان هذا الأمر يشمل الناس كلهم، فكيف سيكون الحال إذًا مع النبي ﷺ أفضل البشر وأعلاهم درجة؟

لهذا السبب يعد تخصيص التوسل بالرسول ﷺ في حياته فقط وجهة نظر لا تؤيدها الحقائق الشرعية، فقد كان سيدنا عمر ﷺ يلتجئ إلى الله داعيًا:

«يا رب، توسلنا إليك بنبينا»

ولم يكن ذلك قبل وفاة النبي ﷺ فقط، بل حتى بعد وفاته. وكان السبب الذي دعاهم إلى التوسل بسيدنا العباس ﷺ -لا بغيره- أنه عم النبي ﷺ، أي إن التوسل به كان لقرابته من أشرف الخلق ﷺ، وهذا يعني توسل برسول الله ﷺ حتى بعد وفاته.

نعم، لقد توفي رسول الله ﷺ لكن فضيلته عند ربه ومقامه وموقعه وقيمته لا تموت، بل باقية إلى الأبد، لذا يُعَدُّ توسُّلنا بنبينا ﷺ إظهارًا لإيماننا بمحبة الله العظيمة لنبيه وقيمته لديه، ويفيد ذلك أيضًا إيماننا به وبرسالته ﷺ، وهذا لا يعني البتة عبادته، فمهما كانت درجته سامية، ومرتبته عالية، فهو في النهاية إنسان خلقه رب الأكوان.

---

٢٩٩ ابن عبد البر، الاستيعاب، جـ٢، ٨١٤-٨١٥؛ ابن حجر، فتح الباري، جـ٢، ٣٢٣.





ويمكن بالمثل التوسل بعباد الله الذين يحبهم الله تعالى بعد وفاتهم، وأوضح مثال على هذا المثال التالي: فقد كان العلماء وذوو الحاجات يزورون قبر الإمام الأعظم أبي حنيفة وهو من كبار السلف الصالح، ويتوسلون عنده في قضاء حوائجهم، ويرون نجاح ذلك، منهم الإمام الشافعي رحمه الله لما كان ببغداد فقد روي عنه أنه قال: «إني لأتبرك بأبي حنيفة، وآتي قبرَه، فإذا عَرَضَت لي حاجة صليت ركعتين وجئت إلى قبره، وسألت الله عنده، فتُقضى سريعًا».[٣٠٠]

التوسل بالأعمال الصالحة

الأعمال الصالحة وسيلة للتخلص من المشكلات والأزمات، فقد رُوي عن النبي ﷺ أنه قال:

«بينما ثلاثة نفر يتماشون إذ أخذهم المطر، فمالوا إلى غار في الجبل، فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل فأطبقت عليهم، فقال بعضهم لبعض: انظروا أعمالاً عملتموها لله صالحة، فادعوا الله بها لعله يفرجها».

فجعل أحدهم طاعة والديه وسيلة، فتحركت الصخرة قليلاً من مكانها، دون أن يستطيعوا الخروج، وتوسل الثاني بالحياء والعفة، فتحركت الصخرة دون أن يستطيعوا الخروج، وتوسل الثالث بمراعاة حقوق العباد، فتحركت الصخرة من مكانها وخرجوا من الغار.[٣٠١]

التوسل بأسماء الله الحسنى

من الوسائل الأخرى التي تجعل الدعاء مقبولاً ومستجابًا أسماء الله الحسنى، فذِكْرُ أسماء الله كثيرًا أثناء الدعاء والالتجاء يعد من طرق التوسل التي أمرنا الله تعالى بها.

---

٣٠٠ الهيتمي، الخيرات الحسان، ص٩٤.

٣٠١ انظر: البخاري، الأدب ٥، الأنبياء ٥٣، الذكر ١٠٠.





يقول المولى ﷻ في الآية الكريمة:

﴿**وللهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا**﴾ (الأعراف، ١٨٠)

وعن عائشة ﵂ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«**اللَّهم إني أسألك باسمك الطاهر الطيب المبارك الأحب إليك، الذي إذا دُعيتَ به أجبتَ، وإذا سُئلت به أعطيت، وإذا استرحمت به رحمت، وإذا استفرجت به فرَّجت**».

قالت: وقال ذات يوم:

«**يا عائشة هل علمتِ أن الله قد دلني على الاسم الذي إذا دعي به أجاب؟**»

قالت: فقلت: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي فعلمنيه، قال: «**إنه لا ينبغي لك يا عائشة**»، قالت: فتنحيت وجلست ساعة، ثم قمت فقبلت رأسه، ثم قلت: يا رسول الله، علمنيه، قال:

«**إنه لا ينبغي لك يا عائشة أن أعلمك، إنه لا ينبغي لك أن تسألي به شيئًا من الدنيا**»

قالت: فقمت فتوضأت، ثم صليت ركعتين، ثم قلت: اللَّهم إني أدعوك الله، وأدعوك الرحمن، وأدعوك البر الرحيم، وأدعوك بأسمائك الحسنى كلها، ما علمت منها، وما لم أعلم، أن تغفر لي وترحمني، قالت: فاستضحك رسول الله ﷺ، ثم قال: «**إنه لفي الأسماء التي دعوت بها**» (ابن ماجة، الدعاء، ٩)

وعن أنس بن مالك ﵁ قال: سمع النبيُّ ﷺ رجلاً يقول: اللَّهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، وحدك لا شريك لك، المنان، بديع السموات والأرض، ذو الجلال والإكرام، فقال:

«**لقد سأل الله باسمه الأعظم، الذي إذا سُئل به أعطى، وإذا دُعي به أجاب**» (ابن ماجة، الدعاء، ٩؛ النسائي، السهو، ٥٨)





ونفهم من هذين الحديثَين والأحاديث الشريفة الأخرى أن التوسل بأسماء الله الحسنى من سُنة رسول الله ﷺ ومن توجيهاته الشريفة.[٣٠٢]



ويرى بعض العلماء أنه لا فرق في المعنى بين الاصطلاحات الصوفية التالية: «التوسل» و«الاستعانة» و«الاستغاثة» و«التشفع» و«التَّوجه» و«التبرك»[٣٠٣]

إن هذه الألفاظ التي هي بمعنى طلب العون، تعني طلب المدد من أولياء الله تعالى الذين لديهم قدرة على التصرف، سواء أكان ذلك في غيابهم أم في حضورهم، و«طلب المدد» يعني الطلب من الصالحين الذين هم -بلا ريب- في الدرجات العليا أن يكونوا وسيلة في الوصول إلى المقصود، ويتحقق ذلك بدعائهم، وتوجههم، واهتمامهم القريب.

وتُستخدم كلمة «المدد» غالبًا للدلالة على عون أولياء الله، وتُستخدم كلمَتا «النصرة» و«التوفيق» للعون من الله تعالى.

فالمعين الأساسي هو الله جَلَّ جَلَالُهُ لا سواه، والتوسل أثناء الدعاء لا يعني أبدًا طلب العون من غيره عَزَّ وَجَلَّ؛ لأن الذي يتوجه إليه العبد أثناء الدعاء هو الله رب الأرض والسماء.

يقول الله تعالى في الآية الكريمة:

﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ الله﴾ (الأنفال،١٠)

﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (آل عمران،١٦٠)

---

٣٠٢ لمعرفة تفاصيل أكثر عن هذا الموضوع انظر: زكريا غولار، «قيمة مصدر أحاديث التوسل والوسيلة»، مجلة إلام للأبحاث، عدد ١-٢، ص٨٣-١٣٢.

٣٠٣ انظر: السبكي، شفاء السقام في زيارة خير الأنام، ص٣٦٥-٣٦٧، ٤٧٩.





وعن ابن عباس ﵄، قال: كنت خلف رسول الله ﷺ يومًا، فقال:

«**يا غلام إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجُفت الصحف**» (الترمذي، القيامة، ٥٩)[٣٠٤]

وهذه الحقيقة من الحقائق التي يقر بها المؤمنون جميعًا، ففي كل ركعة من ركعات الصلاة يتلون قوله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾، وهذا إقرار منهم بهذه الحقيقة.

وبعد العون الإلهي الذي نزل على المؤمنين في غزوة بدر نزلت الآية الكريمة التي يقول فيها الله ﷻ: ﴿**وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى**﴾ (الأنفال، ١٧).

أي إن الفاعل الحقيقي والمطلق الذي قدَّم كل نوع من أنواع العون المعنوي والألطاف، هو الله ﷻ لا سواه.

٣٠٤ لا يشير هذا الحديث الشريف كما هو واضح من ظاهره أنه لا يُطلب العون إلا من الله تعالى، ونفهم من الحديث -لدى النظر إليه من منظور شامل- أنه يأمرنا ألا ننسى أن الخير الذي يأتي إلينا عبر بعض الأسباب والوسائط هو في الواقع من الله ﷻ.

ويطلب رسول الله ﷺ بكلامه هذا أن ندرك أن النعم التي تأتينا على يد المخلوقات هي في حقيقة الأمر نِعمٌ أنعمها الله ﷻ علينا، ويخبرنا بضرورة التوكل على الله وحده. وبالطبع من اللازم -إلى جانب هذا- التوسل بالأسباب، وطلب العون من الأشخاص الضروريين. (انظر: البقرة، ٤٥؛ الأنفال، ٦٠؛ الكهف: ٩٥...)

وقد تشفَّع لنا نبينا ﷺ في المعراج بعد نصح سيدنا موسى ﵇، فكان نبينا وسيلة لتخفيف الصلوات عنا من خمسين صلاة إلى خمس صلوات فقط.

ويحذِّرنا الحديث الشريف أيضًا من الطمع وطلب أشياء من الناس لا حاجة لنا فيها، ويحثنا على القناعة بما أعطاه الله تعالى حتى لو كان قليلًا، ونتعلم من هذا الحديث أيضًا ضرورة الطلب بإصرار، من فضل الله المنان، فهو يُسَرُّ حين يرى عبده يطلب منه بإصرار وإلحاح، ولكن الإنسان بطبعه ملول.





تلك الأدعية التي تؤمِّل في ذات الله تعالى وعونه؛ تبركًا بالعون المعنوي من أولياء الله، وبركات الفيض الروحاني من الصالحين، لا تقصد أي نوع من الشرك أو الكفر أو طلب الفعل من الأولياء؛ بل طلب دعم الدعاء لدى الفاعل الأول والأوحد ﷻ.

وليست أدعية أولئك الجُهَّال الذين يطلبون من أصحاب القبور بصراحة أن يقضوا لهم حوائجهم، فيفتحون على أنفسهم وعلى سامعيهم بابًا من الشرك، فهي تقدح في جوهر العقيدة، وتخدش أصل التوحيد؛ ربما مرجع أكثرها إلى أخطاء في الفهم، وأخطاء في التصرف، وجهل بأصول التوحيد والعقيدة، ويجب مواجهة هؤلاء بالتعليم والتفهيم، ويجب أيضًا ألا نتخذهم منظارًا نرى التوسل من خلاله، وألا نجعلهم علة لنقدح في التصوف وأهله.[٣٠٥]

---

٣٠٥ إن الذين قالوا بإمكانية استعمال مثل هذه الألفاظ يزعمون أنها نوع من «المجاز العقلي» الموجود في علم البلاغة. والمجاز العقلي هو عدم إسناد الفعل إلى المؤثر والفاعل الحقيقي، بل إلى شيء له علاقة بمكان الفاعل أو زمانه أو سببه. ومثال على هذا الفن الأدبي قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ (الزلزلة، ٢). فنحن نعلم أن الذي يخرج أثقال الأرض هو الله تعالى، ولكن لم يُسند الفعل هنا إلى الفاعل الحقيقي، بل إلى مكان الفعل، ومع ذلك يبقى الفعل من أمر الله تعالى.

ويقول الصوفية إنهم يعلمون أن الفاعل الحقيقي ليس الشخص الذي يتوسلون به، ويؤمنون أن الذي يقدِّم العون في الحقيقة هو الله تعالى، وإليه يتوجهون بالطلب. (وهم يقبلون أنه إن لم يكن الأمر هكذا، فهو شرك صريح).

ويقول الإمام محمد أبو زهرة في ذلك:

«نعم تفرط من العامة عبارات كالتوسل بجاهه، أو الاستشفاع بشفاعته، وهي عبارات لا وثنية فيها، بل تؤوَّل بأقرب تأويلاته؛ ويُفهَّم الجاهلون، ولا تمنع تلك الذكريات العطرة لأجل عبارات من العوام يحسن إرشادهم، لا منعهم من الزيارة، وتفهيمهم لا تكفيرهم، وإن الله سبحانه قد صان التوحيد إلى يوم القيامة؛ وقد ذكر ذلك سيدنا محمد ﷺ في آخر حياته، وبشَّر به المؤمنين؛ وهو أن الشيطان قد يئس أن يُعبد في أرض العرب، فليس لابن تيمية أن يخاف على التوحيد من بعد». (أبو زهرة، ابن تيمية، ص٣٢٦)

إن النداء بقول «مدد يا رسول الله» الذي يتكرر كثيرًا في أدبيات الدين مع وسائل مختلفة يعني اللجوء إليه بأمل نيل شفاعته في الآخرة، ونظرة بعض الناس إلى هذا القول أنه شرك هي نظرة لا أساس لها، لأنه من المسلَّمات لدى كل مؤمن أن تحقق شفاعة النبي ﷺ يكون بأمر من الله تعالى وإذن منه.





إن احترام آثار رسول الله ﷺ نابع من عشقه ومحبته وارتباط القلب به.




ب. التبرُّك

وهو التماس البركة وطلبُها من مصدرها، ونيل فيوضاتها عبر أهلها.

والتبرك هو واحد من صور التوسل؛ لأنه وسيلة للوصول إلى الله تعالى، ومفتاح من مفاتيح الأبواب الموصلة إليه سبحانه.

ويكون التبرك بالأشخاص وبالأعيان وبالمكان؛ أي: يمكن للإنسان أن يتبرك بشخصٍ ما، أو بمكانٍ ما، أو بشيءٍ ما من الأدوات والجمادات.

أما تبركك بالأشخاص، فذلك لأنك تعلم أن هذا الشخص مبارك وقريب من الله تعالى، ومرآة لفضله وفيوضاته، وموئل لبركاته، ومرشد لعباده، وقبلة لطلاب الحاجات والبركات، وهذا الشخص المبارك والمُتبَرك به هو مجرد سبب لقضاء الله وصورة لقدره سبحانه.

وأما التبرك بالأشياء والأعيان والجمادات فليس ذلك راجعًا إلى أصل هذه الأشياء؛ إنما هو راجع إلى نسبة هذه الجمادات إلى أصحابها من أهل البركة والتقوى والروحانية، فعباءة الشيخ ومسبحته مثلًا ليست مصدرًا للبركة؛ بل هي بقيةٌ من أثر بركة هذا الشيخ وتقواه وروحانيته، التي انتقل أثرها وأريجها وعبيرها ونورها وإشعاعها النوراني من صاحبها إلى ما حوله من أشخاصٍ وجمادات.

كذلك تبركك بالأماكن التي شهدت فيوضات روحانية، وبالمناطق التي تنزلت فيها البركات والخيرات، والبقاع التي تشرفت بحياة أولي الفضل والصلاح،





وشهدت حياتهم وعبادتهم، ولقوا فيها من خيرات ربهم ونزول ملائكته وبركاته عليهم، مثلما فعل سيدنا زكريا عليه السلام عندما دعا ربه في الموطن الذي تتعبد فيه مريم عليها السلام ونزل فيه رزق ربها عليها.

أما أماكن المعاصي والفجور، فعلى الإنسان أن يبتعد عنها دائمًا، فحين مرَّ رسول الله ﷺ بالحِجر -موضع هلاك قوم ثمود- أثناء غزوة تبوك، قال لأصحابه:

«لا تَدخلوا على هؤلاء المعذَّبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم، لا يصيبكم ما أصابهم» ثم تقنَّع بردائه وهو على الرحل.(٣٠٦)

و عن نافع، أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أخبره أن الناس نزلوا مع رسول الله ﷺ أرض ثمود -الحجر- فاستقوا من بئرها، واعتجنوا به، فأمرهم رسول الله ﷺ:

«أن يهريقوا ما استقوا من بئرها، وأن يعلفوا الإبل العجين، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة» (٣٠٧)

قال الإمام النووي: وفي هذا الحديث فوائد منها مجانبة آبار الظالمين، والتبرك بآبار الصالحين. (شرح صحيح مسلم، جـ٨، ١١٨)

وفي حجة الوداع وأثناء مروره ﷺ بين منى ومزدلفة أسرع في وادي محسِّر، ففي هذا المكان قهر اللهُ عز وجل أصحاب الفيل، وأهلكهم مع قائدهم أبرهة، فاستعاذ رسول الله ﷺ أن يصيب المسلمين ما أصابهم،(٣٠٨) ولهذا السبب لا تجوز الوقفة في هذا الوادي في الحج.

---

٣٠٦ انظر: البخاري، الصلاة ٥٣، الأنبياء ١٧، التفسير، ١٥ / ٢؛ مسلم، الزهد ٣٨-٣٩.

٣٠٧ البخاري، الأنبياء، ١٧؛ مسلم، الزهد، ٤٠؛ أحمد، جـ٢، ١١٧.

٣٠٨ انظر: مسلم، الحج، ١٤٧؛ النووي، شرح صحيح مسلم، جـ٨، ١٩٠؛ أحمد، جـ١، ٧٦؛ علي القاري، مرقاة المفاتيح، جـ٥، ١٧٧٤-١٧٧٥؛ ابن القيم، زاد المعاد، بيروت ١٩٩٥، جـ٢، ٢٢٥-٢٥٦.





التبرك بالصالحين

عن عائشة ﵂:

«أن النبي ﷺكان ينفث على نفسه في المرض الذي مات فيه بالمعوِّذات، فلما ثقل كنت أنفث عليه بهنَّ، وأمسح بيد نفسه لبركتها» (البخاري، الطب، ٣٢)

وعن حذيفة ﵁ قال:

كان رسول الله ﷺ إذا لقي الرجل من أصحابه ماسحه ودعَا له، قال: فرأيته يومًا بكرة فحِدْتُ عنه، ثم أتيته حين ارتفع النهار،

فقال: «**إني رأيتك فحدتَ عني**».

فقلت: إني كنت جُنبًا فخشيت أن تمسني،

فقال رسول الله ﷺ: «**إن المسلم لا ينجس**».[٣٠٩]

وعن أنس ﵁ أنَّ أم سليم كانت تبسط للنبي ﷺ نطعًا، فيقيل عندها على ذلك النطع، قال: فإذا نام النبي ﷺ أخذت من عرقه وشعره، فجمعته في قارورة، ثم جمعته في سك، قال: فلما حضرت أنسَ بن مالك الوفاة أوصى إلي أن يجعل في حنوطه من ذلك السك، قال: فجعل في حنوطه. (البخاري، الاستئذان، ٤١)

وعنه أيضًا، قال: كان النبي ﷺ يدخل بيت أم سُليم فينام على فراشها، وليست فيه، قال: فجاء ذات يوم فنام على فراشها، فأتيت فقيل لها: هذا النبي ﷺ نام في بيتك، على فراشك، قال فجاءت وقد عرق، واستنقع عرقه على قطعة أديم، على الفراش، ففتحت عتيدتها فجعلت تنشف ذلك العرق فتعصره في قواريرها، ففزع النبي ﷺ فقال: «**ما تصنعين؟ يا أم سليم**»

فقالت: يا رسول الله نرجو بركته لصبياننا، قال: «**أصبتِ**» (مسلم، الفضائل، ٨٤)

---

٣٠٩ النسائي، الطهارة، ١٧٢/ ٢٦٧. قارن: البخاري، الغسل، ٢٣؛ الترمذي، الطهارة، ٨٩/ ١٢١.





وعن جابر بن عبد الله ﷺ، قال: مرضتُ فأتاني رسول الله ﷺ، وأبو بكر يعودانني ماشيين، فأغمي علي، فتوضأ، ثم صَبَّ عليَّ من وَضوئه، فأفقت، قلت: يا رسول الله، كيف أقضي في مالي؟ فلم يرد عليَّ شيئًا، حتى نزلت آية الميراث ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾. (النساء، ١٧٦) (البخاري، التفسير، ٤/ ٤؛ مسلم، الفرائض، ٥-٨)[٣١٠]

وعن طلق بن علي ﷺ قال: خرجنا وفدًا إلى النبي ﷺ فبايعناه، وصلينا معه وأخبرناه أن بأرضنا بيعة لنا، فاستوهبناه من فضل طهوره فدعا بماء فتوضأ وتمضمض، ثم صبه في إداوة وأمرنا فقال:

«اخرجوا فإذا أتيتم أرضكم فاكسروا بيعتكم، وانضحوا مكانها بهذا الماء واتخذوها مسجدًا»

قلنا: إن البلد بعيد، والحر شديد، والماء ينشف، فقال: **«مدوه من الماء؛ فإنه لا يزيده إلا طيبًا»**

فخرجنا حتى قدمنا بلدنا فكسرنا بيعتنا، ثم نضحنا مكانها، واتخذناها مسجدًا، فنادينا فيه بالأذان، قال: والراهب رجل من طيء، فلما سمع الأذان قال: دعوة حق، ثم استقبل تلعة من تلاعنا فلم نره بعد (النسائي، المساجد، ١١؛ أحمد، جـ٤، ٢٣)

وعن أبي جحيفة ﷺ، قال: خرج رسول الله ﷺ بالهاجرة إلى البطحاء، فتوضأ ثم صلى الظهر ركعتين، والعصر ركعتين وقام الناس فجعلوا يأخذون يديه فيمسحون بهما وجوههم، قال: فأخذت بيده فوضعتها على وجهي، فإذا هي أبرد من الثلج وأطيب رائحة من المسك (البخاري، المناقب، ٢٣؛ أحمد، جـ٤، ٣٠٩)

---

٣١٠ لقراءة حديث آخر لصحابي تبرك تبركًا مشابهًا، وشُفي من مرضه انظر: البخاري، الوضوء، ٣٩، المرضى، ١٨. ولحديث آخر يأمر فيه النبي ﷺ صحابيًا بالتبرك بماء الوضوء لصحابي آخر فشافاه الله، انظر: مسلم، السلام، ٤٢؛ أبو داوود، الطب، ١٥/ ٣٨٨٠؛ الموطأ، العين، ١،٢.





ويوضح لنا أنس بن مالك ﵁ في رواياته عن حج الرسول ﷺ ، تنافس الصحابة فيما بينهم للتبرك بشعر رسول الله ﷺ، فيقول:«لما رمى رسول الله ﷺ الجمرة، ونحر نسكه وحلق، ناول الحالق شِقه الأيمن فحلقه، ثم دعا أبا طلحة الأنصاري فأعطاه إياه، ثم ناوله الشق الأيسر»، فقال: «احلق» فحلقه، فأعطاه أبا طلحة، فقال: «اقسمه بين الناس». (مسلم، الحج، ٣٢٦؛ الترمذي، الحج، ٧٣/ ٩١٢)

ويقول أنس ﵁ أيضًا:

«رأيت رسول الله ﷺ والحلاق يحلقه، وأطاف به أصحابه، فما يريدون أن تقع شعرة إلا في يد رجل». (مسلم، الفضائل، ٧٥)

وفي رواية أخرى في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قد وزع الشعرة والشعرتين بين الناس. (مسلم، الحج، ٣٢٤)

وكان الناس يتنافسون للحصول على شَعره المبارك ﷺ. (أحمد، جـ٣، ٢٥٦)

وحين حُدِّث عبيدة السلماني وهو من كبار التابعين بهذا الحديث قال: «لأن يكون عندي منه شعرة أحب إلي من كل صفراء وبيضاء أصبحت على وجه الأرض وفي بطنها». (أحمد، جـ٣، ٢٥٦)

لقد كان الصحابة الكرام لا يتبركون بأشياء الرسول ﷺ فقط، بل بخصلات شعره ولحيته المباركة أيضًا، وكانوا لا ينسون التبرك حتى أثناء القتال، وخير مثال على ذلك احتفاظ خالد بن الوليد ﵁ ببعضٍ من خصلات شعر رسول الله ﷺ في قلنسوته، وتشير الروايات إلى أن خالدًا ﵁ قال للنبي أثناء حلقه ناصيته:

«يا رسول الله، ناصيتك! لا تؤثر بها عليَّ أحدًا، فداك أبي وأمي!»[٣١١]

---

٣١١ يقول سيدنا أبو بكر ﵁: كنت أنظر إلى خالد بن الوليد وما نلقى منه في أحد، وفي الخندق، وفي الحديبية، وفي كل موطن لاقانا، ثم نظرت إليه يوم النحر يقدم إلى رسول الله ﷺ بدنة، وهي تعتب في العقل. (الواقدي، جـ٣، ١١٠٨-١١٠٩)





وحين أُعطي ما طلب، كان يضعها على عينيه وفيه، فلا يلقى جمعًا إلا فضَّه، وكان يقول: «فاتخذت قلنسوة، فجعلتها في مقدم القلنسوة، فما وجهته في وجه إلا وفتح له»[٣١٢] (انظر: الواقدي، المغازي، جـ٣، ١١٠٨؛ ابن الأثير، أسد الغابة، جـ٢، ١١١)

وعن جعفر بن عبد الله بن الحكم: «أن خالد بن الوليد فقد قلنسوة له يوم اليرموك، فقال: اطلبوها، فلم يجدوها، فقال: اطلبوها، فوجدوها فإذا هي قلنسوة خَلِقَة، فقال خالد: اعتمر رسول الله ﷺ فحلق رأسه، فابتدر الناس جوانب شعره فسبقتهم إلى ناصيته، فجعلتها في هذه القلنسوة، فلم أشهد قتالاً وهي معي إلا رزقت النصرة». (الهيثمي، مجمع الزوائد، جـ٩، ٣٤٩؛ العيني، عمدة القاري، جـ٨، ٢٣٠-٢٣١)

---

٣١٢ يروي لنا السيد حكمت أطان مثالاً حيًّا حول موضوع التبرك بشعر رسول الله ولحيته قائلاً:
في عام ١٩٨٣ سمعت علي يوجل أفندي يحكي هذه الحادثة: كنت إمامًا في المسجد الجامع بصولو أوفا، وفي يوم من الأيام جاء إليَّ إمام من قرية مجاورة وقال: «سأخبرك بحادثة لم أجد لها أي معنى»، ثم بدأ بالشرح:
«في يوم من الأيام أتاني بعض الأشخاص من قرية مجاورة للقرية التي كنت إمامًا فيها، ومعهم مجموعة من الكتب، وقالوا لي:
(يا شيخنا، لقد تُوفي والدنا، وبقيت كتبه لدينا، لكننا لا نستطيع قراءة هذه الكتب، وأنت أستاذ يمكنك الاستفادة منها، فهي هديتنا لك).
فأخذت الكتب، وبعد أن ودَّعتهم، جلست بالقرب من المدفأة التي كانت تلتهب بنيرانها، وبدأت اتصفح الكتب. فوجدت داخلها مكتوبات وظروف تعود للأب المتوفَّى. فجمعت هذه المكتوبات ورميتها داخل المدفأة لأنها كانت خاصة به. كانت النار مشتعلة في المدفأة، ولكن ما إن ألقيت المكتوبات، حتى خمدت. فأُصِبت بالدهشة لما حصل، وخرجت من البيت خائفًا. وبعد مدة ليست بالقصيرة، استطعت الدخول إلى البيت بخوف».
يقول علي أفندي: فقلت للإمام: «توجد لحية الرسول في تلك الظروف». وبعد مدة صادفت ذلك الإمام فقال لي: «يا شيخي، كيف عرفت أن لحية الرسول في تلك الظروف؟» لقد جاء الذين أهدوني هذه الكتب لاحقًا وقالوا: «لم نكن نعلم يا شيخي أن لحية الرسول ﷺ موجودة في الظروف بين تلك الكتب، فهلا تعطينا إياها؟»
وقصصت لهم هذه القصة المدهشة.





إن هذه الحوادث التي جرت أمام أعين الصحابة ما هي إلا دليل على انتقال الروحانية والأحاسيس، ودخولها حتى في الأشياء المادية، وبيت القصيد هنا أن يكون المرء صاحب قلب واعٍ يتلقى الفيوضات المنعكسة من الأشياء المباركة شريطة ألا تتجاوز الحد.

وقد استمر السلف الصالح ﷺ بعد الصحابة بتطبيق مثل هذه الأمور التي لها علاقة بالتبرك، ولنا أن نذكر هنا بعضًا من الحوادث أمثلةً على هذا الموضوع:

عن ابن سيرين، قال: قلت لعبيدة:

«عندنا من شعر النبي ﷺ أصبناه من قِبَلِ أنس أو من قبل أهل أنس» فقال: «لأن تكون عندي شعرة منه، أحب إليَّ من الدنيا وما فيها». (البخاري، الوضوء، ٣٣)

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: «رأيت أبي يأخذ شعرة من شعر النبي ﷺ فيضعها على فيه يقبلها. وأحسب أني رأيته يضعها على عينه، ويغمسها في الماء ويشربه يستشفي به. ورأيته أخذ قصعة النبي ﷺ فغسلها في حب الماء، ثم شرب فيها، ورأيته يشرب من ماء زمزم يستشفي به، ويمسح به يديه ووجهه».[٣١٣]

وعن أبي أمامة بن سهل بن حنيف أنه قال: رأى عامر بن ربيعة سهل بن حنيف يغتسل، فقال: ما رأيت كاليوم ولا جلد مخبأة، فلبط سهل، فأتي رسول الله ﷺ، فقيل: يا رسول الله، هل لك في سهل بن حنيف؟ والله ما يرفع رأسه، فقال: «**هل تتهمون له أحدًا؟**» قالوا: نتهم عامر بن ربيعة، قال: فدعا رسول الله ﷺ عامرًا فتغيظ عليه، وقال: «**علام يقتل أحدُكم أخاه، ألا بركت اغتسل له**»، فغسل عامر وجهه ويديه، ومرفقيه وركبتيه، وأطراف رجليه وداخلة إزاره في قدح، ثم صب عليه، فراح سهل مع الناس ليس به بأس. (موطأ، العين، ٢؛ قارن: مسلم، السلام، ٤٢؛ أبو داوود، الطب، ١٥/ ٣٨٨٠)

---

٣١٣ الذهبي، سير أعلام النبلاء، بيروت ١٩٨٦-١٩٨٨، جـ١١، ٢١٢.





ويتعرض المرء إلى العين أي الحسد كثيرًا، لذا يلزم عليه التعوذ بالله تعالى دائمًا، وقراءة بعض السور مثل الفاتحة، والفلق، والناس، وآية الكرسي وغيرها، ويجب عليه أن يدعو الله كثيرًا.

فعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ:

«أكثر مَنْ يموت من أمتي بعد كتاب الله وقضائه وقدره بالأنفس».

قال البزار: يعني بالعين. (الهيثمي، جـ٥، ١٠٦)

وعن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ:

«مَنْ رأى شيئًا يعجبه، فقال: ما شاء الله لا قوة إلا بالله لم يضره» (البيهقي، شعب، جـ٦، ٢١٣/ ٤٠٦٠؛ علي المتقي، الكنز، جـ٦، ٧٤٦)

التبرك بفضلة الطعام

إن أكل وشرب فضلة طعام الأولياء يعد وسيلة من وسائل ترقي الروح، وليس هذا الأمر بدعة أو لا يستند إلى دليل كما يظن بعضهم، فثمة الكثير من الأمثلة على ذلك من حياة النبي ﷺ في كتب الحديث والسيرة.

فقد وجد الصحابة البركة في بقايا الطعام المبارك للنبي ﷺ في أماكن وأزمنة مختلفة، لاسيما في غزوة الحديبية.

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: عطش الناس يوم الحديبية والنبي ﷺ بين يديه ركوة فتوضأ، فجهش الناس نحوه، فقال: «**ما لكم؟**» قالوا: ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب إلا ما بين يديك، فوضع يده في الركوة، فجعل الماء يثور بين أصابعه، كأمثال العيون، فشربنا وتوضأنا، ولما سُئل جابر: كم كنتم؟ قال: لو كنا مئة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مئة. (البخاري، المناقب، ٢٥)

ولا ريب أن هذا الماء الذي نبع من بين يدَي رسول الله ﷺ أفضل من ماء زمزم وأكثر شفاءً؛ لأنه نبع من بين يده النورانية وبدنه الشريف المبارك.





وثمة أحاديث شريفة توضح أنه لما كان رسول الله ﷺ يشرب اللبن، كان يعطي بقية اللبن إلى أصحابه، فتنتقل الفيوضات إلى الشارب، وتحل البركة على اللبن، فلا ينقص شيء.

فعن سهل بن سعد رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ أُتي بشراب فشرب منه، وعن يمينه غلام، وعن يساره الأشياخ، فقال للغلام:

«أتأذن لي أن أعطي هؤلاء؟»

فقال الغلام :والله يا رسول الله، لا أوثر بنصيبي منك أحدًا، قال :فتلَّه رسول الله ﷺفي يده . (البخاري، الأشربة، ١٩)

وعن أسماء بنت أبي بكر: أنها حملت بعبد الله بن الزبير بمكة، قالت: فخرجت وأنا مُتِمٌّ، فأتيت المدينة فنزلت قباء، فولدت بقباء، ثم أتيت به رسول الله ﷺ فوضعته في حجره، ثم دعا بتمرة فمضغها، ثم تفل في فيه، فكان أول شيء دخل جوفه ريق رسول الله ﷺ ، ثم حنكه بالتمرة، ثم دعا له فبرك عليه.[٣١٤]

وعن أنس رضي الله عنه قال: «لما ولدت أم سليم، قالت لي: يا أنس، انظر هذا الغلام، فلا يصيبن شيئًا حتى تغدو به إلى النبي ﷺ يحنكه،[٣١٥] فغدوت به[٣١٦]»

عن أبي أيوب رضي الله عنه، أن النبي ﷺ نزل عليه، فكان يصنع للنبي ﷺ طعامًا، فإذا جيء به إليه، سأل عن موضع أصابعه، فيتتبع موضع أصابعه. (مسلم، الأشربة، ١٧٠-١٧١)

وعن جابر رضي الله عنه، قال:

كنا يوم الخندق نحفر، فعرضت كديَّة شديدة، فجاؤوا النبي ﷺ فقالوا: هذه كديَّة عرضت في الخندق، فقال: «**أنا نازل**». ثم قام وبطنه معصوب بحجر،

---

٣١٤ البخاري، العقيقة، ١؛ مسلم، الأدب، ٢٥.

٣١٥ التحنيك: هو وضع شيء حلو مثل التمر أو العسل في حَنك الوليد قبل أن يتذوق حليب أمه.

٣١٦ البخاري، اللباس ٢٢، الزكاة ٦٩، الجنائز ٤٢، العقيقة ١؛ مسلم، الآداب، ٢٢.





ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقًا، فأخذ النبي ﷺ المعول فضرب، فعاد كثيبًا أهيل، أو أهيم، فقلت: يا رسول الله، ائذن لي إلى البيت، فقلت لامرأتي: رأيت بالنبي ﷺ شيئًا ما كان في ذلك صبر، فعندك شيء؟ قالت: عندي شعير وعناق، فذبحت العناق، وطحنت الشعير حتى جعلنا اللحم في البرمة، ثم جئت النبي ﷺ والعجين قد انكسر، والبرمة بين الأثافي قد كادت أن تنضج، فقلت: طعيم لي، فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان، قال: «**كم هو**» فذكرت له، قال: «**كثير طيب**»، قال: «**قل لها: لا تنزع البرمة، ولا الخبز من التنور حتى آتي**»، فقال: «**قوموا**»، فقام المهاجرون والأنصار، فلما دخل على امرأته قال: ويحك، جاء النبي ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومَنْ معهم، قالت: هل سألك؟ قلت: نعم، فقال: «**ادخلوا ولا تضاغطوا**» فجعل يكسر الخبز، ويجعل عليه اللحم، ويخمر البرمة والتنور إذا أخذ منه، ويقرب إلى أصحابه ثم ينزع، فلم يزل يكسر الخبز، ويغرف حتى شبعوا وبقي بقية، قال: «**كلي هذا وأهدي، فإن الناس أصابتهم مجاعة**» (البخاري، المغازي، ٢٩؛ مسلم، الأشربة، ١٤١)

وحين نزل النبي ﷺ بأصحابه بالجعرانة بين مكة والمدينة، أثناء عودتهم من غزوة الطائف، دعا بقدح فيه ماء، فغسل يديه ووجهه فيه ومجَّ فيه، ثم قال لأبي موسى الأشعري وبلال رضي الله عنهما:

اشربا منه، وأفرغا على وجوهكما ونحوركما وأبشرا»

فأخذا القدح ففعلا، فنادت أم سلمة من وراء الستر :أن أفضلا لأمكما، فأفضلا لها منه طائفة .(البخاري، المغازي، ٥٦)





التبرك بالأشياء

من الحقائق المعروفة أن الشيء الذي يُذكِّر المرء بمحبوبه يقوِّي الرابطة معه عبر التأثر به، وهذه سمة تقتضيها الفطرة الإنسانية، لكن قد تزداد هذه المشاعر لتصل إلى درجة العبادة، وهذا ما نراه في حقائق التاريخ.[٣١٧]

وإذا نظرنا من منظور آخر نجد أنه من الميول البشرية الطبيعية أن يحبَّ الإنسان الأشياء التي تذكره بحبيبه، والمهم هنا هو عدم تجاوز الحد في هذه المحبة، ولا ريب أن المفاهيم المجردة تعكس أحوالاً وهيئات على الأشياء المادية المشخَّصة، وخير مثال على هذا ما ورد في القرآن الكريم:

فحين أُخرج قميص يوسف عليه السلام من مصر ليؤخَذ إلى أبيه يعقوب عليه السلام، وجد يعقوب عليه السلام ريح ابنه مع أنه كان في بلاد الكنعانيين، وحين مسح عينيه بالقميص، عاد إليه بصرُه.[٣١٨]

وهذا التأثير الذي يتحقق بالأشياء هو من الوسائل التي يستخدمها المرشد الكامل -إلى حد معين- كي يحفظ السالك في مستوى معين، فالانشغال مع هذه الانعكاسات يقوِّي الرابطة، وهو في الوقت ذاته سُنة التهادي.

---

٣١٧ إذا نظرنا في تاريخ الأديان نجد ما يسمى بـ«الوثنية»، وعبادة الأشياء التي تركها الصالحون بعد وفاتهم، وما يرافقها من ضلالات بإضافة القداسة عليها، ويعد هذا كله انحرافًا نتج عن تجاوز الميول والأحساسيس البشرية حدودها الطبيعية، فمن العسير فهم المفاهيم المجردة، ولهذا انحرف قسم من الناس عن الصراط المستقيم حين قاموا بتشخيص الخالق بأشياء مادية، فكانت ولادة الوثنية نتيجة هذا الضعف البشري، لكن علينا أن نعرف أن التجليات المعنوية للحقائق المجردة موجودة بالفعل في الأمور المادية، والمنهج الصحيح كي يدرك أصحاب المحاكمات السليمة انعكاسات الحقائق المجردة وتجلياتها على الأمور المادية هو عبر الانتقال من الأثر إلى المؤثر. وبهذه الطريقة يُعرف الله جل جلاله، والروح، والمفاهيم المجردة الأخرى.

٣١٨ انظر: يوسف، ٩٣-٩٦.





ويروي الزبير بن العوام ﷺ أنه كان معه عَنَزَة[٣١٩] يوم بدر، فسأله إياها رسولُ الله ﷺ فأعطاه، فلما قُبض رسول الله ﷺ أخذها، ثم طلبها أبو بكر ﷺ فأعطاه، فلما قُبض أبو بكر سألها إياه عمر فأعطاه إياها، فلما قُبض عمرُ ﷺ أخذها، ثم طلبها عثمان ﷺ منه فأعطاه إياها، فلما قُتل عثمان وقعت عند آل علي فطلبها عبد الله بن الزبير ﷺ، فكانت عنده حتى قُتل. (البخاري، المغازي، ١٢)

فما السبب وراء هذا الحرص والاهتمام بهذه الرمح خاصة على كثرة الرماح المشابهة؟ إذا ما دلَّ هذا على شيء، فإنه يدل على وجود قيمةٍ فيها لا توجد في غيرها من الرماح. ولا بد أن نسأل أنفسنَا هنا السؤال التالي كي نعي جيدًا: مَنْ هم الذين أظهروا اهتمامًا كبيرًا بهذه الرمح؟ إنهم الخلفاء الراشدون الأربعة، سند الدين، وأئمة الموحدين، وحُماة شريعة رب العالمين، ومِنْ بعدهم الزبير بن العوام وابنه عبد الله ﷺ أجمعين.

وعن أبي حازم، عن سهل بن سعد ﷺ ، قال: حين نزل رسول الله ﷺ في سقيفة بني ساعدة هو وأصحابه، قال: «**اسقنا يا سهل**»، فخرجت لهم بهذا القدح فأسقيتهم فيه، ويروي أبو حازم :أخرج لنا سهل ذلك القدح فشربنا منه، قال :ثم استوهبه عمر بن عبد العزيز بعد ذلك فوهبه له. (البخاري، الأشربة، ٣٠)

وعن حجاج بن حسان قال :كنا عند أنس بن مالك ﷺ فدعا بإناء ...فأمر فجعل لنا فيه ماء فأتينا به، فشربنا وصببنا على رؤوسنا ووجوهنا، وصلينا على النبي ﷺ. (أحمد، جـ٣، ١٧٨ [٣٢٠])

---

٣١٩ العنزة: هي رمح قصير عريض النصل. (المترجم)

٣٢٠ ثمة أمثلة كثيرة عن التبرك بالإناء أو القِربة التي كان يشرب بها النبي ﷺ الماء. انظر: البخاري، الأشربة ٣٠، فرض الخمس ٥؛ مسلم، الأشربة، ٨٩؛ الترمذي، الأشربة، ١٨/ ١٨٩٢؛ ابن ماجه، الأشربة، ٢١؛ أحمد، جـ٣، ١١٩، ١٨٧، ٢٤٧؛ جـ٦، ٣٧٦؛ ابن حجر، فتح الباري، جـ١٠، ١٠٠.





وعن سهل بن سعد، قال: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ ببردة، فقال سهل للقوم: أتدرون ما البردة؟ فقال القوم: هي الشملة، فقال سهل: هي شملة منسوجة فيها حاشيتها، فقالت: يا رسول الله، أكسوك هذه، فأخذها النبي ﷺ محتاجًا إليها فلبسها، فرآها عليه رجل من الصحابة.

فقال: يا رسول الله، ما أحسن هذه، فاكسنيها، فقال: «**نعم**»، فلما قام النبي ﷺ لامه أصحابه، قالوا: ما أحسنتَ حين رأيت النبي ﷺ أخذها محتاجًا إليها، ثم سألتَه إياها، وقد عرفت أنه لا يُسأل شيئًا فيمنعه، فقال: رجوت بركتها حين لبسها النبي ﷺ، لعلي أُكفَّنُ فيها. (البخاري، الأدب، ٣٩)

وفي رواية أخرى قال: إني والله، ما سألته لألبسه، إنما سألته لتكون كفني، قال سهل: فكانت كفنه. (البخاري، الجنائز، ٢٩؛ الطبراني، القبر، جـ٦، ١٣٣/ ٥٧٥١)

وقيل إن الصحابي الذي طلب الشملة هو عبد الرحمن بن عوف وقيل هو سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه. (ابن حجر، فتح الباري، جـ٣، ١٤٣-١٤٤)

وأخرجت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما جبة يومًا، وقالت لمولاها عبد الله:

«هذه جبة رسول الله ﷺ كانت عند عائشة حتى قُبضت، فلما قبضت قبضتها، وكان النبي ﷺ يلبسها، فنحن نغسلها للمرضى يستشفى بها». (مسلم، اللباس، ١٠)

وعن جابر رضي الله عنه، قال: أقبلنا من مكة إلى المدينة مع رسول الله ﷺ. فاعتلَّ جملي -وساق الحديث بقصته- وفيه ثم قال لي: «**بعني جملك هذا**»، قال: قلت: لا، بل هو لك، قال: «**لا، بل بعنيه**» قال: قلت: لا، بل هو لك يا رسول الله، قال: «**لا، بل بعنيه**»، قال: قلت: فإن لرجل عليَّ أوقية ذهب، فهو لك بها، قال: «**قد أخذته، فتبلغ عليه إلى المدينة**»، قال: فلما قدمت المدينة، قال رسول الله ﷺ لبلال: «**أعطه أوقية من ذهب وزده**»، قال: فأعطاني أوقية من ذهب، وزادني قيراطًا، قال: فقلت: لا تفارقني زيادة رسول الله ﷺ، قال: فكان في كيس لي فأخذه أهل الشام يوم الحرة. (مسلم، المساقاة، ١١١)





وحين احترقت الكعبة زمن يزيد بن معاوية، قال عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما:

«يا أيها الناس، أشيروا عليَّ في الكعبة، أنقضها ثم أبني بناءها؟ أو أصلح ما وهى منها؟»، قال ابن عباس: فإني قد فرق لي رأي فيها، أرى أن تصلح ما وهى منها، وتدع بيتًا أسلم الناس عليه، وأحجارًا أسلم الناس عليها، وبعث عليها النبي ﷺ. (مسلم، الحج، ٢٠٤)

وكان للعباس ميزاب على طريق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فلبس عمر ثيابه يوم الجمعة، وقد كان ذبح للعباس فرخان، فلما وافى الميزاب، صب ماء بدم الفرخين، فأصاب عمر وفيه دم الفرخين، فأمر عمر بقلعه، ثم رجع عمر فطرح ثيابه، ولبس ثيابًا غير ثيابه، ثم جاء فصلى بالناس، فأتاه العباس فقال: «والله إنه للموضع الذي وضعه النبي ﷺ»، فقال عمر للعباس: «وأنا أعزم عليك لما صعدت على ظهري حتى تضعه في الموضع الذي وضعه رسول الله ﷺ»، ففعل ذلك العباس رضي الله عنه .(أحمد، جـ١، ٢١٠؛ الهيثمي، جـ٤، ٢٠٦)

وعن عائشة رضي الله عنها قالت:

كانت قريش بمكة وليس شيء أحب إليها من السرير تنام عليه، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، ونزل منزل أبي أيوب، قال ﷺ: «**يا أبا أيوب أما لكم سرير؟**» قال: لا والله. فبلغ أسعد بن زرارة ذلك، فبعث إلى رسول الله ﷺ بسرير له عمود، وقوائمه ساج، مرمول بخزم، يعني المسد. فكان ينام عليه حتى تحول إلى منزلي، كان فيه...[٣٢١] لي فكان ينام عليه حتى تُوفي، فوضع عليه وصُلي عليه وهو فوقه، فطلبه الناس منا يحملون موتاهم عليه، فحمل عليه أبو بكر، وعمر، والناس طلبًا لبركته. (البلاذري، أنساب الأشراف، جـ١، ٥٢٥)

---

٣٢١ كلمة مطموسة في الأصل كأنها «فوهبته». لعلها «سرير لأمي فوهبته».





ومن الحوادث المشابهة الأخرى، الحادثة الآتية:

كان أبو هريرة ﷺ أكثر مَنْ روى عن رسول الله ﷺ، إذ كان دائمًا جانب النبي في كل أحواله وحركاته، ويروي قائلاً، قلت للنبي ﷺ: يا رسول الله أسمع منك أشياء فلا أحفظها، قال: «**ابسط رداءك**» فبسطتُ، فحدث حديثًا كثيرًا، فما نسيت شيئًا حدثني به. (الترمذي، المناقب، ٤٦)

وعن صفية بنت بحرة، قالت :استوهب عمِّي فراس من النبي ﷺ قصعة رآه يأكل فيها .فأعطاه إياها، قال:

«وكان عمر إذا جاءنا قال أخرجوا إليَّ قصعة رسول اللهﷺ ، فنخرجها إليه فيملؤها من ماء زمزم فيشرب منها وينضحه على وجهه». (ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، جـ٣، ٢٠٢، جـ٥، ٢٦٧)

وقد ثبت أن عبد الله بن أحمد بن حنبل سأل أباه عمَّنْ يلمس رمانة منبر النبي ﷺ، ويمس الحجرة النبوية، فقال: «لا أرى بذلك بأسًا». (الذهبي، السير، جـ١١، ٢١٢)

ويقول القاضي عياض:

«إن ابن عمر قد رُئي واضعًا يده على مقعد النبي ﷺ من المنبر ثم وضعها على وجهه».[٣٢٢]

وعن يزيد بن عبد الله بن قسيط قال:

«رأيت نفرًا من أصحاب النبي ﷺ إذا خلا لهم المسجد قاموا إلى رمانة المنبر القرعاء فمسحوها ودعوا»[٣٢٣]

---

٣٢٢ ابن سعد، جـ١، ٢٥٤؛ القاضي عياض، الشفاء، جـ٢، ٤٧، ٧١؛ ابن تيمية، مجموع الفتاوى، جـ١، ٢٣٠.

٣٢٣ ابن أبي شيبة، مصنف، جـ٣، ٤٥٠/ ١٥٨٨١؛ ابن سعد، جـ١، ٢٥٤؛ القاضي عياض، الشفاء، جـ٢، ٧١ (حكم زيارة قبر النبي ﷺ)



وقد أفرد البخاري في صحيحه بابًا خاصًا بهذا الموضوع سمَّاه: باب ما ذكر من درع النبي ﷺ، وعصاه، وسيفه، وقدحه، وخاتمه، وما استعمل الخلفاء بعده من ذلك مما لم يذكر قسمته، ومن شعره، ونعله، وآنيته مما يتبرك أصحابه وغيرهم بعد وفاته. (البخاري، فرض الخمس، ٥)



ولنذكر هنا حادثة جرت بين الإمامَين أحمد بن حنبل والشافعي، فهي مثال جيد على هذا الموضوع:

يقول الربيع وهو أحد أبرز طلاب الإمام الشافعي: قال لي الشافعي: يا ربيع خذ كتابي، وامضِ به وسلِّمه إلى أبي عبد الله أحمد بن حنبل وأتني بالجواب، فدخلت بغداد، فلما انفتل من المحراب سلَّمت إليه الكتاب، وقلت له: هذا كتاب أخيك الشافعي من مصر، فقال أحمد: نظرتَ فيه؟ قلت: لا، وكسر أحمد الخاتم، وقرأ الكتاب، فتغرغرت عيناه بالدموع، فقلت له أي شيء فيه يا أبا عبد الله؟ فقال: يذكر أنه رأى النبي ﷺ في المنام فقال له: اكتب إلى أبي عبد الله أحمد بن حنبل واقرأ عليه مني السلام، وقل إنك ستُمتحن وتُدعى إلى خلق القرآن، فلا تجبهم، يرفع الله لك علمًا إلى يوم القيامة، قال الربيع: فقلت البشارة، فخلع قميصه الذي يلي جلده فدفعه إلي، فأخذته وخرجت إلى مصر، وأخذت جواب الكتاب، وسلمته إلى الشافعي. فقال لي: يا ربيع، أي شيء الذي دفع إليك؟ قلت: القميص الذي يلي جلده. فقال لي الشافعي: ليس نفجعك به، ولكن بُلَّه وادفع إلينا الماء حتى أشركك فيه.[٣٢٤]

وقد حُفظت شعرات النبي ﷺ بكل اعتناء، فكانت مثل نسمات رحمة على المسلمين، تهبُّ من عصره إلى أيامنا هذه.

---

٣٢٤ انظر: ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد بن حنبل، ص٦٠٩-٦١٠.





إن تقدير واحترام أشياء الرسول ﷺ الناتج عن محبته وعشقه يقوِّي الرابطة القلبية تجاهه ﷺ، وكم من مُحبٍّ للنبي ﷺ قد استفاد من بركة أشياء النبي ﷺ العزيزة المباركة.

لقد استمرت عظمة الإمبراطورية العثمانية ستة قرون ونيِّفًا، وهي مدة لم تحظَ بها أية دولة إسلامية قبلها، وكان سر هذه العظمة هو إعطاء العثمانيين أهمية للروحانية. ومن الروايات المشهورة أن السلطان عثمان غازي حلَّ ضيفًا في بيت من البيوت، فلم يمدَّ قدمَيه طوال الليلة بسبب وجود القرآن الكريم في الغرفة. وقد أحضر السلطان سليم خان الأمانات المقدسة إلى إسطنبول بكل تبجيل وتعظيم، وعيَّن أربعين من حفاظ القرآن -وكان هو بنفسه أحدهم- كي يرتلوا عندها القرآن الكريم، واستمر هذا العُرف دون انقطاع حتى سقوط الخلافة. وكان ذلك السلوك وأمثاله أحد الأسباب المعنوية لعظمة الدولة العثمانية.

إن وجود خرقة النبي ﷺ الشريفة والأمانات المقدسة في قصر طوب كابي (الباب العالي) في يومنا هذا، وإمكانية أن يراها كل زائر، كان وسيلة لأمتنا والعالم الإسلامي كله كي يتبرَّكوا بها، وينالوا الشرف والرفعة.

التبرك بالمكان

عن أبي بردة، قال: قدمت المدينة فلقيني عبد الله بن سلام، فقال لي:

«انطلق إلى المنزل، فأسقيك في قدح شرب فيه رسول الله ﷺ، وتصلي في مسجدٍ صلى فيه النبي ﷺ، فانطلقت معه، فسقاني سويقًا، وأطعمني تمرًا، وصليت في مسجده». (البخاري، الاعتصام، ١٦؛ مناقب الأنصار، ١٨)

وكان عبد الله بن سلام رضي الله عنه قد دعا النبي ﷺ إلى بيته، والتمس منه أن يصلي في أفضل مكان، ثم صار ذلك المكان فيما بعد مسجدًا. والمسجد المذكور في الرواية هو المسجد الذي أُقيم على المكان الذي صلى فيه رسول الله ﷺ.





وعن عتبان بن مالك ﷺ - وهو من أصحاب رسول الله ﷺ ممَّنْ شهد بدرًا من الأنصار- أنه أتى رسول الله ﷺ، فقال :يا رسول الله قد أنكرتُ بصري، وأنا أصلي لقومي، فإذا كانت الأمطار سال الوادي الذي بيني وبينهم، لم أستطع أن آتي مسجدهم فأصلي بهم، وودت يا رسول الله، أنك تأتيني فتصلي في بيتي، فأتخذه مصلى، قال :فقال له رسول الله ﷺ: «**سأفعل إن شاء الله**»

قال عتبان :فغدا رسول الله ﷺ وأبو بكر ﷺ حين ارتفع النهار، فاستأذن رسول الله فأذنت له، فلم يجلس حتى دخل البيت، ثم قال: «**أين تحب أن أصلي من بيتك؟**»

قال :فأشرت له إلى ناحية من البيت، فقام رسول الله ﷺ فكبر، فقمنا فصفنا فصلى ركعتين ثم سلم، قال وحبسناه على خزيرة صنعناها له، قال :فآب في البيت رجال من أهل الدار ذوو عدد، فاجتمعوا[٣٢٥].

وعن محمد بن عمران الأنصاري، عن أبيه، أنه قال :عدل إلي عبد الله بن عمر، وأنا نازل تحت سرحة بطريق مكة.

فقال: «ما أنزلك تحت هذه السرحة؟»

فقلت :أردت ظلها.

فقال: «هل غير ذلك؟»

فقلت :لا، ما أنزلني إلا ذلك .فقال عبد الله بن عمر: قال رسول الله ﷺ:

«**إذا كنت بين الأخشبين من منى، ونفخ بيده نحو المشرق، فإن هناك واديًا يُقال له السرر، به شجرة سر تحتها سبعون نبيًا**». (موطأ، الحج، ٢٤٩؛ النسائي، المناسك، ١٨٩؛ أحمد، جـ٢، ١٣٨)

---

٣٢٥ البخاري، الصلاة، ٤٥-٤٦، الأذان، ٤، ٥، ١٥٣، التهجد ٢٥، ٣٣؛ مسلم، الإيمان ٥٤، ٥٥، المساجد ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٥، فضائل الصحابة ١٧٨.





لقد بيَّن النبي ﷺ في هذا الحديث بركة هذه الشجرة العظيمة بسبب ولادة سبعين نبيًا تحتها.

ويقول الإمام مالك: «في هذه الرواية دلالة على التبرك بمواضع النبيين». (شرح الزرقاني على الموطأ، جـ٢، ٣٩٩)

ويقول ابن عبد البر: «وفي (هذا) الحديث دليل على التبرك بمواضع الأنبياء والصالحين ومقاماتهم ومساكنهم، وإلى هذا قصد عبد الله بن عمر بحديثه هذا، والله أعلم». (تمهيد، جـ١٣، ٦٧)

وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يوضِّح بالتفصيل الأمكنة والأوقات التي صلى فيها رسول الله ﷺ أثناء غزواته، وكان هو بنفسه يصلي في تلك الأمكنة. (البخاري، الصلاة، ٨٩؛ ابن حجر، فتح الباري، جـ٢، ٤٤٣)

وعن يزيد بن أبي عبيد، قال:

كنت آتي مع سلمة بن الأكوع، فيصلي عند الأسطوانة التي عند المصحف، فقلت: يا أبا مسلم، أراك تتحرى الصلاة عند هذه الأسطوانة، قال: «فإني رأيت النبي ﷺ يتحرى الصلاة عندها». (البخاري، الصلاة، ٩٥؛ مسلم، الصلاة، ٢٦٤؛ أحمد، جـ٤، ٤٨)

وروي عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول: لو عرفها الناس لاضطربوا عليها بالسهام، وإنها أسرَّتها إلى ابن الزبير فكان يكثر الصلاة عندها، ثم وجدت ذلك في تاريخ المدينة لابن النجار وزاد أن المهاجرين من قريش كانوا يجتمعون عندها، وذكره قبله محمد بن الحسن في أخبار المدينة. (ابن حجر، فتح الباري، جـ٤، ٤٥٣)

ولسواري المسجد النبوي كلها فضائل خاصة، ففي جوار كل واحدة منها كان رسول الله ﷺ والصحابة الكرام يصلون ويتضرعون إلى الله تعالى، فعن أنس بن مالك، قال: «لقد رأيت كبار أصحاب النبي ﷺ يبتدرون السواري عند المغرب». (البخاري، الصلاة، ٩٥)





وعن أبي مجلز، إن أبا موسى ﷺ كان بين مكة والمدينة، فصلى العشاء ركعتين، ثم قام فصلى ركعة أوتر بها، فقرأ فيها بمئة آية من النساء ،ثم قال:

«ما ألوت أن أضع قدمي حيث وضع رسول الله ﷺ قدميه وأنا أقرأ بما قرأ به رسول الله ﷺ » (النسائي، قيام الليل، ٤٦؛ أحمد، جـ٤، ٤١٩)

ونفهم من هذه الأحاديث الشريفة والروايات أن التبرك برسول الله ﷺ، وبأشيائه، وبكل شيء منسوب إليه، هو سُنة مرفوعة وأمر مشروع يستحق الثناء.

ويكفي لإثبات ذلك أن خيار الصحابة الكرام ﷺ قد فعلوا ذلك، وأن النبي ﷺ قد وافق عليه، وأمر به أحيانًا، وأشار إليه أحيانًا أخرى.

وهذه الروايات التي تُظهر جواز التبرك برسول الله ﷺ هي دليل على إمكانية انتقال البركة إلى غيره بالتبرك به.

إن تقبيل ما مسَّته يد النبي ﷺ، والرغبة في الشرب من الإناء الذي شرب منه، أو من القِربة التي لامست فمه، والسعي للتبرك بالدراهم التي لمسها، وجبَّته التي كان يلبسها، والمكان الذي صلى فيه، وموضع قدمه، يُظهر درجة حرص الصحابة الكرام على نيل البركة، وسعيهم الكبير لتحقيق ذلك.

إن مَنْ يطلب بركة رسول الله ﷺ، وبركة المكان الذي صلى فيه، يطلبها في الحقيقة من الله ﷻ، ولا يمكن أن يكون هناك معنى آخر غير ذلك للتبرك بالمكان الذي كان فيه رسول الله ﷺ.







«قد كنت نهيتكم عن زيارة القبور، ألا فزوروها فإنها تذكر الآخرة» [٣٢٦]

ليست المقابر أجداثًا وأشلاء وحفر؛ إنما هي مدرسة تعلم الحِكم والعِبر، ولزيارتها في تذكير الناس بالآخرة أعظم الأثر.




ت. زيارة القبور

تتنازع الإنسانَ في رحلته الدنيوية الأخروية موجتان؛ إحداهما تدفعه لإلقاء المرساة قرب شاطئ الدنيا والركون إلى ملذاتها والرضا بسعادتها -مهما شحبت ألوانها- خوفًا مما في متاهة الشاطئ البعيد.

والثانية تجذبه إلى توجيه أشرعته نحو لجج البحر، والابتعاد عن الماء الراكد والحياة الراكدة التي يحياها، وتدفعه نحو الرحيل إلى عالم البحث عن الذات، ومحاولة الفهم لمعاني الموت والحياة، والهوية الحقيقية للإنسان، والغرض من خلقه وإيجاده.

هذا البحر اللجي الذي يقع الإنسان بين شاطئيه، وتتجاذبه أمواجه، هو الحقيقة الغائبة والفريدة والوحيدة التي ينبغي على الإنسان إدراك مجاهيلها.

وهذان الشاطئان هما «المجيء إلى الدنيا والرحيل عنها».

أما البحر الذي بينهما فهو رحلة البحث عن الذات، وإدراك قيمة الحياة، ومعرفة ما ينبغي على الإنسان فيها من أحوال وسلوكيات، وما يجب أن يتَّقيه فيها من زيف وخدع وألوان باهتات، وأن يعرف طريقه نحو الحقيقة الوحيدة في هذه الدنيا، وهي الموت، فيكرِّس للموت حياته، ولا يترك للدنيا غير رفاته.

---

٣٢٦ انظر: الترمذي، الجنائز، ٦٠؛ مسلم، الجنائز، ١٠٦.





والموت -عند المؤمن- لا يعني مطلقًا انتهاء اللذات، وابتداء الملمات، إنما هو أعظم بشارات الوصال مع الله ذي الجلال، فالموت ليس نهاية المآل، إنما هو مجرد انتقال من حال إلى حال، من دنيا الجهاد والأهوال إلى جنة الراحة وجزاء الأعمال.

بينما الموت لدى غير الفائزين من أهل الخسران المبين، فهو توديع اللذات والشهوات، واستقبال الأهوال والحسرات، وتحوُّل كل ولي حميم إلى عدو عظيم؛ حيث الطعام من زقوم، والشراب من حميم، واللباس قطران، والأغشية نيران، والعذاب مقيم. والفرق بين الفريقين هنا هو أن الفائز منهما استطاع إدراك حقيقة الدنيا قبل فواتها، والاستعداد للآخرة قبل مباغتتها.

والبشرية كلها يمكنها إدراك هذه الحقيقة ومعرفة كنه الدنيا، ثم إدراك حقائق أرض الأسرار التي نسميها القبر؛ إذا هي أعملت فكرها ومشاعرها، وتعمقت بقلبها قبل عقلها في حقيقة ما يحدث بعد الموت، وجعلت من القبر دارًا مثل دار الدنيا، فأعدت له من المهمات كما أعدت للدنيا من اللزوميات، لاسيما وأن خازن هذه الدار وحارس هذه القبور -وهو الموت- ما زال مناديًا في صبيحة كل يوم على مسامع كل البشر؛ ناصحًا أمينًا، ومبلغًا فصيحًا مبينًا، وإن كانت نصيحته بصمت بليغ، فبجواره ناطق حكيم، ونذير عظيم، هو القرآن الكريم.

ولعل في وجود المقابر على مشارف المدن، وعند طرقات الناس وبجوار المساجد دليل على وعي الأسلاف الذين أرادوا وصول هذا الصوت الصامت إلى كل الناس بكرة وعشية؛ حتى النباتات التي تزرع عند المقابر هي من الأشجار المعمرة التي لا تخضع لتغيرات الطقس والفصول، لتكون رمزًا لخلود الموت وأبدية يقين الآخرة.

وما أحسن قول الشاعر مترجمًا لسان حال الموت القائل:

لدوا للموت وابنوا للخراب ... فَكُلُّكُمُ يصير إلى تباب





هذا النداء لا يحتاج إلى سمع سليم ليسمع، ولا إلى قلب رهيفٍ ليحس، إنما الجميع يصلهم النداء عبر عشراتٍ المفقودين من الأهل والأحباب والخلان والأصحاب. وقد علَّمنا نبينا ﷺ أن صفة عالَم القبر يحدِّده التزامنا بأوامر الله تعالى في الحياة الدنيا، يقول صلى ﷺ:

«**إنما القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار**» [٣٢٧]

فهو يشير بهذا الحديث إلى العلاقة والرابطة القوية بين الموت والحياة.

وكان عثمان رضي الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته، فقيل له: تذكر الجنة والنار فلا تبكي، وتبكي من هذا؟ فقال: إن رسول الله ﷺ قال:

«**إن القبر أول منزل من منازل الآخرة، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينجُ منه فما بعده أشد منه... والله ما رأيت منظرًا قط إلا والقبر أفظع منه**» (الترمذي، الزهد، ٥/ ٢٣٠٨؛ أحمد، جـ١، ٦٣-٦٤)

وعن عائشة رضي الله عنها: أنَّ يهودية دخلت عليها، فذكرت عذاب القبر، فقالت لها: أعاذك الله من عذاب القبر، فسألت عائشة رسول الله ﷺ عن عذاب القبر، فقال: «**نعم، عذاب القبر**». قالت عائشة رضي الله عنها: فما رأيت رسول الله ﷺ بَعْدُ صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر. (البخاري، الجنائز، ٨٧؛ مسلم، المساجد، ١٢٣)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:

«**إذا تشهد أحدكم فليستعذ بالله من أربع، يقول: اللَّهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن شر فتنة المسيح الدجال**». [٣٢٨]

---

٣٢٧ الترمذي، القيامة، ٢٦.

٣٢٨ انظر: مسلم، المساجد، ١٢٨؛ مسلم، المساجد، ١٣٠-١٣٤؛ أبو داوود، الصلاة، ١٤٩، ١٧٩؛ النسائي، السهو، ٦٤.





وعن البراء ﵁، قال: كنا مع رسول الله ﷺ في جنازة، فجلس على شفير القبر، فبكى، حتى بلَّ الثرى، ثم قال:

«**يا إخواني لمثل هذا فأعدوا**» (ابن ماجة، الزهد، ١٩)

والحق أن القبور مدرسة مليئة بالحِكَم والعِبَر، وزيارتها من أكثر دروس التفكر في الموت تأثيرًا. وقد كان رسول الله ﷺ يزور قبور أصحابه ممَنْ انتقلوا إلى الدار الآخرة قبله وفاءً منه لهم، ويدعو لهم بالخير.

وكان النبي ﷺ يأتي قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول:

«**السلام عليكم بما صبرتم، فنعمَ عقبى الدار**».[٣٢٩]

وعن عبد الله بن أبي فروة ﵁. أن النبي ﷺ زار قبور الشهداء بأُحد، فقال:

«**اللَّهم إن عبدك ونبيك يشهد أن هؤلاء شهداء، وأنه مَنْ زارهم وسلم عليهم إلى يوم القيامة ردوا عليه**» (الحاكم، جـ٣، ٣١/ ٤٣٢٠)

وعن عائشة ﵂، أنها قالت: كان رسول الله ﷺ كلما كان ليلتها من رسول الله ﷺ يخرج من آخر الليل إلى البقيع، فيقول:

«**السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وأتاكم ما توعدون غدًا، مؤجلون، وإنا -إن شاء الله- بكم لاحقون، اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد**» (مسلم، الجنائز، ١٠٢)[٣٣٠]

وعنها أيضًا قالت: لما كانت ليلتي التي كان النبي ﷺ فيها عندي، انقلب فوضع رداءه، وخلع نعليه، فوضعهما عند رجليه، وبسط طرف إزاره على فراشه، فاضطجع، فلم يلبث إلا ريثما ظن أن قد رقدت، فأخذ رداءه رويدًا، وانتعل

٣٢٩ الطبري، جامع البيان، جـ١٣، ١٨٦؛ ابن كثير، تفسير، جـ٢، ٥٢٩؛ قارن: أبو داوود، المناسك، ٩٦-٩٧.

٣٣٠ ثمة روايات أخرى لها علاقة بزيارة النبي ﷺ للقبور، انظر: الدارمي، مقدمة، ١٤؛ الموطأ، الجهاد، ٣٢؛ أحمد، جـ٣، ٤٨٨، ٤٨٩؛ الحاكم، جـ٣، ٥٧/ ٤٣٨٣.





رويدًا، وفتح الباب فخرج، ثم أجافه رويدًا، فجعلت درعي في رأسي، واختمرت، وتقنعت إزاري، ثم انطلقت على إثره، حتى جاء البقيعَ فقام، فأطال القيام، ثم رفع يديه ثلاث مرات، ثم انحرف فانحرفتُ، فأسرع فأسرعتُ، فهرول فهرولتُ، فأحضر فأحضرتُ، فسبقتُه فدخلت، فليس إلا أن اضطجعت فدخل، فقال: «**ما لك؟ يا عائشة، حشيا رابية**» قالت: قلت: لا شيء، قال: «**لتخبريني أو ليخبرني اللطيف الخبير**»، قالت: قلت: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، فأخبرته، قال: «**فأنت السواد الذي رأيت أمامي؟**» قلت: نعم، فلهدني في صدري لهدة أوجعتني، ثم قال: «**أظننت أن يحيف الله عليك ورسولُه؟**» قالت: مهما يكتم الناس يعلمه الله، نعم، قال: «**فإن جبريل أتاني حين رأيت، فناداني، فأخفاه منك، فأجبته، فأخفيته منك، ولم يكن يدخل عليك وقد وضعت ثيابك، وظننت أن قد رقدت، فكرهت أن أوقظك، وخشيت أن تستوحشي، فقال: إن ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم**» (مسلم، الجنائز، ١٠٣)

ويبيِّن هذا الحديث أن أفعاله ﷺ تخضع لمراقبة الله ﷻ، ونفهم أيضًا من هذه الروايات أن الرسول ﷺ كان يزور قبور الصحابة كثيرًا، فمن الضروري واللازم على أمته إذًا أن يزوروا قبره ﷺ.

ولما بعث رسول الله ﷺ معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى اليمن، خرج معه رسول الله ﷺ يوصيه ومعاذ راكب ورسول الله ﷺ يمشي تحت راحلته، فلما فرغ قال:

«**يا معاذ إنك عسى ألا تلقاني بعد عامي هذا، أو لعلك أن تمر بمسجدي هذا أو قبري**». فبكى معاذ جشعًا لفراق رسول الله، ثم التفت فأقبل بوجهه نحو المدينة فقال: «**إن أولى الناس بي المتَّقون، مَنْ كانوا وحيث كانوا**» (أحمد، جـ٥، ٢٣٥؛ الهيثمي، جـ٩، ٢٢)

وأقبل مروان يومًا فوجد رجلاً واضعًا وجهه على القبر، فقال: أتدري ما تصنع؟ فأقبل عليه، فإذا هو أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه، فقال:

نعم جئت رسول الله ﷺ ولم آتِ الحِجْر، سمعت رسول الله ﷺ يقول:





«لا تبكوا على الدين إذا وليه أهله، ولكن ابكوا عليه إذا وليه غير أهله» (أحمد، جـ٥، ٤٢٢). إذًا نرى في هذا الحديث صحابيًّا يزور قبر النبي ﷺ، ويمسح وجهه به.

وقد كان رسول الله ﷺ يزور القبور كثيرًا، ويحثُّ أصحابَه وأمته على ذلك في الحديث الشريف الذي يقول فيه: **«قد كنت نهيتكم عن زيارة القبور... فزوروها فإنها تذكِّر الآخرة»** (الترمذي، الجنائز، ٦٠؛ انظر: مسلم، الجنائز، ١٠٦) [٣٣١]

وعن الإمام الشعبي –وهو من كبار التابعين– قال: «كانت الأنصار إذا مات لهم الميت، اختلفوا إلى قبره يقرؤون عنده القرآن».[٣٣٢]

وقد علَّم النبي ﷺ أصحابه السلام إذا خرجوا إلى المقابر، فكان يقول:

«السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنَّا –إن شاء الله– للاحقون، أسأل الله لنا ولكم العافية» (مسلم، الجنائز، ١٠٤)

وقد كان ابن عمر رضي الله عنه لا يمرُّ بقبر إلا سلم. (عبد الرزاق، مصنف، جـ٣، ٥٧٥/ ٦٧٢١)

ومرَّ أبو هريرة رضي الله عنه وصاحبٌ له على قبر، فقال أبو هريرة: سلِّم، فقال الرجل: أُسَلِّمُ على القبر؟ فقال أبو هريرة: «إن كان رآك في الدنيا يومًا قط إنه ليعرفك الآن» (عبد الرزاق، مصنف، جـ٣، ٥٧٦/ ٦٧٢٣)

ويقول رسول الله ﷺ:

«إن العبد، إذا وُضِعَ في قبره، وتولى عنه أصحابه، إنه ليسمع قرع نعالهم» (البخاري، الجنائز،٦٨؛ مسلم، الجنة، ٧١)

---

٣٣١ كان الناس في الجاهلية يعتقدون أن لأرواح أجدادهم قدسية، فكانوا يفتخرون بذلك، ويزورون القبور. وقد منع النبي ﷺ في بداية الإسلام الناس من زيارة القبور كي لا يبقى أي أثر من عادات الجاهلية الباطلة. وبعد أن زال خطر التفاخر، أذن لهم بزيارة القبور كي يتفكروا في الموت.

٣٣٢ أبو بكر بن الخلال، القراءة على القبور، بيروت ١٤٢٤، ص٨٩، رقم: ٧.





وقال بعض المالكية: «وفي زيارة واحد من معارفه صلة رحمه».[٣٣٣]

إن زيارة القبور هي وسيلة للزائر لأخذ العِبر، ووسيلةٌ للموتى لتنزُّل الرحمات، فالميِّت في قبره كالمرء حين يقع في مستنقع، فينتظر العون والمدد.

وعن ابن عباس ﵄، قال: خرج النبي ﷺ من بعض حيطان المدينة، فسمع صوت إنسانَين يعذَّبان في قبورهما، فقال:

«**يعذبان، وما يعذبان في كبير، وإنه لكبير، كان أحدهما لا يستتر من البول، وكان الآخر يمشي بالنميمة**»، ثم دعا بجريدة، فكسرها بكسرتين أو ثنتين، فجعل كسرة في قبر هذا، وكسرة في قبر هذا، فقال: «**لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا**».[٣٣٤]

فأوصى الصحابي بريدة الأسلمي ﵁: «أن يُجعل في قبره جريدان» (البخاري، الجنائز، ٨٢)

يقول القرطبي في تفسير هذا الحديث الشريف:

«إن قوله عليه الصلاة والسلام: «**ما لم ييبسا**» إشارة إلى أنهما ما داما رطبين يسبحان، فإذا يبسا صارا جمادًا، والله أعلم... وقال علماؤنا: ويستفاد من هذا غرس الأشجار وقراءة القرآن على القبور، وإذا خفف عنهم بالأشجار فكيف بقراءة الرجل المؤمن القرآن... وأنه يصل إلى الميت ثواب ما يهدى إليه» (القرطبي، تفسير، جـ١٠، ٢٦٧)[٣٣٥]

---

٣٣٣ عبد الحميد بن محمد علي، الذخائر القدسية في زيارة خير البرية، بيروت ١٤٢٨، ص١٩٥.

٣٣٤ انظر: البخاري، الأدب، ٤٩؛ الوضوء، ٥٥، ٥٦؛ الجنائز، ٨٢. مسلم، الطهارة، ١١١؛ أبو داوود، الطهارة، ١١؛ الترمذي، الطهارة، ٥٣؛ النسائي، الطهارة، ٢٦؛ الجنائز، ١١٦؛ ابن ماجه، الطهارة، ٢٦.

٣٣٥ نفهم من هذه الروايات أنه لا بأس في زرع الأشجار في المقابر بعد معرفة السبب والحكمة من ذلك، ووضع علامة على القبر كي يعرف صاحبه وتنظيفه وتنظيمه –دون مبالغة– يعد عملًا مستحسنًا، والروايات الآتية تدل على هذا الأمر:





ومن الأصول المعروفة التي يطبِّقها كثير من الناس تلاوة القرآن لا سيما سورة يس، كي يستفيد الميت من الرحمات الإلهية بهذه التلاوة.

يقول رسول الله ﷺ في الحديث الشريف: «**يس قلب القرآن لا يقرؤها رجل يريد الله تبارك وتعالى والدار الآخرة إلا غفر له، واقرؤوها على موتاكم**» (أحمد بن حنبل، مسند، جـ٥، ٢٦)

فعن المطلب بن أبي وداعة، قال: لما مات عثمان بن مظعون، أخرج بجنازته (من المدينة إلى البقيع) فدفن (كان عثمان ﷺ من المهاجرين الأوائل الذين توفُّوا في المدينة)، فأمر النبي ﷺ رجلًا أن يأتيه بحجر، فلم يستطع حمله، فقام إليه رسول الله ﷺ، وحسر عن ذراعيه، قال كثير: قال المطلب: قال الذي يخبرني ذلك: عن رسول الله ﷺ، قال: كأني أنظر إلى بياض ذراعي رسول الله ﷺ، حين حسر عنهما ثم حملها فوضعها عند رأسه، وقال: «**أتعلم بها قبر أخي، وأدفن إليه من مات من أهلي**» (أبو داوود، الجنائز، ٥٧-٥٩/ ٣٢٠٦؛ ابن ماجه، الجنائز، ٤٢)

ولما مر رسول الله ﷺ في عمرة الحديبية بالأبواء قال: «**إن الله قد أذن لمحمد في زيارة قبر أمه**»، فأتاه رسول الله ﷺ، فأصلحه، وبكى عنده، وبكى المسلمون لبكاء رسول الله ﷺ، فقيل له فقال: «**أدركتني رحمتها فبكيت**» (ابن سعد، طبقات، جـ١، ١١٦-١١٧؛ مسلم، الجنائز، ١٠٥-١٠٨)

وعن طلحة بن عمرو عن عطاء قال: «لما سوي جدث إبراهيم ابن رسول الله ﷺ، كأن رسول الله ﷺ رأى كالحجر في جانب الجدث، فجعل رسول الله ﷺ يسوي بإصبعه ويقول: «**إذا عمل أحدكم عملًا فليتقنه، فإنه مما يسلي بنفس المصاب**» (ابن سعد، جـ١، ١٤١-١٤٢)

وكان رسول الله ﷺ على شفير قبر ابنه، فرأى فرجة في اللحد، فناول الحفار مدرة، وقال: «**إنها لا تضر ولا تنفع، ولكنها تقر عين الحي**» (ابن سعد، طبقات، جـ١، ١٤٢، ١٤٣؛ البلاذُري، أنساب الأشراف، جـ١، ٤٥١)

وحين دفن النبي ﷺ إبراهيم قال: «**هل من أحد يأتي بقربة؟**» فأتى رجل من الأنصار بقربة ماء. فقال: «**رشها على قبر إبراهيم**» (ابن سعد، جـ١، ١٤١)

وأمر رسول الله ﷺ بحجر، فوضع عند رأس إبراهيم، ورش على قبره الماء. (ابن سعد، جـ١، ١٤٤؛ البلاذُري، أنساب الأشراف، جـ١، ٤٥١)

وقال الزبير: ورش قبره، وأعلم فيه بعلامة. قال: وهو أول قبر رش عليه. (ابن عبد البر، الاستيعاب، جـ١، ٥٩؛ ابن الأثير، أسد الغابة، جـ١، ٥١؛ القسطلاني، المواهب اللدنية، جـ١، ٢٥٩)

والخلاصة هي أنه من الجائز وضع حجر في مقدمة القبر كي تكون علامة يعرف بها أقارب الميت القبر بسهولة، والاعتناء وتنظيم القبر كي يقر عين الناظر، وليس هذا دليلًا على الإسراف والمبالغة في هذا الموضوع.





وفي حديث آخر يقول ﷺ:

«إذا مات أحدكم فلا تحبسوه، وأسرعوا به إلى قبره، وليقرأ عند رأسه بفاتحة الكتاب، وعند رجليه بخاتمة سورة البقرة في قبره».[٣٣٦]

وعن العلاء بن اللجلاج، عن أبيه، أنه قال لبنيه:

«إذا أدخلتموني قبري فضعوني في اللحد، وقولوا: (باسم الله وعلى سُنة رسول الله ﷺ)، وسنوا عليَّ التراب سنًّا، واقرؤوا عند رأسي أول البقرة وخاتمتها، فإني رأيت ابن عمر يستحب ذلك» (البيهقي، السُنن الكبرى، جـ٤، ٥٦)

ويلفت انتباهنا هنا وصية عمرو بن العاص في آخر أيامه لـمَنْ حوله حين قال:

«إذا دفنتموني فشنوا عليَّ التراب شنًّا، ثم أقيموا حول قبري قدر ما تنحر جزور ويقسم لحمها، حتى أستأنس بكم، وأنظر ماذا أراجع به رسل ربي» (مسلم، الإيمان، ١٩٢)

وقد ذكر هذا الحديث الإمام النووي في كتابه، ثم نقل لنا قول الإمام الشافعي: «ويستحب أن يقرأ عنده شيء من القرآن، وإن ختموا القرآن عنده كان حسنًا» (النووي، رياض الصالحين، ص٢٩٣)

ويقول رسول الله ﷺ:

«ما الميت في قبره إلا شبه الغريق المتغوث ينتظر دعوة من أب أو أم أو ولد أو صديق ثقة، فإذا لحقته كانت أحب إليه من الدنيا وما فيها، وإن الله ﷻ ليُدخل على أهل القبور من دعاء أهل الدنيا أمثال الجبال، وإن هدية الأحياء إلى الأموات الاستغفار لهم والصدقة عليهم».[٣٣٧]

---

٣٣٦ الطبراني، المعجم الكبير، جـ١٢، ٣٤٠؛ الديلمي، مسند، جـ١، ٢٨٤؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، جـ٣، ٤٤.

٣٣٧ الديلمي، مسند، جـ٤، ١٠٣/ ٦٣٢٣؛ علي المتقي، جـ١٥، ٦٩٤/ ٤٢٧٨٣؛ جـ٥، ٧٤٩/ ٤٢٩٧١.





وعن عثمان ﵁، قال: كان النبي ﷺ، إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه، فقال: «**استغفروا لأخيكم، وسلوا له بالتثبيت، فإنه الآن يُسأل**» (أبو داوود، الجنائز، ٦٧-٦٩/ ٣٢٢١)

وعن جابر بن عبد الله ﵁ قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ يومًا إلى سعد بن معاذ ﵁ حين تُوفي، قال: فلما صلى عليه رسول الله ﷺ، ووضع في قبره، وسوى عليه، سبح رسول الله ﷺ فسبحنا طويلاً، ثم كبر فكبرنا، فقيل: يا رسول الله لم سبحت ثم كبرت، قال:

«**لقد تضايق على هذا العبد الصالح قبرُه حتى فرجه الله ﷻ عنه**» (أحمد بن حنبل، مسند، جـ٣، ٣٦٠)

وعن ابن عباس، أن النبي ﷺ يوم دفن سعد بن معاذ، وهو قاعد على قبره، قال: «**لو نجا أحد من فتنة القبر لنجا سعد بن معاذ، ولقد ضم ضمة ثم رُخي عنه**» (الطبراني، المعجم الكبير، جـ١٠، ٣٣٤)

ونفهم من هذه الأحاديث الشريفة أن من وسائل تنزل الرحمات على الموتى زيارة القبور والسلام على ساكنيها، والدعاء والاستغفار لهم، وفعل الخيرات والحسنات لهم، وتلاوة القرآن الكريم.

ويوضح لنا ربنا ﷻ في القرآن الكريم الدعاء الذي يجب أن ندعو به لإخوتنا المؤمنين الذين سبقونا إلى الدار الآخرة، فيقول ﷻ:

﴿**وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾ (الحشر، ١٠)

فما بين الإفراط والتفريط يقع الكثيرون في الأخطاء عند زيارة القبور، فيفرطون في ابتداع واتباع طقوس ما أنزل الله بها من سلطان، ولكل بلد وقوم





طقوس متبعة، ولعل أشهرها وأكثرها بُعدًا عن السُنة الاستمداد المباشر من صاحب القبر، وطلب العون والفعل المباشر من الميت.

وأما التفريط فهو المبالغة في النهي عن الزيارة والاستشفاع، وعَدُّ ذلك كله من قبيل الشرك، مهما التزم الزائر بالآداب والسُنن.

والوسطية هي منهاج ديننا الحنيف، وإنما جاء الإفراط والتفريط من ضعف الفهم وسوء التطبيق، وهو ما أصاب النصارى في تحريف دينهم، فاختلط في فهمهم اللاهوت بالناسوت، وأضيفت القداسة الربانية إلى البركة النبوية، فلم يفرقوا بين الرب وبين النبي ﷺ.



وقد بيَّن رسول الله ﷺ في كثير من الأحاديث الشريفة أن المؤمن يستفيد من أفعال الخير التي قام بها في حياته بعد وفاته، ومن دعاء وإنفاق أقاربه وإخوته الأحياء، وحضَّهم على فعل مثل هذه الخيرات:

فعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن سعد بن عبادة رضي الله عنه تُوفيت أمه وهو غائب عنها، فقال: يا رسول الله، إن أمي تُوفيت وأنا غائب عنها، أينفعها شيء إن تصدقت به عنها؟ قال: «**نعم**»، قال: فإني أشهدك أن حائطي المخراف صدقة عليها.[٣٣٨] (البخاري، الوصايا، ١٥)

وعن عائشة رضي الله عنها: أن رجلاً قال للنبي ﷺ: إن أمي افتلتت نفسها، وأراها لو تكلمت تصدقت، أفأتصدق عنها؟

قال: «**نعم تصدق عنها**».[٣٣٩]

---

٣٣٨ (حائطي) هو البستان من النخل إذا كان له جدار. (المخراف) اسم لحائطه والمخراف الشجرة وقيل ثمرها.

٣٣٩ البخاري، الوصايا، ١٩؛ أبو داوود، الوصايا، ١٥/ ٢٨٨١.





وعن عبد الرحمن بن أبي عمرة الأنصاري، أن أمه أرادت أن توصي، ثم أخرت ذلك إلى أن تصبح، فهلكت، وقد كانت همت بأن تعتق، فقال عبد الرحمن: فقلت للقاسم بن محمد: أينفعها أن أعتق عنها، فقال القاسم: إن سعد بن عبادة قال لرسول الله ﷺ: إن أمي هلكت فهل ينفعها أن أعتق عنها؟

فقال رسول الله ﷺ: «**نعم**» (الموطأ، العتق، ١٣)

وعن يحيى بن سعيد أنه قال: تُوفي عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه في نوم نامه، فأعتقت عنه عائشة زوج النبي ﷺ رقابًا كثيرة. (الموطأ، العتق، ١٤)

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إن أمي ماتت وعليها صوم شهر، أفأقضيه عنها؟ فقال: «**لو كان على أمك دين، أكنت قاضيه عنها؟**» قال: نعم، قال: «**فدين الله أحق أن يُقضى**» (مسلم، الصيام، ١٥٥)

وعنه أيضًا، قال: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، إن أمي ماتت وعليها صوم نذر، أفأصوم عنها؟ قال: «**أرأيت لو كان على أمك دين فقضيتيه، أكان يؤدي ذلك عنها؟**» قالت: نعم، قال: «**فصومي عن أمك**» (مسلم، الصيام، ١٥٦)

وقال رسول الله ﷺ:

«**إنَّ الرجلَ لتُرفع درجته في الجنة فيقول: أنى هذا؟ فيقال: باستغفار ولدك لك**» (ابن ماجة، الأدب، ١؛ أحمد، جـ٢، ٥٠٩)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«**إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم يُنتفع به، أو ولد صالح يدعو له**» (مسلم، الوصية، ١٤)

وهو حديث عظيم يفتح أبواب خير جليلة على عباد الله تعالى، ويطيل في آجالهم وأعمارهم أمدادًا طويلة بالعمل الصالح والثواب غير المنقطع؛ بل هو يفتح





أبواب الأمل والنجاة وعلو الدرجات في الجنة، فالصحيفة لا تنغلق، والأقلام لا يتوقف صريفها، وميزان الحسنات لا ينفك يثقل ويرجح، والأعمال الصالحات تجد في الآخرة الجزاء الأوفى، وتستمر في الدنيا تدفع الأبناء والأصدقاء الأوفياء إلى الترحم والدعاء والبذل والعطاء، فيقع ذلك كله في ميزان الميت، ويلج إليه في عالم البرزخ، فيرفعه من مقام إلى مقام، ويبدله من حال إلى حال.

ومن بين الأعمال الصالحة التي حضَّ عليها النبي ﷺ قضاء دين الميت، فقد كان يسأل عن دين الميت إذا حضر جنازته، ولا يصلِّي عليه إلا بعد قضاء الدين، ليعلِّمنا بأسلوب لطيف -نحن الأحياء- الرحمة بأمواتنا.

وعن أبي هريرة ﷺ: أن رسول الله ﷺ كان يؤتى بالرجل المتوفى عليه الدين، فيسأل: «**هل ترك لدينه فضلاً؟**» فإن حدث أنه ترك لدينه وفاء (أو أن يتعهد أحد من الصحابة قضاء دين الميت)[٣٤٠] صلَّى، وإلا قال للمسلمين: «**صلوا على صاحبكم**».

فلما فتح الله عليه الفتوح، كان يصلي أيضًا على المؤمنين الذين تركوا دينًا بعدهم،[٣٤١] وكان يقول:

«**ما من مؤمن إلا وأنا أولى به في الدنيا والآخرة، اقرؤوا إن شئتم: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾[٣٤٢] فأيما مؤمن مات وترك مالاً فليرثه عصبته مَنْ كانوا، ومَنْ ترك دَينًا أو ضياعًا، فليأتني فأنا مولاه**».[٣٤٣]

وفي هذا الموضوع اجتهد الإمام محمد ليضع مصطلح «إسقاط الصلاة» على أمل العفو عن الصلوات الفائتة، قياسًا على إعطاء الفدية لـمَنْ لم يستطع الصوم

٣٤٠ الترمذي، الجنائز، ٦٩/ ١٠٦٩؛ النسائي، الجنائز، ٦٧.

٣٤١ البخاري، النفقات، ١٥؛ مسلم، الفرائض، ١٤.

٣٤٢ الحشر، ٦.

٣٤٣ البخاري، تفسير، ٣٣/ ١، الكفالة، ٥، الفرائض ٤، ١٥، ٢٥؛ مسلم، الفرائض، ١٤، ١٥.





لضرورة أو عدم قدرة، وهذا يعني إطعام فقير عن كل صلاة لم يصلها الميت، أو إخراج مقدار معيَّن من المال، ويجب أن يكون الإنفاق دون أي تقليل للمبلغ، وأن يُعطى للمحتاج، ونلاحظ في اجتهاد الإمام محمد ثلاث فوائد مهمة هي:

١. الحث على الإنفاق، ونيل الميت أجره.

٢. سرور المحتاج ودعاؤه للميت.

٣. الأمل بعفو المولى ﷻ عن الميت.

لكن تغيَّرَ «الإسقاط»[٣٤٤] الذي يستفيد منه الميت -مع الأسف- إلى «تحويل»[٣٤٥] في أيامنا هذه، وبهذا ابتعد عن غايته الأساسية، وقدَّم صورة معاكسة لروح الإسلام.

إن العمل المسمى بـ«التحويل» هو نوع من أنواع الغش والخداع، فهذا العمل الخاطئ هو السعي للتعويض عن عبادة فائتة بالتظاهر بإنفاق صدقة دون وجودها في الواقع، فبدل إخراج مبلغ من المال وإنفاقه على المحتاجين بنيَّةٍ صادقة كي يُكفَّر عن الميت صلواته الفائتة، نجد -مع الأسف- أنَّ مجموعة من الأشخاص يتحول المبلغ بينهم من يد إلى يد بعبارة «قبلت، ووهبت»، وبهذا يزيد مقدار المال

---

٣٤٤ الإسقاط: هو إعطاء بدل نقدي للفقراء من أجل إزالة كفارات العبادات عن الشخص الذي مات دون أن يوفي بها مثل الصلاة، والصوم، والأضحية، والنذر، والكفارة.

٣٤٥ التحويل: هو وضع مقدار معين من المال في صرة، ثم وهبه للفقراء، ثم أخذه مرة أخرى بالهبة، والاستمرار على هذا العمل حتى قضاء الدين. ولم يكن هذا العمل في حياة النبي ﷺ ولا التابعين أو تابعي التابعين. وقد جوِّز الإسقاط في أواخر القرن الثاني للهجرة، بينما جوِّز الإسقاط على صورة التحويل في القرن الخامس للهجرة. إن التحويل الذي صار عادة في زماننا هذا، والذي يظن الناس أنه يستند إلى مصادر إسلامية، هو مجرد بدعة تجر الإنسان إلى البخل في الإنفاق، والكسل في العبادات. ولهذا يلزم على المسلم ترك هذه العادة، والتصدق عن الميت، وفعل الخيرات من أجله، والتوسل إلى الله كي يعفو عن ذنوبه. وعلى هذا النحو يكون المسلم قد طبق السنة، ووصلت العبادات المالية، وأفعال الخير، والصدقات إلى أصحابها الحقيقيين، أي إلى المحتاجين.





المراد إنفاقه. إن إعطاء مبلغ قليل من المال للكثير من الأشخاص -مع اشتراط الإرجاع في البداية- ثم إرجاع هذا المبلغ، وإعطاؤه لشخص آخر، ثم إرجاعه مرة أخرى، والإيمان بأن المال قد زاد بعدد تكرار الإرجاع، ما هو إلا مجرد بدعة قبيحة يخدع بها المرءُ ذاتَه، لا سيما الأغنياء من الناس، فمن المحيِّر والمدهش أن ترى الأغنياء يلجؤون إلى هذا العمل، ثم يأملون أن يصلوا إلى النتيجة المرجوَّة، إن هذا الفعل هو فعل عبثي لا فائدة منه، وإذا نظرنا إليه بموضوعية نجد أنه فعلٌ لا منطقي يسعى لخداع الله سبحانه، وحاشَا للَّهِ أن يُخدع ﷻ.

اللّهم اجعل نياتنا كما ترضى، واحمنا من أن نكون ممَنْ يتعلقون بالدنيا، فيكون الهلاك عاقبتهم.

اللّهم أنت أرحم الراحمين، فزيِّن حياتنا ومماتنا بالبركات والنعم وفضائل العلِّيين التي تكرم بها عبادك الصالحين، واجعلنا ممَّنْ يحققون الوصال يا رب العالمين.

اللّهم اجعلنا جميعًا ممَّنْ ينظرون إلى الكون بعين محبتك، ويرونه بالبصيرة والأحاسيس والوجدان والإيمان، واجعلنا ممَّنْ يصلون إلى غفرانك بعبرات الندامة التي تنسكب من مقلهم، ويقفون أمام حضرتك بوجوه مبيضة.

آمين





الفصل الخامس

وصايا أولياء الله







(المسامحة)



وصايا أولياء الله تعالى وإرشاداتهم وكلماتهم مرآة تنعكس عليها معاني القرآن الكريم، وسُنة النبي ﷺ.




إن أولياء الله تعالى هم الذين استحقوا مكانة «ورثة الأنبياء»، ولأن الأنبياء لم يُورِّثوا درهمًا ولا دينارًا، وإنما ورَّثوا العلم، فعلمُ الأنبياء الذي ورثه الأولياءُ علم الظاهر وعلم الباطن في أرقى مستويات كماله، بعد أن قطعوا مراحل التربية الصوفية في طريق الله، ووصلوا إلى كمال السلوك ونضج القلب، وحملوا راية الإرشاد التي هي من مهمة الأنبياء ومن صنعة المرسلين، فصاروا منارات على الطريق، ونبراسًا لكل مريد، ينقلون النور الحق من لدن خاتم الأنبياء ﷺ إلى قيام الساعة.

ومن معاني حديث النبي ﷺ:

«**إن العلماء ورثة الأنبياء**»[٣٤٦]

أي: العلماء الذين حصَّلوا العلم الظاهر واكتسبوا العلم الباطن، وتدرجوا في العلوم حتى وصلوا إلى العرفان، وتدرجوا في السلوك حتى حظوا بالإرشاد.

والإرشاد هو حَمْلُ راية الرسالة والنبوة والبلاغ التي سلمهم إياها الأنبياء بعد أن طهَّر هؤلاء أنفسهم من أنانية «نفسي، نفسي»، ونالوا إيثار «أمتي، أمتي»، فاستمر نور نبراسهم وفيض إرشادهم إلى ما بعد انتقالهم، وفناء أجسادهم، فهم

٣٤٦ أبو داوود، العلم، ١.





يحيون بأرواحهم التي لا تفنى بعد أن جعلوا هذه الأرواح طاهرة مطهرة بوصالها مع الله تعالى، وجعلوا منها جسرًا تمر عليه الأمة في طريقها إلى الله تعالى.

وقد اكتسب هؤلاء -فيما اكتسبوا- تجليات من أسماء الله الحسنى: الرحمن والرحيم، فكانت الرحمة والرأفة والشفقة والمحبة جزءًا أصيلاً من كيانهم، ومددًا يمدون الناس منه في طريق خلاصهم، ويتحملون عبر تجلياته مسؤولية هداية الخلق إلى سبيل ربهم.

وما هذه الإرشادات والمواعظ والنصائح من أولياء الله تعالى إلا رافد يستمد ماءه من النهر المحمدي والينبوع المصطفوي، حيث مركز الفوائد المعنوية، ونبراس الهداية الربانية، الذي يشع نورًا وماءً وحياة على امتداد أعمار البشرية عبر أولياء الله المرشدين.

هؤلاء المرشدون ومجالسهم هم الأنموذج الحي الذي تنتقل من خلاله حياة النبي ﷺ حية نابضة إلى واقع الناس، فيتعلمونها ويرونها رأي العين، ويستشعرونها بأحاسيسهم.

لقد فقد هؤلاء المرشدون إرادتهم النفسانية، وصاروا -لفرط حبهم لله تعالى- يعيشون فقط بإرادته سبحانه، وصاروا عبادًا ربانيين، يرون بعين الله تعالى، ويسمعون بسمع الله تعالى، ولأنهم تجردوا من الدنيا ومن النفس فقد صاروا مركزًا للجذب النوراني، يحبهم الناس، ويقبلون عليهم، وتهوي إليهم الأفئدة، وتنصاع إليهم القلوب، وتأوي إليهم النفوس، وترتاح إلى كنفهم الأرواح، وتصير كلماتهم شفاءً من كل داء، وراحة من كل عناء.

فهؤلاء قد عملوا بما علموا، فصارت كلماتهم ذات روح تسري في الكلمات، وصارت أفعالهم كالجاذبية الكونية تدور في فلكها الكواكب، وتنجذب إليها الكائنات والذرات، وصارت حياتهم وسيرتهم كالقلوب النابضة لا محيص لكل قطرة دم في الجسد أن تحتاج إليها، وتمر بها، وتصدر عنها كل مَنْ أراد الحياة.





وفي السطور والصفحات الآتية سوف نسوق نسمات من أريج قلوبهم، ورشفات من فيض نبعهم:

الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ (٦٤٢هـ- ٧٢٨هـ)

يا ابن آدم، إن المؤمن يصبح حزينًا ويمسي حزينًا، ولا يسعه غير ذلك؛ لأنه بين مخافتين: بين ذنب قد مضى لا يدري ما الله يصنع فيه، وبين أجل قد بقي لا يدري ما يصيب فيه من المهالك.

أيها الناس، اعملوا صالحًا بإدراككم لهذه الحقيقة، فالله ورسوله يريان أعمالكم، فإنكم لمنقبلون إلى ربٍ يعلم السر وأخفى، حينها سيعلمكم بما عملتم ولن يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

وكان يقول: حادثوا هذه القلوب (واصقلوها بذكر الله)، فإنها سريعة الدثور، واقرعوا هذه الأنفس، فإنها طامحةٌ؛ فإنكم إلا تمنعوها، تنزع بكم إلى شر غايةٍ.

ابن آدم، إنك لا تستحق حقيقة الإيمان حتى لا تعيب الناسَ بعيبٍ هو فيك، فأصلحْ عيبَ نفسك، فإنك لا تصلح عيبًا إلا وجدت عيبًا آخر أنت أولى بإصلاحه.

ابن آدم، إن تكن عدلاً، فاجعل لك عن عيوب الناس شغلاً؛ فإن أحب العباد إلى الله تعالى مَنْ شغله عيبه عن عيب غيره.

أيها الناس، إن القرآن الكريم شفاء للمؤمنين، هدىً للمتقين، مَنْ عمل به، اهتدى وسار على الصراط المستقيم، ومَنْ أعرض عنه شقي وصار إلى الهلاك المقيم.

يا ابن آدم إنك تموت وحدك، وتدخل القبر وحدك، وتُبعث وحدك، وتُحاسب وحدك.





مالك بن دينار رَحِمَهُ اللَّهُ (تُوفي سنة ٧٤٨هـ)

لم يبقَ صفاء في الدنيا إلا في اثنتين:

١. لقاء الإخوان وصحبتهم.

٢. القيام لصلاة التهجد، والانشغال في هذا الوقت المبارك بذكر الله تعالى وتلاوة القرآن.



جعفر الصادق رَحِمَهُ اللَّهُ (٦٩٩هـ- ٧٦٦هـ)

لا يتم المعروف إلا بثلاثة: بتعجيله وتصغيره وستره.[٣٤٧]

إذا بلغك من أخيك أنه قال فيك ما تكره فلا تغتم لذلك، إن كانت حقًا كانت عقوبةً عُجِّلَتْ، وإن كان غير ذلك فحسنة لم تعملها.[٣٤٨]



سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ (٧١٣هـ- ٧٧٧هـ)

إنما يُطلب العلم ليُتقى الله تعالى به، وتُتبع أوامره، ويُخشى منه جَلَّ جَلَالُهُ، وفضيلة العلم أنه يجعل صاحبه ذا أخلاق وأحاسيس راقية، فلولا ذلك لكان كسائر الأشياء.

ذهابك إلى خراسان للتبليغ أربح لك من البقاء في جوار مكة (للإقامة).

أول شرط في العلم هو البحث عن طرقه، ثم العمل به بعد تحصيله... ثم الصمت والتفكر... ثم النظر بعِبره إلى الكون.

---

٣٤٧ أبو نعيم، الحلية، جـ٣، ١٩٨.

٣٤٨ الخاني، الحدائق، ص١٣٢.





أبو عثمان الحيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (تُوفي في سنة ٩١١هـ)

الصحبة مع الله عَزَّ وَجَلَّ بحسن الأدب ودوام الهيبة والمراقبة، والصحبة مع الرسول ﷺ باتباع سُنته ولزوم ظاهر العلم، والصحبة مع أولياء الله بالاحترام والحرمة، والصحبة مع الأهل والولد بحُسن الخلق، والصحبة مع الإخوان بدوام البشر والانبساط ما لم يكن إثمًا، والصحبة مع الجهال بالدعاء لهم والرحمة عليهم ورؤية نعمة الله عليك أن عافاك مما ابتلاهم به.[٣٤٩]



الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (تُوفي سنة ١١١١م)

يا بُني، ليكن قلبك يقظانًا بصورة مطلقة في العبادات الثلاث، ولا تصرف عقلك وقلبك إلى مكان آخر؛ هذه العبادات هي: قراءة القرآن الكريم، وذكر ربك، وإقامة الصلاة، وإياك أن تصرف عقلك وقلبك في هذه الأحوال الثلاثة إلى مكان آخر ولو للحظة، ولا تنسَ أنك أمام الله تعالى، إذ لا قيمة في أن تتوجه إلى القبلة وعقلك يسعى وراء أمور أخرى، فلتكن وجهتك الكعبة التي هي أول معبد في الإسلام، واربط قلبك مع الله تعالى، فإن كنت تريد أن تكون من العارفين، فليكن سكوتك فكرًا، ونظرتك عِبرة، ورجاؤك طاعة، فهذه الخصال الثلاث علامة العارفين.

يا بُني، احذر من الدَّين، فقرش من الدَّين قد يذهب بثواب كثير من العبادات المقبولة، ولم يكن رسول الله ﷺ يصلي على مَنْ مات وعليه دين، وكان القصد من ذلك حث الغني على الرحمة لقضاء الدين أو العفو عنه، إن المؤمن لا يأخذ الدَّين بلا ضرورة لكنه إن اضطر لأخذ الدين ونوى إيفاءه أعانه الله عليه، حتى إنه إن سعى لإيفاء الدين فلم يستطع، فإن الله يعينه يوم القيامة.

---

٣٤٩ البيهقي، شعب الإيمان، جـ١٠، ٤٣٢/ ٧٧٥٤؛ القشيري، الرسالة، ص٨٢.





والشكر على البلاء لازم، إذ لا بلاء غيرُ الكفر والذنوب، فلا يكونن في داخله خير لا تعلمه، فالله يعلم الخير لك أكثر مما تعلم، وثمة الكثير من الأمور تظنها شرًا لكنها تكون خيرًا لك، وأمور أخرى تظنها خيرًا تكون في الحقيقة شرًا، وأسلم طريق لك هو الرضا بأمر الله، و«الشكر» على كل حال.

يا بُني، إن كان ثمة أمر يجب أن تدقق فيه غاية التدقيق فهو مَنْ تصحبهم، واعلم جيدًا أن سلة صالحة من التفاح لا يمكن أن تصلح تفاحة رديئة بينها، بيد أن تفاحة رديئة واحدة كافية لإفساد السلة كلها، لذلك كن دائمًا مع الصالحين.

والصديق الطيب كمَنْ يبيع عطر الورد، فإما أن تشتري منه، أو يمسح على يدك قليلاً، أو أنك تشم رائحة جميلة ما دمت عنده، فالمرء مع مَنْ أحب، واعلم أنك ستحشر مع مَنْ تصاحبه في هذه الدنيا، لذا احرص على صحبة العلماء والصالحين الذين يعملون بعلمهم.

يا بُني، كل شيء في الحياة كما قسمه الله تعالى، فقد جعل الله تعالى من الناس أغنياءَ وفقراءَ، وأصحَّاءَ ومرضى، وعلماءَ وجُهَّال، ولا يمكن الحفاظ على توازن الدنيا إلا على هذا النحو، فحين ترى مَنْ هم أصغر منك، فإياك أن تحتقرهم وتتفاخر أمامهم، إذ كان من الممكن أن يكونوا مكانك وتكون مكانهم، فتدبَّر، وصاحِب الفقراء؛ واسعَ أن تكون متواضعًا لهم دائمًا، واحمِ وقار الإنسانية والإسلام، إذ لا يمكن نيل السعادة إلا على هذا النحو، فإن كنتَ تريد الطمأنينة في الدنيا والآخرة، فلا تؤذِ أحدًا، وقل في نفسك حين ترى مَنْ هو أكثر شبابًا منك: «ذنوبه أقلُّ من ذنوبي»، وحين ترى مَنْ هو أسنُّ منك فقل: «حسناته أكثر من حسناتي، وهو أفضل مني من حيث لا أعلم»، وحين ترى عالـمًا قل: «لديه علمٌ ينقذ به نفسَه» وحين ترى جاهلاً قل: «إنه لا يعلم، والله يغفر له»، وحين ترى كافرًا، فكِّر في عاقبتك ولحظة خروج نَفَسك الأخير وقل: «إذا هداه الله تعالى، فسيغفر ذنوبه كلها، ويقف أمام الله تعالى طاهرًا نقيًا، أما أنا فكيف سأكون لحظة





خروج روحي؟» لأن العاقبة مجهولة، فكلما عرفت نفسك ورأيتها حقيرة، فُزْتَ بالمراتب العليا عند الله ﷻ.

يا بُني، اسعَ إلى تلبية حاجات إخوتك مهما استطعت، يقول رسول الله ﷺ:

«**مَنْ كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته**» (البخاري، المظالم، ٣)

ويقول في حديث آخر:

«**لا يستر عبدٌ عبدًا في الدنيا، إلا ستره الله يوم القيامة**» (مسلم، البر، ٧٢)

ويجب على العاقل أن يقول لنفسه: إن رأس مالي هو عمري فقط، ولا أملك أي شيء آخر، ورأس المال هذا له قيمة كبيرة جدًا حتى إنَّ كلَّ نَفَس لا يمكن أن يعيده المرءُ بأيِّ حالٍ البتة، فالأنفاس معدودة متناقصة، لذا اعرف قيمة أنفاسك وانظر إلى هذه الدنيا الفانية كأنك تموت غدًا، واحمِ أعضاءك كلَّها من الحرام، وتشبث بالتقوى.

اللهم اختم بالسعادة آجالنا، واجعلنا ممَنْ يحظون برضاك وتوفيقك، واقرن بالعافية غدوَّنا وآصالنا، واجعل التقوى زادنا، وعليك اتكالنا واعتمادنا يا رب العالمين، وثبتنا على طريق الحق، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد المصطفى المبعوث رحمة للعالمين.



عبد القادر الجيلاني رحمه الله (١٠٧٧م- ١١٦٦م)

يا غلام، التقوى ضرورية لك، لهذا اسعَ إلى الإيفاء بمقتضيات التقوى كي يتخلص قلبك من العداوات والطبائع الخبيثة في داخلك، ويستقيم بالخير.

يا غلام، لا تكن جامعًا للأمور الدنيوية فتكون كالذي يجمع الحطب في الليل وهو لا يعرف ما يجمع، وانظر فيما بين يدك من أمور دنيوية حلال هي أم





حرام، مشروعة أم غير مشروعة، وكن مع شمس التوحيد والتقوى في أفعالك كلها.

يا غلام، العمل بالقرآن يرفعك إلى موقع القرآن، ويجلسك هناك، أما العمل بالسُنة فيقرِّبك من رسول الله، وبهمة رسول الله ﷺ القلبية والمعنوية لن تبتعد ولو للحظة عن قلوب أولياء الله، فمَنْ يزين قلوبهم هو رسول الله ﷺ.

يا غلام، الطعام الحرام يميت قلبك، أما الطعام الحلال فيحييه، ثمة لقمة تشغلك بالدنيا وأخرى تشغلك بالآخرة، وثمة لقمة ترغِّبك في خالق الدنيا والآخرة.

يا غلام، اصحب مَنْ يعينك في مجاهدتك نفسَك، ولا تصاحب من يعين نفسك عليك، وانشغل بنفسك أولاً، وكن نافعًا لها، وأصلحها. ثم انشغل بغيرك، ولا تكن كالشمعة تضيء للآخرين في حين تذوب هي وتموت.

يا مَنْ يود أن يعمل صالحًا في سبيل الله، كن مخلصًا، وإلا فإن تعبك سيذهب سدى.

إن إرشاد الناس لا يكون بالكلام بل يتحقق باشتياق واعتقاد خالص نابع من القلب، وهذه كلها نتائج يصل إليها المرء بالخلوة والعبادة والذكر والرياضة والمراقبة، لا بالتصرفات الشكلية الظاهرية التي لا تصل إلى الروحانية ولا تؤثر في الروح البتة، لهذا السبب يجب على السالك في الصراط المستقيم أن يكون لسانه كقلبه، وباطنه كظاهره، وكلامه كنيته، وأن تكون كلها شيئًا واحدًا.



أحمد الرفاعي رحمه الله **(١١١٨م- ١١٨٢م)**

أي سادة، عليكم بالتقرب من أولياء الله، فمَنْ والى ولي الله فقد والى الله، ومَنْ عادى ولي الله فقد عادى الله.





أي سادة، عليكم بذكر الله، فإن الذكر مغناطيس الوصل وحبل القُرب، ومَنْ ذكر الله طاب بالله، ومَنْ طاب بالله وصل إلى الله، فذكر الله يثبت في القلب ببركة الصحبة، فالمرء على دين خليله.

أي سادة، الفكر أول أعمال النبي ﷺ، فقد كان عبادته قبل فرضية المفروضات التفكر في آلاء الله ومصنوعاته حتى كلف ما كلف عليه صلوات الله وسلامه، فعليكم بالتفكر في آلاء الله وأخذ العِبرة من الفكرة.

إياكم أن تكونوا كالمنخل يُخرِج الدقيقَ الطيب ويمسك لنفسه النخالة، وأنتم كذلك تخرجون الحكمة ويبقى الغل في قلوبكم.

وتطالبون حينئذٍ بقوله تعالى:

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ (البقرة، ٤٤)

نقوا قلوبكم وطهروها فذلك أولى من تنقية الثياب، إن الله لاينظر إلى ثيابكم ولكن ينظر إلى قلوبكم، وكونوا على الاستقامة ولا تطلبوا غير الله تعالى.

أي سادة، من طرق الباب بالخضوع فتح له بالقبول، ومَنْ دخل الرحاب بالانكسار جلس في بيت العزة.



عبد الخالق الغجدواني رحمه الله (تُوفي ١١٨٩م)

يا بُني، أوصيك بتحصيل العلم والأدب، وتقوى الله تعالى، واتبع آثار السلف الصالح، ولازم السُنَّة والجماعة، واقرأ الفقه والحديث والتفسير، واجتنب الصوفية الجاهلَين، ولازم الصلاة بالجماعة بشرط أن لا تكون إمامًا ولا مؤذنًا، وإياك والشهرة فإنها آفة، وكن واحدًا من الناس، ولا تَمِلْ لمنصب ولو كان محمودًا كالقضاء والفتوى، ولا تكن كفيلاً ولا وصيًا، ولا تصحب الملوك وأبناءهم، والـمُرْدَ والنساء والمبتدعة والعوام، ولا تسمع الأنغام إلا قليلاً، فإنَّ





كثرة السماع تولِّد النفاق وتميت القلب، ولا تنكر على أصحاب السماع لأنهم كثيرون.

وقلل الكلام والطعام والمنام، وفِرَّ من الناس فرارك من الأسد، والزم الخلوة وأكْلَ الحلال، واترك الشبهات إلا عند الضرورة، فربما غلب عليك طلب الدنيا، وفي طلبها يذهب دينك وإيمانُك، ولا تضحك كثيرًا فإن كثرة الضحك تميت القلب.

ولا تحتقر أحدًا، ولا تزين ظاهرك؛ لأن تزيين الظاهر من علامة إفلاس الباطن، ولا تجادل الخَلْقَ، ولا تسأل أحدًا شيئًا، ولا تأمر أحدًا بخدمتك، واخدم المشايخ بالمال والجاه والبدن، ولا تنكر عليهم أفعالهم، فإن المنكر عليهم لا ينجو، ولا تغتر بالدنيا وأهلها، وينبغي أن يكون قلبُك محزونًا ومغمومًا، وبدنك مريضًا، وعينك باكية، وعملك خالصًا، ودعاؤك بتضرع، ولباسك خَلِقًا، ورفيقك الفقر، وبضاعتك الفقه، وبيتك المسجد، ومؤنسك الحق تعالى.[٣٥٠]



فريد الدين عطار رَحِمَهُ اللَّهُ **(١١٤٥م - ١٢٢١م)**

اقبَل عُذرَ مَنْ أساء إليك، فالله لا يحب مَنْ يؤذي عباده، ومثل هذا الطبع لا يليق بصاحب دين، إنَّ مَنْ يجرَحُ قلبًا بظلم، يرى ذلك الجرح في بدنه. ومَنْ يرى عيوبه يجد القوة في روحه.

علامة الحماقة عدم رؤيتك عيوبَك وأنت تبحث عن عيوب الآخرين، وزرعك بذرة البخل في فؤادك، ثم تأمل الكرم.

إن مَنْ لا يُرضِي الخَلق بأخلاقه لا قيمة له عند الله تعالى.

---

٣٥٠ الخاني، الحدائق، ٣٥٤- ٣٥٥.





عليك بزيارة المرضى فهذه سُنة نبينا ﷺ، وارِو العطشى إن استطعت، واخدم الناس في المجالس، واسأل عن أحوال اليتامى كي يجعلك الله عزيزًا، فبكاء اليتيم لحظة يكفي لهز عرش الرحمن، والظالم الذي يُبكي اليتيم سيكون حطبًا لنار جهنم، ومَنْ يَسُرُّ يتيمًا يفتحْ لنفسه بابًا إلى الجنة.

كل ما تعطيه في سبيل الله هو رأس مالك، وكل ما يبقى ستُحاسب عليه.



محي الدين بن عربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١١٦٥م- ١٢٤٠م)

إذا عوَّدت قلبك على ذكر الله فسيستنير بنور الذكر، وهذا النور يفتح عين القلب.

عامِل عباد الله بالرأفة والرحمة، ولتعمَّ رحمتك الكائنات كلها، ولا تقل: «هذا تبن، لا حياة فيه، ولا فائدة»، بل فيه فائدة وخير كثير، واترك المخلوق بحاله، وارحم برحمة الخالق.

لا تَرُدَّ مَنْ يطلب منك شيئًا، بل فُز بقلبه ولو بكلام حسن، وانظر إليه بوجه باسم، وتفكَّرْ في ملاقاتك الله تعالى غدًا.

لا تكن عبدًا لغير الله من أجل أمور دنيوية؛ لأنك عبد لله الذي قبِل أن تكون عبدًا له.

عليك أن تُظهر المحبة لعباد الله المؤمنين بالسلام عليهم وإطعامهم وقضاء حاجاتهم، واعلم أَن المؤمنين كرجل واحد وجسد واحد.

عوِّد نفسك على الجماعة، وحاول البكاء خشية من الله، واعتصم بحبل الله، واطلب ما يحبه الله ويرضى عنه.





مولانا جلال الدين الرومي رَحِمَهُ اللَّهُ (١٢٠٧م-١٢٧٣م)

لقد أرسل الله تعالى الأنبياء والأولياء رحمة للعالمين، لذلك تراهم ينصحون الناس بلا سأم أو ملل، ومَنْ لا يستمع إلى نصائحهم ولا يقبلها، يدعون الله من أجله قائلين: «يا رب اعفُ عنهم، ولا تغلق أبواب رحمتك في وجوههم».

وأنت أيها الإنسان استعمل عقلك، واستمع إلى نصائح الأولياء بعقل واعٍ، استمع كي تتخلص من الخوف والحزن، وتصل إلى اليقين والراحة المعنوية.

وقبل أن تضيع الفرص وتقع في التردد تمسَّك بالإنسان الكامل الذي ما غرَّه هذا العالم الفاني، فأخضع رقبته لله تعالى، وحين تكون مثله تتخلص من فِتن هذه الدنيا الفانية وفتن آخر الزمان.

إنَّ كلماتِ أولياء الله كنهر ماؤه عذب حلو، فحين تسنح لك الفرصة، اشرب من هذا الماء حتى الارتواء، لعلَّ الأزهار المعنوية تتفتح في قلبك.

واعلم يا سيدي أن الأدب كالروح التي تسكن في بدن الإنسان، والأدب في الأصل نور عيون أولياء الله وقلوبهم، فإن كنت راغبًا في قطع رأس الشيطان، فافتح عينيك كي ترى أن الأدب هو قاتل الشيطان.

افتح عينَيك وانظر في القرآن الكريم الذي هو كلام الله العليم من أوله إلى آخره، ستجد أنَّ آياتِه كلَّها تعلِّمك الأدب.

بِع وجودك وفناءك ومالك وملكك كله واشترِ قلبًا، خذ قلبًا كي يكون نورًا لك في قبرك، حين تمكث وحيدًا هناك في ظلام حالك.

إنَّ بقاء الإنسان بصحبة وليٍّ من أولياء الله مرة واحدة يعادل عُمُرَه كلَّه، فقيمة كل شعرة تسقط منه كقيمة الجوهرة، لكن ثمة أصحاب القلوب القاسية ممَنْ هم بخلاف أولياء الله، فإن أنت ابتعدت عنهم وتفاديت رؤيتهم، فنِعمَ ما صنعت، فذلك يساوي ملك الكون كله.





وقد قلت لقلبي: «لا تحرص أن تكون في المقدمة، بل كن بلسمًا، لا شوكة تؤذي الآخرين، فإن كنت لا تريد أن يأتيك ضرر من سواك، فلا تتكلم بالسوء أو تفكر فيه، ولا تعلِّم الفواحش، واعمل الصالحات في كل حين».



إبراهيم الدسوقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (تُوفي ١٢٧٧م)

الواجب عليك يا ولدي أن تطلب دعاء القوم، وتلتمس بركاتهم هذا إذا لم تجد قدرة على عملهم، فإن وجدت قدرة على ذلك سعدت أبد الآبدين.

يا حامل القرآن لا تفرح بحمله حتى تنظر هل عملت به أم لا فإن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا**﴾ (الجمعة، ٥) ولا تخرج عن كونك حمارًا إلا إن عملت بجميع ما فيه، ولم يكن منه حرف واحد يشهد عليك.

يا بُني، لا تنشغل بالأمور التي لا نفع منها مثل الجدل والنميمة والكلام المعسول، وكن من أهل السكوت، واختر الإخلاص، واعمل صالحًا في هذا الطريق ولا تتبع هواك.

واصحب أولياء الله تجمع الشريعة والحقيقة في ذاتك، ولا تنسَ أنَّ مَنْ يمكن أن يساعدك في هذا الطريق هو مثل هؤلاء الناس.

يا بُني، كلُّ ما أوده هو أن تعمل دائمًا وفقًا للسُنَّة... وأن تراعي الأدب اللازم في هذا الطريق.

ويجب أن تكون شجاعًا لا مثل الذين يفزعون من ظلمهم، وألا تستسلم عند أول كربة تواجهها.

املأ نفسك بمحبة المولى، وكن في حالة وجد معه.





يا أبنائي، إن كنتم تبحثون عن شخص تغتابونه، فاغتابوا آباءكم وأمهاتكم، فهم أحق بحسناتكم من غيرهم.

إن الله تعالى يطلع على قلوب عباده في اليوم والليلة اثنتين وسبعين مرة، فنظفوا يا أولادي محل نظر ربكم، واجعلوه طاهرًا مطهرًا، حسنًا نقيًا، زاهرًا نيرًا، صادقًا خالصًا، لترتع في رياض القرب، ويظهر فيها النور، فإن الإناء إن لم يكن شفافًا لا يظهر للفتيلة فيه نور.

يا أخي، إياك وأن تظن أنك تفعل شيئًا لوحدك، واعلم أن الله جعلك تصوم صيامك، وتصلي صلاتك، وتعمل عملك، فإن كنت قد وصلت إلى درجة التقوى فالله قد أوصلك، أو نلت أمرًا ماديًا أو معنويًا فالله قد أعطاك.

يا ولدي احذر أن تقول أنا فإن الله يعجز المدعين، ولو كنت على عمل الثقلين هبطت، أو صاحب منزلة سقطت.[٣٥١]



بهاء الدين نقشبند رحمه الله (١٣١٨م- ١٣٨٩م)

إن طريقنا هو طريق الخلاص الذي بيّنه الله تعالى؛ لأن هذا الطريق هو اتباع السُنة والصحابة الكرام، لهذا ينال المرء في طريقنا الكثير في وقت قصير.

لهذه الطريقة ثلاثة آداب:

أدب مع الله عز وجل وهو: أن يكون المريد في الظاهر والباطن مستكملاً للعبودية بامتثال الأوامر واجتناب النواهي، مُعْرِضًا عن ما سواه بالكلية، ومنفقًا النعم في سبيل الله عز وجل.

٣٥١ الطبقات الكبرى، الشعراني، جـ١، ١٤٠- ١٥٥.





وأدب مع رسوله ﷺ وهو:

أن يستغرق في مقام «فاتبعوني»، ويراعي ذلك في جميع الأحوال وجوبًا، ويعلم أنه ﷺ واسطة بين الحق والخلق.

وأدب مع المشايخ وهو لازم للطالبين.(٣٥٢)

إذا كان الطعام محضَّرًا بغفلة أو غضب أو دون رغبة، فلا خير فيه ولا بركة؛ لأن النفس والشيطان قد وجدا طريقًا إليه، ومَنْ يأكل طعامًا كهذا لا بد وأن يفسد طمأنينته في نهاية المطاف، والخير يأتي من الطعام الحلال الخالص الذي لم تخالطه غفلة، وتناوله المرء مدركًا الله تعالى، إن السبب في عدم توفيق الناس في أداء أعمال خالصة صالحة هو عدم اكتراثهم بالحرام في المأكل والمشرب، والمشتبهات وحقوق العباد، بينما أحوالُ المرء كلها -لاسيما حال الخشوع والطمأنينة في الصلاة، وسكب الدموع أثناءه- أحوالٌ مرتبطة بأكل اللقمة الحلال، وطبخ الطعام ذاكرًا الله تعالى، وأكله كأنه أمام الله، ولا يمكن لـمَنْ يربِّي بدنه باللقمة الحرام أن يشعر بأية لذة في الصلاة.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: قوله ﷺ:

«الصلاة معراج المؤمن»

فيه إشارة إلى درجات الصلاة الحقيقية، وهي أن تكون أكبرية حضرة الحق حالًا للمصلي عند تحرمه، ويظهر الخضوع والخشوع على قلبه، حتى يصل إلى مرتبة الاستغراق، وقد كانت هذه صفة رسول الله ﷺ.(٣٥٣)

إن حقيقة كلمة «لا إله إلا الله» أن تزيل كل شيء من قلبك، ويبقى الله تعالى فيه وحده.

٣٥٢ الخاني، الحدائق، ص٤١١- ٤١٢.

٣٥٣ الخاني، الحدائق، ص٤١٣.





إن النور والصفاء هو بإيفاء أحكام الإسلام، أي اتباع الأوامر واجتناب النواهي، وترك المحرمات والشبهات وحتى أغلب المباحات، والابتعاد عن الرخص، والأخذ بالمباحات على قدر الضرورة وهذه الأمور وسيلة أيضًا للوصول إلى درجات الولاية، فبها يصل المرء إلى هذه الدرجات، وكلُّ مَنْ يبقى بعيدًا عن هذه الدرجات فبسبب عدم اكتراثهم واتِّباعهم رغباتهم، ففيوضات الله تعالى يمكن أن تتنزل في كل حين.



مولانا خالد البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (تُوفي في سنة ١٨٢٦م)

أوصيكم بتقوى الله وطاعته، وترك إيذاء الناس ولا سيما في الحرمين الشريفين، ولا تغتب أحدًا وإن اغتابوك، ولا تأخذ من أحد شيئًا من حطام الدنيا إلا أن يحكم بأخذه الشرع، فخذه واصرفه في سبيل البرِّ ولا تتفكه بصرفه في الشهوات وإخوانك المؤمنين جوعى عالة، ولا تكذب ولا تحتقر أحدًا، ولا تعتقد نفسك فوق أحد، وابذل جهدك في العبادة القلبية والبدنية، واحسب نفسك أنك ما عملت خيرًا أبدًا؛ إذ النية روح العبادة ولا نية إلا بإخلاص، والإخلاص لأكبر منك فضلاً عنك، وأنا والله لا أعتقد أني عملت خيرًا منذ ولدتني أمي، وأنت تعتقدني خيرًا منك.

فإن لم تجد نفسك مفلسًا عن كل خير، فهو غاية الجهل، وإن وجدت نفسك مفلسًا، فلا تقنط من رحمة الله تعالى، فإنَّ فضل الباري خير للعبد من أن يكون له عمل الثقلين.[٣٥٤]



٣٥٤ أسعد صاحب، بغية الواجد، ص١٣٨-١٤١، رقم: ٢٨.





موسى أفندي طوباش رَحِمَهُ اللَّهُ **(١٩١٨م-١٩٩٩م)**

تنعكس روحانية المؤمن وسريرته على سلوكه وعلانيته، وتصير تصرفاته انعكاسًا لأحواله القلبية، وتصبح فضائله مرآة لسرائره.

ومن هذه الفضائل التي هي عماد أحواله:

- دوام التواضع والتزام النفس به.
- إدراك قيمة الزمن ومعرفة كنز الوقت، وتقدير جواهر الأنفاس، حتى لا نسرف في نَفَس واحد منها.
- محبة عباد الله جميعًا، فلا هجران، ولا نزاع معهم.
- تقديم النصح للناس يسيرًا لطيفًا، ومخاطبة الناس على قدر ما تستوعبه عقولهم، وتدركه أفهامهم، وتفقهه قلوبهم.
- الستر على عيوب الناس لإصلاحها، والمداراة على خطاياهم ليدركوا فرصة النصيحة والتوبة قبل الفضيحة.
- تحرِّي الحلال واجتناب الحرام في كل قول وعمل ومطعم ومشرب.
- استعظام مقدار الذنب مهما كان صغيرًا، فهو شأن المؤمن، وعدم احتقار الخطايا، فهذا شأن المنافق، فمَنْ استصغر الذنب كأنه استهزأ بالرب.
- لنزين الأوقات بالطاعات، والأسحار بالصلوات، والأذكار بالدعوات، لننال رضا الله ببركة العبادات.
- وليكن ديدننا تقديم الخدمة إلى كل المحيطين بنا، والدينا وأسرتنا، وذوي السن وأهلينا، وكل ذي حاجة وفاقة.
- لِنبتعد قدر الإمكان عن صحبة أهل الدنيا، وَلْنُكثِر من صحبة الصالحين ومجالس المتقين.





- ولنكن شديدي الحرص في أسواقنا، ونتحرى الدقة في أمور معاملاتنا، وبيعنا وشرائنا، فلا نكن من المطففين، ولا ممَّنْ يبخسون الناس أشياءهم، فهذه المعاملات قد تضيِّع العبادات، وتأكل الحسنات.

وإياك والغفلة عن الذكر، فذلك مصدر الأخطار والخطايا، وينبوع الحزن الذي يكدِّر صفو الحياة، فمَنْ كان في معية ربه بالذكر المعنوي، تهابه الشهوات وزخرفها الدنيوي ويحيا كريم النفس مطمئن الخاطر، يقطر قلبه على الناس رحمة، وعلى كل المخلوقات شفقة ورأفة، ويحيا دومًا متدثرًا في عباءة المحبة التي يلف بها كل ما تقع عليه عيناه من كون الله.

ولتجعل نُصْبَ عينيك هذا الدستور النبوي والصوفي في الخدمة:

يقول رسول الله ﷺ:

«**سيد القوم خادمهم**» (الديلمي، مسند، جـ ٢، ٣٢٤)

فالخدمة ليست فقط تكليفًا؛ إنما سمو وتشريف، فإنك لا تبتغي وجه الناس بخدمتهم، إنما تبتغي وجه الله ﷻ، فأنت في الحقيقة لا تخدم الناس إنما تتعبد لرب الناس، فأفضل الأعمال عند الله إدخال السرور على المؤمن.

وثمة موضع خاص لخلق خاص، وهو ستر العيوب، والعفو عن المسيء، وإمهال الخاطئ، وقبول العذر، وإقالة العثرات، فكثير من أهل الأخلاق والعبادات ينسون صفة من صفات الله العلي التي ينبغي التخلق بها، وهي «ستار العيوب»، فإذا كان الرب سبحانه على عظمته وقدرته وجبروته؛ يغفر ويستر، أفلا يعفو العبد وهو الأحوج إلى عفو الناس عن حقوقهم لديه، ليستحق عفو رب الناس من نقمته عليه.

إن ذكاء المؤمن وفطنته وكياسته تتجلى عبقريتُها في التمسك بحبل الله في خضم الدنيا، والبقاء في معيته سبحانه رغم زحام البشر؛ بعيدًا عن غوغائيتها، مترفعًا عن جواذبها، مرفرفًا مع الملأ الأعلى بروحه ونفسه ومشاعره.





وأخيرًا، ثمة نعمة لا يدركها العبد وإن كانت من أعظم النعم؛ إنها نعمة العجز أمام قدرة الرب، لقد كانت هذه النعمة أعظم النعم التي أدركتُها أثناء سلوكي في طريق الروحانية؛ حيث حجزتني عيوبي عن النظر إلى عيوب غيري، وشغلتني سوءاتي عن التطلع إلى سوءات الناس، وأدركت إفلاسي أمام رب العالمين، وخلوَّ جَعْبَتي مع طول سفري وقلة زادي، فانشغلت بالحق عن الخلق، والحمد للَّه الذي أعانني بإدراك عجزي، فاشتغلت بالتمسك بحبل معيته.



اللَّهم اجعل لنا نصيبًا من المحبة الموجودة في قلوب أوليائك، وامنحنا القدرة على الاستقامة بنصائحهم وإرشاداتهم، فبهمَّتهم المعنوية تربينا وعلى يديهم ترعرعنا.

آمين.





الفصل السادس

قصص وعِبر صوفية

- التعلُّم الحقيقي
- طريقة التربية المعنوية
- إبراهيم بن أدهم والغزال
- عدم الإساءة إلى طريق المولى ﷻ
- الكرامة
- تأثير القلوب الغافلة
- باب الحبيب
- الطاعة- الخدمة- النصيحة
- خدمة المخلوقات
- لطافة أولياء الله تعالى
- الإرادة في الحضرة الإلهية
- الأدب
- الأدب في الخدمة
- الأدب في كل حال
- أخلاق ولي الله تعالى وخدمته
- ليعلم الباقي لا الفاني!
- لا تحتقرنَّ أحدًا
- لا تُعِب أحدًا
- إدخال السرور في قلب اليتيم
- الصداقة
- المقصود من الصداقة
- التسليم تسليمًا كاملاً
- طلب الدعاء من المؤمنين
- المجنون وعلاج القلب
- وجوه كوجوه الملائكة
- حالة القلب لدى فعل الخيرات
- الأعمال الصالحة التي تصل إلى العرش العظيم
- إدراك وجود الله دائمًا
- أحتاج إلى الكريم
- مسؤولية العظماء
- الاستجابة لدعوة الله تعالى
- أهمية الحلال
- الربح الحلال





(انتبه إلى الأدب)



قصص وعِبر صوفية

إن الله تعالى اصطفى من عباده ورثة لأنبيائه، يحيون لخدمة البشرية، إصلاحا لها، ورفقا بها.




ليس التصوف قولًا فحسب إنما هو حال وسلوك.

وقد أسلفنا الحديث في الفصول السابقة عن هذه المعاني، فليس التصوف مقصورًا على الحِكَم والمواعظ والوصايا، إنما هو أحوال يتقلب فيها المرء في سلوكه وجهاده وطريقه إلى الله ﷻ، تنعكس عليه فيها فيوضات الصالحين، وفضائل الأولياء المقرَّبين، إذ تنعكس أخلاقهم وحياتهم وقصصهم على تلاميذهم عِبرًا ونماذج ونبراسًا.

تلك هي «القصص» أو ما نطلق عليه «المناقب» التي تحمل إلينا أخبارَ الصالحين وحياتهم، وقد أدت هذه القصص والمناقب دورًا كبيرًا في الهداية والتربية، وإنضاج الإيمان، وإكمال الأخلاق، وزيادة أواصر القربى، وتعميق جذور المحبة، وإنضاج ثمار الفضائل من الرحمة والعفو والإيثار.

هذا المنهج التربوي المعتمد على القصص منهج رباني، جاء في القرآن الكريم للتأثير في القلوب وتربية النفوس.

واتباعًا لهذا المنهاج الرباني القرآني سنواصل في هذا الفصل - كما بدأنا في الفصول السابقة- عرض نماذج واقعية من حياة أهل التصوف وسلوكهم،





كي تنعكس تلك الحقائق على السطور، كما انعكست في الصدور، وأتبعناها بتأويلات وتفسيرات وتنبيهات تقرِّبها للأفهام، وتجعلها نبراسًا للأجيال.

أي إننا نرغب في هذا الفصل أن نقدم لقرَّائنا بعضًا من رشفات بحر أخلاق وفضائل المتصوفين.

- التعلُّم الحقيقي

كان الشيخ سامي أفندي قد أنهى دراسته في كلية الحقوق في دار الفنون، وفي يوم من الأيام قال له أحد أولياء الله -وقد كان معجبًا بأخلاقه الفاضلة وسيرته العطرة-:

«يا بُني، إنَّ علمك هذا حسن، ولكن اسعَ لإكمال علمك الأساسي، ودعني أسجِّلك في مدرسة العرفان، لتتعلم هناك علوم القلب وأسرار الآخرة»، ثم أضاف قائلاً:

«يا بُني، إنني لا أعلم كيف وماذا يعلِّمون الطلاب في تلك المدرسة، ولكني أعلم شيئًا واحدًا وهو: أنَّ أول درس عدم إيذاء الآخرين، وآخر درس ألا تُؤذىَ منهم».

وقوله هذا يعني أن يكون المرء صاحب قلب سليم، فالله تعالى يقول في قرآنه الكريم:

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ. إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (الشعراء، ٨٨-٨٩)

العِبرة:

إذا كان من اليسير عليك ألا ترمي الناس بسهام أذاك، فإنه من الصعب عليك أن تتقي سهام أذاهم، فإنك لا تعلم من أين تأتيك، ولا كيف تتسلل إلى قلبك سمومها، إنما يتأتى ذلك لـمَنْ حصَّن نفسه بطهارة القلب، وتزكية النفس، والتجأ إلى معية الله، واثقًا في معونته سبحانه.





فحين لقي رسولُ الله ﷺ الشِّدة والأذى من أهل الطائف جاءه مَلَكُ الجبال فقال له:

«قد بعثني ربك إليك لتأمرني بما شئت؟ إن شئتَ أن أطبق عليهم الأخشبين فعلتُ».

إلا أن نبي الله ﷺ الذي أُرسل رحمة للعالمين لم يقبل عرض مَلَك الجبال؛ لأنه كان يحمل في داخله مشاعر الرأفة والرحمة بالناس، وليس مشاعر الانتقام والتشفي؛ وإنما أدار وجهه إلى الطائف، ودعا الله تعالى أن يهدي أهلها.

وحين كان الناس يرجمون أبا منصور الحلاج، وهو من عشاق النبي ﷺ، كان يدعو الله سبحانه قائلاً:

«اللّهم اعفُ عنهم قبلي، فهم لا يعلمون!»

وهذه حالة يصل إليها المرء بالتعلم الحقيقي، أي إنها حالة مرتبطة بالقلب السليم الذي يكون نتاج التربية المعنوية.

وسُئل أبو القاسم الحكيم يومًا عن صفات القلب السليم، فأجاب:

«للقلب السليم ثلاث صفات:

الأولى: قلب لا يؤذي.

الثانية: قلب لا يتأذَّى.

الثالثة: قلب يعمل الخير لرضا الله دون أن ينتظر أجرًا.

فالمؤمن يقف أمام حضرة المولى ﷻ بالورع حين لا يؤذي أحدًا، وبالوفاء حين يوجه قلبه إلى ربه دون أن يتأذى بأحد، وبالإخلاص حين لا يرقب رضى أي شريك لله ﷻ في عمله الصالح».

يقول الشاعر:

غاية الإنس والجن في الكون ألا تتأذى ولا تؤذي أي كائن.





- طريقة التربية المعنوية

يوضح الشيخ شاه نقشبند دقائق الأمور التي يهتم بها في موضوع تطهير القلب وتزكية النفس في التصوف بقوله:

«إننا نربي المريد حسب الضرورة، أي حسب الحالة التي هو عليها، فترانا نرجح الجذب أحيانًا، والسلوك أحيانًا أخرى، إذ نعلم أن بعض مَنْ يأتي إلى مجالسنا فيهم بذور المحبة، وبعضهم لا يملكون هذه البذور، أو أن هذه البذور قد فسدت بسبب العلاقات الدنيوية والنفسانية، فمهمتنا تطهير هذه العلاقات الفانية، وزرع بذور المحبة في القلوب، أما البذور المزورعة فنسقيها بزمزم الحقيقة، ونعرضها لشمس معرفة الله، فتغدو بستانًا من الإخلاص».[٣٥٥]

«حين نتكلم عن تلقين الذكر، نجد أنه كحجر الصوان الذي تضعه في يد المريد، إذ يحدد المريد بنفسه النتيجة، أي إشعال فتيل العشق بذلك الحجر أو عدم إشعاله».[٣٥٦]

الخلاصة:

كثيرة هي أمراض البدن، وكثيرة هي أدواؤها، ولا يختلف الحال كثيرًا في أمراض الروح والقلب والنفس وأدوائها، وأهل الطب الرباني من أولياء الله تعالى لديهم من الفراسة والبصيرة ما يشخِّصون به كل داء يدِقُّ عن الأبصار، ويعِزُّ على الأفهام، ويعزب عن الإدراك، فيعرفون لكل داء دواءه، ولكل حال شفاءه، ولكل عليل أسلوبًا تربويًا يوافقه.

فقد أوصى أولياء الله تعالى بعض السالكين مثل إبراهيم بن أدهم بأن: «اترك التاج والعرش»، وأوصوا بعضهم الآخر مثل السلطان محمد الفاتح: «إذا تركت

---

٣٥٥ انظر: أنيس الطالبين، ص٩٠.

٣٥٦ محمد باقر، المقامات، ص٦٢.





مهمتك هذه، ولم يأتِ مَنْ هو أصلح منك، فترقَّب وبالاً ينزل عليك». فكان إرشادهم يعتمد على مقام المخاطب.

وقد يمتحن الأولياء بعض الناس بالماء وبعضهم بالنار، لذا، كما أنه من الضروري التسليم للطبيب وتطبيق وصفته كي يُشفى المرء من أمراضه البدنية، كذلك الحال في الأمراض القلبية، بل هي أشد حساسية، فالإهمال في التداوي البدني يضر المرء في دنياه، أما إهمال تداوي القلب فيجعل الإنسان خاسرًا للدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين.



- إبراهيم بن أدهم والغزال

كان إبراهيم بن أدهم حاكمًا في بلخ يتنعم بالسلطة والأبَّهة، وكان الصوفيون والعارفون في ذلك العصر ينبِّهونه بين الحين والآخر كي يُخلِّصوه من هواه، ويحيوا تفكيره بالآخرة، ومن أشهر الروايات عنه أنه سمع ذات ليلة ضجة غريبة تأتي من سطح قصره، فلم يستطع النوم وصاح:

«ماذا تفعلون هناك؟»

فكان الجواب الغريب: «نبحث عن الناقة التي أضعناها!»

فغضب إبراهيم بن أدهم وقال: «أتبحثون عن ناقة فوق السطح؟».

فسمع جوابًا مليئًا بالعِبر والمعاني:

«يا إبراهيم، إن كنت تعلم أنه لا يمكن البحث عن ناقة فوق السطح، فلمَ تبحث عن السعادة الأبدية في هذه الأبهة والعظمة الدنيوية التي تعيش في ظلها».

لقد أثَّرت هذه الكلمات في إبراهيم بن أدهم أكثر من التنبيهات التي كان قد سمعها، لكن بعد مدة قصيرة نسي إبراهيم هذه الكلمات، ولم يتغير حاله.

ومضت الأيام تلو الأيام إلى أن جاء اليوم الذي خرج فيه إبراهيم بن أدهم مع حاشيته لاصطياد الغزلان ثم ابتعد عن حاشيته، إذ كان يبحث عن صيد ثمين،





وفي تلك الأثناء سمع مناديًا يقول: «استيقظ»، لكنه لم يأبَه بذلك، فسمع الصوت مرة أخرى، ثم مرة أخرى... وبدأ يسمع الصوت نفسه من كل ناحية، كان يسمع مناديًا يقول:

«استيقظ قبل أن يوقظك الموت».

وبينما إبراهيم بن الأدهم مندهشًا خائفًا إذ وقف غزال جميل أمامه، فرغب في اصطياد هذا الحيوان اللطيف الثمين، واستعد لرميه، وفي اللحظة التي كاد يطلق فيها سهمه، توقف الغزال ناظرًا إلى إبراهيم، ونطق قائلاً:

«يا إبراهيم، أخلقكَ الله الرحمن كي تصيدني؟»

فارتعد إبراهيم من رأسه حتى قدميه، وفاضت الدموع من عينيه، ونزل عن فرسه ليسجد لله تعالى ويتوب توبته هناك، ودعا الله سبحانه قائلاً:

«اللّهم يا ذا اللطف والكرم، انظر إلى حالي، يا رب قد أضعت أنفاس عمري في أبهة العيش طويلاً... يا رب فطهِّر قلبي بلطفك، ولا تجعل فيه إلا محبتك».

لقد فتح إبراهيم بن الأدهم عينيه بعد ذلك اليوم على عالم مختلف كليًّا، ناظرًا إلى ملكوت الله ﷻ، فكانت نظرته هذه هي التي أزالت مفهوم الجمال الذي كان يعتقد به في الماضي، وبعد ذلك اليوم لم يعد للسلطنة والجاه الذي كان يتمتع به في بلخ أي أهمية، إذ بدت هذه الأمور كلُّها أمورًا مؤقتة آيلة إلى الفناء.

خرج إبراهيم بن أدهم إلى الصحارى وهو على هذه الحال، كانت عيناه غارقتين بدموع التوبة، وقلبه محترقًا بنار الندامة وسار طويلاً في هذه الصحارى إلى أن صادف راعيًا، فأسرع إليه ليأخذ من الراعي عباءته، ويعطيه لباسه، فأحس براحة كبيرة في قلبه. أما الراعي فقد أصابته الحيرة مما حصل، وكان يقول في نفسه: «لا بد أن أميرنا قد أضاع عقله»، لكن إبراهيم بن الأدهم لم يُضِعْ عقله، بل عاد إليه رشده آنذاك، فقد خرج لاصطياد الغزلان، لكن الله تعالى أيقظه وأنقذه بهذه الغزالة.





العِبرة:

الإنسان بين خيارين وسلطانين، فاختيار الآخرة هو سلطنة الأبد، وامتلاك النفس والروح لا الجسد، وسلوك طريق السعادة الذي لا نرى فيه عوجًا ولا أمتًا.

أما اختيار الدنيا فهو الأخذ من جهنم بأوفر نصيب، والعيش في الدنيا على شفا جرف هار، مهما علا فيها شأنك، أو عظم سلطانك فهو شأن تتقاذفه الخطوب، وسلطان تبغضه القلوب، فتصير كظمآن لا يجد إلا السراب، وفقير لا ينال إلا التراب.

لقد فهم إبراهيم بن الأدهم هذا السر، ورأى أنَّ صلاحه لا يكون إلا بتركه للسلطة، فضحَّى بها، وبذلك صار سلطانًا في عالم الأبدية، أما أسباب التحذيرات والتنبيهات التي كان يتلقاها فهي بركة الجوهرة التي كانت في قلبه، أي جوهرة الإخلاص والولاء لله تعالى وبمعنى أدق، كانت حالته القلبية وسيلةً أظهرت له الأسباب التي دفعته إلى ملكوت الله تعالى، ونيل تجلياته سبحانه، وسهَّلت عليه إفراغ نفسه بترك السلطنة، فوصل في النهاية إلى درجات الإحسان وما أجمل تعبير الشاعر عن هذه الحال حين قال:

إذا أراد الله أمرًا يسَّره

خالق الأسباب كلمح البصر أمره



- عدم الإساءة إلى طريق المولى عَزَّوَجَلَّ

طريق التصوف هو واحد من الطرق السائرة إلى الله تعالى، وموئل لتجليات نوره سبحانه، ولذا لا يُسمَحُ فيه بأي زيغ عن الاستقامة أو مخالفة لدين الله في جوهره وروحه.

وها هو الشيخ بهاء الدين نقشبند وكان من أولياء الله تعالى وأحد علماء الحديث الشريف، الذي ذاع صيته في مدارس بخارى حتى أقبل على دروسه





الكثير من العلماء والطلاب والمريدين، حتى اشتكت بقية المدارس من قلة الطلاب فيها، وازدحامهم عند الشيخ بهاء الدين، وضج العلماء - علماء الظاهر- قلقًا من هذا الأمر، فخاطبهم شيخنا بهاء الدين النقشبندي:

«دعوني أخبركم بطريقتنا، وإذا ما كان هناك شيء مخالف للقرآن والسُنة، فأعلمونا كي نكفَّ عنه». وبعد أن تلقى العلماء أجوبة مقنعة على الأسئلة كلها، واستمعوا له لمدة طويلة، لم يجدوا ما يمكن الحديث عنه فقالوا:

«إنَّ طريقتَكم طريقةُ استقامة (أي وفق القرآن والسُنة)، ولا اعتراض لنا عليها».

وحين قال أحدهم:

«القبعة التي تلبسونها سببٌ للشهرة».

أجاب سيدنا بهاء الدين:

«إذا ما صارت قبعتي موضوع جدل، فإن خلعها أنسب». ثم خلع قبعته وأعطاها لفقير.[٣٥٧] وبعد هذه الحادثة ارتفعت مكانة شيخنا النقشبندي لدى العلماء كلهم.

العِبرة:

القرآن دستور أهل الله تعالى، والسُنة منهاجهم، وشرع الله تعالى طريقتهم؛ ذلك هو الطريق الحقيقي للتصوف، وديدن كبار أقطاب التصوف في وصاياهم، وهاهو الشيخ نقشبند رَحِمَهُ اللَّهُ ينصح مريديه وينصح كلَّ السالكين بالتزام شرع الله، فهو لم يجادل علماء الظاهر وإنما قال لهم:

«إذا ما كان هناك شيء مخالف للقرآن والسُنة، فأعلمونا كي نكفَّ عنه»

---

٣٥٧ صلاح الدين بن المبارك البخاري، أنيس الطالبين، ص ٢٧٨-٢٧٩؛ أبو القاسم، الرسالة البهائية، الورقة: ٧٤ب- ٧٥ب.





فأوضح بقوله هذا أهمية الاستقامة في هذا الطريق، لهذا على السالكين أن يُظهروا هذه الحساسية نفسها، وألا يعيبوا هذا الطريق الطاهر، ونقصد بالعلماء هنا العلماءَ الصالحين الربَّانيين، لا «علماء السوء» الغافلين الذين فسدت قلوبهم وعلومهم، فساروا عكس الطريق إلى الحق، وانعدم الإخلاص والتقوى لديهم، وأنكروا فضائل أولياء الله تعالى، وباعوا آيات الله مقابل فتات الدنيا.



- الكرامة

طلب المريدون يومًا من الشيخ شاه نقشبند أن يُظهِرَ لهم كرامة من الكرامات، فردَّ عليهم قائلاً:

«إن كرامتنا واضحة للجميع، فها نحن ذا نستطيع الوقوف على أقدامنا، والمشي على هذه الأرض، رغم كثرة الذنوب على أكتافنا، فهل ثمة كرامة أعظم من هذه الكرامة؟»[٣٥٨]

وكان الشيخ يذكِّر طلابه دائمًا أن الأمر المهم في التصوف هو الاستقامة لا الكرامة، وكان يقول:

«لا ينبغي الميل إلى الأفعال الخارقة للعادة وإظهار الكرامات، فالمهارة الأساسية هي أن تكون على استقامة».[٣٥٩]

«ويمكن الاعتماد على خوارق العادات والكرامات بشرط الاستقامة في العمل، والتمسك بالسُنة الشريفة، فإذا لم يكن هناك تمسك بالسُنة، فلا يُعتمَد على خوارق ولا كرامة».[٣٦٠]

٣٥٨ أنيس الطالبين، ص١١٢؛ أبو القاسم، الرسالة البهائية، ورقة: ٥٨أ.

٣٥٩ أنيس الطالبين، ص٨٨.

٣٦٠ أنيس الطالبين، ص٢٦.





وكان الشيخ نقشبند ينقل كلام أحد أولياء الله الذي يقول: «إذا دخل الولي بستانًا، فنادته كل ورقة من أوراق أشجارها: (يا ولي الله)، فعلى الولي ألا يلتفت إلى ذلك الصوت لا ظاهرًا ولا باطنًا، بل عليه أن يسعى في كل حين لزيادة حالة العبودية والتقوى والتواضع التي هو عليها، وإظهار الرقة والعناية، فمرتبة الكمال في هذا الموضوع مخصوصة بسيدنا المصطفى ﷺ، فبقدر ما كان يحظى النبي ﷺ بالنعم والمكارم الإلهية، كان يزيد من عبوديته والتجائه وتضرعه إلى المولى ﷻ، ويقول: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا؟**» (البخاري، التهجد، ١٦)»[٣٦١]

وكان بعض مريديه يقولون له:

«يا سيدي، مهما حاولت إخفاء كراماتك، تظهر بين الحين والآخر».

فيجيبهم بكل تواضع: «إن ما ترونه هو كرامات المريدين».[٣٦٢]

لم يكن الشيخ نقشبند يحب الظهور، بل البقاء خفيًّا، ولم يأذن -في حياته- لمريده حسام الدين خواجه يوسف أن يكتب أقواله أو كراماته.

دستور:

إن عظماء الإسلام لم يكن لهم كرامات، ولا هم سعوا إليها، لقد كفاهم من الكرامة حد الاستقامة، فصارت الاستقامة لهم دستورًا؛ حتى سمت بهم الاستقامة فوق مرتبة الكرامة.

وهل الكرامة إلا فعلٌ خارق للعادة؛ ولقد أظهر البعض كرامات كالمشي على الماء، أو الارتقاء في جو السماء؛ لكنهم بذلك لم يتعدوا مرتبة الأسماك والطيور، وليس أسمى من مرتبة الإنسان الذي هو عبد لله سبحانه، وهو بالفعل يرتقي في مقامات العبودية بكراماته، وليس يرتقي في طبقات الهواء والهراء.

---

٣٦١ أنيس الطالبين، ص٨٨؛ محمد باقر، المقامات، ص٥٧.

٣٦٢ أحمد الكاساني، آداب السالكين، ورقة: ٥٨أ.





هؤلاء الذين كانت كراماتهم تنفيذًا للأمر الرباني الذي شيَّب شعر النبي ﷺ في قول الحق سبحانه ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ فعملوا عليها في الظاهر والباطن طوال حياتهم.



- تأثير القلوب الغافلة

في يوم ذي شأن من عام ١٣٤٠هـ كان ثمة احتفال ديني أقيمت شعائره ومراسمه في مسجد آية صوفيا بإستانبول؛ حيث بدأ الحفاظ يرتلون آيات القرآن الكريم، ثم أخذ المنشدون يتغنون بالمدائح النبوية، مع المناقب المحمدية قراءة وإسماعًا لهذا الحشد الغفير من كل الطبقات والفئات التي اجتمعت لتستمتع بهذه الأمسية الدينية، التي -من المفترض- أن يشع فيها الإيمان على قلوب الحاضرين ونفوسهم.

لكن المشاعر كانت مختلفة لدى أحد الحضور؛ إنه الشيخ الرباني عادل، وهو من بيلاربيه، حيث كان يجلس قريبًا من المنصة يحاول أن يتخلص من هذا الضيق الجاثم على صدره؛ مستغربًا من هذه المشاعر السلبية في ذلك الجو الديني المفعم، تلفَّت الرجل يمنة ويسرة لعله يجد مصدر هذا الإشعاع المضجر والريح الصرصر، ولم يطل البحث؛ إذ وجد الشيخ قريبًا منه أحد الغافلين قساة القلوب، وكأن قلبه الغافل هو مصدر ذلك الإشعاع، وكأن أنفاسه فحيح أفعى تبث السم، فتكدر روحانية الموقف وتحول النفحات إلى لفحات. وحينها تدارك الشيخ عادل حاله وانتقل بعيدًا عن الرجل،[٣٦٣] ولكن لم يفارقه هذا الأثر إلا بعد

---

٣٦٣ إن تأثير الصلاة يعتمد على حالة القلب، يقول الله ﷻ في سورة الماعون:
﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ. الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ. الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ. وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾.
لهذا من الطبيعي وجود الغافلين، أي من فيه مرض في قلبه، وحتى المنافقين في المساجد.





حين،[٣٦٤] ولا عجب؛ فلدغة العقرب تنقل السم إلى الجسد في ثوانٍ معدودات، لكن استخراج السم من الجسد، ثم البُرء من آثاره يستغرق ليالي عدة.

العِبرة:

إذا كانت وجوه الصالحين هي مرآة تعكس أنوار الإيمان، وأنفاسهم نفحات من أريج جنة الإيمان، فعلى الضد من ذلك نجد وجوه الطالحين تحمل قسماتُها شبهًا من قساوتهم، وأنفاسهم تبث فحيحًا من خبث أنفسهم.

وكلُّ إناءٍ بما فيه ينضح، فهذه القلوب التي هامت في رحاب محبة الله تعالى، وأُشرِبَت من قطرات ندى لطفه، ونبتت غراسها وأورقت غصونها وأثمر نوَّارها في بستان ذكره ومعيته، نجد في ثناياها قصور الجنة يسبح فيها ولدان مخلدون، يطوفون ويُخدَمون، ويقدمون لكل المخلوقات كؤوسًا من معين.

أما تلك القلوب التي عبدت غرور الدنيا، واتبعت كل سفيه، ولم تسطر في صحيفتها إلا ما يُغضب ربها ولا يرضيه، فلا يُرجى منها إلا نارٌ تفور، وماءٌ يغور، وأرضٌ تبور، وظلٌّ حرور، وعذابٌ وثبور.

ولعل ذلك هو أحد الأسباب الأساسية للأمر القرآني بالنفور عن مجالس هؤلاء، يقول الله تعالى:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾
(الأنعام، ٦٨)

إن الخواص من عباد الله تعالى الذين يتمتعون بحساسية قلبية يفهمون هذه الدقة في أمر الله تعالى أكثر من غيرهم، فكلما زادت حساسية القلب توسَّعت المعايير، وبدأ العبد برؤية الحقائق وراء الحجب، وأدركت الأحاسيس الأحداث

٣٦٤ انظر: محمود سامي أفندي، الإنسان المُكرَّم، ص٦٢-٦٣؛ مجالس العيد، ص٣٩.





التي لا ينتبه إليها الآخرون، ولنذكر هنا مثالاً معبِّرًا عن هذا الموضوع من حياة سيفي بابا:

كان سيفي بابا أحد أولياء الله تعالى، محبًّا للشيخ سامي أفندي -صاحب الكشوفات والأحوال الروحانية- وكان يسكن في طوبكابي، وذهب ذات يوم لزيارة الشيخ سامي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وما إن وصل إلى بيته حتى سقط مغشيًّا عليه، فقلق عليه الإخوة، وبعد أن أفاق قال أحدهم:

«دعونا نأتي بالطبيب»، لكن سيفي بابا قال والإرهاق بادٍ عليه:

«لا يا بُني، لا تدعُ الطبيب، فحالتي هذه ليست بسبب مرض بدني، لقد أثَّر فيَّ أهل المعاصي وأماكن العصيان التي مررت بها في طريقي من طوبكابي إلى أرَنكوي، وحين دخلت من هذا الباب الطاهر، لم يتحمل قلبي تأثيرات الروحانية التي تلقاها هنا، وستعود صحتي إليَّ ببركة الروحانية، وعون سلطان العارفين سامي أفندي».

والخلاصة:

إن القلوب إما أن تكون مناراتٍ أو مغارات، مناراتٍ تشع النور للخلائق، فتهتدي وتستضيء وتستنير وتستبصر، أو مغاراتٍ تؤوي في جوفها كُلَّ الظلمات والأهوال، ولا يخرج منها للناس إلا الأذى والمخاطر.

وفي صحراء الدنيا يجب على المسافر الحصيف أن يهتدي بقبسات منارات هذه القلوب، فيجد عندها القِرى والهُدى، وأن يحذر من مخاطر تلك المغارات، فلا يقترب منها، فَيَفْجَؤُه ما لا يقدر عليه من أهوالها.

وكان سيدنا داوود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يبتهل إلى الله عَزَّ وَجَلَّ بين الحين والآخر بالدعاء التالي:

«يا رب إن رأيتني متوجهًا إلى مجالس الغافلين، فاكسر قدَمَي قبل وصولي إليهم، فهذا إكرام عظيم منك عليَّ».





- باب الحبيب

في يوم من الأيام قال الشيخ أبو سعيد النيسابوري لطلابه:

«أعِدُّوا الركاب، فإننا متجهون إلى بلدة».

ثم خرج الشيخ مع ثلة من طلابه، وحين وصلوا إلى قريةٍ في نيسابور سأل:

«ما اسم هذه القرية؟»

فأجابوه: «اسمها دردوست، أي باب الحبيب».

فقرر الشيخ أبو سعيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ النزول فيها، وبعد أن نزلوا ضيوفًا ليوم واحد، سأله بعض الطلبة:

«يا شيخنا، قد كنا ذاهبين إلى بلدة، أفلا نكمل طريقنا؟»

فأجابهم الشيخ الذي يمتلئ قلبه بالأسرار المعنوية:

«يجب على العاشق أن يقطع المسافات الطويلة كي يصل إلى باب الحبيب، ألا وقد وصلنا إلى هذا المكان، أي إلى «باب الحبيب»، فإلى أين نتجه بعدها؟»

فأمضى الشيخ هناك أربعين يومًا، وسادت الأحوال المعنوية والروحانية في تلك القرية، وتاب أكثر أهل القرية ببركة صحبة أبي سعيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ وفيوضاته، وصاروا طلابًا صادقين عنده، فكان المعنى الحقيقي الذي قصده الشيخ بعبارته «باب الحبيب» هو فتح القلوب... فلكي يُفتح للعبد باب رضا الحبيب لا بد من حَمْلِ القلب الذي اهتدى إلى حضرته تعالى.

العِبرة:

قادة الجيوش والعسكر يفتحون القلاع والحصون، وقادة الأرواح والمريدين يفتحون مغاليق القلوب، فهذا هو دورهم الذي خلقهم الله لأدائه، وتلك هي متعتهم في إيصال الخلق إلى الله تعالى، ففي ذلك وصالهم معه سبحانه وتعالى.





- الطاعة- الخدمة- النصيحة

قال أحد الصالحين -وكان مداومًا على صحبة داوود الطائي- مخاطبًا معروف الكرخي:

«إياك وترك العمل الصالح، فبه تقترب من رضا الله تعالى».

فسأل الكرخي: «وما قصدك بالعمل؟»

فأجابه: «أن تكون مطيعًا لربك في كل حين، وخادمًا وناصحًا للمسلمين».

الخلاصة:

بالطاعة تكون العبودية، وبالتسليم الكليِّ لله تعالى يكون الإسلام، ومنهما تكون بركة الأعمال، فالعبادة القليلة بطاعةٍ وتسليم خيرٌ عند الله ﷻ من عبادات كالجبال، أفلم يكن السبب في طرد إبليس هو نقص طاعته وتسليمه، لا قلة عبادته؟

أما الخدمة فهي الفضيلة التي تمسَّك بها الأنبياء والأولياء كلُّهم، فلم يتخلوا عنها في سقمهم، حتى وهم على فراش الموت، وحالتهم هذه مثال كافٍ لأهل العرفان ليعلموا كيف يتمسكون بالخدمة، فالخدمة -باختصار- شعار يتخذه أصحاب القلوب الرحيمة الكريمة.

فمَنْ نضج قلبه، واستوى في الجهاد عوده، وفنيت في العبادات نفسه تراه متجردًا من وجوده الفاني، ومن كينونته البشرية، فيرى ذاته أقل الناس شأنًا، وآخرهم رتبة، وأدناهم منزلة، فيسير في ذيل القافلة خادمًا مطيعًا، وعبدًا مستكينًا ساكن الفؤاد، رقيق الحال، منجذبًا دومًا نحو القلوب المنكسرة، ذوي الهموم والبائسين، اليتامى والمرضى والمحزونين، وغيرهم من البسطاء والضعفاء، هو دائمًا معهم يواسيهم ويؤازرهم ويشاركهم أتراحهم، ويخدمهم بقلبه الناضج الرحيم.





أما حين نتكلم عن النصيحة، فهذا أمر يعود لأهل النصيحة فقط، فهي تؤثر بمقدار ما يطبقها المرء، لهذا ليس من الصواب أن يكون كل امرئ ناصحًا، أي لا بد أن يكون الناصح أهلاً لذلك ممَّنْ يتمسكون بأخلاق النبي ﷺ وأسلوبه، أما التهرب من النصح مع وجود الأهلية فهو مسؤولية يحاسَب عليها المرء حسابًا عسيرًا، يقول النبي ﷺ في الحديث الشريف:

«**الدين النصيحة**» (البخاري، الإيمان، ٤٢)،

لهذا فإن تركُ النصيحة سببٌ للخسران أوضحته سورة العصر، ويشمل هذا بالتأكيد عدم الاستماع للنصيحة.

والخلاصة هي أن الطاعة والخدمة والنصحية يجب أن تكون دستورًا ثابتًا للسالكين في الطريق إلى الحق تعالى، وعليهم أن يسعوا لنيل رضا المولى ﷻ بهذه الوسائل الموصلة إلى السعادة الأبدية.



- خدمة المخلوقات

رأى أحد الصالحين في نومه السلطانة برتونيال بعد وفاتها جالسة في مقام عالٍ، وهي السلطانة التي بنت مسجد «والدة» في آكسراي في إستانبول، فسألها:

«هل أعلى اللهُ مقامك بسبب هذا المسجد الذي أمرتِ ببنائه؟»

فأجابت: «كلا»، فسألها الصالح بدهشة:

«فما العمل الذي وصلت به إلى هذه المرتبة؟»

فأجابت السلطانة جوابًا فيه الكثير من العِبر:

«لقد كان يومًا ماطرًا حين ذهبنا لزيارة مسجد أيوب ﷺ، وفي طريقنا إلى هناك، رأيت هرة صغيرة هزيلة تحاول الخروج من بركة الماء بالقرب من





الرصيف، فأمرتُ بإيقاف العربة، وقلت للمربية[٣٦٥] التي كانت بجانبي: «اذهبي وأحضري هذه الهرة الصغيرة، فإنها تكاد تغرق في البركة».

لكن المربية قالت: «يا سلطانتي، ستتسخ ثيابنا»، فعلمت أنها لا ترغب في إحضارها.

ولم أكن أريد توبيخها، فخرجت من العربة، وسرت في الوحل، وأنقذت تلك الهرة الصغيرة التي كانت ترتجف، وأحسست بالألم بسبب حالتها، فاحتضنتها كي تنال الدفء، وما هي إلا لحظات حتى عادت المسكينة إلى نشاطها وحيويتها.

وقد أحسن الله تعالى لي بهذا المقام العالي بسبب خدمتي الصغيرة لهذه الهرة.

العِبرة:

البيت الصغير الذي صنعته السيدة من كفيها وأطراف ردائها، فصار مأوى دافئًا لهرَّة صغيرة ضالة صار عند الله تعالى أعظم أجرًا من بيت الله الفخم والمسجد الضخم الذي لا يزال حتى الآن ماثلاً للعيون بعد قرون.

خدمة السلطانة لهرَّة من مخلوقات الله تعالى صارت سببًا في مقامها في الجنة، فما ظنك بخدمات دائمة لكل مخلوقات الله تعالى، يؤديها الإنسان الناضجة روحه، والطاهر قلبه، حتى تصير الخدمة غريزة في طبيعته الرحيمة، وصفة مميزة في إنسانيته الراقية.



٣٦٥ كانت النساء اللاتي يعملن في خدمة السلطانة من السودان، ويطلق عليهن اسم «باجي». وكان العثمانيون يطلبون الخادمات من السودان على وجه الخصوص كي يعملن في القصر لأنهن كنَّ نظيفات عفيفات طاهرات.





- لطافة أولياء الله ﷻ

يروي لنا الشيخ موسى أفندي رحمه الله الحادثة الآتية:

«في أحد مواسم الحج كنا في منزل عبد الستار أفندي التركستاني الأصل برفقة العلامة الشيخ سامي أفندي وطلابه، وكان منزله في مكة المكرمة بالقرب من المسجد الحرام في حي أجياد، وكانت الغرفة التي يجلس فيها الشيخ سامي مقابل الشارع، في حين يمكث مَنْ كان برفقته في القسم الداخلي.

وقد شرَّفنا في ظهيرة أحد الأيام بالوقوف على باب غرفتنا وقال:

«ثمة محتاج في الخارج، أظن أنه بحاجة إلى طعام».

فشرعت أحضِّر الطعام بسرعة، وخرجت فلم أرَ الفقير، فقلت في نفسي إنه لم ينتظر، فعدت إلى الغرفة، ثم بعد ثماني أو عشر دقائق، جاء الشيخ سامي مرة أخرى وقال:

«لقد جاء المحتاج مرة أخرى، وينظر إلى الداخل».

وحين أخذت الطعام وخرجت مرة أخرى، إذا بكلب يلهث لشدة جوعه، وينظر إلى داخل المنزل، فوضعت الطعام مباشرة أمامه، فلم يُبقِ منه شيئًا.[٣٦٦]

العِبرة:

كلنا مخلوقات الله، وكلنا عبيده، فلا يتعالى عبد على إخوانه، ولا مخلوق على أقرانه، مهما اختلف الجنس، أو تفاوتت الأصناف والمقادير.

ذلك هو فَهْم المتجردين من أولياء الله تعالى الذين تستحضرون عند المخلوق خالقَه الذي أبدعه، ولا يهتمون بصورة ذلك المخلوق حتى لا تشغلهم عن استحقاقه لديهم وحقه عندهم، حتى لو كان ذلك المخلوق كلبًا.

٣٦٦ انظر: صادق دانا، سلطان العارفين، ص٣٥-٣٦.





أليس ذلك الكلب مخلوقًا؟ أليس هو من خلق الله تعالى وإبداعه؟ أليس هو أيضًا مُيَسَّر لما خُلِق له؟

هكذا هي لطافة عظماء الدين وتواضعهم، إذ لم ينادِ الشيخ سامي أفندي الكلب باسم جنسه، بل استعمل كلمة «شخص» للدلالة على هذا الحيوان، وكان في كثير من الأحيان لا يستعمل كلمة «مخلوق» للحيوانات، بل «عباد الله».

لأن حُسن الأخلاق تجاه المخلوقات من أجل الخالق يُعرض في الحقيقة على الخالق ﷻ، وحُسن الأخلاق هذا نابع من قلبٍ متعلق بالله ﷻ، أي من قلب سليم، ومَنْ يصلْ إلى القلب السليم، فقد وصل إلى ينبوع الولاية الذي لا ينضب، فيكون بعدها في حالة من اللذة الروحانية؛ لأن القلب السليم هو المكان الذي يتجلَّى عليه المولى ﷻ، ومثل هذه القلب يكون ساحةً للكرم والرحمة.



- الإرادة في الحضرة الإلهية

كثر القيل والقال حول الشيخ محمد نور العربي -من متصوفة القرن التاسع عشر- بأنه أنكر وجود «الإرادة البشرية» أي الإرادة الجزئية، فأصدر السلطان عبد المجيد الذي سمع مثل هذا الكلام قرارًا بدعوة الشيخ إلى الحضور،[٣٦٧] ليسأله عن هذه المسألة، ودُعي الشيخ فكان جوابه:

«لا ريب أن للعبد إرادة جزئية، وهي علة المسؤولية، لكنها ليست عند كل عبد وفي كل زمان، فمثلاً لا شك أنني صاحب إرادة جزئية، لكنني أتيت بأمر السلطان، ولا قدرة لي في أن أذهب من هنا، فإن قيل: «احضر» حضرنا، وإن قيل: «اذهب» ذهبنا، وهذا يعني أن لا إرادة لدي في هذا الأمر، وتحركاتي كلها

---

٣٦٧ دروس الحضور: لقاء كان يجتمع فيه العلماء بحضور السلطان العثماني، ويقرؤون تفسير البيضاوي ويناقشون المسائل العلمية، ومن هنا جاء الاسم. (المترجم)





أيضًا محدودة؛ لأنني أمام السلطان، وثمة بعض الأشخاص يحيون دائمًا في مثل هذه الحالة، أي في إدراك أنهم في حضرة رب العالمين، في حين هناك الكثير من الأشخاص يقرُّون أنهم أمام الحضرة الإلهية في الصلاة فقط، مع أن الله تعالى حاضر وناظر إليهم في كل مكان، إذًا مَنْ ارتقى إلى درجة معنوية معينة، يحيا مدركًا أنه أمام الحضرة الإلهية في كل حين، وأنتم هنا الذين تقدرون وجود الإرادة الجزئية عند مثل هؤلاء أو عدم وجودها».

فسُرَّ السلطان بهذا الجواب، وأكرم الشيخ وأحسن إليه.

الخلاصة:

إن العبد صاحب إرادة، وهذه الإرادة أو القدرة إكرام من الله ذي الجلال والعزة، ومع أن إرادة الله تعالى موجودة في كل حدث، فإنه يرضى عن الخير فقط، فغاية المعلِّم مثلاً هي تقديم العلم لطلابه كي يجتازوا الامتحان، فإن لم يدرس الطلاب، فلا حيلة للمعلِّم، أما وظيفة الطبيب فهى علاج المرضى، فإن لم يطبِّق المريض وصفة الطبيب، فإن النتائج السيئة التي قد تصيب المريض يكون هو وحده مسؤولاً عنها، ولا يمكن أن يُتَّهم الطبيب هنا بأي تقصير.

وتسليم العبد إرادته إلى المولى ﷻ -الذي يقف في حضرته- سيكون وسيلة للإحسان إلى العبد لا إلى المولى سبحانه، أي إذا سلَّم العبد -في إطار معايير الإخلاص- بصره لنظر الله المطلق، ويدَه لقدرة المولى المطلقة، ولسانَه لصفة كلام الله المطلقة، وأذنَه لسمع الله المطلق، فسيكون بصره وسمعه وإدراكه أحسن، أي إنه لن يُحرم البتة مما تخلى عنه، بل إنَّ كلَّ ما سلَّمه يعود إليه بحظوظ كثيرة مطلقة، لذلك يقول الله تعالى في الحديث القدسي في عباده الصالحين الذين سلَّموا إرادتهم لإرادة الله تعالى الذي يقفون في حضرته دائمًا:

«كنت سمعَه الذي يسمع به، وبصرَه الذي يُبصِر به، ويدَه التي يبطش بها»

(البخاري، الرقائق، ٣٨)





- الأدب

يقول داوود الطائي: «لزمت الإمام أبا حنيفة عشرين عامًا، فلم أره يومًا جالسًا حاسر الرأس، سواء كان وحيدًا أم بصحبة الآخرين، ولا مادًّا قدميه للراحة، فقلت له: (هل عليك جناح إن مددت قدميك حين تكون وحيدًا؟) فأجابني: (التأدب أمام الله تعالى أفضل)»

الخلاصة:

الأدب عند أولياء الله تعالى هو غرسٌ نَبَتَ في قلوبهم، روته دماء جهادهم حتى تفرعت شجرته في عروقهم، فصار الأدب دينهم وديدنهم، وصار الأدب لُحْمَتَهم وسَدَاهم، وصار الأدب نورهم وسراجهم يصدر عنهم ويصدرون عنه، حتى لا تكاد تميز الحدود بينهما.

هم الأدب بعينه، لا يتصنعونه من أجل أحد ولا في وجود أحد، إنما هم دائمًا في حضرة الله الواحد الأحد، فالأدب الصادر عنهم أدب مع الله ﷻ ومع الناس، لا باعتبارهم أشخاصًا إنما باعتبارهم خلقا من خلق الله ﷻ.

وهؤلاء العارفون أصحاب القلوب الكاشفة يعيشون في يقين دائم أنهم في معية الله تعالى وحضرته في كل زمان ومكان، مستظلين بظلال قوله سبحانه: ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ**﴾.[٣٦٨]

أما أصحاب العقول القاصرة والقلوب غير الناضجة فيكتفون بتصنع الأدب في الصلاة كأن الله تعالى حاضر فيها فقط ثم يغيب –حاشاه– بعد انقضائها، ولو استشعرتْ قلوبُهم معيته، واستروحت أرواحُهم بحضرته لأدركوا معنى وسر قوله سبحانه: ﴿**الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ**﴾[٣٦٩] فهم دائمًا في حالة صلاة؛ أي إنهم دائمًا في حالة حضور خاشع أمام الله تعالى.

٣٦٨ الحديد، ٤.

٣٦٩ المعارج، ٢٣.





- الأدب في الخدمة

يقول عبد الله روغندي:

«إياك أن تستصغر خدمة وُكِّلتَ بها؛ لأن الخدمة تبقى خدمةً، وقد تكون الخدمة التي تبدو لك غير ذات شأن شيئًا عظيمًا عند الله تعالى لأسباب متنوعة، وبما أننا نجهل الخدمة التي يرضى عنها المولى ﷻ، لذلك فلتستمِرَّ في الخدمة بكل أنواعها، حتى تصل إلى مراد الله تعالى ورضاه، ولتكن النعم والتجليات التي نلتَها وسيلةً لزيادة شكرك وخدمتك فقط».

الخلاصة:

الخدمة شعارُ المرشدين والمريدين من أهل التصوف، وهي أيضًا وسيلة ومنهج وسلوك، والغاية منها بلوغ رضا الله ﷻ، فإذا فَقَدَتِ الخدمةُ أحدَ هذه المعاني والشروط والحدود؛ خرجت من مضمونها وانحرفت عن مسارها.

فعليك أن تخدم الناس -كل الناس- في كل الأوقات والأحيان والأحوال، في المنشط والمكره، للعظيم والحقير، فإذا اقتصرت خدمتك على أحدٍ ما، فقد قصدت بخدمتك هذا الأحد، ولم تقصد رضا الواحد الأحد.

وقد تلقى مثل هذه الأنواع من الخدمة ثناء الناس، لكنها تسقط من نظر رحمة الله عن العبد، وينزل عليه غضبه، فليست غاية الخدمة نيل النتائج التي تبهر عيون الناس في هذه الدنيا، بل عرض الأعمال والخدمات التي توصل العبد إلى الدرجات العليا في عالم الآخرة.

لذلك على السالك أن ينظر إلى كلِّ نوع من أنواع الخدمة على أنها غنيمة، فمن الممكن أن تخفي الخدمة التي يستصغرها الناس داخلها أجرًا إلهيًا لا تحدُّها السماوات والأرض، وقد يمتحن الله ﷻ ولاء العبد وإخلاصَه فيخفي الكثير من نعمه في قطرة، وينظر إلى القلوب أين تتجه.





- الأدب في كل حال

يقول ابن عطاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن الذين يترقون في هذا الطريق المعنوي لم يصلوا إلى هذا المقام السامي بالعبادات مثل الصلاة والصيام فحسب، بل ارتقوا في الدرجات بسلوكهم وأعمالهم الفاضلة، إضافةً إلى أداء العبادات بالتمام والكمال، يقول رسول الله ﷺ:

(إنَّ مِنْ أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحسنكم أخلاقًا)»

(الترمذي، البر، ٧١)

الخلاصة:

الدين هو الأخلاق، ومن جوانب عظمة النبي ﷺ أنه كان كما وصفه ربه سبحانه في القرآن: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ (القلم، ٤)

هذا هو سر الرسالات، وهدف الأنبياء، وغاية المرسلين، وطريق المرشدين، ومُراد السالكين، ومنهج المريدين.

وما أجمل قول الشاعر حين وصف الأدب قائلاً:

الأدب تاج من نور البارئ

فالبسه تأمن من كل بَلاء

ونظم أحد العارفين شعرًا قال فيه:

بحثت بين أهل القلوب طالبًا

كلَّ عمل مقبول لكن بالأدب

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«سأل قلبي عقلي: (ما الإيمان؟)، فدنا عقلي من أذن قلبي وهمس: (الإيمان هو الأدب)».





«لذلك منْ لا أدب عنده، لا يقتصر على إيذاء نفسه فحسب، بل قد يحرق الدنيا كلها بسبب قلة أدبه».

- أخلاق ولي الله تعالى وخدمته

كان الشيخ أحمد الرفاعي يلقي السلام على كل مَنْ يراه، وإذا ما سمع بمرض أحدهم في قرية أو بلدة، يعوده في أول فرصة تسنح له، وكان حين يلتقي بأعمى في سفره يمسك بيده ويحمله إلى وجهته، وإذا صادف شيخًا أعانه في حِمله ثم نصح أصحابه بحديث النبي ﷺ الذي يقول فيه:

«**ما أكرم شابٌ شيخًا لسنه إلا قيض الله له مَنْ يكرمه عند سنه**» (الترمذي، البر، ٧٥)

وأثناء عودته من سفره خارج المدينة كان يذهب إلى الغابة، فيحتطب ثم يحمل حطبه على دابته، ويعود إلى المدينة ليوزعه على الأرامل والعاجزين والفقراء والمحتاجين.

وكان يهرع إلى خدمة المجانين والمقعدين، فينظف ثيابهم، ويجالسهم، ويصحبهم، ويحمل إليهم الطعام فيُطْعِمُهم بيديه، ثم يطلب منهم أن يدعوا له، وكان يقول لمريديه:

«إنَّ زيارةَ مثل هؤلاء من العاجزين ليست مستحبة، بل واجبة».

وفي يوم من الأيام مرَّ على أطفال يلعبون، فهرب بعضهم خوفًا من هيبته، فركض الشيخ مباشرة خلفهم، واحتضنهم برأفة ومحبة كبيرة لينال محبة قلوبهم، وخاطبهم قائلاً:

«يا أولادي، إنكم ترون أنني عبد عاجز، فسامحوني إن أقلقتكم».

الخلاصة:

قلب الإنسان هو صحيفة أعماله ومرآة سيئاته، فإذا أصاب ذنبًا ما ولم يتداركه بالاستغفار والتوبة نُكتت فيه نُكتة سوداء، فإذا تكاثرت تلك النُكت اسوَدَّت





الصحيفة واسوَدَّ القلبُ، وقد أدرك العارفون هذه الثغرة الخطيرة للذنوب على القلوب، فكان لسان حالهم:

«اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهم نقِّني من الخطايا كما يُنقَّى الثوب الأبيض من الدنس، اللهم اغسل خطاياي بالماء والثلج والبَرَد».

ويضعون نصب أعينهم قول الحق تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة، ٢٢٢)



- ليعلم الباقي لا الفاني!

كان بعض فقراء المدينة المنورة -فيما مضى- يجدون في كل صباح أكياس دقيق عند أبوابهم يضعها شخص مجهول، وفي صباح أحد الأيام استيقظ الفقراء فلم يجدوا أكياسهم، وبينما كانوا يتساءلون عن السبب، إذ سمعوا صوتًا شجيًّا يعلن وفاة زين العابدين حفيد الإمام علي رضي الله عنه، فحزن كل مَنْ هناك حزنًا شديدًا.

فشرعوا بالتحضير لدفنه، وحين أرادوا تغسيله، جعلوا ينظرون إلى آثار سوداء بظهره، فقالوا: «ما هذا؟» فقيل: «كان يحمل أكياس الدقيق ليلاً على ظهره يعطيها لفقراء أهل المدينة».[٣٧٠]

العِبرة:

أضاف كتاب «صفة الصفوة» إلى تفاصيل قصة هذا الكرم الخفي لسليل البيت النبوي، أنَّ زين العابدين كان يُشيع بين الناس أنه من البخلاء، فلما مات علم أهل المدينة أنه كان يَعُولُ أكثرَ من ثمانين بيتًا من فقرائها!

---

٣٧٠ انظر: ابن كثير، البداية، جـ٩، ١١٢، ١٢٢؛ أبو نعيم، الحلية، جـ٣، ١٣٦.





هذه المبالغة في الستر والإخفاء، وفي درء العيون والألسن عن الأعمال أشبه بحصون المؤمن التقي التي يحافظ بها على عمله من الرياء، ذلك الشرك الخفي الذي يمحق الأعمال، ويذهب بثوابها أدراج الرياح.

لذا يكون العمل الصالح مقبولاً حين يؤديه العبد واضعًا في ذهنه فكرة «ليعلم الباقي لا الفاني»، عندها لن تكون الأقلام ولا المداد كافية لتسجيل ثوابِ مثل هذه الأعمال وأجرها.

وما أسعد أولئك العظماء المجهولين والأتقياء الأخفياء، الذين يسعون لبثِّ السرور في قلوب العباد بخدمات التضحية الصادقة سعيًا لرضا الله تعالى، لا تلبيةً لأهوائهم.



- لا تحتقرنَّ أحدًا

يُروى أن عيسى ﷺ خرج مع رجل يدَّعي الصلاح من بني إسرائيل، فتبعهم رجل ذليل معروف بفسقه وذنوبه بين الناس، وأثناء استراحتهم في الطريق، جلس هذا المذنب في مكانٍ آخرَ في حالةٍ من الندامة والحياء كسيرَ القلب، والتجأ إلى الله تعالى أرحم الراحمين طالبًا عفوه، ودعا قائلاً:

«يا رب، اعفُ عني بنبيك الكريم هذا».

فاستصغره الرجل الذي يدعي الصلاح حين رآه، واستحقره، ورفع يديه إلى السماء قائلاً: «اللهم لا تحشرني مع هذا الرجل يوم القيامة».

فأوحى الله ﷻ إلى نبيه عيسى ﷺ أن:

«يا عيسى، قل لعبديَّ هذين إنني استجبت دعاءهما، فعفوت عن المذنب مع كثرة ذنوبه وجعلته في الجنة، أما الآخر الذي يدعي الصلاح بين الناس فلن يرى الجنة، إذ أراد ألا يكون مع عبدي الذي غفرت له».





العِبرة:

القلوب هي موازين الأعمال، ومرآة الأحوال، ومنابر الدعاء والسؤال، فالقلب الكسير التائب أحبُّ إلى الله تعالى من القلب المغتر بعبادته المتعالي بأعماله، ورُبَّ ذنب أورث ذلاً بين يدي الله وانكسارًا، هو أعظم أجرًا من عبادة أورثت صاحبها تعاليًا واستكبارًا.

يقول رسول الله ﷺ:

«**بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم**» (مسلم، البر، ٣٢)

ويقول الشاعر:

أيها الزاهد لا تحتقرن الشُّعث الغُبر

فكم من كنز أسفل الخِرَب



- لا تَعِب أحدًا

يقول حمدون قصار رَحِمَهُ اللَّهُ:

«إن رأيت سكران يترنح في طريقه، فانتبه، وإياك أن تَلُمْهُ، فقد تُبتلى بما ابتُلي به».

الخلاصة:

جاء في الأثر: «**لا تُظهر الشماتة لأخيك، فيرحمه الله ويبتليك**» (الترمذي، القيامة، ٥٤)

وقد عبر الإمام الشافعي عن فلسفة أهل الحق ونظرتهم تجاه أهل الصلاح، وأهل الذنوب، فقال:

أحب الصالحين ولست منهم ... لعلي أن أنال بهم شفاعة

وأكره مَن تجارته المعاصي ... وإن كنا سواءً في البضاعة





والمتصوفون المرشدون لا يبغضون أهل الذنوب؛ بل يبغضون عين الذنوب، أما أهلها فهم بضاعتهم التي يتَّجرون فيها بالإرشاد والهداية والإصلاح، فهم كالصيارفة يميزون الذهب مهما ضاعت معالمه، وتشوهت صورته، كذلك العبد إذا أوحلته المعصية، ودنسته الذنوب، أبعد ما يرجوه هو التقريع والتعنيف والعيب.

يقول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ﴾ (الحجرات، ١١)

فحصر بذلك محاسبة العباد على ذنوبهم به وحده ﷻ، وحرَّم على الإنسان أن يدخل في هذه الدائرة الخاصة به سبحانه.

ونجد من ناحية أخرى أنَّ مَنْ يعيب غيره ويحتقرهم غالبًا ما يقع في الخطأ والذنب نفسه، وهذا ما يعبر عنه المثل الذي يقول: «مَنْ عاب ابتُلي».



- إدخال السرور في قلب اليتيم

يقول السري السقطي: «رأيت معروفًا الكرخي في أحد أيام العيد يجمع نوى التمر في الطريق، فسألته عن سبب جمعه إياها، فقال:

(رأيت طفلاً صغيرًا يبكي، فسألته عن حاله، فأخبرني أنه يتيم يبكي لافتقاره إلى ثياب ودمى يتنعم بها كغيره من الأطفال، ثم بكى مرة أخرى، فأشفقت عليه؛ لذا أجمع نوى التمر كي أبيعها، وأشتري له بها ثيابًا ودمى).

فأشفقت أنا أيضًا على الصغير واكتوى قلبي لأجله، فرجوت الشيخ قائلاً:

(ائذن لي أن أهتم بهذا الطفل، ولا تشغل فؤادك به)، ثم أخذت الطفل ولبَّيت احتياجاته».





ويوضِّح السري السقطي الحالة التي وصل إليها ببركة هذا العمل الصالح بقوله:

«لقد دخل النور إلى قلبي ببركة هذه الخدمة، فصرت في حالة مختلفة كليًّا، وتذوقت اللذات الروحانية الكثيرة».[٣٧١]

العِبرة من القصة:

إن إدخال السرور إلى قلب اليتيم ورعايته من أفضل الأعمال الصالحة التي حثَّ الإسلام عليها كثيرًا ولها أجر عظيم جدًا، والوعد الذي أعطاه رسول الله ﷺ في الحديث الآتي يروق القلوب العاشقة:

«**كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين في الجنة**»، وأشار راوي الحديث مالك بن أنس بالسبابة والوسطى. (مسلم، الزهد، ٤٢)

وفي حديث آخر يقول ﷺ:

«**مَنْ مسح رأس يتيم لم يمسحه إلا لله، كان له بكل شعرة مرت عليها يدُه حسنات**» (أحمد بن حنبل، مسند، جـ٥، ٢٥٠)

ويُقصد بالمسح في هذا الحديث الاهتمام بمسائل اليتيم كلها المادية والمعنوية.



الصداقة

يقول سهل بن إبراهيم: «صحبت إبراهيم بن أدهم: فمرضت فأنفق عليَّ نفقته، فاشتهيت شهوة، فباع حماره وأنفق علي ثمنه، فلما تماثلت قلت: يا إبراهيم، أين الحمار؟ فقال: بعناه، فقلت: فعلى ماذا أركب؟ فقال: يا أخي على عنقي، فحملني ثلاثة منازل».[٣٧٢]

---

٣٧١ انظر: القشيري، الرسالة، جـ١، ٤٥.

٣٧٢ القشيري، الرسالة، جـ١، ٣٧.





العِبرة:

لا تصلح أيام البسط والرخاء في تقويم الأصدقاء، فهم فيها كثير ملتفون حولك، فإذا انقضت تلك الأيام انفضوا، وإذا ولت تلك الأيام انفرط عقدهم، حتى يكادوا ينكروا أنهم رأوك من قبل، ولكن:

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا   مَنْ كان يألفهم في الموطن الخشن

وأهل الصلاح والفلاح من الرعيل الأول من المسلمين حين ذكرهم اللهُ تعالى في قرآنه العظيم، وصفهم بأنهم: ﴿**رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ**﴾

وقال الله ﷻ:

﴿...**وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ**...﴾ (الحشر، ٩)

فإذا تراحم العباد، أظلتهم رحمات رب العباد، وهو قانون سماوي يوضحه الحديث الشريف:

«**الراحمون يرحمهم الرحمن**» (أبو داود، الأدب، ٥٨)



- المقصود من الصداقة

صحب عبد الله بن المبارك يومًا رجلًا سيئ الطباع، وبعد أن افترقا بدأ عبد الله بالبكاء، فرآه أصحابه فسألوه: «لِمَ تبكي؟ ما الذي أحزنك؟»

فتنهد، وقال وعيناه تدمعان:

«لم أستطع أن أصلح حال صديقي على طول سفرنا، ولا حسَّنت أخلاقه. وأسأل نفسي: أمن عيب فيَّ لم يستفد هذا الرجل؟ فإن لم يجد الاستقامة لخطأ مني، فماذا سيكون حالي غدًا!»

ثم شهق شهقاتٍ واستمر في بكائه.





العِبرة:

﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾ (الزخرف، ٦٧)

فإذا افتقدت الصداقة التبادل المعنوي، والتأثير الإيماني، والأخذ بالأيادي للترقي الروحاني؛ تصبح عبئًا لا عونًا، وعداوة لا خُلَّة، وتصبح رابطتها تعصبًا لا عصبة، وتعاونها مظلمة لا مرحمة.

فالذين يلتقون على مواثيق الله تعالى ليشدَّ بعضُهم من أزْرِ بعض، غير الذين يتغافلون عن الهدف الحقيقي للصداقة فيتلاحون في جهنم، ويقول بعضهم لبعض: ﴿...لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً﴾ (الفرقان، ٢٨)

وتَنَاصُحُ الأصدقاء ليس كتناصح المرشدين والمريدين أو العلماء المتعلمين؛ إنما هو محاسبة النفس وتطهيرها، فالمؤمن مرآة أخيه، والمرء على دين خليله، فإذا وجدت من نفسك صلاحًا، ومن قلبك طهارة، ومن روحك رقيًا، فاعلم أن صاحبك قد بادلك طباعك، وأن قلبه قد أصاخ أذنيه لسماعك، وأن قدميه توافقانك في دربك.

وأما إذا وجدت في أخلاقه اعوجاجًا، وأنه حاد عن الصراط المستقيم، فاعلم أن عقد الصداقة بينكما قد انفرط، وأن هوى نفسه غلب عليه.



- التسليم تسليمًا كاملاً

روي أن الله تعالى قال لموسى عليه الصلاة والسلام:

﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ (طه، ٢٤).

فقال: «يا رب، أهلي وغنمي»، قال الله تعالى مذكِّرًا إياه أنه خير الحافظين:

«إذا وجدتني فأي شيء تصنع بغيري؟ يا موسى، اذهب واعتصم، واستسلم لي، وفوِّض الأمور إليَّ، فإني جعلت الذئب راعيًا لغنمك، والملائكة حافظين لأهلك.





يا موسى، مَنْ أنجاك من اليم حين ألقتك أمك فيه؟ ومَنْ ردَّك إلى أمك بعده؟ ومَنْ أنجاك من عدوك فرعون حين قتلت نفسًا؟ ومَنْ أنجاك من المفازة حين فررت من فرعون؟».

وهو يقول في ذلك كله: «أنت، أنت».[٣٧٣]

العِبرة:

﴿...**أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي**...﴾ (البقرة، ٢٦٠)

أنبياء الله تعالى وأولو العزم من رسله لا ريب في تمام يقينهم وفي ذروة تسليمهم وفي برد طمأنينتهم، لكن حديث النفس الخفي يبديه رب اللطف الخفي في هذه المواقف والعِبر لدى أسمى نماذج البشرية من رسل الله تعالى.

وفي هذه القصة يرسخ الله ناموسه الكوني، ودستوره القرآني أنه:

﴿**لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا**...﴾ (البقرة، ٢٨٦)

فكل أوامر الله تعالى وتكاليفه هي في حول البشر وطولهم واستطاعتهم، مهما بدا للمأمور استحالة تنفيذ الأمر، فإذا أخلص العبد لربه وأصاخ السمع لأمره واستحث الهمم لكل جوارحه كان ربه معه في نفاذ أمره، وكان معه يسمع ويرى.

فليصدع أهل الحق بدعوة ربهم، ولا يخافوا في ذلك لومة لائم حتى لو كان المدعو هو فرعون وهامان ورجالهما: ﴿**فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا**﴾.

فقد جعل الحفيظ ﷻ موسى يتربى ويترعرع في قصر فرعون، وهو الذي جعل نار نمرود روضة لسيدنا إبراهيم عليه السلام، وهو الذي حفظ أهل الكهف من شر الظالمين بأن جعلهم ينامون قرابة ثلاثمئة سنة في الكهف، وهو الذي صان

٣٧٣ أحمد الرفاعي، حالة أهل الحقيقة مع الله، ص١٧٨.





نبينا المصطفى ﷺ من الكثير من الأخطار لا سيما في غار ثور حين أعمى أبصار أعدائه. وما أجمل قول الشاعر:

لا أنتظر نصرة من أحد؛ فالله يحفظني

عليه أتوكل، فهو خيرٌ حافظًا



- طلب الدعاء من المؤمنين

مرَّ معروف الكرخي يومًا بسقَّاء يقول: «رحم الله مَنْ يشرب»، وكان صائمًا فتقدم، فشرب، فقيل له: «ألم تكن صائمًا؟»

فقال: «بلى، ولكني رجوت دعاءه». ورُئي في المنام بعد وفاته فقيل له: كيف عاملك الله؟ فأجاب:

«لقد غفر ربي لي ببركة الدعاء الخالص الذي دعاه السقاء، وعاملني برحمته».[٣٧٤]

العِبرة:

كم من الأتقياء الأخفياء الصلحاء الذين تبلغ دعواتهم عنان السماء ولا يلقي لهم الناس بالاً، لكن أهل القلوب العارفة والأحاسيس المرهفة يدركون قيمة هؤلاء ومنزلتهم عند ربهم، فيلتمسون بركة دعائهم ويحرصون على نوال فيوضاتهم.

فلا العارف يكتفي بعمله، ولا المؤمن يبخل على الناس بدعائه، ولا الحصيف تضل عيناه عن معرفة أهل الفضل والبركة.

---

٣٧٤ انظر: أبو نعيم، الحلية، جـ٨، ٢٦٥؛ القشيري، الرسالة، جـ١، ٤٤.





يقول رسول الله ﷺ:

«ألا أدلكم على أهل الجنة؟ كل ضعيف متضعف، لو أقسم على الله لأبره، وأهل النار: كل جوَّاظ عُتُلٍّ مستكبر».[٣٧٥]

يقول الشاعر:

كل ليلة ليلة قدر

وكل امرئ كالخضر

بصيرة الله إليك ناظرة

والجنة بأبوابها الثمانية لك حاضرة



- المجنون وعلاج القلب

ذهب أبو يزيد البسطامي إلى الطبيب قاصدًا العلاج، فسأل: «يا طبيب، هل عندك علاج لمرضي؟ فأجاب الطبيب: «ما مرضك؟»، قال: «مرض الذنب»، ففتح الطبيب يديه معربًا عن يأسه، وقال: «لا أعلم علاجًا لمرض الذنب».

في تلك الأثناء مرَّ مجنون بهم، فقال: «يا سيدي، أنا أعلم علاج مرضك»، فسُرَّ البسطامي وقال: «هاتِ ما عندك» فقال:

«خذ بعشرة دراهم جذور توبة، وبعشرة دراهم أوراق استغفار، ثم ضعها في مهراس القلب، ثم اطحنها بمدقَّة التوحيد، ومررها بمنخل الإنصاف، واعجنها بالدموع، ثم اطبخها في موقد العشق، ثم كُلْ من هذا المعجون خمس ملاعق كل يوم، حينها لا يبقى أثر لمرضك».

وبعد أن سمع أبو يزيد البسطامي هذا الكلام تنهد وقال: «واأسفاه على مَنْ يظن نفسه عاقلاً، وأن عارفًا مثلك مجنون».

٣٧٥ البخاري، الأيمان، ٩؛ مسلم، الجنة، ٤٧.





العِبرة:

كم هم كثيرون أولئك المغمورون من عقلاء المجانين وأطباء العارفين، لا يبالون بمظهر ولا مخبر، ولا يشغلهم نظر الناس إليهم ولا قول الناس فيهم، مثلهم كمثل أويس القرني الذي لم يأبه له قومه، وتركوه يكلأ مطاياهم ويحرس متاعهم بينما الخليفتان صاحبا رسول الله ﷺ يَجِدَّان في البحث عنه ليدعو لهما عملاً بوصية النبي ﷺ.

وتعكس هذه القصة من ناحية أخرى بركة الأمر الإلهي في قوله تعالى:

﴿**وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾ (التوبة، ١١٩).

فقد فهمنا من قصة هذا الشاب العارف أن الوصفات القلبية الصادرة عن الصالحين كافة تقدِّم شفاءً لأمراض معنوية كثيرة، وبذلك تربط القلوب بالحق تعالى بصورة نقية طاهرة حيَّة، ونرى أن طلب البسطامي علاجًا لقلبه مع أنه صاحب قلب حيٍّ يقظ ما هو إلا مظهر من مظاهر تواضعه، وطريقة يعالج فيها قلب الطبيبٍ الذي كان عنده.



- وجوه كوجوه الملائكة

في يوم من الأيام كنَّا عائدين من بورصة إلى إستانبول برفقة الشيخ سامي أفندي ووالدي موسى أفندي رحمهما الله، وفي يالووا كان علينا أن نقف بسيارتنا في صف واحد كي تصعد السيارات إلى الباخرة لتنقلنا إلى الشاطئ الآخر، وبينما كان الموظف المسؤول عن تنظيم الصف -منعًا للفوضى- يشير إلى مكان وقوفنا بالسيارة، نظر إلى الشيخَين سامي أفندي وموسى أفندي اللذَين كانا يجلسان في الخلف، فتوقف فجأة مندهشًا ثم اقترب منَّا وحدق ببصره من نافذة السيارة وقال:

«يا الله، ما أغرب هذه الدنيا! ثمة فيها وجوه كوجوه الملائكة... ووجوه كوجوه نمرود».





الخلاصة:

من علامات الولاية ذلك النور الإلهي الذين تتعطش إليه القلوب الباحثة عن المدد الرباني، فتراه من حيث لا يراه الناس.

ومن علامات الولاية تلك الوجوه التي لا يملك رائيها إلا أن يندهش ناطقًا بالتسبيح، منفتح القلب بالذكر.

إنهم ورثة الأنبياء، وقد كان قدوتهم ﷺ المثل الأسمى في ذلك، فمَنْ ينظر إليه من الغرباء يعرف أنه نبي، ومَنْ يستمتع بنور محياه يدرك الهدى؛ كل ذلك والنبي ﷺ لا يكاد ينطق، وأشهر حادثة نعرفها في ذلك هي قصة إسلام أحد أحبار يهود المدينة، وهو سيدنا عبد الله بن سلام، الذي قال حين نظر إلى الحبيب الهادي ﷺ:

«إن وجهه ليس بوجه كذاب»، وهنالك أسلم وآمن.[٣٧٦]

لذلك نرى أنه حين يمشي أيُّ عبد أو يتجول في أي مكان يخبر دائمًا من حوله بأشياء -إيجابية أو سلبية- دون أن ينطق بكلمة، أي عبر حاله، ويترك لدى الناس انطباعات كثيرة، ويخاطبهم بنظراته الكثيرة سواء أكانت عن قصد أم دون قصد، فمَنْ له أن يعلم كم من شخص مجهول سيعجبه حال ذلك العبد بمجرد النظر إلى جلوسه، وقيامه، وحديثه، ونظراته، وسلوكه وحاله كله، فيأخذه قدوة حين يجده مناسبًا لفطرته.

واعلم أن الكون مكان لتجلي أسماء الله الحسنى، وهذا الإنسان الغامض بأسراره هو تجلي الإبداع والقدرة الإلهية، وهؤلاء الصالحون والكاملون الذين هم مظهر من مظاهر فيوضات الله تعالى لم يكونوا يومًا جزءًا من الماضي، إذ تستمر حياتهم بعد فناء أجسادهم؛ لأنهم قدوة للبشرية كلها.

---

٣٧٦ الترمذي، القيامة، ٤٢؛ أحمد بن حنبل، مسند، جـ٥، ٤٥١.





- حالة القلب لدى فعل الخيرات

يروي الشيخ موسى أفندي رحمه الله الحادثة الآتية: كنَّا في سفر مع الشيخ سامي أفندي، وفي بلدة أورغوب أوقف رجل حافلتنا وطلب مالاً كي يشتري سجائر، ومع أن بعض المسافرين أبدوا معارضتهم بصمت، قال الشيخ سامي أفندي: «بعد أن طلب منَّا فعلينا أن نعطيه»، فلبوا طلبه.

فسُرَّ الفقير بذلك وقال مبدِّلًا نيَّته: «يمكنني الآن أن أشتري خبزًا بهذا المال»، وابتعد عنهم.

العِبرة:

فقط عليك أن تخلص النية حين تعمل العمل، وتنظر إلى قلبك، ولا تنظر إلى مَنْ تقدم له خدمتك. إن السلوك والمعاملات حين تكون لرضا الله تعالى وحده، تؤثِّر في قلب الـمُخاطَب، وتُحسِّن أخلاقه، لذلك لا بُدَّ أن يتذكر الإنسان دائمًا أنَّ حالة قلبه أكثر أهمية من حالة قلب المحتاج أثناء فعل الخيرات.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«قال رجل: لأتصدقن بصدقة، فخرج بصدقته، فوضعها في يد سارق، فأصبحوا يتحدثون: تُصُدِّق الليلة على سارق، فقال: اللّهم لك الحمد، لأتصدقن بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يدي زانية، فأصبحوا يتحدثون: تُصدِّق الليلة على زانية، فقال: اللّهم لك الحمد، على زانية، لأتصدقن بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يدي غني، فأصبحوا يتحدثون: تُصدِّق الليلة على غني، فقال: اللّهم لك الحمد، على سارق وعلى زانية وعلى غني، فأُتي فقيل له: أما صدقتُك على سارق فلعلَّه أن يستعف عن سرقته، وأما الزانية فلعلها أن تستعف عن زناها، وأما الغني فلعله يعتبر فينفق مما أعطاه الله».[٣٧٧]

---

٣٧٧ البخاري، الزكاة، ١٤؛ مسلم، الزكاة، ٧٨.





من أجل هذا كله، يجب على المتصدق أن يكون شاكرًا لربه؛ لأن تأثير الصدقة منوط بإخلاص المتصدق.



- العمل الصالح الذي يصل إلى العرش العظيم

عن حماد بن أبي حنيفة، قال: قالت مولاة لداود الطائي: يا داود، لو طبختُ لك دسمًا؟ قال: فافعلي، قال: فطبخت له شحمًا، ثم جاءته به، فقال لها: ما فعل أيتام بني فلان؟ قالت: على حالهم، قال: اذهبي به إليهم، فقالت له: فديتك إنما تأكل هذا الخبز بالماء بالمطهرة قال: إذا أكلته كان في الحش، وإذا أكله هؤلاء الأيتام كان عند الله مذخورًا». (أبو نعيم، الحلية، جـ٧، ٣٥١)

العِبرة:

خلق الله عبادًا من خلقه يحيون لقضاء حوائج خلقه، ما في أجسادهم سوى قلوب تستشعر هموم الناس، وأرواح تتألم لألمهم، ولا جوارح لهم إلا وهي تسعى في البر بالناس؛ حتى يكادوا أن ينسوا أنفسهم، وكما أنه من المستحيل أن تتوقف الشمس عن بث الحرارة، كذلك من المستحيل ألا يتألم ذوو الأرواح السامية من أحوال الناس المأساوية، وأن يتغاضوا النظر في المحن والمصائب، فالرحمة جوهر من الجواهر الإلهية النفيسة تشمل العالم كله، وقلب أولياء الله خزينة رحمة لا تنفد، فهم يرون أنه من الأفضل الفوز المتوقع حين يتركون العلاقات والرغبات التي تزيد من طمع النفس، ويركزون على المعاملات الحسنة التي تغذي الروح وتخلِّد الأعمال، فمِن أكثر أرباح الإنسان قيمة في هذه الدنيا مثل هذه الأعمال الصالحة، أما المكاسب الأخرى فما هي إلا أمانات مؤقتة يرجعها الإنسان واحدة تلو الأخرى.

فعن عائشة رضي الله عنها، أنهم ذبحوا شاة، فقال النبي ﷺ: «**ما بقي منها؟**» قالت: ما بقي منها إلا كتفها قال: «**بقيت كلها غير كتفها**» (الترمذي، القيامة، ٣٣)





- إدراك الحق دائمًا

يروي الشيخ عبد القادر الجيلاني القصة التالية: «خرجت في بعض سياحاتي إلى البرية، ومكثت أيامًا لا أجد ماء، فاشتد بي العطش، فأظلتني سحابة ونزل عليَّ منها شيء يشبه الندى فرويت، ثم رأيت نورًا أضاء به الأفق، وبدت لي صورة، ونوديت منها: يا عبد القادر أنا ربك، وقد أحللت لك المحرمات -أو قال ما حرمت على غيرك- فقلت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، اخسأ يا لعين، فإذا ذلك النور ظلام، وتلك الصورة دخان، ثم خاطبني وقال: يا عبد القادر نجوت مني بعلمك بحكم ربك، وقوتك في أحوال منازلاتك، ولقد أضللت بهذه الواقعة سبعين من أهل الطريق، فقلت: لربي الفضل والمنة، قال: فقيل له: كيف علمت أنه شيطان؟ قال: بقوله: قد حللت لك المحرمات» (ابن العماد، شذرات الذهب، جـ٦، ٣٣٣-٣٣٤)

العِبرة:

عالِمٌ واحد أشدُّ على الشيطان من ألف عابد، فلا يزال الشيطان يمارس دوره الأبدي في حربه على بني البشر، وخصوصًا العُبَّاد منهم ليضلهم عن سبيل الله، لكن العبادة مع قلَّة العلم تجعلُ صاحبَها عُرْضَةً للزيغ ونزغات الشيطان.

ونعيش اليوم حالة مماثلة لما ورد في القصة، فالكثير ممَنْ يدَّعون العلم يسعون إلى الإضرار بالمجتمع وذلك بتحريم ما حلَّله الإسلام وتحليل ما حرمه، لذا من المهم أن ندرك ونعي جيدًا فراسة الشيخ عبد القادر الجيلاني، وقدرته على التفريق، فالشعار الذي يتخذه الشيخ الجيلاني واضح غاية الوضوح، لا يمكن أن يمنع الله تعالى حقًا عن الأنبياء ويعطيه لـمَـنْ سواهم، وهل الشيطان ومَنْ تبعه من علماء السوء يعرفون ماهية الحلال والحرام، والصواب والخطأ، والحسن والقبيح أكثر من الأنبياء أنفسهم؟ لا وألف لا...

ويوجِّه الله ﷻ خطابًا قاسيًا إلى مثل هؤلاء بقوله في كتابه العظيم:

﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللهَ بِدِينِكُمْ﴾ (الحجرات، ١٦)





- أحتاج إلى الكريم

يقول أبو يزيد البسطامي:

«في يوم من الأيام أردت عبور نهر دجلة، وحين وصلت إليه اقتربت الضفتان فصارتا طريقًا لي، فتداركت نفسي وقلت لدجلة: والله لا تخدعيني! فصاحب الزورق يحملني بنصف درهم، أما أنتِ، فتريدين أعمالي الصالحة التي أعددتها على مدى ثلاثين عامًا، إذًا لا يمكنني أن أضيع ثلاثين عامًا من عمري من أجل نصف درهم، أنا بحاجة إلى كريم لا كرامة»[٣٧٨]

العِبرة:

الاستقامة عين الكرامة، والفرار من إظهار الكرامات شعار أهل الولاية، الذين يحرصون على العمل لا على إعلام الناس وطلب الشهرة لديهم.

هؤلاء لا يبيعون جنة الله تعالى بكرامات الدنيا، ولا يشترون بعهد الله ثمنًا قليلاً، فحاجتُهم كرمُ الله لا كرامة العبادة.

ويقول سهل بن عبد الله التُستري -وهو من أولياء الله- في هذا الأمر:

«أعظم الكرامات إبدال الطباع السيئة بالحسنة، وبعض الكرامات هي مثل الدمى التي تُعطى للطفل الباكي كي يتسلى بها، وهذا ما يطلبه الغافلون لا الأولياء، إذ يشتغل بها هؤلاء الغافلون ويُشغلون مَنْ حولهم».

من أجل هذا كله، اعلم أن عين الصواب دائمًا هو اتباع قول الله تعالى:

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ (هود، ١١٢)



---

٣٧٨ عطار، تذكرة، ص١٨٦.





- مسؤولية العظماء

مرَّ الإمام أبو حنيفة النعمان على طفل يلعب بالطين فقال للطفل: إياك أن تنزلق بالطين، فقال الطفل: بل أنت إياك يا إمام أن تزل بالدين، فإن زلة العالِـم زلة العالَـم.

فاندهش الإمام من كلام الطفل وبكى، ثم قال لطلابه:

«إن وصلكم دليل أقوى في مسألة ما فلا تتبعوا قولي، فهذه علامة كمال في الإسلام، وبهذا تظهر محبتكم واتباعكم لي...» (حاشية ابن عابدين، جـ١، ٢١٧-٢١٩، دمشق، ٢٠٠٠)

العِبرة:

الذين يحظون بمقدمة الصفوف قيادة وريادة تكون صدارتهم تكليفًا لا تشريفًا، ويتحملون من الأعباء ما يلهيهم عن الخيلاء.

فإذا هم أحسنوا كان ذلك للدين وللدنيا وللناس انتصارًا، وإذا هم أخطؤوا تحملوا أمام الله تعالى والتاريخ جزاء ما ضلُّوا وأضلُّوا.

لذا كان عظماء الإسلام كالإمام أبي حنيفة يراعون هذه الدقة في فتاويهم، ويعيشون التقوى حالًا ومقالًا معًا.

ففي أحد الأيام بينما كان الإمام أبو حنيفة مع أصحابه إذ رأوه يزيل قذارة صغيرة جدًا عن ثيابه، فسألوه:

«يا إمام، إن هذه البقعة الصغيرة لا تمنع الصلاة بحسب فتواكم، فلماذا تسعى لإزالتها إذًا؟»

فأجابهم الإمام: «تلك فتوى، وهذه تقوى».

فهذا هو الشعار الوحيد الذي يجعل من المسؤوليات -صغيرها وكبيرها- تجاه العباد ورب العباد، سببًا للنجاة في الآخرة.





- الاستجابة لدعوة الله ﷻ

يقول الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «الغنم تطيع راعيها لعلمها أنه يقودها إلى مرعى خصيب أو يزجرها عن وادٍ سحيق...وأنت....! ألا تطيع ربك وهو إلى مراعي الجنة يدعوك، وعن أودية النار يزجرك!»

الخلاصة:

ما أكثر الدعوات، وما أكثر مَنْ يدعونك إلى سبل فجاج في الأرض والسماء، إلى الدنيا والآخرة، ولكن ما يعقل هذه الدعوات إلا العالمون، الذين نوَّر الله أبصارهم وبصائرهم وقلوبهم وعقولهم، فأسلموا قيادهم لله تعالى وحده، ولبوا نداءه سبحانه، فكانت «حي على الصلاة» سبيلهم إلى الفلاح، وطريقهم إلى أن تسبح أرواحهم في ملكوت الله تعالى.

وما أجمل قول مولانا جلال الدين الرومي:

«كن سليم العقل... فلطالما يطلبك المولى ﷻ، عليك أن تلبيه حتى لو اضطررت إلى أن تجعل رأسك قدمًا تسير بها».

«فدعوته سبحانه ترفع من درجات الإنسان، وتمنحه طربًا روحانيًا، وتعفو عن كثير لا تحصيهم، وتُعِدُّ فُرشًا أبدية، وتضع موائد راقية».



- أهمية الحلال

جاء إلى أبي العباس النهاوندي أحدُ طلابه، وقد كان هذا الطالب تاجرًا غنيًا، فأراد أن يعرف مَنْ أحقُّ الناس بالزكاة، فقال له أبو العباس رَحِمَهُ اللَّهُ:

«اتَّبع قلبك في قرارك!»،ثم خرج من مجلس شيخه، فرأى في الطريق متسولاً أعمى فحزن عليه، ثم أخرج صرة ذهب وأعطاها إياه زكاةً منه، فسُرَّ الأعمى بعد أن تلمَّس الصرة بيديه، وافترقا هناك، وفي اليوم التالي وبينما كان الطالب يسير في





الطريق نفسه، رأى الأعمى يتكلَّم مع أعمى آخر، فسمع هذه الجملة: «لقد أعطاني أحد النبلاء أمس صرة من ذهب، فذهبت إلى الحانة، وشربت بها الخمر».

فحزن الطالب لما سمعه وضاق صدره، فذهب مباشرة إلى الشيخ أبي العباس، وروى له ما حصل، لكن أبا العباس لم يعطه الفرصة كي يكمل كلامه، بل أعطاه درهمًا كان قد باع به قلنسوته، وقال له:

«أعطِ هذا الدرهم لأول مَنْ تجده في طريقك».

فخرج الطالب دون أن يتكلم شيئًا كي ينفذ هذه المهمة، وأعطى الدرهم لأول مَنْ وجده كما قال له شيخه، لكن الفضول جعله يتعقب هذا الشخص، اتجه المسكين إلى حي من الأحياء في طرف المدينة، ودخل في مكان خرب، ثم أخرج طائر حجل ميتًا من تحت ثيابه ورماه على الأرض، وأثناء خروجه من هناك، استوقفه الطالب وسأله:

«استحلفك بالله أن تقول لي ما أصابك! وما هذا الحجل الذي رميته هنا؟»

حين رأى المسكينُ الرجل الذي أعطاه الدرهم قال متلعثمًا: «منذ سبعة أيام لا أجد ما أطعم به أولادي، أستطيع وزوجتي أن نصبر على ذلك، لكن الأولاد ما عادوا يتحملون الجوع، وما كنت أستطيع أن أطلب المال من أحد، وبينما كنت أعاني الكثير من الألم والاضطراب، وجدت الحجل الميت الذي أوشك أن يفسد كما رأيت، وكنت للضرورة أريد أن أحمله كي يأكله أولادي، وكنت أتوسل إلى الله عَجَّلَ قائلاً:

«يا رب، انظر إلى حالي»، فجئتني وأعطيتني هذا الدرهم، فشكرت ربي وذهبت كي أتخلص من هذا الطائر الذي لا يؤكل، أما الآن فسأذهب إلى السوق لأشتري لأولادي شيئًا يؤكل».

فدهش الطالب مما سمع، وأسرع إلى شيخه أبي العباس، وقبل أن ينطق بشيء، قال له الشيخ:





«يا ولدي، هذا يعني أنك لم تنتبه إلى الحرام أو المشبوه في ربحك، لهذا ذهبت زكاتك إلى الخمر، فالربح يخرج من يدك بالصورة التي أتت إليك، وسبب ذهاب درهمي إلى رجل صالح أن الدرهم قد كسبتُه بتعبي، أي بالحلال».

العِبرة:

يظل الحلال حلالاً دائمًا في منشئه ومكسبه ومصرفه ومستودعه ومسيره وأثره وأجره، ويبقى الحرام حرامًا، لا يقبل الله من أهله صرفًا ولا عدلاً، لذلك كان الأجداد يقولون: «ما يأتي من (الحي)، يذهب إلى الـ(هو)».

ولهذه العبارة معنيان:

الأول: إن ما يأتي من «الحي» وهو الله، يعود إلى «هو» أي الله سبحانه.

والثاني: إن ما يأتي بسهولة ويكون مختلطًا بالشبهات والحرام، يذهب كله هباءً، أي يصبح الحلال وسيلة للحلال، والحرام سببًا للحرام.

ويوضِّح الشيخ أبو بكر الورَّاق هذه الحقيقة بقوله:

«حين أُصبح، أنظر إلى الناس، فأعرف مَنْ يأكل الحلال ممَنْ يأكل الحرام»، فسُئل: «وكيف تعرف ذلك؟»

فقال: مَنْ يصبح، فيغتاب هذا، ويشتم هذا، ويتكلم بما لا ينفع، فأعلمُ حينها أن سبب حاله هذا الطعام الحرام الذي يأكله، أما مَنْ يصبح، فيشغل لسانه بذكر الله تعالى وكلمة التوحيد والاستغفار، فأعلمُ أنَّ هذا من الطعام الحلال... فالحلال والحرام ينعكسان-بحسب خصائصهما- على أفعال المرء.







- الربح الحلال

كان الإمام أبو حنيفة صاحب ثروة كبيرة لعمله بالتجارة، لكن بسبب انشغاله بالعلم كان يوكِّل مَنْ يدير له تجارته، وكان بنفسه يتأكد من تجارته أحلال هي أم حرام. وكان الإمام دقيقًا جدًا في هذا الموضوع، وفي يوم من الأيام أرسل شريكه حفص بن عبد الرحمن لبيع القماش، وقال له:

«يا حفص، إن في البضاعة عيبًا، فأخبر المشتري بذلك وبع بسعرٍ أقل».

فباع حفص البضاعة بالسعر الذي حدده الإمام، لكنه لم يخبر المشتري بالعيب، فلما علم الإمام بذلك سأل حفصًا:

«أتعرف المشتري؟»

ولما لم يكن حفص يعرف المشتري أصاب الإمامَ القلقُ من أن يخالط مالَه الحرامُ، فتصدق بالمال الذي بلغ ثلاثين ألف درهم كله، وانفصل عن شريكه.

فكانت تقواه هي رأس ماله في الدنيا، وربحه في تجارته مطيته للآخرة.

العِبرة:

أكبر دليل على حال المرء معاملاتُه لا عباداته، وأصوب ميزان للقلوب هو الذي يرجح كفة السلوك لا المعاذير والشبهات.

سمع عمر رضي الله عنه رجلاً يثني على رجل، فسأله: أسافرت معه قال: لا، قال: أخالطته في المبايعة والمعاملة، قال: لا، قال: فأنت جاره صباحه ومساءه، قال: لا، فقال: والله الذي لا إله إلا هو لا أراك تعرفه. (الغزالي، إحياء علوم الدين، جـ٣، ٣١٢)

وكان سفيان الثوري رحمه الله يقول:

«إن التزام المرء بالدين منوط بطعامه الحلال». وسُئل يومًا عن فضل الصف الأول، فقال: «انظر كسرتك التي تأكل من أين تأكلها، وصلِّ في الصف الأخير»، وفي رواية عنه: «انظر إلى درهمك من أين هو؟ وصلِّ في الصف الأخير».





وقد روى والدي موسى أفندي رحمه الله الحادثة الآتية التي توضح الاجتهاد في طلب الربح الحلال في التجارة، وبركة هذا الأمر، وأهمية إبعاد الحرام:

كان جارُنا ممَّنْ اهتدوا إلى الإسلام، فسألتُه يومًا عن سبب هدايته، فقال:

«لقد أسلمتُ بعد أن رأيت الأخلاق الحميدة لربيع مُلَّا في التجارة، فقد كان جارًا لنا في مزرعتنا في آجيبادام، وكان يؤمِّن رزقه ببيع الحليب، وفي إحدى الليالي جاءنا وقال: «هذا الحليب حليبكم»، فقلت مندهشًا: «لكنني لم أطلب منك حليبًا»، فقال لي ذلك الجار اللطيف المرهف الحس:

«لقد دخلت إحدى الأبقار إلى مزرعتك، ورعت هناك دون أن أراها، لذا هذا الحليب من نصيبك، وسأحضر لكم الحليب حتى ينتهي ذلك الحيوان من أثر العشب الذي أكله، ولا يبقي منه شيء».

فقلت له: «ما هذا الكلام؟ ماذا يفيدني العشب؟ إن هذا العشب حلال لك».

فأجابني ربيع: «لا، لا يمكن، هذا الحليب حقكم».

وبقي يحضر لنا الحليب أيامًا إلى أن انتهى الحيوان من أثر العشب الذي أكله.

فزاد سلوك هذا الإنسان المبارك من تأثيره عليَّ حتى أزالت حُجب الغفلة عن قلبي، وأشرقت شمس الهداية فيه، وقلت في نفسي:

«لا جرم أن دِيْنَ هذا الإنسان ذي الخلق الرفيع أعظم الأديان، ولا ريب أن الدين الذي يربِّي إنسانًا لطيفًا طاهرًا كاملًا عارفًا للحق هو الدين الصحيح».

ثم نطقتُ بالشهادتَين ودخلت الإسلام منذ ذلك اليوم.

إنَّ تحرِّي الحلال والحرام والدقة الشديدة في التعامل معهما ليس تعنتًا أو إفراطًا أو تشددًا، إنما هو حرص شديد على النقاء، فإناء اللبن الناصع تكدره الشعرة الدقيقة، والثوب شديد البياض تُشينه بقعة كرأس الدبوس، كذلك قلب





المؤمن يخشى أن ينكت فيه الذنب الصغير نكتة سوداء واحدة، فتفتح السبيل لأخواتها.

والربح الحلال هو أحد ركائز التقوى، وقد جاء في الحديث النبوي الشريف:

«التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء» (الترمذي، البيوع، ٤)

فهو الذي استطاع أن يتخلص من أسر المال وإغراء الربح، ومن دنس الشبهات والتباس الرُّخَص واستمراء خداع الناس، واستطاع أن يلزم نفسه بمنهاج رباني، فهو في السوق بجسده لكنَّ قلبه متعلق بشريعة ربه، وهو في معاملته مع الناس بلسانه لكن ذكر مولاه يملأ جنانه، لا يرى في التجارة وخداع الناس مغنمًا لكنه يستشعر في مثقال حبة من خردل مأثمًا، فمعاملاتُه مع رب الناس لا مع الناس، ومكسبه في رضا رب الناس لا في خداعهم.

يقول رسول الله ﷺ واصفًا حال الناس والتجار في تهاونهم الشديد تجاه الكسب وشبهات المال:

«يأتي على الناس زمان لا يبالي المرء ما أخذ منه، أمن حلال أم من حرام»

(البخاري، البيوع، ٧، ٢٣)

لكن من اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومَنْ حام حول الحمى أوشك أن يواقعه، وقليل طيب خير من كثير آثم.

فمَنْ كانت هذه بضاعته وتجارته مع الله ﷻ، ومَنْ كانت هذه سريرته وسيرته مع خلق الله تعالى صار مصدرًا للحلال ومنبعًا للطهارة وموئلاً للفيوضات ومَعلَمًا للهدى بين الناس.

وأما مَنْ استهواه بريق المال واستمرأ الحرام فيصير لجهنم حطبًا.

ندعو الله الكريم أن يحفظنا بحفظه..آمين..



الفصل السابع

حِكم من أولياء الله عَزَّوَجَلَّ





(لا موجود إلا هو)



سيدنا أبو بكر رضي الله عنه

- الصلاةُ على النبي ﷺ أمحقُ للخطايا من الماء للنار، والسلامُ على النبي ﷺ أفضلُ من عتق الرقاب، وحُبُّ رسول الله أفضلُ من مهج الأنفس وضربِ السيف في سبيل الله ﷻ.[٣٧٩]

- لا خيرَ في قولٍ لا يُرَادُ به وجهُ الله تعالى، ولا خيرَ في مال لا يُنفَق في سبيل الله ﷻ، ولا خيرَ فيمَنْ يغلب جَهلُه حِلمَه، ولا خير فيمَنْ يخاف في الله لومة لائم.[٣٨٠]

- كُن مولىً للعارفين الذين يعرفون الحق تعالى.

- إذا استَشرتَ فاصْدُق الحديث تُصْدَقِ المشورة، ولا تَخْزِن عن المشير خبرَك فتؤتى من قِبَلِ نفسك.

- أربعٌ مَنْ كنَّ فيه كان من خيار عباد الله: مَنْ فرح بالتائب، واستغفر للمذنب، ودعا المدبر، وأعان المحسن.

- أكيس الكَيْسِ التقوى، وأحمق الحُمْق الفجور.

- إذا فاتك خيرٌ فأدركه، وإن أدركك فاسبقه.

- صنائع المعروف تقي مصارع السوء.

---

٣٧٩ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، جـ٧، ١٦١.

٣٨٠ أبو نعيم، الحلية، جـ١، ٣٦.





- الدنيا سوق المؤمنين، والليل والنهار رأس مالهم، والأعمال الحسنة بضاعتهم، والجنة ربحهم، والنار خسارتهم.
- وكان إذا مُدِح قال: «اللَّهم أنت أعلم مني بنفسي، وأعلم بنفسي منهم، اللهم اجعلني خيرًا مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون».[٣٨١]
- إن العبد إذا دخله العجب بزينة الدنيا مقته ربُّه ﷻ حتى يفارق تلك الزينة.[٣٨٢]
- إياكم والفخر، وما فَخْرُ من خُلِقَ من تراب، ثم إلى التراب يعود، ثم يأكله الدود، ثم هو اليوم حي وغدًا ميت![٣٨٣]
- اللّهم اجعل خيرَ عمري آخرَه، وخيرَ عملي خواتمه، وخيرَ أيامي يوم لقائك.[٣٨٤]



سيدنا عمر رضي الله عنه

- لا تنظروا إلى صلاة أحد ولا إلى صيامه، ولكن انظروا إلى مَنْ إذا حدَّث صدق، وإذا أؤتمن أدى.[٣٨٥]
- مَنْ لا يَرحم لا يُرحم، ولا يُغْفَر لمن لا يَغْفِر، ولا يُعفَ عمَنْ لم يَعفُ، ولا يوقَ مَنْ لا يتوقَّ.[٣٨٦]

---

٣٨١ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص١٠٤.

٣٨٢ أبو نعيم، الحلية، جـ١، ٣٧؛ الخاني، حدائق، ص٢٨٨.

٣٨٣ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص١٠١.

٣٨٤ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص١٠٣.

٣٨٥ البيهقي، السنن الكبرى، جـ٦، ٢٨٨؛ الشعب، جـ٤، ٢٣٠، ٣٢٦.

٣٨٦ البخاري، الأدب المفرد، دمشق، ٢٠٠١، ص٤١٥، رقم: ٣٧١.





- أحبُّ الناس إليَّ مَنْ رفع إليّ عيوبي.(٣٨٧)
- حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحَاسَبوا، وتزينوا للعرض الأكبر، وإنما يَخِفُّ الحساب يوم القيامة على مَنْ حاسب نفسه في الدنيا.(٣٨٨)
- إن الدعاء موقوف بين السماء والأرض لا يصعد منه شيء، حتى تصلي على نبيك ﷺ.(٣٨٩)
- أحبُّكم إليَّ أفضلُكم اسمًا ما لم أره، وأحبكم إليَّ أفضلكم أخلاقًا حين أراه، وأحبكم إليَّ أصوبكم حديثًا في الابتلاء.(٣٩٠)
- لا يبعْ في سوقنا إلا مَنْ قد تفقه في الدين.(٣٩١)
- أكثروا ذكر النار فإنَّ حرَّها شديد، وقعرها بعيد، ومقامعها حديد.(٣٩٢)
- ما الدنيا في الآخرة إلا كنفْجَةِ أرنب.(٣٩٣)
- لو هلكت شاة ضياعًا بشاطئ الفرات خشيت أن يسألني الله عنها.(٣٩٤)
- تفقهوا قبل أن تُسَوَّدوا.(٣٩٥)
- وكتب إلى عماله قائلاً: «إنَّ أهم أمركم عندي الصلاة، مَنْ حفظها وحافظ عليها حفظ دينه، ومَنْ ضيعها فهو لما سواها أضيع».(٣٩٦)

---

٣٨٧ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص١٣٠.

٣٨٨ الترمذي، القيامة، ٢٥/ ٢٤٥٩.

٣٨٩ الترمذي، الوتر، ٢١.

٣٩٠ ابن الجوزي، مناقب، ص٢١٩.

٣٩١ الترمذي، الوتر، ٢١/ ٤٨٧.

٣٩٢ الترمذي، جهنم، ٢/ ٢٥٧٥.

٣٩٣ ابن أبي شيبة، مصنف، جـ٨، ١٥٢؛ الزمخشري، جـ٦، ٢٢٧.

٣٩٤ ابن أبي شيبة، مصنف، جـ٨، ١٥٣.

٣٩٥ البخاري، العلم، ١٥.

٣٩٦ موطأ، وقوت الصلاة، ٦.





- لا تعترض لما لا يعنيك واعتزل عدوك واحذر صديقك إلا الأمين من الأقوام، ولا أمين إلا مَنْ خشي الله، ولا تصحب الفاجر فَتَعَلَّمُ من فجوره، ولا تطلعه على سرك، واستشر في أمرك الذين يخشون الله.[٣٩٧]
- استعينوا على النساء بالعُري، فإنَّ إحداهنَّ إذا كثُرت ثيابها وحسُنت زينتُها أعجبها الخروج.[٣٩٨]
- ترك الذنب أسهل من التوبة.
- عليكم إصلاحَ أنفسكم قبل إصلاح غيركم.
- أكثر الناس جهلاً مَنْ باع آخرته من أجل دنيا غيره، (أي مَنْ يميل إلى رضا العبد بدلا من رضا الله تعالى).
- أقلل من مَيلك إلى الدنيا كي تعيش حرًا.



سيدنا عثمان رضي الله عنه

- لو طهرت قلوبُكم ما شبعتم من كلام الله عز وجل.[٣٩٩]
- ما أحبُّ أن يأتي علي يوم ولا ليلة إلا أنظر في كتاب الله.[٤٠٠]

وما مات عثمان رضي الله عنه حتى خرَّق مصحفه من كثرة ما كان يديم النظر فيه.[٤٠١]

- همُّ الدنيا ظلمة في القلب، وهمُّ الآخرة نور في القلب.[٤٠٢]

---

٣٩٧ ابن أبي شيبة، مصنف، جـ٨، ١٤٧.

٣٩٨ ابن الجوزي، مناقب، ص٢٢١.

٣٩٩ علي المتقي، كنز العمال، جـ٢، ٢٨٧/ ٤٠٢٢.

٤٠٠ علي المتقي، جـ٢، ٣١٦/ ٤١١٠.

٤٠١ البيهقي، الأسماء والصفات، ص١٨٢؛ الكاندهلوي، حياة الحصابة، جـ٣، ٢٣.

٤٠٢ ابن حجر، المنبهات، ص٣.





- مَنْ ترك الدنيا أحبَّه الله تعالى، ومَنْ ترك الذنوب أحبته الملائكة، ومَنْ ترك الطمع أحبه المسلمون.[٤٠٣]

- حُبِّب إليَّ من الدنيا ثلاث: إشباع الجوعان، وكسوة العريان، وتلاوة القرآن.[٤٠٤]

- لا ريب أن الله تعالى ذمَّ الدنيا كي لا تميلوا إليها ولتطلبوا بها الآخرة، ولا جرم أن الدنيا فانية والآخرة باقية. فلا يثيرنَّكم ما كان فانيًا فيمنعكم عمَّا هو باق. اختاروا الباقي على الفاني، فللدنيا نهاية، والأوبة إلى الله، فاخشوه.[٤٠٥]

- ابن آدم، اعلم أن ملك الموت الذي وكِّل بك لم يزل يخلفك ويتخطى إلى غيرك منذ أنت في الدنيا، وكأنه قد تخطى غيرك إليك وقصدك، فخذ حذرك واستعد له، ولا تغفل فإنه لا يغفل عنك. واعلم ابن آدم، إن غفلت عن نفسك ولم تستعد لها، لم يستعد لها غيرُك، ولا بد من لقاء الله، فخذ لنفسك، ولا تكلها إلى غيرك، والسلام.[٤٠٦]

- مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر، قبل أن يسلط عليكم شراركم، ويدعو عليهم خياركم، فلا يُستجاب لهم.[٤٠٧]

- أربع ظاهرهن فضيلة وباطنهن فريضة: مخالطة الصالحين فضيلة والاقتداء بهم فريضة، وتلاوة القرآن فضيلة والعمل به فريضة، والزيارة للقبور فضيلة والاستعداد لها فريضة، وعيادة المريض فضيلة واتخاذ الوصية منه فريضة.[٤٠٨]

---

٤٠٣ ابن حجر، المنبهات، ص٥.

٤٠٤ ابن حجر، المنبهات، ص١١.

٤٠٥ ابن أبي الدنيا، الموسوعة، جـ١، ٧٧.

٤٠٦ علي المتقي، كنز العمال، جـ١٥، ٦٩٧-٦٩٨/ ٤٢٧٩٠.

٤٠٧ علي المتقي، جـ٣، ٦٨٢-٦٨٣/ ٨٤٥١.

٤٠٨ ابن حجر، المنبهات، ص١٤.





- خمسٌ من علامات المتقين: أولها ألا يجالس إلا مَنْ يَصْلُحُ الدينُ معه، ويغلب الفرج واللسان، وإذا أصابه شيء عظيم من الدنيا يراه وبالاً وإذا أصابه شيء قليل منها اغتنم ذلك، ولا يملأ بطنه من الحلال خوفًا من أن يخالطه حرام، ويرى الناس كلهم قد نجوا ويرى نفسه قد هلكت.(٤٠٩)

- المؤمن في ستة أنواع من الخوف: أحدها من قِبَل الله تعالى أن يُؤخذ منه الإيمان، والثاني من قِبَل الحفظة أن يكتبوا عليه ما يفتضح به يوم القيامة، والثالث من قبل الشيطان أن يبطل عمله، والرابع من قبل ملك الموت أن يأخذه في غفلة بغتة، والخامس من قبل الدنيا أن يغترَّ بها فتشغله عن الآخرة، والسادس من قبل الأهل والعيال أن يشتغل بهم فيشغلونه عن ذكر الله تعالى.(٤١٠)

- علامات العارفين ثمانية أشياء: قلبُه مع الخوف والرجاء، ولسانُه مع الحمد والثناء، وعيناه مع الحياء والبكاء، وإرادته مع الترك والرضاء، يعني ترك الدنيا وطلب رضا مولاه.(٤١١)



علي بن أبي طالب رضي الله عنه

- إذا حدثتم عن رسول الله حديثًا، فظنوا برسول الله أهيأه وأتقاه وأهداه.(٤١٢)

- ما أدري أي النعمتين أعظم عليَّ منَّة من ربي، رجلٌ بذل مصاص(٤١٣) وجهه إليَّ فرآني موضعًا لحاجته، وأجرى الله قضاءها أو يسَّرها على يدي، ولأن أقضي لامرئ مسلم حاجة أحبُّ إليَّ من ملء الأرض ذهبًا وفضة.(٤١٤)

---

٤٠٩ ابن حجر، المنبهات، ص٢٠.

٤١٠ ابن حجر، المنبهات، ص٢٥.

٤١١ ابن حجر، المنبهات، ص٣١.

٤١٢ أحمد، جـ١، ١٢٢.

٤١٣ مصاص: المصاص: خالص كل شيء.

٤١٤ علي المتقي، كنز العمال، جـ٦، ٥٩٨/ ١٧٠٤٩.





- يا دنيا غري غيري، أإليَّ تعرضتِ أم إليَّ تشوفتِ! هيهات هيهات! قد باينتك ثلاثًا لا رجعة فيهن، فعمرك قصير، وخطرك قليل، آه من قلة الزاد، وبُعد السفر، ووحشة الطريق.[415]

- ارتحلت الدنيا مدبرة، وارتحلت الآخرة مقبلة، ولكل واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدًا حساب ولا عمل.[416]

- تمام النعمة الموت على الإسلام.[417]

- الدنيا لينٌ مسُّها، قاتلٌ سمُّها.[418]

- الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا.[419]

- ألا وإني لم أرَ كالجنة نام طالبُها، ولا كالنار نام هاربها.[420]

- قصم ظهري رجلان: عالم متهتك، وجاهل متنسك.[421]

- الدهر يومان: يومٌ لك، ويومٌ عليك، فإن كان لك فلاَ تَبْطَر، وإن كان عليك فلاَ تَضْجَر.[422]

- مَنْ لم يُعْطِ قاعدًا لم يُعْطِ قائمًا.[423]

---

٤١٥ ابن عبد البر، الاستيعاب، جـ٣، ١١٠٨.

٤١٦ البخاري، الرقاق، ٤.

٤١٧ البيضاوي، أنوار التنزيل، جـ١، ٢٠١، (البقرة، ١٥٠).

٤١٨ الرازي، مفاتيح الغيب، (آل عمران، ١٨٥)

٤١٩ العجلوني، كشف الخفاء، جـ٢، ٣١٢/ ٢٧٩٥.

٤٢٠ الباقلاني، إعجاز القرآن، ص١٤٤.

٤٢١ البورصوي، روح البيان، (آل عمران: ٨٠).

٤٢٢ النيسابوري، مجمع الأمثال، بيروت، جـ٢، ٤٥٤.

٤٢٣ النيسابوري، جـ٢، ٤٥٤.





- مَنْ علم أن كلامه من عمله قَلَّ كلامه إلا فيما يَعْنيه.[424]
- كن عند الله خيرَ الناس، وكن عند نفسك شرَّ الناس، وكن عند الناس رجلاً من الناس.[425]
- أصعب الأعمال أربع خصال: العفو عند الغضب، والجود في العسرة، والعفة في الخلوة، وقولُ الحق لـمَنْ يخافه أو يرجوه.[426]
- رأسُ الآفات الوله باللذات.
- الذنب الواحد كثير، وألف طاعة وعبادة قليلة.
- ظِلُّ المعوج معوج.
- قيمة المرء بقيمة طلباته ورغباته.
- خالقوا الناس بخُلق حسن، ليبكوا عليكم حين تموتون، ويشتاقوا لكم وأنتم في الحياة.
- ولنا أن نذكر هنا العهد الذي كتبه الإمام علي رضي الله عنه إلى واليه على مصر مالك بن الحارث الأشتر النخعي، وفي هذا العهد الكثير من الحقائق المهمة التي تنطبق على كل عصر:

أشعِر قلبَك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بالإحسان إليهم، ولا تكونن عليهم سبُعًا ضاريًا تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان: إما أخٌ لك في الدين، وإما نظيرٌ لك في الخلق، يفرط منهم الزلل، وتَعرِض لهم العِلل، ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ، فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه، فإنك فوقهم، ووالي الأمر عليك فوقك، والله فوق مَنْ ولاك بما عرَّفك

٤٢٤ النيسابوري، جـ٢، ٤٥٤.

٤٢٥ ابن حجر، المنبهات، ص٧.

٤٢٦ ابن حجر، المنبهات، ص١٨.





من كتابه وبصَّرك من سُنن نبيه ﷺ، عليك بما كتبنا لك في عهدنا هذا، لا تنصبنَّ نفسك لحرب الله فإنه لا يدَ لك بنقمته، ولا غنى بك عن عفوه ورحمته، فلا تندمنَّ على عفو، ولا تبجحنَّ بعقوبة، ولا تسرعنَّ إلى بادرة وجدتَ عنها مندوحة.

ثم أمضِ لكل يوم عمله فإن لكلِّ يوم ما فيه، واجعل لنفسك فيما بينك وبين الله أفضل تلك المواقيت وأجزل تلك الأقسام، وإن كانت كلها لله؛ إذا صحت فيها النية وسلمت منها الرعية.

وليكن في خاص ما تخلص لله به دينك إقامة فرائضه التي هي له خاصَّة، فأعطِ الله من بدنك في ليلك ونهارك ما يجب، فإنَّ الله جعل النافلة لنبيِّه خاصَّة دون خلقه.

- لا تُجمَعُ الورودُ من بستانٍ زُرِعَت فيه بذور الأشواك.
- لا تَرُدَّ على مَنْ نطق بكلام بذيء، فكم من كلمات أشد بذاءة لدى ذلك الرجل يرد عليك بها.
- لا تمازح الجاهل، فقد يجرح قلبك بلسانه المسموم.
- إن الله يحسِّن حياة مَنْ يعيش دينه.
- ما أصعب الارتقاء إلى الفضيلة، وما أسهل الانحدار إلى الرذيلة.
- أكثر الناس ذنوبًا يوم القيامة أكثرهم كلامًا في معصية الله ﷻ. (سلمان الفارسي رضي الله عنه)[٤٢٧]
- إنَّ من أعظم الذنوب استخفافَ المرءِ بذنبه. (قاسم بن محمد رحمه الله)[٤٢٨]

٤٢٧ أبو نعيم، الحلية، جـ١، ٢٠٢.

٤٢٨ ابن عساكر، تاريخ دمشق، جـ٤٩، ص١٨١.





جعفر الصادق رحمه الله

- لا يتم المعروف إلا بثلاثة: بتعجيله وتصغيره وستره.[٤٢٩]
- أوحى الله تعالى إلى الدنيا أن اخدمي مَنْ خدمني، وأتعبي مَنْ خدمك.[٤٣٠]
- إذا بلغك عن أخيك شيء يسوؤك، فلا تغتم، فإنه إن كان كما يقول كانت عقوبة عجلت، وإن كان على غير ما يقول كانت حسنة لم تعملها.[٤٣١]
- مَنْ استبطأ رزقَه فليُكثِر من الاستغفار.[٤٣٢]
- إذا بلغك عن أخيك ما تكرهه فالتمس له سبعين عذرًا، فإن لم تجد له عذرًا فقل: لعل له عذرًا لا أعرفه.[٤٣٣]



أبو الحسن الخرقاني رحمه الله

- لقد أتى الله بكم إلى هذه الدنيا أنقياء، فلا تذهبوا إليه وفيكم الأدران![٤٣٤]
- كما أن الصلاة والصوم فرضان والإيفاء بهما واجب، كذلك من الضروري تخليص القلب من الكبر والحسد والطمع بالصورة نفسها.[٤٣٥]
- إذا ما أصاب لباسك شرر من التنور فإنك تهرع فورًا كي تطفئه! فكيف لك إذًا أن تسمح لاحتراق دينك بالنار، بإبقائك الصفات السيئة مثل الكبر والحسد والرياء في القلب؟![٤٣٦]

---

٤٢٩ أبو نعيم، الحلية، جـ٣، ١٩٨.

٤٣٠ أبو نعيم، الحلية، جـ٣، ١٩٤.

٤٣١ أبو نعيم، الحلية، جـ٣، ١٩٨.

٤٣٢ الخاني، الحدائق، ص١٣١.

٤٣٣ الخاني، الحدائق، ص١٣٢.

٤٣٤ الخارقاني، نور العلوم، ص٢٥٨.

٤٣٥ عطار، تذكرة الأولياء، ص٦٢٩.

٤٣٦ الخارقاني، نور العلوم، ص٢٣٩.





- يود العالمُ كلَّ صباح أن يزيد علمه، والزاهدُ أن يزيد زهده، لكن أبا الحسن كان دائمًا همُّه إدخال السعادة والسرور إلى قلب أصحابه.[٤٣٧]
- إذا ما دخلتْ شوكةٌ إصبعَ امرئ أيًّا كان من تركستان إلى الشام فكأنما دخلت إصبعي، وإذا أصيبت قدم أحدهم بحجرة فقد أصيبت قدمي أيضًا، وإذا كان هناك حزن في قلبٍ ما فذاك القلب قلبي.[٤٣٨]
- إنَّ الشيطانَ نفسه لا يمكن أن يسبب الفتنة في الدين مثلما يسببه شخصان:

  - العالم الحريص على الدنيا.
  - والمتنسِّك المحروم من العلم.[٤٣٩]

- أغلق باب الأنانية، وافتح باب الخدمة والصحبة! (يوسف الهمداني رحمه الله)[٤٤٠]
- انتبهوا إلى أمرين: إلى ما يخرج من فمكم حين تتكلمون، وإلى ما يدخل فمكم حين تأكلون! (علي راميتني رحمه الله)[٤٤١]



الشيخ نقشبند رحمه الله

- المرءُ بحاجة إلى جناحين كي يطير إلى عالم القدسية، أما الجناح الأول فهو أداء الكثير من الأعمال الصالحة، وأما الثاني فهو رؤية نفسه ناقصًا.[٤٤٢]
- إن خير مَنْ يسلك هذه الطريقة السامية هم أصحاب الهمة العالية الذين

---

٤٣٧ عطار، تذكرة الأولياء، ص٦١١.

٤٣٨ عطار، ص٦٠٤.

٤٣٩ عطار، ص٦٢٤.

٤٤٠ أحمد الكاساني، آداب السالكين، ورقة: ٥٧ب، ١٦٢.

٤٤١ رشحات، ص٩٢.

٤٤٢ عبد الله الدهلوي، المكاتيب الشريفة، ص٢٣٢، رقم: ١١٩.





يعيشون في حالة تامة من التواضع والتضرع والابتهال إلى الله تعالى، وقد جعلونا نمرُّ من هذه البوابة، وكل ما وجدته كان موجودًا في الابتهال وإنكار النفس وإهمالها.[٤٤٣]

- إن التمسك بالفناء وترك الوجود في هذا الطريق، ثم إظهار اللاوجود والعيش بتواضع هو أعظم ربح، وهذه الأمور إشارات لنيل حالات روحانية عظيمة.[٤٤٤]

وكان شاه نقشبند كثيرًا ما يردد البيت التالي في مجالسه مشيرًا إلى إخفاء الأحوال المعنوية:

ومِن داخلٍ كُنْ متيقظًا غير غافل   ومِن خارج خالِطْ كبعض الأجانب[٤٤٥]

- حين سُئل الشيخ: «ماذا نصنع من أجل نجاتنا في الآخرة؟» أجاب:

«كن مشغولاً بما يجب أن تكون منشغلاً به لحظة خروج نَفَسك الأخير»، وهذا يعني أنه يجب أن تكونوا يقظين طوال عمركم، مثلما يلزم التفكير تمامًا بالله تعالى في النَفَس الأخير.[٤٤٦]

- كل ما يكون مرئيًا أو مسموعًا أو متخيلاً أو موهومًا فهو غيره تعالى، وينبغي نفيه بحقيقة كلمة «لا».[٤٤٧]

- إنَّ ربط العبد قلبَه بما سوى الله تعالى (أي بالأمور الدنيوية التي تبعده عن ربه) من أعظم حالات الغفلة.[٤٤٨]

- إن سبب ابتعاد الناس عن الله تعالى هو بعدهم وأخذهم -برغبتهم- على

---

٤٤٣ صلاح الدين بن مبارك بخاري، أنيس الطالبين، ص٤٦.

٤٤٤ أنيس الطالبين، ص٤٧.

٤٤٥ أنيس الطالبين، ص٦٧؛ العلاّمة محمد بن سليمان البغدادي، الحديقة الندية، إسطنبول ١٤٠٣، ص١٤.

٤٤٦ رشحات، ص١٣٠.

٤٤٧ الإمام الرباني، مكتوبات، جـ٢، ٢٠٠، رقم: ٢٧٢.

٤٤٨ صلاح الدين بن مبارك البخاري، أنيس الطالبين، ص٧٨.





عاتقهم حملاً دنيويًا لا طاقة لهم به، (أي صاروا عبادًا لطموحاتهم النفسانية)، إذ لا عيب أبدًا في الفيوضات الإلهية.[٤٤٩]

- مَنْ يدخل بيت الكريم ينال كرمه، كذلك حال مَنْ يخدم أولياء الله فيدخل في قلوبهم.[٤٥٠]



الشيخ محمد پارسا

التصوف علم تطبيقي لا نظري، أي هو علم لا يدرك الإنسان معناه الحقيقي بقراءة السطور بل بالعيش بمقتضاه.

ويوضح الشيخ محمد پارسا هذه الحقيقة بقوله:

«إن أقوال طائفة أولياء الله لم تكن للحفظ والنقل فحسب، بل هي أحوال يعيشها المرء، ولذة يتذوقها، لذلك كان أهل البصيرة يقولون عن أقوالهم هذه «الفقه الأكبر والبرهان الأظهر»، واليقين الذي يصل إليه العبد بالتفكر في أقوال هذه الطائفة المباركة أعظم وأقوى من اليقين بعد رؤية الكرامات».[٤٥١]



الشيخ يعقوب الچرخي

- إذا ما شعر السالك في أيِّ وقت بالانقباض والفتور والوسوسة والقلق، تراه يراجع أحواله وحركاتِه مباشرة، ويحاسب نفسه ليرى إن ظهر منه شيء مخالف للشرع الشريف أو مغاير للرضا الإلهي، فإن وقع شيء كهذا يستغفر ربه ويعمل بجد كي يصلحه مباشرة مهما كان العيب صغيرًا.[٤٥٢]

٤٤٩ محمد پارسا، الرسالة القدسية، ص٣٦.

٤٥٠ رشحات، ص١٦٥.

٤٥١ محمد بارسا، الرسالة القدسية، ص١٩.

٤٥٢ صلاح الدين بن مبارك البخاري، أنيس الطالبين، ص١٨٥.





• ثمة الكثير من العلماء يبتعدون عن مجالس أولياء الله، لهذا تبقى عباداتهم ناقصة. (هذا يعني أنه من الضروري على العلماء حضور الصُّحَب دائمًا كي يكونوا أصحاب تقوى بأخذهم الفيوضات).[٤٥٣]



محمد الباقي بالله رحمه الله

حين علم الشيخ الباقي بالله رحمه الله في يوم من الأيام أن بعض الناس يعيِّبونه قام بتعليم طالبه الذي أتاه بالخبر الأدبَ التالي:

• «حين نُنعَت بعيبٍ أو أمر سيئ ننظر إلى أنفسنا مباشرة فنجد صفة سيئة فينا، فتكون هذه الإشارة نصيحة لنا، وبعد أن جئتني بالخبر وجدت في نفسي عيبًا وقصورًا فالتجأت إلى كرم ربي جل وعلا، وسأنجو بإذنه تعالى من هذا العيب».[٤٥٤]

• لا تصاحب ولا تصادق مَنْ لا تجد في قلبه رغبة في المعرفة الإلهية، واهرب من العلماء الذين يجعلون من علمهم وسيلة لنيل المناصب والمواقع والثناء كما تهرب إذا طاردك أسد.[٤٥٥]



الإمام الرباني رحمه الله

• الشريعة ثلاثة أجزاء: العلم والعمل والإخلاص، وما لم تتحقق كلُّ من هذه الأجزاء الثلاثة لا تتحقق الشريعة، ومتى تحققت الشريعة فقد تحقق رضا الله عز وجل الذي هو فوق جميع السعادات الدنيوية والأخروية، ورضوان من

٤٥٣ الجرخي، ناي-نامه، ص٦٩.

٤٥٤ الكشمي، بركات، ص٦٢.

٤٥٥ موسوعة الأولياء، جـ٨، ٣٥٩.





الله أكبر، فكانت الشريعة متكفلة بجميع السعادات الدنيوية والأخروية، ولم يبقَ مطلب يقع فيه الاحتياج إلى ما وراء الشريعة، (والطريقة) والحقيقة اللتان امتازت بهما الصوفية خادمتان للشريعة في تكميل جزئها الثالث الذي هو الإخلاص، فالمقصود من تحصيل كل منهما تكميل الشريعة لا أمر آخر وراء الشريعة.

والأحوال والمواجيد والعلوم والمعارف التي تحصل للصوفية في أثناء الطريق ليست من المقاصد، بل هي أوهام وخيالات تربى بها أطفال الطريقة، فينبغي أن يجاوز جميع ذلك وأن يصل إلى مقام الرضا الذي هو نهاية مقامات السلوك والجذبة، فإن المقصود من طي منازل الطريقة والحقيقة ليس شيئًا غير تحصيل الإخلاص المستلزم لحصول مقام الرضا ويوصل إلى دولة الإخلاص.[٤٥٦]

- أيها الولد، إن الفرصة غنيمة، والصحة والفراغ مغتنمان، فينبغي صرف الأوقات إلى ذكر الله جل شأنه على الدوام، وكل عمل يصدر وفق الشريعة الغراء فهو داخل في الذكر، وإن كان بيعًا وشراء؛ فينبغي مراعاة الأحكام الشرعية في جميع الحركات والسكنات لتصير كلها ذكرًا، فإن الذكر عبارة عن طرد الغفلة، ومتى حصلت مراعاة الأوامر والنواهي في جميع الأفعال فقد تيسرت النجاة من أَسْرِ الغفلة عن الآمر بالأوامر والناهي عن المناهي، وحصل دوام ذكره تعالى.[٤٥٧]

- إن تحصيل جناحي الاعتقاد والعمل يحصل إذا كان توفيق الحق رفيقًا ودليلاً، فينبغي سلوك طريقة الصوفية العلية لا لغرض تحصيل شيء زائد على ذلك الاعتقاد والعمل ونيل أمر جديد سواهما، فإن ذلك من طول الأمل المفضي إلى الزلل، بل المقصود منها حصول اليقين والاطمئنان في المعتقدات، بحيث لا تزول بتشكيك مشككٍ ولا تبطل بإيراد شبهة، فإنَّ قدم الاستدلال لا ثبات لها،

٤٥٦ الإمام الرباني، المكتوبات، جـ١، ٢٠٦، رقم: ٣٦.

٤٥٧ الإمام الرباني، المكتوبات، جـ٢، ١٧٤، رقم: ٢٦٦.





ولا قرار لخزف معمول من طين، والمستدل ليس له تمكين، ألا بذكر الله تطمئن القلوب.

- (والمقصود من سلوك الصوفية) حصول اليسر والسهولة في إتيان الأعمال، وزوال الكسالة والعناد والتعنت الناشئة من النفس الأمارة.[٤٥٨].

- ينبغي أن يكون (الشخص) متوجهًا إلى الباطن بعد أن يحلي ظاهره بالأحكام الشرعية لئلا يكون العمل مختلطًا بالغفلة، فالتحلي بالأحكام الشرعية دون إصلاح الباطن متعذر، فوظيفة العلماء الإفتاء، وشغل أهل الله العمل، بينما الاهتمام في الباطن مستلزم للاهتمام في الظاهر، والذي يهتم بالباطن ويعجز عن الظاهر فهو ملحد، وأحواله الباطنية استدراجات، لأن علامة صحة حال الباطن تحلي الظاهر بالأحكام الشرعية، وهذا هو طريق الاستقامة.[٤٥٩]

- ما أزال أنصح (الأصحاب)... إلى انقضاء عمري -بعد تصحيح العقائد على وفق ما بُيِّن في الكتب الكلامية المخصوصة بأهل السُنة والجماعة شكر الله سعيهم، وبعد إتيان الأحكام الفقهية من الفرض والواجب والسُنة والمندوب والحلال والحرام والمكروه والمشتبه امتثالاً وانتهاء- تحصيل سلامة القلب عن التعلق بما سوى الحق سبحانه...[٤٦٠]

- إن العُجب يحرق الأعمال الصالحة كما تحرق النارُ الحطب، والعُجب ينشأ حين يغدو العمل جميلاً في نظر صاحبه، ولكي نتخلص منه لا بد أن نرى العيوب والأخطاء الخفية، ونرى أعمالنا الصالحة ناقصة، حتى إنه من اللازم أن يستحي المرء من أن تُعرَف حسناته وأعماله الصالحة...»[٤٦١]

---

٤٥٨ الإمام الرباني، المكتوبات، جـ٢، ١٧٤، رقم: ٢٦٦.

٤٥٩ الإمام الرباني، المكتوبات، جـ٢، رقم: ٨٧.

٤٦٠ الإمام الرباني، المكتوبات، جـ٢، ٢٣٥، رقم: ٢٧٨.

٤٦١ الكشمي، بركات، ص٢١٧.





- لا شيء أنفع من هذه الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله» في تسكين غضب الرب جل سلطانه وعلا برهانه، فإذا كانت هذه الكلمة سببًا لتسكين غضب دخول النار فإنها ستكون سببًا لتسكين غضبات أخرى من باب أولى، فإن العبد باعتقاده لهذه الكلمة قد أعرض عن السوى ونفاه من قلبه، وجعل قبلة توجهه المعبود الحق، ومنشأ الغضب الإلهي إنما يتأتى من التوجهات الشتى التي كان العبد مبتلى بها.

فينبغي أن يُعلم فضيلة هذا الذكر من ههنا حيث لا تعادله الدنيا بأسرها، وتكون عظمة هذه الكلمة الطيبة باعتبار درجات قائلها، كلما كانت درجة القائل أعلى تكون تلك العظمة أكثر.[٤٦٢]

- الحياة قصيرة، وصرفها إلى أهم المهام ضروري، وهو صحبة أرباب الجمعية، لا تعدل بالصحبة شيئًا أيًّا ما كان، ألا ترى أن أصحاب رسول الله ﷺ فُضِّلوا بالصحبة على منْ عداهم سوى الأنبياء عليهم السلام.[٤٦٣]

- وقت العمل إنما هو عهد الشباب، والعاقل مَنْ لا يضيع هذا الوقت ويغتنم الفرصة، فإن الأمر مبهم فعساه ألا يبقى إلى زمن الشيخوخة، ولئن بقي فلعله لا تتيسر له الجمعية، ولئن تيسرت فلعله لا يقدر على العمل في أوان استيلاء الضعف والعجز، والحال أنَّ أسباب الجمعية كلها متيسرة الآن... والموسم موسم فرصة وزمان قوة واستطاعة، فبأي عذر يمكن أن يؤخَّر شغل اليوم إلى غد ويُختار التسويف؟[٤٦٤]

- فينبغي أداء الزكاة من الأموال النامية والأنعام السائمة كما هو حقها، وأن يُجعل ذلك وسيلة لقطع التعلق عن الأموال والأنعام، وينبغي ألا يكون حظ

٤٦٢ الإمام الرباني، المكتوبات، جـ٢، ٥٩١-٥٩٤، رقم: ٣٧.
٤٦٣ الإمام الرباني، المكتوبات، جـ١، ٤٢٨، رقم: ١٢٠.
٤٦٤ الإمام الرباني، المكتوبات، جـ١، ٣٠٧، رقم: ٧٣.





النفس ملحوظًا ومنظورًا إليه في أكل الأطعمة اللذيذة ولبس الألبسة النفيسة، بل اللائق في استعمال الأطعمة والأشربة ألا ينوي شيئًا غير حصول القوة لأداء الطاعات، وفي لبس الثوب النفيس ينبغي أن ينوي التزين المأمور بقوله تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ (الأعراف: ٣١) أي عند كل صلاة، وألا يشوبه نية أخرى؛ فإن لم تتيسر حقيقة النية ينبغي أن يتكلف فيها، فإن لم تبكوا فتباكوا، وأن يلتجئ ويتضرع إلى الله سبحانه دائمًا لتتيسر حقيقة النية وليتخلص من التكلف.[٤٦٥]

• ينبغي السعي في أن يكون المنظور في جميع الأفعال والحركات والسكنات رضا المولى جل سلطانه، وأن يعمل بمقتضى شريعته الحقة، ففي هذا الوقت يكون كلٌّ من الظاهر والباطن متوجهًا إلى الحق تعالى، وذاكرًا له سبحانه، فمثلاً إذا اختار العبد النوم -الذي هو غفلة من أوله إلى آخره- بنية دفع التكاسل في أداء الطاعة، يكون ذلك النوم بهذه النية عين العبادة، فما دام في ذلك النوم فكأنه في الطاعة لكونه بنية أداء الطاعة، وقد ورد في الخبر «نوم العلماء عبادة»[٤٦٦]. [٤٦٧]

• اعلموا أن القلب جار الله سبحانه، وليس شيء أقرب إلى جناب قدسه كالقلب، فإياكم وإيذاءه، أيَّ قلبٍ كان مؤمنًا أو عاصيًا، فإن الجار وإن كان عاصيًا يُحمى، فاحذروا من ذلك، واحذروا فإنه ليس بعد الكفر الذي سبب إيذاء الله تعالى ذنب مثل إيذاء القلب، فإنه أقرب ما يوصل به إليه سبحانه والخلق كلهم عبيد الله سبحانه.[٤٦٨]

---

٤٦٥ الإمام الرباني، المكتوبات، جـ١، ٢٩٨، رقم: ٧٠.

٤٦٦ انظر: الديلمي، الفردوس، رقم: ٦٧٣١.

٤٦٧ الإمام الرباني، المكتوبات، جـ٣، ٢٢٤، رقم: ١٧.

٤٦٨ الإمام الرباني، المكتوبات، جـ٣، ٣٢٦، رقم: ٤٥.





- لا ينبغي التساهل في إتيان المستحب، فإنه محبوب الحق سبحانه ومرضيه تعالى، فإن علم في جميع الدنيا فعل واحد مرضي ومحبوب عند الحق جل سلطانه وتيسر العمل بمقتضاه، ينبغي أن يغتنمه، وحكمه كحكم جواهر نفيسة اشتراها شخص بقطع خزف.[٤٦٩]

- إن المقصود من الخلقة الإنسانية إنما هو أداء وظائف العبودية، ومن أعطى العشق والمحبة في الوسط والابتداء، فالمقصود منه قطع التعلق من غير جناب قدسه جل شأنه، وليس العشق والمحبة من المقاصد، بل هو لحصول مقام العبودية، فإنَّ السالك إنما يكون عبدا لله تعالى إذا تخلص من أسر غيره تعالى وعبوديته بالتمام، وليس للعشق فائدة سوى أن يكون وسيلة الانقطاع عن غيره سبحانه؛ ولهذا كانت نهاية مراتب الولاية مقام العبودية، وليس في درجات الولاية مقام فوق مقام العبودية.[٤٧٠]



محمد معصوم السرهندي رَحِمَهُ ٱللَّهُ

- إن الصلاة رأس العبادات التي تُقرِّب العبد من ربه ﷿، والصلاة تحمل وسامًا من صاحب القدرة المطلقة ﷻ، ولا يمكن الوصول إلى القرب الموجود في الصلاة في أي مكان آخر، ففي الصلاة تُرفع الحُجب بين العبد وربه، لذلك قيل: « الصلاة معراج المؤمن»، فكلما صلَّى المرء صلاته بخشوع، كان معراجه أقرب إلى الكمال، وهذا منوط بمراعاته للسُنة السنية أثناء صلاته... إنَّ الصلاةَ ليست عبارةً عن الحركات التي نعرفها، لأن للصلاة حقيقةً في عالم الغيب، فهي أعظم وأعلى من الحقائق جميعها.[٤٧١]

٤٦٩ الإمام الرباني، المكتوبات، جـ٢، ١٧٢، رقم: ٢٦٦.

٤٧٠ الإمام الرباني، المكتوبات، جـ١، ١٨٠، رقم: ٣٠.

٤٧١ محمد معصوم، المكتوبات، جـ١، ١٦٧، رقم: ٢٣٠.





- كلما ذكر العبدُ الله ذكره الله أيضًا، فهو يقول في كتابه: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ (البقرة، ١٥٢)، فمهما استمر العبد بذكر ربه ذكره الله دائمًا، وهل هناك سعادة أعظم من أن يذكر المولى عبده دائمًا، فينال الفيوضات الإلهية في كل حين؟[٤٧٢]

- إن المعرفة الإلهية أعظم من الكشف والكرامات، فالمعرفة هي كشف الأسرار الإلهية، أما الكرامات والخوارق للعادات فهي كشف لأحوال المخلوقات، فالفرق إذًا بين المعرفة الإلهية والكرامات كالفرق بين الخالق والمخلوقات، والمعرفة الحقيقية تساعد في وصول الإيمان إلى الكمال والترقي، أما الكرامات فليست كذلك، فوصول الإنسان إلى الكمال لا يرتبط بها، إن مَنْ يطلب الكشف والكرامات يطلب أمورًا صغيرة ويغدو أسيرًا لها، فلا يَسْعَدُ بالقرب من الله تعالى، ولا ينال نصيبًا من معرفة ربه بالقلب... وإذا ما بدأ المرء برؤية نفسه مختلفًا عن غيره لإظهاره الكرامات يُحرم حينها من فوائد العبادة والسير والسلوك، بانجراره إلى الكِبر والعجب وتُغلَق أمامه سُبل المعرفة.[٤٧٣]

- يا بُنيَّ، إنَّ أيام الشباب هي أكثر أوقات عمرك قيمة، فهذه الأيام، التي يكون فيها الإنسان قويًا سليمًا، تمضي ويأتي اليوم الذي يضعف فيه الإنسان، وما أشقى الإنسان الذي يُرجِئ معرفة الله -التي هي أشرف وأعظم ربح- إلى شيخوخته التي قد لا يصل إليها، فتراه يصرف أفضل أوقات عمره في الهوى والنزوات التي هي أرذل الأشياء والمنكرات، ولا تنسَ أبدًا أنه «هلك المسوِّفون».[٤٧٤]

- إن مقصود السير والسلوك والرياضة والمجاهدة وتحمُّل المشقات هو التخلص من محبة ما سوى الله تعالى، وهذه المساعي كلها هي لإظهار عجز العبد وضعفه، وليدرك أنه «لا شيء».[٤٧٥]

---

٤٧٢ محمد معصوم، المكتوبات، جـ٣، ٨٤، رقم: ١٤٥.

٤٧٣ محمد معصوم، المكتوبات، جـ١، ٥٢، رقم: ٥٠.

٤٧٤ محمد معصوم، المكتوبات، جـ١، ٦٣، رقم: ٦٥.

٤٧٥ محمد معصوم، المكتوبات، جـ١، ١٦٣، رقم: ٢٣٠.





- كونوا في حالة عبادة وطاعة، واستغفروا الله لما في عباداتكم من تقصير! وإياكم أن تنظروا إلى أعمالكم على أنها أعمالٌ تليق بالله تعالى، وكان أحد كبار أهل العلم يقول: «اعمل واستغفر»، فهذا هو طريق العبودية عندنا.(٤٧٦)

- إنَّ رؤية الإنسان نفسَه مقصرا يزيد من قيمة أعماله ويسهِّل قبولها.(٤٧٧)

- إن سبب ظلم حكامنا هو سوء أعمالنا، وقد قيل: «أعمالكم عمالكم»، فأصلحوا نفوسكم، واسلكوا طريق الورع والتقوى.(٤٧٨)

- لقد دعا الله تعالى الناس إليه مع استغنائه عن العالم كله، وأرشدهم إلى الوصال معه، وفتح هذا الطريق أمامهم لسعة كرمه، وما أشقانا وما أتعسنا إذا بقينا بعيدين عن الجمال الإلهي ومحجوبين عنه، ولم نتخلص من قبضة النفس والهوى مع وجود هذه الدعوة والهداية.(٤٧٩)

- إن لذة الطاعة والخضوع لأوامر الحق تعالى -الذي نلتجئ إليه- أفضل من لذة المحرمات ولا يمكن أن تجد نعمة تعادل نعمة رضا مولانا ﷻ عن العبد وأعماله، فهو الذي يُكرمنا بالنعم كلها ولا ألم أشد من ألم البقاء بعيدًا عن رضاه ﷻ.(٤٨٠)

- إن طلب المرء إشباع رغباته النفسانية يعني تركه رضا المولى ﷻ.(٤٨١)

- إن العمر أيام معدودة، لكن بها ينال المرء الملك الأبدي، فلا ينبغي لإخوتي الكرام إذًا أن يضيعوا أعمارهم هباءً.(٤٨٢)

---

٤٧٦ محمد معصوم، المكتوبات، جـ١، ٨٣، رقم: ٩٢.

٤٧٧ محمد معصوم، المكتوبات، جـ٣، ١٠٣، رقم: ٢٢٥.

٤٧٨ محمد معصوم، المكتوبات، جـ٣، ٢٦، رقم: ٣٤.

٤٧٩ محمد معصوم، المكتوبات، جـ٣، ١٠٣، رقم: ١٩١.

٤٨٠ محمد معصوم، المكتوبات، جـ١، ١٥٢، رقم: ٢١١.

٤٨١ محمد معصوم، المكتوبات، جـ٣، ٤٥، رقم: ٦٧.

٤٨٢ محمد معصوم، المكتوبات، جـ١، ٤٦، رقم: ٣٨.





- لا يصل إلى الحق تعالى مَنْ هو محروم من الأدب.[483]

- لقد ربط الله تعالى أساس النجاة في الآخرة باتباع الشريعة الثابتة قطعيا، أما القُرَب منه فقد ربطه باتباع السُنة الشريفة، ويوضح هذا الأمر قوله تعالى في الآية الكريمة: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ (آل عمران، ٣١)[484]



ميرزا مظهر جان جانان رحمه الله

- يجب أن يسعى المؤمن إلى تأدية مهام العبودية، وأن يكون مستعدًا للموت في كل حين، وحين يُبعد المؤمن الرغبات النفسانية كلها عن قلبه، يصبح الموت هدية إلهية بالنسبة إليه، فحالته هذه وسيلة الوصال مع الله عز وجل ونبيه ﷺ.[485]

- لكل عمل كيفية، والصلاة تجمع كل الكيفيات، فهي تتضمن أنوار الذكر كلها مثل تلاوة القرآن الكريم، والتسبيح، والصلوات الشريفة، والاستغفار، وإذا استطاع المرء أن يؤدي آداب الصلاة حقَّ الأداء، حينها سيجد في الصلاة تلك الأحوال الروحانية التي كانت سائدة في عصر الرسول ﷺ.[486]

- إذا ما أمضيت شهر رمضان ذاكرًا ربك فستستمر هذه الحالة الجميلة الرائعة سائر العام، أما إذا كان هناك قصور وفتور في هذا الشهر فسترى أثر ذلك سائر السنة.[487]

- إن محبة عباد الله المحبوبين والمقبولين لديه سبحانه هي أقوى أسباب القرب من المولى جل جلاله.[488]

---

٤٨٣ محمد معصوم، المكتوبات، جـ١، ١٣٧، رقم: ١٨٢.

٤٨٤ محمد معصوم، المكتوبات، جـ١، ٥٨، رقم: ٥٧.

٤٨٥ عبد الله الدهلوي، المقامات المظهرية، ص٤٣.

٤٨٦ عبد الله الدهلوي، المقامات المظهرية، ص٧٣.

٤٨٧ عبد الله الدهلوي، المقامات المظهرية، ص٧٣-٧٤.

٤٨٨ عبد الله الدهلوي، المقامات المظهرية، ص٤٣.





- إن سالكي هذا الطريق يخشون أن يتسرب الكِبر إلى نفوسِهم، وحتى لو قاموا بأعمال كثيرة يرون أنفسهم مقصرين، لذلك يستغفرون الله دائمًا ويرون الذنب الصغير كبيرًا، والنعمة القليلة كثيرة، ويبقون في حالة شكر ورضا في كل حين.[٤٨٩]

- من الضروري أن تُستثمر الأوقات كلُّها في أداء الأعمال الظاهرية، فنور الأعمال الصالحة تكون سببًا للطمأنينة والعرفان والذكر الدائم للقلب.[٤٩٠]

- يحتوي علم الحديث على دقائق التفسير، والفقه، والتصوف، وببركة هذا العلم يزداد نور الإيمان، وبفضله تُؤدَّى الأعمال الصالحة، وتكتمل الأخلاق الحميدة.[٤٩١]



عبد الله الدهلوي رحمه الله

- إن الاستقامة والصواب في التصوف هو أن تكون مستغفرًا دائمًا، شاعرًا بالذنب والحياء، صاحب قلب منكسر في كل حين.[٤٩٢]

عار وألف عار علينا! لقد أتينا إلى هذا العالم لنجمع الورود، ولكننا خرجنا منها لا نحمل سوى الأشواك.

عار وألف عار علينا! لقد أُكرِمنا بالصحة والعافية والراحة والكثير من الفُرص، لكن مع ذلك قصَّرنا في الشَكر على هذه النعم كلها.

عار وألف عار علينا! لقد أنعم الله علينا بنعمَتين عظيمتين هما القرآن الكريم ونبينا ﷺ، ولكننا مع هذا لم نشكر الله كما يليق به، في حين كان أليقَ النعم بالشكر هاتان النعمتان.[٤٩٣]

---

٤٨٩ عبد الله الدهلوي، المقامات المظهرية، ص٤٩.

٤٩٠ عبد الله الدهلوي، المقامات المظهرية، ص٥٠.

٤٩١ عبد الله الدهلوي، المقامات المظهرية، ص٥٢.

٤٩٢ عبد الله الدهلوي، المكاتيب الشريفة، ص٦٥، رقم: ٦٥.

٤٩٣ عبد الله الدهلوي، المكاتيب الشريفة، ص١٥٨، رقم: ٩١.





- إن الترقي الذي يمر به المريد بالرياضة لا يعادل شيئًا أمام ترقيه بالخدمة حتى بنسبة واحد في المئة، فعمل سنوات يتيسَّر بالخدمة في لحظة، فالخدمة تجعل المؤمن ينال الألطاف الإلهية.[٤٩٤]

- إنَّ اللغو والغيبة يُذهبان ثواب الصيام، والغيبة وحدها تهدم أجر العبادات كلها، لذلك من الواجب الحذر منها، فما أعظمها من بلاهة أن يؤدِّي المرء العبادات بالجد والكد ثم يضيع ثوابها، إن الأعمال تُعرض على الله تعالى، فعرضنا الغيبة واللغو أمام ربنا لَهوَ سلوكٌ بعيد- أشد البعد- عن الأدب.[٤٩٥]

- من الضروري ذكر الله كثيرًا، فالقلب لا ينشرح دون إكثار الذكر، ويجب على الإنسان ألا يمضي لحظة من لحظات عمره دون ذكر وحضور قلب وتفكيرٍ بحاجته إلى الله تعالى، ومن اللازم أن يكون ذاكرًا بقلبه ومدركًا أنه تحت نظر ربه حين يكون مع الناس، وفيوضات الحق تأتي فجأة، لكن إلى القلب الذاكر.[٤٩٦]



مولانا خالد البغدادي رحمه الله

- وأكرمْ حملةَ العلم وحفظةَ القرآن، واشتغل بقراءة القرآن بحسب التيسير، واشتغل بعلم الفقه والحديث أكثرَ من غيرهما، ولا يصرفك الحضور القلبي عن ذلك؛ فإنه علامة على ضيق المشرب وقصر الباع.[٤٩٧]

- قلبي في لهيب وصدري يحترق، أتنقل من طريق إلى طريق، ومن باب إلى آخر.

---

٤٩٤ رؤوف أحمد، در المعارف، ص٦٨.

٤٩٥ عبد الله الدهلوي، المكاتيب الشريفة، ص١٠٧، رقم: ٨٥.

٤٩٦ عبد الله الدهلوي، المكاتيب الشريفة، ص١٣٥، رقم: ٩٠.

٤٩٧ أسعد صاحب، بغية الواجد، ص١٤٠، رقم: ٢٨.





- إنني في سعي كي لا يغفل أحد عن محبوبي وجنتي.[٤٩٨]

- لا تغرنكم كثرة الاشتغال بالنوافل، فإنها مع حسنها الذاتي لغير أرباب الفناء كالسم القاتل، ألا ترى أن بعض الناس بسبب تعبدهم الظاهري تبدأ لهم الأنانية والجور حتى يعرضوا عن الطريقة وأهلها بذريعة أنهم أتقى منهم مع أن ذلك من أكبر الكبائر كما أطبق عليه أساطين الشرع والشهود.[٤٩٩]

- أوصيكم... بكثرة الذكر ودوام الالتجاء إلى الله تعالى، والإعراض عن زخارف الدنيا الفانية، ووفور الرغبة في الآخرة الباقية، وذكر الموت ووحشة القبور، والاستعداد التام ليوم الحساب والنشور، والتمسك بالسُنة السنية، والإعراض عن البدع الردية، وبالدعاء لنصرة الإسلام، وخذلان أعداء الدين والمرتدين اللئام.[٥٠٠]

- كيف ينبغي لـمَنْ تشرَّف بالإسلام النوم عن المحافظة على أمانة الحق تعالى وهو القيام.[٥٠١]



طه الحريري رَحِمَهُ اللَّهُ

- إن السالك من أهل الكشف والسالك الذي لا كشف له هما كرجلين أحدهما يرى والآخر لا يرى، يسافران إلى الحج ويقترب الاثنان أثناء سيرهما في الطريق من غاياتهما، لكن ثواب مَنْ لا يرى أعظم وأكثر. والسالك الذي لا كشف له في السير والسلوك ربحه أكبر من صاحب الكشف لطالما أنه في حالة ترقٍ مستمرة ولو لم يُرَ.[٥٠٢]

---

٤٩٨ محمد أسعد أفندي، ديوان أسعد، ص١١١.

٤٩٩ أسعد صاحب، بغية الواجد، ص١١٧، رقم: ١٣.

٥٠٠ أسعد صاحب، بغية الواجد، ص١٩٥، رقم: ٥٩.

٥٠١ الخاني، الحدائق، ص٦٩٧.

٥٠٢ الأستاذ د. حسن كامل يلماز، السلسلة الذهبية، ص٢٠٨.





محمد أسعد أربيلي رحمه الله

- اللهم كما أكرمتنا بعقل دنيوي يدرك لزوم الفحم قبل قدوم الشتاء القارس، أكرمنا بعقل أخروي يدرك لزوم تنوير ظلمة القبر قبل الدخول فيه! واحفظنا يا رب من الندامة بعد الموت! آمين![٥٠٣]

- إذا كنا نتأسف على ثانية قد أضعناها من حياتنا التي هي رأس مالنا، فهي الثانية التي بقينا فيها بعيدين عن الذكر والتفكر، فهما الوسيلة لضمان المستقبل.[٥٠٤]

- ماذا سنجيب صاحب الـمُلك والملكوت حين يحاسب عباده يوم القيامة قائلا:

«يا عبدي! كيف تجرَّأت على فعل ما حرمتُ، وأنا الذي بيد قدرتي حياتُك وموتُك، ورِفعتُك وسقوطك، ورخاؤك وضيقك، وصحتك وعافيتك، وكلُّ نَفَس تتنفسه؟ وبأي عقل أطعت الشيطان الملعون عدو سعادتك؟ يا عبدي! أظننتني لا أرى ولا أعلم؟ أو أنك حسبت أن إظهار الحياء والاحترام لعبد عاجز مثلك لازم وإظهارها لي غير لازم؟!»

من عبقرية أي فيلسوف سنستفيد حينها؟ ومن علم أي محامٍ سنأخذ؟ ما أتعسنا من بشر![٥٠٥]

- فليُنِر الله ﷻ عيون قلوبكم! فكما يوجد ماء الورد في كل نقطة من أوراق الوردة، أسأل الله ﷻ أن يجمِّل كل ذرة في بدنكم برائحة المحبة والذكر الدائم! آمين...

---

٥٠٣ محمد أسعد أفندي، المكتوبات، ص٦-٧، رقم: ٢.

٥٠٤ محمد أسعد أفندي، المكتوبات، ص٥٥، رقم: ٢٧.

٥٠٥ محمد أسعد أفندي، المكتوبات، ص٦٤- ٦٥، رقم: ٣٦.





إن الله تعالى لا يغفل عن عباده البتة، ويحب عباده الذين يذكرونه دائمًا ببقائهم في إطار الشريعة المطهرة؛ لذلك فإن رجائي المتواضع هو ألا نبقى محرومين من هذا الشرف الرفيع، وألا نقف أمام المولى ﷻ بقلب مفتون بالرغبات النفسانية.[٥٠٦]

- من الضروري على كل متوجه إلى الحق تعالى أن يعوِّد لطائفَه كلَّها على الذكر لأن هذه اللطائف كلها بحاجة إلى تطهير، فكما أنه من الضروري على الإنسان أن يغسل كل جزء من بدنه وكل نقطة أثناء الغسل، فكذلك الحال مع مَنْ يريد تطهير عالمه المعنوي، إذ يجب عليه أن يذكر الله بكل لطائفه وبكل ذرة من ذرات بدنه.[٥٠٧]

- لا يعجبني في الشيخوخة إلا أمر واحد، وهو أنني أتذكر دائمًا أن الوقت انتهى، وأن موعد الرحلة (الخروج من الدنيا) اقترب كان من المعقول أن تعمل من أجل الدنيا إلى الآن، ولكن ماذا سيحصل بعد ذلك؟ أستكون شابًا؟ كن يقظًا! عليك أن تستعد لليوم الذي يأمرك الله تعالى قائلا: (ارْجِعي)، وحين تفكر النفس بمثل هذه الأمور تقف عاجزة عن الدفاع، ولا تجد جوابًا معقولاً. يا رب احفظنا جميعًا بحفظك، ولا تجعلنا من الغافلين! آمين![٥٠٨]

- إن التفكر في الموت كما أنه يخفف من حزن العبد أمام المصائب التي تصيبه، فهو في الوقت نفسه يُسهِّل عليه الموت نفسه، ويُقلل من محبة الدنيا التي تجعله قلقًا وتجرُّه إلى العذاب، وذلك لأن حب الأمور الدنيوية المؤقتة من مال وموقع وجمال، والإلحاح في طلبها هو السبب الأساسي لكل نوع من أنواع الذنوب والاضطرابات.[٥٠٩]

---

٥٠٦ محمد أسعد أفندي، المكتوبات، ص١٠٠، رقم: ٦٩.

٥٠٧ محمد أسعد أفندي، المكتوبات، ص١٤٠، رقم: ١١٢.

٥٠٨ محمد أسعد أفندي، المكتوبات، ص١٢٨، رقم: ٩٩.

٥٠٩ محمد أسعد أفندي، المكتوبات، ص١٤١، رقم: ١١٣.





- إن أكثر الطرق أهمية في الترقي والتقدم الذي يُتصور من أجل العالم الإسلامي؛ هو ترك الذنوب.(٥١٠)

- إن الإنسان الذي يحق له أن يوصف بأنه إنسان مُكرَّم، هو المحظوظ الذي يزيِّن داخله وخارجه بتحليه بالأخلاق الحميدة بعد تزكية النفس، والذي يخدم الشريعة ويتَّبع الطريقة.(٥١١)

- من المعلوم أن «المحوية» هي أكثر أعمال العبد قبولاً عند الله سبحانه، أي معرفة الإنسان أنه مخلوق ضعيف حقير عاجز، وأن كل جزء أو صفة فيه من لطف الله تعالى ومُلكه، والتجسيد الفعلي للمحوية هو أن يخر العبد ساجدًا يمرغ وجهه في التراب، وإلى جانب ذلك يقول الإنسان: «سبحان ربي الأعلى»، أي ينزِّه الله من النواقص كلها، فهو فوق كل مخلوق، من منظور القوة والقدرة والمال والملك والأمور الأخرى كلها.(٥١٢)

- يمكن للعبد بعمله وعباداته أن يُخلِّص نفسه من العصيان لا غير، ولا يمكنه ادعاء أية فضيلة أخرى، ويتوقع الفيوضات دائمًا من الوسائل القيمة مثل الأدعية الخيرية والتوجهات القلبية.(٥١٣)

- نسأل المولى ﷻ ألا تبدو نفوسنا المحتاجة إليه سبحانه كبيرةً في عيوننا، فقد كان من دعاء وابتهال رسول الله ﷺ:

«اللَّهم اجعلني شكورًا، واجعلني صبورًا، واجعلني في عيني صغيرًا، وفي أعين الناس كبيرًا» (الهيثمي، جـ١٠، ١٨١)(٥١٤)

---

٥١٠ محمد أسعد أفندي، المكتوبات، ص٣٧، رقم: ١٢.

٥١١ محمد أسعد أفندي، المكتوبات، ص٣، رقم: ١.

٥١٢ محمد أسعد أفندي، المكتوبات، ص٣١، رقم: ١٠.

٥١٣ محمد أسعد أفندي، المكتوبات، ص١١٨– ١١٩، رقم: ٨٩.

٥١٤ محمد أسعد أفندي، المكتوبات، ص١٢٢، رقم: ٩٣.





- إن أحد الذنوب أو الذنب الأعظم الذي يكون سببًا في حرمان العبد عند الله تعالى هو التكبر والأنانية.[٥١٥]

- لا يكون الإنسان على يقين بأن دعاءه سيُقبل حين يكون مصحوبًا بغرور النفس والاعتماد على قوتها وقدرتها، فأما إذا كانت مصحوبة بالانكسارِ في القلب والاعترافِ بعجز النفس وحاجتها لله فيزداد الأمل بقبولها، ندعو الله تعالى أن يجعل نفوسنا الأمَّارة ذليلة مهمومة، ويجعل قلوبنا وأرواحنا غالبة دائمًا بعشقه ومحبته، وعامرة بالسرور والسعادة! آمين.[٥١٦]

- كل شخص يدَّعي حب الله وعشق جماله تعالى، ولكن إثبات هذا الادعاء غاية في الصعوبة، والكثير من الناس يغر نفسه في هذا الأمر، وإذا ما أراد المرء معرفة معنى المحبة، فليرَ معاملته مع أولاده وماله، فكما أن الإنسان يمضي معظم وقته في التفكير فيهم، ويذكرهم دائمًا، ويقدم تضحياتٍ شتى من أجلهم، ويتوسل بكل الأسباب، ويتخلى عن راحته وسكينته كي يحظى بهذه الأمور، وهكذا هي المحبة، لكن يجب أن يكون القسم الأكبر منها لله تعالى لأنه هو الباقي، فهو الرب المنعم الذي لا ينقطع عونه وإمداده عن الخلق لحظة، يقول الله ﷻ في كتابه:

﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ (إبراهيم، ٣٤)

- إن الجهد المبذول على ما سوى التقرب منه تعالى جهد ضائع، وقد يكون ضارًا أحيانًا، بل هو جهد فانٍ، يذهب في طرفة عين.[٥١٧]

- لقد قيل في الماضي: «منْ عرف نفسه فقد عرف ربه»، على المريد ألا يعوِّل كثيرًا على ما يراه من صلاح نفسه أثناء اتقاد محبته وحين يكون بصحبة

---

٥١٥ محمد أسعد أفندي، المكتوبات، ص١٣٨، رقم: ١١٠.

٥١٦ محمد أسعد أفندي، المكتوبات، ص١٥٨، رقم: ١٣٠.

٥١٧ محمد أسعد أفندي، المكتوبات، ص٦٧ – ٦٨، رقم: ٣٨.





شيخه، ولا يعتمد كثيرًا على الأحوال الحسنة التي يراها في ذاته، فمثل هذه الحالات من الإصلاح هي ظلال معكوسة عليه، لا علاقة لها بالحقيقة، ولكي تكون هذه الأحوال الحسنة أصيلة في المريد، وتتجلى بالتمام فيه -أي التزامه بالأوامر والنواهي الإلهية كلها- فلا بد له أن يسعى ويبذل الكثير من الجهد.[٥١٨]

- «الحر أمير نفسه» فاللّهم اجعلنا آمرين على النفس الأمارة ونائلين للنفس المطمئنة، واجعلنا ممَنْ تخاطبهم بقولك:

﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي. وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ (الفجر، ٢٩-٣٠) آمين.[٥١٩]

- من المعروف أن المستأجر حين ينتقل من بيت إلى آخر يحمل معه أشياءه كلها، ولا يبقي أي شيءٍ يحبه في بيته القديم، لكن ما يثير الحيرة حقًا هو أن الإنسان حين ينتقل إلى بيت القبر الذي يحتاج فيه إلى كل شيء تراه لا يحمل شيئًا مما يحب ولو كان بسيطًا (أي لا ينفق ما يحبه ليرسله قبل الموت إلى الآخرة)[٥٢٠]

- لا تكترث بمنْ يعيبك إذا كنت تعمل في سبيل الحق، فلسعة النحل لا قيمة لها عندك إذا كنت تجمع العسل.[٥٢١]

- لا تخشَ من الأشواك المنتشرة على الطريق الذي يأخذك إلى بستان العشق! فأنا قادر على جمع المئات من البراعم من كل شوكة.[٥٢٢]

- إني أتلذذ بالاضطراب في بستان الدروشة، وأرى الوردة في رؤياي حتى لو نمتُ على وسادة من شوك.[٥٢٣]

---

٥١٨ محمد أسعد أفندي، المكتوبات، ص٨٤- ٨٥، رقم: ٥٤.

٥١٩ محمد أسعد أفندي، المكتوبات، ص٤٣، رقم: ١٧.

٥٢٠ محمد أسعد أفندي، المكتوبات، ص١٦، رقم: ٥.

٥٢١ محمد أسعد أفندي، ديوان، ص٩٥.

٥٢٢ محمد أسعد أفندي، المكتوبات، ص٩٤.

٥٢٣ محمد أسعد أفندي، المكتوبات، ص٩٦.





- إذا أمسيتَ أسيرًا لمحبة الذهب والفضة فسيكون عيارك أدنى وأخس من النحاس، وإن كنت ترى نفسك حديدا أو حجرًا أسود فستغدو جوهرة ما لزمت أهل القلوب.[524]

- إن الغاية الكبرى هي السعادة والسلامة في الآخرة، فحتى إذا عاش الإنسان ألف سنة وملك الخزائن والكنوز، فإنَّ أحواله الدنيوية ستكون مجرد رؤيا بعد الموت، وإن لم يُوفَّق في تنوير منزله الأبدي وإعماره، فسوف يدعو ثبورًا ويَصلى سعيرًا وسيكون في ندامة ما بعدها ندامة، اللّهم اجعلنا ممنْ يوفَّقون في إعمار دار القرار بإيمان كامل! وأبعد عنَّا حب الأمور الدنيوية صغيرها وكبيرها! آمين.[525]



محمود سامي رمضان أوغلو رَحِمَهُ اللَّهُ

- لا بد أن يكون التسليم تامًّا... فإن كان التسليم ناقصًا، فلا نتيجة ولا فائدة منه! فبالتسيلم يستيقظ القلب، وتصلح النفس، وينشرح الصدر، ويذكر البدن.[526]

- إن وجود عالِم يعلِّم الناس المسائل الدينية في كل بلدة وقبيلة فرض كفاية، فإن لم يكن هناك عالِم فالناس جميعًا مذنبون حينئذ، ولأن الفقه العام (أي تعلم الأحكام الدينية التي تهم كل مؤمن) فرض عين، فعدم تعلمها ذنب من الذنوب، إذ لا يُعَدُّ الجهل في ديار الإسلام عذرًا.[527]

٥٢٤ محمد أسعد أفندي، المكتوبات، ص١٠٩.

٥٢٥ مكتوب أرسله محمد أسعد أفندي إلى الرائد في البحرية أدهم أفندي، وهي من المكاتيب التي لم تنشر.

٥٢٦ محمود سامي أفندي، مجالس العيد، ص٢٨.

٥٢٧ محمود سامي أفندي، المصاحبة، جـ١، ٦٤.





- يجب أن يكون صاحب الاستقامة مستقيمًا منتصبًا كالجبل، إذ للجبل أربع علامات هي أنه:
  - لا يذوب بالحرارة.
  - لا يجمد بالبرودة.
  - لا تحركه الرياح.
  - لا تجرفه السيول.[٥٢٨]
- الطريقة خادمة الشريعة، فكما أن الوضوء يطهر الإنسان استعدادًا للصلاة نجد أن الطريقة تطهر القلب استعدادًا للحضور أمام الله تعالى.[٥٢٩]
- يحتاج الإنسان إلى تشخيص الطبيب وعلاجه كي يُشفَى من أمراضه البدنية، كذلك الحال مع الأمراض القلبية مثل الكِبر، والحسد، وحب الدنيا، إذ لا يجب على الإنسان أن يغفل عن الحاجة الماسَّة إلى علاج يقدمه له الطبيب المعنوي له.[٥٣٠]
- ليس كل امرئ عبدًا للمولى ﷻ، فقد يكون مخلوقًا فقط؛ لأن العبد الحقيقي لله تعالى يلتزم بالأوامر الإلهية تمامًا، ويحذر من نواهيه حذرًا شديدًا، فإن فعل هذا فهو عبد حقًا؛ لأن مَنْ يقضي وقته بالغفلة ولا يكترث بالعبادة والطاعة لا يمكن أن يكون عبدًا.[٥٣١]
- يُوصف الولد العاصي لأبيه الرؤوف بأنه مجنون، فكيف بمن يعصي ربه الرؤوف الرحيم! فوالله مهما وُصِف المخالف لأوامر الله أرحمِ الراحمين يبقى ذلك الوصف قليلا في حقه.[٥٣٢]

---

٥٢٨ محمود سامي أفندي، تفسير سورَتي يونس وهود، ص١٤٥.

٥٢٩ محمود سامي أفندي، المصاحبة، جـ٦، ١٥٦.

٥٣٠ محمود سامي أفندي، المصاحبة، جـ٦، ١٤٦.

٥٣١ محمود سامي أفندي، المصاحبة، جـ٦، ٢١٧.

٥٣٢ محمود سامي أفندي، المصاحبة، جـ٦، ٢١٩.





صاحب الوفاء الشيخ موسى طوبَّاش (رَحِمَهُ ٱللَّهُ)

• مهما تعبَّد الإنسان ولو أمضى عمرَه بين السجود والركوع والصدقة والصيام فإنه لن ينال بذلك إلا الثواب فقط، ولا يمكن أن يصل الإنسان إلى الترقي الروحاني إلا عن طريق السير والسلوك.[٥٣٣]

• إذا حقق العبد الوصال مع ربه جلَّ وعلا، فقد حقق الوصال مع كل شيء، أما إذا لم يحقق الوصال مع ربه فلا قيمة له مهما ذاع صيتُه، وأثنى عليه الناس كلهم في الدنيا.[٥٣٤]

• فلتعلم أنه كما لا توجد نهاية للعبودية، فلا نهاية أيضًا للسير والسلوك، فمنْ قال: «وصلت إلى الكمال»، فقد بقي في منتصف الطريق، أما من رأى نواقصه وعيوبه، فهو في ترقٍّ دائم.[٥٣٥]

• إذا شعر الإنسان أنه عبد لله تعالى، فأطاع أوامره في كل شيء فقد نال المراتب العليا، لكن ينبغي ألا نكون عشاق مراتب، إذ علينا أن نخضع لما يأمرنا الله به خضوعًا نابعًا من المحبة، ونحذر ونحترس مما ينهانا عنه سبحانه ونستمر بالعبودية لله تعالى، فكلما ثبتنا على ذلك أكرمنا ربنا جَلَّ جَلَالُهُ بالأحوال الجميلة الحسنة، وعندئذ ننجو بأنفسنا بإذن الله تعالى.[٥٣٦]

• يا رب لا تحرمنا من نعمة المحبة، فكل شيء يزدهر ويحيا ويقوى بمحبتك يا رب العالمين، يا رب اجعل منْ تحبهم محبوبين عندنا، فكما جعلت رسولك الكريم ﷺ محبوبًا عندنا كذلك اجعل كل ولي، واجعلنا يا رب على

---

٥٣٣ صادق دانا، مجالس الميزاب الذهبي، جـ٥، ٤٢.

٥٣٤ حوارات مع الشيخ موسى أفندي، ص٤٦.

٥٣٥ انظر: صادق دانا، مجالس الميزاب الذهبي، جـ١، ٤٣؛ جـ٥، ٧٩.

٥٣٦ صادق دانا، مجالس الميزاب الذهبي، جـ٥، ٨٢.





أعتاب محبة أهل البيت والصحابة الكرام وكلِّ منْ يحب دينك ويخدمه دون استثناء.[٥٣٧]

- يجب على المؤمن أن يستعظم ذنبَه الصغيرَ دائمًا، فأولياء الله يرون أصغر زلة كالجبال الشاهقة، فيستغفرون ربهم ويتوجهون إليه بحالة انكسار تامة، ودموع منهمرة، وندامة وحزن.[٥٣٨]

- الكيِّس منْ يصلح كيسه أولا فيغلق ثقوبه قبل أن يملأه، فمهما وضعتَ أشياء عظيمة في كيس مثقوب أو مشقوق، فلن يحافظ على ما يحويه.[٥٣٩]

- يجب على الكيِّس أن يصون نفسه وأهله من ذوي الأخلاق السيئة والإيمان الضعيف، وأن يبقى بعيدًا عنهم، فالأحوال والأخلاق تنعكس على الإنسان بسهولة ممنْ يألفه ويستأنس به.[٥٤٠]

- إن ما يوصل العبد إلى معرفة الله من جواهر هي بذور موجودة حقًا في تربة البدن، ولكي تنبت هذه البذور لا بد من دوام الحمد والشكر والذكر والتفكر... إن رأس المعرفة التفكر في أسرار الإبداع الإلهي.[٥٤١]

- يصل الإنسان إلى معارف روحانية كثيرة لم يتعلمها من الكتب، نتيجة التفكر والمراقبة بقلب سليم مطهَّر مما سواه تعالى.[٥٤٢]

- يجب تعلم الأحكام الدينية بسؤال العلماء الصالحين، إذ إن فتاويهم تكون أكثر إصابة وأعظم تأثيرًا لأنهم أصحاب تقوى، ومن ناحية أخرى يجب

---

٥٣٧ صادق دانا، مجالس الميزاب الذهبي، جـ٢، ١٨٩-١٩٠.

٥٣٨ صادق دانا، مجالس الميزاب الذهبي، جـ٢، ٦٣.

٥٣٩ صادق دانا، مجالس الميزاب الذهبي، جـ٢، ٣٦.

٥٤٠ صادق دانا، مجالس الميزاب الذهبي، جـ٢، ٣٣.

٥٤١ صادق دانا، مجالس الميزاب الذهبي، جـ٥، ٣٥-٣٦.

٥٤٢ صادق دانا، مجالس الميزاب الذهبي، جـ٢، ٨٩.





الابتعاد -قدر الإمكان- عن علماء الدنيا الذين يجعلون علمهم قربانًا لكسب المال ونيل المناصب.[٥٤٣]

- ومن أظلم من أب وأم لا يعلِّمان أولادهما الدينَ... فتربية الأولاد دون دين كزرع شجرة من أجل حرقها في المدفأة.[٥٤٤]
- حتى لو جمعتم مئة إنسان ناقص، فلن يقوموا مقام إنسان كامل.[٥٤٥]
- إن العبادات التي أمر بها الإسلام هي كلها لصالح العباد ونفعهم، إذ إن الله تعالى ليس بحاجة إليها أبدًا، فالله تعالى مستغنٍ عن عباده، فقد شرَّفهم بالأوامر والنواهي ليفتح لهم سبل الفلاح والرقي، فعلينا -نحن العاجزين- أن نشكر الله تعالى على هذه النعمة الكبيرة.[٥٤٦]
- من شعارات أولياء الله أنهم يتحملون أعباء الآخرين.[٥٤٧]
- سعينا للخدمة ولكن جُنْدًا لا قادةً.[٥٤٨]
- لا يمكن للمرء أن يهمل الصغائر مدعيًّا أنه يقوم بالأعمال العظيمة، فالأعمال الصغيرة تصبح كبيرة حين تتراكم.[٥٤٩]

---

٥٤٣ صادق دانا، مجالس الميزاب الذهبي، جـ٤، ١٧١.

٥٤٤ صادق دانا، مجالس الميزاب الذهبي، جـ٤، ١١٦-١١٧.

٥٤٥ صادق دانا، مجالس الميزاب الذهبي، جـ٥، ٥٦.

٥٤٦ صادق دانا، مجالس الميزاب الذهبي، جـ٥، ١٥٨.

٥٤٧ حوارات مع الشيخ موسى أفندي، ص٨١.

٥٤٨ حوارات مع الشيخ موسى أفندي، ص٨٢.

٥٤٩ حوارات مع الشيخ موسى أفندي، ص١٠٥.





يحيى بن معاذ رَحِمَهُ اللَّهُ

- بقدر ما تحب الله تعالى يحبك الناس، وبقدر خوفك من الله يخافك الناس، وبقدر انشغالك بالله ينشغل الناس بأعمالك.

- وإذا سُرَّ المرء باتباعه لأوامر الله تعالى، فإن الكائنات كلها تطلب خدمته بسعادة ورغبة كبيرة، وإذا ذكر المرءُ ربَّه عَزَّ وَجَلَّ وتفكَّر وسُرَّ بذلك فسيجد الطمأنينة والسعادة عبر نظر كل شيء إليه، فتوجَّهْ إذًا بكيانك كله إلى المولى جَلَّ جَلَالُهُ لا إلى سواه ولا تنشغل بنفسك، ولا تتوكل إلا على فضل الله تعالى.(٥٥٠)



مولانا جلال الدين الرومي

- لقد علمني شيخي شمس التبريزي رَحِمَهُ اللَّهُ أمرًا قال فيه:

«إذا كان في هذه الدنيا مؤمن يشعر بالبرد، فلا يحق لك أن تتدفأ. وأنا أعلم أن على وجه الأرض مؤمنين يشعرون بالبرد، فلا أعرف الدفء أبدًا».

- يا أخي، يجب أن تحيا بالتفكر، إنَّ بدنك عبارة عن عظام ولحم وهذا ما تجده في الحيوانات أيضًا، فإن كان تفكرك وردة فأنت في بستان من الورود، أي في جنة الدنيا، وإن كان تفكرك شوكة فأنت حطب في الموقد.

- كن كالكتاب صامتًا حين تلقى جاهلاً.

- حين تحملت الوردةُ الأشواكَ، فاح عبيرها.

- مهما كنت غنيًا فستأكل بحجم معدتك، وحين تغرف من مياه البحر بإنائك فستأخذ ملء إنائك فحسب.

- إذا عادت الأرضُ السماء تُصاب بالقحط، فتموت حينها.

---

٥٥٠ محمد معصوم، المكتوبات، جـ٢، ٨٢، رقم: ١١٠.





- فليعلم من عنده جمال أن جماله مجرد إعارة.
- الدعاء والعبادة أن تكون مع الله تعالى، ومنْ يكن مع الله تعالى فإن الموت والحياة كليهما سعادة بالنسبة إليه.
- حتى الكلاب تشم ما يُرمى لها من عظام وخبز قبل أن تأكلها.
- أيتصور أن البذرة تموت حين تُدفن في التراب، أم أن حياتها بدأت الآن؟
- يرى الكهول في قطعة الآجر ما لا يراه الشباب في المرآة.
- كم من سمكة تكون آمنة من كل شيء في الماء، فتُصاد لطمعها وجشعها.
- أكثِر من زيارة أصدقائك، فالطريق الذي لا تسير فيه، ستغطيه الأشواك.
- الشهوة كالنار لا تخمد طالما أنها تحترق؛ لكنها تخمد إذا لم تعطها ما تطلب، أرأيت نارًا تخمد وأنت تضع فيها الحطب؟ ألن تحرق تلك النار الحطبَ؟



مقتطفات من كتاب «معرفة السعادة»[551]

- يمكن للإنسان أن يطوف دون خجل أمام غيره واضعًا قلبه في كفه.
- أيها الفاني، لماذا تخدع نفسك؟ فأنت مجرد ضيف هنا لبضعة أيام، اعلم أن الحياة من أجل الموت، والموت مستعد للقائك ينتظر أجلك، فلا ترمِ نفسك في النار -مدركًا لذلك- من أجل يومين تُسَرُّ فيهما.
- إن المسافر لا يبني بيته على الطريق، والمهاجر لا يترك أشياءه في منزله إنك ضيف وهذه الدنيا مضافة لك، ولا تُطلب أشياء كثيرة في المضافة.
- لا تكن فظًّا في كلامك مع الناس، فالكلام الفظ كالنار المشتعلة.

---

٥٥١ كتاب يحتوي على حِكم توصل الإنسان إلى السعادة في الدارَين، ألفه يوسف خاص حاجب بين عامي ١٠٦٩/ ١٠٧٠ وقدمه لسلطان الدولة القرخانية. ويعد هذا الكتاب أول مؤلف للأتراك بعد دخولهم الإسلام.





- اللغو في الكلام كالنار المشتعلة، فعليك ألا تُخرج مثل هذا الكلام من فمك، وإلا فإنه سيحرقك.
- أيها السلطان، كُلِ القليلَ واعبد ربك كثيرًا؛ واعمل الفضائل كلها ولكن تكلم قليلاً.
- عليك أن تتحمل أعباء غيرك، ولكن يجب ألا تُحمِّل غيرك حملك؛ ومنْ يُظهر لك الجفاء، فالزم الصمت واظهر له الوفاء.



- أيها الناس، لا أخشى عليكم من عدم قبول دعائكم، بل أخشى أن تهجروا الدعاء. (الحسن البصري)



- كل نعمة لا تقرب من الله ﷻ فهى بلية. (أبو حازم)



- لا تنظر إلى صغر الخطيئة، ولكن انظر إلى عظمة من عصيت. (بلال بن سعد)[٥٥٢]



- إن لم تَشْغَلْ نفسَك بالحق شغلتك بالباطل. (الإمام الشافعي)



- الكِبر كالحجر المربوط على الخاصرة، يمنعك من السباحة والطيران. (الشيخ بيرم ولي)

---

٥٥٢ أبو نعيم، حلية الأولياء، جـ٥، ٢٢٣.





التصوف: حال لا يعرفه إلا مَنْ ذاقه، فمن ذاق عرف.




الخلاصة

يخاطب المولى العظيم نبيه الكريم، ويقول:

﴿**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ**﴾ (الشعراء، ١٩٣ - ١٩٤)

والواضح في معنى الآيات أن القلب هو مهبط العلوم ومستودعها، وتربتها التي تنمو فيها، وبستانها الذي تزدهر في رياضه، فالعرفان -الذي هو أرقى العلوم- لا تظهر حقائقه ولا تنجلي دقائقه ولا تتبدى رقائقه إلا في القلوب الهائمة بالعشق والفياضة بالوجد.

لذلك تُبنى على هذه الحقيقة وجهةُ نظر التصوف التي تقول:

«العلم أمر أساسي وغايته العمل الصالح، وهو مخفيٌّ في سرِّ التعظيم لأمر الله تعالى والشفقة على خلقه تعالى، فإن لم يكن العلم كذلك فما هو إلا عبءٌ لا فائدة منه».

فالعلوم الكتابية الأكاديمية مثل البذور واللقاحات، تبقى على حالها بذورًا لا نبت لها ولا ثمر إذا هي ظلت في مخازنها وأجرانها ولم تعرف طريقها إلى حياتها في باطن الأرض بين أحضان التراب، كذلك العلوم تبقى مجرد حروف في السطور ولا ترقى إلى درجة العلوم إلا إذا خالطت الأفهام والعقول والصدور.





كذلك الحال حين تُزرَع بذور العلوم في تربة القلوب، إذ تصبح هذه القلوب بستانًا روحانيًا تظهر فيها الثمار الحقيقية للعلم والعرفان.

لهذا السبب نزل القرآن الكريم على الصدر المبارك لرسول الله ﷺ، فلم يتلقَّ الصحابة الكرام الأخبارَ والإرشادات الإلهية من السطور، بل من قلب هذا المخلوق النوراني ﷺ، فاستنارت عيونهم وقلوبهم بتجليات كلام الله في ذلك الصدر المبارك، وهي تجليات كثيرة سامية، فانعكست على أرواحهم حقائقُ الإسلام العميقة وأسرارها وحِكمها بكل ما فيها من جمال، فآمن الصحابة الكرام برسول الله ﷺ وبرسالته مُعجبين بشخصيته الاستثنائية التي كانت قرآنًا حيًّا، وغدا الصحابة الكرام كالنجوم التي تدور حول الشمس؛ تعكس أنوارها وترتبط بجاذبيتها وتدور في فلكها.

لذا؛ فإن شعار أهل التصوف هو أن يحيوا بالإسلام في ظلال الروحانية ومدد الفيوضات وكنف النفحات النبوية الربانية، التي لا تزال تمتد من عصر النبوة عبر أولياء الله تعالى في كل العصور، من قلب المصطفى ﷺ منبع الأنوار إلى قلوب الأولياء والمريدين مستودع الأسرار.

إن الفتاوى الدينية من هذا المنظور هي كالدعائم الأساسية للبناء، أما التقوى فهي عناصر الجمال واللطافة التي تُتمِّم تلك الدعائم والتصوف الذي يوحِّد بين هاتين الميزتين من ناحية، نجد أنه من ناحية أخرى لا يوضِّح كمال الأعمال الحسنة والأخلاق الحميدة فحسب، بل يوضِّح أيضًا أسرار الإنسان والحياة والكون، وبذلك يُمكِّن من إدراك المسؤوليات وأداء التكاليف بحكمة أكبر، فالتصوف –من منطلق محبة الله تعالى ومعرفته– نافذةٌ معنوية تسمو بالقلوب إلى الدرجات العليا.

وقد ذكرنا في مواضع عدة من هذا الكتاب أن التصوف هو أن نعيش الإسلام بالإخلاص والتقوى والزهد والإحسان والمراقبة والصدق والتسليم والمحبة.





ومن أعظم مزايا التصوف قدرته على أن يعكس هذه الحقائق شاخصة أمام أنظارنا بعد أن يجلي حقيقتها واضحة في أفهامنا، فيبعث فيها الحياة وينفخ فيها الروح، ويغذوها ويربيها في داخلنا وفق استعدادنا وإمكاناتنا.

وما زال دأب الصالحين والأولياء والعلماء من سلفنا -في حياتهم ومواعظهم- يلحقون هذه الكلمات بكل ما يقولون، وكأنهم جسر ينقل الكلمات من عالم الوعظ إلى عالم الواقع والفعل، فيقولون:

«ما أسهل الكلام وما أيسر الاستماع إليه، لكن ما أصعب إيصاله إلى القلوب، وما أصعب أن تتحرك به الجوارح وتنقاد إليه».

وكان دأب هؤلاء الواعظين العاملين الأخذَ بيد العباد بعد لطافة الاجتماع، ولذة الاستماع إلى جهاد التنفيذ والانصياع، والتنافس في الخيرات، والإسراع والتسابق إلى درجات الكمال.

والكتابة والقراءة من هذا المنطلق سهلة أيضًا، لكن ما أصعب أن يحيا الإنسان بمقتضى ما يُكتب، وأن يجعل الفضائل علامات فارقة في حياته، فكلمة صغيرة مثل «اصبر» لا تُتعِب اللسان الناطق بها، ولا الأذن السامعة، ولا العين القارئة، ولكن حين تُوجَّه هذه الكلمة إلى القلوب المعرَّضة للهموم الكثيرة والمحن العظيمة والاضطرابات الكبيرة والابتلاءات المتعددة وحالات القلق المتنوعة تجد كأنما دخل الإنسان بهذه الكلمة عذابا جديدا، فتراه في كثير من الأحيان يرى الصبر عذابًا فوق العذاب، لكنه لو أدرك حقيقته لوجده مجنة دون سهام الدنيا حتى يصل إلى الجنة، فليس المقصود إذًا معرفة علوم التصوف وتعليمها، بل جعل هذه العلوم منهاجًا وسلوكًا، وإكسير الحياة والسعادة لقلوبنا.

فالله تعالى يقول في القرآن الكريم:

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾

(الملك، ٢) ، ويدعو عباده إلى أداء الأعمال الصالحة.





وإذا ما دققنا في هذه الآية الكريمة، نجد أن الله تعالى لم يقل «أحسنكم تعلمًا» أو «أحسنكم تعليمًا» أو «أحسنكم استماعًا»، بل يوضح حقيقة «أحسنكم في العبودية أي العمل الصالح».

لذا، غاية التصوف الأساسية هي جعل براعم القلب تورق بزمزم العرفان وكوثر التقوى وماء الخلود النابع من العشق والمحبة؛ وإيصال العباد إلى الله تعالى قبل السقوط في الخسران في هذه الدنيا التي ما هي إلا صحراء غفلة.

فمَنْ فهم هذه الحقيقة وعايشها فهم التصوف وعاشه حالا ومقالا، فمما قاله السلف: «التصوف حال، لا يعلمه إلا مَنْ يتذوقه».

إن جوهر ما أردنا قوله في التصوف عبر ما قدمناه من شروحات حتى هذه النقطة هو: العبودية لله تعالى على أفضل وجه، والتحضير الجاد لدار الخلود.

أي إن التصوف هو العبودية على أفضل صورة، فقد خلق الله تعالى الإنسان كي يعبده.

فليس التصوف إذًا إلا إزالة العوائق في طريق العبودية، وتأمين وسائلها.

والتصوف بلسم للجروح، فكم من أرض قاحلة صارت حديقة غنَّاء خضراء بالتصوف، وكم من قلوب خربة صارت قصورًا مشيدة به.

التصوف باختصار: طريق نوراني يوصل العبد إلى ثناء الله ومرتبة: ﴿نِعْمَ العَبْدُ﴾، وذلك أثناء انتقال هذا العبد من عالم الاغتراب الدنيوي إلى عالم الوصال الأبدي.

فبيت القصيد إذًا هو التجرد من الأنا النفسانية والبقاء في حالة المحوية أمام العظمة الإلهية، إن هذا الإحساس إحساس سام يُري العبد عجزه، ويُعلِّمه التوكل على الله تعالى، وبهذا يرتقي القلب إلى ذروة الكمال، فالقلوب التي تعيش في قصر المحوية، لا تقع البتة في الحرمان والمذلة، بل تنال بوقار الدرجاتِ العليا





عند الله تعالى بحسب تمسكها بالتواضع والمحوية، وما أجمل قول الشاعر:

البذرة إذا لم تسقط في التراب لا تنبت

ومَنْ يتواضع فرحمة الله تنمِّيه

اللّهم اجعلنا ممنْ تثني عليهم بقولك: ﴿نِعمَ العَبْدُ﴾!

اللّهم أحيِ برحمتك الواسعة قلوبنا التي سعينا أن نحميها من الأنانية والنفسانية بدخولنا في الفناء أمام حضرتك!

يا رب اجعل أقوالَنا كنيَّاتنا، ونيَّاتِنا كأقوالنا واجعل براعم الحقيقة تتفتح في قلوبنا، تلك الحقيقة التي اجترأنا أن نوضحها بكلامنا وكلماتنا التي هي تجليات صفة كلامك.

يا رب اجعلنا ممنْ تحبهم، وأدخلنا في زمرة الصالحين واحشرنا معهم! ولا تبعدنا عن اتباع حبيبك ورسولك ﷺ! وأكرمنا بشفاعته العظمى!

اللّهم أحسن علينا بالأحوال والأخلاق التي ترضى عنها، ووفقنا دائمًا في الأعمال التي ترضيك يا ذا الجلال والعزة! واجعل أحاسيسنا وأفكارنا موافقة رضاك الذي هو غايتنا ومقصودنا!

اللّهم أبعدنا عن الأحوال والمعاملات التي تبغضها! وأحيِنا على صراطك المستقيم حتى آخر أنفاسنا!

اللّهم يا قادر ويا مقتدر اجعل عملنا المتواضع هذا وسيلة للخير والهداية والحكمة والحقيقة والمعرفة!

آمين...





المراجع

- القرآن الكريم
- ابن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان، مصنف بن أبي شيبة، ت كمال الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤٠٩هـ.
- ابن الأثير، محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، الكامل في التاريخ، بيروت، ١٩٦٥.
- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، صفة الصفوة، القاهرة، ١٤٠٩هـ.
- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، مناقب الإمام أحمد بن حنبل، ت عبد الله بن عبد المحسن التركي، القاهرة، ١٤٠٩هـ.
- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ت: علي محمد عمر، القاهرة، ١٩٩٧.
- ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان، صحيح ابن حبان، ت شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٣.
- ابن حنبل، أحمد بن محمد ، مسند الإمام أحمد، ت شعيب أرناؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٠٠١.
- ابن حنبل، أحمد بن محمد، كتاب الزهد، مكتبة محمد سعيد بسيوني زغلول، بيروت، ١٩٨٦.
- ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ت علي البجاوي، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢.
- ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ت مصطفى العلوي ومحمد البكري، وزارة الأوقاف، المغرب، ١٣٨٧هـ.





- ابن كثير، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، القاهرة، ١٩٩٣.
- ابن كثير، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر، السيرة النبوية، القاهرة، ١٩٦٤.
- ابن كثير، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، بيروت، ١٩٨٨.
- ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، سُنن ابن ماجه، إستانبول، ١٩٩٢.
- ابن محمد علي، محمد باقر، مقامات الشيخ نقشبند، بخارى ١٩١٠.
- ابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب، السيرة النبوية، ت مصطفى السقا وآخران، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر،١٩٥٥.
- أبو القاسم، الرسالة البهائية، مكتبة راشد أفندي بقيصري، رقم: ١١١٠.
- أبو داوود، سليمان بن الأشعث بن بشير السجستاني، سُنن أبى داوود، إستانبول، ١٩٩٢.
- أبو زهرة، محمد، ابن تيمية حياته وعصره وفكره، بيروت.
- أبو زهرة، محمد، أبو حنيفة، قونيا ١٩٥٩.
- أبو زهرة، محمد، الإمام الصادق؛ قونيا ١٩٥٩.
- أبو نعيم، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، بيروت، ١٩٦٧.
- اَدهم جباجي أوغلو،قاموس مصطلحات وتعابير التصوف، أنقرة ١٩٩٧.
- أرايدن، سلجوق، التصوف والطرائق، إستانبول، ١٩٩٤.
- أربيلي، محمد أسعد، مكتوبات، درسعادت ١٣٤٣، مطبعة أحمد كامل؛ الرسالة الأسعدية، درسعادت، ١٩٢٤.
- أرطغرل، إسماعيل فني، وحدة الوجود وابن عربي، إستانبول، ١٩٩١.
- أرغول، آدم، الحياة القلبية، إستانبول، ٢٠٠٠.
- أرموتشو أوغلو، إلهان ، ترجمة قصيدة البردة، قونيا، ١٩٨٣.
- ألباني، محمد ناصر الدين، فهرس الحديث في المكتبة الظاهرية، مجمع اللغة العربية، دمشق.
- أوغلو، محمود سامي رمضان، تفسير سورة البقرة، إستانبول.





- أوغلو، محمود سامي رمضان، الإنسان المكرم، إستانبول.
- أوغلو، محمود سامي رمضان، المصاحبة، دار الأرقم للنشر، إستانبول ٢٠٠٨،
- أوغلو، محمود سامي رمضان، تفسير سورتي يونس وهود، إستانبول ١٩٨٥.
- أوغلو، محمود سامي رمضان، سيدنا إبراهيم عليه السلام، إسطنبول.
- أوغلو، محمود سامي رمضان، سيدنا أبو بكر الصديق، إستانبول.
- أوغلو، محمود سامي رمضان، مجالس العيد، إسطنبول ٢٠٠٥.
- أولوداغ، سليمان، قاموس مصطلحات التصوف، إستانبول، ١٩٩١.
- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، إستانبول، ١٩٩٢.
- البخاري، صلاح الدين بن مبارك، أنيس الطالبين وعدة السالكين، إستانبول ٢٠٠٣.
- برقي، علي همة، شرح مجلة الأحكام العدلية، إستانبول، ١٩٨٢.
- البغدادي، العلامة محمد بن سليمان الخالدي، الحديقة الندية، إستانبول ١٤٠٣.
- البغدادي، خالد، ديوان مولانا خالد البغدادي، ت عبد الجبار كافاك، منشورات الأنصار، قونيا، ١٤٣٠هـ.
- البلاذري، أحمد بن يحيى، بن جابر، بن داود، ت سهيل زكار ورياض زركلي، جمل من أنساب الأشراف، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٦.
- البورصوي، إسماعيل حقي بن مصطفى، روح البيان، دار الفكر، بيروت.
- البيضاوي، أبو سعيد نصر الدين عبد الله بن عمر، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، بيروت.
- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين، السُنن الكبرى، دار الفكر.
- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين، دلائل النبوة، بيروت ١٤٠٥.
- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين، كتاب الزهد الكبير، بيروت، ١٩٩٦.
- پارسا، محمد، رسالة قدسية، دار الأرقم للنشر، إستانبول ١٩٩٨.
- تانوي، شيخ أشرف علي، حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة (التصوف بالأحاديث)، أنقرة ٢٠٠٩.





- الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى، سُنن الترمذي، إستانبول، ١٩٩٢.
- التلمساني، محمد بن موسى بن نعمان، مصباح الظلام في المستغيثين بخير الأنام ﷺ في اليقظة والمنام، بيروت.
- التهانوي، محمد بن علي الفاروقي، كشاف اصطلاحات الفنون، بيروت، ١٨٦١.
- جارودي، روجيه، العهود التي أطلقها الإسلام، ترجمة نزيه أوزل، إستانبول، ١٩٨٣.
- جان، شفيق، ترجمة المثنوي، إستانبول، ١٩٩٧.
- الجرجاني، السيد الشريف علي بن محمد بن علي الزين، كتاب التعريفات، بيروت، ١٩٩٠.
- جولار، زكريا، قيمة مصدرية لأحاديث الوسيلة والتوسل، مجلة (الام) للأبحاث، كانون الثاني–حزيران، ١٩٩٧، مجلد ٢، عدد ١، ص٨٣–١٣٢.
- الجيلاني، عبد القادر ، الفتح الرباني، إستانبول، ١٩٨٧.
- الجيلي، عبد الكريم ،الإنسان الكامل، إستانبول، ١٩٩٨.
- الچرخي، يعقوب، Ney–Nâme (ناي–ناما)، ترجمة: أحمد جاهد حقسوار، دار الأرقم للنشر، إستانبول ٢٠٠٩.
- الحاكم، أبو عبد الله محمد بن عبد الله النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، بيروت، ١٩٩٠.
- حميد الله، محمد، مدخل إلى مؤسسي الإسلام، إستانبول، ١٩٨١.
- الخاني، محمد بن عبد الله، البهجة السنية، إستانبول ٢٠٠٢.
- الخاني، محمد بن عبد الله، الحدائق الوردية، دمشق، ١٤١٧هـ.
- الخرقاني، أبو الحسن علي بن أحمد البسطامي، نور العلوم، كارس ٢٠٠٤.
- الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن، سُنن الدارمي، إستانبول، ١٩٩٢.
- دانا، صادق، سلطان العارفين الشيخ محمود سامي رمضان أوغلو، دار الأرقم للنشر، إستانبول ٢٠٠٤.
- دانا، صادق، مجالس ألتن أولوق، دار الأرقم للنشر، إستانبول ٢٠٠٩.





- دهلوي، عبد الله، المقامات المظهرية، المكاتب الشريفة، إستانبول، ٢٠٠١.
- دوالليي أوغلو، فريد، المعجم الموسوعي للغتين العثمانية والتركية، أنقرة، ١٩٩٧.
- دوغرول، عمر رضا، التصوف الذي طوره الإسلام، إستانبول، ١٩٤٨.
- الديلمي، أبو شجاع شيرويه بن شهردار، الفردوس بمأثور الخطاب، ت السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦.
- الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز، تاريخ الإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤١٣هـ.
- الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز، سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٨.
- الرازي، أبو عبد الله فخر الدين محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين، مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، بيروت، ١٩٩٠.
- الرباني، أحمد الفاروقي السرهندي، مكتوبات الإمام الرباني، دار ياسين للنشر، إستانبول ٢٠١٠.
- الرفاعي، أحمد ، حالة أهل الحقيقة مع الله، بيروت ١٤٣٠.
- الروداني، محمد بن محمد بن سليمان بن الفاسي بن طاهر السوسي، جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزَّوائِد، ترجمة نعيم أردوغان، إستانبول، ١٩٩٦.
- الزرقان، محمد صالح، فخر الدين الرازي وآراؤه الكلامية والفلسفية، بيروت، ١٩٦٣.
- الزنداني، عبد المجيد، المعجزات العلمية في القرآن، إستانبول، ١٩٩٥.
- السبكي، تقي الدين أبو الحسن علي، شفاء السقام في زيارة خير الأنام، المكتبة العصرية، بيروت ١٤٣١.
- السرهندي، بدر الدين، حضرات القدس، مكتبة فاشه بأوزبكستان، رقم: ٧٦.
- السكندري، ابن عطاء الله ،الحكم العطائية، أنقرة، ١٩٦٣.
- سهلجي، محمد بن علي، النور من كلمات أبي طيفور، (ضمن شطحات الصوفية لعبد الرحمن بدوي)، القاهرة، ١٩٤٩.





- السيوطي، أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبو بكر، الجامع الصغير، مصر، ١٣٠٦.
- السيوطي، أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبو بكر، تاريخ الخلفاء، مصر ١٣٨٩.
- السيوطي، أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبو بكر، شرح ابن ماجة، كاراتشي.
- السيوطي، أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبو بكر، شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور، إستانبول، ١٩٨٦.
- شانتاي، حسن بصري ، القرآن الحكيم ومآله الكريم، إستانبول، ١٩٩٦.
- الشيرازي، سعدي، بستان، إستانبول، ١٩٩٥.
- صاحب، أسعد، بغية الواجد في مكتوبات حضرة مولانا خالد، دمشق ١٣٣٤.
- الصنعاني، أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني، المصنف، ت حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٣هـ.
- طاتلي، علي جان ،الدنيا ونعمها من منظور الزهد، إستانبول، ٢٠٠٥.
- الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير ،المعجم الكبير، القاهرة ١٩٨٣.
- الطبري، أبو العباس أحمد بن عبد الله بن محمد، الرياض النضرة في مناقب العشرة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦.
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، بيروت، ١٩٩٥.
- طوبَّاش، عثمان نوري، كليات، دار الأرقم للنشر- إسطنبول.
- طوبشو، نور الدين، مولانا والتصوف، إستانبول، ١٩٩٨.
- الطوسي، أبو نصر السرَّاج، اللمع، إستانبول، ١٩٩٦.
- عباس، قاسم محمد، أبو يزيد البسطامي، المجموعة الصوفية الكاملة، دمشق ٢٠٠٤.
- عبد الأول، مير، المسموعات، إستانبول ١٩٩٣.
- العجلوني، إسماعيل بن محمد بن عبد الهادي ، كشف الخفاء ومزيل الإلباس، عبد الحميد بن أحمد بن يوسف بن هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت،٢٠٠٠.
- عز، ماهر، آثار السنين، إستانبول، ١٩٧٥.





- عز، ماهر، التصوف، إسطنبول، ١٩٦٩.
- العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، مصر، ١٣٧٩.
- العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر، المنبهات، إستانبول، ١٩٦٠.
- العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر، هدي الساري مقدمة فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار الفكر، نشره فؤاد عبد الباقي.
- العطار، فريد الدين، تذكرة الأولياء، إستانبول، ١٩٨٥؛ إستانبول ٢٠٠٧.
- عياض، القاضي عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، مصر ١٩٩٥.
- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت، ١٩٩٠.
- القاري، أبو الحسن نور الدين محمد الملا الهروي، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، بيروت ١٤٢٢.
- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، بيروت، ١٩٨٥.
- القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك، الرسالة القشيرية، بيروت، ١٩٩٠.
- كارا، مصطفى، حركات التصوف في أيامنا بنصوصها، إستانبول، ٢٠٠٢.
- الكاساني، أحمد ،آداب السالكين، مكتبة جامعة إستانبول، المخطوطات الفارسية، رقم: ٦٤٩.
- الكاشفي، علي بن حسين الواعظي، رشحات عين الحياة، طهران، ١٩٧٧، وإستانبول ٢٠١٠.
- الكشمي، محمد هاشم، البركات الأحمدية (زبدة المقامات)، كانبور ١٨٨٩.
- الكشمي، محمد هاشم، بركات (الإمام الرباني ومن سار على طريقه) إستانبول، ١٩٨٠.
- الكشمي، محمد هاشم، نسمات القدس من حدائق الأنس، طهران، ١٩٩٦.
- الكلاباذي، تاج الإسلام أبو بكر محمد بن إسحاق بخاري، التعرف لمذهب أهل التصوف، إستانبول ١٩٩٢.





- كيساكورك، نجيب فاضل، رشحات (شيخ صفي الدين)، إستانبول، ١٩٥٥.
- كيساكورك، نجيب فاضل، من جيش الأولياء، إستانبول، ١٩٧٦.
- اللجنة، موسوعة الأولياء، إسطنبول ١٩٩٢، صحيفة تركيا.
- لهبابي، محمد عزيز، الشخصانية الإسلامية، إستانبول، ١٩٧٢.
- مالك، مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي، الموطَّأ، إستانبول، ١٩٩٢.
- مجددي، رؤوف أحمد، در المعارف، إستانبول ١٩٩٨.
- محمد أفندي، مجدي، حدائق الشقائق، إستانبول، ١٨٥٣.
- المزِّي، أبو الحجاج جمال الدين يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف، تهذيب الكمال، ت بشار عواد، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٠هـ.
- مسلم، أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري، صحيح مسلم، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، إستانبول، ١٩٩٢.
- مسلم، أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري، صحيح مسلم، ترجمة أحمد داوود أوغلو، إستانبول، ١٩٧٩.
- مصر أوغلو، قدير، الكليات، دار السبيل للنشر، إسطنبول.
- المقدسي، عز الدين عبد السلام، حل الأسرار ومفاتيح الخزائن، إستانبول، ٢٠٠١.
- ملا جامي، نفحات الأنس، إستانبول، ١٩٨١.
- مناقب الشيخ عبيد الله أحرار، مكتبة بايزيد العامة، قسم بايزيد، رقم: ٣٦٢٤.
- المناوي، زين الدين محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي، فيض القدير شرح الجامع الصغير، بيروت، ١٩٩٤.
- المنذري، أبو محمد، زكي الدين، عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله، الترغيب والترهيب، القاهرة، ١٩٣٤.
- المولوي، طاهر، شرح المثنوي، إستانبول، ١٩٧٣.
- الندوي، أبو الحسن علي، الإمام الرباني، إستانبول ٢٠٠٥.
- النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي، سُنن النسائي، إستانبول، ١٩٩٢.





- النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف، رياض الصالحين، بيروت؛
- النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف، شرح صحيح مسلم، مصر، ١٩٨١.
- نيازي، محمد، محشر شاناك قلعة، إستانبول، ١٩٩٩.
- الهجويري، كشف المحجوب، مكتبة الإسكندرية.
- الهيثمي، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، بيروت، ١٩٨٨.
- الهيثمي، شهاب الدين أحمد بن حجر، الخيرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان، بيروت، ١٩٨٣.
- الواقدي، محمد بن عمر، المغازي، مصر، ١٩٤٨.
- يازير، ألماليلي محمد حمدي، دين الحق لسان القرآن –تفسير القرآن، إستانبول، ١٩٧١.
- يلماز، حسن كامل ،التصوف والطرق بخطوطها الأصلية، إستانبول، ٢٠٠٠.





المحتويات





الفصل الثاني





الفصل الثالث













الفصل السابع





